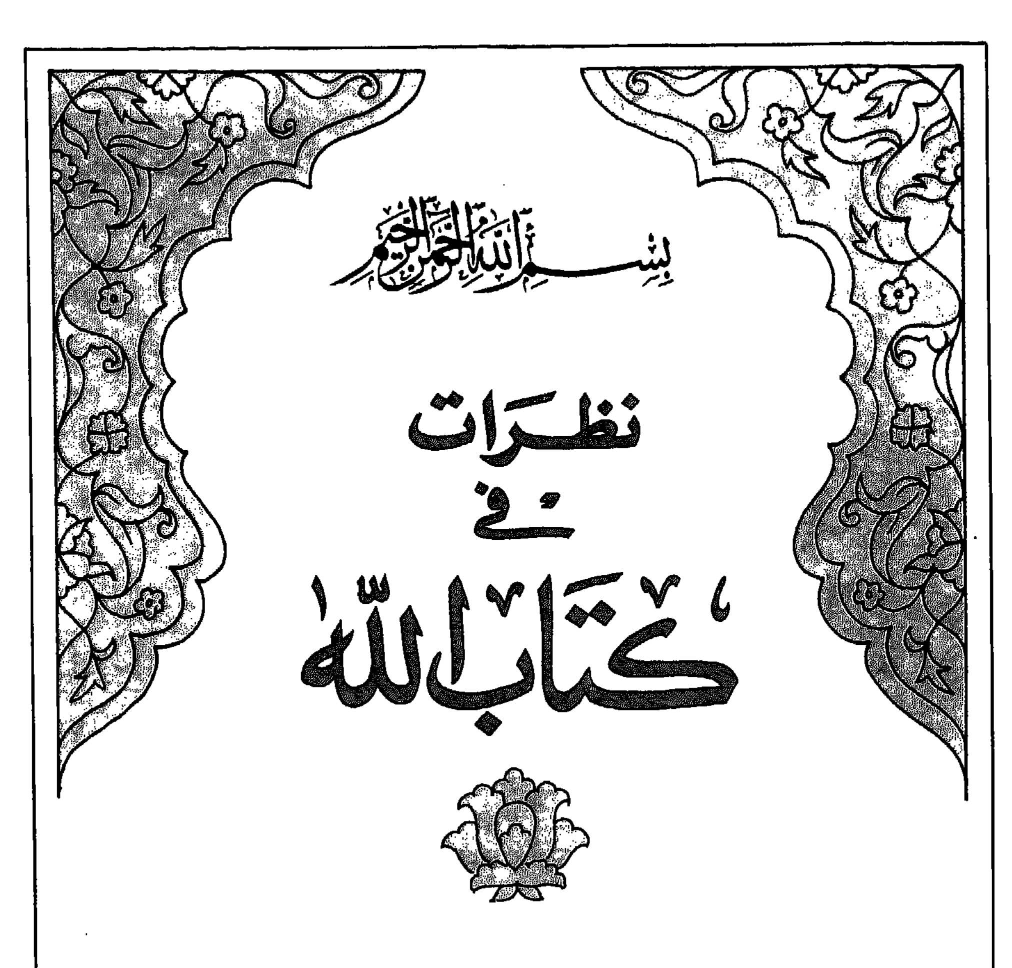


نظرات في كتاب الله

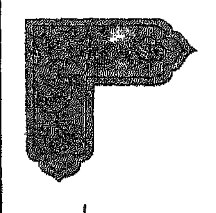
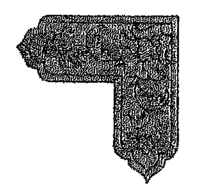
زينب الغزالي الجبيلي

مراجعة وتقديم

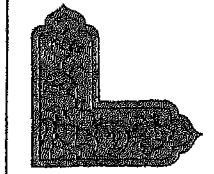
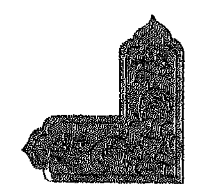
د. عبد الحي الفرماوي

المجلد الأول

دار الشروق

نظرات في كتاب الله

دار الشروق

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ ـ تلكس : SHOROK 20175 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله ومن والاه .

أما بعد :

فقد عاشت الداعية المجاهدة « زينب الغزالى » ، « مع كتاب الله » تعالى ، حياتها ـ بحلوها ومرها ـ تتلوه ، وتستمع إليه يُتْلى ، وتقرأ مايعينها على فهم مراد الله تعالى فيه ومنه ، وتلزم نفسها ، وتكيِّف واقعها على الالتزام بهذا الذى فهمت .

وأكسبها ما كانت تتلوه ، وتستمع إليه ، وتقرأ حوله ، وتلزم نفسها به : خشوعا فى قلبها ، ونورا فى بصيرتها ، وسلامة فى فهمها ، وصوابا فى التزامها .

كما أكسبها ذلك : رغبة جيَّاشة صادقة ، فى تقديم مافهمت ، وتبسيط ماوجدت فى كتاب الله تعالى من نور وهداية ، إلى السيدات المسلمات ، وقد كان . . فى الفترة من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٦٤ ، ثم إلى الأخوات المسلمات ، وقد كان . . فى الفترة من عام ١٩٦٤ إلى الآن . وماتزال الداعية المجاهدة ـ حتى ساعة كتابة هذه السطور ـ تقدم ، وتبسّط ، وتفيض ، وتفيد ، فى : دروس ولقاءات ؛ ليفهمنْه كما فهمته هى ، وليسعدْن به كما سعدت هى ، ولينتج هذا الفهم لهنَّ ـ مع الرغبة الصادقة ، وتوفيق الله ـ التزاما واعيا ، مثمرا ، منقذًا ، كما أنتج لها .

* * *

وقد حقق الله تعالى - لإخلاصها وصدقها - ماأرادت ، منذ أن عاشت هى والسيدات المسلمات، ثم هى والأخوات المسلمات « مع كتاب الله » تعالى ، فترات طويلة فى جلسات تحفها الملائكة حول مائدة القرآن العظيم .

* * *

كانت الداعية المجاهدة : تقرأ فى كتاب الله ، خلال هذه الجلسات ، فتنثال عليها الخواطر من العليم الحكيم ؛ ومن ثم تنسكب فى قلوب من يستمع لها أنوار الفهم لهذا الكتاب الكريم الخالد ، وتنشرح لشرحها له الصدور ، وتستجيب خاضعة - بالالتزام - لربها : القلوب والعقول والصدور والأبدان ، ويحاول كل مستمع بنفسه وفى نفسه ولنفسه ، ومع إخوانه ، أن يقيم صرح هذا الدين : بحسن إدراك ، وسعة فهم ، وإخلاص قصد ، وصحة سلوك .

* * *

وقد طُلِب منى أن أقوم بمراجعة هذه الخواطر التى سجلتها الداعية الكبيرة وهى تعيش « مع كتاب الله » نظرا إلى أن تخصصى فى تفسير القرآن الكريم وعلومه الشريفة . وكدت أعتذر عن ذلك، لاعتلال صحتى وضيق وقتى ، لولا تقديرى للداعية المجاهدة وحرصى على أن ترى هذه المعايشة الصادقة « مع كتاب الله » النور ؛ ليستفيد منها المسلمون والمسلمات على أوسع نطاق وأدْوَمه .

* * *

ومن اللازم فى هذا التقديم : أن نحيط القارئ علما بالمنهج الذى تقوم عليه هذه المعايشة، والذى يتجلى - باختصار - فى النقاط التالية :

١ - شرح - الداعية المجاهدة - للآيات ، وكشفها لمعانيها ، بعبارات سهلة ، وأسلوب واضح ، لاغموض فيه ولا غرابة ولا إبهام .

٢ ـ ربط معانى القرآن الكريم وأحكامه بواقعنا الذى نعيشه ، فى محاولة ـ صادقة ـ لتقويم هذا الواقع على هدى هذه الأحكام ، وفى إطار هذه المعانى ، وفى محاولة ـ صادقة ـ دائبة لعلاج أمراض المجتمع ، عن طريق إبراز هذه المعانى ، وتلك الأحكام ، والأخذ بأيدى المسلمين ، أفرادا وجماعات ـ مع هذا التقويم ، وذاك العلاج ـ لربط حياتهم بهذه المعانى ، وإسعادهم عن طريق الالتزام بهذه الأحكام .

٣ ـ التركيز الشديد على الجانب العملى فى الإسلام ، والذى يقوم على :

(أ) بناء الفرد المسلم ، على أساس : فهم سليم ، ومعرفة واسعة شاملة لهذا الدين ، وثقة به عقيدة وشريعة ، والتزام به ، وتطبيق له . كل ذلك : بخلق قويم ، وعاطفة نبيلة ، يصطبغ بهما عمله وكل تصرف له .

(ب) بناء البيت المسلم ، فى تكوينه ، وفى تسْييره ، وفى تقويمه ، على أساس من : عقيدة سليمة ، وخلق قويم ، وعواطف صادقة ، بما يعين أفراده على السكن فى حياتهم ، ويشيع المودة بينهم فى تعاملاتهم ، ويظلِّلهم بالرحمة ، ولو كان فى خصوماتهم .

(جـ) تكوين الأمة المسلمة ، التى يُبْنَى أفرادُها ، وتتكون أسرها على الأسس والمعانى السابقة .

كل ذلك ليكون للدعوة حصاد ، وللإسلام وجود ينمو ويتحرك ويتقدم عملاقا ، يبدِّد الجهل ، ويحارب الظلم ، وينشر العدل ، ويشيع الأمن ، ويخرج الناس من ظلمات الأرض وعبادة طواغيتها والخضوع لمادياتها ، إلى نور الإسلام ، وحرية العبادة لرب السموات والأرض ، والتعالى على ماديات الحياة ، وأرجاسها ، وأدناسها ، فى ظل وجود الدولة الإسلامية .

٤ ـ الدعوة القوية إلى إحياء فرائض الاسلام الغائبة ، من مثل :

(أ) الحكم بما أنزل الله ، والعمل بما شرع إنقاذًا للعباد وإحياءً لهم . وتربط الداعية المجاهدة بين مايعانيه المسلمون فى واقعهم ، من تخلف وهوان ، وبين إهمالهم

تحكيم شرع الله فيهم . ويحسُّ القارئ بلوعة الداعية المجاهدة لتغْييب ما أنزل الله من تشريع عن حياتنا وأحكامنا وأنظمتنا التربوية والاجتماعية والاقتصادية والتشريعية . . إلخ . كما يشعر - مع ذلك - بثقتها المطمئنة بأن الله تعالى سيغمر أتْباع هذا الدين برحمته ، ولن يتخلى عن إسباغ نعمته عليهم بتمكينهم من العمل بشرعه ، والتزامهم بهديه ، مهما حِيل بينهم وبين ذلك .

(ب) وجوب الجهاد فى سبيل الله تعالى ؛ لجعل كلمة الله هى العليا ، وإزالة العوائق من طريق تبليغها ، ونصرة الإسلام وأهله ، والذَّوْد عن حياضه ، بوعى ، وعلم ، وامتلاك للقدرة المؤهلة لذلك ؛ لتعود للإسلام دولته ، ويأخذ المسلمون دورهم فيما يحقق خيريتهم من : إيمان بالله تعالى ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر بعز واقتدار، يمكنهم من كلمة الحق تُقال ، والنصيحة المخلصة الواعية تُقدَّم . ونلحظ هنا بجلاء : ثقة الداعية المجاهدة الواضحة القوية بانتصار الإسلام وأهله ، واندحار الباطل وجيشه .

٥ - الإكثار من التوجه إلى الله تعالى بالحديث المباشر ، والدعاء إليه تعالى - بقلب مُفْعَم بالإيمان ، واثق بالإجابة - عقب آيات الوعد ، والاستعاذة عقب آيات الوعيد .

٦ - اعتماد الداعية المجاهدة على الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تستشهد به منه فى معايشتها « مع كتاب الله » تعالى . واستشهادها بالحديث النبوى قد يكون لبيان معنى الآية وتوضيحها ، كما قد يكون لضرب المثل بالحديث الشريف المقرِّب لمقصود الآية ومعناها . كما قد يكون - كذلك - لزيادة الأنْس والإمتاع ، ببيان تعانُق الحديث الشريف والآية الكريمة حول المعنى المطروح فى الآية القرآنية .

وقد اقتضى إبراز هذا الهدف ، والمحافظة على هذا المنهج ، وتوضيح هذه المعايشة، تجنيب القارئ الدخول فى كثير من القضايا والمسائل التى عنى بها كثير من المفسرين ، بل التى كانت تصطبغ بها - أحيانا - تفسيراتهم .

وهكذا ، وصلت معايشة الداعية المجاهدة « مع كتاب الله » تعالى : إلى ماأرادتْ لها صاحبتها أوكادت ، كما لبست هذه المعايشة ـ كذلك ـ ثوبا قشيبا ترفع به هامتها ، وتحدِّدُ به مكانتها بين رفوف مكتبة القرآن الكريم ، الرفيعة المنزلة ، العالية القدر .

* * *

وأضرع إلى الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن يجعله : مرشدا لهديه ، نافعا لعباده ، وزادًا لنا ﴿ يوم لاينفع مال ولابنون * إلا من أتى الله بقلبْ سليم﴾[1] .

د . عبد الحى الفرماوى
أستاذ التفسير بجامعة الأزهر

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

« مع كـتاب الله »

إن كتاب الله هو كلمة الله الأخيرة على خاتم رسله محمد ﷺ . ولقد كان لى معه جلسات وجلسات أسأل الله أن يتقبلها عنده . لقد عايشت آياته أيام خلوتى مع الله ، فى السجن ؛ فالسجن لأصحاب الدعوات خلوة . وما أعذبها من خلوة حينما ينقطع الإنسان عن الدنيا بكل زخارفها وشواغلها ، ويعيش مع الله ، مع آياته يسْبح فى رحابها بقلبه وروحه فيسمع ربه يحدثه بآياته بلا حائل ، فيقطف من ثمارها بقلبه معانى وأسرارًا وفيوضا نورانية تجلى ظلمة القلوب .

نعم ، عشت ـ بفضل الله تعالى ـ مع آيات الله وعايشتها وعشقت أنغامها ، وفتح الله تعالى لها قلبى ـ بفضله وحده ـ فتمعنتها بكل ذرات جسدى حتى ذبت بين آياته بقطرات دمع تستجدى البر الرحيم أن يرحم قلبًا ضعيفًا مسكينًا فقيرًا إلى رحمته وعفوه ، « فلن يدخل أحد الجنة بعمله إلا أن يتغمده الله برحمته » . فيا ألله يا أرحم الراحمين تغمدنا برحمتك وأدخلنا فى زمرة عبادك الصالحين .

نعم ، عشت ـ بفضل الله ـ لحظات مع كتاب الله ـ فما أحلى أوقات الطاعة ، مهما طالـت فهى قصيـرة ـ فكانت لحظات عذبة حلوة تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة . وأحببـت أن يعيـش معى أبنـائى وبناتى على طـريق الدعـوة هذه اللحظـات وهـذه الأشواق، فيسر الله لى كتابة هذه الصفحات (مع كتاب الله) راجية من الله العلى القدير أن يتقبله فى ميزان حسناتى وأن ينفع به .

ولقد كانت عدتى فى تسطير هذه الصفحات ما علق بذاكرتى ، مما سطرته فى

السجن على هامش مصحفى وبين سطوره ، مما كان يفيض على خاطرى وقلبى وأنا أعيش فى رحاب آياته سبحانه وتعالى .

وتزودت من زاد علمائنا السابقين ممن توفّروا على تفسير كتاب الله ؛ فتتلمذت على القرطبى فى تفسيره ، وعلى الحافظ ابن كثير وكان لى معه أشواق وأشواق ، وعلى الألوسى وأبى السعود والقاسمى والأهوازى ، وعشت فى ظلال الشهيد سيد قطب رحمه الله .

وأخذت أراجع فى السنة ما وسعنى جهدى ، فهى خير مفسر لكتاب الله ، وكل من كتبوا فى التفسير من علمائنا الأفاضل كانوا يحومون فى رحابها وينهلون من معينها .

وكانت أكثر جلساتى مع كتاب الله بين صفحات ابن كثير ، فأخذت علىَّ لُبى ، فكنت أطالع ما سطره وكأنى أنظر إليه وحبات النور تتلألأ فى جبينه وتتفجر من ثناياه .

فهل رأيت حلقات العاشقين الهائمين حول كتاب الله ؟

إن شئتها فاجلس وخل قلبك عن الأغيار وعش مع ابن كثير وهو يسطر بقلم من نور تفسير القرآن العظيم .

إنه يأخذك من دنياك لتعيش مع رسول الله ـ ﷺ ، ومع صحابة رسول الله وهم يقتدون بهديه فهو زعيمهم الأوحد وأسوتهم العليا ـ صلى الله عليه وسلم . ما أحوجنا ونحن فى عصر تكاثفت فيه الفتن علينا ـ وعلينا وحدنا نحن المسلمين ـ للعودة إلى كتاب الله ، فيكون لنا زادًا لدنيانا وأخرانا .

ما أحوجنا للعودة إلى كتاب الله ليكون لنا منهاجًا لسلوكنا وحياتنا كلها . ما أحوجنا للعودة إلى كتاب الله ليكون للأمة دستورًا فى جميع شئونها . فنسعد فى رحاب القرآن ، وننعم فى حكمه ، فهى نعمة لا تفضلها نعمة . إنه فى رحاب حكم القرآن تحل الأزمات المعقدة .

فى رحاب حكم القرآن تتربى الأمة على هدى ربها .

إن القرآن ما نزل على رسول الله ـ ﷺ ـ إلا ليكون دستورًا لحياة البشرية إلى يوم القيامة **﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾** .

تأمل معى : **﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم . . ﴾** (ليحكم) لا ليهجر .

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلِّموا تسليما ﴾ تأمل معى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك . . . ﴾ .

وإن ما يسر الله لى كتابته « مع كتاب الله » خطوة نحو العودة إلى كتاب الله . نسأل الله تعالى أن يجعلها خطوة مباركة ، وأن يتقبلها عنده ، وأن ينفع به كل من قرأه أو ساهم فى إخراجه للمسلمين ، ويجعل عملهم هذا ذخرًا لهم يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وصلى الله على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

زينب الغزالى الجبيلى



فاتحة الكتاب هى أول سورة نزلت مكتملة بآياتها السبع ، وهى سورة جامعة . فى آياتها مقاصد القرآن كلها من عقيدة وتشريع وقصص، وذلك فى إجمال بليغ جامع . ففى آياتها القليلة القصيرة بيان شافٍ للتوحيد والتوكل والبراء من المشركين والضالين والمعطلين أحكام الله تعالى عن العمل بها .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ
يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا
ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذى أقام ببعثة محمد ـ ﷺ ـ خير الأمم وأنزل عليه خير كتاب وافتتحه بخير سورة هى أم القرآن ، الشافية ، الواقية ، الرقية ، الكنز، التفويض ، المناجاة ، النور . كل ذلك أسماء للسورة العظيمة أم الكتاب . « الحمد لله» الذى أنعم على أمة رسوله ـ ﷺ ـ فاختار منهم حفظة لكتابه وورثهم حفظه وتفسيره وبيان غاياته ومقاصده .

فالعلماء ورثة الأنبياء ؛ فهم يشرحون للناس ما غمض عليهم ، ويبينون أحكامه ، حلاله وحرامه ، محكمه ومتشابهه . فالمؤمنون يحيون به وله فى الدنيا ، ويحيون فى حياة أبدية فى الجنة .

سورة الفاتحة

إنه كتاب مبين افتتح بأعظم سورة فى القرآن .

عن أبى سعيد بن المعلى ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت أصلى فدعانى رسول الله ـ ﷺ ـ فلم أجبه حتى صليت فأتيته فقال ما منعك أن تأتينى ؟

قال قلت : يا رسول الله كنت أصلى . قال : ألم يقل الله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ ؟

ثم قال لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد . قال فأخذ بيدى فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لى لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قال : نعم « الحمد لله رب العالمين » هى « السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته »[1] .

ولما كانت الصلاة قد فرضت فى مكة فى ليلة الإسراء والمعراج ، فقد أجمع العلماء على أن فاتحة الكتاب مكية حيث نزل قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآنَ العظيم**﴾ من سورة الحجر[2] وهى مكية .

وقد اشتملت هذه السورة العظيمة على اسم الله الأعظم (الله) ، ثم جمعت من أسمائه الحسنى (الرحمن ، الرحيم ، الملك) . والأسماء الثلاثة الأول افتتحت بها السورة ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين** ﴾ ثم جاء الوصف ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ ثم جاء الإعلان لأن ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ هو ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ .

﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة . ﴿ **الحمد لله** ﴾ الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها عدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد . . والرب هو المالك المتصرف . و ﴿ **العالمين** ﴾ جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله عز وجل . ﴿**يوم الدين** ﴾ يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم إن خيرًا فخير ، وإن شرًّا فشر ، إلا من عفا عنه . ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ الأول تبرؤ من الشرك ، والثانى تبرؤ من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل ؛ أى لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة .[3]

---

(١) رواه البخارى كتاب التفسير تفسير سورة الفاتحة وتفسير سورة الحجر .
(٢) الآية : ٨٧ . (٣) انظر ابن كثير : ١ / ٢٥ .

عندما يستغرق الإنسان فى مشاهد ﴿ **يوم الدين** ﴾ وموقف الناس والأمم فى هذا اليوم العصيب ﴿ **يوم لا ينفع مال ولابنون * إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ ، ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ ، يوم تنشر الصحف ﴿ **وإذا الصحف نشرت** ﴾ ، يوم توضع الموازين ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئًا . . .** ﴾ ـ يجول المسلم بقلبه فى ساحات ومواقف هذا اليوم ، فتستغرقه يقظة فى القلب وصحوة فى الضمير، توقفه ليسائل نفسه ويحاسبها ، فيجد نفسه تهتف من أعماقها : يارب يا مالك الدنيا والآخرة يامالك يوم الدين ، ﴿**اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ، فارزقنا إيمانًا يملأ جنبات حياتنا وارزقنا عملا صالحًا يرضيك عنا . ارزقنا صلاة تصلنا بجلالك . ارزقنا زكاة نخرجها تزكو بها نفوسنا وأموالنا . ارزقنا شهادة فى سبيلك وفى سبيل دعوتك وتحكيم كتابك فهو الصراط المستقيم .

إنه يمتثل لأمر الله ونهيه ، إنه يسمع كلام ربه وكأنه ينزل عليه هو ليحققه فى نفسه ويقوم به فى الناس . إنه يخترق الحجب بقلبه وروحه ـ لأنه على الصراط المستقيم ـ ليشهد ملائكة الله تسبح وتكبر فيشعر أن الكون كله معه وأنه ليس وحده ، بل يسير معه على الدرب عباد الله كثيرون ، وملائكة لله لا يعلم عددهم إلا خالقهم .

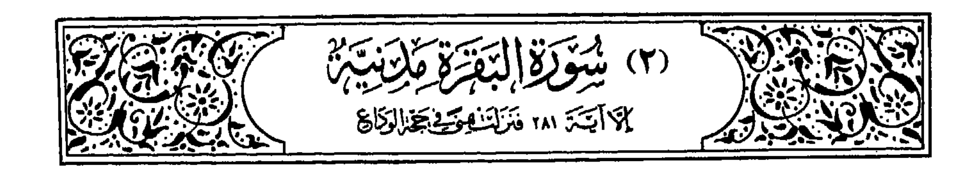
فالهداية هى الإرشاد والتوفيق . و ﴿ **الصراط المستقيم** ﴾ هو الطريق الواضح الذى لا عوج فيه . و ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ مفسر للصراط المستقيم . والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون فى سورة النساء ﴿ **من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا** ﴾ .[(١)]

وتختتم السورة بالبراء ، من ﴿ **المغضوب عليهم** ﴾ وهم الذين غضب الله عليهم لمعرفتهم الحق ، ثم حيدتهم وانحرافهم عنه . وكذلك : من ﴿ **الضالين** ﴾ وهم الذين ضلوا عن الحق ، فلم يهتدوا إليه أصلاً [(٢)] . ومع هؤلاء وهؤلاء : كل من يسير فى ركابهم من الذين خالفوا الإسلام ، طريق « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

---

(١) آية : ٦٩ .

(٢) انظر : فى ظلال القرآن (بتصرف يسير) .



بسم الله الرحمن الرحيم

الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ
مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور ؛ فمنهم من قال هى مما استأثر الله بعلمه ، ومنهم من فسّرها ، واختلف هؤلاء فى معناها . « وقد وردت فى تفسيرها وجوه كثيرة ، نختار منها وجها . إنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف ، وهى فى متناول المخاطبين به من العرب ؛ ولكنه ـ مع هذا ـ هو ذلك الكتاب المعجز ، الذى لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله . . الكتاب الذى يتحداهم مرة ومرة ومرة أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، فلا يملكون لهذا التحدى جوابا !

« والشأن فى هذا الإعجاز هو الشأن فى خلق الله جميعا . وهو مثل صنع الله فى كل شىء وصنع الناس . إن هذه التربة الأرضية مؤلفة من ذرات معلومة الصفات ، فإذا أخذ الناس هذه الذرات ، فقصارى ما يصوغونه منها لبنة أو آجرة ، أو آنية أو أسطوانة ، أو هيكل أو جهاز ، كائنًا فى دقته ما يكون ، ولكن الله المبدع يجعل من تلك الذرات حياة ، حياة نابضة خافقة ، تنطوى على ذلك السر الإلهى المعجز ، سر الحياة ، ذلك السر الذى لا يستطيعه بشر ، ولا يعرف سره بشر . وهكذا القرآن . . حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلامًا وأوزانًا ، ويجعل منها الله قرآنا وفرقانًا . والفرق بين

صنع البشر وصنع الله من هذه الحروف والكلمات ، هو الفرق ما بين الجسد الخامد والروح النابض . . هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة ! » [1] .

وبعد أن قال الحق تبارك وتعالى « الٓمٓ » للإعجاز ابتداءً : يعقب ذلك بالإشارة إلى موطن الإعجاز ألا وهو القرآن الكريم ، فيقول تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه** ﴾ أى : لا شك فيه ، إذْ لا يختلط به الباطل . إنه عين الصدق والحق ، وهو الحقيقة الواضحة، الناطقة بحقائق هذا الوجود ، وذلك الكون ، جاء بها هذا الكتاب يسطع بالنور ، ويبرهن على القدرة ، ويعلن عن الحكمة ، ويصدر عن الأمانة ، ويبسط آياته لبيان عظمة الخالق جل وعلا .

ولكى يكون القرآن لا ريب فيه على مر العصور : تكفل الله وحده بحفظه .

قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

وإذا كانت جميع الكتب السماوية ـ قبل القرآن ـ لم تسلم من التحريف والتبديل ، فإن القرآن يبقى وحده ، فريدًا ، سالمًا من أى تبديل أو تحريف .

يقول الشيخ محمد الغزالى ، فى معنى ذلك « نحن نوقن بأن القارات الخمس لاتحوى سجلاً للوحى الأعلى إلا فى هذا الكتاب العزيز » [2] .

إن الله تبارك وتعالى يهدى بكتابه هذا الذين اتقوه : ﴿ **يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ** ﴾[3] .

ومعنى التقوى هنا اتقاء العذاب بالطاعة والامتثال . ويستحيل أن يتقى الإنسان ربه إلا إذا عرفه حق المعرفة .

فالتقوى ثمرة المعرفة الحقيقية التى تعلو إلى مرتبة الشهادة القلبية ، كما أراد الله تعالى منا فى قوله تعالى: ﴿ **يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامنُوا اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلا وَأَنتُم مُّسلِمُونَ** ﴾ [4].

ويقول ـ ﷺ ـ : « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به ، حذرًا لما به بأس » [5] .

---

(١) فى ظلال القرآن : ١ / ٣٨ .
(٢) دستور الوحدة الثقافية : ص ٢٧ .
(٣) المائدة : ١٦ .
(٤) آل عمران : آية ١٠٢ .
(٥) رواه ابن ماجه ، كتاب الزهد باب الورع والتقوى ، ورواه الترمذى فى السنن كتاب صفة القيامة ، باب١٩ وقال : «حسن غريب» !

وسأل عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أبى بن كعب عن التقوى ، فقال له أما سلكت طريقًا ذا شوك ؟ قال : بلى .

قال : فما عملت ؟

قال : شمرت واجتهدت .

قال : فتلك التقوى .

ووصفها على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بأنها : « الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، والرضا بالقليل » .

وجاء فى فضل التقوى عن عبد الله بن عمرو . قال : « قيل يا رسول الله ـ ﷺ ـ أى الناس أفضل ؟

قال : كل مخموم القلب ، صدوق اللسان .

قالوا : صدوق اللسان نعرفه فما هو مخموم القلب ؟

قال : هو التقى النقى ، لا إثم فيه ولا بغى ، ولا غل ، ولا حسد »[1] .

هذه هى التقوى التى تجعل المسلم يحب ربه ، ويخافه فى الوقت نفسه ، فيتحرى الطاعة ، فلا يفتقده الله حيث أمره ، ويخشى المعصية ، فلا يراه الله حيث نهاه ، وتلك منزلة المتقين ، الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه ، يخافون أن يمسهم غضب من ربهم ، فيحذرون المعصية ، ويشفقون من أن تفوتهم الطاعة ، على أكمل وجه لله جل وعلا .

وقد وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ المتقين غير مرة فى كتابه العزيز . وفى هذه السورة يوضح سماتهم وخصائصهم بأنهم : ﴿ **يؤمنون بالغيب** ﴾ .

أى أنهم يؤمنون بأن هذا العالم الدنيوى القائم المشهود : وراءه عالم آخر مستور ، قائم قيام هذا العالم الملموس المنظور .

فالجنة قائمة ، وإن لم يروها ، فإيمانهم بها إيمان بالغيب . والنار قائمة ، وإن لم يروها ، فالتصديق بها تصديق بالغيب . وكذلك الإيمان بالله ، وملائكته ، واليوم الآخر . . . كل ذلك إيمان بالغيب .

وهذا الإيمان يدفعهم إلى خشية الله يوم القيامة . فهم على يقين من أن الله تعالى

---

(١) رواه ابن ماجه ، كتاب الزهد باب الورع والتقوى ، وفى الزوائد : هو إسناد صحيح ، رجاله ثقات .

سيتجلى عليهم وينظر إليهم . ولهذا فهم يعملون لهذا اليوم ، ويعدون له الزاد . أولئك هم المتقون ، الذين يؤمنون بالغيب ، وبالآخرة هم يوقنون .

وقد بين الإمام الشهيد حسن البنا ـ عليه رحمة الله ـ ذلك فقال :

« ليس المراد بالإيمان بالغيب التسليم الأعمى بدون دليل أو برهان ، مما يؤدى إلى اعتقاد الخرافات ، والتصديق بالأوهام ، وبما لا يتفق مع الحقائق العليا ، التى جاء بها الدين الحنيف ؛ فقد نهينا عن مثل هذا الإيمان المتهافت . فالمراد بالذين يؤمنون بالغيب هو هذا الصنف المشرف الشفاف من النفوس الطيبة اللينة الحسنة الاستعداد ، لتقبل الحقائق ، وإن جاءتها عن غير طريق الحواس » .

ومن صفات المتقين ، أنهم ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ . والصلاة هى : الركن الثانى من أركان الإسلام بعد الشهادتين اللتين بهما نعتقد أن لله الفاعلية فى كل كونه .

والعبادات كلها توقيفية ، ومعنى ذلك أننا نتلقاها عن الرسول ـ ﷺ ـ ونقوم بها على النحو الذى أداها به رسولنا الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد علّمنا أن نصلى كما رأيناه يصلى، ونحج كما رأيناه يحج ، ونصوم كما كان يصوم .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ ، يختلف عما إذا قال « يؤدون الصلاة » . فإقامة الصلاة ، تعنى أن ينصرف المصلى بتكبيرة الإحرام عن نفسه ودنياه ، ويعيش ما يقرأ من القرآن، ويؤدى ركعاته وسجداته بخشوع قلبه وخضوع روحه ، إلى أن يرتقى الخشوع إلى مرتبة كأنها الحضور والشهود لله ، وكأنه ليس بينه وبينه حجاب ولاترجمان .

ومن إقامة الصلاة أن تصلى لوقتها ، فإن ذلك من أفضل الأعمال .

والصلاة تقوم النفس وتقويها ، وتجعل لها عزيمة وإرادة ودفعة حياة ، وبذلاً دائماً فى سبيل الله .

وطهارة البدن ونظافة الأطراف ، تعوّد النظافة الحسية التى ترتقى بك مع الذكر والتسبيح والتهليل إلى طهارة قلبية .

ومن صفات المتقين أيضًا ، أنهم كما وصفهم القرآن : ﴿ . . . **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

وقد نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة ـ وإن كان حكمها مازال معمولاً به ـ واختار ابن جرير أنها تعم الزكاة وغيرها من النفقات ، فالمسلم ينفق من ماله حين يجد أخاه المسلم فى حاجة إلى الطعام ، وكذلك الثياب ، وغيرها .

وهؤلاء المتقون ﴿ **يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ . إنهم يؤمنون بالقرآن الذى أنزل على محمد - ﷺ - كما يؤمنون بالكتب التى نزلت من قبل .

إنهم لا يفرقون بين نبوة نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ونبوة محمد - ﷺ - الخاتم لكل النبوات . . .

إنهم يؤمنون بالكلمات التى تلقاها آدم من ربه ، وبالكلمات التى تنزلت على جميع الأنبياء من بعد آدم . فهم كما وصفهم تعالى بقوله :

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾

ولكن ليس معنى الإيمان بما أنزل من قبلنا أن نعمل بشرائع الأمم قبلنا دائمًا ، بل نعمل بالقرآن والسنة المبينة له ، ونؤمن بأن هذه الرسالات متفقة معنا فى العقائد ، وتختلف فى التشريع ، وأننا مطالبون بأن يكون للقرآن الهيمنة الكاملة على كل الرسالات .

قال تعالى :

﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكلٍّ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجًا ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعًا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾[1] .

وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

والإيقان بالآخرة يعنى أنهم لا يشكون فى أمر الآخرة ، ويرونها ماثلة أمام أعينهم رأى العين ، ولا يتم الإيمان إلا باليقين .

أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

هؤلاء المتقون المفلحون ، هم الذين يصلحون إذا فسد الناس ، ويهتدون إذا ضل

---

(١) المائدة : ٤٨ .

الناس ،فيعيشون غرباء فى أوطانهم وبين ذويهم ، ويعملون على إصلاح ما أفسد الناس من سنة نبيهم - ﷺ - يجاهدون فى سبيل الله ، لا يخافون لومة لائم ، يقولون كلمة الحق وهم يعلمون أن الموت أقرب إليهم من شراك نعالهم .

إنهم طائفة ظاهرة على الحق ، قائمة به حتى تقوم الساعة ، وهى قائمة لا يضيرها من خالفها ، ولا من خذلها حتى ينفخ فى الصور الموعود وهم على ذلك ، فينتقلون إلى دار الكرامة ، ويناديهم ربهم : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ [1] .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

بعد الحديث عن المتقين وصفاتهم فى الآيات السابقة تتحدث الآيات هنا عن طائفة مناقضة للمتقين ومناهضة لهم ، وهى طائفة الكافرين ، لا تنفعهم الذكرى ، ولاتجدى معهم الموعظة . لا يهتدون ، ولاينتفعون بما فى الكتاب من آيات بينات ، يزداد بها المتقون إيمانًا مع إيمانهم ، بينما لايزداد الكافرون بها إلا ضلالاً على ضلالهم .

وإصرار الكافرين على كفرهم ، ليس السبب فيه تقصيرًا فى البلاغ ، ولا عيبًا فى القرآن ، ولكن لأن الكفر متشبث بقلوب هؤلاء ، بما اكتسبوا من سيئات رانت على قلوبهم فغلّفتها ، وعلى أسماعهم فأصمّتها ، وعلى أبصارهم فأعمتها .

إنهم لا يعاندون الله ولا يعاندون رسوله - ﷺ - بل إنهم يعاندون أنفسهم بعنادهم للحق الذى جاءهم من ربهم ، وللحقيقة القائمة فى ضميرهم .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ
ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ
ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟
أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟

---

(٢) الزخرف : ٦٨ .

سُورَةُ البَقَرَةِ

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ
مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾
أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ
ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ
كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

بين الله سبحانه وتعالى لنا بإيجاز صفات المتقين ، ثم صفات الكافرين ، ثم بين هنا بشىء من التفصيل صفات طائفة المنافقين ، لأن عالم المنافقين عالم متفرد . إذ النفاق خليط غير متكافئ من باطل ألبس بحق ، وحق أشرب بباطل ، يشع فيه النور فجأة كما يختفى فجأة ، ويستحيل إلى ظلام دامس مخيف ـ فلا تكاد تميز بين نار استوقدت لتضىء وأخرى لتلهب عالمًا تسود فيه دواعى الحيرة والتردد والقلق والتساؤل .

وأصل النفاق : أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن ، وهو المتعارف عليه شرعًا بـ «إظهار الإيمان وإخفاء الكفر» . وقد ظهر بين صفوف المسلمين ـ أول ما ظهر ـ فى المدينة . وسورة البقرة أول سورة مدنية تتناول المنافقين بذكرهم وبيان صفاتهم . ولم يكن الحال بمكة يدعو إلى ظهور أمثال هؤلاء المنافقين ، لأنه لم تكن للإسلام دولة تحمل الناس على منافقة المسلمين ، بل كان كفار مكة يظهرون للمسلمين عداءهم الذى يكنونه .

أما فى المدينة وقد صارت الشوكة والغلبة للمؤمنين ، وقامت دولتهم بقوتها ، بجيشها ، بحكومتها ، وقبل ذلك كله بقائدها ورائدها محمد ـ ﷺ ـ إذن فقد تغير الحال ، وأصبحت الدولة للمسلمين ، وهنا ظهر النفاق .

وخطر الكفر أقل من خطر النفاق ، ذلك أن أهل الإيمان يقفون من الكفار وجهًا

لوجه ، ويعلنون الحرب عليهم ، فمقاومة الكفر أهون وأيسر من مقاومة النفاق ، لأن النفاق غير معلن ، ولذلك نجد قيامنا فى هذه الدائرة صعبًا وحرجًا ، والأمة الإسلامية قد عانت ـ فى تاريخها الطويل ـ من المنافقين أكثر مما عانته من أعدائها الظاهرين . ولذا كان القرآن معنيًّا برسم ملامحهم ، ووصف علامات نفاقهم ، حتى يتعرفها المؤمنون فيحذروهم ، ولايقعوا فى حبائل خداعهم .

وحتى نعلم خطر هذه الفئة على الإسلام والمسلمين ، فلنتصورهم وهم يأتون رسول الله ـ ﷺ ـ ومن بعده من المؤمنين ، فيقولون : « نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله » والله يعلم إنهم لكاذبون . . وهم يظنون أنهم بكذبهم هذا قد خدعوا الله ورسوله والذين آمنوا ، بينما هم المخدوعون حقًّا ؛ ذلك أنهم يسيرون فى طريق نهايته الدرك الأسفل من النار ، ولن يجدوا لهم نصيرا .

فما أقسى قلب من خالط أهل الحق ، واستمع من رسول الله ـ ﷺ ـ وعايش التعاليم والمبادئ التى علّمها وشرحها رسول الله ـ ﷺ ـ لأصحابه ، ثم أصر ـ بعد هذا ـ على الكفر سرا . وما أتعس وأبأس من نافق فى الدنيا حتى إذا كان يوم القيامة واتجه المنافقون ليجلسوا حيث يجلس المؤمنون ـ كما كانوا يفعلون فى الدنيا ـ إذا بسور يضرب بينهم ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، فينادون المؤمنين : ﴿ **ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله . . .** ﴾ [١].

والمرض هو الشك . قال بذلك غير واحد من صحابة رسول الله ـ ﷺ ـ منهم ابن عباس ، وابن مسعود . وقال بذلك أيضًا جماعة من التابعين ، منهم مجاهد ، وقتادة والحسن البصرى .

وعن عكرمة وطاوس فى قلوبهم مرض يعنى الرياء [٢] .

وقد جازاهم الله فى الدنيا بمزيد من المرض على مرضهم ، ذلك أن الجزاء من جنس العمل . أما فى الآخرة فقد أعد لهم العذاب الأليم ، وتلك هى عاقبة كذبهم الذى لم يتخلوا عنه فى الدنيا .

والكذب أول آيات المنافق ، وبه يدارى نيته الخبيثة وباطنه السيئ . وأعظم الكذب :

---

(١) الحديد : ١٤ .

(٢) ابن كثير : ١/ ٤٨ .

الكذب على الله ، وعلى رسوله ـ ﷺ ـ قال تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ (١) .

ثم بين الحق تبارك وتعالى صفة أخرى فيهم ، وهى أنهم :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾

و « الفساد خروج الشيء عن حال استقامته ، وكونه منتفعًا به ، ونقيضه الصلاح ، وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة » (٢) .

والإفساد فى الأرض إنما يكون بمعصية الله ، فبقدر ما فيها من المعاصى بقدر ما فيها من فساد و إفساد .

يقول تعالى : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ (٣) .

وهذه الطائفة من الناس قد اتخذت ادعاء الإيمان بالله واليوم الآخر ذريعة لكى يفعلوا ما يحلو لهم ، وحجابًا يستترون وراءه من قبيح أفعالهم .

وهذه صفة المنافقين فى كل زمان ، قبل البعثة ، وبعدها ، وإلى يومنا هذا ، بل إلى يوم الدين بنفس صفاتهم وخلائقهم التى وضحها القرآن ، كما سبق بيانه . فإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض ، بتعطيل شرع الله ، قالوا : ما نريد إلا الإصلاح . فهم مفسدون ، مرة باسم المصلحة العامة ، ومرة باسم الحضارة .

وصدق الحق تبارك وتعالى حين قال :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

وليس بين هؤلاء المنافقين والدرك الأسفل من النار إلاّ الموت ، وليس بينهم وبين الجنة إلا أن يوافق باطنهم ظاهرهم ، وفعلهم قولهم » .

قال تعالى :

﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا * إلاالذين تابوا**

---

(١) الصف : ٧ .	(٢) محاسن التأويل ، القاسمى ، ١/ ٤٣ .
(٣) الروم : ٤١ .

وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرًا عظيمًا ﴾[1] .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

وبعد نهيهم عن المنكر فى الآية السابقة بـ ﴿ لا تفسدوا ﴾ ، يأتى أمرهم بالمعروف فى هذه الآية بـ « آمِنُوا » .

وقوله تعالى : ﴿ آمنوا كما آمن الناس ﴾ يعنى الإيمان الحق ، الذى أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ به ، والذى عرَّفه العلماء بأنه « قول باللسان ، وتصديق بالجنان ، وعمل بالأركان» . ولكنهم يرون أنفسهم فى مكانة تعلو بهم عن إيمان العامة ، فلابد لهم من لون خاص من الإيمان ، يتناسب مع مناصبهم ومراكزهم ، وسياساتهم ورئاستهم . لون من الإيمان لا أمر فيه ولا نهى ، لا شرع فيه ولا شريعة .

وبإيجاز : يريدون إيمانًا غير الإيمان الذى عليه الناس ، والناس عندهم ، هم السفهاء، ولهذا قالوا :

﴿ أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾

ولكن الله سبحانه وتعالى قد رد عليهم مقولتهم ، وحصر السفاهة فيهم ، وتولى عن المؤمنين الجواب عليهم ، فقال تعالى :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأى ، القليل المعرفة بمواطن المصالح والمضار . وهم كذلك ولكنهم لا يعلمون ، فقد فتنوا بأهوائهم ، فصدوا عن السبيل . ولشدة سفههم لا يعون حقيقة أمرهم ، ولا حقيقة أمر من رموهم بالسفه بغير علم .

ويضيف الله تعالى صفة أخرى للمنافقين بقوله تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾

---

(1) النساء : ١٤٥ ، ١٤٦ .

وهم مذبذبون بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، لا ينتمون إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

وبينما يرفضون أن يكونوا على مثل إيمان المؤمنين ، ويعدونهم من السفهاء ، فهم حين يلتقون بهم يؤكدون لهم أنهم على مثل ما هم عليه من الإخلاص لله ، وذلك لأن الله قذف فى قلوبهم الرعب من المؤمنين ، حتى إذا انتهوا إلى أعوانهم من الكفار الذين يعادون المؤمنين ، أكدوا لهم الولاء ، ووضعوا أيديهم فى أيديهم ، مصرحين بكفرهم ساخرين مستهزئين .

وقوله تعالى : ﴿ ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ يعنى أنه يزيدهم ضلالاً على ضلالهم ، وطغيانًا على طغيانهم ، ومرضًا على مرضهم ، فيزدادون حيرة على حيرتهم ، فلا هم يخرجون مما هم فيه ، ولا هم يظلون على ما هم عليه ، فهم فى زيادة مستمرة من الرجس على رجسهم ، فلا يفيقون إلا وهم فى قاع جهنم ، مع فرعون وهامان وقارون وأمية بن خلف .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾

قال قتادة : « قد والله رأيتهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة » (1) . فتلك صفقة خاسرة ، وتجارة كاسدة ، وجهل منهم بما فيه مصلحتهم وصالح أمرهم فى الدنيا والآخرة .

مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿١٨﴾

ويضرب الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات الأمثال لهؤلاء المنافقين حتى يزيد صورتهم وضوحًا : يكشف حال هؤلاء المنافقين ، ويفضح أعماق شعورهم ، ويقف على حيرتهم بالتصور الملموس . فهذا رجل قد أوقد حطبًا ، وظن أن نار الحطب ستظل ، ليهتدى بها ، وهو فى جوف ليل ساحق الظلمة ، فلما أنار الحطبُ ما حوله ، ورأى كل شىء على حقيقته ، واغتر به كثيرًا ، وظن أنه يستطيع أن يسير بهذا الضوء المؤقت ، فوجئ بأن الضوء كان خداعًا له ، إذْ لم يستمر الضوء إلا قليلاً ، وعاد إلى ظلام دامس ، وقد نفد وقوده وتحول إلى رماد .

---

(1) فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، 1/ 63 .

هكذا حال المنافقين .

إنهم طلبوا معرفة الحق ، فلما أضاء الحق لهم تمردوا عليه ـ سبحانه ـ فذهب بنورهم ، وحلت عليهم ظلمة كثيفة من الكفر والنفاق .

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

وكذلك فى الآيتين ١٩ ، ٢٠ مثل آخر ضربه الله لنوع آخر من حالات النفاق ، حالة قوم يظهر لهم الحق تارة ، ويشكون تارة أخرى ، فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم على ما ذكرته هاتان الآيتان [١] ، فهم لقلة إيمانهم فى فزع دائم ، وفى حذر غير نافع وكلما ازداد الإسلام قوة ، استكانوا وتابعوه ، ثم تعرض لهم الشكوك فيرتدون إلى الظلام و إلى ضلال النفاق .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾

فى بداية السورة عشنا مع عالم المفلحين الناجين بطهارة قلوبهم واستقامة سلوكهم ، فقد أقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقهم الله ، والتزموا منهج الحق فى حياتهم ، فأحسن الله فى الآخرة عاقبتهم ، وأكرم مثواهم ومستقرهم . ثم بين لنا السبيل الذى يُلْحقنا بهم وهو: عبادة الله الواحد الأحد ، الذى خلقنا وخلق الذين من قبلنا : خلقهم جميعًا ليعبدوه ، كما قال سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [٢] .

فإذا عرفنا ذلك ، واعتقدناه ، وعملنا به ، نكون من المتقين الناجين المفلحين .

---

(١) انظر تفصيل ذلك ابن كثير : ١ / ٥٤ ، ٥٥

(٢) الذرايات : (٥٦ ـ ٥٨) .

ثم يقول :

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ
ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

وهذا مزيد من التذكير بنعمة الخالق ، فهو لم يخلقنا عبثا ، ولن يتركنا سدى ، فقد يسر لنا الحياة ، وقدر فى الأرض أقواتنا ، وفى السماء أرزاقنا ، فبسط الأرض حتى كانت لنا فراشًا وثيرًا، ورفع السماء فكانت لنا ظلا ظليلا ، وأنزل منها الماء ليخرج من الأرض مكنونها من الأقوات التى قدرها الله لعباده وخلقه . . فكيف نجعل لله بعد ذلك ندا. . أونظيرًا . . . أو شريكًا فى أى شىء وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وليس كمثله شىء ؟

وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟
شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟
فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا
رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ
وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

بعد أن ذكرنا الله سبحانه وتعالى بنعمه يدعونا إلى الإيمان بالقرآن . . . بالرسالة التى أرسل بها نبيه - ﷺ - حتى يتم لنا الإيمان به .

من كان فى شك من أن هذا القرآن منزل من عند الله ، فيمكن له أن يزيح هذا الشك عن صدره بأن يأتى بسورة من مثل هذا القرآن ، فإن استطاع ذلك ، فهو على حق فى أن هذا القرآن ليس منزلاً من عند الله ، وإن لم يستطع فليؤمن بهذا الكتاب ، وليصدق برسالة من نزل عليه الكتاب ، وليتق الله ربه باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وإلا كانت عاقبته النار التى أعدها الله سبحانه وتعالى للكافرين . **﴿ نارا وقودها الناس والحجارة ﴾** .

والله - سبحانه وتعالى - يتحدى الذين يَشُكُّون وَيُشَكِّكُون فى رسالة محمد - ﷺ -

يتحداهم إلى يومنا هذا ، وإلى أن تقوم الساعة : أن يأتوا بمثل هذا القرآن . . ولو بسورة . . . ولو بآية؟ .

وهذا إنذار من الله ـ سبحانه ـ للعباد ، فليس أمامهم إلاّ أن يسلموا . . . ويسلموا لله رب العالمين ، وإلاّ فالنار التى أعدت للكافرين .

أما من آمن بهذا الكتاب ، وعمل بما أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ به فله البشارة من الله ورسوله بجنات غير محدودة ولا معدودة ، كلما رزقهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيها رزقًا وأعطاهم عطاء ، قالوا : لقد رزقنا هذا من قبل .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

نزلت هذه الآية لما قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، أى كالذى استوقد نارًا أو كصيب ، وهذا مروى عن السّدى ، عن ابن عباس وابن مسعود(١) .

وقيل نزلت ردًا على المشركين الذين قالوا : « ما بال الله يضرب المثل بالذباب والعنكبوت؟» . يضرب الله المثل بالبعوضة البسيطة ، التى تستصغرها وتستحقرها الأنظار لينبه إلى أن سهولة الخلق لديه فى بسط الأرض ، وجعل الجبال موازين لها ، وفى رفع السموات وبث الأفلاك ، مثل سهولة الخلق لديه لهذه البعوضة ، لذلك فهو لايستحيى أن يضرب مثلاً مّا : بعوضة فما فوقها .

« أى أية بعوضة صغيرة كانت أو كبيرة ، فما فوقها ، قيل : فوقها فى الصغر والحقارة ، وقيل : فما فوقها فى الكبر »(٢) .

يضرب الله بها المثل ، وهو يعلم أن فيها الإعجاز للإنسان المتغطرس ، وفيها مزيد

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ / ٦٤ ط الحلبى .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ / ٦١ .

من الإيمان للمتعظ المتدبر ، إذْ بينما يمر عليها الكافر ولا يعيها ، ينظر إليها المؤمن ويتدبرها ويتعظ بالحق الذى تنطق به .

والفسوق هو « الخروج » تقول العرب فسقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرتها ، ويقال للفأرة فويسقة ، لخروجها عن جحرها للفساد . والفاسق : يشمل : العاصى والكافر، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش ، والمراد من الآية الفاسق والكافر، والله أعلم(١) .

والمسلم الذى يصر على المعاصى ، ويعطل أمر الله ونهيه ، إنما هو من الفاسقين ، وقد يكون عاقبة إصراره على الذنب أن يقع فى الكفر وهو لا يدرى .

إذن فالفسق يكون بمعنى المعصية : تارة ، ويكون بمعنى الكفر ، تارة أخرى .

﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ٢٧

والعهد فى الآية قد يراد به ما عهد الله به إلى أهل الكتاب فى التوراة والإنجيل . وقد يكون العهد هو ما أخذه الله على جميع بنى آدم فى عالم الذر ، حيث أقروا له بالربوبية . وشهدوا على أنفسهم بالعبودية لله ـ سبحانه ـ لقوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾(٢) .

ونقض العهد مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أعظم الذنوب . وأكبر عهد أخذه على بنى آدم هو عهد الخلافة : خلافة بنى آدم عن الله فى الأرض . . يحكم بحكمه . . يأمر بأمره . . ينهى بنهيه ، وذلك بعد العهد الذى أخذه عليهم بأنه الرب الخالق ، وهم العبيد ، وذلك بقوله تعالى : ﴿ **ألست بربكم** ﴾؟ وبقولهم إجابة عليه سبحانه بكلمة ﴿ **بلى** ﴾ .

والذين أسلموا قلوبهم وأبدانهم لله ، وآمنوا بالله ورسله وكتبه ، هم أصحاب العهد الذين لم ينقضوه .

أما الذين يفعلون غير ذلك ، فهم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٦٥ .

(٢) الأعراف : ١٧٢ .

فبعد أن علموا أن الإسلام هو انقياد وطاعة ، حادوا عن الطريق المستقيم .

السياق فيه إجمال ، والصلات المطلوبة فى مجموعها كما قال سيد قطب : صلة الرحم والقربى ـ صلة الإنسانية ـ صلة العقيدة والأخوة الإيمانية ص ٥٢ .

وقيل : يقطعون كل ما أمر الله بوصله من الطاعات ، فيتركون الصلوات ، فينقطعون عن رحمة الله ، وعن الصلة بالله ، ويقطعون الصلة بينهم وبين الله أيضًا بتركهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويقطعون حبل الله الواصل إليهم من السماء بهجرهم للقرآن ، وكتمانهم للعلم عن المسلمين ، فيقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض .

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

هذا بيان للخلق ، لكى يتفكروا : أنهم كانوا أمواتًا : كانوا عدمًا ، ثم صاروا أنفسًا حية . تخرج إلى الدنيا ، وتحيا ما شاء الله لها أن تحيا ، ثم تموت ، ثم تمكث فى القبور حتى يأتى الإحياء الثانى بعد الموتة الثانية ، وهو البعث يوم النشور ، لترجع إلى الله ـ عز وجل ـ .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

فالله سبحانه وتعالى خلق لنا كل ما فى الكون ، فإذا استعملناه فيما يرضيه فقد أحسنا ، وإذا استعملناه فيما يغضب الله فقد أسأنا ، خلق لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه ، وهذه نعمة كبرى ، ﴿ **ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات** ﴾ ، فلا نرى فيها من فطور . رفعها الله بقدرته ، وسوّاها بحكمته ، وجمّلها بإبداعه . ويمسكها بعظمته . ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحدٍ من بعده إنه كان حليمًا غفورًا** ﴾ [1].

ثم هو سبحانه : عليم بكل شىء : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[2].

---

(١) فاطر : ٤١ .

(٢) الملك : ١٤ .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن
يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ
مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ
أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا
مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم
بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

الخلافة عهد قائم بين الحق تبارك وتعالى وبين خلقه منذ آدم ، ذلك أن الله تبارك وتعالى سأل الخلق ـ حين كانوا فى عالم الذر ـ ألست بربكم ؟ قالوا : بلى .

وهذه الأمانة فى صورتها الكبرى هى العهد بالخلافة ، إذن فكل إنسان من ولد آدم مسئول عن تلبية نداء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومسئول عن تحمل التبعة التى قبلها عن الله . فالذين شهدوا لله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوحدانية ، ولرسوله بالرسالة ، قد استجابوا لله ـ سبحانه وتعالى ـ حين دعاهم ، وقد جاء محمد ـ ﷺ ـ وأقام هذه الخلافة ، وصحح للذين سبقوه من أمم الأنبياء من قبله : ما وقعوا فيه من خيانة للعهد وتقصير فى حمل الأمانة ، وبيّن لهم مسئولية كل مسلم عن إقامة أمر الإسلام فى نفسه وفى غيره .

وسؤال الملائكة هنا ليس اعتراضًا على الله ، ولا حسدًا لبنى آدم ـ إذ لم يكن هناك تنافس بين آدم والملائكة على الخلافة ، حتى يقال هذا ـ لكنه سؤال استعلام واستكشاف ، كما ذكر ابن كثير(١) .

وحين رد الله ـ سبحانه وتعالى عليهم هذا الاستفهام بقوله : **﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون﴾** لم تعد الملائكة الكرة .

ثم تفضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ملائكته فكشف لهم عن بعض سر اختياره لخليفته **﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها ﴾** فتعلمها ، ثم عرض الأشياء على الملائكة ، وقال : **﴿ أنبئونى بأسماء هؤلاء ﴾** فعجزت الملائكة مسبحة بنعمة الخالق وحده قائلة :

---

(١) تفسير ابن كثير ، ١/ ٦٩ .

﴿ سبحانك لا علم لنا إلاّ ماعلمتنا ﴾ ، ثم أقرت لله ـ سبحانه وتعالى ـ بالعلم مع الحكمة قائلة : ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

وقد سماه الله آدم لأنه خلقه من أديم الأرض ، من جميع عناصرها . وناداه الله ـ سبحانه وتعالى ـ باسمه فلبى ، وقد علمه الله الأسماء كلها بما فيها اسمه ، ثم أمره أن يذكر أسماء الأشياء كلها ، فتلاها جميعًا ، وحين ذاك تمت الحجة تفضلاً من الله على الملائكة ، وعند ذلك أمرهم بالسجود له .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾

وحين أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملائكة بالسجود لآدم : كان ذلك أمرًا تكريميا من الله لآدم ، فالسجود هنا ليس بمعنى العبادة ، بل سجود تحية وسلام وإكرام ، وهو طاعة لله عز وجل لأنه امتثال لأمره تعالى .

وكان آدم بمثابة الكعبة لابد أن يتجه الإنسان إليها فى صلاته ، فيكون السجود لله لا لأحجار الكعبة .

وقد أطاعت الملائكة أمر الله وسجدت لآدم ، معترفة بفضله عليها بتعلم الأسماء ، وأبى إبليس أن يسجد ، فنزل عليه غضب الله ، وصدر أمر جديد .

وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾

ونادى الله آدم وزوجه ليسكنا الجنة ، وحذرهما من الأكل من شجرة معينة فى الجنة ، ولهما بعد ذلك أن يأكلا من حيث شاءا ، كما شاءا ، وكيف شاءا ، ومتى شاءا . وهنا ظل إبليس يوسوس لآدم وزوجه بالأكل من الشجرة ، موحيا إليهما أنها شجرة الخلد والملك الذى لايزول، حتى وقع آدم ، فأكل من الشجرة ، وحين ذلك تحسس نفسه فوجدها عارية من ستر الطاعة، فأخذ يخصف عليه من ورق الجنة ، ولكن الجنة لم تخلق لهذا ، فلم يكن لأحد أن يعصى ربه فى جنته . لقد عجز عن ستر عورته التى لم

يكن يراها ، ونظر إلى زوجه فرآها مثله ، لقد خرجا ـ بمعصية ربهما ـ مما كانا فيه من نعيم السعادة .

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

فمن سلك سبيل المحسنين التائبين فلا يخاف ولا يحزن ، أما من سلك سبيل إبليس فهو من أصحاب النار « خالدين فيها » .

وقد وضع الله بذلك قانونًا وناموسًا ثابتًا للإنسان فى كل زمان ومكان ، وهو أن سعادته فى اتباع الهدى ، وشقاءه ـ فى الدنيا والآخرة ـ فى تكذيب آيات الله والصد عن منهج الله تعالى .

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ
فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦۖ
وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

ينادى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أبناء العبد الصالح والنبى المبعوث : إسرائيل . فياأولاد الرجل الذى وهب نفسه لله ، يا أولاد يعقوب ، حفيد إبراهيم . . ﴿ **يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم** ﴾ ، وقد أنعم الله عليهم بالكثير من النعم ، ذكر سيدنا موسى لهم بعضها حين قال لهم : ﴿ **يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين** ﴾ (١) أى أن أهل زمانهم لم ينالوا مثلهم . إذا كان المطلوب بيان نعم الله عليهم ، فهذا قليل وهناك ما هو أهم منه ، ويبدو هذا من مقارنة ﴿ **جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا** ﴾ بتفجير الماء ونزول المن والسلوى . فاشكرونى على ذلك بالإيمان بى ، والوفاء بعهدى عليكم ، حتى تنالوا ما عاهدتكم عليه وواعدتكم به من الجزاء والثواب العظيم .

أوفوا بعهد التوحيد الذى أخذه عليكم آباؤكم من قبل ، واخشونى ولا تعرضوا

---

(١) المائدة : ٢٠ .

أنفسكم لغضبى وعقابى ، وإنكم لن تفوا بعهدى حتى تؤمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم، ألا وهو القرآن ، مصدقًا لما بين أيديكم من التوراة والإنجيل ، فلا ينبغى أن تكونوا أول كافر به ﴿ **ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلاً** ﴾ والثمن القليل هو الدنيا بحذافيرها ، فهى لاتساوى شيئًا أمام آية واحدة تكفرون بها من آيات الله .

وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

وتلبيس الحق بالباطل ، هو طريق من أراد أن يكتم الحق ، فيظهره بصورة غير صورته الحقيقية ، ويستبدلون به الباطل وهم يعلمون . وهذا إثم عظيم ، وذنب كبير، فإن يكتم أهل الحق ما اسْتُحْفِظُوا عليه ، وصاروا عليه أمناء ، فمن يبينه للناس بعدئذ؟ .

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أى أقيموا الصلاة كما فرضها الله ، وأنزلها وشرعها . كما يقيمها من آمن بما أنزل الله على رسوله ، وآتوا الزكاة كما يؤتيها أصحاب محمد ـ ﷺ ـ ولاتصح لكم صلاة ولا زكاة حتى تنضموا إلى صفوف الراكعين من أصحاب محمد ـ ﷺ ـ فتركعوا معهم لله رب العالمين ، ذلك أن محمدا قد جاء بالرسالة الخاتمة المكملة لما بين أيديكم ، فما خالفكم فيه من أعمال فهو بمثابة نسخ لما بين أيديكم ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ، حتى تكونوا قد وفيتم بعهدكم ، وأكدتم إيمانكم بما بين أيديكم ، فتصيروا من أمة محمد ـ ﷺ ـ .

۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

هذا استفهام بعد استفهام ، واستنكار بعد استنكار . إنه اللوم الشديد ، والعتاب الصارخ من الله ـ سبحانه وتعالى ـ للذين علموا الحق ودرسوه يذكّرون به الخلق ، ويدعونهم إلى العمل بما فيه ، ثم يقعون هم فيما يحذرون منه ، ويقترفون ماينهون عنه ، ولايجدون لأنفسهم زاجرا من الناس عن الشر ، ولا آمرا من الناس بالخير .

﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ . أفلا يعقل هؤلاء شيئا مما يقرءون ، أو حرفا مما يعلّمون الناس؟

أقست قلوبهم إلى هذا الحد ؟ أم غلبتهم شهواتهم وأهواؤهم وما ينالون من العطاء المادى والثناء القاتل ؟

لقد نزلت هذه الآية بين مانزل فى بنى إسرائيل ، إلا أنها عامة فى الحكم ، لأن العبرة بعموم اللفظ ، لابخصوص السبب .

لقد كان علماء بنى إسرائيل يبشرون بمحمد ـ ﷺ ـ وينعتونه للناس ويستفتحون عليهم به ، ويأمرونهم بالإيمان به إذا ظهر ، ولكنهم حين جاء محمد ـ ﷺ ـ كفروا به .

عن ابن عباس فى هذه الآية يقول : « أتأمرون الناس بالدخول فى دين محمد ـ ﷺ ـ وغير ذلك مما أمرتم به من إقامة الصلاة ، وتنسون أنفسكم » .

وقد جاء رجل إلى ابن عباس فقال : يا ابن عباس إنى أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ؟ قال : أبلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ؟ قال : وماهن ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثانى ، قال : قوله تعالى : ﴿ . . . **لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لاتفعلون** ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثالث : قال : قول العبد الصالح شعيب عليه السلام : ﴿ . . . **وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت** . . . ﴾ أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا ، قال : فابدأ بنفسك » .

وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

وهذا طريق كل من أراد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، حيث يتطلب الكثير من مجاهدة النفس والاستعانة بالله ـ سبحانه وتعالى ـ حتى يقوى على مواصلة السير لما سيلقاه من صعاب ، فهو فى حاجة دائمة إلى الصبر ، ولايعوّد الصبر كالصوم ؛ « فالصوم نصف الصبر » .

والذى يدعو إلى الله ، ويأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، لابد أن يستعين بالله ويستهديه فيما يعترض طريقه من صعاب شتى .

والصلاة ثقيلة وشاقة على نفوس الكثير من الناس . أما الخاشعون الذين ألانوا الجانب لله ، وخفضوا الجناح بين يديه ، وتدبروا آياته ، واتصلوا بالله سبحانه وتعالى فى

صلاتهم ، فقد حبب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصلاة إليهم ، لأن فيها مناجاته سبحانه والقرب منه ، فهؤلاء الخاشعون قد جعلت قرة أعينهم فى الصلاة .

ولا يتأتى الخشوع فى الصلاة إلاّ من اليقين بالله واليوم الآخر ، وخوف اللقاء ، وعرض الأعمال على الله ، والاعتقاد بأن الصلاة ميزان الأعمال جميعاً ، فإن صَلَحَتْ صَلَحَ سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله ، وأنه سوف يرجع إلى الله فى يوم معلوم . ثم توفى كل نفس ما كسبت .

فخوف العبد من ربه ولقائه يبعث فى القلب الحضور والخشوع ، ويصرف المصلى عن أمور الدنيا مستشعرا اللقاء مع الله ، فيخضع له ويستنير قلبه بالنور المتجلى عليه فى صلاته ، فيزداد بالله يقينا وله حبا .

وهنا يسلم نفسه ويكل أمره لله رب العالمين ، فتصدر عنه الطاعة لله عن محبة ورضا ، وتقع فى النفس رهبة من معرفة الله ، ورغبة فى المزيد من المعرفة ، تشفى صدر هذا العبد المصلى ، الذى يحس بالوجود : ساجداً لله ، حين يسجد ، راكعا لله حين يركع .

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

يذكّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنى إسرائيل بنعمته عليهم حين حباهم بالرسالة وحين أيدهم بأنبيائه وعضدهم برسله ، مفضلا إياهم على جميع العالمين ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾ أى على عالمى أهل زمانهم .

وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

اعلموا أن هناك يوما ستسألون فيه عما فعلتم ، وما فرطتم ، فاتقوا ذلك اليوم واعملوا له ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، لا تجزى نفس عن نفس ، ولكن كل نفس مسئولة عما قدمت ، اتقوا اليوم الذى لاتنفعكم فيه شفاعة ، ولن يأخذ الله منكم فداء لأنفسكم من النار ، ولا أنتم تنصرون على أى وجه من الوجوه .

وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾

وفرعون علم على كل من ملك مصر كافرا ، من العماليق وغيرهم ، كما أن قيصر

علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا ، وكسرى لمن ملك الفرس وهذا اختيار ابن كثير[(١)] .

وذلك أن فرعون ـ لعنه الله ـ كان قد رأى رؤيا هالته : رأى نارا خرجت من بيت المقدس ، فدخلت بيوت القبط ، إلاّ بيوت بنى إسرائيل ، مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل ، وعند ذلك أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد من بنى إسرائيل وأن تترك البنات، كما أمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأرذلها ، ظنا منه أنه بذلك يمكنه أن يمنع قضاء الله ، أو يقف أمام أمر الله [(٢)] .

ولم يكن فرعون وحده هو الذى يقوم بتعذيب بنى إسرائيل ، من قبل موسى ومن بعده ، ولكنه استخدم أهله وجنوده جميعا فى ذلك ، إلا امرأته آسية التى آمنت بموسى ودعت ربها أن ينجيها من فرعون وعمله . وقوله تعالى : ﴿ **آل فرعون** ﴾ يعنى فرعون وجنوده الذين شاركوه فى بغيه وظلمه وعتوه ، وهم شركاء معه فى الظلم والبطش ، وسيكونون شركاء معه فى عذاب جهنم ، لقوله تعالى : ﴿ ... **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ . وهذا مصير كل طاغية وأعوانه وجنوده ، مهما احتج الجنود بأنهم مغلوبون على أمرهم ، مقهورون فى تنفيذ أوامر أسيادهم ، فالكل يستحق اللعنة والعذاب . قال تعالى : ﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ . لافرق فى الخطأ بين فرعون ووزيره هامان ، وجنودهما المساعدين لهما على الظلم .

وقد ذكّرهم الله بنعمته عليهم ، إذ كانوا يعيشون فى مصر أذلاء مغلوبين على أمرهم ، فأرسل لهم موسى ليحررهم من تحكم هذا الطاغوت المتجبر ، ويستخلصهم من ذل العبودية والمسكنة للبشر ، ليكونوا عبيدا لله الواحد القهار .

ذلك أن ماكان يقع بأبنائهم وأزواجهم تحت أبصارهم لَعَذَابٌ شديد أليم . والإنسان فى كثير من الأحيان يحتمل العذاب على نفسه أكثر مما يحتمله فى غيره ، إلا أن آل فرعون يلزمونهم أن يروا العذاب ويعايشوه ، مبالغة فى الإيذاء والانتقام .

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾

اذكروا نعمة الله عليكم إذ شق لكم فى البحر طريقا يابسا تسيرون عليه ، وجعل كل جانب من جوانب البحر كالجبل العظيم ، فلم يستطع فرعون وجنوده إدراككم ،

---

(١) ابن كثير ، ١ / ٩٠ .

(٢) خلاصة ما ورد فى التفاسير .

ولكن أدركه الغرق هو وجنوده . ولقد رأيتم هذه الآية أمام أعينكم وأنتم تنظرون ؛ ألم يكن الأجدر بكم حينئذ أن تذعنوا لأمر الله ، وتشكروا إحسانه إليكم ، بدلا من هذا التمرد المستمر فى غير ما حياء ؟!

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ ٥١

وبعد أن نجاهم الله ـ سبحانه ـ من فرعون ، وأخرجهم من مصر ، سألوا موسى حياة مستقرة يحكمها كتاب يأتى من عند الله يهتدون به ويتبعون مافيه . فسأل موسى ربه أن يؤتيهم كتابا ، فوعده الله بالتوراة ، وهى كتاب بنى إسرائيل ، يعرفون منه ما أحل الله وما حرم. وحدد له ميقاتا : أربعين يوما ، يأتيه موسى بعدها ، فيؤتيه ربه الكتاب . فلما ذهب موسى لميقات ربه ، اتخذ بنو إسرائيل عجلا يعبدونه ، وكان موسى قد ترك معهم أخاه هارون يعظهم ويقوم بالأمر فيهم حتى يعود موسى ـ عليه السلام ـ وبينما موسى يناجى ربه أخبره الله بما فعل قومه ، فرجع موسى إلى قومه ـ غضبان أسفا ـ فوجدهم اتخذوا من حليهم عجلا جسدا له خوار ، يعبدونه من دون الله .

وأصل ذلك ـ كما قال المفسرون ـ أنه فى أثناء غيبة موسى جمع السامرى الحلى ، ثم صنع منها عجلا ودعاهم إلى عبادته ، فعكفوا عليه ، وكانت تلك الفتنة قد وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوما .

وعجل الذهب رمز التعلق بزخارف الدنيا .

﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٥٢

ومع ذلك فقد عفا الله عنهم ، ورفع عنهم رجس عبادتهم للعجل ، تفضلا منه ونعمة ، لعلهم بذلك يتطهرون ، فيسمعون ، فيعقلون ، فيشكرون .

﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ٥٣

والكتاب هنا هو التوراة ، وهو الفرقان ، والإنجيل كذلك فرقان ، والقرآن فرقان . ذلك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يفرق به بين الحق والباطل . .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

اقتلوا هذه النفوس الضعيفة المريضة الكافرة : توبة إلى الله ، وبراءة إليه من أنفسكم ، حتى إذا ما تطهرتم من رجس الشرك بالله : يتوب الله عليكم ويرحمكم ﴿ ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾ الذى بين لكم آياته ، وغطاكم بنعمه ، فعصيتموه ، وأشركتم به ، فلن يتاب لكم إلا بقتل أنفسكم .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾

وهذه آية عجيبة من آيات الله لبنى إسرائيل ، تمثل قمة الحلم والكرم من الله العلى الكبير.

إن بنى إسرائيل أمة تمردت على الحق ، فلم تذعن له ، ولم تسلم ، برغم ما بدا لهم من الآيات البينات .

فبعد كل ذلك نراهم يقولون : ﴿ **لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة** ﴾ . يطلبون أن يَرَوُا الله جهرة . . لأن قلوبهم عجزت عن إبصاره ، ولو أبصرته القلوب لتأدبت الألسن ، وتهذبت الجوارح واستقامت النفوس .

ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

ومن يتدبر الآيات : يلمح طباع بنى إسرائيل النافرة عن الحق ، التى تزداد سوءا بعد سوء . . . مع كل نعمة من نعم الله . . ومع كل ابتلاء من الله ، فلا النعم أخضعت قلوبهم فشكرت ، ولا النقم أصلحت نفوسهم فاستقامت .

فبعد كل ماكان منهم : أنزل عليهم الغمام ظلا فوق رءوسهم ، وأنزل عليهم المنّ

والسلوى ، حتى يأكلوا مما رزقهم الله من طيبات .

ومعنى ذلك : أنهم ظلموا ، وما شكروا .

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ
سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

والقرية هى بيت المقدس ، وقد قال لهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ادخلوا القرية فى خشوع ، كأنكم فى ركوع دائم أو سجود ، وذلك تنبيه من الله ـ تعالى ـ لهم من البداية : أن يسلموا الأمر لله ، ولايجادلوا فى أوامره وآياته .

﴿ **وادخلوا الباب سجدا** ﴾ . . طائعين . . منيبين . . خاشعين لله . . خاضعين له . . ﴿ **وقولوا حطة** ﴾ واسألوا الله ـ تعالى ـ أن يحط عنكم خطايكم .

فماذا فعل بنو إسرائيل ؟

هل انتبهوا لتحذير الله لهم ؟ هل اتعظوا بما سبق لهم ؟ لا ، ولكن بدلوا القول الذى قيل لهم .

وهذه قمة المعاندة والاستهزاء والمخالفة والفسوق ؛ ولذا كانت العقوبة عاجلة وقاصمة .

۞ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ
مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ
اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

. . لقد ضرب موسى الحجر فانفجر الماء من جهاته الأربع ، من كل جهة ثلاث عيون ، فكانت اثنتى عشرة عينا ، ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾ .

ذلك أن بنى إسرائيل كانوا اثنى عشر ولدا ، وكان أحفاده اثنتى عشرة قبيلة ، يدعون «أسباط بنى إسرائيل » لكل قبيلة منهم زعيم من أحفاد يعقوب ، فكانت لكل قبيلة منهم عين تأخذ منها حاجتها من الماء .

وقد أورد القرطبى نكتة لطيفة حول هذه الآية ، يقول فيها : « وقد كان تعالى قادرا على تفجير الماء ، وفلق الحجر من غير ضرب ؛ لكن أراد أن يربط المسبَّبات بالأسباب حكمةً منه للعباد فى وصولهم إلى المراد ؛ وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم فى المعاد »[1] .

ولا يخفى على القارئ أن معجزة موسى كانت كامنة فى العصا لا فى الحجر .

فلما استسقى موسى ، وفجر له الحجر عيونا ، قال : ﴿ **كلوا واشربوا من رزق الله . . .** ﴾ .

ثم عقب ذلك بالتذكير ، قائلا : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ يعنى « لاتقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها »[2] .

ولكن ، هل شكروا نعمة الله عليهم ؟ هل قنعوا برزقه إياهم ؟ ماكان أَكْثَرُ بنى إسرائيل ليفعلوا هذا .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿ **لن نصبر** ﴾ إنهم فى هلع مستمر على بطونهم . عادوا إلى طبيعتهم البهيمية وقالوا : لانريد رزقا ينزل من السماء ، ﴿ **فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض** ﴾ حتى يطمئنوا ، فهم لايؤمنون إلا بالأسباب ، أما المسبب فقد أساءوا به الظنون وارتابوا .

ولكن نبى الله موسى عليه السلام علم أن هؤلاء القوم لايريدون شرعا ، ولا إسلاما ، ولاأمنا ، ولا نظاما : بل يريدون حطام الدنيا .

إذْ يعلمون أن هذا الرزق غير مضمون لهم ، لأنه مشروط بشرط ثقيل عليهم ،

---

(١) القرطبى : ١/ ٤١٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ١/ ١٠٠ .

ألا وهو ﴿ لاتعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ وهذا أمر يستحيل فى حقهم ، ولا يزال للآن ، فنحن نرى اليوم إفسادهم وعتوهم فى الأرض .

ولذا لم يسأل موسى ربه ما طلبه بنو إسرائيل ، ذلك أنه لما أراد أن يرتفع بهم إلى أعلى : ركنوا هم إلى أسفل ، إنهم يريدون أن يأكلوا الثوم والعدس ، والبصل ، ومع أن طعامهم الذى رزقهم الله كان أطيب وألذ وأنظف .

﴿ اهبطوا مصرا ﴾ يعنى اهبطوا بلدا ، أى بلد الزراعة ، أىّ مصر من الأمصار ، أى انحدروا إليه ، فإن ما سألتم يكون فى الأمصار ، لا فى القفار .

والمعنى أن هذا الذى سألتم ليس بأمر عزيز ، بل هو كثير ، فى أى بلد دخلتموها وجدتموه ، فليس يساوى ـ مع دناءته وكثرته فى الأمصار ـ أن أسأل الله فيه .

وقد ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وطبع عليهم بالحقارة ، وذلك لأنهم ابتداء : جحدوا بآيات الله ، وأنكروا شريعته ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ثم إنهم قتلوا أنبياءهم ومن اتبعوهم من الدعاة والمصلحين القائمين بين الناس بالقسط ، ثم بعد ذلك بعصيانهم وتمردهم ، واعتداءاتهم ، وإفسادهم فى الأرض بغير الحق .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

فالمسلمون الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، وأسلموا وجوههم لله ، وهم قائمون للآن على هدى محمد ـ ﷺ ـ : ملتزمون بمنهج القرآن والسنة ، وكذلك الذين انخلعوا عما كانوا عليه حين بلغتهم دعوة محمد ـ ﷺ ـ ، وانتظموا فى دين الله ـ أولئك هم الصادقون ـ من أتباع الأنبياء ، وهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، وعملوا صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وكلما انتكست أمة ، فالفريق الثابت منها على المنهج ، هو الفريق الناجى ، الذين لهم من الله فضل وعطاء ، وعليهم من الله أمن وسكينة ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٦٣ ﴾

هنا وقفة أخرى مع بنى إسرائيل يذكرهم فيها ربهم بما أخذه عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لاشريك له ، واتباع رسله . ثم يذكرهم حين أخذ عليهم الميثاق، ورفع فوقهم الجبل ، ورأوه وهم ينظرون ، وهم يقفون تحته موقفا رهيبا ، وهو سبحانه يناديهم﴿ **خذوا ما آتيناكم بقوة** ﴾ . ﴿ **ما آتيناكم** ﴾ أى التوراة ، و ﴿ **بقوة** ﴾ أى قوة الجد والطاعة .

﴿ **واذكروا ما فيه** ﴾ ليس معناه مجرد تلاوته فقط ، وإنما بتلاوته والعمل به . والقرآن اليوم يرتل ويتلى ويسمع آناء الليل وأطراف النهار ، إلا أنه معطل ومهجور ، فعلى المسلمين اليوم أن ينتشلوا أنفسهم من براثن ما وقعت فيه اليهود والنّصارى من قبل .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٦٤ ﴾

ولكنهم ما لبثوا أن تولّى كثير منهم . .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥ ﴾

وليس ببعيد عليكم أمر الذين اعتدوا منكم يوم السبت ، حين تحايلوا على ماحرم الله حيلا أخرجتهم عن مقتضى التسليم الصادق لأوامر الله . حيث إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان قد حرم عليهم العمل يوم السبت ، ثم اختبرهم بأن جعل الحيتان تأتى وتظهر يوم السبت ، ثم تختفى بقية أيام الأسبوع ، فاحتالوا على ذلك بما سول لهم الشيطان ، فحفروا حياضا عند البحر ، وفتحوا عليها الجداول ، فكانت الحيتان تدخلها ليلا فيصطادونها يوم الأحد ، فعاقبهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على اعتدائهم هذا، قال تعالى : ﴿ **كونوا قردة خاسئين** ﴾ ، و ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** ﴾ [(١)] .

---

(١) انظر : القرطبى ١/ ٤٤٠ ، ابن كثير ، ١/ ١٠٥ .

وهذا التحايل على شرع الله عادة موروثة فى بنى إسرائيل ، عادة كل من أراد أن يرجع عن الحق ويتنصل منه ، فيحل ماحرم الله ويسميه بغير اسمه .

﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ ٦٦

جعلنا آية المسخ : تذكرة لمن هو حاضر ، ولمن يأتى بعد بنى إسرائيل ، ولهذا يجب أن نكون من المتقين الذين يتعظون بآيات بنى إسرائيل . فنتوب إلى الله ، ونسارع بالعودة لكتابه ونبيه ، ونرمى بالجاهلية خلف ظهورنا ، ونحيل الحياة إلى الحكم بما أنزل الله والإسلام لله .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ٦٧ ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ ٦٨

موقف آخر لبنى إسرائيل ـ والعفو الممتد من الله : صاحب الفضل الجزيل والعفو الجميل .

لقد قال لهم نبيهم موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ . . . **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . . .** ﴾ . وهذا الأمر ليس من فراغ ، ولكن حدثت حادثة فى بنى إسرائيل تحكيها لنا كتب التفسير المعتمدة . يقول ابن كثير (1) : عن عبيدة السلمانى ، قال : كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل آخر منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأى منهم والنهى : علام يقتل بعضكم بعضا ، وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى ـ عليه السلام ـ ، فذكروا ذلك له ، فقال : ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ .

فقالوا : ﴿ **أتتخذنا هزوا** ﴾ .

قال : ﴿ **أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين** ﴾ .

قال : فلو لم يعترضوا ، لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد الله عليهم .

---

(1) تفسير ابن كثير ، ١ / ١٠٨ .

قالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ﴾ .

لقد عفا الله عن ذاك رحمة بهم من غير نسيان ، فلم يفطنوا ، وسألوا ما عفا عنه ، فشددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم . وفى هذا يقول تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تُبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم * قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين ﴾[1] .

إن الله سبحانه لا يغفل ولا ينسى ، وحين ينزل الشرع من السماء يسكت عن أشياء لحكمة يعلمها ، فلا يصح السؤال عنها ، لأنه سؤال عما عفا الله عنه . شددوا على أنفسهم ، ولو نظروا فى الأمر بعين الرضا والتسليم لله رب العالمين ، لما أصابهم العنت .

قال : ﴿ إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ . ثم ذكّرهم بعد ذلك بوجوب الاستماع إلى أمر الله دون جدال أو سؤال ﴿ فافعلوا ماتؤمرون ﴾ ، ولكن لم يفعلوا . لقد أصبحوا مطالبين ببقرة ، لاكبيرة هرمة ، ولا صغيرة لم يلقحها الفحل ، ولكن ﴿ عوان بين ذلك ﴾ ، أى بين بين .

وفى هذا من المشقة عليهم ما فيه .

إلا أنهم عادوا للعناد مرة أخرى .

قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

ولو لم يقدموا المشيئة لما هداهم الله ، ولما أجابهم ، ولأخر عليهم الأمر تأخيرًا يعجزون به عن فعل المأمور به ، فيعذبون بذلك .

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

يعنى إنها بقرة مدللة لا مذللة ، فهى لاتحرث الأرض ، ولا تدير الساقية ، مبرأة من كل عيب ، مكرمة ، حسنة ، صحيحة ، ولاشية فيها أى ليس فيها لون آخر غير

---

(١) المائدة : ١٠١ ، ١٠٢ .

الصفرة الفاقعة الصافية ، التى تعجب الناظرين ، وتبعث فى صدورهم السرور والانشراح لرؤيتها .

قالوا : ﴿ **الآن جئت بالحق** ﴾ يعنى الآن بان لنا الحق وظهر ، ولو أنهم أنصفوا لبان لهم الحق فيما أمرهم الله منذ البداية ﴿ **فذبحوها وماكادوا يفعلون** ﴾ لغلو ثمنها ، فقد أصبحت موصوفة بأوصاف ستة .

يقول القرطبى فى تفسيره [١] : « وهذه الأوصاف فى البقرة سببها أنهم شددوا فشدد الله عليهم ، ودين الله يسر والتنطع فى سؤال الأنبياء وغيرهم من العلماء مذموم ، نسأل الله العافية» .

وروى فى قصص هذه البقرة روايات يرجع إليها من شاء فى مظانها من كتب التفسير.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

واذكروا ﴿ **إذ قتلتم نفسا** ﴾ بغير حق ، فاختلفتم فى أمر قاتل هذه النفس ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ مظهر للحق وإن أخفيتموه ، ومخرج لما تكتمونه فى صدوركم .

ولما أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يظهر الحق ، ويخرج ما غيبوه من أمرهم ، قال لأهل القرية : اضربوا القتيل ببعض هذه البقرة ، يعنى بجزء من أجزائها . وهذه مفأجاة عجيبةتبين لنا حكمة الله ، وكيف كان من تبيانه لآياته ما يجعل الأرض الصلبة تنطق بأن الله على كل شىء قدير ، وبأنه هو وحده صاحب الأمر .

فهذه البقرة ذبحت لحكمة يعلمها الله ، وليرينا من آياته فى الخلق والبعث بعد الموت ﴿ **فقلنا اضربوه ببعضها** ﴾ .

فأخذوا القطعة التى أخذها موسى من البقرة ، فلما ضربوا بها القتيل إذا به يحيا ، فسألوه : من الذى قتلك ؟ .

فقال المقتول المبعوث : ابن أخى ، ثم مات ثانية . .

فسبحان باعث الحياة من الموت .

---

(١) تفسير القرطبى ١ / ٤٥٤ ، ٤٥٥ بتصرف يسير .

لقد أعطاكم يابنى إسرائيل من الآيات والأعاجيب ما إن اتعظتم به لما غفلتم عنه طرفة عين .

﴿ **كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون** ﴾ فهل عقل بنو إسرائيل ؟ هل خشعت قلوبهم لما رأوا من آيات الله ؟ أم ماذا حدث ؟

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ وأى قسوة وقعت بالقلوب ﴿ **فهى كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ . وكان ينبغى أن تكون نورا وحياة وعطاء وتلقيا وطاعة ورحمة واستجابة لله ، ولكنها صارت كالحجارة أو أشد قسوة ، فالحجارة ألين من قلوب المتمردين على الله سبحانه ، ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار** ﴾ .

وكذلك يكون بعض الناس ، تقسو قلوبهم فهى كالحجارة ، إلا أنه يأتى عليهم وقت تلين قلوبهم ، فتخشع فتنهمر الدموع من عيونهم كالأنهار ﴿ **وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء** ﴾ . أما هؤلاء : فلا .

وبعض الناس كذلك تقسو قلوبهم ، فإذا رأوا من الآيات البينات شيئا استجاب للآية التى اخترقت قلبه فشقته ، ثم تخرج من عينه دموع الخشية . وتختلف درجة هذا عن الأول فى اللين والرقة ؛ وليس فى بنى إسرائيل من أمثال هذا ولا ذاك .

﴿ **وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ . كذلك المؤمن حين يصل به الخوف والخشية إلى أعلى ما يمكن بلوغه .

وقد نبهنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أن نعى هذا الدرس حتى لاتقسو قلوبنا كقسوتهم حيث ـ قال تعالى ـ : ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴾[1] .

وهذه القصة تبين لنا بعض صفات بنى إسرائيل ، وتبين أنه لايجوز التعامل معهم إلا

---

(١) الحديد : ١٦ .

ونحن موقنون بأن نفوسهم المريضة تحتوى على كم متراكم من اللجاج والجدال والكبر والعناد، كما حدث فى ذبح البقرة والتلبيس والتدليس، وتدبير المكائد، واتهام الآخرين بالقيام بها ظلما وبهتانا ، كما حدث أيضا فى قتل اليهودى عمه ليستولى على أمواله .

ثم هم بعد ذلك كله لايؤمنون بآيات الله ، ولا تلين قلوبهم لذكر الله ، وإن كانت الحجارة قد تفجرت عيونا أمامهم ، فإن قلوبهم أشد صلابة وقساوة وبعدا عن التأثر بآيات الله .

ثم هم بعد ذلك لايوقرون عظيما ، ولا يرحمون ضعيفا ، وقد رأينا كيف كان سوء أدبهم ، إذ يقولون لسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ ادع لنا ربك ﴾ ، كأنه رب موسى وحده وليس ربهم . . . سوء فى الأدب ، وفجاجة فى التعبير .

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

إن هؤلاء القوم يُدْعون إلى الحق فلا يستجيبون له ، ولا يؤمنون به ، وبعض المسلمين يطمعون فى أن يؤمنوا لهم .

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من المؤمنين ألا يطمعوا فى أن يؤمن لهم هؤلاء ، أو أن تلين قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ؛ إذ هم أصحاب القلوب القاسية الذين سمعوا كلام الله فحرفوه من بعد ما علموا مافيه وعقلوا مايحويه .

هؤلاء الذين استخلفهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الأرض ، واستأمنهم على صحف موسى وعيسى ليعيشوا شريعة الله عملا والتزاما ، ودعوة وبلاغا ، ولكنهم لايثوبون لحق تبين لهم ، لقد خانوا الله ورسوله من قبل ، وخانوا أماناتهم ، وخدعوا المؤمنين ، فلايطمعن أحدكم فى أن يكون هؤلاء اليهود يوما ما معكم على صراط مستقيم .

لقد دلل الله سبحانه وتعالى على استحالة إيمانهم بقسوة قلوبهم . وفى الآية التالية يبين لنا سبحانه أنهم جمعوا ـ مع قسوة القلوب ـ فساد العقول ، فلا قلب يخشع للحق ، ولا عقل يرتقى إليه ، فمن أين يعرف الإيمان لهم طريقا ؟

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم

بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا
يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

فهل تظنون بعد ذلك أيها المؤمنون أن يكون هؤلاء على مثل ما أنتم عليه ؟!

إنهم حين يلقون أصحاب محمد - ﷺ - ومن تبعهم من المؤمنين ، يعترفون لهم بنبوة محمد - ﷺ - ورسالته ، حتى إذا ما خلا بعضهم إلى بعض قالوا : « أتخبرون المسلمين أنكم على علم بنبوة محمد - ﷺ - وما فتح الله به عليكم من أمره فى التوراة ، ليكون ذلك حجة لهم عليكم يوم القيامة عند ربكم ، فتعذبون فى النار ، بعد أن تظهر خديعتكم ، ويتبين حقدكم على محمد - ﷺ - والحق الذى جاءكم به ؟» .

وكأن الله - سبحانه وتعالى - فى حاجة إلى المؤمنين ليخبروه بما لايعلم : سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فأى عقل هذا الذى به عبدوه ؟!

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

هذه صورة أخرى من صور الضلال والجهل والانحراف عن الصراط : صورة الفتوى بغير علم . . والحديث بالظن .

وأسرع الناس فتوى بغير علم أسرعهم إلى النار ، وإن الظن لأكذب الحديث[1] ، إنها فتنة عظمى تصيب الذين لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانى ، إلا تلاوة ، وهم لايعلمون من الحق إلا تخيلات أملتها عليهم أمانيهم وأهواؤهم .

فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟
بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

إنهم يحرفون الكتاب على علم ، أو يفتون فى الكتاب على جهل ، ثم يقولون : ﴿هذا من عند الله﴾ ، هذا وحى الله وكلام الله ، فغرتهم الأمانى وأردتهم الظنون لاريب ، ذلك أن الله يعلم أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ، فيلعنهم بكل حرف كتبوه ، وبكل كذب على الله أشاعوه ، وبكل فتوى باطلة أفتوا بها ولفقوها .

---

(١) رواه البخارى كتاب الأدب باب (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن) .

فويل لهم مما يفعلون ليشتروا به ثمنا قليلا . والثمن القليل هو الدنيا ، وهى بحذافيرها لاتساوى شيئا أمام ما أعده الله ـ سبحانه وتعالى ـ لعباده الصالحين .

وهؤلاء الذين نبتت أجسادهم من السحت ، والذين بنيت أعضاؤهم على ثمن الكفر ، الويل ثم الويل من الله لهم والنار أولى بهم .

وهذه المصيبة العظمى تصيب طائفة من الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، تغريهم الدنيا بزخارفها الباطلة ، وترقيهم للمناصب العالية ، أو تخيفهم تهديدات الظالمين ، ثم لايصادف ذلك منهم إيمانا صادقاً ، ولا توحيدا خالصا لله رب العالمين ، فيبدلون كلام الله لينالوا عرض الحياة الدنيا .

وكما وقع أحْبَار بنى إسرائيل فى هذه المصيبة وقع ـ وللأسف ـ بعض المسلمين اليوم .

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

تلك حجة كل من أراد أن يستحل لنفسه معصية ربه ويخدع المؤمنين .

وما يعلم هؤلاء ما هذه النار التى يدّعون بأنها لن تمسهم إلا أياما معدودة !!

ولكن اليهود ادعوا ذلك : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ .

وهذا نفس ما ادعاه المشركون ، فماذا قال لهم؟

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

ماذا فعل الله ببنى إسرائيل بعد ذلك كله ؟ وماذا فعل من كفر من بنى إسرائيل (اليهود والنصارى) مع الله ؟

جهلوا ، وتمردوا ، وأفرطوا ، اختلفوا وتعنتوا ، اختلقوا وزوروا ، بدلوا وحرفوا ، سرقوا وأجرموا ، والله سبحانه يعفو عنهم مرة أخرى فيأخذ عليهم عهدا وميثاقا جديدا ، به يرفعون ما وقع عليهم من الرجس والغضب ، وهى دعوة مجددة للإيمان باعثة للحق فى

نفس المعرضين الذين حادوا عن الطريق : أن يأخذوا بها ، علهم بذلك أن يجدوا الطريق ويسيروا فيه .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

لاتتخذوا من دون الله إلها . . وهذا أساس كل خير . . والشرك بالله أساس كل شر.

ولا خير فى أمة حرمت بر الوالدين ، فبر الوالدين رأس البركة ، ولا يعجل الله سبحانه عقوبة فى الدنيا قبل الآخرة مثل عقوبة العاق لوالديه ، ولا يعجل الله إثابة فى الدنيا قبل الآخرة مثل إثابة البار بوالديه ، وقد قرن الله رضاه برضاهما ، وشكره بشكرهما ، فقال : ﴿ **أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير** ﴾ .

وعن ابن مسعود ـ رضى عنه ـ قال : قلت يا رسول الله أىّ العمل أفضل ؟

قال : الصلاة على وقتها .

قلت : ثم أىّ ؟

قال : بر الوالدين .

قلت : ثم أى ؟

قال : الجهاد فى سبيل الله »[1] .

وقوله تعالى ﴿ **وذى القربى** ﴾ يعنى وإحسانا بذى القربى . . وهم الذين يمتون إليكم بصلة رحم أو عصب . بكل على درجته : الأقرب فالأقرب . . وكذلك القريب فى المكان ، كالجار ، وصلة الأقارب والأرحام سبب فى رفع غضب الله عن قوم قطعوا أرحامهم ، فالبلاء لاينزل إلا بذنب ، ولايرفع إلاّ بتوبة .

قال تعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾[2] .

ومن يتدبر الآية يستشعر خطورة الأمر : أمر قطع الأرحام ، الذى من محصلته

---

(١) البخارى كتاب الأدب باب البر والصلة .

(٢) محمد : ٢٢ـ٢٣ .

الفساد فى الأرض ، ولعنة الله التى تصيب الآذان بالصمم عن الحق ، وتعمى الأبصار عن الذكر .

ويجب أن يفطن القائمون بعلاج المجتمعات الخاملة المريضة إلى ذلك . . فالعلاج موصوف من الله الحكيم . ولا تؤتى الدعوة ثمارها المرجوة إذا لم تكن دعوة بالله إلى الله .

وبعد أن أوصانا تعالى بعبادته وحده لاشريك له، ثم بالإحسان إلى الأقارب، يوصينا بالإحسان إلى اليتامى والمساكين ، ثم يوصينا بالناس أجمعين ، حتى لا يبقى ممن نعرفه أحد إلاوقد أحسنا إليه ، فيكون شهيدا لنا يوم القيامة . وحتى من لانعرفه ، أمرنا أن نحسن إليه القول ، وأقل ذلك إلقاء السلام .

قال تعالى : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ .

يعنى كلموهم كلاما طيبا ، ولينوا لهم جانبا . ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما يدخل فى ذلك : الحلم، والصفح ،والعفو ، وكل خلق حسن .

ولقد جمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذا الميثاق بين الإحسان الفعلى والإحسان القولى، ثم أكمل ذلك كله بالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

وهكذا يتم الخير ، وتتم الرحمة ، فماذا بعد يا بنى إسرائيل ؟؟

توليتم عن الحق الذى دعيتم إليه ، وتعاهدتم على الوفاء له ، ووثقتم مع الله تعالى المواثيق من أجله .

والقلة القليلة ـ فى كل أمة ـ هم الذين يتمسكون بالحق ، ويوفون بالعهد ، ويبحثون عن الطريق ، ويصرون على السير فيه ، ويحثون من حولهم على الاعتصام به . أما الكثرة الكثيرة ، فقد غلبت عليهم شقوتهم ، وأعرضوا عن الطريق ، وضلوا وأضلوا : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [1] .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾

لقد أخذ الله عليهم أيضا المواثيق ، التى شهدوا عليها وأقروا بها . فماذا فعلوا . . ؟

---

(١) يوسف : ١٠٣ .

ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ
تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ
مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ
بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

يقول ابن كثير[1] عن ابن عباس : « أنبأهم الله بذلك من فعلهم ، وقد حرم عليهم فى التوراة سفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم ، فكانوا فريقين : طائفة منهم حلفاء الخزرج . وطائفة حلفاء الأوس . فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على أخوانه ، حتى تسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة، يعرفون فيها ما عليهم وما لهم ، والأوس والخزرج : أهل شرك ، يعبدون الأوثان، ولايعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ، ولا كتابا ، ولاحلالا ولا حراما . فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما فى التوراة ، وأخذًا به بعضهم من بعض ، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم ، وقتلوا من قتلوا منهم ، فيما بينهم : مظاهرة لأهل الشرك عليهم .

يقول الله ـ تعالى ذكره ـ حيث أنبأهم بذلك ﴿ **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ﴾ أى تفادونهم بحكم التوراة ، وتقتلونهم ، وفى حكم التوراة أن لا يقتل ولايخرج من داره، ولا يظاهر عليه إلا من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه، ابتغاء عرض الدنيا؟ ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج ـ فيما بلغنى ـ نزلت هذه القصة » اهـ.

والذى أرشدت إليه الآية الكريمة ، وهذا السياق : ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها ويخالفون شرعها ، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة ، فلهذا لا يؤمنون على مافيها ، ولا على نقلها ، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول

(١) ابن كثير ـ ١ / ١٢١ بتصرف يسير .

الله ـ ﷺ ـ ونعته، ومبعثه ومخرجه ، ومهاجره ، وغير ذلك من شئونه التى أخبرت بها الأنبياء قبله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ . واليهود ـ عليهم اللعن ـ الذين كفروا يتكاتمونه بينهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي فى الحياة الدنيا ﴾ ، أى بسبب مخالفتكم شرع الله وأمره ﴿ ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ﴾ جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذى بأيديهم ﴿ وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ أى لايفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ولاهم ينصرون ﴾ أى وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى ، ولايجيرهم منه ، ويقفون بين يدى الله ، ليس لهم من قوتهم ولا من حولهم شىء ، ولكن عرايا من كل شىء ، يحاسبهم ربهم حسابا عسيرا ، ويصليهم ناراً.

وما من مفرق بين أحكام الله ، إلا ويلقى خزيا عظيما فى الدنيا قبل الآخرة ، ليكون آية مشهودة ، لكل من يفعل فعله ، أو يسلك مسلكه ، أو يسير مساره ، والآيات واضحة وبينة، والعبرة لمن يعتبر .

فالقرآن كل لا يتجزأ ، والسنة كذلك ، والإسلام دين شامل كامل تام ، جاء ليحكم كل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس جميعا .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقيم على بنى إسرائيل الحجة بإتيان موسى ـ عليه السلام ـ الكتاب ، وهو التوراة ،وبما أرسل من أنبياء من بعده يذكرون بذلك الكتاب ، ويشرحون تعاليمه لبنى إسرائيل، ويمتن كذلك ببعثه عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ الذى جاءهم بالبينات وأيده الله بروح القدس : يعنى جبريل وقيل الإنجيل .

ما أكثر ما يمتن به الله عليهم ، ولكن بنى إسرائيل لا يخرجون عن دائرة انتكاسهم ، فهم يقتلون الأنبياء ، كلما جاءوهم فذكروهم بالحق ، لأنهم لايريدون أن يخضعوا لبيان الله على ألسنة رسله ، بل يخضعون كل شىء لأهوائهم وشهواتهم .

وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

وهنا يبين الله أن على قلوبهم أغلفة غليظة ، تحجبهم عن الحق ، فلا يؤمنون به ، ولذلك لعنهم الله : بما كفروا وجحدوا من أمره ودينه .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ
بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟
نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

لقد كان يهود المدينة ، يقولون لأهلها من الكفار المشركين : إنه سيأتى الرسول الخاتم الذى ننتصر به عليكم ، ونفتح به بلادكم . فلما جاءهم محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومعه القرآن ، مصدقا لما معهم من التوراة ، استكبروا وأنكروا الحق الذى كانوا من قبل يؤمنون به ﴿ **فلعنة الله على الكافرين** ﴾ كفرا تلو كفر .

وهذه لعنة بعد لعائن كثيرة ، وقعت على بنى إسرائيل ، فكل كفر تعقبه لعنة ، وكل لعنة يعقبها كفر وهكذا دواليك .

إنهم الكافرون . . وهم المغضوب عليهم . . وهم إخوان القردة والخنازير ، فلعنة الله على الكافرين ، الذين يكفرون بالحق ، ويفسقون عنه ، ويظاهرون عليه أهل الباطل ، أولئك مطرودون من رحمة الله سبحانه .

۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ
وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾

لقد جاءهم موسى ومعه الآيات البينات ، ليذكرهم بالله ربهم ليخشوه ويتقوه ، ويتعظوا بما آتاهم ، ويستشعروا وجود المالك الخالق ، وليعلموا أنهم مكلّفون بعبادته واتباع نبيه المرسل إليهم ، إلاّ أنهم لم يعتبروا ولم يتعظوا ، ومع هذا : اتخذوا عجلا من

الذهب ، فعبدوه ، فبئس ما اتخذوا ، وبئس ما صنعوا وبئس ما عبدوا ، وبئس ماهداهم إليه عقلهم إن كانوا يعقلون .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

لايزال الله سبحانه يعدد عليهم أخطاءهم ، ويذكرهم بها ، وهذا اللون من الخطاب هو فى حق اليهود شىء من العذاب الذى يصيبهم الله به فى الدنيا قبل الآخرة ، وهو الدليل والآية على كونهم أهل النار ، فلن يعصمهم من الله بعد ذلك عاصم ، ولن يقيهم منه واق .

لقد أخذ الله سبحانه عليهم الميثاق فأبوا أن يستجيبوا له حتى رفع الجبل فوقهم ، ورأوه كأنه ظلة : آية منه ﴿ **وظنوا أنه واقع بهم** ﴾ ، وناداهم مناد من قبل ربهم ﴿ **خذوا ماآتيناكم بقوة واسمعوا** ﴾ وما إن قبلوه إلاّ وخالفوه ، فقالوا : ﴿ **سمعنا وعصينا** ﴾ .

وما ذلك إلا لأنهم أشربوا حبهم للعجل ، حتى خَلَصَ ذلك إلى قلوبهم فأعماهم وأصمهم، « وحبك الشىء يعمى ويصم » فقد دخل حبهم لعجل الذهب قلوباً خاوية من الحب لله ، فتملك منها وأحاط بها .

وما كان ذلك منهم إلا لكفرهم بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ورسله ، وهم بعد ذلك يدعـون أنهم لن يؤمنـوا إلا بما جاءهم به موسى ، متخذين ذلك ذريعة للكفر بمحمد ـ ﷺ ـ .

ويستمر الحق سبحانه فى الاستهزاء بهم ، والسخرية بإيمانهم قاذفا به فى وجوههم ، رادا كيدهم فى نحورهم . فيقول :

قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾

وكيف يتمنون الموت ، ولم يقدموا له عملا ، اللهم إلا نفوسا منغمسة فى الكبر على الله وعلى رسله ، وعلى آياته ؟!

أتدعون أن الله يؤثركم على غيركم من عباده ؟! كذبتم . . ولو كان الأمر كذلك لتمنيتم الموت . .

وأخبر الله رسوله مسبقا بأنهم لن يتمنوه أبداً لعلمه بظلمهم . وأنه لايتمنى الموت ظالم، ولكن يخافه ، وهم كذلك ، ليقينهم بأن الله سوف يعذبهم أشد العذاب ، ويخزيهم أشد الخزى ، ويكسوهم به لكبرهم وافترائهم على الله وظلمهم .

وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

فهم أحرص الناس على الحياة وعلى طول العمر . ولكن الله البصير بما يعملون ، الخبير بما هم عليه ، سيميتهم فى موعدهم المحدد لهم . ولن يزحزحهم عن الموت ولاعن العذاب طول عمرهم فى الدنيا التى أحبوها وأحبوا الحياة فيها ، فكيف يمكن أن يدعى مثل هؤلاء أن لهم الحياة الآخرة خالصة من دون الناس ؟ والله سبحانه يمهل الظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته .

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾

كيف يكون مثلكم أولياء لله من دون الناس ، وأنتم الذين عاديتم الله وملائكته ورسله ؟

وقد أجمع أهل العلم بالتأويل جميعا أن هذه الآية جواب لليهود من بنى إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولى لهم .

عن أنس بن مالك، قال : « سمع عبد الله بن سلام بقدوم رسول الله ـ ﷺ ـ وهو فى أرض يخترف [1] ، فأتى النبى ـ ﷺ ـ فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلاّ نبى : فما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟

قال : أخبرنى بهنَّ جبرائيل آنفا .

قال : جبريل ؟

---

(١) يخترف : يجنى التمر .

قال : نعم .

قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقرأ [1] هذه الآية : ﴿ من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ .

أما أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت ، وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة نزعت .

قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى .

فجاءت اليهود ، فقال النبى - ﷺ - : أى رجل عبد الله فيكم ؟

قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا .

قال : أرأيتم إن أسلم عبد الله بن سلام ؟

فقالوا : أعاذه الله من ذلك .

فخرج عبد الله ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

فقالوا : شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه .

قال : فهذا الذى كنت أخاف يا رسول الله [2] » .

ولو أن الله قد أنزل على نبيه ميكائيل ما آمنوا به ، ولكنهم جبناء يدّعون ماليس فى قلوبهم ﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

إن الذى أنزل عليك جبريل بالقرآن إنما هو الله .

وكل ما يتنزل به جبريل عليك ، إنما هو بشرى للمؤمنين - لانذير حرب وشؤم كما زعمت يهود - هو علامة على نبوتك وأمارة على صدقك .

مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

إن الله عدو للكافرين الذين يفترون على الله وملائكته ورسله الكذب .

---

(١) يعنى : النبى - ﷺ - .

(٢) رواه البخارى ، كتاب : التفسير ، باب : قوله (من كان عدوًّا لجبريل) .

وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾

إن القرآن الذى أنزله الله على محمد ، وما فيه من آيات بينات . . إنما يتنزل به جبريل على قلبه ، وما دعا إليه محمد - ﷺ - إنما هو الحق ، وما يكفر بالحق ويكذب به إلاالفاسقون ، المنكرون للحق وهم يعلمون .

أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

يدعو الله سبحانه نبيه لتذكر حال بنى إسرائيل الذى لايتغير أبدا ، وهو أنهم منافقون، وهم دائما أهل كذب وضلالة ، لايعاهدون عهدا إلا نقضوه ، ولايعدون وعدا إلاأخلفوه ، لأن أكثرهم لايؤمنون ، فلاتبتئس بما يفعلون يامحمد ، وذرهم فى خوضهم يلعبون .

وهذه الآية صريحة فى أن اليهود - فى كل زمان ومكان - ينقضون العهود . ﴿ كلما ﴾ تفيد تكرار حدوث الخلف مع كل وعد ، ولذلك يجب أن يعلم المسلمون : أن اليهود لاعهد لهم ، ولا يوفون بوعد ، بنص القرآن الكريم .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

إن طائفة من أهل الكتاب نبذوا وطرحوا الحق الذى يعلمونه ، وأنكروه كأن الأمر لايخصهم فى شىء ، وغير موجه إليهم ، تركوا العلم الذى فيه حياتهم وسعادتهم ، ثم ماذا فعلوا بعد ذلك ؟

وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟

لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾

لقد أقبلوا على تعلم السحر واتباعه وأرادوا به كيدا لرسول الله - ﷺ - وسحره .

يقول القرطبى : إن « ما » نافية ، حيث إن الله لم ينزل على الملكين سحراً ، والملكان هما جبرائيل وميكائيل ، فيكون تقدير الكلام (وما كفر سليمان ، ولا أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا : يعلمون الناس السحر) [1] بـ (بابل هاروت وماروت) .

وبابل هى الأرض المعروفة[2] وأما هاروت وماروت ، فهما : الساحران اللذان يعلمان الناس السحر .

وعلى هذا يكون قولهما هذا من باب التبرئة لأنفسهما لأنهما علما الخير من الشر ، والكفر من الإيمان .

ويرى الحسن البصرى ، أن الملكين أنزلا بالسحر ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله أن يبتلى به الناس ، فأخذ عليهما الميثاق أن لايعلما أحدا حتى يقولا إنما نحن فتنة فلاتكفر[3] .

وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

لو أنهم وحدوا الله سبحانه ، وعبدوه عبادة خالصة لوجهه الكريم ، واستقاموا على طريق الأنبياء من قبل محمد - ﷺ - وعلموا أن الحق كله إنما جمع فى صحف محمد - ﷺ - بين دفتى القرآن العظيم .

لو أنهم صدّقوا وعملوا بما علموا ، لكانت مثوبة الله على ذلك خيرا لهم من الدنيا وما فيها، مما فتنوا به وبهروا ، ورضوه لأنفسهم ، ولو على حساب رضوان الله .

نعم ، لو كانوا يعلمون لاكتفوا بالله فعّالا ، وما انتكسوا ولجئوا لغيره سبحانه .

---

(١) انظر ابن كثير ، ١/ ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٢) قال فى القاموس : « بابل ، كصاحب موضع بالعراق ، وإليه ينسب السحر والخمر » .
(٣) انظر ابن كثير : ١/ ١٤٣ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ
ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عباده المؤمنين بصدق الحديث وصراحته ، وذلك لما يتناسب مع طهارة قلوبهم وصفاء نيّاتهم. ونهاهم عن التشبه بالكافرين فى أقوالهم وأفعالهم .

وقد كان اليهود إذا أرادوا أن يقولوا « اسمع لنا » قالوا (راعنا) وراعنا : من الرعونة ، وهى الحمق . ورجل أرعن ، يعنى أهوج فى منطقه ، وقد كان اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ يقولونها سبا للنبى ـ ﷺ ـ ويوارون بالرعونة .

وقد نفرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ من الكافرين وأعمالهم وأقوالهم ، حيث بين أنه قد أعد لهم العذاب الأليم ، ثم زادنا منهم نفورا ولهم بغضا حين كشف سرائرهم .

وبين شدة عداوتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبين المؤمنين ، فلا يتشبهون بهم .

وفى هذا تهديد ووعيد ونهى شديد عن التشبه بالكفار أقوالاً وأفعالاً وعبادة ولباسا وأعيادا .

بل قد أمرنا بتعمد مخالفتهم فى أمورهم التى لم تشرع لنا ولا نزلت إلينا .

والله تعالى يختص برحمته من يشاء من عباده ـ الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ـ فتنزلت عليهم رحمات الله ، فيرضون بحكمه ودينه ، ويرضون باتباع نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ .

۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾

إن الله الذى نزل الكتاب ، وبعث محمدا ومن قبله الأنبياء والمرسلين ، له الأمر سبحانه : من قبل ومن بعد . . فله أن ينسخ مما أنزل ، وله أن يضيف إلى ما أنزل .

وقوله تعالى : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها﴾ يعنى خيراً مما نسخنا ، أو مثل ما تركنا .

وإن ذلك لمن الإعجاز القرآنى ، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ينزل القرآن ويتحدى به المشركين أن يأتوا بمثله ، ولو بآية ، فلا يستطيعون ذلك ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً .

ولكن الله سبحانه يريهم من براهين كماله وإعجازه أنه ينسخ هذا القرآن المعجز ، فلايخرج عن إعجازه إلا بكونه خيراً منه أو مثله .

وهذا الخطاب وإن كان موجها إلى شخص رسول الله ـ ﷺ ـ الذى يعلم تمام العلم أن الله على كل شىء قدير ، إلا أن فيه توبيخا للجاحدين والمكذبين ، واستهانة بعقولهم وعجزهم .

وبعد أن نهانا الله تعالى عن التشبه باليهود : قولا ، وفعلا ، مبينا لنا شدة عداوتهم للمؤمنين ، حذرنا من التأثر بهم وسلوك مسلكهم ، فقال :

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

فإلى متى أيها المؤمنون تسيرون خلف اليهود ، متشبهين بهم فيما قل أو كثر ؟ هل ستظلون على ذلك حتى تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى من قبل ، بحجة العقل والمنطق ، فلا تجدون أنفسكم إلا وقد وقعتم فى الكفر بعد الإيمان ، والردة بعد الاتباع ؟ .

وحاش لله أن يسأل أهل الإيمان محمداً ـ ﷺ ـ كما سئل موسى من قبل .

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾

وفى هذا مزيد من التحذير للمؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، مبينا لهم عداوتهم الظاهرة والباطنة ، واليهود منهم خاصة الذين يحسدون الذين آمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ وصدقوا بما أنزل عليه .

وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

فكل ما قدمتم من خير : فرضا كان أو تطوعا ، فإنما هو لأنفسكم ، وستجدونه عند الله ﴿ **إن الله بما تعملون بصير** ﴾ .

إن هؤلاء اليهود والنصارى : لفرط حقدهم وحسدهم ، عميت قلوبهم ، فصدت عن الحق ، وعميت أعينهم ، فصدت عن السبيل ، وظلوا يكذبون حتى صدقوا أنفسهم أوتوهموا ذلك .

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾

إن هى إلا أمانى يتمنونها ، ولا برهان لهم ولا حجة ، فاليهود يقولون : لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا ، والنصارى يقولون : لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا ، فكذب بعضهم بعضا ، وكذبهم الله جميعا ، فقال تعالى :

بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾

فأى نصر للمؤمنين .؟ وأى تأييد .؟. وأية محبة من الله لمن أسلم وجهه لله وهو محسن؟ وصدق الله إذ قال : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ ؟

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

وهكذا . . كذّب بعضهم بعضا . . وصَدَقَ الطرفان : ليست النصارى على شىء ، ما داموا لم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - وليست اليهود على شىء ما داموا لم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - .

لقد قال ذلك أهل العلم منهم ، ثم قاله كذلك الذين لا علم لهم ، كما قالت الآية : ﴿ **كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم** ﴾ وهم الذين لايتلون الكتاب من المشركين والكفار . فتشابه بالكفر قلب من علم بمن لايعلم .

ويوم القيامة : طوبى لمن أسلم وجهه لله وهو محسن من أمة آدم إلى أمة موسى وعيسى ، إلى أمة محمد - ﷺ - وأخلصوا دينهم لله ، وهم يحسنون الفهم كما يحسنون العمل الذى أمرهم الله - سبحانه - به .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

﴿ **ومن أظلم** ﴾ ؟ استفهام يفيد النفى ، يعنى « ليس هناك أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها » . وأعظم الظلم أن يكون المنع عن بيت الله الحرام والكعبة المشرفة ، وهذا ما فعله المشركون الذين أخرجوا الرسول - ﷺ - من مكة ، هو وأصحابه ومنعوهم : من الصلاة فى المسجد الحرام ، ومن حج البيت .

هؤلاء لا ينبغى أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين ؛ فليس لهم فى الدنيا إلا الذلة والخزى ، ولا فى الآخرة إلا العذاب العظيم ، وذلك بما حملت قلوبهم من نفاق ، وبما كفروا به من الحق الذى أنزل على محمد - ﷺ - .

وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

هناك روايات عديدة فى سبب نزول هذه الآية ، وجملتها أن التوجه إلى المشرق والمغرب لله تعالى ، سواء إلى بيت المقدس ، أو إلى الكعبة ، أو إلى أى اتجاه فى السفر عند صلاة التطوع ، فهو جائز [1] ، لأن المشرق والمغرب لله تعالى ، وله ما فى السموات والأرض . فأينما وُجد المؤمنون ، ولّوا وجوههم شطر القبلة بدليل قوله تعالى : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ ؛ فالله - سبحانه وتعالى - معهم ، يسمعهم ، ويراهم ويعلم سرهم ونجواهم .

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ، ١/ ١٥٧ - ١٥٨ .

والذين اتخذوا لله ولدا هم اليهود والنصارى . حيث يقول تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ [1]

والآية حجة تدحض قول هؤلاء ، وكل من يدعى أن لله ولدا ، لأنه سبحانه لا ولد له ، ولاشريك ، ولا صاحبة ، سبحانه تنزهت أسماؤه ، وعلت عن الكيف والمثل صفاته .

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

إن مشركى العرب ، قد تشابهت قلوبهم مع اليهود والنصارى ، الذين قالوا ذلك من قبل ، وقد رد الله عليهم أن الآيات واضحة بينة ، ولكنها لقوم يوقنون ويعقلون ويتذكرون ، ولكن هؤلاء يكابرون . ألم يروا فى السماء آية وفى الأرض آية وفى أنفسهم آية؟

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

ولقد تشابهت قلوب الكافرين قديماً بقلوب الكافرين حين أنزل الله على محمد الكتاب المبين .

أنت بشير للذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ونذير للذين أعرضوا وقالوا : ﴿ **لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية** ﴾ . بشير للذين عرفوا قدرة الله فى سمواته وأراضيه ، وفى الزهرة الملونة ، وفى الماء الجارى ، وفى حياة الأبوين وبث الذرية منهما .

ونذير لمن لم يتعظ بتلك الآيات ، فسبحان الله ، إن الآيات حولهم ومن فوقهم ، ومن تحتهم ، من بين أيديهم ومن خلفهم ، مبثوثة فى الكون كله ، ويقولون : ﴿ **لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية** ﴾ . إنه الإثم المبين فى نفوسهم ، والظن الأثيم فى ضمائرهم .

---

(١) التوبة : ٣٠ .

وهؤلاء هم أصحاب الجحيم ، فلا تبتئس ، فلن تسأل عنهم ، فكل امرئ بما كسب رهين .

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ١٢٠

لن ترضى اليهود ولا النصارى عن محمد - ﷺ - وتعترف بنبوته ، إلا أن يتبع ملتهم وحاش لمحمد - ﷺ - أن يتبع ملتهم ، وهو رسول الله الأمين ، وصفيه من خلقه .

وهكذا هم فى كل زمن : لايرضون عن المسلمين حتى يدخلوا فى ديانتهم المحرفة ، وعقائدهم المزيفة .

ويجب على المسلمين - حكاما ومحكومين - أن يتعاملوا معهم على هذا الأساس الواضح .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ ١٢١

﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ : أى يؤمنون به ، ويعملون بمنهجه ، ويدعون الناس إليه .

هؤلاء هم الذين يتلون القرآن حق تلاوته ، لا أولئك الذين ادعوا حفظ القرآن وأبعدوه عن الحكم والسياسة والاجتماع والتعليم والاقتصاد .

﴿ ومن يكفر به ﴾ أى بالكتاب الذى أنزل على محمد - ﷺ - بلاغا لأمته ومنهجًا لها ، أولئك هم الخاسرون ، لأنهم كفروا بما أنزل على محمد - ﷺ - وهو الحق .

ويعود الحق - تبارك وتعالى - فينادى بنى إسرائيل :

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ١٢٢

يابنى إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم ، فاتبعوا محمداً - ﷺ - ، ولا تنتكسوا ، وصححوا أخطاءكم ، واستغفروا ربكم ، وانطقوا بالشهادتين وقولوا : « لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، محمد عبد الله ورسوله » لتكونوا بعد ذلك من الشاكرين الذاكرين .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ١٢٣

اتقوا يوم القيامة . يوم لاتجزى فيه نفس عن نفس شيئاً .

﴿ **ولا يقبل منها عدل** ﴾ لأنه يوم لا مفر فيه من الجزاء ، يوم يفر فيه المرء من أخيه وأمه وأبيه .

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

يقول ابن كثير رحمه الله [1] : وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر بها إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ فروى عن ابن عباس روايات فى ذلك ، قال ابن عباس : «ابتلاه الله بالمناسك» . وعن التميمى عن ابن عباس قال ابتلاه بالطهارة : خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد .

فى الرأس : قص الشارب، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس .

وفى الجسد : تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء .

وروى أيضا عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : « ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم ، قال تعالى : ﴿ **وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن** ﴾ .

قلت له : وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن ؟ .

قال : الإسلام ثلاثون سهما ، منها عشر آيات فى براءة ﴿ **التائبون العابدون** ﴾ إلى آخر الآية . وعشر آيات فى أول سورة ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ و ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾. وعشر آيات الأحزاب ﴿ **إن المسلمين والمسلمات** ﴾ إلى آخر الآية ، فأتمهن كلهن ، فكتبت له براءة ، قال الله تعالى : ﴿ **وإبراهيم الذى وفى** ﴾ . والأصح أن الكلمات هى ما سأل إبراهيم ربه فى قوله : ﴿ **رب اجعل هذا بلدًا آمنا** ﴾ ، ﴿ **ربنا تقبل منا** ﴾ ﴿ **واجعلنا مسلمين لك** ﴾ ﴿ **وابعث فيهم رسولا منهم** ﴾ .

قلت : لأن النص يفسر بعضه بعضا أ هـ .

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ، جـ ١ ، ص ١٦٥ .

والبيت هو البيت الحرام بمكة المكرمة ، قد جعله الله مثابة للناس يثوبون إليه ، متعلقة قلوبهم به ، محبة له ، ﴿ وأمنا ﴾ فهم حين يصلون إليه ويعيشون حوله ، يستشعرون الأمن والاستقرار ، فهم فى أمن بطاعتهم لله ، وفى أمن من معصيتهم إياه ، متعلقين بالبيت ، متعلقة قلوبهم بجلال الله ووحدانيته وعظمته .

والمقام ، قد يكون المقصود به الحرم كله ، وقد يكون المراد منه المسجد ، وقيل : هو الحجر الذى وضعته زوجة إسماعيل تحت أقدام إبراهيم حتى غسلت رأسه (١) .

وقد كلف الله إبراهيم وإسماعيل بأن يطهرا البيت من الأوثان والأصنام التى تعبد من دون الله ، فلا يعظم عند البيت غير الله ، ولايقدس غيره ولا يرجى غيره سبحانه ، وقيل يطهر من النجس والرجس وقول الزور .

ولم يثبت أن الأصنام نصبت حول البيت فى عهد إبراهيم ـ عليه السلام ـ ولعل المقصود هنا أن يوصى إبراهيم وإسماعيل أولادهما وذراريهما ومن حول البيت ، بأن يحافظوا عليه مستقبلا من أن يلوث بالشرك ، أو بعبادة غير الله .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

يسأل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه أن يجعل رزقه لأهل الحرم من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، أجابه الله بقوله : ﴿ **ومن كفر فأمتعه قليلا** ﴾ فأرزقه ، فهو الإله الواحد ، الذى يرزق عبده الذى لم يشرك به ، والذى جعل له شريكا ، ومن كفر به فجحده ، وما من أحد غيره يرزق .

واستجاب الله لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فجعل البلد آمنا ، ورزق أهله من الثمرات ، من آمن منهم بالله ، ومن كفر متعه إلى حين ؛ والحين يوم القيامة لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ **ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾ . ثم أضطره إلى العذاب الأليم فى الآخرة .

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

---

(١) انظر كتب التفسير .

إنها حلاوة الإيمان الكامل الذى لا يتخلله نقص . والتوحيد الذى لايشوبه شرك ، إنه يبنى البيت مؤتمرا بأمر الله ثم يدعو الله هو وإسماعيل ، ويخافان ألا يتقبل الله منهما، وتلك حقيقة من تحلى بالإخلاص الكلى لله تعالى :

﴿ **والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون** ﴾[1] .

إنها قمة الخشوع لله تعالى ، والإشفاق من خشية الله ألا يقبل منهم .

رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾

ربنا لاتخيب مسعانا ورجاءنا ودعاءنا : اجعلنا ـ بحسن عطائك ـ من المقبولين . . . من الذين يقولون (يارب) فيجيبهم ربهم .

إنهما يعلماننا كيف نتواضع لله ، وكيف لانغتر بعمل عملناه لوجه الله ، مهما كان كثيرا ؛ لأن الأعمال منه وإليه .

تعلم يا ابن آدم من رءوس النبوات ، وقيادات الرسل . . . تعلم ولا تقل بيدى أعطيت ، وبنفسى فعلت ، لقد صليت ليلا ، وصمت نهارا . . . تعلم التواضع . . . كيف تكلم ربك . . ؟ وكيف كلّم الرسل ربهم؟

إننا يارب لانستطيع أن نسلم القلوب والوجوه والجوارح لك ، إذا لم تأخذ أنت بأيدينا وبقلوبنا وبمشاعرنا ، وبوجداننا . فالفضل لك ، والمنة لك ، أولا وآخرا . كما أننا لانملك من أمر ذريتنا شيئا . ﴿ **وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم**﴾ فعلّمنا يارب كيف نؤدى مناسكك التى كلفتنا بها لنحج بيتك ونطوف به ونسعى عنده . علمنا كيف نقف بين يديك ، ونتوب إليك . . كيف نركع تحت عز عظمتك وعلاك . . . كيف نسجد بين يدى القدرة المعطية الآخذة ، الباسطة المحسنة، القادرة الحانية ، الرحيمة القوية ، شديدة العقاب ، واسعة الرحمة .

إننا لانستطيع أن نتوب إلا أن تريد أنت التوبة لنا ، فإن لم تكن التوبة عطاء منك ، فكيف نتوب ؟

---

(١) المؤمنون : ٦٠ .

رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

ابعث منا رسولا فيهم يربيهم على اليقين بأنك الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لاوالد له ولا ولد .

هذا النبى الذى هو منهم ، ومن ذريتى وذرية إسماعيل ، يعلمهم الكتاب والحكمة ويطهرهم ، فلا تردنا يارب إلا وقد أخذت بنا إلى ساحة رضاك وعفوك ومغفرتك .

وقد استجاب الله لذلك الدعاء . ففى الحديث عن العرباض بن سارية ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة أبى إبراهيم . وبشارة أخى عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين » [1]. أما دعوة إبراهيم فهى قوله ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ ؛ وأما بشارة عيسى فهى قوله تعالى ﴿ يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرًا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾ ؛ وأما رؤيا أمه ، فقد رأت فى المنام نورًا ، قالت : فجعلت أتبع بصرى النور فجعل النور يسبق بصرى حتى أضاء لى مشارق الأرض ومغاربها [2].

وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾

هذا هو إبراهيم صاحب المواقف والكلمات التى اختبر بها فنجح .

فالذين يرغبون عن ملة إبراهيم : سفهاء . . . لهم قلوب ، إلاّ أنهم لايفقهون بها . . ولهم عيون ، ولكن لا يبصرون بها . . . ولهم آذان ، إلا أنهم لا يسمعون بها :

﴿ ولقد اصطفيناه فى الدنيا ﴾ اصطفاء للهداية والإرشاد ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ الذين اجتبيناهم ، فكسوناهم بأردية المحبة والمودة والعطاء والتكريم والإعزاز ورفع الدرجات والمراتب .

---

(١) رواه أحمد . (٢) رواه البيهقى فى الشعب ، وابن إسحاق فى السيرة .

إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾

إن العبد الذى يفخر بأنه عبد ، ويشرف بارتداء ثياب العبودية لله ، هو الذى يناديه ربه : أسلم ، فيقول : أسلمت لرب العالمين ، وبذلك نال إبراهيم مكانته .

وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾

لقد اصطفى لهم التوحيد ، واصطفاهم له ، ولذلك كان عليهم أن يلزموه ويتمسكوا به ، حتى لا يأتيهم الموت ـ حين يأتيهم ـ إلا وهم على الإسلام ، وهذه وصية إبراهيم ويعقوب كما أنها وصية كل مسلم بعده إلى أن تقوم الساعة .

أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

والخطاب موجه للمشركين الذين كفروا بمحمد ، وهم من أحفاد إسماعيل ، كما هو موجه إلى الكفار من بنى إسرائيل ، فكان الواجب عليهم أن يكونوا على ما كان عليه آباؤهم، وما أوصوا به من التوحيد الخالص لله تعالى ، حيث قال يعقوب لبنيه : ﴿**ماتعبدون من بعدى**﴾ فأخذوا على أنفسهم عهدا بأن يعبدوا إلهه الذى لا إله غيره ، وقد عبده من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحق : إلها واحداً لا شريك له .

فيا من ادعيتم أنكم على ملة إبراهيم وإسحق ويعقوب : كذبتم ، فلو أنكم صدقتم لاتبعتم محمداً ـ ﷺ ـ ولبايعتموه .

أما النسب فلن ينفعكم ما لم تكونوا على ما كانوا عليه من التوحيد والإسلام لله رب العالمين .

تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

وإنما تسألون عن عملكم أنتم ، و ﴿ **كل امرئ بما كسب رهين** ﴾ .

وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾

إن اليهود والنصارى ، قالوا لرسول الله : إن الهدى هو ما نحن عليه ، فاتبعنا يامحمد تهتد ، فقال تعالى : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفا ﴾ ؛ لأن إبراهيم كان حنيفا مسلما، وما كان مثلكم من المشركين .

قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾

قال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط فى بنى إسرائيل ، كالقبائل فى بنى إسماعيل .
وقال الزمخشرى فى الكشاف : الأسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر .

ومجمل الآية يعنى أن نؤمن بما أنزل على الأمم من قبلنا مجملا ، ونؤمن بما نزل على محمد - ﷺ - تفصيلا .

وهل اليهود أو النصارى أصحاب دين قائم ؟ لا . هذه قضية يجب على المسلمين أن يفهموها . يجب أن نفهم جميعا أن اليهود قد ارتدوا عن دينهم ، لأن دينهم الإسلام ، وأن النصارى قد ارتدوا عن دينهم ، لأن دينهم إنما هو الإسلام . وكل دين جاء من عند الله - سبحانه وتعالى - إنما هو الإسلام ، وكل دين يخالف دين الإسلام فإنما هو بدعة وضلالة . وإذا كنا قد أمرنا أن نعاملهم على أنهم أهل كتاب ، ففى الوقت نفسه أمرنا أن نعتقد أنهم خالفوا وعصوا الكتاب الذى نزل عليهم إن لم يتبعوا محمداً - ﷺ - ، وإن أبيحت لنا ذبيحتهم وإن تزوج رجالنا من نسائهم . وما نشترك معهم فيه، إنما هو أمر واحد ، وهو الإيمان باليوم الآخر ، وإن كانت معتقداتهم الفاسدة قد عطلت عنهم اسم الإيمان . وإن شئت فقل هؤلاء كفرة اليهود وأولئك كفرة النصارى .

ولذلك جاء المرسوم الإلهى بقرار ينفى عنهم الهدى :

فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ

سُورَةُ البَقَرَةِ

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٣٧ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ۝١٣٨﴾

يقول ابن كثير [1] : « يقول تعالى فإن آمنوا ، يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ماآمنتم به يأيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ **فقد اهتدوا** ﴾ أى فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . ﴿ **وإن تولوا** ﴾ أى عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ **فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله** ﴾ أى فسينصرك الله عليهم ويظفرك بهم ﴿ **وهو السميع العليم** ﴾ » .

ويستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم تركهم الهدى ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزينتها ، وابتغاء الجاه الباطل والمجد الزائف .

ولابد ـ إذن ـ أن ننتقل بالمسلمين من إطار الخيال والوهم ، إلى إطار الواقع والحقيقة ، وهذا كلام صريح . . كلام صريح أن الإسلام استسلام لله والتزام ، وأن الإسلام دين ودولة ، ولا يمكن أن يكون الإسلام بالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وشريعة الله معطلة ، والجهاد فى سبيل الله معطل .

وهذه الآية تخاطبنا اليوم . كما خاطبت الرسول ـ ﷺ ـ من قبل . . . إنما تخاطب المجددين حتى يعود المسلمون مرة أخرى فى الدائرة حول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله » . دائرة الحكم بما أنزل الله .

هذه الآية التى نحن بصددها ، إنما هى الحجة فى أيدى شهداء القضية الإسلامية فى كل قرن ، تقول لهم : أبشروا فالذين يخالفون صفوفكم ، ويخرجون على رأيكم ، وينقسمون وينشقون عليكم ، إنما ﴿ **هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم** ﴾ .

﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ۝١٣٩﴾

أتناظروننا ، وتجادلوننا فى الله ، وأنتم الذين قتلتم أنبياءه ، وعبدتم الأوثان ، وفيكم رسلكم ؟ وكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا

---

(١) ابن كثير : ١ / ١٨٧ .

تقتلون . فكانت لكم أعمالكم المستمدة من هواكم وشياطينكم ، وكانت لنا أعمالنا المنزلة علينا من رب العالمين فى كتاب ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أنتم لكم أعمالكم ، بما حرفتم فى كتبكم ، ونحن لنا أعمالنا بالحق الذى نزل علينا .

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

قالت اليهود : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : كانوا هودا .

وقالت النصارى : إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب : كانوا نصارى ، فكذب بعضهم بعضا .

وكان الجواب الرادع من الله لهم على لسان رسوله : ﴿ **أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ .

أنتم أيها الظالمون المكذبون الضالون : تعلمون أنهم جميعا مسلمون ، ولكنكم تكتمون الحق الذى أمرتم من الله أن تعترفوا به ، فالتوراة والإنجيل يشهدان بذلك ، وينطقان به ، ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده ، وخاصة إن كانت هذه الشهادة من الله ، فى كتاب أنزله من السماء ، وأنتم اليوم تسمعون من المسلمين ما كتمتموه أنتم ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ .

أما إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، فلن ينفعكم اليوم انتسابكم إليهم .

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

ولكن تسألون عن أعمالكم أنتم وما قدمتموه لأنفسكم .

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾

سُورَةُ البَقَرَةِ

مع بداية الجزء الثانى من سورة البقرة نرى النبى - ﷺ - فى موقف من مواقفه العظيمة الجليلة ، نراه وهو يقلب وجهه فى السماء يدعو ربه ، ويقدم بين يديه قلبه مناجيا مستعطفا فى أمر يخالج كل ذرات نفسه ، وكل نبضات قلبه ، أمر الوقوف بين يديه ، وتوجيه الوجه إليه سبحانه ، فما قصة ذلك الموقف ؟

كان النبى - ﷺ - : يصلى فى مكة بين الركنين ، متجها إلى الصخرة فى بيت المقدس، ولما انتقل إلى المدينة واستقر بها : صعب عليه أن يتجه إلى الصخرة فقد كان يشتاق إلى شىء غال . . . يشتاق إلى قِبْلةِ أبيه إبراهيم . . . يشتاق إلى أن يصلى إلى الكعبة ، بدلا من بيت المقدس .

والفترة التى صلى فيها إلى بيت المقدس ليست بالقليلة ، إلاّ أنه يؤمل فى أن يعطيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ عطاء يستقر به القلب فى وجهته أثناء الصلاة .

وشاء الحق ـ سبحانه ـ واستجاب لحبه [1] وأشواقه وتلهفانه وتعطفه وابتهالاته ، ووجّهه قبلة يرضاها منة وتكرما . . فمنحه ما يرضى قلبه ومشاعره ومواجيده .

وأخبره ـ فيما أخبر ـ أن السفهاء من الناس سيقولون ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها** ﴾؟

وأمره بأن يرد عليهم حينذاك فيقول .

﴿ **لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾. وهو رد الثابت على الحق، الواثق من ربه، المثبت من الله .

لقد أمرنا الله أن نصلى إلى بيت المقدس ، فلبينا .

واليوم يأمرنا ـ سبحانه لدعائنا ورجائنا ـ أن نصلى إلى الكعبة ، تكرما وتفضلا منه، وهو الذى يعطى بغير مسألة ، فأعطى وأكرم وأجزل ، ونحن له حامدون . . عابدون . . طائعون . .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ
عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ
مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ
لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

(١) الحب : بكسر الحاء : المحبوب .

لقد جعلناك وأمتك وسطا . « أى عدلا » ، فقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ محمداً ـ ﷺ ـ وسطا بين الأنبياء ، أى عدلا وحقا . . فهو عدل الله فى الأرض . . . إن طلب العدل ، فمحمد ـ ﷺ ـ مصدره . . . وإن طلب الكمال فمحمد ـ ﷺ ـ مثاله . . فهو الخاتم الممثل لكل الأنبياء ، والممثل لشريعة الله ، ومنهج الله . وسط أى : عدل كله ، وكمال كله .

والأمة التى أرسل فيها محمد ـ ﷺ ـ لتقوم به ، وبالأمر الذى بعث من أجله إنما هى أمة وسط بالعدل تحكم ، وبه تقوم . . تنصف المظلوم ولاتخشى فى الحق لومة لائم . فهى الأمة الوسط . . خير أمة أخرجت للناس . . تعلم الحق فتعتقده ، تصديقا قلبيا وعقليا ووجدانيا ، فتعيشه وتعايشه .

و ﴿ **شهداء على الناس** ﴾ بمعنى :

- شهداء الله فى الأرض . على أنه هو الحق ، وقوله الحق ، ورسوله ـ ﷺ ـ الحق .
- شهداء الله فى الأرض . على أن الإسلام منهج حياة وشريعة تنفذ ، وحكم ينفذ ، فيعيش بين الناس ، ويعيش به الذين أسلموا لله ، فقالوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .
- شهداء الله فى الأرض . . الذين لايحيدون عن قانونهم ودستورهم ، ولايحتكمون إلى غير القرآن ، ولايتمسكون بغير السنة .
- شهداء الله فى الأرض . . ولاؤهم لله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم لمن يبايعهم ويعاهدهم على أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وعن أبى الأسود ، أنه قال : « قدمت المدينة وقد وقع بها مرض ، فجلست إلى عمر ابن الخطاب ، فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خيرا ، فقال : وجبت . . . ثم مر بأخرى فأثنى عليها شرا ، فقال عمر : وجبت ، فقال أبو الأسود ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » . قال : فقلنا وثلاثة فقال : «وثلاثة » قال : فقلنا واثنان قال : «واثنان » ثم لم نسأله عن الواحد » (1) . قلت : والشاهد لا يشهد إلا بما يرى فلابد أن

---

(1) رواه البخارى كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت .

يكون هؤلاء الشهود قد عايشوه وعرفوا منه التقوى والصلاح كاعتياده المسجد وغيره من العبادات ، والمعاملات ، والخلق الكريم أ. هـ .

وهكذا تكون شهادة المسلمين فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة ، فقد ورد عن أبى سعيد ، قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« يدعى نوح يوم القيامة فيقال له ، هل بلغت؟

فيقول : نعم .

فيدعى قومه ، فيقال لهم : هل بلغكم ؟

فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد .

فيقال لنوح : من يشهد لك ؟

فيقول : محمد وأمته .

قال : فذلك قوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ .

ثم يخبر الله - تبارك وتعالى - نبيه - ﷺ - أنه ما شرع له التوجه أولاً إلى بيت المقدس إلا امتحانًا واختبارًا للخلق ، حين ينقلهم بعد ذلك إلى الكعبة التى جعلها الله سبحانه قبلتهم من بعد .

فالمؤمنون الصادقون : يطيعون الله فيك ، ويتوجهون معك إليه أينما توجهت ، أما الضعفاء منهم فيفتنون بكلام السفهاء ، فينقلبون على أعقابهم مرتدين عن الإسلام .

وكل ما أتى به الله - سبحانه وتعالى - : لأمة محمد من أوامر : إنما هو صناعة لهذه الأمة على عينه ، حتى تستحق - بجدارة - أن تكون الأمة الوسط . . الشاهدة على الناس .

والله يعلم هؤلاء وأولئك ، فيثبت الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله مايشاء ، ولذلك قال بعدها : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ .

وقيل ﴿ **إيمانكم** ﴾ هنا بمعنى صلاتكم التى صليتموها إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله .

فعن ابن عباس ء قال : لما وجه النبى - ﷺ - إلى الكعبة قالوا : يا رسول الله . . ! كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟

سورة البقرة

فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ (1) .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٤٤

لقد كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرى تقلب وجه رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى السماء ، فاستجاب الله له ، فولاه قبلة يرضاها ويحبها ، ذلك أنه كان يحب قِبْلة إبراهيم .

والاتجاه بالوجه إلى القبلة ليس معناه الاتجاه الجسدى وكفى ، ولكنه اتجاه قلبى وروحى وعقلى . فالوجه يستدير ويتقلب بحثا عن ذلك الذى تعلق به القلب وشغفت به الروح .

﴿ وحيثما كنتم ﴾ أيها المسلمون ﴿ فولوا وجوهكم شطره ﴾ من أى اتجاه أنتم فيه . وذلك تجميع لقلوب المسلمين جميعا فى اتجاه واحد وغاية واحدة ، فهم يلتفون حول الحق ، وإليه يسعون .

وليس هذا الاتجاه هو مقصود الصلاة فحسب ، ولكنه اتجاه إيجابى ، يستجيب لآيات الله، الروح فيه تأخذ وتعطى . . . عطاؤها من نفسها لله . . وأخذها من الله ، تجليات مع كتابه كى تفهم مراده وتستوعب مراميه .

وبيت المقدس ـ وإن كان قبلة المسلمين الأولى ، إلاّ أنه ـ ليس القبلة الأقدم ، فالكعبة أقدم منه ، وقد اتجه إليها آدم من قبل ، ومن قبل آدم صلت إليها الملائكة . وهى البيت الذى أمر الله نبيه إبراهيم وابنه أن يرفعا القواعد منه ، ويتخذانه قبلة . وهو الأمر الذى يعلمه أهل الكتاب ، مكتوبا عندهم ، إلا أنهم يتكاتمونه ، وقد هددهم الله على ذلك بقوله : ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ

---

(1) رواه الترمذى عن ابن عباس ، كتاب تفسير القرآن باب « ومن تفسير سورة البقرة » وقال : حديث حسن صحيح .

وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

بعد أن أخبرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن أهل الكتاب يعلمون أن القبلة التى وجه الله سبحانه إليها رسوله إنما هى الحق من عند الله ، كان المتوقع أن تكون النتيجة لذلك أن يؤمنوا له ويتبعوا قبلته ، لولا العناد والاستكبار والحسد .

يقول الشهيد سيد قطب [1] رحمه الله :

« فهم فى عناد يقوده الهوى ، وتؤرثه المصلحة ، ويحدوه الغرض . وإن كثيرا من طيبى القلوب ، ليظنون أن الذى يصد اليهود والنصارى عن الإسلام أنهم لايعرفونه ، أو لأنه لم يقدم إليهم فى صورة مقنعة. وهذا وهم . . إنهم لايريدون الإسلام ، لأنهم يعرفونه ! ! فهم يخشون على مصالحهم وعلى سلطانهم . ومن ثم يكيدون له ذلك الكيد الناصب الذى لايفتر ، بشتى الطرق وشتى الوسائل ، عن طريق مباشر وعن طرق أخرى غير مباشرة . يحاربونه وجها لوجهه ، ويحاربونه من وراء ستار ، ويحاربونه بأنفسهم ، ويستهوون من أهله من يحاربه لهم تحت أى ستار . وهم دائما عند قول الله تعالى لنبيه الكريم :

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ » انتهى .

وقضية القبلة ـ هنا ـ والاتجاه إليها أصبحت قضية الحق والباطل ، وقضية الوحى المنزل والهوى . . ولذلك ينبغى أن نحذّر المسلمين من الاتجاه إلى قبلة الله بالأجساد فقط بل والاتجاه إلى قبلتهم بالقلوب . فنحن نرى اليوم الكثيرين من أهل القبلة يتقربون إلى اليهود والنصارى ، بل يتشبهون بهم . وأظهر الأمثلة على ذلك هو التقليد الأعمى لهم فى كل مظاهرهم ومخابئهم الخبيثة ، وقد نهانا الإسلام عن التشبه بهم ، وأوردت السنة أدق التفاصيل ، حتى لايكون هناك أدنى شبهة فيها بيننا وبينهم . بل قد أمرنا الرسول ـ ﷺ ـ بمخالفتهم أمرا صريحا لايحتمل تأويلا . ولكن مع ذلك لانرى استجابة خالصة لأوامر الله ورسوله تنبئ عن صدق الاتجاه إلى قبلة الإسلام ، ولكنه التقليد الأعمى ، والجرى وراء المظاهر الكاذبة الخادعة التى بهرنا بها وبألوانها الزائفة .

---

(١) ظلال القرآن : ١/ ١٣٤ .

وبنفس البساطة والأريحية التى أخذنا بها عنهم زيهم ومظهرهم ، أخذنا شرعهم ونظامهم وسياستهم وطريقتهم فى قيادة أوطانهم .

وبنفس البساطة والأريحية امتدت أيدينا إلى دستورنا وقانوننا لنعبث فيه بالتبديل والتغيير لأحكام الله ووضع الكثير من أحكام الذين حادوا وضلوا وحرفوا وأضلوا ، فماذا بقى بعد ؟

سبحانك ربى لا إله غيرك ، ولامعبود سواك .

وما تلك الركعات التى يركعها البعض منكم ، ويتركها الكثيرون ؟

لقد انقسم اليهود والنصارى على أنفسهم ﴿ **وما بعضهم بتابع قبلة بعض** ﴾ فكلاهما قد شرد عن الحق وانتهى الأمر . ولكن الحق قد جاءنا من ربنا ، وأنزل إلينا العلم صافيا ، ولذلك فقد جاءنا التهديد المرعب المهيب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ فانظر الخطاب ، وتفكر فيمن خاطب ومن خوطب ، فستعلم خطورة الأمر أيما خطورة .

وإذا كان الخطاب لمحمد ـ ﷺ ـ من الله الرءوف الودود فى هذه الآية : فالمراد منه هو أمته ـ ﷺ ـ وما ينبغى لرسول الله ـ ﷺ ـ أن يكون من الظالمين ، ولا أن يضل عنه اتباع الحق المنزل عليه من الله ، والعاقبة تدور على من بعده من المؤمنين به وبالحق المنزل عليه من الله ، ولذلك فقد جاء السياق القرآنى ـ فيما بعد ـ موجها للمؤمنين ، يقول تعالى :

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾

ثم عاد الخطاب مرة أخرى للرسول ـ ﷺ ـ :

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

وفى ذلك إشارة إلى أن المؤمنين جميعهم مخاطبون بما خوطب به الرسول ـ ﷺ ـ فى القرآن ، فصاحب الرسالة هو الله . . ومبلغها رسوله ، والمقصود بها : إنما هم المؤمنون . . وهم من بعد رسولهم مكلفون بتبليغها عن ربهم ، ثم عن رسولهم .

وكتمان الحق عن علم : دليل الجحود : وقعت فيه اليهود من قبل ، ومن بعدهم وقعت فيه النصارى ، واليوم يقع فيه الكثير ممن ينتسبون إلى الإسلام .

سورة البقرة

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

لكل إنسان على هذه الأرض وجهة هو موليها وجهه . . كما قال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ (١) . فالطرق متعددة . . والإسلام طريقه واحدة . . هى التوحيد . . . وقبلة واحدة ، هى الكعبة . . وسبيل واحد . . وهو أن يعيشوا فى محبة الله بالطاعة له ، مهتدين بما جاء به محمد ـ ﷺ ـ .

والآية تحث على المسابقة والمنافسة فى الخير ، وتحصيل الصالحات ، مذكرا بالموت ، والحشر . فذكر الموت : خير واعظ ، وخير محرك للهمم البليدة المتكاسلة عن طاعة الله .

يعد هذا المشهد ، وهو موقف اليهود من تحويل القبلة : آخر المشاهد المتوالية عن بنى إسرائيل ، ومكر اليهود ، ولم يبق عنهم فى السورة إلا موقفهم من القتال مع نبيهم ـ فى قصة طالوت وجالوت .

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

فالبيت قبلة لأهل المسجد . . والمسجد : قبلة لأهل الحرم ، والحرم : قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها . . .

وهذا الأمر يتكرر للمرة الثالثة على التوالى . . ذلك أنه أمر خطير فى رسم سياسة الأمة الإسلامية ، وضرورة وحدتها ، فالعقيدة بتوحيد الله سبحانه وعدم الإشراك به : تلزمهم بتوحيد مصلحتهم، ووجهتهم ، وسياستهم ، وأمتهم . .

فأمتهم واحدة كما أن كتابهم واحد ، وذلك لأن إلههم إله واحد . . له يسلمون . .

---

(١) الليل : ٤ .

ولشريعته ينقادون . . وبحكمه وأمره يعملون . . فالأمر والنهى مستمد من وحى الله : كتابا وسنة . ومهما تعددت دولهم فأمرهم جميعا شورى بينهم . . فوحدة القبلة تعنى : وحدة الكلمة ، والأمة ، والوجهة . . وقد كان اليهود يعلمون أن الرسول ـ ﷺ ـ سيوجه لقبلة إبراهيم أول بيت وضع للناس . . وذلك مكتوب عندهم فى كتبهم . وكانت العرب تتمنى أن تكون قبلتهم قبلة أبيهم إبراهيم ، فأراد الله أن يبطل حجج المشركين الذين قالوا سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلة أبينا . . ولم يرجع الرسول ـ ﷺ ـ إلى دينهم . . وكذلك أبطل حجة أهل الكتاب الذين كانوا يعلمون أن قبلة محمد هى الكعبة ، فلما وجدوا قبلته بيت المقدس قالوا ليس هذا هو النبى . . فاختبر الله المؤمنين ، ثم أعادهم إلى قبلتهم حتى يبطل حجج الكافرين .

﴿ **فلا تخشوهم واخشونى** ﴾ لا تخشوا إلا الله الذى كف حجة الظالمين ، وفرج قلوب المؤمنين باستجابته . وخشيتكم لله تورثكم الاطمئنان الذى به تتبعون محمداً ـ ﷺ ـ اتباع يقين فيما هو عليه من الله . وانظروا كيف طاعته لله فى الاتجاه للبيت المقدس ، ثم تضرعه ليحوله إلى الكعبة ، مع الالتزام بالأمر حتى يقضى سبحانه بما يرضيه . . ولما صدر الأمر من الله استقبل الكعبة حامدا لله شاكرا له ما أتم به نعمته عليه ، وعلى المؤمنين لييسر لهم طريق الهدى . ﴿ **ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون** ﴾ إلى ما ضلت عنه الأمم ، فقد اجتباكم بنعمته ، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس ، فكنتم أشرف الأمم وأكملها طاعة لله .

كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

يمن الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أمة محمد ـ ﷺ ـ بتيسير أسباب الهداية لهم ، فكما أرسل إليهم محمداً ـ ﷺ ـ يتلو عليهم آيات الله ويطهرهم من رجس الأوثان والشرك بالله ، ويعلمهم الكتاب ـ الذى هو القرآن ـ والحكمة ـ التى هى السنة ـ ويبين لهم كل الأمور التى اختلفوا فيها . . وعليها . . . ويعلمهم أمورا لم يكونوا يعلمونها ـ كما أرسل إليهم هذا الرسول الكريم ـ ﷺ ـ فقد هداهم إلى القبلة حتى تتم النعمة عليهم . . فحق لهم أن يشكروه ولا يكفروه ، ويذكروه فلا ينسوه . . . وشكر الله هو : ذكره . .

ونسيان الله هو كفره . نذكره بطاعته ، فيذكرنا بالقبول، ونذكره بالتوبة ، فيذكرنا بالمغفرة . . ونذكره ـ بالحمد ، فيذكرنا بالمزيد . . ونذكره بالدعاء، فيذكرنا بالإجابة . .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾

إن المؤمن إما أن يكون شاكرا ربه على نعمه . . وإما أن يكون صابرا على ضراء مسّته . . . وعلى الشكر والصبر تدور أمور الشريعة كلها .

والصبر صبران ، صبر على الطاعات والقربات ، وصبر عن الحرمات والسيئات . وهناك صبر ثالث : وهو الصبر على المصائب والنوائب . . . وما أوتى عبد عطاء أوسع من الصبر .

وقد قال على زين العابدين : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ، ينادى مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟

قال فيقوم جماعة من الناس ، فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون إلى أين يا بنى آدم ؟

فيقولون : إلى الجنة .

فيقولون : قبل الحساب ؟

قالوا : نعم .

قالوا : ومن أنتم

قالوا : نحن الصابرون .

قالوا : وما كان صبركم ؟

قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله .

قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

قال ابن كثير :[1]

ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾[2] .

وقد تقدم تفسير قوله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ فى الربع الثالث من سورة البقرة .

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٩٧ .　　(٢) الزمر : ١٠ .

يخبرنا الله تعالى أن الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون . كما جاء فى صحيح مسلم : قال رسول الله - ﷺ - « إن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر ، تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا وأى شىء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا . فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول الرب - جل جلاله - « إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون » [1] .

وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾

إن الناس معادن ، والله - سبحانه وتعالى - يمتحن الناس ، فبأى شىء يمتحنهم؟ لقد شاءت إرادته وحكمته أن يختبرهم بشىء من « الخوف » : خوف الفقر . . خوف الظلم . . . خوف العدو . .

وهذا النوع من الخوف هو موطن البلاء ، أما خوف الله - سبحانه وتعالى - وخوف الذنوب والمعاصى وخوف النار ، فإنما هو النعم الإيمانية التى أنعم الله بها على العبد . . والخوف من النوع الأول لا يتملك قلب المؤمن ، ولا يمسه ولا يفسد عليه إيمانه ، فالمؤمن لا يخاف الفقر وهو يعلم أن الله هو ﴿ **الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ [2] ، ولا يخاف ظالما ، وهل يملك الظالم من نفسه أن يخرج شربة ماء حبست فيه ؟!

ونحن حين نقرأ سيرة الرسول - ﷺ - وصحابته الذين عذبوا فى سبيل الله لا نرى منهم من خاف - بعد توحيد الله - من العبيد المشركين أحدا . وعندما نسير مع المسيرة الإسلامية لنرى مولانا الإمام أحمد بن حنبل ، والإمام أبا حنيفة ومالكا ، والشافعى وحسن البنا ، ومن سار على دربهم - نجد أن الإيمان عندما يخالط الضمائر ، ويتلبس بالنفوس ، ويمسك بالقلوب يجعلها فوق المادة ، وفوق الظلمة ، وفوق الخوف ، وفوق الدنيا كلها .

---

(١) انظر مسلم كتاب الإمارة باب بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة .
(٢) الذاريات : ٥٨ .

والجوع مصدر آخر من مصادر البلاء والفتنة ، ولكن المتوكل على ربه المتزود بالرجاء فيه ، يقول : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾ [١] .

فالتقوى خير زاد ، وإن جاعت الأجساد . . فهى تشبع الأرواح وتطمئن القلوب ، وحينذاك تنزل السكينة . . ويرفع البلاء .

﴿ **ونقص من الأموال والأنفس والثمرات** ﴾ .

فالأموال قد تضيع وتعوض . والأنفس تزهق فى الدنيا لتلتقى مرة أخرى فى الآخرة . . والثمرات ، إن قلت هذا العام تزد فى العام المقبل . . ولكن الإيمان بالله لا يعوض . . وثواب الصبر لا يعوض ، وقد فطنت إلى ذلك امرأة من الصالحات القانتات حين فقدت ولدها وعظم خطبها ، وجاءها الناس يواسونها ويصبرونها ، فقالت لهم : « إن مصيبتى أقل من أن أجزع عليها » ، تعنى بذلك أن ثواب الصبر على المصيبة أكبر من أن تجزع عليها ، فصبرت .

وهكذا تتلقى قلوب المؤمنين الأقدار عن الله سبحانه .

وحين سئل الإمام الشافعى عن ثمانية أمور « واجب ، وأوجب . . . عجيب ، وأعجب . . صعب ، وأصعب . . قريب ، وأقرب » :

قال : « من واجب الناس أن يتوبوا ، وترك الذنوب أوجب .

والدهر فى تصرفه عجيب ، وغفلة الناس عنه أعجب .

والصبر فى النائبات صعب ، ولكن فوات الثواب أصعب .

وكل ما ترتجى قريب ، والموت دون ذاك أقرب » . وصدق الإمام الشافعى فيما قال : فإن البلاء شديد . . . ولكن يهون منه الثواب المرجو من ورائه ، وذكرنا للموت ، الذى ماذكر فى شدة إلا وسعها ، ولا فى سعة إلاّ ضيقها .

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع ، وهو قول ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة [٢] .

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

فها هو ذا الله الواحد الأحد . . . صاحب السموات ورافعها بلا عمد . . وصاحب

---

(١) البقرة : ١٩٧ .

(٢) انظر : كتب السنة .

الأرض وباسطها ، وصاحب يوم البعث والحشر والنشور ، يقول : إنه يصلى على أمته التى صبرت ، وعلى عبده الذى صبر .

إن لحظة من صلاة الله على العبد ، هل تساويها الدنيا . . ؟ وهل تساويها أعمالك كلها وإن وزنت مثاقيل الجبال ؟ لا والله . . . . - ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

فهؤلاء أهل الهدى ، وأهل الخشية ، وأهل المودة والمحبة هم عباد الله المخلصون ، ينادون من رب العالمين . . ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ (1) .

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

والطواف بين الصفا والمروة ميراث نبوى من عهد إبراهيم نبى الله وخليله عن هاجر زوجه - رضى الله عنها وأرضاها - .

وحين يطوف الحاج أو المعتمر بين الصفا والمروة سعيدا ضارعا إلى الله . . مظهرا ضعفه بين يديه سبحانه . . . متجردا من الحول والقوة . . ويتصور عظمة الخالق ، متأملا خلق السموات والأرض والجبال الرواسى ، التى فجر الله من خلالها الينابيع والآبار والأنهار والبحار والمحيطات ، مستشعرا فقره إليه ، وعجزه بين يديه - تزداد قوته فى السعى . . وتسرع منه الخطى ، ويشمر عن ساعد الجد ؛ فتتساقط كل شهواته ومعاصيه ، مع كل قطرة عَرَقٍ تخرج من جسده . . ويرق قلبه بين يدى الله - عز وجل - ويخف جسمه فارًّا من عذاب الله إلى رحمته . . وتنزوى عنه نفسه الأمارة بالسوء ، وينحسر عنه شيطانه . . فتسمو روحه لتتلقى عن واهبها وملهمها معانى كثيرة للسعى الذى يقوم به أول ما يقوم بخشوع وامتثال ورضا وتسليم ، فيتذكر أمه هاجر بانكسار كل مشاعرها ومواجيدها ، وانحسار كل حواسها نحو هدف واحد ، ترجوه وتسعى إليه . وببركة المكان الطاهر تنتقل إليه كل مشاعرها نحو الله ، فيصيح لسان الحق منه : «اللهم أنا أنا . . وأنت أنت . . أنا العبد وأنت الإله . . أنا المخلوق ، وأنت الخالق . . أنا الفقير وأنت الغنى ، أنا الذليل وأنت العزيز، أنا الطالب وأنت المطلوب ،

---

(1) الزخرف : ٦٨ .

أنا العائذ وأنت المجير ، أنا المذنب وأنت الغفار ، أنا الراجى حماك ، الراضى برضاك ، المستنجد بعفوك ، وأنت الله الذى لا إله إلا هو » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

وجاءت هذه الآيات لتنزل بالوعيد الشديد . . وتصب لعناتها الغاضبة من الله سبحانه . . وملائكته . . وكل خلقه . . على كل أفاك أثيم ، معتد على الحق ، مغير لطريقته . . وهم الذين يكتمون ما أنزل الله سبحانه من الآيات البينات لهداية الخلق . . ومن هؤلاء أهل الكتاب ، الذين كتموا الحق الذى قرءوه فى الإنجيل وفى التوراة من خبر محمد ـ ﷺ ـ ثم أنكروا الحق وطمسوه عن الناس . . فهؤلاء ملعونون من الله الذى كتموا ما بيّن وجحدوا ما أنزل . . . . . ملعونون من الناس الذين أضلوهم بغير علم .

إن أوامر الله ـ تبارك وتعالى ـ لا تمضى بمضى الأنبياء . . وليس من حق البشر بعد ما ينتقل نبيهم إلى الرفيق الأعلى ـ وقد بلّغ ما أنزل إليه من ربه كله ـ أن تعبث أيديهم أو ألسنتهم فتضيف إليه حرفا ، أو ترفع منه حرفا . . ولما كان العلماء فى أمة محمد ـ ﷺ ـ هم السرج المنيرة والأدلة على الخير . . فقد كان أجرهم عظيما إن أحسنوا ، وكذلك كان عقابهم عظيما إن كتموا وبدلوا .

فمن استقام منهم ولم يجامل فى دين الله ولا بدين الله ، ولم يخش فى الله البشر ، ولم يخوفه قول طاغية ولا قوة ظالم . . ولا بأس طاغوت . . فهؤلاء مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ، أولئك العلماء الذين يقولون لأولياء الأمور : هذا أمر الله وأمر الرسول ـ ﷺ ـ وليس لنا أن نضيف إليه أو ننقص منه أو نبدل فيه . . فالزم مكانك كعبد لله . . فليس لك فى دينه من شىء ، وليس لنا كذلك معاشر العلماء فى دينه من شىء إلا أن نبينه للناس كما استأمننا الله عليه .

فهم إن فعلوا ذلك استغفرت لهم الملائكة ، واستغفرت لهم مخلوقات الله كافة .

أما الذين علموا الحق ثم كتموه مجاملة لحاكم ، أو هربا من المسئولية ، أو طمعا فى الدنيا ، فهؤلاء عليهم لعنة الله ، ويلعنهم اللاعنون من الملائكة والمؤمنين الذين يغارون على أمر الله ، ويحرصون على هديه ، ويعملون بمنهجه سبحانه . .

على أن باب التوبة مفتوح أمام هؤلاء العلماء . وطريق توبتهم هى أن ينتقلوا من دائرة السلبية مع الخير ، إلى دائرة الإيجابية مع الله ، ومن يناصره .

وهم بولائهم المستأنف بعد التوبة ، وببيانهم للحق كما أنزله الله ـ قد وعدوا من الله ـ كرما وفضلا ـ أن يتوب عليهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم لأنه هو التواب الرحيم . . ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى**﴾ [1] .

أما أولئك الذين قست قلوبهم ، وصدوا عن سبيل الله ، وماتوا وهم كفار ولم يعلنوا خروجهم على الظالمين ، وانضمامهم لأهل الحق والدين ، ولم يرتدوا أثواب عبودية الله ، وماتوا وهم يكتمون الحق واشتروا الدنيا بالآخرة ، ولم ييسر الله لهم توبة يحتضنهم بها بأنوار رضاه ورحمته ، ويكتنفهم فى ستره ، فهؤلاء مطرودون من رحمة الله ، وعليهم لعنة الله وملائكته والناس أجمعين ﴿**خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون**﴾ .

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ١٦٣

بعد الدرس العظيم فيما هو واجب أن يكون ماثلاً وقائما فى نفوس وسلوك الذين يتصدرون للدعوة إلى الله ، يذكر الله سبحانه وتعالى أن ألوهيته تعم الخلق جميعا . . هو الله الواحد القهار . . وأنه المنفرد بالوحدانية وأن لا شريك له ولا صاحب ، وأنه هو الرحمن الرحيم ، الذى عمت رحمته الكون كله . .

فيالبؤس الذين لا يعيشون معنى الرحمن الرحيم ، ويالَشقاء الذين لا يعتقدون أن إلههم إله واحد ، لا إله إلا هو .

يقول الشهيد سيد قطب [2] فى هذه الآية : « ومن وحدانية الألوهية التى يؤكدها هذا التأكيد ، بشتى أساليب التوكيد ، يتوحد المعبود الذى يتجه إليه الخلق بالعبودية والطاعة ، وتتوحد الجهة التى يتلقى منها الخلق قواعد الأخلاق والسلوك ، ويتوحد

---

(١) النازعات : ٤٠ ـ ٤١ .
(٢) ظلال القرآن : ١ / ١٥٢ .

المصدر الذى يتلقى منه الخلق أصول الشرائع والقوانين ، ويتوحد المنهج الذى يصرف حياة الخلق فى كل طريق .

وهنا ـ والسياق يستهدف إعداد الأمة المسلمة لدورها العظيم فى الأرض ـ يعيد ذكر هذه الحقيقة التى تكرر ذكرها مرات ومرات فى القرآن المكى، والتى ظل القرآن يعمق جذورها، ويمد فى آفاقها حتى تشمل كل جوانب الحس والعقل، وكل جوانب الحياة والوجود. يعيد ذكر هذه الحقيقة ليقيم على أساسها سائر التشريعات والتكاليف. ثم يذكر من صفات الله هنا ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ؛ فمن رحمته السابغة العميقة الدائمة تنبثق كل التشريعات والتكاليف » . أهـ.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ١٦٤

هذه الطريقة فى تنبيه الحواس والمشاعر جديرة بأن تفتح العين والقلب على عجائب هذا الكون ، لنرى القدرة الماثلة أمامنا، القائمة بين أيدينا كى نستدل بها على وجود من خلقها .

فهو سبحانه يدعونا للتأمل فى خلق السموات والأرض . فإن فى هذه السموات بنجومها ، وأبراجها وأفلاكها وما فيها من آيات عظمى من سحاب وأمطار ورعد وبرق: لعبرة لكل معتبر . . متدبر . . متفكر . . من خلق هذا كله ؟ فرفع السماء بغير عمد ترونها ، وزينها بزينة الكواكب ، وحفظها من كل شيطان مارد ، وجعل الشمس فيها سراجا وهاجا ، وجعل القمر نوراً لامعا ، وأجرى السحاب الثقال بما يحمله من ماء ، وسير الرياح لتثير السحاب ، فتنزل المطر من السماء ليسقى بلدة ميتا . . . فيحييها ، وجعل الرعد مسبحا بحمده يثير فى النفس الرهبة . . . ويشعر بصفات الجلال والعظمة والجبروت . وهو الذى جعلها سبعا طباقا ، وأوحى فى كل سماء أمرها، وجعل فيها الملائكة ، ينزلون منها إلى الأرض بوحيه وبشاراته ، . . فمن الذى خلقها ؟ ما من شك أنه هو الله وليس يقدر على ذلك إلا الله .

﴿ والأرض ﴾ . . وما فيها من جبال رواس ، وأنهار جوار ، وأودية مبسوطة ، وبحار مشقوقة . . وما فيها من إنس وجان ، وطير وأسماك وحيوان . . يختلف فى الأشكال والألوان . . والزرع الذى يسقى بماء واحد ، ويخرج مختلفا ألوانه يفضل بعضه على بعض فى الأكل . . وغير ذلك كثير .

﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ يعقب كل منهما الآخر ويخلفه فى عظمة وجلال لايخفى على أحد ، ويشهد وينطق بعظمة الله وجلاله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وجعل الفلك تسير وتحمل ماشاء لمن شاء ، ولو شاء لأسكن الرياح فظلت الفلك رواكد على ظهر البحر . إلا أن رحمته سبحانه تغمدت العباد على ظلمهم . . ووسعتهم على بغيهم . ولم تقتصر على عبادة المؤمنين ، ولكن عمت الناس أجمعين بالمنفعة .

كما أنزل من السماء ماء . . مسخراً . . لا يتعب فيه الإنسان ، ولا يجتهد من أجل الحصول عليه . . أنزل من السماء ماء طهورا إلى الأرض ، فأحياها بعد ما كانت ميتة . فاهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . . وذلك حين ارتشفت الماء كما يرتشفه الظمآن ، وهو يلهث . . فتطمئن نفسه ويذهب ظمؤه ، وهكذا الأرض تحيا عروقها بالماء . . وتخرج نباتا مختلفا ألوانه . . رزقا وزينة ، يبعث فى الصدر الانشراح لرؤيته ، ويحرك الألسن المؤمنة بالشكر لله رب العالمين سبحانه .

وقد صدق الله سبحانه حيث قال ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ (1) .

فكل ما على الأرض من نبات ودواب أصله الماء . . فمن الذى جعله نباتا مختلفا ألوانه . . ؟ ومن الذى صيره دوابَّ مختلفا أشكالها وأنواعها . ؟ ومن الذى أحاله بشرا سويا عاقلا ، متكلما . ، ﴿ أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ وتصريف الرياح ، بتحولها من وجهة إلى وجهة . . وجعلها للعذاب تارة ، وللخير والمنفعة أخرى . . من الذى صَرّفها ؟ ﴿ أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ! !

وهذا السحاب المعلق فى جو السماء ـ لا هو يصعد إلى السماء ، فيلتصق بها . ولاهو يهبط إلى الأرض فيسقط عليها ، إلا أنه مسخر بين السماء والأرض ، برغم ثقله حتى تأتيه الرياح ، بأمر ربها فتضرب بعضه ببعض لتحيله مطرا غزيرا ، من بعد ما كان ظلا ظليلا . .

---

(١) الأنبياء : ٣٠ .

من الذى سخره ؟ ﴿ أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ .

نعم فى كل هذه الآيات أدلة قاطعة ، وبراهين ساطعة ، على صانع مبدع حكيم قدير ، فما هى حجة الذين يتنطعون ، وينصرفون عن تلك الآيات فيقولون « إنها الطبيعة !! » ؟ .

هؤلاء قد غالطوا مغالطة عجيبة . . إن كنتم لا تؤمنون بوجود الله لأنكم لا ترونه ، فما هى هذه « الطبيعة » التى تتكلمون عنها ؟ ما صفاتها ؟ هل رأيتموها ؟ وكيف خلقت كل هذا وألفت بينه هذا التأليف العجيب . . ؟!

ولنستعمل معا العقل الذى وهبنا الله إياه ، ولنقل لهؤلاء :

إن لم يكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد خلق ، فمن الذى خلق . . ؟

فإما أن يكون الخالق هو أنتم . . وأنتم لم تدعوا ذلك ، ولا نحن .

وإما أن تكون المخلوقات قد خلقت نفسها ، وهى أيضا لم تدع ذلك .

وإما أن يكون خلقها فرد بعينه معلوم من الناس . . ولم نسمع يوما ما أن أحدا قد ادعى ذلك . . فلابد وأن يكون هناك خالق لهذه المخلوقات ، وأن يكون واحدا . . قادرا . . عليما . . حكيما . . واسعا . . مدبرا . . يشهد كل خلقه بوحدانيته ورجوعه إليه . وهو الله سبحانه وتعالى . وفى هذا يقول الشاعر :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وقد كان الأعرابى البسيط ، الذى يسير فى البادية ، يتتبع مواقع القطر ، ويسوق الغنم ، أعقل حين سئل عن سر إيمانه بالله ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والأقدام تدل على المسير ، سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!!

ولذلك فإن الله سبحانه يخاطب العقول . . ولكن ما الذى يجدى مع رءوس خاوية . . مع من هم كالأنعام ، بل أضل سبيلا ؟!!

﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [1] .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ

(١) الكهف : ١٠٤ .

شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ
كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ
مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿ **ومن الناس** ﴾ يعنى فريق من الناس ، ﴿ **من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله** ﴾ . وما كان ﴿ **من دون الله** ﴾ فليس مستحقا لأن يكون ندا لله فى أى شيء فكيف يكون ما هو دون الشيء نظيره ؟!! ولله المثل الأعلى . . إلا أن هناك طائفة من الناس ، وهم من أشدهم ظلما وإثما وبغيا ، قد اتخذوا من دون الله أندادا . . يعنى نظراء ساووهم بالله ـ سبحانه وتعالى وأشركوهم معه ـ سبحانه وتعالى ـ إنهم أشركوا مع الله مَنْ دونه . . . ومادون الله يمكن أن يكون ملكا أو نبيا . . أو صالحا أو وليا . . كما يمكن أن يكون طاغوتا أوظالما . . أو شجرا . . أو مطرا . . أو نارا . . أو طيرا ، أو حيوانا . . . أو حجرا . . أو وثنا ، أوقبرا . . وكل هذا ﴿ **من دون الله** ﴾ وكل قد ساووه مع الله فى الحب الذى لا يصلح أن يكون إلاّ لله .

فإن كانت مساواتهم بالله فى الحب للأنبياء والصالحين ، فليس الممنوع هنا هو أصل الحب ، ولكن كونهم جعلوا حبهم لهم مساويا لحبهم لله ـ عز وجل ـ حتى صيروهم أنداداً لله ـ سبحانه وتعالى . فإن كان الحال كذلك فى حب الأنبياء والصالحين ، فكيف بحب غير هؤلاء من الظلمة والفسقة والطواغيت ؟

وقد سأل ابن مسعود رسول الله ـ ﷺ ـ : أى الذنب أعظم عند الله؟ فقال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك . (١) ولذلك فقد عقب الله ـ سبحانه وتعالى ـ مبينا سبيل المؤمنين فى نهج المحبة ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ فهم لا يشركون به أحدا فى الحب ولافى الخوف ، ولا فى الرجاء ولا فى الإنابة ، ولا فى الرغبة ولا فى الرهبة ، ولا فى الدعاء . . لأنهم يقدرونه حق قدره ويعلمون أنه هو سبحانه المستحق للحب لذاته وحده . وحب من سواه متفرع من حبه سبحانه .

---

(١) جاء فى الصحيحين عن ابن مسعودانظر البخارى كتاب التفسير قوله تعالى ﴿ **فلا تجعلوا لله أندادًا** . . ﴾ .

فكيف نسوى فى الحب بين الخالق والمخلوق ؟ وبين المعطى والآخذ ؟ بين القوى القادر، والضعيف الهازل ؟ بين الغنى أبدا والفقير أبدا .

إذا علمت ذلك ، تبين لك أن كثيرا من الناس قد تعلق بغير الله ، والتعلق بغير الله ـ سبحانه وتعالى ـ باطل ،فهو المستحق لها وحده ، إنه وحده هو الذى غذانا بنعمته. وغطانا بفضله ، وكل حب فإنما يأتى بعد حب الله ومتفرع منه ، كما أن كل عطاء إنما يأتى متفرعا من عطاء الله سبحانه . فلا يصح أن يتخذ الخلق أنداداً من دون الله ، يحبونهم كحب الله أو أشد حبا ، حتى ولو كانوا أحب خلق الله إلى الله .

والذين ظلموا هم الذين تعدوا الحق إلى الباطل ، والهدى والرشد إلى الغى والضلال، هؤلاء الذين لم تقدر قلوبهم على التعلق بالمحبوب الأعظم وحده ، فوقعوا فى « شرك المحبة» متخذين من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله . لو رأى هؤلاء أنفسهم حين يرون العذاب وأن القوة لله جميعا ما كفروا به من قبل .

فالله سبحانه هو المقصود من كل وجه ، وليس بين المخلوقات ـ مهما كان شأنه ـ من يجوز له أن يكون ندًّا لله فى أى شىء . . . سبحانه له القوة جميعا .

هؤلاء كانوا يدعون دعاوى مختلفة ـ وكلها باطلة . . يقولون : نحن نعبد الملائكة فتتبرأ منهم الملائكة ، وكانوا يعبدون الجن ، فتتبرأ منهم الجن ، وكانوا يقدمون أوامر ملوكهم وكبرائهم على أوامر الله وأحكامه ، فتتبرأ منهم كبراؤهم ، وهم فضلوا طاعة أخلائهم وأحبائهم فى الدنيا على طاعة الله ، فوجدوا أن الأمر كما تصوره هذه الآية الكريمة : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلاّ المتقين**﴾[1] .

لقد تقطعت بهم الأسباب والأحساب والأنساب ، ولم يبق إلا العذاب ، وتمنوا الكرة ولكن . . هيهات هيهات، فليس لهم اليوم إلا الحسرات . وما هم بخارجين من النار.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾

---

(١) الزخرف : ٦٧ .

لما بين ـ سبحانه وتعالى ـ فيما سبق من الآيات أنه الخالق وحده ، ولا ينازعه منازع فيما خلق ، وأنه المستقل بالخلق ، أخذ يعلن حكمته ويبين أنه المتكفل بأرزاق خلقه ، المدبر لأمورهم ، القاضى فى حاضرهم ومستقبلهم ، وأن لهم بفضله ومنّه أن يأكلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا ، وأن عليهم أن يخلصوا عملهم لوجه الله ، فلا يجعلوا للشيطان عليهم ولاية ، ويحرضهم سبحانه على أن يجتنبوا كل وسوسة منه ، وأن يتبعوا كل ما أمروا به من الله ـ سبحانه وتعالى ـ .

وينفر سبحانه من الشيطان ، فيقول ﴿ **إنه عدو مضل مبين** ﴾ تحذيرا لابن آدم من شره . وقال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾(١) . قال تعالى : ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾(٢) .

نعم . . فكل معصية لله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما هى خطوة للشيطان ، يقتفى أثرها ابن آدم ، فطوبى للتائبين بعد سيرهم على تلك الخطوات المظلمة . أما الشقاء فلهؤلاء الذين لايزالون منغمسين حتى يوسدوا القبور ، والشيطان يأمرهم بالسوء والفحشاء . . فعلى كل مسلم أن يراجع نفسه حين يصبح على أبواب المعصية ، لعله يتذكر أن الشيطان هو الذى يأمر بالفحشاء ، لعله أن يحذره ، فيستعيذ بالله منه ، وهو سبحانه مجيره إن أخلص فى فزعه إليه سبحانه واستعانته به .

وعلى المؤمنين كذلك أن يحذروا الشيطان أن يوسوس لهم ، فيقولوا على الله مالايعلمون .

ومثل ذلك ما يقع فيه الناس من شطط . . وعدم احتراز من القول على الله بما ليس لهم به علم ولا هدى ولا كتاب منير ، مما لا يجوز . . وعلينا أن نتمسك بنص الآية أو الحديث وخاصة حين يكون الأمر متعلقا بالله وصفاته وأسمائه .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

---

(١) فاطر : ٦ .
(٢) الكهف : ٥٠ .

إن الذين يقتفون خطى الشياطين ، هم فى عمى عن الحق ، لا يسمعون ، وإن سمعوا لا يفقهون .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢ ﴾

لما كان الله طيبا ويحب كل طيب ، ولا يقبل إلا الطّيب ، فقد دعا سبحانه عباده لما يحب ويرضى . دعاهم لأكل الطيبات ، ثم بين لهم أنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الأرزاق، وأرزاقه طيبة ، فعبادتكم إياه واستقامتكم على أمره : هى دليل إنابتكم إليه ، والشكر يصدر ممن يعترف لله بالألوهية والوحدانية ، وأولئك إياه يعبدون . . والذين يعبدونه ، أولئك الذين قدروا نعمته .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، ـ فقال : **﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ﴾** [(١)] ـ وقال : **﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾** . .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء ، يارب ، يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك »[(٢)] .

وبعدما أحل الله لنا الطيبات أخذ يبين لنا ما حرم علينا من الخبائث . . التى فى اجتنابها منفعتنا ، وسلامة صحتنا . . . قال سبحانه :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٧٣ ﴾

والله أعلم بمصلحة عباده . . وهذه المحرمات معروفة لنا . . . فالحلال من الطعام: ما أحل الله ، والحرام : ما حرم الله . . وليس لنا فى ذلك قول . وهذه

---

(١) المؤمنون : ٥١ .

(٢) رواه مسلم كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب .

المحرمات لايباح للمسلم منها شيء إلاّ مضطرا ، ويستثنى من الميتة . . ميتتان : السمك والجراد، ومن الدم دمان : الكبد والطحال .

إن الله غفور لمن اضطر ، وهو رحيم ، اقتضت رحمته بعبده أن أباح له ـ عند الاضطرار ـ أن يأكل مما حرم عليه فى غير وقت الاضطرار . ﴿ فمن اضطر ﴾ أى أكره على ذلك بغير اختياره . وعلى ذلك فالأكل عند الاضطرار : عزيمة ، لا رخصة ، فلصاحبها التقى الذى أقدم عليها أجر طاعة لنص من نصوص القرآن ، ولا يحل له أن يترك نفسه يموت جوعا . قال ابن كثير : « وقال وكيع أخبرنا الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال : من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار . وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة . قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراس رفيق الغزالى فى الاشتغال : وهذا هو الصحيح عندنا كالإفطار للمريض ونحو ذلك » . (1)

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا
أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ
نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾

إن الذين كتموا ما أنزل الله من الكتاب ، إنما هم اليهود والنصارى لعنهم الله ، فقد كتموا صفات محمد ـ ﷺ ـ ، وإخبار الحق به فى التوراة والإنجيل خوفا على الدنيا التى فى أيديهم . فكأنهم أكلوا فى بطونهم ناراً وهم لا يدرون .

أولئك الذين زين لهم الشيطان أعمالهم ـ حتى غفلوا عن الحساب والآخرة ـ فلايكلمهم الله يوم القيامة . . ولا حتى يعاتبهم ، لأنهم لا وزن لهم عنده . . ولايزكيهم ولا يطهرهم من رجس ما فعلوه ، لأنهم ﴿ اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾ . . . فما الذى دعاهم للصبر على النار ؟ . على شدتها . . وما الذى دفعهم للإقامة على المعاصى التى يعلمون أن لا عقوبة لهم عليها

(1) ابن كثير ، 1 / 206 .

إلا العذاب الأليم ؟ ذلك أن الله أنزل الكتاب بالحق والبيان للناس فكتموه واختلفوا فيه على علم ، فاستحقوا بذلك النكال والعذاب الأليم .

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

آية شاملة . . جامعة لمعانى الإيمان ، والعبادات ، والتوحيد ، والأخلاق . . جعلت لطلاب المحبة فى الله وأهل البذل فيه : علامات يهتدون بها ، فتحقق لهم وبهم العبودية الحقة لله ، يخرجون المال وهم محبون له راغبون فيه - بغير مَنٍّ ولا أذى - للفقراء والمساكين وذوى القربى ، واليتامى وابن السبيل ، وفى عتق الرقاب المؤمنة . وكل طريق يرجى به وفيه وجه الله . وما كان للإسلام استهانوا من أجله التضحيات ، واستصغروا فيها كل بذل .

فليس البر أن نولى وجوهنا قبل المشرق أو المغرب ، إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، وإنما حقيقة البر فى : الإيمان بالله وتوحيده توحيدا خالصا ، ينتهى بنا إلى إرضاء الله سبحانه بطاعته وامتثال أوامره واتباع شرعه. وقد سبق[1] بيان معنى : ذوى القربى واليتامى ، والمساكين .

أما ﴿ **ابن السبيل** ﴾ فهو المسافر المجتاز ، الذى قد فرغت نفقة سفره ، فيعطى مايوصله لمكان إقامته . كما يدخل فى ذلك الضيف الذى ينزل بالمسلمين . [2] ونحن نتوسع فنقول : إن من أبناء السبيل فى عصرنا هذا اللاجئ السياسى المضطهد ، لجهاده فى سبيل عودة العزة للإسلام، وبذلك يصبح هذا النوع فى درجة المجاهدين ، وعلى المسلمين حفظ كرامته إن هو لجأ إليهم ، وفى ذلك عزة للإسلام والمسلمين .

أما ﴿ **السائلين** ﴾ فهم الذين يسألون الناس ، ويتعرضون للطلب منهم ، فإن كان

---

(١) انظر كتابنا هذا عند تفسير قوله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق » الآية : ٨٣ .

(٢) وانظر ابن كثير ، ١ / ٢٠٨ .

غير قادر على الكسب ، فحقه المال ، وإن كان قادرا فحقه قول معروف ، وهو الرد الحسن الجميل ، والحث على الاكتساب وترك المسألة ، ويكون ذلك باللين .

﴿ وفى الرقاب ﴾ يعنى فى عتق الرقاب ، ومنهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه بعد ما كاتبوا سادتهم على مبلغ من المال يعتقونهم عليه ، فنراهم يعملون ويتكسبون من أجل الحصول على المال الذى يدفعونه ثمنا لحريتهم من الرق . . فعلى المسلمين مساعدتهم فى ذلك .

وهذا الباب من أبواب البذل فى الإسلام ، قد أغلق منذ زمن لعدم وجود الرقيق .

وبعد أن عدد الله سبحانه أبواب العمل ببذل المال تطوعا على حبه والرغبة فيه ، قال : ﴿ وأقام الصلاة ﴾ وإقامتها تأديتها على يقظة نفس ، ووثوب قلب ، وإشراق روح ، وطهر جوارح فى صلاة تصل صاحبها بحبال المودة والصلة بالله ، والحضور الواعى ، لما يتلو من قرآن وما يذكر من تسابيح .

وبعد الأمر بإقام الصلاة مسبوقاً ، ببيان أبواب البر الستة ، يبين الله لنا أن أبواب النفقة السابقة إنما كانت لأرباب الفضل والسعة والبر ، الذين يتقربون إلى الله تعالى بالعطاء ـ بعد الفريضة ـ لكل محتاج يصل إلى علمهم . أما الزكاة فتؤدى لبيت مال المسلمين ، الذى يقوم أيضا بسد حوائجهم ، فإن قصرت الزكاة فى ميزانية الدولة المسلمة أخذ من مال الصدقة ما يسد حاجة المحتاج ، وحاجة الجهاد ، وحاجة المصالح العامة . . وتصبح صدقة التطوع هنا برًّا يحبه الله ، ويحفظه لأهله .

والزكاة حق لله ، ودين يؤدى : ليس تفضلا من معطيه ، وإن كان له بها أجر عظيم . لكونها طاعة لله ، وحسن صنيع فيما استخلف فيه العبد . . وتفصيل ذلك فى سورة التوبة ، إلاأننا نجمل فنقول : إن الزكاة أمر مفروض ، وإن البر ـ بعد الزكاة ـ أمر مرغَّب فيه ومندوب إليه لاكتساب محبة الله سبحانه ، والفوز برضوانه .

والصادقون مع الخلق ، المخلصون فى السر والعلن ، هم الذين يوفون بعهد الله ولاينقضون الميثاق .

أما من خان عهد الله وضيّعه فهو لأمانات الناس وعهودهم أضيع وأضيع . . لذلك فقد جاء الله سبحانه بالموفين بالعهد فى تعداد أهل البر .

وكذلك الصابرون فى المرض ، وعلى شدة العيش وقسوته ، والجهد المبذول فى سبيله ، وحين نزول المصائب ، وحين الدعوة للقتال والجهاد فى سبيل الله ، والدعوة لدينه . .

وقاموا بما أمروا به وعاشوا الأمر والقيام بصدق قلب وإخلاص قول ، وانطوت نفوسهم على أنوار قلوبهم ، فعاشوا يخافون الله ويتقونه ، فأمّنهم مما خافوا ، وزادهم من فضله ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، وناداهم ﴿ **يا عبادى** ﴾ (١) فنسبهم إليه ، فهم السعداء لا يشقون ، ولا يشقى جليسهم . . إنهم الموفون بعهد الله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

والقصاص فى القتلى المسلمين : ويكون بقتل القاتل إذا كان متعمدا .

وإذا قبل أهل المقتول الدية ، وعفوا عن الدم والقتل ، فعلى من عليه الدية حسن الأداء .

وقد كانت العرب تقول « القتل أنفى للقتل » فجاءت عبارة القرآن ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ بالأبلغ والأفصح ، والأوجز ، وفى القصاص حياة حيث يهاب من يريد القتل أن يقتل « فيترك القتل » .

كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١٨١﴾ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨٢﴾

وقبل نزول آيات المواريث ، كان من يرث ، هما الوالدين فقط ، ويوصى لمن شاء من بقية ذويه ، فلما نزلت آيات المواريث ، كان للوالدين ما فرض الله لهما ، كما للأبناء والأزواج ، والأقرب فالأقرب ، وأصبحت الوصية مقصورة على من لا يرث ، ولاتكون إلاّ فى الثلث من المال فقط .

---

(١) فى قوله تعالى ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ الآية : ٦٨ من سورة الزخرف .

إذن فوجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين : منسوخ بالإجماع ، بل منهى عنه بالحديث الشريف « إن الله أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث »(1) .

فالميراث مفروض من عند الله لأصحاب الفروض والعصبات .

أما الأقارب الذين لا ميراث لهم ، فتجوز لهم الوصية من الثلث استئناسا بآية الوصية وشمولها .

والوصية مشروعة ، قل المال أو كثر ، لقوله تعالى : ﴿ إن ترك خيرا ﴾ فجعلها مطلقة ، دون تحديد أو تعريف . .

وللمورث أن يوصى ، وله ألاّ يوصى ، فإن أوصى فله أجر ، وإلا فما عليه ذنب . فقد ثبت أن سعداً قال قلت : يا رسول الله أوصى بمالى كله ؟ . قال : « لا » . قلت : فالشطر. قال : لا . « قال : فالثلث » . قال : الثلث ، والثلث كثير ، أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس (2) .

والذين يبدلون فى الوصية المتروكة ، فالإثم عليهم ، لا على من ورث ، وللميت أجره على ما وصى ، والله سبحانه « هو السميع العليم » بما حملت النفوس ، وحفظت القلوب .

ولا يحل تبديل الوصية لرؤية الأحسن أو الأصلح . .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۚ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

بعد أحكام القصاص والوصية ، تأتى أحكام الصوم تكليفا وإلزاما للذين هم بربهم يؤمنون . ويعود النداء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾ بمعنى يأيها الذين آمنوا بى ، وصدقوا برسولى وكتبى ، وأخلصوا عبوديتهم لى ، إنى قد كتبت عليكم الصيام كما كتبته على الذين من قبلكم ، وافترضته عليهم .

---

(1) رواه الترمذى ، كتاب الوصايا ، باب « ما جاء لا وصية لوارث » وقال : حسن صحيح .
(2) رواه البخارى ـ واللفظ له ـ كتاب باب « فضل النفقة على الأهل . . . » إلخ .

وإن كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد كتب الصيام علينا : فلم يكتبه إجهادا للمؤمنين، ولكن تنقية للقلوب ، وتزكية للأرواح ، وتخليصا للنفوس من ضلالها وما يعلق بها وقربة وطاعة لملك الملوك .

والصيام هو الإمساك ، أو الامتناع : لغة ، وشرعا هو العبادة المقصود بها وجه الله تعالى بالامتناع عن الطعام والشراب والنكاح ، من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وبه تتربى الإرادة فى الإنسان حين يوقن بقدرته على الإمساك عن شهواته .

والجماعة المسلمة فى حاجة إلى ذوى الإرادة : لترتقى فوق حاجة النفس بالصبر والاحتمال .

ولما كان المنع عن المباح محرمًا نصف اليوم ، ومتاحًا فى النصف الآخر ، ولما كان الصيام مشروعًا لشهر واحد من العام ، وليس فى كل الشهور ، كان ذلك تعويدا للنفس على سهولة التلقى عن الله بروح الامتثال لأمره ونهيه ، وليس فى ذلك أدنى مشقة على الذين يتلقون الأمر من الله ، بثبات العبيد ، الذين يعيشون يقينهم بالله الرءوف الرحيم ، فلا يكلف نفسًا إلا وسعها ، ولا يكلف نفسًا إلا وهو بها رءوف رحيم .

وبذلك يتلقى المؤمنون أوامر الله فى الصيام وغير الصيام ، بالرضا والحب ، والقبول، فيعيشون الصوم تفكرًا فى ملكوت الله وعظمته ، ورقة فى المشاعر والحس وشفافية فى النفس ، وإشراقًا فى الروح ، ومددًا يصلها بحضرة الحق سبحانه . فيعيش رقيق الوجدان والشعور ، محلقا فى عالم الذاكرين ، الذين لا يشغلهم عنه شهوة بطن ولا فرج .

والصوم رياضة بدنية وروحية ، تصح بها الأبدان والأرواح ، وتتربى النفس، وتزكو القلوب ، فتنشأ مواجيد الأرواح المسبحة . ألا يحاكى الصائم من قبل بزوغ الفجر إلى غروب الشمس حياة الملائكة بروحه المسبحة ، السابحة فى بحار الحكمة ، يغالب رغباته ونزعاته ، حتى صار رقيقا شفافا كأنه ملك يمشى على الأرض بين الناس؟!

أما فضل الصوم وثوابه ، فإنما هو من علم الله سبحانه ، فالصوم نصف الصبر ، وإنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب .

والأيام المعدودات المقصودة فى هذه الآية : إنما هى ثلاثة أيام من كل شهر ، وقد كان ذلك قبل فرض الصيام فى شهر رمضان ، حيث كان صيام ثلاثة أيام من كل شهر مكتوبا على الأمم من قبلنا ، قال بذلك معاذ ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعطاء ، وقتادة، والضحاك ، وقيل غير ذلك عن الحسن البصرى حيث قال : « لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا : شهراً كاملا[١] » .

و ﴿ أياماً معدودات ﴾ عددًا معلومًا ، وقال أيضًا بذلك : السدى ، وقد كان الصيام قبل النسخ ـ الذى سوف نبينه إن شاء الله ـ يعنى الامتناع عن الطعام والشراب والنساء، من بعد صلاة العشاء إلى مثلها .

أما قوله تعالى ﴿ فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ يعنى من شق عليه الصيام لعارض سفر أو مرض فأفطر ، فليقض ما فاته من أيام معدودة ، حين ترفع عنه المشقة بزوال عارض المرض أو السفر .

﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ .

يعنى من أطاق الصيام[٢] فلم يصم ، فعليه فدية : طعام مسكين عن كل يوم أفطر إفطارًا وسحورًا مشبعيْن فيه، حيث كان الأمر بالخيار ، من شاء صام ومن شاء أفطر ، وأطعم مسكينًا فأجزأ ذلك عنه ، وكان ذلك قبل النسخ[٣] .

﴿ فمن تطوع خيرا فهو خير له ﴾ يعنى من أطعم أكثر من مسكين فهو خير .

﴿ وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ حيث جعل الصيام بالخيار ، ثم ندب إليه ، لأنه تمام الخير حتى وإن أطعم المفطر فدية ، فلو أنه علم ثواب الصائمين لصام معهم ، ولم يبتغ عن الصوم بديلاً .

وظل الحكم كذلك تدريبًا للمسلمين على تعود الصيام حتى نزل قول الله تعالى :

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ

(١) انظر ابن كثير، ١/ ٢١٣ـ٢١٥ .
(٢) أى استطاعه ولكن بمشقة وصعوبة كالشيخ الهرم ومن فى مثل حاله من الضعف .
(٣) انظر فى نسخ هذا الحكم وعدم ذلك . . تفسير القرطبى ٢/ ٢٨٦ .

﴿عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

نسخت هذه الآية : حكم الخيار فى الصوم ، وأثبتت صيام شهر رمضان للمقيم الصحيح ، وبقى الإطعام بالفدية لمن لا يستطيع الصوم .

وقد شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصيام فى شهر رمضان ، وخصه بذلك ، لأنه الشهر الذى نزل فيه القرآن ، فصار فوق كل الأشهر وجعله علما عليها وفيها .

ومما رفع شأن شهر رمضان كذلك أنه كان شهر مراجعة المنهج بكل تفصيلاته ، وبيانه بيانا متكاملا ، فقد كان جبريل ـ عليه السلام ـ يراجع القرآن الكريم مع رسول الله ـ ﷺ ـ مرة كل عام ، فى شهر رمضان . وليس المراد هنا تلاوة القرآن فحسب ، فهذا أمر قد مكن الله تعالى منه نبيه ـ ﷺ ـ ولكن المراد مراجعة القرآن كتابا خاتما مهيمنا على كل الكتب السابقة له ، ناسخا لأحكامها ، متمما لها ، منشئًا لشريعة الإسلام الذى هو دين الله : الذى قال عنه :

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾ (١) .

وفى العام الذى انتقل فيه الرسول ـ ﷺ ـ إلى الرفيق الأعلى راجع جبريل ـ عليه السلام ـ القرآن معه مرتين .

وقد ورد فى فضل رمضان أحاديث كثيرة (٢) .

والقرآن كتاب جامع ، مفصل لمنهج حياة الإنسان ، على مر الأجيال والأزمان ، فهو « هدى للناس جميعا » ثم هو « بينات » وعظات ، وحكم ، وأمثال ، وعلوم ، ومعارف ، وحجج ، وآيات قاطعة ، وبراهين ساطعة ، تفرق بين الباطل والحق ، وبين الحرام والحلال ، وبين الشرك والتوحيد ، وبين الظلمات والنور .

---

(١) آل عمران : ٨٥ .

(٢) تراجع فى كتب الحديث لمن أراد التوسع .

وقال ـ ﷺ ـ : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غُـبِّىَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » [1] .

ومن كان مريضًا أو على سفر من الرجال أو النساء ، أو كانت حائضًا أو نفساء : فصيام عدة من أيام أخر مثل التى أفطر فيها .

. . وذلك لأن الله تعالى يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر .

وهذا دليل على استحباب الأخذ بالأيسر ، وترك العسر موافقة لما يريده الله بنا .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشىء من الدلجة » [2] .

إذْ إن الله لم يفرض طاعة ، ولا حرم معصية إلا ليبسر على عباده الحياة بكل مافيها من خير ، فإن تقبلوا أمره ونهيه عن حب وطاعة ورغبة فيه ، أصبح كل أمر لديكم يسيرا لاعسر فيه ، ببركة الطاعة ، والامتثال .

والأصل فى الإسلام هو العمل لوجه الله ، فمهما قل العمل أو كثر ، ومهما أفطر الناس أو صاموا ، فكل ما يطلب منهم إنما هو الإخلاص ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾ والله سبحانه حين يجد من عبده عملا فى طاعة ، يرزقه الله تعالى كمال الإحسان وجمال القبول ، وييسر عليه أداء ما فرض، أو قضاء ما فات ، فيعيش وليس فى قلبه أكبر من الله ، ويجد سعادته فيما هداه الله إليه .

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

والله سبحانه حين يسأل أو يبتغى ، فإنما هو أقرب إلينا من حبل الوريد ولذا لم يقل « فقل إنى قريب » إذْ فيما يخص الدعاء بالذات يؤكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ : أن لا واسطة بينه وبين عباده ، حتى ولو بكلمة « قل » يوحيها إلى رسوله ، فهو المجيب مباشرة ، وبلا واسطة ، ولذا جاءت الإجابة شافية ، مصحوبة بفاء التعقيب والسرعة .

---

(١) البخارى ، كتاب الصوم باب « إذا رأيتم الهلال فصوموا . . إلخ » .

(٢) البخارى كتاب « الإيمان » باب « الدين يسر . . . » .

﴿ فإني قريب ﴾ منهم ، مطلع عليهم ، مشرف على أعمالهم ، أسمعهم وأراهم ، وأشهد ضعفهم ، وأعلم حاجتهم ، ومن استجاب لأمرى منهم استجابة حب وخضوع ، وسعته برحمتي التي وسعت كل شيء ، واستجبت له وأعطيته فوق الاستجابة : المزيد والمزيد . وحين يلجأ أحدهم إلىّ ويفزع بعضهم نحوى : يدعوننى لأعطيهم ، ويسألوننى لأسترهم ، فإنى عند ظن عبدى بى ، فليظن بى الخير ، وليوقن بإجابتى ، وليدعنى لأجيبه ، وليسترحمنى لأرحمه ، وليستجرنى لأجيره ، وليسألنى فأعطيه ، وليستهدنى فأهديه ، إنى أنا القريب المجيب .

وللدعاء آداب كثيرة ، نذكر منها مثلاً : ترك الاستعجال ، فعن أبى هريرة ، عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « لا يزال يستجاب للعبد ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ، مالم يستعجل .

قيل يا رسول الله ! وما الاستعجال . . ؟

قال : يقول : قد دعوت ، وقد دعوت ، فلم أرَ يستجيب لى ، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء »[1] .

ومن آدابه أيضًا العزم فى الدعاء ، فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفر لى إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه[2] » .

ومن آداب الدعاء : أن يختم الداعى بقول « آمين » .

وفى آخر الآية تقرير من الحق تبارك وتعالى ، بأن الذين يدعونه وهم يستجيبون لأمره ونهيه بصدق نية وإخلاص عمل ، مؤمنون به إيمان المستيقن بأن الله يشهده ويسمعه ، فإن الله مستجيب لهم ، وإنه ليرزقهم إيمانًا به يحبه ، ويرضى به عنهم ، فيستجاب لهم ، لأنهم على الخير ، وبالخير يسألون الله .

وفى قوله تعالى : ﴿ لعلهم يرشدون ﴾ إشارة لطيفة إلى أن الذين يستجيبون لله ، ويؤمنون به يرشدهم ربهم إلى أفضل الدعاء ، فى أفضل الأوقات ، فى أفضل الأماكن ، على أفضل الحالات ، فيؤهلهم بذلك للاستجابة لهم ، وكما قال عمر بن الخطاب

---

(١)رواه مسلم ، كتاب الذكر ، باب : بيان أنه يستجاب . إلخ .

(٢)رواه مسلم ، كتاب الذكر ، باب : العزم بالدعاء .

ـ رضى الله عنه ـ : « إنى لا أحمل هم الإجابة ولكنى أحمل هم الدعاء » . فهو يعلم أن من أرشد إلى الدعاء ، كان أهلاً للاستجابة ، بوعد من الله ، وأول علامات إرادة الخير بالعبد : أن يوفقه الله ـ سبحانه وتعالى ـ للدعاء ، وأول علامات غضب الله على العبد : أن يحرمه الدعاء ، وحلاوة المناجاة .

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

حين فرض الله الصيام ، كان المسلمون يصومون من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، فيأكلون من المغرب إلى العشاء ، فإذا نام أحدهم فى ذلك الوقت ، وفاته الطعام أصبح الطعام والشراب محرمًا عليه ، حتى مغرب اليوم التالى ، فهم يأكلون ويشربون ويأتون نساءهم بين المغرب والعشاء ، وهذا هو وقت الإباحة ، وما عدا ذلك فصيام . روى أبو داود فى مسنده قال : « وكان الرجل إذا أفطر فنام قبل أن يأكل لم يأكل حتى يصبح » . فشق ذلك على المسلمين ، ووقع بعضهم فى مخالفات نتيجة ذلك ، منها : ما جاء فى الصحيح من أن عمر بن الخطاب كان عند رسول الله ـ ﷺ ـ فتأخر حتى بعد العشاء ، فلما عاد إلى بيته ، وكانت زوجته قد أخذها النوم فجامعها ظنًا منه أنها تتحيل بالنوم ، حتى لا يأتيها ، ولكنه تأكد فيما بعد أنها كانت قد نامت فعلاً ، فذهب يشكو أمره إلى النبى ـ ﷺ ـ .

وبينما عمر ومن معه من المسلمين ممن عجز عن المواصلة ، يشكون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ والرسول مشفق عليهم ، تنزل القرآن يعالج الأمر برحمة من الله وفضل ، ويرخص لهم فى الطعام والشراب وإتيان النساء من المغرب حتى الفجر [١] ، فقال تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ والرفث هو مجامعة النساء . وقيل

(١) انظر : القرطبى ٢/ ٣١٤ .

مقدماته . ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾ يعنى هن سكن لكم ، وأنتم سكن لهن ، قاله ابن عباس . ﴿ **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم** ﴾ وذلك بإتيانكم النساء أو الأكل بعد العشاء ﴿ **فتاب عليكم وعفا عنكم** ﴾ وفى ذلك عفو من الله ، ورحمة واسعة . ﴿ **فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم** ﴾ من الذرية الصالحة . ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾ وفى ذلك إباحة للأكل والشرب بعد إباحة الجماع ، فى أى وقت من الليل شاء الصائم ، كما أن فيه استحباب السحور ، والندب إليه . والمقصود بالخيط الأبيض هو أول ضوء النهار ، حين ينسلخ من الليل ، وهو الخيط الأسود .

ثم يأمر المولى بالإفطار عند غروب الشمس ، ولا يصح التأخير .

وقد شرع الله سبحانه الاعتكاف فى المساجد ، وجعل له آدابًا ، ومنها أنه يحرم على المعتكف مجامعة النساء ، وقد كان الرسول ـ ﷺ ـ يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ـ عز وجل ـ ثم اعتكف أزواجه من بعده .

ومن آداب الاعتكاف أنه لو ذهب إلى منزله لحاجة لابد له منها فليس له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك وليس له أن يقبل امرأته ، ولا أن يضمها إليه ، ولاأن يشتغل بشىء سوى اعتكافه .

ثم نهانا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن أن نقرب حدوده ، فكيف بانتهاكها ؟ . إن الله سبحانه يأمرنا أن نبتعد عن حدوده ، وألا نحوم حولها فمن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه ، والتقوى هى أن تدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس .

فنهار الصائم طهر كله ، ما بين ذكر ، وعمل لجمع الرزق ، وتأدية صلاة أو إصلاح فى الأهل وأخوة الإسلام . والصائم يتم صيامه باعتزال كل منكر ، فلا غيبة ولا نميمة ولاحقد ، ولا حسد ولا عقوق للوالدين ، ولا ظلم لضعيف ، ولا كيد لقوى ، ولامودة لفاسق إلا للعظة والتنبيه لأمر الله ، وبذلك يخرج الصائم من شهر الصيام وقد صهرته بوتقته ، فجعلت منه نمطًا فريدًا فى الكمال . وهذا ما يحدث لمن عرف الصيام كما يجب ، وأداه بالكيفية التى يراد بها وجه الله ، فأعانه الله عليه ، وأمده بما يجعله يؤديه بحب وطاقة متدفقة .

وإن للصائم حياة فى الليل إذا أتم صيامه بالنهار تختلف عن غفلة الذين لايدرون عن الصيام ، إلا أن يجوعوا ويعطشوا ، فإذا غربت الشمس انطلقوا إلى شهوة البطن

والفرج ، وهم لا يعون إلا أنهم انفكوا من قيد كان يحجزهم عن شهواتهم . إنهم يصومون صيامًا يسقط عنهم الفرض ، وشتان بين عبادة تسقط ما علينا لله من دين ، وعبادة تفتح بيننا وبين الله أبواب القرب ومعانى العطاء ، من عالم الحب فى الله والعيش فيه . نعم شتان بين عبادة المحب وعبادة المكلف المتململ مما كلف به . . شتان . . شتان بين الصائمين الحاضرين فى حضرة الله ، يذكرونه ويذكرهم ، وبين صائمين متململين بجوعهم وعطشهم ، يطلبون ليلهم ليهيموا فيه على وجوههم فى ملاهى الشهوات .

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

نزلت هذه الآية فى الرجل يكون عليه لصاحبه حق ولم يكتبه عليه ، وليس عليك فيه برهان ولا بينة ، فيجحد الحق ، فربما يذهب صاحب الحق والذى عليه الحق ليتخاصما إلى الحاكم ، أو القاضى ، فيقضى الحاكم أو القاضى للذى ليس له الحق ، ويهضم الذى له الحق ، فيضيع حقه بحكم القاضى وعلم خصمه . ﴿ وتدلوا بها ﴾ أى تقدموا بعضها إلى الحكام .

وقد ورد فى الصحيحين ، عن أم سلمة : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار»(١).

فالحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ، فليس ما يثبت من حق بأمر القاضى حقًا حلالاً ، إلا إذا كان هو فى الأصل كذلك ، والحرام مثله ، والقاضى يقضى برواية البشر وشهادة الشهود ، فويل لمحل الحرام بزور الشهود وبلاغة الحجة ! !

۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

---

(١) رواه البخارى : كتاب الأحكام ، باب : موعظة الامام للخصوم .

عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : سأل الناس رسول الله ـ ﷺ ـ عن الأهلة ، فنزلت هذه الآية ﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج** ﴾ يعلمون بها حل دَيْنِهم وعدة نسائهم ، ووقت حجهم .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الأهلة مواقيت ، تفصل بين الأزمان ، ويتبين بها الإنسان أوقات الليل والنهار ، والأيام والأشهر والأعوام ، وبها يتعرف مواقيت العبادة المختلفة ، من : صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج .

ولما كانت الأشهر والأيام محددة بمواقيت ، تعتمد على الأهلة ، فإن الأهلة ذات منفعة دينية ـ كما بينا ـ ودنيوية .

وقد رأينا فى هذا المشهد المتكرر لسؤال الصحابة للرسول ـ ﷺ ـ عن الأمور التى تتعلق بحياتهم المختلفة عدة مسائل :

منها : حيوية المجتمع المسلم ، وعلاقته الوثيقة برسوله ـ ﷺ ـ ورسالته ، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة تمر عليه دون أن يربطها بهذا الدين الذى صار منهج حياتهم .

ومنها أيضًا : تخلى الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عن كل علم تعلموه وكل خبرة مروا بها فى الجاهلية ، وكأنما هم للوهلة : يولدون وتولد معهم تصورات إسلامية ، وعلوم علوية ، ينسخون بها حياتهم ومعارفهم السابقة ، متحولين إلى حياة الإسلام ومعارفه .

ومنها أيضًا : حرص المجتمع المسلم على تعلم أمور دينه ، كحرصه على طعامه وشرابه وأكثر ، فلم ينتظر المسلمون أن يبلغهم الرسول ـ ﷺ ـ بكل ما يأمر به الله تعالى ، أو ما يتعلق بشئون حياتهم الجديدة ، فينفذونه عن حب وخضوع فقط ، ولكن كانوا يطلبون بأنفسهم أن يفصل فى أمر كذا وأمر كذا حتى تستقيم أحوالهم ، ويهدأ شوقهم ، وتطمئن قلوبهم إلى الحق المنزل من عند الله .

إنهم كانوا يسارعون فى الخير ويسعون إليه ، وفى هذا بيان لمدى تعلقهم بالله سبحانه ، وحبهم له ، وإيمانهم الواثق به جل وعلا ، وكأنما راق لهم أن يكون بينهم وبينه رسول ونبى يوحى إليه من ربه ، وهم يسألون فيجيبهم وهو ـ ﷺ ـ ﴿ **وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ (١) .

---

(١) النجم : ٣ ، ٤ .

عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله **﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾** .

وهكذا يبين الله لهم آياته ، فيجيبهم عما سألوا عنه من أمر الأهلة ، فنسخ عادات الجاهلية بأحكام الإسلام فى شتى أمور الحياة ، فلا يجيب السؤال وكفى ، ولكن يعطى المزيد والمزيد . فهو سبحانه بصير بأحوال عباده وحاجاتهم المتكررة لمعرفة أمور الإسلام ، فيعلمهم أن ليس من البر فى شىء تلك التقاليد والخرافات ، إنما البر فى الاعتدال وترك الأمور المريبة فى مظهرها ، وملازمة تقوى الله ومخافته .

وفى حكمة عامة ، لا تزال تتداول بين الألسن **﴿ وأتوا البيوت من أبوابها ﴾** ، فتصرف النفوس الخبيثة عن كل فعل يؤتى من خلف الظهور ، ويسار فيه من غير الطريق المعروف المشروع ، فيتحايل من أجل الوصول إليه .

وبتقوى الله يكون الفلاح والتوفيق من الله تعالى : فاتقوا الله فى كل أموركم ، وإياكم والابتداع أو التقليد ، لعلكم بذلك تفلحون وتصيبون الحق فى أعمالكم ، فتنالون رضا الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليكم .

ولقد كان المسلمون الأوائل يسألون عما يجهلون ، ويطيعون فيما يؤمرون ، كانوا يأخذون الأمر من الله فى شتى شئون حياتهم اليومية بروح التسليم والإذعان ، ولذلك نجد الأمر بالقتال يأتى للمسلم وهو يرتل القرآن على سريره ، فيقوم وهو يرفع تمرات إلى فمه فيلقفها ليسرع وينادى حى على الجهاد ، متنسما روح الجنة عند مواقع النزال ، حتى لنرى أحدهم يقول : « إنى لأجد ريح الجنة عند جبل أحد » .

يقول تعالى :

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ
فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ
لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

فى هذه الآيات يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بقتال الكفار الذين يقاتلونهم ويخرجونهم

من ديارهم ، وقوله ﴿ فى سبيل الله ﴾ تركيز على أمر النية ومشروعية القتال ، فليس القتال إلا من أجل عقيدة الإسلام و إعلاء كلمة الله فى الأرض . وليس فى سبيل الهوى وغاية الشيطان.

قاتلوا يأهل الإسلام ، وأهل سبيل الله ، من صد عن دين الله ، وهاجمكم فى عقر دياركم ، وأخرجكم منها ، وكمم أفواهكم ، ومنعكم من إقامة شريعة الله فى أرضه . وكاد لكم كيدًا ماكرًا ليخرجكم عن دينكم ويصدكم عن سبيل الله . لاترتكبوا ـ خلال ذلك ـ المناهى التى تتعارض مع نيتكم الخالصة .

ومن المناهى : التمثيل بجثث الموتى ، والغلول ، يعنى السرقة من الغنائم ، وقتل الصبيان والشيوخ ، الذين لا رأى لهم ولاقتال فيهم ، والرهبان ، وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار ، وقتل الحيوان لغير مصلحة ، كما قال ذلك ابن عباس ، وعمر بن عبد العزيز ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم .

ويجاهد فيغزو فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا فى كل مكان على وجه الأرض، وكلمة الذين كفروا السفلى .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ ليس معناه ، لا تبدءوا بالقتال ، ولكن لا تعتدوا على الذين اجتنبوا قتالكم ، أو التدبير له .

وعلى هذا يجب أن يفهم النهى المذكور .

ويدل على ذلك الجمع بين الآيات والأحاديث الواردة فى مشروعية القتال ، وهى كثيرة ولا يتسع الموضع لذكرها ، وفى الآيات التى نحن بصددها الآن ما يؤيد ذلك .

والأمر بالقتال شديد على بعض النفوس ، و إن يكن محببًا إلى بعضها ، إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبين أن ما يقع فيه المسلمون من عدوان على حقوقهم فى الحياة واغتصاب لديارهم وأموالهم ، والكثير من الأذى الذى يحيق بهم : لا يحسمه إلاالجهاد، فى سبيل الله ، ومقاومة كل من أراد الإسلام والمسلمين بسوء .

بل إن الذى وقع فيه المسلمون اليوم من فتنة فى الدين ، وتخبط فى الأمر ، إنما هو بسبب تركهم لهذه الفريضة ، التى يستقيم بها كل اعوجاج ، فقد صدق الله إذ قال : ﴿**والفتنة أشد من القتل**﴾ .

يقول الله تعالى للمقاتلين من المسلمين : حيثما وجدتم الكفار الذين يحاربون الله

ورسوله والمؤمنين ، وأخرجوكم من دياركم وخربوا منازلكم ، وفرغوا منكم أماكن جهادكم وساحات قتالكم ، ليحلوا فيها محلكم ، حق عليكم أن تتبعوهم حيث كانوا فتقتلوهم « وتخرجوهم وتشردوهم ، حتى يتم القضاء عليهم » .

وأى فتنة أعظم من أن تكون العزة للكافرين على المؤمنين ، فيبدلوا دين الله ، ويعطلوا شريعته ، ويبغوا الفساد فى الأرض ، ويصدوا عن سبيل الله ﴿ **ويبغونها عوجا**﴾ .

ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**﴾ . وقد منع الله سبحانه المسلمين أن يبدءوا الكفار بالقتال عند المسجد الحرام ، فدل ذلك على أنه غير ممنوع فى غيره ، بل هو مشروع ومطلوب .

ولا تبدءوهم بالقتال عند المسجد الحرام ، حتى يكونوا هم البادئين لترتد عليهم فتنتهم عند البيت ويرتدُّوا إن شاء الله على أعقابهم خاسرين .

وقوله تعالى : ﴿ **فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ .

ومن الانتهاء هنا : أن يتركوا القتال ويدخلوا فى الإسلام تائبين إلى الله ، والله غفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ، وقال إننى من المسلمين ، يرشده الله إلى صراط مستقيم ، فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب ، فلو ارتكب الكفار أبشع ما يستبشع فى حق الله سبحانه ، ثم عادوا إليه تائبين مستغفرين لغفر الله لهم على ما كان منهم ولايبالى .

ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤

عن ابن عباس وغيره : [1] أنه لما سار رسول الله - ﷺ - معتمرًا فى سنة ست من الهجرة ، وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة ، وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها فى السنة الآتية هو ومن معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم ، فنزلت فى ذلك هذه الآية﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص** ﴾ .

---

(١) ابن كثير ، ١/ ٢٢٨ .

فالأشهر الحرم : حرام القتال فيها ، ومنهى عنه إلاَّ أن يبدأ غير المسلمين بالقتال فيها ، فعند ذلك يجب عليهم ردّ الاعتداء . وبين أعين المسلمين دائمًا قول الله تعالى : ﴿ **واتقوا الله** ﴾ لأن تقوى الله تستوجب نصره ، فهم عباده الموحدون الذين قلوبهم بين يديه ، هو وليهم ومعهم ، وناصرهم ومؤيدهم .

وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

هذه الآية تحث على النفقة فى سبيل الله ، والتهلكة هى نتيجة الإمساك عن الإنفاق ، فالإنسان عندما يمسك عن النفقة على الجهاد فى سبيل نشر الدين ، ومقاتلة المشركين ، ففى هذا هلاك ودمار لحياة المسلمين ، والإحسان هو الدعوة إلى الله ، والبذل فيه بذل النفس ، وبذل المال .

حيث يحب الله تعالى الذين يتقنون أعمالهم كلها ، سواء كان ذلك العمل بذلاً فى سبيل الله ، أو جهادًا أو أمانة على أوامر الله بالفعل أو بالترك .

فالإحسان هو : الإتقان لكل ما يطلب من الإنسان لدنياه أو آخرته بكل صوره الواسعة المتعددة ، حتى يكون بذلاً تارة بالمال ، وأخرى بالنفس أوبالعلم والمعارف فى خدمة الدين وأهله فى سبيل الله ، وكل ذلك إحسان يحب الله أهله ، ويغفر لهم ، ويكفر عنهم ، ويجزل لهم من عطائه وإحسانه ، قال تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾[1] ؟ .

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

يبين الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى هذه الآية الكريمة : أحكام الحج للذين أحصروا ، ومنعوا عن إتمام مناسكه ، وكذلك الأحكام لمن ﴿ **تمتع بالعمرة إلى الحج** ﴾ .

---

(١) الرحمن : ٦٠ .

ثم عقب تعالى على هذه وتلك بقوله ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ أى : لمن خالف ما تبين ، أو ارتكب ما نُهى عنه ، أو قصر فيما أمر به .

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ١٩٧

وهذه الأشهر هى « شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذى الحجة » .

« فمن فرض فيهن الحج » فأحرم ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج ﴾ .

والرفث الجماع ، قال تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ [1] وهو يشمل مقدمات الجماع من الترغيب فيه والدعوة إليه بالكلام والتقبيل والمعانقة والمداعبة .

والفسوق هو : ارتكاب ما نهى الله عنه .

والجدال هو : كل ما يدعو إلى نزاع ، وينتهى إلى مخاصمة أو مكابرة فيما أمر الله ، سواء أكان ذلك فى مناسك الحج أم غيرها .

وذلك لكمال صورة المحرم ، وجعلها فى إطار التقوى واليقظة ، فالمُهِلّ بالإحرام فى شهور الحج إنما هو كميّت راحل عن الدنيا بين يدى مغسله ، فلا يرهب الخلق ولاينصرف إليهم ، بل ينصرف عنهم ليعيش أيام إحرامه فى حضرة الله سبحانه ، يستمع إليه ويدعوه ويستغفره ، ويرجوه ويكبره ويلبيه ، قلبه يستشعر وجود ربه ورقابته على جوارحه من الدقيقة الأولى فى إحرامه .

قال ابن عباس : « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ، ويقولون نحن المتوكلون ، فأنزل الله ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ يعنى لا تنسوا فى سفركم هذا الزاد ، وتذكروا سفر الآخرة واحملوا إليه خير زاد ، وهو التقوى ، والتقوى زاد المتقين ، الذين يخافون الله ، ويخافون فيه الناس ، فيعملون دائمًا على مرضاته ومرضاة الناس فيه ، فلا يظلمون أحدًا حتى لا يسألهم الله عنه ، ولا يصح أن يخرج قادر إلى الحج موفرًا لماله

---

(١) البقرة : ١٨٧ .

معتمدًا على زاد غيره وعطائه ، وذلك أمر يقع فيه بعض أهل الإسلام . والله سبحانه يدعوهم إلى أن يستعملوا ما حباهم الله به من فهم وعلم وعقل ومال فى تقواه ، حتى يكونوا حقًا من أولى الألباب وذوى الأفهام .

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ الضَّآلِّينَ ١٩٨

عن ابن عباس ، قال كانت عكاظ ومجنّة وذو المجاز أسواقًا فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا فى الموسم ، فنزلت ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم** ﴾ أى فى مواسم الحج .

ويجزئ الوقوف فى أى مكان من عرفة ، أما الوقوف عند الصخرات التى وقف عندها حضرة الرسول ـ ﷺ ـ فليس حتمًا ولا شرطًا لصحة الوقوف بعرفة ، وإن أمكن فهو حسن . وعلى الحاج فقط أن يصل إلى أى موضع من عرفات فى وقت محدد، وهو مع أو بعد الزوال ، فيصلى الظهر والعصر جمع تقديم ، ويؤجل صلاة المغرب والعشاء ليصليهما فى مزدلفة لا بعرفة، فالحاج يقف بعرفة من وقت الزوال إلى الغروب ، ثم يفيض من عرفات إلى مزدلفة، لصلاة المغرب والعشاء ، ويبيت بها ليصلى الفجر عقب الأذان ، ثم يفيض مع الحجيج إلى منى لرمى جمرة العقبة .

والذكر هنا بمعنى استدامة الحضور بالقلب فى أداء المناسك : حاضرًا فى حضرة الله، فى الصلاة ، وأثناء جمع الحصى ، يتأمل حكمة الأمر ، وجلال وجمال الامتثال ، ويظل مستغرقًا فى حضرة الله بالتكبير والتهليل والتعظيم والدعاء .

إن الإنسان ـ وخاصة الحاج ـ حين يتأمل نعمة الله عليه بالتوحيد ، وذلك الاجتباء الإلهى باعتناق الإسلام ، الذى لولاه لعاش الإنسان فى ضلاله القديم ، الذى سبق رسالة نوح بارتداد ذرية آدم عن الإسلام ، وكذلك الضلال الذى عاشه الكثير من ذرية إبراهيم بارتدادهم عن الإسلام ، وتحريفهم له فى صورة اليهودية والنصرانية ،ليعرف نعمة الله تعالى عليه ؛ إذ إن الحق تبارك وتعالى كرم أمة محمد ـ ﷺ ـ وأنقذها من الضلال ، ولم يكتبه عليها ، حتى لو ضل منها فريق قام آخر بالحق يذكر ، وله يجاهد،

فرضًا واجبًا عليه، حتى يقوم الدين كما كان بين يدى محمد - ﷺ - وأصحابه رسالة توحيد وعلم ، بدولته الحاكمة بما أنزل الله ، وأمته العابدة النقية من الضلال ، ولعرف كذلك أن الإسلام سيظل بإذن الله تعالى واضحة طرقه وسبله ، خفاقة رايته، عالية حكمته .

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

عن عائشة قالت : « كانت قريش ومن دان دينها : يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات . فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه - ﷺ - أن يأتى عرفات ، ثم يقف ، ثم يفيض منها . فذلك قوله ﴿ **من حيث أفاض الناس** ﴾ . وبذلك سوى الله سبحانه بين أهل مكة وغيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ [1] .

وكما أنه لا فضل لعربى على أعجمى إلاّ بالتقوى ، كذلك لا فضل لقرشى على غيره من العرب ، ولا من الناس إلاّ بالتقوى .

فموقف الجميع : عرفات ، وإفاضتهم جميعًا إلى مزدلفة ، لا تمييز بينهم إلا بالأعمال، ومراقبة الله وحبه وامتثال أمره .

إن الله يربى عباده على شكر النعم ، وليس من نعمة أكبر من الطاعة .

والآن وقد تمت نعمة أداء المناسك والاقتراب من نهايتها برمى جمرة العقبة فى صبيحة يوم العيد ،علينا أن نشكر الله تعالى على توفيقه. ومن أجمل الشكر - لغة وذكرا - الاستغفار ، لأنه مصحوب بتعظيم الله ، والاعتذار عما بدر من تقصير ، وإن لم يلحظه العبد أثناء نسكه ، وذلك عطاءِ من الله سبحانه لكل عباده ، والترغيب فى الاستغفار فى ذلك الوقت إشارة إلى أنه وقت رضا ، وإجابة للعبد من الله الغفور الرحيم .

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .

ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً
وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ۚ
وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾

كان الحجيج يقفون فى مواسم الحج فى ساحات التجمعات ، كعرفات والمزدلفة ، وكل منهم يذكر مآثر آبائه وأجداده ، فيقول الرجل منهم : كان أبى يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ، كان أبى يقاتل فلا يهزمه أحد ، كان أبى كذا . . . إلخ وليس لهم ذكر غير فعال آبائهم ، فنهى الله عن ذلك التباهى ، وقال لهم : ﴿ **فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا** ﴾ . اذكروا الله الذى خلقكم فسواكم ، فرزقكم حسن الفهم والتقدير ، حتى أسلمتم له وجوهكم وقمتم له قانتين ، اذكروه أشد ذكرًا من ذكركم آباءكم ؛ فآباؤكم عباد أمثالكم لايملكون لكم ضرًّا ولا نفعا ، فالأولى بكم حين تفرغون من أداء مناسككم : أن تذكروا الله بدل ذكركم لآبائكم .

وإن الذين تنسيهم الدنيا حياة الآخرة ، ليس لهم فى الآخرة من نصيب وذلك بما نسيها وشغل عنها . أما الذين قالوا ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار** ﴾ ، فأولئك هم الناجون ، بطلبهم النجاة من الله ؛ طلبوا من الكريم حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة ، فأعطاهم فى الدنيا طاعته ، وكل مايعين عليها وسيعطيهم فى الآخرة من النعيم والرضوان ما يستحقون .

۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ
وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

الأيام المعدودات هى : أيام التشريق ، تبدأ بعد الإفاضة من المزدلفة ، فيرمى الحجيج جمرة العقبة ، ثم يقيمون بمنى يومين ، ثم يفيضون إلى مكة فى اليوم الثالث .

ومن الحجيج من يرغب فى الإقامة بمنى حتى اليوم الرابع ، ثم يفيض إلى مكة .

وهذه الأيام يستحب فيها الذكر والعبادة . فهى أيام مباركة لمن تعجل ولمن تأخر . وهى أيام رمى الجمار .

قال ابن عباس : « الأيام المعدودات ، أيام التشريق ، والأيام المعلومات ، أيام العشر ».

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

فى هذه الآيات : صنف آخر من الناس ، يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على ما فى قلبه ، وهو ألدّ الخصام .

ونقول : إن الناس تجاه الله صنفان . . مؤمن بالله مصدق ، يعجبك قوله وعمله ، وهو على ذلك الذى أعجبك منه ، وهو طيب ، يحبه الله ، ثم يحبه رسول الله ـ ﷺ ـ وهو كذلك يحب الله ورسوله .

أما الثانى فمنافق ، أمره إلى الله ، لأننا لا نعلم بالتحديد مستور طويته ، ولسنا بأنبياء يعلمنا الله بهم ويدلنا عليهم ، ولكن لنا منهم ما أظهروه، ونكل بواطنهم إلى علم الله ، إلا إذا عطلوا حدوده ، أو جاروا على أهل دينه ، أو أنكروا معلوما من الدين بالضرورة .

وربما يعجبنا قول المنافق ، لأنه صاحب صنعة فى الكلام ، وصاحب لحن بالحجة ، وقدرة على الإقناع ، ولذلك فإن الله تعالى يحذرنا ـ فى هذه الآيات ـ من أن نغتر بهم .

وقد تكررت مشاهد المنافقين من هذا اللون فى عصرنا هذا ، غير أن الله تعالى ميزهم بعلامات ، فنحن نعرفهم بها ، وفى الصحيح عن رسول ـ ﷺ ـ أنه قال : أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» [1] .

---

(١) رواه البخارى ، كتاب الإيمان باب علاقة المنافق .

إن هؤلاء المنافقين إذا انصرف أحدهم من حديثه ، سعى فى الأرض بالفساد والتخريب .

وعلامات إفسادهم تظهر فى الحرث والنسل ، حيث إن الله سبحانه بسبب إفسادهم يمحق من الحرث بركته ، أو يمنع القطر ويسلط الحشرات والديدان فيهلك الحرث والنسل(١) .

وهؤلاء لا يقبلون نصيحة ، ولا يتقون الله تعالى ، ولا يتواضعون لجنابه ؛ وذلك بما زين لهم الشيطان من سوء عملهم ، وبها تكبروا وتجبروا فى الأرض بغير الحق ، فحسبهم ﴿ جهنم ولبئس المهاد ﴾ .

ومن سمات القرآن : إنه حين يتعرض لمواقف الظالمين نراه يجدد الحياة بعد ذلك ، ويشحذ الهمم وينتشل النفس المكدودة برحمة منه إلى عوالم الحق والخير ، وكما أن أولئك اعوجّوا عن الطريق ، فقد أقبل آخرون عليه يبيعون أرواحهم ابتغاء مرضات الله ، وهم لا يزالون يفعلون ذلك فى جميع أنحاء العالم وعبر مراحل التاريخ ، وحتى تقوم الساعة ، يؤيدون دين الله .

والله رءوف بأولئك الطيبين الأخيار المجاهدين فى سبيله بأموالهم وأنفسهم ، العاملين على رفع راية الإسلام خفاقة فى العالمين .

إنه رءوف بالعباد . . يغفر ما يقع منهم من سهو أو خطأ أو نسيان . بل مايمتحنون به من الوقوع فى معصية ما فيسارعون بالتوبة ، وهو سبحانه يعاجلهم بالمغفرة ، ويعالجهم بالندم ، فهم من بنى آدم ومعرضون بفطرتهم للإساءة والإحسان .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾

ومادام الخطاب قد وجه للذين آمنوا ، فمعنى ذلك : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يدعو المؤمنين به للدخول فى شرائع الإسلام جميعا .

كما يلاحظ أن معنى السلم هنا ليس المراد به الخروج من حالة الحرب ، أو عقد

(١) وانظر ابن كثير ، ١/ ٢٤٦ .

الهدنات والمعاهدات والمصالحات بين المسلمين والكفار ، ولكن المعنى : أن على المسلمين أن يدخلوا فى الإسلام ككل ، ولا يخلطوا بأعمال الإسلام عملا من أعمال الجاهلية . فالسِّلْم يعنى الإسلام ، وكافة أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

وكذلك على أهل الكتاب ـ الذين آمنوا وأسلموا ـ ألا يخلطوا بعقيدة الإسلام عقيدة من الإنجيل أو التوراة ، فقد نسخت جميع الشرائع بالإسلام ، وأصبح المطلوب من كل مؤمن هو الأحكام القرآنية فقط ، والأحكام القرآنية كلها .

واعلموا أن الشيطان يزين لكم الأهواء ، ويحسن لكم الأعمال ، ويزخرف الباطل ، وفى اتباعه الهلكة لكم فى دينكم ودنياكم ، فلا تتبعوه ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ .

فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

يعنى فإن رجعتم عن الحق ، وغرتكم أمانى الشيطان من بعد ما بين الله لكم الحق من الباطل ، وعرفتم عداوة الشيطان لكم ، فلا تلوموا إلاّ أنفسكم ، واعلموا أن الله ﴿عزيز﴾ لايقهر ، قادر على أن يصيبكم بعذابه ويذيقكم أليم عقابه ، ﴿ حكيم ﴾ فى قضائه ، فلا يعذب جورا ، ولا يحكم إلا عدلا ، فيأيها الذين آمنوا أسلموا وجوهكم وقلوبكم لله رب العالمين بصحة الاعتقاد وصحة الاقتداء . .

وأقول : إن المسلمين اليوم مدعوون للدخول فى السلم كافة ، فقد صنع بهم الاستعمار والغزو الفكرى ما جعلهم يأخذون من الإسلام جانب العبادات فقط ، ثم يعطلون الأحكام . فليدخلوا فى وحدة إسلامية شاملة تعيد لهم مجدهم الغابر .

إن المسلمين فى أنحاء الأرض كافة : مدعوون إلى الدخول فى السلم ﴿ كافة ﴾ أى فى الإسلام كله ، لا يعطلون منه أمراً . . ولا حكما . . ولكن يقيمونه كله ، كما أقامه محمد ـ ﷺ ـ وكما أقامه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وكما أقامه عمر بن عبد العزيز ، وكما أقامه الخلفاء الذين غزوا وفتحوا وانتصروا لله سبحانه .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

وهكذا بعد كل إعلام عن الدخول فى الإسلام ، أو الذود عنه أو الانتصار له ، يذكّر الله سبحانه بالآخرة ، وأنه محاسب خلقه ومجزى المسىء منهم بإساءته والمحسن بإحسانه .

قوله تعالى :

سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾

اسأل بنى إسرائيل عما جاءهم من آيات الترغيب فى الله والترهيب من هيبة جلاله .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أكرم موسى ـ عليه السلام ـ ليشهدوا على يديه بيان القدرة الإلهية بشق البحر ـ على سبيل المثال ـ إلى فرقين عظيمين ، كل فرق منهما يمثل جبلا من الموج تمسك به يد القدرة حتى اجتاز موسى وقومه .

لقد جاء الله سبحانه بذكر بنى إسرائيل فى هذا الموقف ، لأنهم هم المثل البين فى الإصرار على الكفر ، بعد العلم واليقين والشهود للآيات التى تخر لها الجبال سجدا . . من حين كانوا مع موسى ، وإلى يومنا هذا يضرب بهم المثل لكل إصرار على الباطل، وعناد للحق . فقد أعرض كثير منهم عن الآيات البينات ، أى الحجج القاطعة، وبدّلوا نعمة الله كفرا ، أى استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها .

وهذا حال القلوب المغلفة بظلمة الضلال والكفر : لا تعى ولا ترى، ولا تحس أنها آيات بينات .

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

لقد زين الشيطان ، وزينت القلوب الفاسدة والعقول المريضة للذين كفروا الحياة الدنيا ، وظنوا أنهم بعلوهم فيها وتجبرهم وسلطانهم الزائف الزائل : أنهم على شىء ، وألهاهم التكاثر والتفاخر بالأموال والأولاد .

هؤلاء جعلوا الدنيا أكبر همهم . ولم يكتفوا بإهلاكهم أنفسهم ، فراحوا يستهزئون ويسخرون بالمؤمنين وسعيهم من أجل الآخرة ، وإنفاقهم المال رخيصا فى سبيل رضوان الله ، وهم لا يعلمون أن هؤلاء هم العقلاء حقا . . وهم الفطناء صدقا . وذلك لأنهم

محصنون بكتاب سماوى يتبعونه ، ويأتيهم رزقهم حلالا طيبا بأمر الله، وإذا ابتلاهم ربهم بشيء من الخوف أو الجوع أو نقص من الأموال والأنفس والثمرات : تراهم فى ظل صلوات الله عليهم ورحمته ، فى سكينة واطمئنان ، راضين بقدر الله ، صابرين على ماقضى به .

هذا . . و الله تعالى لا يعطى الشيء بالشيء . . فهو منزه عن مثل أعمال الخلق ، ولكن يعطى بغير حساب ولا مسألة ، ولا مبادلة ولا مكافأة . فإذا خاطب الخلق خاطبهم بما يمكن لهم تصوره بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ويضاعف الله إلى سبعمائة ضعف .

أما إذا جاء يوم الحساب ، رأوا « مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وأهل اليقين حين يعملون العمل لا يعملونه من أجل حسنة أو عشر حسنات ، ولكنهم يعملون العمل ابتغاء وجه الله ، وهم مشفقون .

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

خلاصة قصة الخلق والإيمان . . وبيان لفضل الله سبحانه على عباده عامة بإرسال الرسل و إنزال الكتب ، وعلى المؤمنين خاصة بالهداية والانتشال من الضلالات والفتن .

وذلك حين أمر الله تعالى آدم وزوجه بالهبوط من الجنة إلى الأرض ، قائلا : **﴿ اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[1] فلما هبطا إلى الأرض وسكن معهما فيها إبليس لعنه الله ، وتكاثرت ذريتهما ، كانت أمة واحدة تعبد الله بما علمها آدم وحفظته عنه من الكلمات التى كانت دينه وشريعته

(١) البقرة : ٣٨ .

ومنهجه ، واستقامت الذرية فى جماعة مسلمة منتظمة فى طاعة الله ـ عز وجل ـ تحذر غضبه وتقوم بأمره . حتى جاءت جاهلية غالبة على منهج آدم الذى عاش به ، ووقع الشرك بالله .

وشاء الله أن يجدد للحق دولته ، ويذود عن منهجه ، فأرسل نوحا ، الذى عاش ألف سنة إلاّ خمسين يدعو للحق ويذكّر به ، ثم جاء الطوفان ليزيل الباطل وأهله ، وليبقى الحق فى نداء نوح وجماعته المؤمنة .

ومضت السنون ، وتراجع الناس عن الحق مرة أخرى ، وجاءت رسل تعقبها رسل تنادى الناس أن يدخلوا فى ﴿ **السلم كافة** ﴾ كما كانوا مع نوح ، حتى جاء إبراهيم ، فأقامها حنيفية سمحاء ، ويأتى موسى ، ويعقبه عيسى ، والكل ينادى الناس كافة ، أن يسلموا وجوههم لله رب العالمين .

لقد انتكست أمة موسى ، وارتدت عن الحق ، وبعث الله عيسى لهداية خراف بنى إسرائيل الضالة ، فخرجوا بدورهم على تعاليمه التى جاء بها لإصلاح ما أفسدوه من تعاليم التوارة . وقاوموا الإنجيل الذى أحل لهم بعض الذى حرم عليهم ، وبين لهم ما انحرفوا عنه من التوراة ، وبشرهم بالنبى الخاتم « الذى يفتح الله به قلوبا غلفا وأعينا عميا وآذانا صما » فحاربوه وأرادوا قتله ، فنجاه الله منهم ، ورفعه إليه ، حتى جاء منتصف القرن السادس الميلادى ، وكان لابد من إيقاف اليهود عن إثمهم ، وإيقاف النصارى عن بغيهم . . . فأرسل محمد ـ ﷺ ـ ﴿ **شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا * وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرا** ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ **الكتاب** ﴾ بصيغة المفرد إشارة إلى أن جميع كتب الأنبياء ذات مضمون واحد ، هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، ومهمة الكتاب مهمة واحدة وهى : ﴿ **ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** ﴾ . فهو الحق الذى يجب اتباعه ، وهو الهدى . إنه كتاب ينادى باتباع الرسالات السابقة ، فى غير تحريف ولا تبديل ، ثم جميع الخلق للدخول فى ﴿ **السلم كافة** ﴾ والإيمان بأن الحكم لله وحده . . وليحكم بالقرآن من آمن بالله ، فإن كلمة الله هى العليا . . وكلمة الذين كفروا السفلى .

إن وظيفة الكتاب الأولى هى : الحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فى

---

(١) الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦ .

الكتاب إلا الذين جاءتهم رسلهم بمنهج الله .. مصحوبا بالآيات الدالة على صدقهم. وهم أهل الكتاب الذين نراهم اليوم يختلفون على القرآن المتمم والمهيمن على جميع الكتب والرسالات السابقة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

بعد أن يسير المسلم فى طريق الإيمان بالله تعالى ربا، والاعتقاد بمحمد - ﷺ - نبيًا ورسولا، مراعيًا ما فى الكتاب من الأوامر فيقيمها .. والنواهى فيجتنبها .. يبتلى بتمحيص الإيمان، فمن صدق فى إيمانه وإخلاصه لله ثبته وهداه، ومن كان عابدا الله على حرف أوشك، تبين زيفه وضعفه ..

قال ابن عباس ﴿ **البأساء** ﴾ الفقر، و ﴿ **الضراء** ﴾ السقم، و ﴿ **زلزلوا** ﴾ خوفوا من الأعداء.

وقد ورد فى الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت، قال: « قلنا يا رسول الله ألاتستنصر لنا ألا تدعو الله لنا ؟ فقال: « إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه، فيخلص إلى قدميه، لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد مابين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه ». ثم قال: « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لايخاف إلاّ الله والذئب على غنمه، ولكنكم قوم تستعجلون » (١).

فالمؤمنون بفرضية الجهاد ووجوبه، لتطهير الأرض من وثنية المشركين، وتمكين المؤمنين من العدل فيها .. لا يتعجلون النصر .. فالنصر مقدر من عند الله بأجل، وثمنه اليقين بالله.

والذين كانوا على يقين بالله من الأمم السابقة، علموا ذلك، وقد كان الله سبحانه قادراً على نصرهم منذ اللحظة الأولى التى قالوا فيها مع أنبيائهم « لا إله إلا الله » ولكن مستهم كما مستكم البأساء والضراء، وزلزلوا؛ فالله سبحانه لا يعطى النصر والفوز

---

(١) رواه البخارى، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر.

إلا بعد تمحيص وابتلاء ، فدخلوا معارك مع أعدائهم ، حتى قالوا رسلهم﴿ **متى نصر الله**﴾ . فنأتى الإجابة ﴿ **ألا إن نصر الله قريب** ﴾ .

وتلك سنةالله تعالى فى الرسل ، وأتباعهم إلى أن تقوم الساعة .

وقد حكى الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم من أخبار الرسل وابتلاءاتهم وصبرهم عليها وعلى شدتها . . . هذا هو نوح يقول الله عنه :﴿ **فدعا ربّه أنى مغلوب فانتصر**﴾[١].

وكذلك الأنبياء حين تحيط بهم عوالم البأساء والضراء والزلازل ، وعندها تتجلى قدرات الله ؛ فيناديهم ﴿ **ألا إن نصر الله قريب** ﴾ .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

وهذه الآية توجب النفقة أولا على الوالدين ، ثم الأقرب فالأقرب مادام هناك سعة ومقدرة ، والله أعلم .

ثم ينبه المولى سبحانه على أن الإنفاق أعم من أن يكون بالمال فقط قائلاً ﴿ **وماتفعلوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ أى فيجزيكم عليه أوفى الجزاء ، إذ يخلف عليكم فى الدنيا ، ويكتب ذلك فى ميزان حسناتكم . . ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون** ﴾[٢] .

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

كتب الجهاد على المسلمين : فرضا واجبا لحماية حدود الأرض ، وحماية العقيدة ، والذود عن الإسلام ، وللتبشير به .

وقد ورد فى الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، فقد مات على شعبة من نفاق »[٣] .

---

(١) القمر : ١٠ .

(٢) الشعراء : ٨٨ .

(٣) رواه البخارى فى « كتاب الجهاد بابه : لا هجرة بعد الفتح » .

وقال : « لا هجرة بعد الفتح .. ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وهو كره لكم ﴾ إذ ربما تخافون الموت أو الأسر ، أو الهزيمة . ولكن ما أدراكم أنه ربما يكون لكم النصر ، فتفوزوا بالحسنيين ..

ثم يعقب تعالى بقوله : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ﴾ .

فالإنسان لا يدرى أين الخير وأين الشر ؟ فقد يهزم ويفوز برضوان الله ، وقد ينتصر فيغتر ، فيقع فيما يهلكه من المعاصى بسبب غروره .

والمؤمن التقى النقى يجعل اختياره دائما فى اختيار الله ، وغضبه دائما فى غضب الله ، وحينذاك يبلغه الله سبحانه ما يرضى ويختار ، ومن كان كذلك فهو فى رضوان وعطاء عظيم .

والله سبحانه يعلم وعباده لا يعلمون .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

أورد الإمام ابن كثير[2] . ـ رحمه الله ـ فى سبب نزول هذه الآيات أكثر من رواية ، ونحن نختار منها ما قال العوفى عن ابن عباس « أن المشركين صدوا رسول الله ـ ﷺ ـ وردوه عن المسجد فى شهر حرام ، قال ففتح الله على نبيه فى شهر حرام من العام المقبل ، فعاب المشركون على رسول الله ـ ﷺ ـ القتال فى شهر حرام ، فقال الله : ﴿ وصد

(١) رواه البخارى فى « كتاب الجهاد باب : لا هجرة بعد الفتح » .
(٢) تفسير ابن كثير١ / ٢٥٢ـ٢٥٤ .

عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخرج أهله منه أكبر عند الله ﴾ من القتال فيه» .

فالفتنة فى البيت الحرام ، وإخرج أهله منه ـ أى الموحدين الذين دخلوا فى عقيدة الله واستقروا على دينه ، وأرادوا تعظيمه فى البيت الحرام ـ أكبر من القتل .

وهؤلاء مصرون على قتالكم حتى ترتدوا على أعقابكم ، وتعودوا إلى الكفر بعد إذ هداكم الله سبحانه إلى الإسلام ؛ فاحذروا غضب الله .

والذين يرتدون عن الإسلام منكم بعد الايمان به ، فيموتون على ذلك ، قد **﴿حبطت أعمالهم ﴾** التى عملوها **﴿ فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾** .

ثم يبشر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا وقتلوا وأسروا : أنهم أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

أول آية تشير إلى الخمر فى القرآن الكريم ، ولم تسبقها أية إشارة من قبل . فقد مرت فترة تربية للعقيدة فى مكة ، وتمكنت من القلوب ، وكان وقت نزول هذه الآية فى المدينة ، حيث كان الحكم بالإسلام ، والحاكم فيها محمد ـ ﷺ ـ وأمته من حوله ، ودولته الحاكمة بما أنـزل الله ، وبما يوحى إليه من الحكمـة ، والمسلمـون يسـألون النبى ـ ﷺ ـ عما يعرض لهم من أمور دينهم ودنياهم . .

فى هذه الفترة بالذات : تتفتح مدارك المسلمين كى يعوا أن الخمر والميسر ليسا من مصلحة الدولة المسلمة ، ولا الجماعة المسلمة ، فيسألون عنهما من قبل أن ينزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيهما حكما ، ويأتى الجواب من الله تعالى : أن فى الخمر والميسر إثما كبيرا . وفيهما منافع للناس ، إلا أن إثمهما أكبر من نفعهما . . .

أما الإثم الكبير ، فإيقاع الشيطان بهما بين المسلمين العداوة والبغضاء ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهذا أكبر إثم فى الدين . .

وأما نفعهما ، فدنيوى [1] . مثل بيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان يكسبه بعضهم من

---

(١) انظر ابن كثير : ١ / ٢٥٥ .

الميسر ، فينفقه على نفسه أو عياله ، ولكن هذه المصالح لا توازى المضرة والمفسدة الراجحة ، لتعلقها بالعقل والدين . ولهذا قال تعالى : ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ (١) .

قال الإمام أحمد عن عمر ، أنه قال : « لمانزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية التى فى البقرة ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾ فدعى عمر ، فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التى فى النساء ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ فكان منادى رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران .

فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التى فى المائدة فدعى عمر ، فقرئت عليه ، فلما بلغ ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ قال عمر : انتهينا . . انتهينا » (٢) .

وهنا نقف مع ابتداء تحريم الحق ـ تبارك وتعالى ـ للخمر ، فقد كانت داء متمكنا من نفوس الناس ، فلما أصبحت هذه النفوس مستجيبة لما أنزل الله من الحق أخذوا يسألون رسولهم ـ ﷺ ـ عن أمر الخمر التى تذهب بعقولهم وبأموالهم ، وبصحتهم كذلك . فلما كانت هذه هى الإجابة . . ﴿ فهل أنتم منتهون ؟ ﴾ اندفع المؤمنون إلى التسابق فى كسر أوانى الخمر وإراقتها مقررين أن لا يقربوها . .

كانت قلوبا ندية . . تأخذ الأمر بتسليم يرتقى بالنفوس إلى عليين ، وكانوا صادقين فى التلقى وفى العمل . . وما أجمل قولة عمر عند نزول آية المائدة : « انتهينا . . انتهينا » .

والعفو . . الفضل . . وهو ما زاد عن معاش الإنسان ، عند المتقين الأخيار من ضرورات الحياة . . حياتهم ، وحياة من حولهم من المحتاجين . .

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ فى الدنيا والآخرة .

لعلكم تحسنون التقرب إلى الله بما لكم من خصال الخير .

فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

(١) خلاصة ما قال ابن كثير فى تفسيره : ١/ ٢٥٥ .
(٢) المرجع السابق .

« عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتى هى أحسن** ﴾ [١] و ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا** ﴾ [٢] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشىء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فأنزل الله ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم** ﴾ . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم » [٣].

وفى هذه الآية جعلهم الله - سبحانه وتعالى - إخوانهم حين المخالطة ، فلا بأس من الأكل والشرب معهم ، مع التزام التقوى والجبر بخاطرهم وإشعارهم أنهم منكم ، والمحافظة على أموالهم . . وبين الله - سبحانه وتعالى - أن ما أخذ به المسلمون من قبل من التحرز عن مخالطتهم بنية الإصلاح فيه الخير ، ومن خالطهم كذلك بنية الإصلاح ، فلا بأس ولا جور . ﴿ **والله يعلم المفسد من المصلح** ﴾ . فهو سبحانه عليم بمن أراد لهم الإصلاح . . وبمن أراد بهم الإضرار ، وهو العزيز الحكيم ، الذى لايظلم ولا يحب الظلم ، فكان حقا على عباده أن يتحروا العدل فى اليتامى ، ويحرصوا على كرامتهم وجبر خاطرهم فى أمر مالهم وتعليمهم، وتربيتهم وسلوكهم ودينهم، ولهم بذلك أجر . .

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

إنه تحريم صريح من الله سبحانه للزواج من المشركين من عبدة الأوثان ، فالمرأة والرجل على السواء . وإن كان الإجماع على إباحة التزويج بالكتابيات .

وإنى لأعجب للرجل من المسلمين ، يأتمن عدوّ دينه وعقيدته ، على فلذة كبده ! ! والمسلم بزواجه من الكتابية (النصرانية أو اليهودية) يعرض ولده لتضارب شديد

---

(١) الاسراء : ٣٤ . (٢) النساء : ١٠ .
(٣) ابن كثير : ١ / ٢٥٦ .

فى الفكر ، حين تذهب أمه إلى الكنيسة ويذهب أبوه ـ إن ذهب ـ إلى المسجد .

ولذلك يخبر الله تعالى عن المشركين ويحذر منهم بقوله : ﴿ **أولئك يدعون إلى النار** ﴾ بفتنتهم فى الدين وترغيبهم فى الدنيا . . ﴿ **والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه** ﴾ وذلك لايتم إلا بخليل ناصح ، إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكّرك .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾

يقرر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أن مدة الحيض :﴿ **أذى** ﴾ للصحة ، والنفس ، والمشاعر .

ولما كان الإسلام حريصا على سلامة المشاعر للزوجين ، والمحافظة على إحساسهما النفسى ، فقد قرر أن يعتزل الرجل مباشرة زوجته الحائض ، ولتقتصر المعاشرة فى هذه الفترة على الحديث المتبادل ، والملاطفة والمداعبة ، دون الجماع .

﴿ **ولا تقربوهن** ﴾ معناها القرب الجنسى ، ولكن كل شىء فى المعاشرة ما خلا ذلك مباح ، خلافا لليهود الذين يعتزلون الحائض ، فلا يجالسونها ولا يؤاكلونها . ﴿ **حتى يطهرن** ﴾ والطهر يكون بالاغتسال ، وليس فقط بانقطاع الحيض ﴿ **فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ .

نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

والنساء حرث لأنهن موضع الولد ، وهى متاع حلال للزوج يأتيها متى شاء وكيف شاء ، على ألا يكون ذلك إلاّ فى الموضع الذى أحله الله وفى الزمن الذى حدده الله .

﴿ **وقدموا لأنفسكم** ﴾ بفعل الطاعات ، وامتثال مانهاكم عنه من ترك المحرمات . . فذلك يكون ذخرا فى الآخرة . . ﴿ **واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه** ﴾ وسيحاسبكم على أعمالكم . . ما أسررتم وما أعلنتم . ﴿ **وبشر المؤمنين** ﴾ الذين التزموا منهج الله فى شئون حياتهم كلها .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ
ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم
بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

يرغبنا الحق - تبارك وتعالى - فى ألا نجعل الأيمان حائلا بيننا وبين وجوه الخير ، فيقول تعالى لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من وجوه البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها . فيجب أولا أن نتقى اليمين إلاّ إذا كان هناك ضرورة شرعية لها . . وإذا حلف المؤمن وجب عليه أن يبر بيمينه ، إلا إذا كان فيه قطع رحم أو منع خير عن مستحقه ، فالأولى هنا التكفير عن اليمين ، حيث إن الاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير (١) .

وليس فى لغو اليمين كفارة . . ولغو اليمين هو مالا يعقد الحالف له نية ، ولكن يأتى فى حديثه دون قصد ، مثل قوله « لا والله . . بلى والله . . » يريد بذلك أنه صادق فيما يقول .

﴿ والله غفور حليم ﴾ سبقت رحمته غضبه ، وسبق حلمه بطشه . .

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ
عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

والإيلاء لغة : الحلف ، وشرعا أن يحلف الرجل ألا يجامع زوجته مدة .

ومدة الإيلاء : قد تكون فوق أربعة أشهر أو دون ذلك . فإن كانت أقل فله ذلك ، وعلى الزوجة أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة فى هذه المدة . أما إن كانت أربعة أشهر، فما فوق ، فللزوجة حق التضرر وطلب الطلاق إن لم يفئ الزوج . . فإن فاء الزوج وعاد إلى مجامعة زوجته ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ لما سلف من التقصير فى حقها بسبب اليمين . ﴿ فاءوا ﴾ أى رجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهو كناية عن الجماع .

وإن أصروا على الإيلاء بنية الطلاق ، أو بتضرر الزوجة وتطليق القاضى إياها ﴿ فإن الله سميع عليم ﴾ .

---

(١) ابن كثير : ١ / ٢٦٥ .

وقد جعل الله سبحانه فرصة ـ للحالف ـ فى العودة عن إيلائه أربعة أشهر ، لأنها أقصى مدة يمكن أن تحتملها الزوجة فى الصبر عن زوجها .

وعن عبد الله بن دينار ، قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه وأرقنى ألا خليلَ ألاعبه

فوالله لولا الله أنى أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة ـ رضى الله عنها ـ ما أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ؟ فقالت ستة أشهر ، أو أربعة أشهر ، فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك .

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

﴿ والمطلقات ﴾ اللاتى قد دخل بهن أزواجهن : عليهن العدة ، وهى الفترة التى لايحل لهن الزواج قبل انقضائها . وعدة المطلقة ثلاثة قروء . . والقرء هو : الفترة ما بين الحيضتين من الطهر ، أو أن القرء هو الحيضة . والعرب تسمى الحيض قرءا ، وتسمى الطهر قرءا .

﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ﴾ قال ابن عباس وغير واحد[1] المقصود هو « الحمل أو الحيض » ولما كان هذا الأمر يتعذر معرفته إلا منهن ، فقد أكد الله عليهن الأمر بعدم الكتمان ، وذلك بقوله : ﴿ إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ .

وفى فترة العدة : بعولتهن أحق بردهن ﴿ إن أرادوا إصلاحا ﴾ ، للحياة فيما بينهما .

وقانون الحياة الزوجية السعيدة : أن للنساء حقوقا وعليهن واجبات ، وكذلك الرجال . . ﴿ بالمعروف ﴾ أى دون تعنت ولا تكلف .

وعن جابر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال فى خطبته فى حجة الوداع : « فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألاّ

---

(١) وبه قال ابن عمر ، ومجاهد ، والشعبى ، والحكم بن عيينة ، والربيع وابن أنس ، والضحاك ، وغيرهم . انظر ابن كثير ١/ ٢٧٠ .

يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن : ضربا غير مُبَرِّح (١) ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » (٢) .

ويقول ابن عباس « إنى أحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى المرأة ، لأن الله يقول : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ (٣) . ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ وهى الطاعة فيما لا معصية فيه . ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ عزيز فى انتقامه ممن عصاه ، وحكيم فيما أمر ونهى ، وشرع وحكم .

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩

كان الرجل ـ فى أول العهد بالإسلام ـ يحق له أن يراجع امرأته فى عدتها وإن طلقها مائة مرة . . فكانت النساء يتضررن من ذلك . . فقصر الله الطلاق إلى مرتين ، يحل للزوج أن يراجع زوجته خلال فترتى العدة المتعلقة بهما . . فإن طلقها الثالثة ، فلا يحل له أن يراجعها فى فترة العدة .

فسمى المرتين الأوليين « طلاقا » وسمي الثالثة « تسريحا » وجعل الإمساك بالمعروف والتسريح مصحوبين بالإحسان مادام الرجل هو الذى قرر الطلاق .

ولا يحل للزوج أن يطلق زوجته مقابل مال يأخذه منها ـ من المال الذى أعطاه إياها كله أو بعضه ـ إلا أن يخاف ألا يقيم حدود الله فى زوجته ، من حسن العشرة والإمساك بالمعروف ، وذلك حال نشوزها عليه . . أو تخاف هى حدود الله ، فلا تؤدى حق زوجها ، وذلك مفهوم من قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ وهذا مايسميه الشارع بالخُلْع (٤) . . وهو أن تطلب الزوجة الطلاق من زوجها نظير مال تدفعه إليه ، وهو « الافتداء » المذكور فى الآية .

---

(١) بتشديد الراء المكسورة : أى ضرباً لا يهشم اللحم أو يكسر العظم .

(٢) رواه مسلم . كتاب الحج ، باب : حجة النبي ﷺ .

(٣) ابن جرير . جامع البيان ٢/ ٤٥٣ .

(٤) بضم الخاء ، وباب الخلع فى الفقه غنى بالتفصيلات .

وقد حدث فى زمن النبى - ﷺ - « أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى - ﷺ - فقالت : يارسول الله ما أعيب عليه فى خلق ولا دين ، ولكن أكره الكفر فى الإسلام » . فقال رسول الله - ﷺ - « أتردين عليه حديقته » ؟ قالت : نعم . قال رسول الله - ﷺ - « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة »(1) .

والأولى ألا يأخذ الزوج من زوجه أكثر مما أعطاها ، ولا أن يعضلها فيما لا تملك . طالما أنها قد طلبت الطلاق : مخافة ألا يقيما حدود الله .

﴿ تلك حدود الله ﴾ وشرائعه فى أمر الطلاق ، ﴿ فلا تعتدوها ﴾ بغير ما أمر الله ، أو باقتراف ما نهى عنه ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾

أى إذا طلق الزوج زوجته الطلقة الثالثة ، فليس له أن يراجعها ، لأنها بانت منه بينونة كبرى . . إلا أن تتزوج هى بآخر بعد انقضاء عدتها ثم يطلقها من تلقاء نفسه ، كما طلقها الأول . وحينذاك يرجع حكمها كما كان قبل أن يطلقها ، أى أنها تحل له إن طلقها زوجها الثانى .

ولا يكون ذلك إلا بأن يدخل بها زوجها الثانى ، ويجامعها بعقد صحيح .

ومعنى أن يكون العقد صحيحا : أن يكون الزوج الثانى راغبا فى المرأة ، قاصدا لدوام عشرتها ، كما هو المعروف والمشروع من التزوج ، وكذلك نية المرأة . .

أما إذا نوى الطرفان أو أحدهما أن يحلل رجوع الزوجة لزوجها الأول ، فتكون باطلة فى حقه شرعا ، وإذا تم التصريح بذلك لا يحكم بصحة العقد ، ولا يجوز إبرامه .

فإن طلقت المرأة بعد الزواج الثانى ، طلاقا عاديا ، لاستحالة الحياة بينهما . فلها أن ترجع إلى زوجها الأول ، وله أن يراجعها إن ظن كل منهما أنه سيعاشر الآخر بالمعروف ، وبما يرضى الله ، من إقامة حدوده المشروعة بين الزوجين .

وتلك هى أحكام الله وحدوده يبينها لقوم يعلّمهم الله ، فيعلمون . . ويسمعهم فيسمعون ، ويأمرهم فيعملون .

---

(1) رواه البخارى . كتاب الطلاق باب الخلع .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

إذا طلق الرجل امرأته ، وقاربت العدة على الانتهاء ، فعليه أحد أمرين :

إما أن يمسكها بالمعروف ، فينوى عشرتها بما يرضى الله تعالى ، والقيام بحقوقها كاملة . وإما أن يطلقها بالمعروف ، فيؤدى إليها متاعها ، ويرعى لها أولادها .

فلا ينبغى أن تراجعوا النساء فى عدتهن بنية الإضرار بهن ، ويكون ذلك لمنعهن من التزوج بآخر ، أو الاعتداء عليهن ودفعهن إلى طلب الخلع ، لتعفوا أنفسكم من المتاع عند الطلاق ، أو للحصول منهن على ماليس لكم فيه حق ، وغير ذلك من النوايا السيئة المخالفة للقصد السليم من الرجعة ، وهو معاشرتهن بالمعروف ، وإقامة حدود الله ؛ إذ إن ﴿ **من يفعل ذلك فقد ظلم نفسه** ﴾ بمخالفته أمر الله ، وبتعريض نفسه للعذاب الأليم .

ولا ينبغى ـ كذلك ـ أن تتحايلوا على أوامر الله أو تضعوها موضع الهزل .

وإنها لنعمة عظمى : أن ينزل الله تعالى عليكم كتابا ويلهم نبيكم حكمة وسنة بها تهتدون ، وعلى نورها تسيرون ، فاتقوا الله ﴿ **واعلموا أن الله بكل شىء عليم** ﴾ فهو عليم بما أعلنتم فأخلصوا له ، وعليم بما أخفيتم فاخشوه ، يوم يحاسبكم على ما كسبت قلوبكم وأيديكم .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

عن معقل بن يسار ، أنه زوج أخته رجلا من المسلمين ، على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة ، ولم يراجعها حتى انقضت العدة ، فهويها وهويته ، ثم خطبها مع الخطاب ، فقال له : يالكع !! أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ،

والله لا ترجع إليك أبدا ، آخر ما عليك . قال : فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها ، فأنزل الله ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن﴾ إلى قوله ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ فلما سمعها معقل ، قال : سمعا لربي وطاعة . (١)

وذلك شرع الله فيمن آمن به وباليوم الآخر ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ من أن تأخذكم الحمية فتمنعوا الزوجة من زوجها ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾فكلوا أمركم كله إليه واستجيبوا له ، واعلموا أن الخير والحكمة فيما أمر الله تعالى به .

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

يقرر الحق تبارك وتعالى أن رضاعة الطفل تتم بحولين كاملين ، لمن أراد أن يتمها . وفي آية أخرى يقول تعالى ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ .

والإرضاع واجب على الأم لأولادها ، وحق الزوج على زوجه ، مادامت في عصمته .

في حين أن الواجب على المولود له ـ وهو الأب ـ النفقة على الأمهات وكسوتهن بالمعروف ، وهو ماجرت عليه عادة مثيلاتهن من غير إسراف ولا إقتار ، على قدر طاقته وقدرته المادية . وإن لم تكن تحته وفي عصمته ، وأرضعت له مولوده وجب عليه رزقها وكسوتها أيضا . . وفي هذا قمة الرعاية لحقوق المرأة في الإسلام . .

ويقرر الإسلام : أنه لا يقر الضرر للوالدين أو أحدهما بسبب الأولاد ويضع قاعدة إسلامية غالية بهذه المناسبة وهي أنه ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾ .

وإذا أراد الأب أو ورثته الفطام ، أو اعتذرت الأم عن الإرضاع لمرض أو لأي سبب طارئ ، فلا جناح عليهما إن اتفقا على ذلك بعد تشاور وتراض بينهما . وانفراد أحدهما بالرأي لا يصح ولا يكفي في الفطام أو الفصال .

---

(١) رواه : الترمذي ، كتاب التفسير باب (٣) وقال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

وإذا أراد كذلك ولى أمر الطفل بالاتفاق مع أمه ، أن تقوم أى امرأة أخرى غير الأم بإرضاع الصغير ، فلا جناح على الأم ، ولا على ولى الأمر فى ذلك ، على أن يعطيها ولى الأمر أجر مدة الرضاع التى أرضعت فيها الطفل ، أو تعطيه الأم ما أخذت مقدما من مال الرضاع الذى لم توفه بعد .

والله سبحانه مطلع عليكم ، ومعاقبكم ومجازيكم فاتقوه واخشوا لقاءه ، فهو الذى يعلم ما تخفون وما تعلنون .

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

وتقرر هذه الآية أن المرأة التى يتوفى عنها زوجها لابد وأن تعتد أربعة أشهر وعشرة أيام، لا تكتحل ولا تتعطر ، ولا ترتدى ألوانا لافتة للنظر ، ولا تتزين بخاتم ولا قرط ولاعقد ، بمعنى أنها تترك ما يسمى بزينة المرأة ؛ فهى تستحم وتنظف نفسها ، إلا أنها لا تظهر بمظهر تبدو فيه أنها سعيدة منشرحة .

وبعد انقضاء عدتها ، لا جناح عليها إذا تزينت للخطّاب ، وأعلنت رغبتها فى الزواج .

وهذا الحكم فى الزوجة التى دخل بها زوجها ، وكذلك التى لم يدخل بها زوجها .

ويسأل الناس عن أسباب كون العدة أربعة أشهر وعشرة أيام .

وهناك أسباب كثيرة ، منها تقدير العشرة والوفاء للرجل ، وتقرير بأن الإنسانية تدعو الإنسان إلى حفظ الذكرى والوفاء لها .

وهذه المدة بالذات محددة من الله تعالى لاحتمال اشتمال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجودا .

فإذا كانت حاملا ، ووضعت ولو بعد وفاة زوجها بثلاثة أيام ، فقد انتهت عدتها ، وعندها يحق لها الزواج . ولهذا فلا يحق لنا أن نعترض على المرأة التى تقضى فترة عدتها، ثم تتزين بعدها وتخلع عنها ملابس الحزن ، أو أعلنت عن رغبتها فى الزواج . ولهذا فقد قال تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فلاجناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن

بالمعروف . . ﴾ الآية . وقد قال الرسول ـ ﷺ ـ : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت ، فوق ثلاث ، إلاّ على زوج : أربعة أشهر وعشرا »[1] .

وفى حديث سُبَيْعة[2] الأسْلمية « أنها توفى عنها زوجها سعد بن خَوْلة ، وهى حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، وفى رواية ، « فوضعت حملها بعده بليال » . فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ، فقال لها : مالى أراك متجملة ، لعلك ترجين النكاح ؟ إنك والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشر . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فسألته عن ذلك ، فأفتانى بأنى حللت حين وضعت حملى ، وأمرنى بالتزويج إن بدا لى »[3] .

وسبحان الله العليم الخبير ، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، يعلم أن للمرأة طاقة تحدد لها أمر العدة ، على قدر احتمالها ، وربما تشذ بعض النساء عن هذه القاعدة ، إلا أن القواعد لا تبنى على الشواذ ، والقاعدة هى ما قرر الله سبحانه وتعالى .

وفى قوله ـ ﷺ ـ فى الحديث السابق : « تزوجى إن بدا لك » حكمة بليغة ، فلاحرج على من صبرت عاما أو أكثر أو العمر كله ، إلا أن القاعدة التى يجب الأخذ والتقيد بها ، ما قرره الله سبحانه وتعالى ونبيه ـ ﷺ ـ .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

لا يجوز لأحد أن يعرض على المطلقة طلقة رجعية ـ فى فترة العدة ـ الزواج بها ، أوالرغبة فيها ، لأنها ما تزال فى عصمة زوجها .

---

(١) رواه البخارى ، « كتاب الجنائز باب إحلال المرأة . . » ، وكذا رواه مسلم .
(٢) بضم السين وفتح الباء ، وسكون الياء .
(٣) رواه : مسلم ، كتاب : الطلاق ، باب : انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها .

والتى توفى عنها زوجها لا يحل لأحد أن يصرح بخطبتها فى فترة عدتها . إلا أنه يجوز له أن يعرّض بالخطبة تعريضا . . يعنى أن يلمح دون أن يصرح ، ومن أمثلة التعريض أن يقول : وددت لو رزقنى الله امرأة صالحة . ويكون ذلك فى حضرتها أو فى حضرة أهلها . أو يقول لوليها لاتزوجها حتى تعلمنى ، وغير ذلك مما يمكن أن يتاح له من القول دون تصريح .

ولا جناح عليكم ـ كذلك ـ إن ﴿ أكننتم فى أنفسكم ﴾ فلم تصرحوا ولم تلمّحوا . بالنسبة لهذه وتلك . قد علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنكم ستذكرونهن فى أنفسكم ، أو لذويكم . . فرفع الحرج عنكم فيما أخبرتموه ، ولكن حذركم من أن تواعدوهن فى السر. والمواعدة فى السر مثل أن يصرح لها برغبته فى الزواج منها فى وقت العدة : سرا ، بعيدا عن أهلها وأوليائها . ومن أمثلة المواعدة فى السر أيضا : أن يقول لها : عاهدينى ألا تتزوجى من غيرى ، ونحو هذا . . فنهى الله عن ذلك .

ولا يجوز عقد الزواج إلا أن تنقضى العدة ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ فهو مطلع على سرائركم ، فاحذروا أن يقع عليكم غضبه أو يحل بكم سخطه . ﴿ واعلموا أن الله غفور حليم ﴾ . بمن وقع فى خطأ أو زل فى معصية فليتب إلى الله ، وليعلم أن الله غفور حليم .

أما وقد أصبحت الأحكام مفصلة والآيات واضحة وبينة فقد أصبحتم مسئولين عما فرض الله عليكم .

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾

إذا طلق الرجل امرأته بعد العقد عليها ، وقبل الدخول بها ، . . فهذا أمر جائز شرعا ، لا حرمة فيه .

ولكن نظرا لأن هذا الأمر فيه انكسار لقلب المرأة ، أمر الله تعالى بتعويضها وجبر خاطرها بشىء من المتعة ، على قدر المستطاع ، فمن كان قادرا متعها على قدر سعته وقدرته . وقيل أعلى شىء أن يمتعها بخادم ، وأقل منه الوَرِق [1] [الفضة] ، ودون ذلك الكسوة . وقد متع بعضهم بخمسمائة ، وبعضهم بعشرة آلاف ، وهو الحسن بن على .

(١) بفتح الواو ، وكسر الراء .

وإذا اختلف الطرفان حول المتعة التى فرضها الله سبحانه ﴿ بالمعروف ﴾ وجب لها عليه نصف مهر مثلها . ولا يصح هنا أن نحدد ما لم يحدده الله ، وجعله متروكا للعرف الذى يسرى على الناس فى زمانهم .

وهذا للمطلقة التى لم يدخل بها ولم يفرض لها مهرًا، فإن كان قد فرض لها . . فلها نصف ما فرض .

يقول تعالى :

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

فنصف المهر حق للزوجة التى تم العقد عليها ، وسمى صداقها ، ولم يمسسها زوجها، ثم طلقها ، إلا أن تعفو المرأة ، فتقول « لا أريد شيئا من مهرى » أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ، وهو الزوج فعفو المرأة وأهلها بالتنازل عن نصف المهر أو الرضا بأقل منه . وعفو الزوج بالعطاء والفضل « وذلك على أحد القولين ، أما القول الآخر أن من بيده عقدة النكاح هو الولى » ، فمعنى ذلك أن يسامح ويتفضل ﴿ **وأن تعفوا أقرب للتقوى** ﴾ .

وقد رغب الله فى العفو ، لأنه الأتقى والأقرب إلى رضوان الله تعالى :

وهكذا يكون الإسلام قد ضرب المثل الأعلى فى الوفاء ، حيث يأمرنا هنا بأن نذكر الفضل ولا ننساه ، حين يدب خلاف فى الحياة الزوجية ، كما سبق أن أمر الزوجة بأن تعتد على زوجها : : « أربعة أشهر وعشرا » رعاية لحسن العشرة الزوجية السابقة ، فلاتنسوا ما كان بينكم من شعور طيب فى لحظات المرض والفرح والألم . . حتى وإن دب الخلاف بينكم ، فارتفعوا فوقه بالفضل والإحسان ، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا ﴿ **إن الله بما تعملون بصير** ﴾ .

وينتقل بنا الرحمن من قضية الطلاق وما يتعلق بها إلى الحديث الذى تطمئن به القلوب ، وتهدأ إليه النفوس ، وهو الحديث عن « الصلاة » بقوله :

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾

جاءت هذه الآية التى توصى بالصلاة الوسطى ، لتتوسط الحديث عن الأحكام من قبلها ومن بعدها بما يرطب القلوب بندى رحمته ، وينظر إلى أحوالهم ويحفظهم بقيوميته .

وقد أوصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالمحافظة على الصلوات كلها ، فى أوقاتها وطهورها ، وقيامها ، وركوعها ، وسجودها ، وخشوعها .

ولكنه سبحانه خص الصلاة الوسطى بمزيد التأكيد .

واختلف حولها فقيل :

إنها صلاة الصبح ، بدليل قوله تعالى بعدها : ﴿ وقوموا لله قانتين﴾ والقنوت إنما لزمه رسول الله ـ ﷺ ـ فى صلاة الصبح .

وقيل : هى صلاة العصر ، واستدلوا بقوله ـ ﷺ ـ يوم الأحزاب : «شغلونا عن الصلاة الوسطى ـ صلاة العصر ـ ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا »[1] .

وقيل : هى صلاة الظهر ، وقيل : صلاة المغرب .

ونقول : إن الله تركها كذلك دون تسمية ، حتى يحافظ المسلمون على الصلاة كلها ، وأن بعضها أفضل من بعض ، والله أعلم .

والقنوت هو القيام واللجوء إلى الله ، والاستغراق فى ذكره ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[2] وهو انصراف كلى بالروح والجسد والمشاعر ، واستغراق بالحس والوجدان بين يدى الله تعالى . ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ أى خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه .

والصلاة الصحيحة تشعر العبد بأنه قائم لله وذاكر له ومراقب لمرضاته ، وهى انخلاع الإنسان من صورة المادة التى حوله ، والتفرغ لذكر الله ومناجاته وعبادته ، فإن سجد سجد بقلبه وروحه وجسده ، وإن قام قام وقلبه متعلق بالله ، ويرتل ويسبح ، وكل كلمة تشق فى قلبه طريقا شعوريا ووجدانيا يعيش من خلاله معنى ما يقول لله سبحانه .

وفى قوله تعالى ﴿ وقوموا لله قانتين﴾ بيان أن القيام للتعظيم والتوقير والتقديس ، لاينبغى أن يكون إلاّ « لله » سبحانه وتعالى ، فقد جعل الله سبحانه القيام والقنوت له وحده ، وذلك لأن فيه نوعا من العبادة التى لا يجب أن تكون إلا لله . وكما أن السجود

---

(١) رواه البخارى كتاب المغازى باب غزوة الخندق .

(٢) الرعد : ٢٨ .

فى الإسلام لا يكون إلا لله وليس لشجر ولا حجر ولا بشر ، ولا وثن ، ولا صورة ، فكذلك القيام والركوع والقعود الذى يحمل معنى التقديس والتعظيم . إذْ كل ذلك من ألوان «الوثنية » التى نهى عنها الإسلام ومحاها محوا . وأمثلة ذلك فى مجتمعاتنا : القيام للقبور والطواف حولها والقيام لتحية أى رمز من رموز الوثنية القديمة والحديثة . ومن أمثلة فى ذلك الانحناء لكبراء القوم ، أو بتحيّـة الجمهور ، وغير ذلك من أنواع المبالغة فى التعظيم والتوقير فى الفعل أو القول ، وهو ما يتنافى مع قول « لا إله إلا الله » ويخالف قوله تعالى ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ .

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

والخوف يكون أكثر ما يكون فى حال الحرب والقتال .

وقوله « رجالا » يعنى على أرجلكم « أو ركبانا » يعنى على دوابكم ، أى فصَلُّوا على أى حال كان رجالا أو ركبانا ، يعنى مستقبلى القبلة وغير مستقبليها . وليكن ذلك ـ أى صلاة الخوف ـ فى اتجاه القبلة إن أمكن ، وإلا ففى أى اتجاه ، وعلى أى حال تمكنكم من أداء الصلاة .

ولما كانت أهمية الصلاة بالغة الخطورة فى حياة المسلم ، نجد أنه يجب أن يصليها حتى وهو يحمل السلاح ، أو يقاتل ، يصلى ما دام قد حان وقت الصلاة . على أى حال . . وعلى قدر استطاعته ، ولو بركعة واحدة ، ولو بإيماءة .

وإذا حل الأمن ، وذهب الخوف فأتموا صلاتكم وأقيموها كما أمرتم ، فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وركوعها وخشوعها وهجودها ، واطمئنوا فيها ، كما علمكم اللهوهداكم إلى ما به تبلغون رضاه ومحبته . فأدوا صلاتكم شكرا لله على ما علمكم ما لم تكونوا تعلمون .

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

واختلف حول هذه الآية هل هى منسوخة بقوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا . . ﴾ الآية وبآيات الميراث ، حيث «لا وصية لوارث » أو إنها غير منسوخة ، فيكون من حق الزوجة على زوجها بعد أن يتوفى أن تمكث فى بيته حولا كاملا ، ينفق عليها أهله إن أرادت ، ولها الخروج ، ولاجناح عليها ، ولها أيضا الزواج إذا انقضت عدتها ، إلا أن القول بالنسخ أقوى[1] .

وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

بهذه الآية : أصبح واجبا على كل عبد يخشى الله ويخافه أن يجعل لمطلقته متاعا بالمعروف ، وهو ما حكم به العرف الجارى فى زمانها ، وعلى مثيلاتها ، وهذا الحكم يسرى على جميع المطلقات ، سواء منهن المدخول بها ، أوغير المدخول بها ، من أنجبت ومن لم تنجب .

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

ها هى ذى الأحكام مفصلة ، والآيات مبينة بحكم الله بينكم فى الأمور التى قد تحكّمون أنتم فيها عواطفكم ، قد تتسرعون فيها بغير الحق ، فسبحان الله الذى جعلنا حاكمين بأمره ، عادلين بحكمه ، محسنين بفضله .

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾

هذا الربع من سورة البقرة يحكى لنا فترة من الزمن عاش فيها بنو إسرائيل أمة مستعبدة ، مضطهدة ، منهارة ، فى قواها وفى حياتها النفسية ، بسبب ارتدادها عن الإسلام ، الذى هو دين الله .

وهذه الآية حول قصة من قصصهم، حين ابتلوا بمرض الطاعون ، فخرجوا من ديارهم هاربين من الموت الذى يسوقهم إليه الطاعون .

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٩٦ ط الحلبى .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يأمر عباده « أن يواجهوا المصائب إذا نزلت ، ويواجهوا المسئوليات التى ألقيت على عاتقهم » .

وقد هرب بنو إسرائيل من شدة نزلت بهم ، فعاقبهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ ليريهم ، فأراهم الموت موتا كاملا ، ثم أحياهم بفضله سبحانه ، فشاهدوا بالموت قدرته على الإفناء بكلمة « كن » وشاهدوا بالإحياء قدرته على البعث .

وكان حريًّا ببنى إسرائيل ـ بعد أن رأوا هذه الآية العظيمة ـ أن يستجيبوا لأمر الله حين خاطبهم بقوله :

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ ٢٤٤

وإذا كان الفرار من الطاعون لم ينجهم من الموت . فإن القعود عن الجهاد : لا يطيل العمر . . . لكنهم لم يفعلوا .

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ ٢٤٥

وفى هذه الآية يحث الله عباده على الإنفاق فى سبيله دون خوف من الفقر ، لأن الله هو الذى يقدّر الأرزاق .

وهذا مشهد آخر لقصة أخرى من قصص بنى إسرائيل بعدما نودوا ليعيشوا يقظة الضمير المسلم والروح المسلمة :

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ٢٤٦

وكلها أمثلة تدفع إلى ذم الجبن والخوف من الموت ، وتقوى يقين المؤمنين بأن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وتدعو إلى الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله .

وهذا المثل للملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، قالوا لنبى من أنبيائها بعدما انقضت فترة من الحياة عاشوها بغير نبى يعلمهم : ﴿ **ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله** ﴾. فقال لهم نبيهم ﴿ **هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّتقاتلوا** ﴾. . هل عسيتم إن استجاب الله لكم ، فبعث فيكم ملكا وكتب عليكم القتال ألاتقاتلوا فتراجعوا وتخلفوا وعدكم مع الله ؟ .

قالوا : ﴿ **ومالنا ألاّ نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا** ﴾ .

فماذا كان منهم بعد ؟ وما المتوقع ؟ :

﴿ **فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين** ﴾ .

لقد أحسوا الأمن ، فقالوا نحن مع الحق ، ولما أحسوا بالخطر على أموالهم وأنفسهم هربوا من ساحة الواجب ، وتقاعسوا ، وتأخروا وبدت صورة الجبن تطغى على وجوههم وعلى قلوبهم ، وعلى ضمائرهم . لقد تراجعت الكثرة وبقيت جماعة مباركة رغم قلتها حول النبى .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

أى لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكا منهم ، فعين لهم (طالوت) ، وكان رجلاً من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم ، فأخذوا يناقشون النبى فيما اختاره الله لهم : لماذا طالوت بالذات ؟ إن فينا من هو أعرق نسبا منه ، ومن هو أغنى وأحق منه ، كيف تؤمر علينا رجلا من دون مقام بسط الملك فينا .

لقد كانوا يحسبون للعدو الدنيوى شأنا ، والنبى فيهم يذكرهم بأن الله ـ تبارك وتعالى ـ إنما هو صاحب الأمر ، وهو الآن يأخذكم إلى تجربة تربوية ، فليس العبرة بالجاه ولابالمال ، ولا بالشهرة ولا بالأصل . إنما الأمر يقوم عند الله على حقائق النفوس المتعلقة بالله ، وبشريعته وحكمته ، ولقد أنعم الله على طالوت فاصطفاه من بينكم ، واختاره ـ على علم بأنسابكم وأموالكم ـ وزاده بسطة فى العلم : زاده علماً لم تفوزوا أنتم به ، وفى الجسم وهبه قوة لا تغر يه فترديه .

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

بعدما أخبرهم نبيهم بأن طالوت هو الملك ، أخبرهم أن آية ملكه أن يرد الله عليكم التابوت ، الذى كان قد سلب منكم حين سلبت مقدساتكم عندما افترقتم عن الحق وانتكستم عن الطريق ، بهجركم لشريعة التوراة ، وترك الحكم بينكم بما أنزل الله .

وإن من بركة طالوت : أن يأتيكم التابوت ، وهو أقدس مقدساتكم ، محمولا على رءوس الملائكة ، وبه الألواح التى نزلت على موسى بالوصايا . وبقية من صحائف التوراة ، وبعض ملابس موسى وهارون ـ عليهما السلام ـ ، وحينذاك تمتلئ قلوبكم بالسكينة والهدوء والطمأنينة ، وستسكنون إلى الله سكونا يجعلكم لاتخافون الدنيا كلها مجتمعة عليكم ، وأنتم تحت قيادة طالوت الملك ، الذى اصطفاه الله عليكم ، وستخاف الدنيا كلها منكم ، ذلك أنكم الآن معكم الدليل على أن الله معكم .

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾

إنه ابتلاء آخر ، للجيش ، إن الله لا يريد الكثرة لذات الكثرة ولكن يريد القلة المبارك فيها ، القلة المخلصة ، وبها يهزم الكثرة الكثيرة ، إذْ كان يمكن أن يسير الجند إلى القتال بلامشاكل ، بلا بلاء ، ولكن قدَّر الله أن يصفيهم ويميز الفئة الصابرة التى تستحق محبة الله وتأييده . لقد اطمأنت الجماعة ـ وخاصة بعدما جاءهم التابوت واستقر فى وسطهم محمولا بأجنحة القدرة لا يرون من يحمله ، ولكن يأتى محمولا من السماء ثم يكون فى وسطهم ـ لقد استكانوا وعلموا أن كلام النبى إنما هو الحق ، وأن

طالوت هو العبد الملك المختار ليقودهم ببركة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ فقيادته لهم ستكون مباركة . ولكن طالوت بما أوتى من علم لم يكتف منهم بهذا ، فلما اتجه بهم إلى ساحة النزال مع العدو أخذهم إلى درس تربوى جديد فى اختبار الإرادة .

إذْ قال ﴿ **إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم** ﴾ .

وقد ارتمى الكثير منهم على الماء باشتهاء ونهم ، تدفع إليه نفوس لا تقدر على الثبات عند القتال ، إنهم يضرون بالجيش أكثر مما ينفعونه . لابد إذن أن ينفصل هؤلاء عن صفوف الجيش تطهيرا له ! وفعلا كانت هذه التصفية الأخيرة فى الجماعة المسلمة !

وحينذاك أصبح جند طالوت عددا قليلا . فلما جاوزه هو ومن معه ، صار جيش جالوت الظالم فى مواجهة جيش طالوت . . . القلة التى اجتازت كل الاختبارات ، كما اجتازت النهر . . . إنهم الخواص ، فماذا قال الخواص ؟ : ﴿ **قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده** ﴾ . إننا اليوم عدد قليل ، قد أنهكه السفر والتعب والجوع والعطش ، أنى لنا اليوم بجالوت وجنوده ؟

وهنا تظهر صفوة الصفوة ، وينكشف خواص الخواص ، الذين تعلقت قلوبهم بالله ولقائه ، والذين يعتقدون أن المؤمن لا يقاتل بنفسه ، وإنما يقاتل ونور الله فى يديه وفى عينيه . المؤمن يقاتل وتقواه تدفع به إلى الأمام ، والله معه .

الصفوة هؤلاء ، قال الله عنهم : ﴿ **قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين** ﴾ .

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

ثم ماذا قال صفوة الصفوة ، حين برزوا لجالوت وجنوده . . ؟

ولنتخيل إنسانا اشتد عليه الحر ، فأخذ بقربة ماء فأفرغها على نفسه ، لقد قالوا ﴿**ربنا أفرغ علينا صبرا**﴾ فأفرغ الله عليهم الصبر وحب الجهاد فى سبيل الله .

ثم قالوا ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ أى فى لقاء الأعداء ، وجنبنا الفرار والعجز ، ﴿ **وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ أصحاب تلك الجحافل من جيوش المعتدين على شريعتك ودينك وأرضك ، فانصرنا عليهم نصرًا مؤزرًا ، وثبت أقدامنا وأهلكهم يارب العالمين .

هكذا دعت الجماعة المؤمنة من بنى إسرائيل على جالوت وجنده ، فماذا حدث ؟

فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

إنهم قد هزموهم بإذن الله ، أى غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم . وليس هذا وكفى . لقد قتلوا قائدهم . ومن الذى قتله . عبد من عباد الله ، كرمهم الله جميعا باصطفائه من بينهم ، ليكون أول ملك نبى . إننا فجأة نرى داود ، نراه معنا منذ بداية الرحلة إلى نهايتها . . . فتى فى ريعان شبابه . . . يتدفق منه النور والإيمان ، وسط هذه القلة المؤمنة ، التى حاسبت نفسها من قبل ، فقالت : لن نعيش أذلاء فى أرضنا ، مفارقين لشريعتنا . والحق أنه نابغة القلة المؤمنة ، التى جردت بابتلاء النهر ، وصفوة الصفوة التى نصحت لله . ثم قتل داود جالوت القائد فكافأه الله تعالى ، بأن آتاه الحكم والحكمة ، والعلم الربانى ، والعلم الدنيوى ، وعلمه مما يشاء .

لقد وقع جالوت قتيلا ، واقتحم جيش التوحيد صفوف جالوت وجيشه . انتصر شباب الإيمان المعتدى عليه ، على الطاغوت وجنوده ، وطهر الأرض من رجس الشرك وأهله ، والظلم وأعوانه . وقام الإسلام شامخا قويا حاكما فى ظل نبوة وملك داود ـ عليه السلام ـ .

ولولا أن الناس منهم من ينتكس ، ومنهم من يصحو ، منهم من يأخذه الشيطان إلى عوالم ظلماته ، ومنهم من يأخذه الرحمن إلى عوالم الحق ، لفسدت الأرض ، ولضاعت معانى الحياة وسمات الإنسانية فيها . ولبطلت دواعى الشجاعة والصدق والمروءة والجرأة والإرادة ، ولكن الله يدفع الحق بالباطل تارة ، ثم يدفع الباطل بالحق أخرى ، أو يدفع الباطل بالباطل ، ليعلم أهله إثم منابعه وقبح مصدره ، ثم يربيهم الحق ليعيشوه وليؤمنوا به ، ويحاربوا فى سبيله .

ثم تنتهى القصة ـ كما بدأت ـ بالقول الموجه لرسول الله ـ ﷺ ـ :

تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

تلك الآيات نتلوها عليك بالحق ، لنريك ونرى من خلفك من أمتك : كيف عاش أصحاب الإسلام على مر العصور ، يحاربون الباطل وهو يحاربهم ؟ وكيف كانت مثابرتهم وصبرهم حتى يحصلوا على النصر المؤيد من الله عز وجل ـ ويستحقوا أن يكونوا عباد الله المخلصين .

هذه القصة تحكى لنا حياة بنى إسرائيل فى فترة عصيبة من فترات الزمن، وتبين ـ كذلك ـ رضوان الله عليهم ، ومعايشة أجمل فترات حياتهم وأسعدها، فى ظل حكم داود ثم سليمان، العصر الذهبى لأمة الإسلام فى بنى إسرائيل ، مكافأة من الله لهم على صحوتهم ، وأدائهم لفريضة غابت عنهم ، فغابوا هم عن رضوان الله «الجهاد» .

وإذا كان ذلك كذلك ، فإنى لأحس أن المسلمين اليوم يعيشون فترة الانتكاس التى عاشتها القلة المؤمنة فى ذلك العهد البعيد ، لقد كان بين هذه القلة المؤمنة ، وبين عهد موسى ـ عليه السلام ـ ثلاثة آلاف سنة تقريبا انتكست بعدها هذه الانتكاسة ، ولكن الله بعثها من جديد ، وبعث فيها النبوة والعزة والكرامة .

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ ٢٥٣

يخبر الله تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض ، وقد جعل الله لكل منهم ميزة فى التفضيل والعطاء والاجتباء .

وعباد الله جميعا يجتهدون فى الوصول إلى الله ، وإلى أعلى المراتب . إلاّ أن الرسل جميعهم مقربون محبوبون يصطفيهم الحق سبحانه ـ تبارك وتعالى ـ ويغدق عليهم من علمه وعطائه ، ويؤهلهم لحمل الرسالة منه إلى خلقه ، ويقيمهم فى مقامات ومنازل من منازل العبادة والطاعة ، ويكلفهم ويفرض عليهم مالا يفرض على غيرهم من أمور تستوجبها طبيعة الرسالة ، وطبيعة المرسل إليهم .

والبينات هى الآيات التى صحبته ، والآيات التى أقامها الله على يديه ، فأقام بها الحجة على بنى إسرائيل ، ودلل بها على صحة نبوته وعبوديته لله تعالى ، وأيده الله

سبحانه بروح القدس ، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ فهذه ميزة تفضيل عيسى ـ عليه السلام ـ .

وقد رفع الله سبحانه إبراهيم بالخلة [1] فنال مرتبة الخليل ، كما رفع الله موسى بالتكليم، فنال مرتبة الكليم . وجمع محمد ـ ﷺ ـ بين مرتبة الخليل والكليم والحبيب .

والرسل جميعا ذوو رسالة واحدة هى : « التوحيد » ولم يأت رسول ليخالف رسولا آخر ، ولكن متمما لرسالته ، وداعيا بدعوته ، وهم جميعا على صراط واحد ، ويعبدون الله الواحد. وما كان عيسى إلا مسلما ، وما كان موسى إلاّ مسلما ، فكل الأنبياء مسلمون ، ولهم درجات ومنازل عند الله تعالى هو يعلمها .

ولذلك لم يختلف الرسل ، ولكن الذين أرسلوا إليهم ـ وهم بنو إسرائيل ـ قد اختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات ، واقتتلوا .

فما الأسباب التى دعتهم إلى الاختلاف ، ثم الاقتتال ، والانحراف عن طريق رسلهم ؟خاصة وأن الله تعالى بين لهم فى كتبهم كل صغيرة وكبيرة من شئون حياتهم .

لقد تمرد قوم موسى على شريعته ، كما اختلف قوم عيسى على ماهيته ، وضل جمع من بنى يعقوب عن الحق الذى تركهم عليه أبوهم . وجاء محمد ـ ﷺ ـ بالدين الكامل الخاتم لجميع الرسالات السابقة ، من لدن آدم ،عليه الصلاة والسلام .

لقد دعا محمد ـ ﷺ ـ كل الأمم المختلفة المنقسمة على بعضها البعض، المنشقة على رسالاتها ، دعاهم ليوحد صفهم وجماعتهم ، ويوحد التعاليم التى فرضت عليهم ، فجاءهم بالإسلام فى : منهج قد أراد الله أن يكون هو المتمم والمهيمن والمستوعب لكل ما سبقه من مناهج وأحكام وشرائع .

واختلاف الأمم بعد ذلك ليس لقصور فى المنهج ، ولا لعجز فيه ، ولكن الخلاف الذى قد يتصعد إلى القتال : سببه اتباعهم لطرق الشيطان الذى أقسم ليضلنهم وليغوينهم .

فالبينات قد جاءتهم ودلتهم على الطريق الواحد المستقيم ، وأنه طريق الأنبياء قاطبة، إلا أنهم اختلفوا ، فانقسموا فريقين فريق مؤمن ، وفريق كافر .

---

(١) بضم الخاء ، وفتح اللّام المشددة .

سُورَةُ البَقَرَةِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ
وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يناشد أهل الإسلام : أن يعلموا أن هذه الحياة الدنيا المختلف عليها فانية زائلة .

ويأمرهم قائلاً أنفقوا من أنفسكم وأموالكم فيها جهاداً فى سبيل الله ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا : المختلفين المنقسمين على الحق هى السفلى .

ويذكرهم الحق بيوم لا ينفعهم فيه شىء ـ إذ لم ينفقوا فى سبيل الله مالهم الذى كدسوه وألهتهم تجارتهم وبيعهم عن إنفاقه فى سبيل الله ، فيومئذ ليس من بيع ولا تجارة ، وليس من خلة ولا صداقة ، ولا شفاعة .

فالإنفاق من رزق الله فى الدنيا هو السبيل إلى النجاة يوم القيامة ، وامتناعكم عن الإنفاق فى الدنيا هو الإلقاء بأنفسكم فى العذاب والتهلكة .

﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾(1) .

﴿والكافرون هم الظالمون ﴾ الذين كفروا وحادوا عن الطريق ، وانقسموا واختلفوا منشقين عن الحق : ما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ويظلمون غيرهم بمجانبتهم لتقوى الله فيهم ، وهم محاسبون يوم القيام على ظلمهم أنفسهم وغيرهم .

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ
وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

آية الكرسى أعظم آية فى كتاب الله .

---

(1) البقرة : ١٩٥ .

أورد البخارى فى فضل آية الكرسى بسنده عن أبى هريرة ، قال : وكلنى رسول الله ـ ﷺ ـ بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، وقلت : والله لأرفعنك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قال : إنى محتاج وعلى عيال ، ولى حاجة شديدة . قال : فخليت عنه . فأصبحت ، فقال النبى ـ ﷺ ـ يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟ قال قلت : يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله . قال : أما إنه قد كذبك ، وسيعود . فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ـ ﷺ ـ إنه سيعود . فرصدته ، فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ قال : دعنى فإنى محتاج ، وعلى عيال ، لا أعود . فرحمته فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لى رسول الله ـ ﷺ ـ يا أبا هريرة ما فعل أسيرك ؟ قلت : يارسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته فخليت سبيله . قال أما إنه قد كذبك ، وسيعود . فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنّك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهذا آخر ثلاث مرات ، إنك تزعم لا تعود ثم تعود . قال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها .

قلت : ما هن؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنَّك شيطان حتى تصبح . فخليت سبيله . فأصبحت ، فقال لى رسول الله ـ ﷺ ـ : مافعل أسيرك البارحة ؟ قلت : يارسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله .

قال : ما هى ؟ .

قلت : قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية ﴿الله لاإله إلا هو الحى القيوم﴾ . وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ـ وكانوا أحرص شىء على الخير ـ .

فقال النبى ـ ﷺ ـ أما إنه قد صدقك ، وهو كذوب . تعلم من تخاطب مذ ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ .

قلت : لا .

قال : « ذاك شيطان » [1].

---

(١) رواه البخارى كتاب الوكالة باب « إذا وكل رجلاً فترك . » . إلخ .

وآية الكرسى سيدة آى القرآن .

فهى الآية العظيمة الجامعة ، لمعانى التوحيد ومعانى حق الحق سبحانه ـ تبارك وتعالى ـ المنزه عن الكيف والمثل .

﴿ الله ﴾ لفظ الجلالة الأعظم : مقرونا بالكلمة العظمى وهى : ﴿ الذى لا إله إلاّ هو ﴾ مختارا لصفتين من أعظم صفات الله سبحانه ـ تبارك وتعالى ـ وأسمائه ، وهما «الحى» و« القيوم » .

فهو ﴿ الحى القيوم ﴾ لا يموت : حياته سرمدية أبدية ، لامثيل لها فى حياة المخلوقات . . .

وهو : قيوم الدنيا . . . قائم على هذا العالم الحاضر المحسوس الذى نعيشه ، بسماواته وأراضيه ، مطلع على سر الخلق وجهرهم جميعا ، قائم بكل أمرهم ، وهو قيوم الآخرة : القائم على العالم الغائب عنا ، والمستور الذى سنعيشه مستقبلا .

ومن تمام قيوميته سبحانه أنه : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ والسِّنَة [1] مقدمة النوم ، وتكون لمن يعجز عن القيومية والمتابعة ، والله سبحانه لا يعتريه عجز ولا نوم . وهل ينبغى لمن لا يغفل أن ينام ؟ وهل يليق به ذلك ؟

وحق له أن يكون هو المالك لكل ما فى السموات والأرض ، ذلك أنه الله الخالق الحى القيوم ، يتصرف فى ملكه كيف شاء ، ومتى شاء ، وبما شاء ، وإليه يرجع الأمر كله .

ولا يستطيع عبد من عباده ، ولا مخلوق من مخلوقاته ، مهما عظم شأنه وبلغت كرامته ، أن يشفع عنده إلا من بعد إذنه ـ سبحانه وتعالى ـ فلن ينال الشفاعة إلاّ من أراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرحمه بها ، ولن يتشفع أحد فى أحد إلاّ بإذن من الله ، ليشفعه فيمن يريد أن يشفعه فيه .

صحيح أن رسول الله ـ ﷺ ـ له الشفاعة فى أمته ، بل فى خلق الله جميعا ، إلا أن هذه الشفاعة مرهونة بإذن من الله تعالى [2] .

---

(١) بكسر السّين المشددة وفتح النون .

(٢) حديث الشفاعة أخرجه : البخارى : كتاب التوحيد ، باب كلام الرب عز وجل مع الأنبياء وغيرهم .
مسلم : كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها .
الترمذى : كتاب صفة القيامة باب ما جاء فى الشفاعة .

وبعلمه وحكمه يسير كل شىء فى سمواته وأراضيه ، يظهر الحكمة أحيانا ويخفيها أحيانا ، أو يخص بهما بعض خلقه دون بعض ، وكذلك علم ذاته وأسمائه وصفاته .

وهو سبحانه صاحب العرش ، وصاحب الكرسى ، يسع علمه وحكمه سمواته وأرضه ، فحكمه لدائرة من خلقه كحكمه للكون كله ، وحفظه لدائرة من خلقه كحفظه للخلق كله ، لا يثقله ذلك ، ولا يعجزه .

وهكذا فى آية واحدة جمع الله سبحانه من الفوائد : عن معانى عظمة الله الخالق وملكه وقدرته وسيطرته الشىء الكثير .

وتأتى الآية التالية لها كى تحول هذه العقيدة ، التى خالطت قلوب المؤمنين الحاملين لتلك العقيدة ، وهذا التصور لله العلى العظيم : إلى سلوك .

فالذين أحسوا بوجوب العبودية له : خضعوا له ، وعملوا جاهدين على إخضاع من فى الأرض لله العلى العظيم ، الذى لا يجوز أن يتعالى فيه أحد ، ولا يتعاظم أحد ، إلا أن الله سبحانه لا يريد من عباده أن يساقوا إليه سوق البهم ، ولكنه أراد قلوبا شاكرة ، وألسنا بذكره وحبه ذاكرة ، ولذلك فقد قال :

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦

فما الدين ؟ إن الدين ـ عند الله ـ الإسلام ، مهما اختلف مفهوم الدين عند البشر ، ومهما تعددت أشكاله وتصوراته . لا يرضى غيره ، ولا يقبل سواه ، والإسلام كل لا يتجزأ والله سبحانه قد دعا الناس جميعا للدخول فى دينه ، دين الملك الأعظم الأكبر ، دعاهم إليه بعدما بين لهم أنه الحق ، وأن لا حق سواه ، وأراد منهم أن يدخلوا هذا الدين طواعية بقلوب واعية ، تنظر فتتدبر فتعقل ، فتخضع لله ـ سبحانه وتعالى ـ ومعنى ﴿لا إكراه فى الدين﴾ أى ليس فيه من الأوامر والنواهى ما يصعب تنفيذه ، لكن لابد من دعوة الناس إليه كما قيل : يكاد أهل الحق يجرون الناس إلى الجنة بسلاسل .

وقد ذكر الله ـ سبحانه وتعالى ـ الكفر بالطاغوت مقدما على الإيمان بالله ، وهذه هى القضية الكبرى :

إن الإيمان بالله أمر فطرى ، تستجيب له القلوب بسهولة ، ولا يعوق العملية الإيمانية أن تتم ، إلا « الكفر بالطاغوت » .

ومعنى الكفر بالطاغوت ، هو رفض كل ما عدا الإسلام ، فكل ما عدا الحق

باطل، وكل إيمان بباطل يعنى الكفر بحق ، والنفس تحتاج إلى مزيد من الجهد والمشقة ، للتخلص مما تشتهيه وتميل إليه من باطل .

ولهذا فقد جاءت كلمة التوحيد نافية للألوهية عما سوى الله « لا إله إلا الله » ولم تأت لتثبت الألوهية لله فإن الألوهية لله ثابتة .

« لا إله إلا الله » ، فلا دين إلاّ الإسلام . طريق الحق واحد ، فمن شاء فليؤمن فله الجنة ، ومن شاء فليكفر فله النار ، وذلك منتهى التهديد والوعيد .

إن رسالة الأنبياء واحدة ، هى التوحيد ، ووظيفة الرسل واحدة ، هى : التبليغ .

والأنبياء قد جردوا الألوهية لله وحده ، وكل نبى قد جاء فى قومه : دعاهم للكفر بالطاغوت والإيمان بالله وحده .

لقد جاء إبراهيم فى قومه والنمروذ طاغوت يحكم بغير الإسلام حياة الناس ، يقول ﴿**أنا أحيى وأميت**﴾ .

وجاء موسى فى قومه والفرعون طاغوت يحكم بغير الإسلام حياة الناس يقول : ﴿ **أنا ربكم الأعلى**﴾ و ﴿ **أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾ .

وجاء محمد ـ ﷺ ـ وركام العادات والتقاليد والتصورات وعبادة الأوثان طاغوت، يحكم بغير الإسلام حياة الناس . وبمجىء محمد ـ ﷺ ـ بدعوته ﴿ **قد تبين الرشد من الغى** ﴾ فتلاشى الغمام ، وذاب الركام ، وتميز الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، والحقيقة من الزيف ، والإله من الطاغوت .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾

فمن يكفر إذن بكل من يدعى من البشر أن من حقه أن يُعبد أو يعظَّم ، أو غير ذلك من الأمور التى لا تكون إلا لله وحده من تحليل وتحريم ، وإنشاء شرائع ، وقوانين للحكم ـ من يكفر بكل ما سوى الله ، ويؤمن بالله وحده : فقد ﴿ **استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها** ﴾ حيث إنه قد سلك سبيل الإيمان الصحيح ، فقد شبه الله إيمانه هذا بـ «العروة الوثقى لا انفصام لها » فهى لا تنفصم أبدا ، ومن ثم فلا سبيل لأن يعود إلى الكفر بعد أن خالطت بشاشة الإيمان قلبه ، وهذه بشارة بحسن خاتمة من صح إسلامه وولاؤه لله تعالى .

والله سميع بكل من قال « لا إله إلا الله » عليم بمن قالها صادقا فيها ، عالما بها ومن قالها لأن الناس يقولون ذلك .

وهو سميع عليم بالذين يؤمنون بخالق السموات والأرض إلها واحدا ، مالكا للكون كله ، وصاحب الحكم فيه ، أولئك الذين بلغوا ذروة الإسلام ، واستمسكوا بالعروة الوثقى ، بالحق المتين الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فلا يزيفون أبدا .

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

الولاء هو المحبة ، والنصرة ، وبمحبتهم لله ونصرتهم له ، أحبهم الله ونصرهم . والذين آمنوا هم : الذين كفروا بالطاغوت ، وآمنوا بالله ، واستمسكوا بالعروة الوثقى ، والله سبحانه قدّر أن يحفظ على هؤلاء إيمانهم حتى المات ، باستمساكهم بالعروة الوثقى التى لاتنفصم ، وذلك بإخراجهم المستمر من الظلمات إلى النور . ولذلك فقد جاءت الآية بالفعل ﴿ يخرجهم ﴾ فى حالة المضارع الذى يفيد الاستمرار، حتى تكون عملية إخراجهم من الظلمات إلى النور مستمرة طوال حياتهم ، وحتى الممات . إخراجهم إلى عالم المهتدين السائرين فى نور الله ـ عز وجل ـ .

ويأتى قصص القرآن مرة أخرى . . ليحكى لنا مواقف إيمانية تشهد بتواجد الكفاح والجهاد ، وتؤكد ما سبقت الإشارة إليه من الفصل بين الفريقين ، فريق من لم يعبد إلاالله وحده ، وفريق من اتخذ طواغيت تعبد من دون الله .

ومن الفريق الأول : تأتى قصة إبراهيم التى تقول الآيات عنها :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

هذا موقف إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذى حاجه النمروذ ملك أرض العراق آنئذ ، وهو لا يقل فى ظلمه وجبروته عن الفرعون لعنهما الله .

إنه يقول لإبراهيم عليه السلام : هل لك رب سواى ؟! وكيف تعبد إلهاً من دونى ، وأنا الحاكم القادر على العطاء والمنع ، والحياة والموت ، والعذاب والعفو . . ؟!

فأنا أحق بالعبودية من إلهك هذا الذى تعبد .

ولكن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد واجهه بحقيقة أمره ، ووضعه فى حجمه الذى لا يصلح أن يعول عليه أو يتنكر له ، فقال له : أنت والناس عباد لإله واحد ، وهو الخالق الرازق ، المحيى المميت ، فهل تملك أنت ذلك ؟

قال : أنا أحيى وأميت .

وذلك أنه اغتر بالأسباب التى أجراها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على يديه ، فتوهم ـ فى ظل غفوته وغفلته عن الحق ـ أنه هو المسبب .

قال قتادة وغير واحد ، قال النمروذ « وذلك أنى أوتى بالرجلين ، قد استحقا القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل ، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل ، فذلك معنى الإحياء والإماتة » . ومع هذا الجحود من النمروذ : لم ييأس إبراهيم من محاجّته ، فهو يعلم أنه على الحق . إذ قال له : ﴿ **فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ ، ولأنه لا يستطيع بنفسه أن يتحكم فى الشمس ـ كما توهم أنه يتحكم فى البشر ـ فقد بُهت واحتار ، ولم يستطع أن يرد أو يتكلم ، وقامت عليه الحجة .

والله لا يهدى هؤلاء الذين أسرفوا فى ظلمهم وبغيهم ، وتجبرهم واستكبارهم ، فطبع على قلوبهم ، فهم لا يهتدون . .

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

وهذا موقف رجل من بنى إسرائيل كان يمتطى حمارا يحمل طعامه وشرابه ، مر على قرية خربة خاوية ، وهى بيت المقدس بعد تخريب بختنصر الحاكم الظالم لها .

وأثناء مروره قال : لقد خربت وسقطت جدرانها وسقوفها وبقايا الأموات متناثرة فى الأرض ، ترى متى تحيا هذه القرية مرة أخرى ؟

﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ .

لقد مات الرجل مائة عام ليصحو بعد ذلك من موته ، فيظن أنه نام بما بين الضحى إلى غروب الشمس ، فسير الله له ملكا قال له : **﴿ كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام ﴾** إذْ أماتك الله موت الجثث التى كنت لا تدرى متى إحياؤها ، فانظر إلى طعامك : إنه كما هو ، لم يتسنَّهْ ولم يتعفن ، فاللبن كما هو ، والماء كما هو ، والطعام كما هو . فلما قام وجد عظام الحمار متناثرة نخرة بالية .

ثم قال له الملك **﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ﴾** فنظر إلى عظام الحمار فوجدها تحيا من جديد ، وتلتحم ويكسوها اللحم ، فلما تبين له الأمر ، وأصبح على يقين من غيبته عن الدنيا مائة عام ـ وظهرت له آيات الإنشاء بعد العدم ، قال : **﴿أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾**[1] .

ونخرج من هذه القصة إلى قصة أخرى مع إبراهيم عليه السلام مرة أخرى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

لقد شهدنا لإبراهيم من قبل مع النمروذ ما يدل على إيمانه الواثق بأن الله يحيى ويميت ، وها هو ذا هنا يحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين ، أرقى مراتب العلم من الله .

إنه الشوق لرؤية الحقائق المستورة . إنها أشواق قلب وروح لتشهد آية من آيات القدرة تزيد القلب على نجاح الدعوة اطمئنانًا ، وتعطى الحجة على المخالفين قوة وسلطانًا ، وتضيف إلى الدلائل الكثيرة برهانًا جديدًا . بل إن إبراهيم يطلب درسًا عمليا باعتباره معلمًا ، ولابد من تربيةٍ عمليةٍ تسبق العملية التعليمية .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ، ١ / ٣١٤ .

قال : ﴿ فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ﴾ أى ضمهن إليك فاذبحهن واجعل على كل جبل مما اختلط من لحمهن وعظمهن جزءا ﴿ثم ادعهن يأتينك سعيا ﴾ .

فدعاهن كما أمره الله ـ عز وجل ـ فإذا بالريش يطير إلى الريش والدم يطير إلى الدم ، واللحم يطير إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدة ، وأتينه يمشين جريا وسعيا وهو شاهد . ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ . عزيز فى قدرته ، حكيم فى فعله ، قادر إن شاء قال كن فيكون ، وسبحانه من عزيز حكيم ، وسلام على إبراهيم .

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

ابتداء من هذه الآية الكريمة وإلى قرب انتهاء السورة العظيمة يشرع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ فى بيان علاقة الإنسان المسلم بالمال ، وأسلوبه فى المعاملات المادية .

فيبدأ ذلك بالحديث عن الإنفاق فى سبيل الله ، ثم بالتحذير من الربا ، ثم بالعلاقة المشروعة بين الدائن والمدين ، وآداب الدَّيْن ، وكيفية التعاقد ، وما يتعلق بذلك من أمور الشهادة والكتابة والائتمان فى التجارة والسفر والرهان .

نشرع أولا بإذن الله فى بيان القسم الأول منها ، وهو: الحديث عن الإنفاق فى سبيل الله .

إن الإسلام دين يعالج مشاكل الإنسان ، ويعايش حاجاته من واقع حياة الإنسان مع نفسه وأهله وبيئته ، وذلك من منطلق تعايشه ـ أولا ـ كعبد مع خالقه وخالق الكون كله من حوله .

حيث يتعامل الإسلام مع الإنسان كأشرف مخلوق ، باعتباره كائنا حيا له مواجيده ومشاعره البشرية ، ويعالج دائما حاجاته من خلال الواقع الذى يعيش فيه .

ولما كان المال هو قوام الحياة للإنسان ، ومن أكبر زينتها !!

ولما كان الإنسان متعلقا به جذريا ، وقد جبل على ذلك ، كما قالت الآية : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾[1] !!

---

(١) العاديات : الآية ٨ والمقصود بالخير هنا : المال والنشب ، وكل ما يورث ، قال تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرًا الوصية للوالدين﴾ الآية : ١٨٠ من سورة البقرة .

لذلك بدأ الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى معالجة هذا الأمر فى نفس الإنسان بحيث يجعل المال وسيلة للعيش ، وليس غاية ، فوضع القاعدة الأولى فى ذلك والتى قوامها أن مهمة الإنسان هى العبادة ، وأن رزقه على الله ، حيث يقول سبحانه : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلّا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ (١) .

ثم بدأ يربّى هذا المخلوق ، ويقيم علاقته بالمال : على التوازن والسخاء .

ولننظر معا فى هذا التصوير الجميل الذى ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وابتغاء مرضاته : درهم ، تثمر منه الصدقة سبعمائة درهم . مثل السنبلة تنبت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة . وليس هذا وكفى . بل تتضاعف بعد ذلك إلى ما شاء الله ، لمن شاء .

فكما أنك ترمى بالحبة فى الأرض فتختبئ فيها ، لاترى لها أثرًا ولا تعرف كيف نمت وأثمرت ، ولكنك فجأة تراها تشق الأرض وتخرج شجيرة فيها سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، كذلك إذا أنفقت درهما فى سبيل الله واستتر عنك بخروجه عن يدك ، إلاّ أنه يقع أولا فى يد الله الذى أمرك أن تبذل ، فبذلته إرضاء له ، فهو منمّيه ، ومثمره ، وهو مخرجه شجرة طيبة لك ﴿ **أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾ إنها حقا خرجت من بين يديك يا ابن آدم ، ولكنها اختفت فى عالم الإنماء الربانى كما اختفت الحبة فى باطن الأرض .

فما أبدع ذلك التصوير . إنه دعوة من الله لابن آدم ألايمسك ماله . . . ألا يختزنه . . . فليس فى الإمساك زيادته ولا نماؤه . بل عليه أن يترك الفضل فى قبضته إلى يد الرحمن الرحيم

فالمسلم حين يضع المال فى يد من يستحقه من المسلمين ، إنما هو بذلك يحرث حرثا ، ويبذر حبا . يجنيه ويحصده يوم لا ينفع مال ولا بنون ، حيث يضاعف له أضعافا كثيرة ، ويصرف عنه من السوء كثيرا ، ويرفعه فى أعلى الدرجات وأرفع المنازل ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ .

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

(١) الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨ .

يمدح الله تبارك وتعالى الذين ينفقون فى سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منًّا على من أعطوه ولا مكروها مع من أحسنوا إليه . فالذين ينفقون أموالهم ـ مع اعتقادهم أنها وديعة عندهم ، وأمانة فى أعناقهم ، فلايرون لهم بالإنفاق على الفقراء منّة ولا تفضلا ، ولذلك فهم لا يتبعون ما أنفقوا كلمات المنّ والأذى ، لأنهم يعلمون أن « ليس لهم من مالهم إلاّ ما أكلوا فأفنوا ، ومالبسوا فأبلوا، أو تصدقوا فأبقوا » ـ إن الله سبحانه ينمى لهم أموالهم . ويوم الفزع الأكبر نراهم لا يخافون حيث يخاف الناس ولا يحزنون حين يحزن الناس .

﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ ٢٦٣

إن الله سبحانه يخاطب هؤلاء الناس ، كرماء الظاهر فى نظر بعض الخلق ، بخلاء الباطن عند رب الخلق ، إن الأولى بكم أن تضعوا أنفسكم موضع الآخذ ، فتنظروا ماذا تحبون أن يكون الذى يعطيكم ؟

إن الأولى بكم والخير ، ألا تعطوا إن كان العطاء متبوعا بالمن والأذى ، ولكن كفوا أذاكم عن المحتاجين المبتلين ، واحفظوا لهم كرامتهم وماء وجوههم ، ووجودهم الإنسانى ؛ فقول لَيّن معروف ، ودعاء طيب وعفو ومغفرة ، خير من عطاء يتبعه أذى ، ولتعلموا أن الله ﴿غنى﴾ عن هذه الصدقة ، حتى وإن كنتم قادرين وعندكم فضل من المال ، ﴿ حليم ﴾ يعفو ويصفح ويجزى بالحسنة أضعافا مضاعفة ، ولا يجزى بالسيئة إلامثلها ، ويعفو عن كثير .

وليكن خلقكم أيها الأغنياء : متوجا بالحلم ، حتى وإن أساء الآخذ ، فتخلقوا بأخلاق الله ، ﴿ والله غنى حليم ﴾ . واحذروا من قول رسول الله ـ ﷺ ـ : «ثلاثة لايكلمهم الله يوم القيامة : المنَّان الذى لا يعطى شيئًا إلا منَّة ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره »[1] يعنى خيلاء وتكبرا .

ولذلك فنحن ننصح المعطى بعدم الإساءة إلى الآخذ ، حتى وإن أساء الآخذ ، ولنا فى سيدنا أبى بكر أسوة حسنة حيث سامح وغفر لمن أساء إليه ، رغم كثرة إنفاقه إليه وعليه حيث كان ممن أشاع على السيدة عائشة حديث الإفك ، فعزم سيدنا أبو بكر على قطع النفقة عنه ، فأنزل الله عز وجل :

---

(١) رواه مسلم عن أبى ذر الغفارى كتاب الإيمان باب غلظ تحريم إسبال الإزار . . . إلخ » .

﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم﴾ (١) .

فقال أبو بكر : بلى يا رب ، أحب أن تغفر لى ، وزاد له فى العطاء .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿٢٦٤﴾

حقا ، فإن أجر الصدقة عظيم إلا أن ثواب الصدقة لا يفى بإثم المنّ والأذى ، ولذلك فإن المنّ والأذى يحرم الصدقة من القبول عند الله ، ويبطل ثوابها تماما ، كما يبطلها الرياء .

وهنا إشارة لطيفة ، فيها ضوء كاشف سلط على قلوب الذين يُتْبِعون الصدقات بالمنّ والأذى ، فيعريها ويظهر حقيقتها : لمن تنفقون هذه الصدقات ؟ ولماذا ؟ .

إن كانت لله وفى الله لا رياء ولا سمعة ولا رغبة فى مدح ولا ثناء ، فأى شىء هذا الذى دفعكم للإحساس بالفضل عليهم ، فأتبعتم صدقاتكم بالمن والأذى ، أليس المال مال الله ؟ والأغنياء وكلاء الله وأمناءه على هذا المال ؟ وما عليهم إلا أن يضعوا المال فى يد من يستحقونه ، فيجزيهم ربهم على ما صنعوا ، فالفضل والمنة ـ أولاً وآخرًا ـ لله رب العالمين ، فلم المن ؟ ولم الأذى ؟ ولم الفخر والكبرياء ؟ .

إن اعتقادكم بالله المالك الحق ، وباليوم الآخر الذى تؤجرون فيه على ما أديتم فى سبيل الله ، يمنعكم من أن تفعلوا ذلك حتى لا تكونوا كالمرائى : الذى لا ينفق المال إلا ليراه الناس ، وهو فى إنفاقه لا يعتقد فى الله ، ولا فى اليوم الآخر .

والصفوان : جمع صفوانة ، ويقال : إنه يستعمل للمفرد أيضًا ، وهو الصفا ، والصفا : هو الصخر الأملس . فمثل هذا المرائى : الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر ـ فى الإنفاق ـ كمثل الصخر الأملس كساه الريح بالتراب فأصابه مطر غزير فتركه أملس كما كان ، يابسًا قاسيا فلم يمسك ماء ولم ينبت كلأ . وكما أن الصخر الأملس لا يقدر

(١) النور : ٢٢ .

على إمساك التراب حين يأتيه الوابل ، كذلك هم لا يقدرون على الانتفاع بشيء من أعمالهم ﴿ والله لايهدى القوم الكافرين ﴾ .

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ ٢٦٥

وكما عرض القرآن صورة من أنفق ماله ابتغاء مرضات الناس : نرى الجانب الآخر ، صورة من أنفق ماله ابتغاء مرضات الله ، وما أجمل التصوير ، ولكن شتان ما بين الصورتين . والتى أمامنا الآن صورة الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ، وكسرًا لحدة شهوة المال فى نفوسهم ، وطلبًا لمزيد من اليقين والقرب من الله ، إنها صورة خضراء بعد صورة جرداء ، صورة مشرقة مزهرة ، بعد صورة جامدة منفرة . إنها صورة مثّل الله فيها عمل المنفقين فى سبيله ومثوبتهم عنده ببستان مزهر مثمر ، على ربوة عالية عن الأرض أصابها مطر غزير فآتت أكلها ضعفين ، إنها وإن لم يصبها وابل فهى بارتفاعها عن الأرض معرضة للطل فى كل وقت وحين ، والطل هو : الندى ، فهى دائمة الإثمار والإزهار ، قل ذلك أو كثر، أو تضاعف . كذلك العمل إذا كان ابتغاء وجه الله ، فإنه لا يضيع عند الله أبدًا ، مهما كان قليلاً ، فإن الله غفور شكور .

وينتقل بنا سياق الآيات إلى موقف عظيم ، وتساؤل من الله ، يحتاج إلى مزيد من التفكر والتدبر :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ٢٦٦

وما كان ذلك إلاّ لإفسادهم أعمالهم الطيبة بالمن والأذى ، وما حدث لهم هو النهاية السيئة التى أعدها الله لهؤلاء الممتنين بالصدقات ، المؤذين لمن أحوجتهم الضرورة إليهم، المتشبهين بهؤلاء ، الذين يراءون بأعمالهم ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر .

إنه سوء الخاتمة ، التى يفزع كل مؤمن لذكرها ، ويضع يده على قلبه مشفقًا منها ،

إنها تنتظر هؤلاء المتصدقين والدنيا بين أعينهم ، المنفقين وحب الشهرة والثناء فى قلوبهم .

أترضون أن تكونوا كذلك ؟ أيود أحدكم أن يكون من هؤلاء . صاحب أرض طيبة . مثمرة ، له فيها من كل الثمرات ، تجرى الأنهار من تحتها ، ويحفها النخيل من كل جانب، حتى إذا كبرت سنه وضعف عظمه ، وخارت قواه ، واحتاج إلى الراحة والسكون، ولم يعد يستطيع أن يتعهد هذه الأرض بالرعاية ، نظر إلى ذريته فوجدهم ذرية ضعيفة ، لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرا ، فهم لا يعينون أباهم ، ولا يملكون لأنفسهم عونًا، وبينما هو على ذلك ، إذ جاءت ريح عاصف ، فيها إعصار من نار ، أحرقت الأرض بما فيها ، ولم تترك منه شيئًا ، وهو أحوج ما يكون إليها ، فلا نراها إلا قاعًا صفصفا ، فأى حسرة تعصر قلبه !!؟ وأى ندم يحيط به ، وهو أشد ما يكون احتياجًا، وأى عذاب يلم به وهو يرى ذريته الضعيفة وحاجتهم : جزاء ما كان يفعل من قبل ، مع ذوى الحاجة مِنْ مَنٍّ وأذى ؟

ثم يتخيل مصير هؤلاء الأبناء الضعاف الصغار من بعده ، والناس يفعلون بهم ماكان يفعل هو فى المحتاجين ، ويعلم حينذاك أن ما أعطاه لكى ينتفع به لن ينفعه ، وإنما ينفعه ما أعطاه كى ينفع به غيره ، فهو الذى يبقى ، وهو الذى ينفع ، إنه يندم الآن ، ولكن حيث لا ينفع الندم ، ولا يجدى ، وتلك عاقبة من عمل العمل على غير ما يحب الله ويرضى .

﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾ . فتتقون الله وتعملون ليوم لا مرد لكم فيه من الله .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ
ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

تنبيه آخر للذين لا يحسنون أدب الإنفاق لله ، وابتغاء مرضاته ، هؤلاء الذين يجعلون لله ما يكرهون من كسبهم ، ويتخيرون أخبث ما عندهم ليعطوه للناس . . ولو أعطاه الناس هم لرفضوه ، إلا أن يتغاضوا ويأخذوه على حياء .

وفى هذه الآية يأمرهم ربهم ـ تبارك وتعالى ـ بالإنفاق من طيب كسبهم ، من مال أوغير ذلك ، مما كسبوا أو أخرج الله لهم من الأرض ، مما كان معروفًا لدى المسلمين الأوائل وما لم يكن معروفًا لديهم من خيرات الأرض على مر العصور والأزمان .

والله الذى أعطاكم هذا المال ، وجعلكم مسئولين عن إعطائهم : قادر على أن يجعلكم فى مكانهم ، ويجعلهم فى مكانكم ، وهو غنى عنكم وعما تنفقون من أموالكم التى وهبكم إياها ، إلا أنه يشكركم على ما أنفقتم من طيب كسبكم ، يجزيكم عنه خيرًا كثيرًا .

ونجد المسلمين ـ فى كل وقت ـ فى حاجة إلى فهم هذه الآية ، حيث اعتاد الكثيرون المسلمون الإنفاق مما لاحاجة لهم به ، والواجب على المسلم الإنفاق من طعامه عند نضجه ، وحين يأكل منه هو، فلا ينتظر حتى يصير الطعام عنده غير صالح للأكل منه فيعطيه، ولكن حين يغترف لنفسه عليه أن يغترف أيضًا للمساكين ليأكلوا ، وحين يعطى الكساء لا ينبغى أن ينتظر حتى يصير مهلهلاً أو باهتًا ، فيعطيه . كلا إن هذا السلوك لايصدر عن قلوب تتصل بالله، وإنما ينشأ عن قلوب أعمتها وساوس الشيطان وتهاويله التى يلقيها فى قلب ابن آدم بالحرص وخوف الفقر ، فتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون ، ويرضونه ويقترفون ما هم مقترفون ، ولذلك يعقب الله تعالى قائلاً :

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

إن الشيطان يخيفكم الفقر والخسارة ، حتى تمسكوا بالجيد من أموالكم ، وعسى الله أن يخلف ظنكم فيفسد ما عندكم ، أو تنخفض أسعاره دون استفادة به ، ولو أعطيتم لله الطيب مما تأكلون ومما تلبسون ، ومما تدخرون لأنفسكم لأخلف عليكم أضعافًا مضاعفة .

إن الشيطان يوحى إليكم أن « أمسكوا » فترد الملائكة « اللهم أعط ممسكًا تلفا » والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : « أنفقوا » والملائكة تدعو ربها « اللهم أعط منفقًا خلفا» فبالنفقة يكثر ما بين أيديكم ويطهر ، وبها تخلفون من عند الله لا من عند الخلق، ولامن عند أنفسكم ، ولا بجهدكم ، ولكن من الله الذى يعطى بغير حساب .

إن الذى أعطى إنما هو رب العالمين « والله واسع عليم » .

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾

إن العقلاء من المسلمين هم الذين أنعم الله عليهم بالحكمة ، وجماع الحكمة «العلم والفهم والتقوى » .

لقد عاشوا معرفة الحق ، ولهم من الله سلطان يعينهم على فهم الأمور على وجهها السليم ، وإدراك كلياتها وأصولها .

إنهم ينفقون ابتغاء رضوان الله ، إذْ هم على نور من الله . فيجعلون الطيب المختار لديهم لله ، وما ذاك إلا لأن الله تعالى آتاهم الحكمة وحسن التقدير ، فقدروا [1] الدنيا قدرها ، وقدروا الآخرة حق قدرها ، وعرفوا مقام كل منهما ، فأحسنوا العبادة لله وَأجلّوه وكبروه فى أنفسهم . . . قدروا الله حق قدره ، فهانت عليهم الدنيا بما فيها وبمن فيها . هان عليهم ما يكسبون . وهان عليهم ما ينفقون من حطام زائل . وحبب إليهم أن يكون لهم حسن المقام بين يدى ربهم .

والذين ينعم عليهم الحق بالحكمة ، قد أنعم عليهم بخير كثير أكثر من المال ومن المتاع .

عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : «لاحسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فَسُلِّط على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها » [2] .

ولا يستطيع أحد أن يذكر الحق فى موضعه ويعلم أن الحكمة خير عطاء إلاّ أولو الألباب ، وذوو العقول السليمة والقلوب الطاهرة والأرواح الذكية ، الذين يذكرون الله ذكرًا كثيرًا ، ويتدبرون ويتفكرون فى أمر الدنيا والآخرة ، وفى حكمة الله الخالق البارئ المصور ، فيضعون كل شىء فى موضعه ، ويقدرون لكل قدره ، وأولئك هم حكماء الخلق .

---

(١) بفتح الفاء والقاف والدال .

(٢) رواه الشيخان ، واللفظ له ، كتاب العلم باب « الفهم فى العلم » ، ورواه مسلم كتاب المسافرين باب «فضل من يقوم بالقرآن . . إلخ » .

وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

يخبرنا الله تعالى بأنه عالم بجميع مايفعله العاملون من الخيرات والنفقات والمنذورات .

﴿ وما أنفقتم من نفقة ﴾ صغيرة كانت أو كبيرة ، زكاة مفروضة أو صدقة تطوع ، أو نذرتم من نذر لله فإن الله يجزى عليه بالحسنى إن أحسنتم فيه وفى أدائه . والنذر يقع موقع الفرض مادام فى طاعة الله ، وفى مقدور صاحبه ، ولا نذر إلاّ لله . ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون﴾ هل أديتموه على ما يحب الله ويرضى وما بين لكم من قبل فى آياته ؟ وإن لم تفعلوا فما ﴿للظالمين من أنصار ﴾ ينصرونهم من الله يوم يجازيهم على ما أساءوا وما فرطوا) . وفى الآية معنى الوعد والوعيد ، أى من كان خالص النية فهو مُثاب ، ومن أنفق رياءً أو لمعنًى آخر مما يكسبه المنّ والأذى ونحو ذلك فهو ظالم ، يذهب فعله باطلاً ولا يجدله ناصرًا فيه [1] .

إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

إن أبديتم الصدقات فرضا كانت أو تطوعا ، فهى مقبولة عند الله ومجزى عنها ، ما لم تكن بقصد الرياء والسمعة ؛ فهى مقيدة لكم عند ربكم . وإن أخفيتموها وأعطيتموها للفقراء دون علم من الناس ، ولا ممن بلغتهم الصدقة ، أو فى صورة تخالف صورة الصدقة الصريحة . . كالهدية . . والتوادّ . . والتآخى . . من غير إعلان ولا إشهار ، فهذا عند الله له مقام كبير . .

وصدقة السر لا تعادلها ولا تزنها صدقة أخرى . فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلاّ ظله : وذكر منهم « . . . ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه . . . » [2] .

والفارق كبير بين من تصدق فأعلن للخلق . . ومن تصدق فأخفى ، قائلاً : «رب إن هذه الصدقة فيما بينى وبينك ، أرجو بها وجهك سيدى وصفحك عما تعلمه ،

---

(١) انظر القرطبى : ٣/ ٣٣١ .

(٢) رواه البخارى كتاب الأذان باب « من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة . . . إلخ » . .

والناس لا تعلمه ، فتقبلها منى واجعلها تكفيرًا لسيئاتى . . يا من أصلحت نفسى حتى مكنتها من بذل الصدقة ابتغاء وجهك وحدك أنت سبحانك » .

إن الله يعلم السر وأخفى ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فإذا أعلن العبد فهو يعلم نيته من الإعلان . . كما يعلم نية عبده المسر ، وهو العليم الخبير .

﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾

كان الصحابة رضى الله عنهم يتحرجون من إعطاء الصدقات لأقاربهم المشركين من ذوى الأرحام والأنساب وغيرهم ، فجاء القرآن ليلفت نظرهم إلى قضية عامة وكلية ـ وهى أن الهداية : إنما تأتى بإذن ومشيئة ، وهى من الله وحده . ومادام التصدّق خالصا لوجه الله تعالى فلا يضرك إلى أين يذهب وفى يد من وقع ، فقد وقع أجرك على الله . المهم أن يكون الإنفاق ابتغاء مرضات الله ، فحينئذ أنت مثاب على قصدك .

إن مهمة الرسول ـ ﷺ ـ هى : دعوة الخلق إلى الخالق . . والمرزوقين إلى الرازق . . دعوة العصاة إلى الغفار . . دعوة الشاردين إلى رب العالمين .

أما أمر الرزق . . فالله وحده هو صاحبه . . وإليه وحده يرجع الأمر فيه . . يطعم الجائع ويكسو العارى . . مسلما كان أو غير مسلم . . . وقد أمر الله تعالى نبيه محمداً ـ ﷺ ـ أن يعطى ويدعو . . وأن يحنو ويبين .

إنكم لن تنفقوا شيئا تبتغون به وجه ربكم إلاّ وجدتموه مكتوبا لكم عنده . . فالنفقة تبذل من يد المسلم ، لتكتب عند الله أضعافا مضاعفة . . سواء كانت للمسلم أو للمشرك . . للطائع أو للعاصى ، مادامت لوجه الله ومقيدة بقيود الشرع .

وقد نبّه الله نبيه إبراهيم على ذلك من قبل ، كما نبّه رسول الله ـ ﷺ ـ وذلك لما دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه قائلا : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ (١).

---

(١) البقرة : ١٢٦ .

فلمن يترك الكافر فى الدنيا . ؟ وهل سمى الكافر كافراً إلا لجحوده نعمة ربه عليه وربوبيته له ، وإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليعطى العبد ابتلاء منه أيشكر أم يكفر؟ ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾[1].

والمؤمن لا يضر أبدا بنفقة أنفقها لوجه الله تعالى . . ومادام الأمر كذلك ، فقد فتح الله سبحانه باب النفقات ولم يجعل عليها إلا قيدا واحدا ـ أن يكون ابتغاء وجه الله ـ . . وفى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: « قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعهافى يد زانية !! فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية ! فقال اللهم لك الحمد ، على زانية؟ لأتصدقن الليلة بصدقة ، فوضعها فى يدغنى ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غنى ، قال : اللهم لك الحمد : على غنى!!؟ لأتصدقن الليلة بصدقة ، فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد : على زانية ، وعلى غنى ، وعلى سارق!!؟فأتى فقيل له أمّا صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها ، ولعل الغنى يعتبر ، فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق يستعف بها عن سرقته »[2] .

لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

وهذا تنبيه من الله تعالى لملاحظة أحوال المسلمين واستنباط حوائجهم وأدائها إليهم دون أن يحوجوهم إلى السؤال ومذلته . . وخاصة هؤلاء الذين يبدو عليهم من ظواهر أحوالهم وتعبيرات وجوههم ، فيعرفون حاجتهم دون تلميح أو سؤال أو إلحاح .

وهم الفقراء الذين حبسوا وحصروا فى دائرة الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية ولمحاربة الكفار .

---

(١) النمل : ٤٠ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « ثبوت أجر المتصدق . . إلخ » .

أو هم : الذين حبسوا أنفسهم فى طلب العلم لخدمة دولة الإسلام الحاكمة بما أنزل الله . .

أو هم : المهاجرون فى سبيل الله ، الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسول الله - ﷺ - وليس لهم سبب يردون به عن أنفسهم غائلة الجوع ، وهم لا يستطيعون ضربا فى الأرض .

يعنى لا يسافرون بحثا عن الرزق ، لأن غيرهم لا يستطيع أن يحل محلهم . وكل هؤلاء أحصروا فى سبيل الله ، وعلى رأسهم المقاتلون .

فالجاهل بحالهم ، يظنهم من الأغنياء لتعففهم فى اللباس والمقال . . فلا يحاولون إبداء فاقة للناس ، أو إظهار حاجة إليهم .

وتعرفهم بسيماهم . أى بما يظهر لأولى الألباب من سماتهم ، من غير أن يتكلموا هم ، أو يسألوا الناس شيئا ، وهنا تغنى فراسة المؤمن الذى يتصل بالله ، وله من الله نور ، والذى يكون على استعداد للإنفاق فى سبيل الله ، يستشعر حاجة المحتاج ويلمحها ، حتى وإن لم يفطن إليها الكثير والكثير من الناس .

والله سبحانه عليم بالخير . . ويجزى عليه بالخير . . إنه يثيب بعلمه ، وبما هو مطلع عليه من قلوب المعطين . عليم بعباده الذين يجدون سعادتهم ولذتهم فى الحياة حين يقضون حاجات الخلق آناء الليل وأطراف النهار ، يسعون لبذل المعروف . . وإغاثة الملهوف سرا حين يرون أن فى السر صلاح العمل ، وعلنا حين يرون أن العلانية أولى وأجمل .

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

هذا مدح منه تعالى للمنفقين فى سبيله وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار والأحوال من سر وجهار ، فهم لا يخافون يوم يخاف الناس ، ولا يحزنهم الفزع الأكبر . وفى الدنيا يؤمِّن الله خوفهم، ويثبت قلوبهم ، وينصرهم على أعدائهم ، ويصبرهم على الطاعة ، ويوفيهم أجورهم بغير حساب .

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن

جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾

بعد عرضه ـ سبحانه وتعالى ـ لأهل الصدقة الذين أقرضوا الله قرضًا حسنًا ، وهو يضاعفه لهم أضعافًا كثيرة . هؤلاء الذين اعتقدوا أن الدنيا طريق للآخرة وقنطرة إليها ، نأتى إلى القسم الثانى وهو : التحذير من الربا ، فقد شرعت الآيات فى ذكر أكلة الرِّبا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات ، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم .

إذْ يعرض القرآن صورة من صور المقرضين . . وهم أهل الربا . . وأنهم ينفقون أموالهم بالليل والنهار . . ولكن الصورة قد اختلفت عن سابقتها الخاصة بالذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانية ، والتى انتهت بقوله تعالى :﴿ **فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . وكما اختلفت صورة الإنفاق اختلف المصير لكل من الفريقين .

وهنا لا نكاد ننتهى من قراءة الآية إلا ونرى أمام أعيننا مشهد هذا الذى لا يقوم إلاقيام الذى يتخبطه الشيطان من المس ، وأنى له أن يقوم إلا قيامًا منكرًا بشعًا !!؟ إنه مشهد مؤلم . . مفزع . . مشهد المصروع حال صرعه . . والممسوس فى أشد حالاته .

وقيامهم بهذه الطريقة البشعة ، ليس مقصورًا على الآخرة فقط ، ولكنه أيضًا فى الدنيا . . قيام اقتصادهم . . قيام حياتهم . . قيام كيانهم كله . . إنما هو قيام الذى يتخبطه الشيطان من المس .

وقد وافقنا سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ورضى عنه ـ فى هذا المعنى ، حين قال :

« إن العالم الذى نعيش فيه اليوم ـ فى أنحاء الأرض ـ هو عالم القلق والاضطراب والخوف ، والأمراض العصبية والنفسية ـ باعتراف عقلاء أهله ومفكريه وعلمائه ودارسيه ، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية . وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية ، والإنتاج الصناعى فى مجموعه من الضخامة فى هذه الأقطار . وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادى التى تأخذ بالأبصار . ثم هو عالم الحروب الشاملة ، والتهديد الدائم بالحروب المبيدة ، وحرب الأعصاب ، والاضطرابات التى لاتنقطع هنا وهناك .

« إنها الشقوة البائسة المنكودة ، التى لا تزيلها الحضارة المادية ، ولا الرخاء المادى ، ولايسر الحياة المادية وخفضها ولينها فى بقاع كثيرة . وما قيمة هذا كله إذا لم ينشئ فى النفوس السعادة والرضا والاستقرار والطمأنينة؟

« إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى ، ولا يضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه ، كى لا يرى . حقيقة أن الناس فى أكثر بلاد الأرض رخاء عاما . . فى أمريكا ، وفى السويد ، وفى غيرهما من الأقطار التى تفيض رخاء ماديًا . . أن الناس ليسوا سعداء . . أنهم قلقون ، يطل القلق من عيونهم وهم أغنياء ! وأن الملل يأكل حياتهم ، وهم مستغرقون فى الإنتاج ، وأنهم يغرقون هذا الملل فى العربدة والصخب تارة ، وفى «التقاليع » الغريبة الشاذة تارة ، وفى الشذوذ الجنسى والنفسى تارة ، ثم يحسون بالحاجة إلى الهرب . . الهرب من أنفسهم ومن الخواء الذى يعشّش فيها ! ومن الشقاء الذى ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها . . فيهربون بالانتحار . . ويهربون بالجنون . . ويهربون بالشذوذ ! ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ، ولا يدعهم يستريحون أبدًا ! لماذا ؟

« السبب الرئيسى ـ طبعًا ـ هو خواء هذه الأرواح البشرية الهائمة المعذبة الضالة المنكودة ـ على كل ما لديها من الرخاء المادى ـ من زاد الروح ، من الإيمان . . من الاطمئنان إلى الله . . وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التى ينشئها ويرسمها الإيمان بالله . . وخلافة الأرض وفق عهده وشرطه .

« ويتفرع من ذلك السبب الرئيسى الكبير : بلاء الربا . . بلاء الاقتصاد الذى ينمو، ولكنه لا ينمو سويًا معتدلاً بحيث تتوزع خيرات نموه وبركاتها على البشرية كلها . . إنما ينمو مائلاً جانحًا إلى حفنة الممولين المرابين ، القابعين وراء المكاتب الضخمة فى المصارف ، يقرضون الصناعة والتجارة بالفائدة . . المحددة . . المضمونة ، ويجبرون الصناعة والتجارة على أن تسير فى طريق معين ، ليس هدفه الأول سد مصالح البشر وحاجاتهم التى يسعد بها الجميع ، والتى تكفل عملاً منتظمًا ، ورزقًا مضمونًا للجميع ، والتى تهيئ طمأنينة نفسية ، وضمانات اجتماعية للجميع . . ولكن هدفه هو إنتاج ما يحقق أعلى قدر من الربح ـ ولو حطم الملايين وحرم الملايين وأفسد حياة الملايين ، وزرع الشك والقلق والخوف فى حياة البشرية جميعًا !

« وصدق الله العظيم : **﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾** .

« وها نحن أولاء نرى مصداق هذه الحقيقة فى واقعنا العالمى اليوم [1] » اهـ .

فما الذى أوقع المرابين فى هذه النتيجة المخزية المؤلمة ؟!

إنهم نظروا للأمر من زاوية المنفعة الشخصية والفائدة ، فقالوا : ﴿ إنما البيع مثل الربا﴾ وليس البيع مثل الربا ، فالبيع قابل للمكسب والخسارة ، مكسب غير محدد ، وخسارة غير متوقعة ، ولكن الربا ليس قابلاً للخسارة . . أما المكسب فمحدد مسبقًا .

إن الذين يقنعون بحكم الله فى الربا ، فيتوبون وينتهون ، فلهم ما سلف من مال جمعوه من الربا ، ولم يؤمروا برد الزيادات الربوية السالفة ، وذلك تشجيعًا للقلوب المحبة للمال على التوبة وتيسيرًا عليها .

وقوله تعالى : ﴿ وأمره إلى الله ﴾ يعنى فيما اكتسبوه من قبل من طريق الربا . . وفى ذلك إشعار بالإثم العظيم ، الذى وقع فيه هؤلاء ، حتى إنهم ينتهون فلا يبشرهم بالمغفرة صراحة ، ولكن يكل أمرهم إليه وحده ، يفعل ما يشاء ، حتى إذا همت النفوس الضعيفة بالارتكان إلى ذلك الانتهاء غير المصحوب بالتبشير فتجد عذرًا يسوغ لهم الاستمرار على ما هم عليه : لا يجدون أمامهم إلا هذا التهديد العنيف ، والمصير المحقق .

فلا مفر من التوبة ، ولو على وجل من هذا الرصيد المأثوم المجموع من أكل أموال الناس بالباطل .

والتائب الصادق ، أقرب إلى عفو الله ـ تبارك وتعالى ـ من عذابه .

ولكن . . . ما يزال من الناس من عبّد قلبه للمال ، حتى إن الموعظة لا تنفعه ، والترغيب لا يحفزه ، والترهيب لا يفزعه . . ويبقى بعد ذلك كله متمسكًا قلبه بالمال . . فأخبر الله آكل الربا المتعلق به بأنه إما أن يذهبه بالكلية ، أو يحرمه البركة فيه .

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾ ٢٧٦

يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا أى يذهبه ، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه ، وإما أن يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به فى الدنيا ويعاقبه الله عليه يوم القيامة .

إن الله الذى حرم الربا . . يمحق كل ما يظن العبد أنه نفع بالربا أو نماء منه .

---

(١) فى ظلال القرآن الطبعة الحادية عشرة دار الشروق ١ / ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

أما الصدقات التى يقرضها المرء لله تعالى فإن الله تعالى يربيها عنده . . ويزكيها ويزيدها . . وفى الحديث الذى رواه البخارى : « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه كما يربى أحدكم فلوه (١) حتى يكون مثل الجبل » (٢) .

والذين يخوضون فى حدود الله ، ويعتدون على ما أمر به ، ويحرفون ما أراد منهم الاستقامة عليه . . فإن الله يمحق أعمالهم ، فيذهب جُفَاءً ما اعتقدوا أن فيه نماء أموالهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

وبعدما بين الله لنا بشاعة صور الذين يقومون ويقوم مجتمعهم على الربا . صور كريهة مستبشعة . . وأموال ممحوقة . . ضائعة . . مبذورة . . يظهر لنا الجانب الآخر . جانب حياة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة . .

« والزكاة » هى الركن الثالث من أركان الإسلام ، والأساس الاقتصادى الذى وضعه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليقوم عليه النظام المالى فى الإسلام . . وقد ضاعت بيننا ـ من بين ما ضاع ـ فريضة الزكاة . حتى إنها لم تعد إلا سلوكًا فرديًا ، يقوم به الصالحون المحسنون من الناس : سرًا أو جهرًا . وشاعت مرارة المحق والتخبط فى ظلمة نظام ربوى ساحق . . غاص الناس فيه إلى أمهات رءوسهم ، ثم صاروا إلى أحد أمرين : إما آكل الربا ، وإما مصيب من غباره المثار . . غبار الحرب من الله ورسوله .

وأصبح هذا المجتمع أهلاً لأن يناديه ربه :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

---

(١) بكسر الفاء وسكون اللام ، أو بفتح الفاء وضم اللام وتضبط بضم الفاء واللام ، والواو المشددة ، وهـــو : « الجحش ، والمهر : فطما أو بلغا السنة » .

(٢) رواه البخارى ـ واللفظ له ـ كتاب الزكاة باب « الصدقة من كسب طيب » ، ورواه مسلم كتاب الزكاة باب « قبول الصدقة من الكسب الطيب » . . إلخ .

والشريعة توضح بجلاء أن كل حرام فالوسيلة إليه مثله ، لأن ما أفضى إلى حرام فهو حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب .

وبعد أيها الأخ المسلم ألا يكفى هذا الإنذار . . ؟ ألا يكفى المخالف التهديد بالحرب من الله ورسوله ؟ وأينا يقدر على ذلك ؟ وأنى للضعيف المتخاذل أن يقف أمام حرب القوى القاهر ؟ .

يقول سيد قطب ـ رحمه الله تعالى ـ[1] .

« إنها الحرب المشبوبة دائمًا ، وقد أعلنها الله على المتعاملين بالربا ، وهى مسعرة الآن ، تأكل الأخضر واليابس فى حياة البشرية الضالة ، وهى غافلة تحسب أنها تكسب وتتقدم كلما رأت تلال الإنتاج المادى الذى تخرجه المصانع . وكانت هذه التلال حرية أن تسعد البشرية لو أنها نشأت من منبت زكى طاهر ، ولكنها ـ وهى تخرج من منبع الربا الملوث ـ لا تمثل سوى ركام يخنق أنفاس البشرية ويسحقها سحقًا ، فى حين تجلس فوقه شرذمة المرابين العالميين ، لا تحس آلام البشرية المسحوقة تحت هذا الركام الملعون! » أ هـ .

أيها المتعايشون مع الربا : إن اتعظتم وانتهيتم ، ﴿ **فلكم رءوس أموالكم** ﴾ لا يظلم دائن مدينًا ولا يظلم مدين دائنًا .

وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذى لا يجد وفاء ، وهذا استعلاء بالذين آمنوا وتابوا عن التعامل بالربا ، ولا يزال لهم عند الناس مال ، وقد ألغوا ما زادوه من الربا ، ولم يبق لهم إلا أصل المبلغ : أن يمهلوا المدين المعسر إلى وقت الميسرة .

وهو تجديد للمعاملات بصورة ذكية ، يرضاها الله تعالى .

كما أن الآية قد احتوت على بشارة للمدين المقترض ، الذى وقع فى عسر وضيق ـ بشارة بالميسرة التى تعقب كل عسر . . وكما قال تعالى : ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسرا**﴾[2] . وعلى الدائن أن يصبر حتى يفرج الله كربة المدين . وهذا فضل ، وإن تصدق الدائن على المدين بما اقترض فهو خير وأفضل ، وله من الله على ذلك أجر كبير . ﴿**وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾ .

---

(١) فى ظلال القرآن ، سيد قطب ، ١ / ٣٣١ .

(٢) الطلاق : ٧ .

وعن حذيفة قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أتى الله بعبد من عباده ، آتاه الله مالاً ، فقال له : ماذا عملت فى الدنيا؟ - ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ - قال : يارب ! آتيتنى مالك ، فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقى الجواز ، فكنت أتيسّر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله : أنا أحق بذا منك ، تجاوزوا عن عبدى »[1] .

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

هذا خطاب من الله تعالى للمتعاملين بالربا خاصة ، وللمؤمنين عامة يعظهم ويذكرهم بزوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا . . يقول لهم فكروا جيدًا . . إنكم تعيشون فى الدنيا ، إلا أنها حتمًا ستنتهى . . لتأتى آخرتكم التى تخلدون فيها . فيومئذ يوفيكم الله حسابكم ، ويجزيكم أعمالكم وما كسبتم ، إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر ، فاتقوا يومًا لا الأموال ولا الأولاد ، ولا الأزواج تنفعكم أو تغنى عنكم من الله شيئًا . . . إلا طاعة الله وتقواه . . . وذلك حين آمركم أن تفعلوا ففعلتم ، وأن تنتهوا فانتهيتم .

وبعد ، فإن مفسدة الربا عظيمة ، فهى تفوق كونها معاملة استغلالية . . . طبقة عاطلة من الناس ، تستفيد بغير بذل أو تعب . .

فالتجارة مثلاً : حركة يشعر صاحبها أنه يبذل جهدًا ما ، ويدفع من عرقه وفكره مايستحق أن ينال معه الأجر والنفع .

وتحت مظلة الإسلام ، يمكن أن يكون المال فى حركة دائمة . . تتيح للأيدى العاملة أن تعمل فتتكسب فتستفيد وتفيد .

كما أن الشريك فى المعاملة الربوية لا يعرف ما مقدار الربح الذى حصله ماله . . حتى وإن عرفه ، فهو محروم منه ، لا يحصل منه إلا نسبة ضئيلة . . وهذا الشريك قد وقع تحت أسر الحاجة ولا شك . . وقد أصابه ظلم شديد ، فإن كان هو المقرض للهيئة المستثمرة للمال ، ويتقاضى على ذلك نسبة معينة ، فتدخل هذه المعاملة تحت باب الربا . . وأما إن قلنا : إنه شريك بالمال : تبين لنا أن الطرف الآخر هو الطرف المستغل

---

(١) البخارى ، ومسلم ، وفى الفتح الكبير بلفظ « أنا أحق بذلك منك ، تجاوزوا عن عبدى » .

الظالم ، وما فيه استغلال أو احتكار فهو محرم شرعًا ، وليس مما أباح الإسلام ، لأن القاعدة فى الإسلام « لا تظالموا » (١) .

وهكذا يمكنك القياس فى كل شىء . . ﴿ **لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ فلتنظر فيما استجد من المعاملات . . فى البنوك . . وشركات التأمين . . وشركات الاستثمار . . وشركات الإسكان . وغير ذلك من الأشكال المختلفة لشىء واحد ، هو : « الربا » الذى نهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنه ، وسماه الناس بغير اسمه .

إن لدينا مصدرًا للتشريع ، يفتقده الذين نتلقى عنهم تشريعاتنا الاقتصادية وغيرها ونحن لا نعلم أو نعلم أن مجرد التلقى عن غير كتاب الله وسنة رسوله مرفوض فى الإسلام . . ذلك أن مشروعية التلقى عند من اعتقد بـ « لا إله إلا الله » ينبغى أن لاتكون إلا من الله وحده . .

ثم نأتى إلى القسم الثالث : حيث يوضح المولى العلاقة المشروعة بين الدائن والمدين، ويأخذ سبحانه فى تهذيب النفوس المسلمة المتعاملة بالمال بأطول آية فى كتاب الله فيقول :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً

---

(١) من حديث قدسى شريف طويل رواه أبو ذر ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ وفيه « يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا ، فلا تظالموا . . » الحديث كما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى ذر .

حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

فى الآية : مشروعية السلف ، والاقتراض المضمون إلى أجل مسمى .

يقول ابن عباس « أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أحله الله وأذن فيه » . ثم قرأ ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى** ﴾ .

وعنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قدم إلى المدينة ، وهم يسلفون فى الثمار : السنة والسنتين . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم** »[1] .

وفيها أمر من الله تعالى بكتابة القرض المؤجل .

﴿ **وليكتب بينكم كاتب بالعدل** ﴾ طرف ثالث فى العقد ، وهو الكاتب الذى يكتب بالقسط والحق ﴿ **ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله** ﴾ وتكون استجابته للكتابة ، وعدم إبائه شكرًا لله على نعمته عليه ، إذ علمه ما لم يكن يعلم ﴿**فليكتب**﴾ ، ﴿**ولا يأب**﴾ وهذا أمر من الله ، أما كيفية الكتابة ، فتكون كما يلى :

﴿ **وليملل الذى عليه الحق** ﴾ وهو المدين . فيقول : على أنا فلان لفلان ، وفى ذمتى حق وقدره كذا . . إلى أجل قدره كذا . . .

﴿ **وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئًا** ﴾ يعنى يتقى الله فى الإملاء ، ولا ينقص من حق الدائن شيئًا . ﴿ **فإن كان الذى عليه الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل** ﴾ .

وهنا يأتى طرف رابع . . وهو ولى المدين السفيه ، أو الضعيف ، أو الذى لايستطيع الإملاء .

والسفيه : هو المحجور عليه بالتبذير أو نحوه . والضعيف : ضعفًا عقليًا أو جسميًا . والذى لا يستطيع الإملاء : هو المريض أو الجاهل ، وكذلك الغائب .

وفى الشهادة على المداينات : اشترط الإسلام ضرورة توافر شاهدين من الرجال . ثم جعل احتمال وقوع الضلال أو النسيان سببًا فى كون شهادة المرأتين تعادل شهادة

---

(١) رواه البخارى كتاب السلم باب « السلم فى كيل معلوم » ورواه مسلم ، كتاب : المساقاة ، باب : «السلم» .

الرجل . . وجعل عموم الحكم على ذلك . . فأوقعه على عموم النساء ، وإن كان الأمر لا يخلو من وجود من لا تغفل ولاتنسى . . ثم اشترط المولى : الرضا بالشهود ، وذلك يعنى أن الرضا بالشهود يرجع لأحد سببين :

إما رضا المجتمع المسلم « ويرى الإمام الشافعي ـ من هنا ـ وجوب اشتراط العدالة فى الشهود » . . وقد يكون سبب الرضا راجعًا إلى طرفى التعاقد ، لا تشترط العدالة فى الشهود .

﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعو ﴾ لأداء الشهادة ببيان ما شهدوه من قبل .

﴿ ولا تسأموا ﴾ أى تملّوا : أن تكتبوا الدين صغيرًا كان أو كبيرًا ، بل اكتبوه وبينوا الأجل المستحق عنده . . وهو الميعاد المضروب مسبقًا لسداد الدين .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يستحيى من الحق ، وهذا الذى أمركم به إنما هو أقسط وأعدل عند الله ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ أى أنه أوفى أن تقوم الشهادة بالحق ، فلا يجترئ شاهد على قول الزور ، لعلمه بأمر الكتابة ، وكذلك إن كان الشاهد ناسيا لطول الأجل . . فرأى خطه فى المكتوب : أيقن وشهد بالحق .

﴿وأدنى ألا ترتابوا ﴾ أى لا يرتاب بعضكم فى بعض ، ولا يشك أحدكم فى حسن نية الآخر ، فيكون الرجوع للكتاب فى أى وقت ، هو الأمر الذى تطمئن إليه قلوبكم ، وينزع ما فيها من شكوك وريب .

أما فى التجارة : فينتفى وقوع ما يحذر ويكره من عدم الأداء أو البخس فيه ، وذلك إن كانت حاضرة يدًا بيد . وهذا فى الكتابة . أما بالنسبة للشهادة فيقول تعالى : ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ .

وحمله الجمهور [1] على الندب والإرشاد ، لا الوجوب .

والاحتياط أولى ، وخاصة إذا لم يكن الأداء فى الحال : يدًا بيد .

﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ لا يضر الكاتب فيكتب خلاف ما يملى ، ولا يضر الشهيد فيشهد بغير ما سمع ، أو يكتم الشهادة . وكذلك لا يضارّ المتعاقدان : الكاتب ، ولا الشهيد فيؤخر أداء حقيهما والوفاء بأجرهما على الكتابة وعلى الشهادة ، إذا طلبا منهم أجرًا ، وكذلك لا يضار الكاتب لكتابته ، ولا الشهيد لشهادته .

---

(١) انظر ابن كثير فى التفسير ١ / ٣٣٦ .

أى أن هذا الإضرار بالكاتب والشهيد من أعمال الفسق التى نهى الله عنها . يعنى اعملوا واتقوا الله ويعلمكم الله بما علمتم بتقوى الله فيه ، يبارك لكم فى عملكم ، ويزيدكم علماً على علم ، والله بكل شىء عليم .

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

إذا كان طرفا العقد على سفر ، وليس من كاتب يكتب بينهم ﴿ فرهان مقبوضة ﴾ .

والرهان : أىّ شىء يمتلكه المدين ، ويمكنه الاستغناء عنه لفترة من الوقت ، تنتهى :إما بالكتابة وإما بالأداء . . ومعنى « مقبوضة » أن الدائن يتسلمها فى يده حين إعطائه للمدين : ما يريد من مال أو متاع .

فإن كان بينكم من الثقة ما يدعو إلى أن يأمن بعضكم بعضا . ﴿ فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴾ .

يقول ابن عباس : كتمان الشهادة من أكبر الكبائر ، وشهادة الزور كذلك .

﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وخص القلب بالإثم لأنه محل الكتمان . فلا تزال الشهادة تتردد فيه وتؤرقه ، وكما قال ـ ﷺ ـ فى حديث صحيح « الإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » (١) .

وسمى الكتمان عملاً لأن الأعمال ليست قاصرة على الجوارح ، بل من أهم الأعمال فى الإسلام الأعمال القلبية . . وعليها يحاسب المرء كما يحاسب على أعمال الجوارح . . ومن أعمال القلب التوحيد . . والإخلاص . . والخوف، والرجاء ، والرضا ، والشوق، والندم ، والعزم ، والإصرار ، والحب ، والبغض ، والحسد ، والحقد ، والجزع ، والحرص ، والغفلة ، وغير ذلك وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ يكثر من قول : «يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك » (٢).

---

(١) رواه مسلم كتاب البر باب تفسير البر والإثم . ورواه الترمذى كتاب الزهد باب ٥٢ ، والإمام أحمد فى مسنده .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده والترمذى فى كتاب القدر باب ما جاء فى أن القلوب بين أصبعى الرحمن ، وقال هذا حديث حسن . ورواه ابن ماجه فى المقدمة باب فيما أنكرت الجهاعة ، وفى الزوائد إسناده صحيح .

لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

يخبرنا الله تعالى أن له ملك السموات والأرض ، ما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت . وأخبر سبحانه أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه فى صدورهم .إن الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض مطلع على قلوبكم وأنفسكم فمهما أخفيتم فيها فإن الله عليم بما فيها . ثم هو يحاسبكم على ذلك إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، فلو أنكم كتمتم شرًا فالله يعلمه ،أو خيرًا فهو يعلمه ،وهو سبحانه القادر على أن يغفر لكم ذلك ، أو يعذبكم عليه إن كان شرًا ، له ما يشاء وهو على كل شىء قدير.

ولما نزلت[1] هذه الآية شقت على أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ .

فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « لما نزلت على رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ، فأتوا رسول الله ـ ﷺ ـ ثم بركوا على الركب فقالوا : أى رسول الله : كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلما اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله فى إثرها :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير (٢٨٥) ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل : ﴿ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ قال نعم ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ قال : نعم ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ قال : نعم

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣٣٨ .

سُورَةُ البَقَرَةِ

﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين(٢٨٦) ﴾ قال : نعم[1] » .

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦

وقد اختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ هاتين الآيتين خاتمة لسورة البقرة بعد بيان أحوال أهل الكتاب مع رسلهم ، ثم بيان شرائع الإسلام تشريفًا للمسلم بأتباع محمد ـ ﷺ ـ وشهادة لهم وتكريماً ما بعده تكريم .

وشرف الله المؤمنين ، حين عطفهم فى الإيمان على رسوله ، فقال : ﴿ والمؤمنون ﴾ وزادهم شرفا حين جمعهم مع رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم فى الإيمان به ، فقال : ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ .

وقالوا ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله . . . . ﴾ الآية .

وقولهم هذا هو النتيجة الطبيعية لما سبق أن شهد لهم ربهم به من الإيمان . . وذلك خلاف بنى إسرائيل . فالمسلمون قالوا أوّلاً : ﴿ آمنا ﴾ ثم قالوا ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا ﴾ لما وقعنا فيه ببشريتنا من معاص وذنوب .

وعن عبد الله بن مسعود ، عن رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »[2] .

وعن ابن عباس قال : قال جبريل للنبى صلى الله عليه وسلم : « أبشر بنورين

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الإيمان باب « بيان أن الله تعالى لم يكلف إلا ما يطاق » .
(٢) البخارى كتاب فضائل القرآن باب « فضل سورة البقرة » .

أوتيتهما ، لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفًا منهما إلاأوتيته» [1] . ولقد كافأهم الله تعالى فجعل التكليف منوطًا بالوسع والطاقة والاستطاعة . .

ونحن نرى أن كل ما أمر به الله تعالى تكليفًا للمؤمنين : إنما هو مما يطيقون .

ويسقط الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعض التكاليف ، أو يؤجلها إذا عرض عليهم عارض لايؤهلهم لأدائها فى حدود اليسر والطاقة .

ثم جعل الجزاء بالعقاب على الكسب ، لا على مجرد النية ، وما تخفى الصدور ، مهما عظم .

وجعل الجزاء بالثواب على النية والكسب معًا أو منفردين .

وفى الحديث [2] « . . . قال الله : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرًا» .

وفى رواية لمسلم يقول : « ولا يهلك على الله إلاّ هالك » .

ويستمر دعاء المؤمن الصادق الوجل الراجى . . الذى يرتكن إلى ربه الذى خلقه ، والذى يتولاه بما كسب وبما اكتسب ، وتتكرر كلمة (ربنا) فيقول : **﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾** .

والمؤمن يدعو ربه بذلك ليكون الدعاء سببًا من أسباب رفع إثم الخطأ والنسيان ، وعدم المؤاخذة عليه .

﴿ ربنا لا تؤاخذنا ﴾ بذنوبنا ، فتغضب علينا وتعاقبنا ، كما عاقبت الأمم قبلنا بالعقوبات القاسية أو التكاليف الشديدة .

﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ واجعلنا قادرين على أداء ما أمرتنا به .

ولم يبق بعد ذلك من تمام الخير إلاّ العفو والمغفرة ، والرحمة والنصرة على الكافرين فى الدنيا والآخرة .

﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ﴾ .

---

(١) مسلم كتاب المسافرين باب « فضل الفاتحة . . إلخ » .

(٢) رواه البخارى كتاب الرقاق ، باب « من هم بحسنة أو سيئة » ، ورواه مسلم كتاب الإيمان باب « إذا هم العبد بحسنة . . » إلخ .

وهكذا يكون دعاء المسلم الذى وعى قلبه الإسلام . . إنه دعاء نابع من عقيدة سليمة . . رأسها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وعمودها السمع والطاعة ، وذروة سنامها الجهاد من أجل الله وليّنا وناصرنا . . الذى لا مولى لنا غيره . . فيه نحب . . وفيه نبغض . . وفيه نعادى وفيه نوالى . . وفيه نعاهد . . وفيه نجاهد .

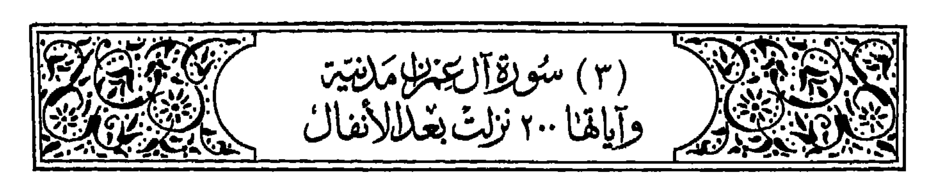
ويختار الله سبحانه ختامًا لهذه السور الكريمة هذا الدعاء الإيمانى الموحى بما يعيش به وله كل مسلم فى هذا الوجود ، وبما يجيش به قلبه . . وما يحرك ويؤرق . . ويسكن ويطمئن به فؤاد وكيان كل مسلم مجاهد قد تم إيمانه ، وكمل إسلامه ، ووعى دينه . . ووحد ربه . . واتبع رسوله . . وعاهد فوفى . . وأعطى فأبقى . .

﴿ أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

فالولاء لك وحدك ربنا . . والعداء ـ كل العداء ـ للقوم الكافرين أعداء الإسلام . . فاجعلنا اللهم ربنا دائمًا فى مقام العزة والنصر والتمكين والكرامة .

اللهم زينا بالجهاد فى سبيلك حتى يكتمل لنا ديننا ويتم لنا نورنا بمعاداة الكافرين الذين يحاربون الحق والإسلام ، فانصرنا عليهم نصرًا مؤزرًا ، ورد عليهم كيدهم ، وتقبل شهداءنا وأيد دعوتنا واكتبنا فى عبادك الصالحين .

وتنتهى سورة البقرة وقد حملت للأمة الإسلامية الكثير والكثير من الآيات والأحكام والعبر والنظم التى تصلح بها حياة الأمة الإسلامية .



(٣) سورة آل عمران مدنية
وآياتها ٢٠٠ نزلت بعد الأنفال

بسم الله الرحمن الرحيم

روى الإمام مسلم بسنده عن أبى أمامة قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : «اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين [١]، (البقرة وآل عمران) فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيايتان [٢] أو كأنهما فِرْقان [٣] من طيرٍ صواف[٤] تحاجان عن أصحابهما » .

وروى الإمام مسلم أيضًا عن جبير بن نفير قال : سمعت النواس بن سمعان الكلابى يقول : « سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران » [٥].

سبب نزول صدر السورة إلى الآية الثالثة والثمانين :

صدر هذه السورة نزل بسبب وفد نجْران [٦]. . وكانوا نصارى، وفدوا على رسول الله - ﷺ - بالمدينة سنة تسع من الهجرة . وكان قدومهم فى ستين راكبا، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلا ، فى الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يرجع أمرهم، وهم العاقب واسمه عبد المسيح والسيد وهو الأيهم وأبو حارثة بن علقمة وكان عالمهم - كما ذكرهم جميعا ابن كثير . فدخلوا على رسول الله - ﷺ - إثر صلاة العصر ، عليهم ثياب الحبرات وهى جبب وأردية . فقال أصحاب النبى - ﷺ -: ما رأينا وفدا مثلهم جمالا وجلالة . وحانت صلاتهم فقاموا فى مسجد النبى - ﷺ - فقال النبى - ﷺ - : دعوهم، فصلوا إلى المشرق. ثم أقاموا بها أياما يناظرون رسول الله - ﷺ - فى عيسى ويزعمون أنه ابن الله إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة، ورسول الله - ﷺ -

(١) الزهراوين : المنيرين.
(٢) الغياية : ما أظلك من فوقك .
(٣) الفرق : القطعة من الشىء.
(٤) الصواف المصطفة المتضامة.
(٥) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين - باب : فضل قراءة القرآن .
(٦) الجامع لأحكام القرآن (باختصار يسير) .

يرد عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يبصرون، ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى نيِّف وثمانين آية . وقد آل أمرُهم إلى أن دعاهم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المباهلة [1]، لكنهم أبوا منها ، ورضوا بالجزية ، فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك ، وعادوا إلى بلادهم.

من هذا : نجد أن الله تعالى قد جعل من واجب المسلمين أن يقوموا بدعوة الناس جميعًا إلى الإسلام ، سواء كانوا يهودا ، أو نصارى ، أو على أى دين كانوا . وهذا ما كان يقوم به رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون من بعده .

وفى ذلك دليل وحجة واضحة على أن الإسلام جاء ناسخًا لكل ما سبقه من شرائع ودساتير يقول الله تعالى :

﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [2] . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ [3] .

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾

سبق أن تكلمنا فى [الم] فى سورة البقرة وكذلك عن قوله تعالى (الله لا إلـه إلا هو الحى القيوم) بما يغنى عن إعادة القول هنا ولله الحمد والمنّة .

ولكن لله سبحانه وتعالى حكمة فى إعادة قوله تعالى: ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ فى هذا الموضع وهذه المناسبة ، حيث تجابه الآية مزاعم الذين يدّعون ألوهية عيسى ـ عليه السلام ـ.

إذْ فى قوله تعالى: ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ نفى قاطع لألوهية أحد أيًّا كان ـ غير الله سبحانه وتعالى . وقوله تعالى ﴿ الحى ﴾ أى الذى لا يموت وقد مات عيسى ـ عليه السلام ـ فى زعمهم ـ فهى تنفى ألوهية عيسى ﴿ القيوم﴾ فالقيوم أى القائم على سلطانه لا يزول وقد زال عيسى فكيف يكون إلها ؟!

وقد اعترف نصارى نجران بذلك كما سبق فى سبب نزول الآيات ،ولكن الدنيا استعبدتهم فلم يؤمنوا برسول الله ـ ﷺ ـ . وكفرهم بمحمد ـ ﷺ ـ كفر بعيسى ـ عليه السلام ـ ومثلهم فى ذلك اليهود ولعنهم الله .

---

(١) أن يجتمع القوم إذا اختلفوا فى شىء فيقول كل منهم (لعنة الله على الظالم منّا) . وذلك بعد المناظرة

(٢) آل عمران : ١٩ . (٣) آل عمران : ٨٥ .

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ
هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
انتِقَامٍ ﴿٤﴾ ﴾

تقرير من الله أن القرآن هو الكتاب، كأنه هو الحقيق أن يطلق عليه اسم الكتاب دون ما عداه . فهو الكتاب الذى لا يعلوه كتاب وهو فوق كل ما سبقه من كتب . والقرآن الكريم نفسه جعل للتوراة والإنجيل قيمة تاريخية حينما اعترف بنزولهما من عند الله . ولكنه قرر، وقراره حق، ما يفيد أن أيدى اليهود قد عبثت بهما . انـظروا ماذا يقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾**[1] .

وقوله : **﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾** أى من الكتب السابقة ،فقد أنزل الله سبحانه التوراة على موسى ـ عليه السلام ـ والإنجيل على عيسى ـ عليه السلام ـ وكان فيهما هدى للناس من قبل نزول القرآن ، وقبل عبث المغرضين الذين حرفوهما وطمسوا ما فيهما من هدى . فتكرم الله عز وجلّ وأنزل القرآن العظيم على محمد ـ ﷺ ـ الذى حوى بين آياته ما تحتاجه البشرية من نظم تشريعية ، سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية أم أخلاقية إلى قيام الساعة .

ولقد اشتمل القرآن على ما يحتاجه البشر فى كل نواحى حياتهم ، من حلال وحرام ، وعلى كل ما تقوم به حاجة الإنسان فى هذه الحياة ، ليقوم بوظيفته التى خلق من أجلها **﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة﴾**[2]. **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾**[3] ولذلك فقد تعهد سبحانه بحفظ هذا الكتاب فلا يستطيع أحد أن يحرف منه شيئا **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافـظون ﴾**[4] . فهو الكتاب الوحيد الباقى على مر الزمان حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وذلك بحفظ الله له ، وبقيام المؤمنين به فى العالمين يبلغونه ويدعون إلى هديه .

---

(١) سورة البقرة : ٧٩ .
(٢) سورة البقرة : ٣٠ .
(٣) الذاريات : ٥٦ .
(٤) الحجر : ٩ .

فالقرآن كتاب الله . والعالم كله مدعوّ للإيمان به وبالنبى الذى أنزل عليه . والناس أمام هذا الكتاب ونبيه ـ ﷺ ـ فريقان : مؤمنون وكافرون فالمؤمنون من آمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ وبالكتاب الذى أنزل عليه .

يقول الله تعالى فى سورة محمد ﴿ **الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾(١) .

والكفار هم الذين لم يؤمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ وهم : فريقان : أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى الذين كفروا بمحمد ـ ﷺ ـ وبكتاب الله . والفريق الآخر الذين لم يؤمنوا بنبىٍّ أصلاً ولا بكتاب نزل .

يقول تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفا مطهرة** ﴾(٢) . فالآية الكريمة حكمت على من كفر برسول الله محمد ـ ﷺ ـ من أهل الكتاب بالكفر .

وهذا هو حكم القرآن ، وأجمعت على ذلك الآية سلفا وخلفا ، وليس بعد حكم الله حكم وليس بعد قول الله قول .

والكفار بجميع فرقهم هم المقصودون بقول الله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام** ﴾ فانتقام الله شديد ، وخصوصا من أولئك الذين عرفوا الحق وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . فمن يؤمن بالتوراة أو بالإنجيل أو بهما معًا فإن إيمانه مردود غير مقبول حتى يؤمن بخاتم المرسلين محمد ـ ﷺ ـ وكتابه . فمن آمن من الناس بنبى وكفر بنبى فهو كافر بالأنبياء جميعا . وإيمانه بالبعض لا ينفعه شيئًا يوم القيامة .

إن دعوى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أنهم مؤمنون بالتوراة مردودة عليهم حتى يسلموا وجوههم لله ، ويؤمنوا بخاتم رسله ـ ﷺ ـ وكتابه .

﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾(٣) . فالأمة الوحيدة على ظهر الأرض التى آمنت بالله بحق ، ولم تفرق بين أحد من رسله ، إذ تُؤمن

---

(١) محمد ١ ، ٢ . (٢) البينة : ١/ ٢. (٣) البقرة : ٢٨٥ .

بالأنبياء جميعا ، وبكتب الله المنزلة كلها ـ هى الأمة المسلمة التى تشرفت بالتسليم والتصديق بما أنزل على محمد ـ ﷺ ـ ، فاستحقت أن يقول الله فى شأنها :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾[1].

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦

إن الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه كفر من كفر ، ولا إيمان من آمن ، فهو مطلع على كل شيء . فعلمه سبحانه محيط بكل شيء فى الأرض والسماء لايخفى عليه شيء من ذلك ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[2] ﴿يا بنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير﴾[3]. فهو سبحانه وتعالى العالم بما كان وما يكون . فكيف يكون غيره إلـها وهو لا يتصف بشيء من ذلك؟ هو الخالق القادر الحكيم ، خلق من النطفة علقة ومن العلقة مضغة ومن المضغة عظامًا ، فكسا ـ سبحانه جلت قدرته ـ العظام لحما ثم صوره فأبدع صورته . ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك * فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ [4] .

﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ أى هو الذى خلق وهو المستحق للألوهية وحده لاشريك له ، وله العزة التى لاترام ، والحكمة والأحكام . وهذه الآية دليل على أن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر ، لأن الله صوره فى الرحم وخلقه كيف يشاء ، فكيف يكون إلها كما زعمته النصارى ؟![5] .

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧

أنزل الله عزّ وجل القرآن ﴿ منه آيات محكمات ﴾ واضحات الدلالة ومنه ﴿ أخر متشابهات ﴾ وهى ما استأثر الله بعلمها دون خلقه .

---

(١) آل عمران : ١١٠ . (٢) غافر : ١٩ . (٣) لقمان : ١٦ .
(٤) الانفطار : ٧ ، ٨ . (٥) ابن كثير : ١/ ٣٤٤.

وجعل سبحانه الآيات المحكمات ﴿ هن أم الكتاب ﴾ فإذا رددنا المتشابه إلى المحكم صار القرآن كله محكما .

وللعلماء كثير من الكلام فى معنى المتشابه :

يقول القرطبى فى كتابه الجامع لأحكام القرآن فى هذا الموضع ما نصُّه [1]: « اختلف العلماء فى المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة ،(منها أن) . . . المحكمات من آى القرآن ما عرف تأويله وفُهم معناه وتفسيره . والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه . . . وذلك مثل وقت قيام الساعة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، والدجال، وعيسى، ونحو الحروف المقطعة فى أوائل السور[2]. قلت : هذا أحسنُ ماقيل فى المتشابه . » إلى غير ذلك من الأقوال [3].

وعندما أخبرنا الله تعالى عن القرآن كله بأنه محكم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ [4] فإن هذا الإخبار لا يعارض قوله ﴿منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ لأن الإخبار بالإحكام فى الآية الأولى معناه كما يقول القرطبى أيضا : إحكامٌ «فى النظم والرصف وأنه حق من عند الله » . ومعنى ﴿كتابا متشابها﴾[5] التى وردت فى موضع آخر من القرآن أى يشبه بعضه بعضا ، ويصدق بعضه بعضا ، فهى لا تتعارض أبدا مع قول الله ﴿ وأخر متشابهات﴾

ولزائغى العقيدة فى اتباع ماتشابه منه أسلوب متميز من التشكيك فى هذا الكتاب العزيز ؛ فمنهم من شكك فى بعض آياته بسبب عدم نقطه وشكله ، يريد أن يحرف الكلم عن مواضعه كما حدث فى التوراة والإنجيل ، ومنهم من قال باختلاف بعض كلماته ، وما علم أنه اختلاف تنوع وتغاير لا اختلاف تناقض وتضاد، ولكنهم لم يحققوا مأربهم لسبق عناية الله بكتابه وحفظه له .

﴿والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذّكر إلا أولو الألباب﴾ .

فالله سبحانه وتعالى يبين لعباده موقف الراسخين فى العلم من المتشابه من الآيات ليكونوا مصابيح هداية لهم. إنهم يقولون ﴿ آمنا به﴾ أى بالمتشابه ﴿كل من عند

---

(١) تفسير القرطبى : ٤/ ٩ . (٢) وهو قول : جابر بن عبد الله ومقتضى قول الشعبى وسفيان الثورى وغيرهما .
(٣) انظر : تفسير القرطبى : ٤ / ٩ـ ١٠ . (٤) هود : ١ .
(٥) الزمر : ٢٣ ، وانظر : القرطبى ٤ ـ ١٠ .

ربنا ﴾ القرآن كله ، محكمه ومتشابهه ، من عند ربنا حق وصدق وكلام الله لا يتناقض ولذلك قال ربنا ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ [1] أى إنما يعقل ويفهم عن الله ، ويتدبر المعانى على وجهها ذوو العقول السليمة والفهوم المستقيمة . فهم يؤمنون به كله ويقفون حيث وقف ويكلون علم ما جهلوه إلى الله تعالى .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ ٨

الراسخون فى العلم ، الصادقون ، المصدقون بالله وبكلماته ، يخافون على أنفسهم أن تزيغ قلوبهم عن الهدى بعد أن هداهم الله ، ولذلك : يدعون ربهم فى تواضع وانكسار وخوفٍ ووجل بهذا الدعاء راجين أن يثبت الله به قلوبهم ويجمع به شملهم ويزيدهم به إيمانا ويقينا .

لذا ينبغى للمسلم أن ينهج نهج الراسخين فى العلم ، ويتخذهم قدوة فى موقفهم من المتشابه ، وفى خوفهم على أنفسهم أن تزيغ قلوبهم ، فيتضرع إلى الله دائمًا ، قائلا ، مثلما يقولون :

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ ٩

هذا من تتمة دعاء الراسخين فى العلم وذلك بعد أن دعوا ربهم أن يصونهم من الزيغ عن الهوى بعد أن تفضل الله سبحانه بهدايتهم، إذْ ليس الغرض من هذا الدعاء : ما يتعلق بمصالح الدنيا فإنها زائلة ، وإنما الغرض الأعظم ما يتعلق بالآخرة ، فإنها المقصد والمآب. يقولون فى دعائهم : إنك ياربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم، وتفصل بينهم، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه وتجزى كلا بعمله وماكان عليه فى الدنيا من خير وشر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ ١٠

يقرر الحق سبحانه أن الذين كفروا بطوائفهم كلها على ما سبق تفصيلهم فى الآية الرابعة فى هذه السورة ﴿ لن تغنى عنهم أموالهم ﴾ التى يجلبون بها المنافع لأنفسهم ،

---

(١) الرعد : ١٩ .

والتى كانوا ينفقونها فى محاربة دين الله ، وليصدوا عن سبيل الله ﴿ولا أولادهم﴾ الذين كانوا يتناصرون بهم فى الدنيا ﴿ من الله شيئًا ﴾ أى من عذاب الله تعالى شيئًا . وهم حطب جهنم الذى توقد به .

﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ [(١)] ويقول تعالى أيضا ﴿ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ [(٢)].

هذا مصير الذين كفروا وكذبوا رسله ، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه ، بل جعلوا لحياتهم منهجا غير منهج الله وكانوا يضعون العقبات أمام دعوة الله حتى لا تصل نقية كما أنزلها الله إلى خلق الله . هذا حالهم يوم القيامة . اللهم إنا نعوذ بك من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾

إن موقف المعادين للرسل واحد لا يختلف . فدأب المعادين لسيدنا محمد ـ ﷺ ـ ، بدءا من كفار مكة إلـى قيام الساعة ، كدأب آل فرعون تظاهروا على موسى ـ عليه السلام ـ ، وادعى فرعون الألوهية ودعا الناس إلى عبادته من دون الله إلى آخر ما فعل . ﴿والذين من قبلهم ﴾ من الأمم الكافرة ﴿ كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴾ هذا وعيد وتهديد لمن يقف من دعوة رسول الله ـ ﷺ ـ موقف المكابر المعاند المحارب . وهو وعيد وتهديد لمن لا يتجاوب مع الحق الذى جاء به محمد ـ ﷺ ـ . فكما فعل الله ما فعل بالأمم السابقة على ما فصلته آية (العنكبوت) [(٣)]. فإن الله ـ القوى الجبار المنتقم ـ يوشك أن ينزل بمن تشابهت مواقفهم من دعوة خاتم المرسلين ، من عناد وجحود وإعراض ومحاربة ، مثل ما أنزل على كفار الأمم السابقة .

يقول ابن كثير فى هذا الشأن : « إن الكافرين لا تغنى عنهم الأموال ولا الأولاد ، بل يهلكون ويعذبون ، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاءوا به من آيات الله وحججه » [(٤)].

---

(١) غافر : ٥٢ . (٢) التوبة : ٨٥ .

(٣) وهى قوله تعالى ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ آية ـ ٤٠ .

(٤) تفسير ابن كثير : ١ ـ ٣٤٩ .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ ١٢

قل يامحمد للكافرين ﴿ ستغلبون ﴾ أى فى الدنيا ، ﴿ وتحشرون ﴾ أى يوم القيامة ﴿إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ . فيا من تكفرون برسول الله - ﷺ - ، ويا من تعارضون وتحاربون دعوة الله ، آمنوا خيرا لكم من قبل أن يحقق الله فيكم وعيده ، فلن تغنى عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئًا وخذوا العبرة من أسلافكم ، كيف فعل الله بهم ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ [١] . ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ [٢].

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ ١٣

فى موقعة بدر الكبرى انتصر المسلمون على الكفار ، وكانت معركة غير متكافئة من ناحية العدد فى الطرفين إذ إن عدد جيش المسلمين كان قليلاً جدًا، رجالاً وعتادًا وأسلحة ، إذا قارنا ذلك بالمشركين .

وهذا النصر الإسلامى : يضربه الله مثلاً وعبرة للماديين ، المغترين بقوتهم وعتادهم، الظانين أنهم يستطيعون استئصال شأفة هذا الدين .

وفى الآية : تقوية لمعنويات المسلمين على مدار التاريخ . فإن الله ناصرهم ، إن عاجلا أو آجلا ، ما دافعوا عن دين الله وفى سبيل الله ، مهما قلّ عددهم ، بشرط أن يكون جهادهم فى سبيل إعلاء دين الله وحده .

﴿ قد كان لكم﴾ أيها المشركون كافة واليهود خاصة ﴿ آية ﴾ عبرة وعظة ودرس لاينسى على أن الله ناصر دينه مهما تعاونتم وتآمرتم على هذا الدين ﴿ فى فئتين التقتا﴾ فئة مؤمنة، هم المسلمون بقيادة رسول الله - ﷺ - فى غزوة بدر ، وفئة كافرة بقيادة أبى جهل، ﴿ فئة تقاتل فى سبيل الله ﴾ وهى الفئة المؤمنة ﴿ وأخرى كافرة ﴾ تقاتل فى سبيل الطاغوت ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت﴾[٣]. ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ أى يرى المشركون المسلمين ضعف

---

(١) النور : ٤٤ . (٢) ق : ٣٧ . (٣) النساء : ٧٦.

عددهم قذفا للرعب فى قلوبهم حتى يرهبوهم ويجبنوا عن قتالهم، وهذا مدد من الله تعالى. ﴿ إن فى ذلك لعبرة ﴾ لمن له بصيرة وفهم ليهتدى به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجارى بنصر عباده المؤمنين فى هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . .

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾

يبين الله سبحانه وتعالى حقيقة الدنيا فى هذه الآية وأنها لا تنفع أصحابها الذين يدورون فى فلكها، بعد أن ذكر ذلك فى آية سابقة .

ولله حكمة بالغة فى تزيين هذه الشهوات لكل الناس ؛ فمن أخذها بحقها ، وابتغى بها الدار الآخرة ، فله عند الله حسن المآب .

ومن أخذها بغير حقها ، وعاش لأجلها ، وألهته عن آخرته ، فسيكون وقودًا لجهنم .

فمن آمن بالله ورسوله وسار على منهجه يعرف حقيقة هذه الشهوات كلها ، ويعلم أن فى تزينها للناس فتنة لهم ولن ينجو من غوائلها إلا إذا عرف حق الله وقام به فى هذه الأشياء كلها ، ولم ينشغل بها عن آخرته .

وهذه الشهوات : تارة تكون فتنة ، وتارة تكون نعمة على صاحبها .

والنساء : أول من قُدِّم فى الذكر ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ « ما تركت بعدى فتنة أضرَّ على الرجال من النساء » (١) .

إذ إن المرأة التى بعدت عن الإسلام : هى الفتنة الكبرى على الأمة فى كل أمورها ، فى خروجها فتنة ، وعلى زوجها فتنة ، وعلى أبنائها فتنة .

وإذا لم تفق الأمة من غفلتها عن نسائها ، فلا يقومون بتربيتهن على منهج : فإنه بداية الدمار ، وقد أخرج الإمام مسلم فى صحيحه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » (٢) .

---

(١) رواه : البخارى كتاب النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأة ـ واللفظ له ـ وكذا : مسلم فى صحيحه ، والإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى والنسائى فى سننهما .

(٢) كتاب الذكر باب أكثر أهل الجنة . . إلخ .

وعليه : إذا صلحت المرأة : فلا يكون الأولاد فتنة ، ولن يكون المال فتنة ، ولا يكون أى شىء من شهوات الدنيا فتنة على صاحبه ، لأن المرأة الصالحة عماد البيت المسلم ، وهى التى تربى أبناءها على الإسلام ، فكيف تأتى الفتنة منهم وهم عناصر صالحة فى المجتمع لا معاول هدم ، وستكون وزيرا لزوجها مخلصا إذا خرج إلى عمله تذكره : « اتق الله ولا تأكل حراما فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نصبر على النار يوم القيامة » .

إن صلاح المرأة صلاح للمجتمع كله ، فليعتبر أصحاب العقول الراشدة هذه القضية وليعلموا من أين يأتى البناء ومن أين يأتى الهدم .

ثم . . حب البنين .

يقول ابن كثير « وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينه ، فهو داخل فى هذا . وتارة يكون لتكثير النسل ، وتكثير أمة محمد ـ ﷺ ـ ممن يعبد الله وحده لا شريك له ، فهذا محمود ممدوح »(١) .

﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

بعد ما ذكر الله عز وجل عاقبة من نجا من شهوات الدنيا ونعمها ، واستعملها فيما يرضيه سبحانه ، بأن لهم عنده حسن المآب : ذكر عزَّ وجل بعض ما أعده الله لهؤلاء العباد الصالحين .

يقول الحق تبارك وتعالى لنبيه ـ ﷺ ـ ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ أؤنبئكم بخير من ﴾ الشهوات المزينة للناس فى الدنيا ؟ ﴿ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ . يقول ابن كثير « أى تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار ، من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(٢) . ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ أى من الدنس والفحش ومن كل عيب خُلُقى أو خِلْقى وفوق هذا كله ﴿ ورضوان من الله ﴾ وذلك بالتزامهم بشريعة الله فى حياتهم . ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أى يعطى كلا بحسب مايستحقه من العطاء .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٣٥١ .
(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٢ .

ثم فصَّل الله عزّ وجل فى وصف هؤلاء المتقين الذين استحقوا من الله تعالى هذا الثواب الجزيل برحمته وفضله ، فقال جلَّ شأنه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ ﴾

إنهم المؤمنون بالله ، وبكل ما أنزل من كتب ، وما أرسل من رسل ، إيمانا راسخا ، فهم يتوسلون إلى الله سبحانه بهذا الإيمان أن يغفر لهم ذنوبهم ، ويقيهم عذاب النار ، الذى كانوا يحذرونه بأعمالهم الصالحة فى الدنيا .

يذكر القرطبى أنه اختلف فى معنى قوله تعالى ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ فقال أنس ابن مالك : هم السائلون المغفرة .وقال قتادة : المصلون . ثم يقول القرطبى « ولا تناقض فإنهم يصلون ويستغفرون » [(١)] .

قال الحاكم : فى الآية دلالة على أنه يجوز للداعى أن يذكر طاعاته وما تقرب به إلى الله ثم يدعو ، ويؤيده ما ورد فى الصحيحين من حديث الثلاثة الذين التجئوا إلى غار فوقعت على باب الغار صخرة فسدَّت عليهم الباب فتوسل كل واحد منهم بشىء من صالح عمله[(٢)] .

إن هؤلاء المؤمنين الذين يفوزون بنعيم الله الخالد:هم من برهنت أعمالهم على إيمانهم .

روى البخارى عن النبى ـ ﷺ ـ قال : سيد الاستغفار أن تقول « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء لك بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . قال : من قالها بالنهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة . ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة »[(٣)].

---

(١) القرطبى : ٤/ ٣٨ .

(٢) انظر : القصة فى صحيح البخارى كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار .

(٣) كتاب الدعوات باب لكل نبى دعوة مستجابة .

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

شهد الله تعالى ـ وكفى به شهيدًا ﴿ أنه لا إله إلا هو ﴾ أى المنفرد بالألوهية لكل المخلوقات ﴿ والملائكة ﴾ المقربون ﴿وأولوا العلم ﴾ يقول ابن كثير : « وهذه خصوصية عظيمة للعلماء فى هذا المقام »[1] . ﴿ قائما بالقسط ﴾ أى قائما بين خلقه بالعدل التام من أحكامه ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾[2] .

إنها أكبر قضية وهى قضية الوحدانية . ولعظيم شأنها شهد الله عليها والملائكة وأولو العلم . إنها القضية التى جاءت الكتب السماوية كلها لتقررها وتؤكدها للناس .

إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

إن دين الله واحد ، وقد بعث الله به جميع أنبيائه . ولا يقبل الله من البشر دينا غير الإسلام : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾[3] .

فهذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ .[4]

وهذا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾[5].

وهذا يعقوب ـ عليه السلام ـ يوصى أبناءه ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[6].

وهذا موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[7] ـ ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا . . ﴾[8].

وهذا يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين ﴾[9].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٣ . (٢) النساء : ٤٠ . (٣) آل عمران : ٨٥.
(٤) يونس : ٧٢ . (٥) البقرة : ١٢٨ . (٦) البقرة : ١٣٢ .
(٧) يونس : ٨٤ . (٨) المائدة : ٤٤ . (٩) يوسف : ١٠١ .

وهؤلاء سحرة فرعون وقد آمنوا بموسى ـ عليه السلام يقولون ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ (١).

وهذه ملكة سبأ وقد آمنت بسليمان ـ عليه السلام ـ ﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ (٢).

وكل هذه دلائل واضحة على أن الدين الذى تعبد الله به البشرية من يوم هبوط آدم إلى الأرض إلى قيام الساعة هو الإسلام .

يقول الإمام القرطبى « الدين فى هذا الآية : الطاعة والملة ، والإسلام بمعنى : الإيمان والطاعات» (٣).

والإسلام : ليس فقط مجرد دعوى تدعى ، وليس مجرد كلمة تقال باللسان ، ولا حتى تصورا فى القلب ، وليس شعائر فردية يؤديها الأفراد فى صلاة وحج وصيام ، وليس إقرارًا فى الدساتير بأنه هو الدين الرسمى .

إنما الإسلام : هو الاستسلام .

فالإسلام : هو الطاعة والانقياد لله ورسوله ، وهو تحكيم شريعة الله فى العباد ، وهو منهج يقوِّم حياة الناس .

هذا هو الإسلام الذى بُعث به الرسل . .

وما اختلف أهل الكتاب فى عقيدة الإسلام ، من توحيد الألوهية ، وإفراد الله وحده بالانقياد له والطاعة له ـ عن جهل منهم بالحق ، ولكن اختلفوا عن علم .

وهذا تشنيع فظيع من الله عليهم ﴿ بغيا بينهم ﴾ حسدا وحقدا . فقد أخبر الله عنهم بأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .

ثم يهددهم الله تعالى بسرعة حسابهم إذا استمروا على عنادهم وكفرهم .

فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

---

(١) الأعراف : ١٢٦ . (٢) النمل : ٤٤ . (٣) القرطبى جـ ٤ ص ٤٣ .

فإن جادلوك فى التوحيد يا محمد بعد أن أقمت عليهم الحجة واضحة جلية ، فاجعل جوابك عليهم ، أسلمت نفسى لأوامره وآياته ، وأخلصت لطاعته وحده لاشريك له ، ومن اتبعنى كذلك .

﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا و إن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ والله عليه حسابهم وإليه مرجعهم ومآبهم جميعًا . وهو الذى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة . ولهذا قال الله تعالى ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أى هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة ، وهو الذى ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون﴾[1] وما ذلك إلا لحكمته ورحمته كما يقول ابن كثير[2] .

وهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دلّ عليه الكتاب والسنة فى غير ما آية وحديث . فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا ﴾[3] - ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ [4] .

والهداية تتمثل فى صورة واحدة ، هى صورة الإسلام الذى أنت عليه ومن اتبعك .

وهذه الآية كذلك - مع غيرها - أبلغ رد على دعوى عدم عموم رسالته - ﷺ - التى يقوم بحمل لوائها بين حين وآخر أفراد لا يرجون لهذا الدين أن تشرق شمسه على العالم ، ويريدون أن يصيبوا الإسلام فى مقتل ، ويلصقوا به تهمة القصور . وهيهات هيهات أن يصل هؤلاء الأفاكون إلى غرضهم ، والله من ورائهم محيط ، وإن ربك لبالمرصاد .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾

فى هذه الآية يعرض الله سبحانه وتعالى موقف الكافرين بالله وآياته من الأنبياء ومن الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بين الناس .

إذْ إن هؤلاء الكفار لم يقتلوا أفرادا من الناس ولكنهم يقتلون صفوة الخلق لأنهم يريدون أن يعلو باطلُهم وكفرهم ، ويظهر فى الأرض ، ولكن هدْى الأنبياء يبدد هذه الآمال ، ودعوة الأنبياء تزهق باطلهم .

(١) الأنبياء : ٢٣ .
(٢) تفسير ابن كثير : ١/ ٣٥٤
(٣) الأعراف : ١٥٨ .
(٤) الفرقان : ١ .

إن مواقف الكفار من دعوة الله واحدة على مر الزمان : إنهم لا يواجهون الحجة بالحجة ، ولكن يواجهون الحجة بالعنف ، وبالقتل وبالتعذيب ، وبالتشريد لأصحاب الدعوات الربانية .

والمستقرئ لمواقف الطغاة مع الأنبياء فى كتاب الله يرى ذلك واضحًا :

فهذاموقف نوح ـ عليه السلام ـ منه ، إذ قالوا له ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ (١) وهذا موقف أبى إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، يقول له ﴿ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليًا ﴾ . (٢) وهذا موقف قومه منه : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرّقوه ﴾ . (٣) وهذا موقف أهل مدين من شعيب ـ عليه السلام ـ ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ (٤) .

وهذا موقف فرعون من موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ﴾ (٥) وهذا موقف الكافرين من أصحاب الكهف : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ﴾ (٦) .

وهؤلاء كفار مكة يمكرون برسول ـ ﷺ ـ : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ﴾ (٧) .

ولخصّ الله مواقف الكافرين من رسلهم فى آية واحدة فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودنَّ فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين﴾(٨) .

إنها سياسة واحدة ، فى القديم والحديث ، للذين يكفرون بآيات الله ، من دعوة الرسل ، كما ذكرت الآيات .

إن الصراع قائم إلى قيام الساعة ، ما دام على الأرض حق يجاهد فى سبيله مسلمون ، ومادام هناك باطل له سدنة يحمونه ويحرسونه ويحاربون فى سبيله .

وما تزال هناك أساليب من تضليل الناس ومحاربة أهل الحق قائمة فى عصرنا الحديث، إذ تعلق المشانق فى بلاد المسلمين بين الحين والحين ، وتفتح السجون

(١) الشعراء : ١١٦ . (٢) مريم : ٤٦ . (٣) العنكبوت : ٢٤ .
(٤) الأعراف : ٨٨ . (٥) سورة غافر: ٢٦ . (٦) سورة الكهف : ٢٠ .
(٧) سورة الأنفال : ٣٠ . (٨) سورة إبراهيم : ١٣ .

للمسلمين ـ وللمسلمين ﴿ الذين يأمرون بالقسط ﴾ فقط ـ يسامون فيها أشد العذاب .

﴿ ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار* مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾ (1).

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

الذين يحاربون أهل الحق ويضيقون عليهم ، ويحاربون الفضيلة وأهلها ؛ هؤلاء بطلت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، فخسروا دنياهم وأخراهم ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ فى الآخرة ، بعد أن كان لهم من ينصرهم ورهن إشارتهم فى الدنيا ، ينفذون أوامرهم فى فتنة المسلمين ،عن دينهم ، وفى سجن علماء المسلمين وتعذيبهم . أين هم وقت احتياجهم إليهم ؟ هل ينفعونهم ؟ هل يحملون عنهم قسطا من العذاب ؟ كلا !! . ﴿وإنْ تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾ (2).

سيتبرأ بعضهم من بعض : الحاكم والمحكوم ، والتابع والمتبوع ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوُا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أنّ لنا كرَّةً فنتبرأ منهم كما تبرءوا منّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ (3).

أما أنتم يأهل الحق فكفاكم فخرا ما تلاقونه فى سبيل الله ، وسبيل مرضاته ، وأن طريقكم الذى تسيرون عليه هو طريق رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . واعلموا أن فى ذلك تمحيصا لإيمانكم ، وهذه سنة الله فى المؤمنين اقرءوا قول الله تعالى :

---

(1) إبراهيم : ٤٢ـ٤٧ .   (2) فاطر : ١٨ .   (3) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧ .

سورة آل عمران

﴿ الـم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ [٣].

ولكم فى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أسوة حسنة ، ولكم فى أصحاب الأخدود أسوة حسنة ، ولكم فى أتباع عيسى ـ عليه السلام ـ أسوة حسنة ، ولكم فى بلال وآل ياسر وصهيب وغيرهم وغيرهم على طريق الإسلام قبلكم أسوة حسنة . أما أعداؤكم !! أما من يحاربونكم !! فكفاهم خزيا وذلة أن قدوتهم فيما يقومون به : هم أعداء الرسالات على مر العصور .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

إنه سؤال للتعجب والتشهير من المواقف المتناقضة لأهل الكتاب .

اليهود : أوتوا التوراة ، وهو نصيب من الكتاب .

والنصارى : أوتوا الإنجيل ، وهو نصيب من الكتاب .

كلٌّ يدعى الإيمان بالكتاب الذى عنده ، وإذا دعوا إلى تحكيم كتاب الله الذى بأيديهم من إيمان بمحمد ـ ﷺ ـ : ﴿يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾ ، ويؤمن فريق آخر.

يقول ابن كثير: ينكر الله تعالى «على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم ، وهما التوراة والإنجيل إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهمامن اتباع محمد ـ ﷺ ـ تولوا وهم معرضون عنهما . وهذا فى غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد » [١].

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

إنهم ليسوا صادقين فى إيمانهم بلقاء الله . ومن أين علموا أن النار لن تمسهم بذنوبهم إلا أياما معدودات ؟ إنهم هم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم ، واختلفوا ، ولم ينزل الله به سلطانا . ومن أين يأتيهم صدق الإيمان وهم يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون ؟!

---

(١) العنكبوت : ١ ـ ٣.   (٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٥ .

ولا يجتمع - فى قلب واحد - إيمان بالآخرة وخوف من الله ، مع الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله فى كل شئون الحياة .

هذه هى عقيدتهم باليوم الآخر ، وهذا ما جرأهم على الإعراض عن دعوة من يدعوهم إلى كتاب الله ليحكم بينهم وهذا فضح من الله لا فتراءاتهم . فهل نتعظ ؟!!!

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

فكيف إذا جمعهم الله هم ومن سار على طريقهم ، بل الناس جميعا ﴿ ليوم لا ريب فيه ﴾ ويجرى العدل الإلهى مجراه ، ويحاسبون عن كل ما فعلوه ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت ﴾ بلا ظلم ولا محاباة ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ ؟

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

يقرر الحق تبارك وتعالى درسًا للرسول - ﷺ - ولكل مسلم صادق يفيد : أنَّ مُدَبِّر الكون وما فيه ومن فيه ، ومالكه الحقيقى : هو الله وحده لا شريك له .

فأنت وحدك يا ألله الذى بيدك الملك كله ، فتؤتيه من تشاء ، وتنزعه ممن تشاء ، اختبارا منك ، وابتلاءً لخلقك . فلا يظنَّنَّ جبار من جبابرة الأرض : أن ملكه لا يزول ، ولا يظنَّنَّ محارب لله وهدْيه : أنه سيخلد فى الدنيا .

إن الناس : يختبرون بالملك ، ويختبرون بنزعه ، فإن سار الإنسان على هدْى ربه فيما ملك ، وخاف مقام ربه : فله العزّة فى الدنيا والآخرة . ومن تجبر على خلق الله بملكه ، ولم يرفق بهم ، وافترى ، وظلم ، وبغى : ينزع الله تعالى منه الملك ، إما : بموته ، وإما بخلعه هو منه . إذْ هو على كل شىء قديرا !

﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ﴾ فى الآية : تصوير جميل بديع ، عندما يجلس الإنسان وقت الغروب ، ويشاهد الليل ينسدل ، والنهار ينسحب ببطء

وئيد ، ويرى إقبال الليل بالتدريج ، ثم يأتى الليل كله ويمشى ويأتى النهار كذلك فى هدوء . .

بلا ضجة وبلا ارتجاف تكون نهاية النهار أو نهاية الليل. إنها القدرة المبدعة سبحانك تجلت قدرتك وتعالت عظمتك. وكما تسير حركة الليل والنهار فى هدوء وتدرج : فكذلك حركة الحياة والموت تسير فى بطء وتدرج .

يقول ابن كثير « وقوله تعالى ﴿ وتخرج الحى من الميّت وتخرج الميّت من الحى﴾ أى : تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وماجرى هذا المجرى من جميع الأشياء . » (١)

هذا . . وإن المالك الحقيقى للكون وما فيه : هو الله وحده ، وإن المعطى والمانع : هو الله وحده ، فأنّى يحاول البشر المفتونون بعقولهم أن ينعزلوا بتدبير شئونهم عن المالك الأوحد ، عن اللطيف المدبر ؟!!

كيف يختارون لأنفسهم أنظمة من صنع عقولهم القاصرة ، وما هم إلا خلق من خلق الله فى هذا الكون الفسيح ، فأنى يصرفون ؟!!

إنها حكمة الله فى أن يرزق من يشاء بغير حساب ، مع إعراض بعضهم أحيانا عن المنهج والطاعة .

لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

إنها قضية من أهم القضايا فى حياة المسلمين، (قضية الولاء) لمن يعطيه المسلم ؟ وعمن يحجبه ؟

وهذه القضية ، لأهميتها وخطورتها ، تولى الله عزّ وجل بيانها ، وتوضيح معالمها فى أكثر من آية ، وجاءت أحاديث وفيرة من السنة الصحيحة تزيد هذا الأمر توضيحا وبيانا .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٦.

إنها قضية يجب أن تأخذ حيزها فى حياتنا ، إذ إن ولاء المؤمنين لا يكون إلا للمؤمنين لا غير .

وقد جاءت آيات أخرى بتهديدات تدور فى هذا المعنى﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ (١). ﴿**لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حاد الله ورسوله**﴾ (٢) .

هذه الآية : تخبر أن الإيمان الحقيقى وهو الإيمان الصادق بالله واليوم الآخر يتنافى مع مودة الكافرين .

وكيف يكون هناك ولاء من المؤمنين للكافرين وحالهم على مر الأجيال والأزمان كما أخبر الله عنهم ؟

ويقول ابن كثير (٣) فى بيان الاستثناء المذكور فى الآية : « أى إلا من خاف فى بعض البلدان والأوقات من شرهم ، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما قال البخارى عن أبى الدرداء أنه قال : إنا لنكشر فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم . وقال الثورى : قال ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان . ويؤيده قول الله تعالى ﴿**من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان**﴾ (٤). . . الآية . ثم قال تعالى ﴿**ويحذركم الله نفسه**﴾ أى : يحذركم نقمته فى مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ثم قال تعالى : ﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ أى : إليه المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله » . (٥)

وسبب نزول هذه الآية ـ فيما يذكر الإمامان القرطبى والرازى ـ هو أن عبادة بن الصامت الأنصارى « كان له حلف من اليهود؛ فلما خرج النبى ـ ﷺ ـ يوم الأحزاب قال عبادة : يا نبى الله : إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدوّ . فأنزل الله هذه الآية » (٦).

ولا يظنن ظان : أن الإسلام يمنع المسلم أن يعامل بالحسنى من لا يحاربه فى دينه من أهل الكتاب . كلا . فالله عزّ وجلّ يقول : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إنّ الله يحب المقسطين**﴾ (٧).

(١) المائدة : ٥١ — (٢) المجادلة : ٢٢ . — (٣) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٧ .
(٤) النحل : ١٠٦ — (٥) تفسير ابن كثير : ١ ـ ٣٥٧ . — (٦) تفسير القرطبى : ٤ / ٥٨ .
(٧) سورة الممتحنة : ٨ .

ولكن التعامل بالحسنى شيء والولاء شيء آخر وشتان بين الأمرين .

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ٢٩

يعلم الله تعالى السرائر والضمائر والظواهر ، ولايخفى عليه خافية فى سائر الأحوال والأزمان والأماكن ، وقدرته نافذة فى جميع ذلك . وهذا تنبيه من الله تعالى لعباده على خوفه وخشيته .

إن المسلم حينما يستشعر اطلاع الله سبحانه وتعالى على ما تكنه نفسه وعلى ما يضمره فى داخله : سيراقب الله ـ حتما ـ ويخشاه .

إنه حينئذٍ يعيش فى معية الله ، يلاحظ ببصيرته عين الله على قلبه ، فكيف يتخفى عن أعين الناس ويغفل عن رؤية الله له ؟

إننا فى حاجة إلى إيقاظ هذا الفهم فى قلوبنا . ويوم أن يستيقظ هذا الفهم فى القلوب ستترفع النفس عن الاهتمام برؤية الناس واطلاعهم ، وتسمو فى علياء ملكوت الله تعالى . يوم أن تحيا هذه المعانى فى القلوب سيراقب الرجل ربَّه فى كل حركاته وفى كل أقواله وأعماله .

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ ٣٠

«هذه الآية من باب : الترغيب والترهيب ، ومن تمام الكلام الذى تقدم » (١).

إذْ «يوم القيامة (٢) يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر ، كما قال تعالى : ﴿ يُنبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخرّ ﴾ (٣)، فما رأى من أعماله حسنا سرّه ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصه ، وودّ لو أنه تبرأ منه ، وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول لشيطانه الذى كان مقرونا به فى الدنيا وهو الذى جرّأه على فعل السوء : ﴿يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ (٤)» .

فالآية : تنقل الإنسان من عالمه الدنيوى إلى عالم الآخرة .

(١) تفسير الرازى : ٢ / ٤٣١ .
(٢) ابن كثير : ١ / ٣٥٧ .
(٣) القيامة : ١٣ .
(٤) الزخرف : ٣٨ .

وبعد توضيح هذه الحقائق : يأتى التحذير ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى يخوفكم عقابه فليحذر العاقل عذاب الله وغضبه .﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ . ومن رأفته بنا أن بلغنا بهذه الحقائق الغيبية ومن رحمته بنا هذا التحذير .

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ٣١

يقول ابن كثير : « هذه الآية الكريمة » حاكمة على كل من ادّعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية : فإنه كاذب على دعواه فى نفس الأمر ، حتى يتبع الشرع المحمدى والدين النبوى ، فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ » (١). . . وقال الحسن البصرى وغيره من السلف : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية (٢).

إنه سبحانه وتعالى يأمر رسوله أن يبلغ البشرية كلها والمسلمين خاصة بأن برهان محبة الله الصادقة : هو فى اتباع خاتم رسله محمد ـ ﷺ ـ ، وفى الإيمان به ، وفى الدخول فى دينه (الإسلام) ثم فى اتخاذه قدوة فى كل شأن من شئون الحياة . وجزاء هؤلاء من جنس العمل ﴿ يحببكم الله ﴾ وليس هذا فحسب بل كذلك ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ٣٢

المطلوب من البشرية كلها والمسلمين خاصة أن يفرغوا قلوبهم من الأغيار حتى لا يكون فيها غير حب الله ورسوله .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ٣٣ ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ٣٤

---

(١) رواه البخارى ـ عن عائشة ـ كتاب « الصلح » ، باب « إذا اصطلحوا على صلح جور . . إلخ» .
(٢) تفسير ابن كثير ١ ـ ٣٥٨ ومسلم فى صحيحه والإمام أحمد فى المسند.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بيان من الله سبحانه وتعالى بأنه جلت قدرته وحكمته : يصطفى من عباده من يشاء ، لحمل رسالته إلى خلقه ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾ (١) كما اصطفى (آل عمران) على عالمى زمانهم .

وقد خصّ الله عزّ وجلّ هؤلاء الأنبياء بالذكر ، دون غيرهم من الأنبياء ، لأن الأنبياء والرسل جميعا من نسلهم . وآل عمران تفرع منهم أنبياء بنى إسرائيل جميعهم هذه الذرية الطاهرة بعضها من بعض فى وراثة الاصطفاء ليبلغوا دعوة الله إلى الناس ، كلّ فى امته وفى عصره .

إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

يقول ابن كثير « امرأة عمران هذه هى أم مريم عليها السلام ، وهى حنة بنت فاقوذ. قال محمد بن إسحاق : وكانت امرأة لا تحمل فرأت يوما طائرا يزق فرخه ، فاشتهت الولد ، فدعت الله تعالى أن يهبها ولدا فاستجاب الله دعاءها فواقعها زوجها فحملت منه ، فلما تحققت الحمل نذرت أن يكون محررًا ، أى خالصا مفرغا للعبادة لخدمة بيت المقدس (٢) . »

ولم تكن رضى الله عنها تعلم ما فى بطنها أذكرًا كان أم أنثى .

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

هو سبحانه الذى خلقها فى رحمها واختارها أنثى لحكمته ، ليجعلها وابنها آية للعالمين ، وهى غافلة عن ذلك .

ثم تدعو الله عزّ وجل أن يجيرها وذريتها من الشيطان الرجيم ، فاستجاب الله دعاءها .

---

(١) الحج : ٧٥ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ١ / ٣٥٩ .

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا
زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ
ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

يخبر المولى عزّ وجل أنه تقبلها من أمها بقبول حسن ، جعلها فوق كثير من الأولياء ، ﴿وأنبتها نباتًا حسنًا﴾ فكانت ـ رضى الله عنها ـ تنمو نموا حسنا ، وجعل ابنها من أولى العزم من الرسل ﴿ وكفّلها زكريا ﴾ أى جعله كافلا لها يقوم على رعاية مصالحها ، وكان زكريا زوج خالتها .

هذا . .

وكانت السيدة مريم ـ عليها السلام ـ وهى فى كفالة زكريا ـ عليه السلام ـ تعيش وتتعبد فى حجرة لا يدخل عليها فيها أحد إلا زكريا ـ عليه السلام .

فقد انقطعت عن الدنيا لتعيش مع الله ، وفى ملكوت الله تسبح بروحها وبكيانها كله مع الله سبحانه وتعالى . إنها محررة من كل شواغل الدنيا فلا عجب أن يأتيها رزقها من عند الله بعيدا عن حواجز الزمان ، وهى كرامة من الله عزّ وجلّ لها ، فهى لم تكن معجزة لأنها لم تكن من الأنبياء . فإذا رأى زكريا هذا عندها ، تساءل : من أين لك هذا الطعام يا مريم وهو ليس موجودا فى مثل هذه الأوقات ؟﴿ **قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ وهكذا يفعل الله بأوليائه .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ
ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾

لما عاين زكريا ـ عليه السلام ـ ما يجريه الله تعالى من رزق كريم لمريم فى غير زمانه ، وهو شيخ كبير وهن منه العظم ، واشتعل رأسه شيبا ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا ، طمع حينئذ فى الولد وسأل ربّه وناداه نداءً خفيا ، و﴿ **قال ربّ هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء** ﴾ فكانت الاستجابة التى لا تتقيد بسن ولا تتقيد بمألوف الناس .

فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا
بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

يقول صاحب الظلال : « لقد استجيبت الدعوة المنطلقة من القلب الطاهر ، الذى علق رجاءه بمن يسمع الدعاء ، ويملك الإجابة حين يشاء ، وبشرت الملائكة زكريا بمولود ذكر ، اسمه معروف قبل مولده ،(يحيى) ،وصفته معروفة كذلك : سيدا كريما، وحصورا يحصر نفسه عن الشهوات ، ويملك زمام نزعاته من الانفلات ، ومؤمنا مصدقا بكلمة تأتيه من الله تعالى ، ونبيا صالحا فى موكب الصالحين .

«لقد استجيبت الدعوة ولم يَحُل دونها مألوف البشر الذى يحسبونه قانونا ، ثم يحسبون أن مشيئة الله سبحانه مقيدة بهذا القانون [1] . »

إننا فى حياتنا المعاصرة كثيرا ما نرى أفرادًا استمرت حياتهم الزوجية عشرين سنة وثلاثين سنة بلا إنجاب ، ثم يشاء العلى القدير أن يرزقهم من فضله سبحانه . . !!

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾

ولنا أن نتساءل : هل أراد زكريا واشتاق أن يعرف من ربه سبحانه كيف تقع هذه الخارقة بالقياس إلى مألوف البشر ؟

إذْ تأتى الإجابة من الله سهلة يسيرة بأن الأمر كله لله بلا صعوبة وبلا عسر ، إنها قدرة الله ومشيئته ، وهذه سنة الله تسير فى إطاره .

ولدهشة المفاجأة التى انتابت زكريا ـ عليه السلام ـ طلب من الله آية على هذه البشرى ولشدة لهفته على تحقيقها :

قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾

إن الله سبحانه وتعالى يوجه زكريا ـ عليه السلام ـ إلى طريق الاطمئنان الحقيقى فيخرجه عن مألوفه فى ذات نفسه . فزكريا يحتبس لسانه عن كلام البشر ولا يستطيع أن يكلمهم إلا رمزا . أما إذا أراد ذكر الله فينطلق لسانه بلا احتباس ﴿ واذكر ربك كثيرا

(١) ظلال القرآن : ١ / ٣٩٤ .

وسبح بالعشى والإبكار ﴾ إن لسانه المحتبس المسوك عن محادثة الناس هو نفسه اللسان المنطلق فى مناجاة الله تعالى ، فأى قانون يحكم هذه الظاهرة ؟ إنها مشيئة الله المطلقة .

وكانت ولادة يحيى من عجوزين ، واحتباس لسان زكريا عليه السلام خوارق جعلها الله مقدمة للخارقة الكبرى وهى ولادة عيسى من غير أب ، ولكن بنى إسرائيل لم يتعظوا ولم يفقهوا .

إنه ما من نعمة ينعم الله بها على عبد إلا ويجب أن يقابلها بشكر الله بالليل والنهار، ويذكر الله بالعشى والإبكار ؛ فإن ذكر الله وشكره يديم النعمة على صاحبها .

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

إنها منزلة سامية . تلك المنزلة التى يحدث الملائكةُ فيها مريم بأن الله اصطفاها اصطفاءً كليًّا ، وأنها قد خلص قلبها من الأغيار ، وأنها محررة لله ، ومحررة من كل صوارف الدنيا ، وقد كررت الملائكة هذا الخبر ﴿ إنّ الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ إنه اصطفاء بعد اصطفاء . إنها منحة الله وعطاؤه وفضله ﴿ وطهرك ﴾ تطهير لها من كل ما يعيب ، وله مغزى لا يغيب عن اللبيب . وذلك لما لابس ولادة عيسى ـ عليه السلام ـ (ولدها) من شبهات لم يتورع اليهود ـ عليهم لعنة الله ـ من إثارتها على مريم الطاهرة .

ثم يأمرها الله أن تزداد فى خضوعها لله ، فتسجد مع الساجدين ، وتركع لله مع الراكعين . وقد كانت مريم ـ عليها السلام ـ تقوم فى صلاتها حتى يتورم قدماها تقربا إلى الله تعالى .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

وقبل ذكر الحدَث الأكبر ـ بشارة مريم بعيسى ـ عليه السلام ـ يذكر الله تعالى الحكمة من ذكر هذه القصص فى القرآن ، إن ﴿ ذلك من أنباء الغيب ﴾ والإشارة هنا إلى موقف الكهنة حينئذ من مريم ـ عليها السلام ـ .

فمن أين جاء به محمد ـ ﷺ ـ . . . ؟

هل كان ـ صلوات ربى وتسليماته عليه ـ معهم حين اختصموا وألقوا أقلامهم واقترعوا وخرج قلم زكريا ـ عليه السلام ـ ؟ . كلا !!

هل اطّلع الرسول ـ ﷺ ـ على التوراة أو الإنجيل فاستقى هذا الحديث منهما ؟ كلا!!! فقد خلت التوراة والإنجيل تماما من ذكره .

فمن أين جاء رسول ـ ﷺ ـ بذلك يا من تكفرون بنبوة رسول الله ؟!!!

والإجابة : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ .

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾

بعد أن أعدّ الله عزّ وجلّ مريم ـ عليها السلام إعدادًا ربانيًا ، وأصبحت مؤهلةً للمهمة العظيمة ، وتأهلت بالتطهر والقنوت والعبادة الخالصة ، جاءها البشير يبشرها بغلام تحمله من غير أب ، ليكون معجزة كبرى على مر السنين ، يحمل رسالة الله إلى بنى إسرائيل .

إنّه عيسى ـ عليه السلام ـ : كلمة الله وروح منه . إنها قدرة الله عزّ وجلّ ، وقد تهيأ بنو إسرائيل قبل ميلاده ـ عليه السلام ـ لتصديق هذه المعجزة ، معجزة مولده من غير أب . فقد سبقته بشارة زكريا بيحيى ـ عليهما السلام ـ رغم انعدام الأسباب التى يمكن أن يترتب عليها هذا المولود. والله يمهد نفوس بنى إسرائيل لقبول مولد عيسى ـ عليه السلام ـ من غير أب . ثم سيرة السيدة مريم فى الناس كانت مشهورة بالعفاف والتقوى والورع .

إنها مشيئة الله وتدبيره بسبق الحدث العظيم ولله الحكمة البالغة ، إن البشارة إلى مريم ـ عليها السلام ـ تضمنت اسم ولدها وهو منسوب إليها وتضمنت صفته ومنزلته عند الله .

يقول ابن كثير : « ﴿ وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾أى له وجاهة ومكانة عند الله فى الدنيا بما يوحيه اللهُ إليه من الشريعة ، وينزله عليه من الكتاب ، وغير ذلك

مما منحه الله . وفى الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولى العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين » (١) .

كما أنّ البشارة لمريم عليها السلام بشارة مفصلة عن جوانب حياة هذا المولود المعجزة .

إن الله سينطقه وهو طفل فى المهد ليدافع عنك يا مريم فلا تفزعى . كما سيتكلم وهو كهل بما يوحيه الله إليه ، وبما ينزله عليه ، وتلك بشارة أخرى : أنه سيعيش حتى يصير كهلاً .

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾

إنها لا تسأل سؤال إنكار واعتراض ، ولكن سؤال الدهشة والتعجب ، فبعد أن تحققت أن الذى يحدثها ويبلغها البشارة هو ملك من قبل الله تعالى : سلمت وآمنت .

إن إيمانها وقوة علاقتها بالله تعالى يمنعانها أن تعترض على أمر قدّره الله تعالى ، ولكنها الدهشة والتعجب ، واستعظام القدره لا للتشكيك .

إن الله عز وجل يرفع عنها التعجب . فالله لا يعجزه شىء . فخلق إنسان من أم بلا أب أمر ممكن . وإذا حكم الله حكما فإنما تتوجه إرادته سبحانه إلى ما يريد ﴿ أن يقول له كن فيكون﴾ (٢) .

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾

إن الله عزّ وجل يخبر السيدة مريم ـ عليها السلام ـ . . بأنه سبحانه هو الذى سيتولى تربيته وتعليمه ، فسوف يعلمه الله الكتاب . وقد نزل عيسى ـ عليه السلام ـ متمما للتوراة لا ناسخا لها إلا فى بعض الأحكام .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٦٤ .

(٢) يس : ٨٢ .

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾

سوف يبعث الله عيسى رسولا نبيًّا إلى بنى إسرائيل ، وكفى بهذه البشارة فخرا لمريم ـ عليها وعلى ابنها السلام ـ . إن قلبها قد اطمأن ، وسوف تصبر على أذى قومها ، لأن العليم الخبير قد أعلمها بمستقبل هذا الغلام . . إنه سيحمل رسالة الله إلى بنى إسرائيل ، إنه رسول الله .

وزيادة فى تفصيل البشارة تفضلاً من الله الرءوف الرحيم على الأم الصالحة البارة بطاعة ربها ـ يخبرها الله عزّ وجلّ عن بعض المعجزات التى سيؤيد بها غلامها المنتظر ، فتأتى البشارة متحدثة على لسانه كما قرأنا الآيات سابقا . وكل ما فيها من معجزات دلائل صدق رسالة عيسى .

يقول ابن كثير « قال كثير من العلماء : بعث الله كلَّ نبيٍّ من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى ـ عليه السلام ـ السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كلَّ سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام وصاروا من عباد الله الأبرار . وأما عيسى ـ عليه السلام ـ فبعث فى زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدا من الذى شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو فى قبره رهين إلى يوم التناد ؟! » (١) .

وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾

إنه عليه السلام بُعث مصدقا للتوراة فهى شريعة بنى إسرائيل ولم يأت بشرع جديد إليهم . اللهم إلا بعض الأحكام . كإباحته العمل فى يوم السبت إذْ كان محرمًا على بنى إسرائيل فيه وجاء عيسى ـ عليه السلام ـ وأباح العمل فى هذ اليوم . وكذلك كثير مما

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٦٤ ـ ٣٦٥ .

كان يعد نجسا فى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ جاء عيسى ـ عليه السلام ـ وحكم بطهارته . وكذلك الذبائح والأطعمة مثل لحوم الإبل وشحومها فقد كانت محرمة فى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ .

فلا عذر لأحد منكم بعد هذه الآيات الدالة على صدقه ـ عليه السلام ـ .

إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

وهذه الآية قاطعة بعدم إلهيته ، فعيسى ليس برب ، وإنما هو مخلوق ككل المخلوقات . وهذه هى دعوة كل رسل الله إلى البشر ، وعيسى واحد منهم ، وهذا هو الصراط المستقيم ، أما غيره فهو العوج والكفر والضلال والزيغ .

۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾

إن الآيات قد انتقلت مباشرة من بشارة مريم بابنها المنتظر وصفاته ومعجزاته ودعوته إلى إحساس عيسى بالكفر من بنى إسرائيل وطلب الأنصار لإبلاغ دين الله .

فلم يذكر هنا مولد عيسى بالفعل ، ولا موقف بنى إسرائيل من مولده ، ولا كلامه فى المهد حين واجهت أمه القوم ، ولا دعوة قومه وهو كهل ، وكل هذا سيرد مفصلاً فى سورة مريم .

إذ إ ن عيسى ـ عليه السلام ـ لما وجد بنى إسرائيل قد تظاهروا على الكفر استحث من فى قلبه شىء من الإيمان ليناصره ، فأجابه نفر قليل منهم ،هم الحواريون ، وهم الناصرون المبالغون فى النصرة .

ولابد لصاحب كل دعوة من أنصار يحملون دعوته إلى الله ، وهم المؤمنون به ، الذين يدينون بدينه ، والذين سيحملونه للناس ويقفون مع نبيهم أمام كل شدة ، وأمام كل بلاء .

وقد توجه الحواريون إلى الله متضرعين إليه متذللين له قائلين .

رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾

«والمعنى : أثبتْ أسماءنا مع أسمائهم، واجعلنا من جملتهم. وقيل : المعنى فاكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق »[1] .

إن المسلم على مر الأزمان مطلوب منه أن يقيم شهادة الحق من نفسه وسلوكه لهذا الدين . إذْ إنه على المسلم الذى بايع الله على هذا الدين أن يجعل من نفسه ومن سلوكه ومن حياته كلها بكل جوانبها صورة حية لهذا الدين . . صورة يراها الناس مثلاً عاليا رفيعا فى كل شئونه ، فيشهدون بأفضلية هذا الدين على سائر الأديان والملل الأرضية .

يقول صاحب الظلال الأستاذ الشهيد سيد قطب[2] :

« وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعى لنفسه الإسلام ، فهذا هو الإسلام ، كما فهمه الحواريون ، وكما هو فى ضمير المسلمين الحقيقيين . ومن لم يؤد هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه . فأما إذا ادّعى الإسلام ثم سار فى نفسه غير سيرة الإسلام ، أو حاولها فى نفسه ، ولكنه لم يؤدها فى المجال العام ، ولم يجاهد لإقامة منهج الله فى الحياة إيثارًا للعافية وإيثارا لحياته على حياة هذا الدين : فقد قصر فى شهادته أو أدى شهادة ضد هذا الدين ، شهادة تصد الآخرين عنه ، وهم يرون أهله يشهدون عليه لا له ! وويل لمن يصد الناس عن دين الله عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الدين ، وماهو من المؤمنين !!» .

وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾

لقد مكر الذين أحس عيسى منهم الكفر مكرا شديدًا ، فقد قذفوا أمه الطاهرة . واتهموه بالكذب والسحر ، ووشوا به إلى الحاكم ، وحرضوا عليه ليتخلصوا منه ولكن الله أحبط مكرهم ، وردّ كيدهم فى نحورهم .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

إن الله سبحانه وتعالى يُعْلِمُ رسوله سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ بما سيقع له من

(١) تفسير القرطبى : ٤ / ٩٨ .

(٢) فى ظلال القرآن : ١ / ٤٠٢ ـ ٤٠٣ .

أعدائه اليهود مواساة له وتثبيتًا . فهو مقبل على شدةٍ وامتحان شاق واليهود هم أصحاب هذه الفتنة .

يقول ابن كثير: « اختلف المفسرون فى قوله تعالى : ﴿ إنى متوفيك ورافعك إلىّ ﴾ فقال قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إنى رافعك إلى ومتوفيك يعنى بعد ذلك . وقال ابن عباس : إنى متوفيك أى مميتك . وقال وهب بن منبه : توفاه الله ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه إليه . قال مطر الوراق : إنى متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت . وكذا قال ابن جرير: توفيه هو رفعه . وقال الأكثرون : المراد بالوفاة ههنا النوم» [1].

فلا تفزع يا عيسى مما يمكرون ، ولا ترهبهم مهما تآمروا عليك ليقتلوك فإنى رافعك إلىّ ، ولن يصلوا إليك بأذى، ولن يتمكنوا منك ، فإنى سأطهرك من عنادهم ، وجورهم على الحق ، الذى بعثت به لتصلح ما أفسدوه ، وتقيمهم على صراط الله المستقيم .

والذين اتبعوا عيسى ـ عليه السلام ـ : هم الموعودون من الله أنْ يجعلهم فوق الذين كفروا ﴿ إلى يوم القيامة ﴾ ، هم الذين آمنوا به على أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . فلما بُعث رسول الله محمد ـ ﷺ ـ آمنوا به واتبعوا النور الذى أنزل معه ، فكانوا هم أتباع كل نبى على وجه الأرض .

فهذه الآية ليست فى كلِّ من ادّعى الإيمان بعيسى ـ عليه السلام ـ من النصارى ، ولكنها لا تشمل إلا من آمن به على نحو ما ذكرنا . أما غيرهم من الطوائف المتعددة ، فمرجعهم جميعًا إلى الله يوم القيامة فهو سبحانه الذى سيتولى الحكم بينهم .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾

فأما الذين كفروا من اليهود الذين همّوا بقتل عيسى ـ عليه السلام ـ وهذا المعنى على القول بأن الخطاب لعيسى ـ عليه السلام ـ . أما على القول بأن الخطاب لرسولنا ـ ﷺ ـ فإن المراد بالذين كفروا : جميع طوائف الكفر ﴿ فأعذبهم عذابًا شديدًا ﴾ «يعنى بالقتل والصلب والسبى والجزية ، وفى الآخرة بالنار » [2].

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٣٦٦ (باختصار) . (٢) تفسير القرطبى : ٤ / ١٠٢ .

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾

وأما الذين اتبعوا الرسول - ﷺ - وصابروا ورابطوا فلم يرهبهم بطش المحاربين لهم ، بل لازموا اتباع الحق فى جميع جوانب حياتهم فيوفيهم الله أجورهم فى الدنيا والآخرة ؛ فى الدنيا بالنصر المبين ، وفى الآخرة بالجنات العاليات، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ﴿والله لايحب الظالمين﴾ .

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

إن هذه الآيات التى نتلوها عليك يا محمد من أخبار زكريا وبشارته ومريم وابنها ، وموقف اليهود منه ، ذلك كله من الآيات الدالة على صدق نبوتك وكذلك : هو دليل على أن هذا القرآن محكم معصوم من تطرق الخلل إليه .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

إن الله عزّ وجل الذى خلق آدم من تراب ، من غيرذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى : خلق عيسى - عليه السلام - من أنثى بلاذكر.

فإذا جاز ادعاء البُنُوَّة لعيسى - عليه السلام - : فادعاؤها لآدم أولى ، وهذا مالم يقل به أحد من البشر .

ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

أى هذا هو القول الحق فى عيسى الذى لامحيد عنه ولاصحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

إن الذى قصصناه عليك يا محمد من خبر عيسى : هو الحق ، لا ما قالت النصارى واليهود . فلا تكن أيها المسلم من الشاكين فى هذا الحق ؛ لأنه نزل من عند الله الذى خلق عيسى - عليه السلام -، وكفى بالله عليما .

فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق فى أمر عيسى بعد ظهور البيان الواضح . ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره :

« هذه الآية : من أعلام نبوة محمد - ﷺ - ؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ، ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادى نارًا ، فإنّ محمدا نبىٌّ مرسل ، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل فى أمر عيسى ؛ فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم ، على أن يؤدوا فى كل عام ألف حُلّة فى صفر وألف حُلّة فى رجب ، فصالحهم رسول الله - ﷺ - على ذلك » (١) .

والمباهلة هى ما ذكرنا قصتها فى تفسير أول السورة وسبب نزولها فى وفد من نصارى نجران (٢) .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ٦٢

إن هذا الذى تقدم وقصصناه عليك يامحمد فى شأن عيسى - عليه السلام - : لهو الحق الذى لامعدل عنه ولامحيد ، وما من إله إلا الله - وهو ردّ على النصارى المدعين بألوهية عيسى والقائلين بالتثليث - وإن الله هو العزيز الذى لا يشاركه فى ألوهيته ولا فى حكمه أحد .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ ٦٣

فإن أعرضوا عن الإيمان بالله ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، وأبوا إلا الإصرار على الكفر بنسبة الشريك والولد إلى الله ، أى إن عدلوا عن الحق إلى الباطل : فإنهم هم المفسدون ، والله عليم بهم وسيجازيهم على فسادهم و إفسادهم .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ ٦٤

يقول الله تعالى مخاطبا رسوله - ﷺ - : ﴿ قل يأهل الكتاب ﴾ يهودًا كانوا أو نصارى ومن جرى مجراهم ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ ادعهم إلى كلمة عدل لا يختلف عليها شرع ، وقد أجمع الرسل كلهم على دعوة الناس إليها . والكلمة تطلق

(١) تفسير القرطبى ٤ / ١٠٤ . (٢) راجع كلامنا عن سبب نزول سورة آل عمران وفيها حديث عن المباهلة .

على الجملة المفيدة ، ثم فسرها بأنها الدعوة إلى التوحيد .

إن رسول الله - ﷺ - لم يكتف من نصارى نجران بدفع الجزية ، ويتركهم وما هم عليه، بل طرق عليهم بابا آخر من الدعوة إلى الله ، والدعوة إلى كلمة لا يختلف عليها كتاب سماوىّ . وهى ﴿ ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ﴾ هذه الكلمة هى دعوة جميع الرسل. قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [1] .إنها الدعوة إلى التوحيد - توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، ولا نتوجه بالعبادة إلى وثن أو نار أو صليب ، بل نفرد الله سبحانه وتعالى وحده بكل أنواع عبادتنا ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ كعزير والمسيح ابن مريم والأحبار والرهبان.

يقول ابن كثير : « قال ابن جُريج : يعنى يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله . وقال عكرمة : يسجد بعضنا لبعض » [2] . ويقول القرطبى : « أى لا نتبعه فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلله الله تعالى » [3] .

فإن تولوْا وأعرضوا عن هذه الدعوة العادلة التى لا عوج فيها ، وأبوا إلا اتخاذ آلهة من دون الله ، وعبادة الأحبار والرهبان : ﴿ فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ فقد لزمتكم الحجة وعليكم أن تعترفوا بأنا مسلمون دونكم واشهدوا على أنفسكم بالكفر .

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ ٦٥

لما اجتمع نصارى نجران وأحبار اليهود عند رسول الله - ﷺ - وتنازعوا فى إبراهيم - عليه السلام - : فاليهود يقولون : كان إبراهيم يهوديًا ، والنصارى يقولون : بل كان إبراهيم نصرانيًا ، أنكر الله عزّ وجل عليهم هذه المجادلات والمنازعات ، قائلاً لهم : على أىّ شىء نسجتم مزاعمكم الباطلة وما نزلت كتبكم إلا من بعد إبراهيم - عليه السلام - ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ؟ !!

﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ ٦٦

---

(١) الأنبياء : ٢٥ . (٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٧١ . (٣) تفسير القرطبى : ٤ / ١٠٦ .

هذا إنكار على من يحاج فيما لاعلم له به . فإن أهل الكتاب : جادلوا فى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل ، وجادلوا فى عيسى ـ عليه السلام ـ ، وجادلوا فى الأحكام التى لها أصل فى كتبهم ، واستطاعوا أن يحرفوا الحق فيها ، ويَلْوُوا أعناق النصوص الصريحة ، وجادلوا فى إبراهيم عليه السلام بدون علم . فأنكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم برد مالا علم لهم به إلى الله عالم الغيب والشهادة .

وهذا اللون من الجدال : قد يقبل شكلا ، مع بطلان حججهم فى حقيقة الأمر ، أما أن يجادلوا فيما ليس لهم به علم ، ويقحموا أنفسهم فيما لا يعلمونه ، فهذا منطق لا يقبله عاقل وإنما دفعهم إليه الهوى الذى ينطلقون منه فى بناء عقائدهم وحبُّ الدنيا .

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

«نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة وبيَّن أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركًا . والحنيف : الذى يوحد ويحج ويضحى ويختتن ويستقبل القبلة . . والمسلم فى اللغة المتذلل لأمر الله تعالى المنطاع له » (١) .

﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

إن الذين هم أولى بإبراهيم ـ عليه السلام ـ : من اتبعوه فى زمانه على دينه، وساروا على إسلامه ، أو من اتبعوه مطلقًا .

﴿ وهذا النبى ﴾ يعنى النبى محمداً ـ ﷺ ـ : من أولى الناس بإبراهيم ؛ لموافقته لشريعته أكثر من أى نبى آخر ، والذين آمنوا بهذا النبى من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بعدهم هم تبع له .

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يكشف الله تعالى : لهذا الأمة المسلمة ما تنطوى عليه نفوس أهل الكتاب من حقد دفين ، وكرهية ، وإن تظاهروا بصداقتهم ومودتهم .

---

(١) تفسير القرطبى : ٤/ ١٠٩ .

إن الله سبحانه الذى خلقهم ويعلم ما توسوس به نفوسهم يخبرنا عما تحمله قلوبهم لهذه الأمة من الحسد الذى ملأ صدورهم والذى لا يضر المسلمين شيئًا ولكن ضررهم مردود عليهم يعود على أنفسهم وهم لايشعرون أنهم ممكور بهم .

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴾ ٧٠

ثم يفضحهم الله تعالى : على سمع الزمن قائلاً ﴿ لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ « بصحة الآيات التى عندكم فى كتبكم . . . وقيل : المعنى وأنتم تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء التى أنتم مقرُّون بها » [1]. حقا : إنه الهوى ، وحب التضليل ، والحسد الذى يملأ القلوب . . !!

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَـٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ ٧١

أى : تكتموت ما تعرفونه عن محمد وصفاته - ﷺ - ، وأنتم تعلمون ذلك جيدًا وتعرفونه وتتحققون منه .

﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ ٧٢

هذه الآية : تكشف للأمة المسلمة بعضا من مكائد أهل الكتاب عامة واليهود خاصة ضد هذا الدين .

وهذه المكيدة تتمثل فى : أن يؤمنوا برسول الله - ﷺ - أول النهار ، وفى آخر النهار يرتدون عن الإسلام ، وهى مكيدة قد تدخل على الأميين من العرب الذين كانوا يعتقدون أن أهل الكتاب أهل علم . ولكن سرعان ما يسلط الله عز وجل من الآيات ما يفضح به أمرهم .

﴿ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ ٧٣

إن الله عز وجل يكشف لرسوله - ﷺ - ما يدور بينهم فى الخفاء من مؤامرات ضد

---

(١) القرطبى : ٤/ ١١٠ .

هذا الدين ، ليفضحهم على مسمع من العالم .

يقول ابن كثير : « يقولون لا تطمئنوا أو تظهروا سروركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين ، فيؤمنوا به ، ويحتجوا به عليكم »[(1)].

إن البيان الحق : هو بيان الله عزّ وجل ، وإن الأمور كلها تحت تصرفه وحده سبحانه وتعالى ، والإيمان والعلم من فضل الله الذى يملكها . فأنتم لا فضل عندكم بل أنتم كفرتم بما جاءكم من فضل وفاقد الشيء لا يعطيه لغيره .

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

الله سبحانه يختص برحمته من يشاء ، فيهدى أحباءه إلى صراطه المستقيم ، ويضل من كابر وعاند من صراطه .

يقول الله تعالى :

۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

يبين الله تعالى فى هذه الآية نقيصة أخرى من نقائص أهل الكتاب ـ وما أكثرها ـ وبخاصة اليهود ، فيخبرنا الله تعالى عنهم بأن منهم الخونة ، ويحذرنا من الاغترار بهم . فنحن أمام نموذجين من نماذج أهل الكتاب فى تعاملهم ونظرتهم إلى مال الغير : نموذج أمين ، إن ائتمنه إنسان على شيء من المال ـ وإن كان قنطارًا من الذهب ـ فهو يؤديه إليه ، وهو أمين عليه ، لايبخس منه شيئًا . والثانى : فئة إن تأمنها بدينار واحد لا تؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ، أى مطالبا ملحًّا فى طلبك، وإلاّ ضاع حقُّك عندها . ثم يبررون هذه المماطلة فى ردّ الأمانات إلى أهلها بالكذب على الله فيقولون : إن الأمانة عندهم محصورة بين اليهودى واليهودى ، فإذا خرجوا فى تعاملهم عن دائرة اليهود فلا مسئولية عليهم . فقوله تعالى ﴿ **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأمين سبيل** ﴾ أى إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا فى ديننا حرج فى

---

(1) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٧٣

أكل أموال الأميين وهم العرب فإن الله قد أحلها لنا . ﴿ **ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾ أى أنهم قد اختلقوا هذه المقالة ،فإن الله حرم عليهم أكل الأموال بالباطل[1].

ويَبْدُو أن مبدأ ﴿ **ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ : قد انسحب على كل شىء يتعلق بغيرهم .

فهذا هو تلمودهم ـ المصدر الثانى الذى يعتمدون عليه فى التشريع ـ يقول : « إن الله لا يغفر ذنبا ليهودى يرد للأمى ماله المفقود » . ويقول : « غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا » . ويقول التلمود أيضا : « اقتل الصالح من غير الإسرائيليين ، ومحرم على اليهودى أن ينجى أحدا من باقى الأمم من الهلاك ، أو يخرجه من حفرة يقع فيها ، لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين» .

هذه هى عقلية اليهود من قديم الزمان إلى اليوم ، إنهم أعداء الفضيلة ، يحاربونها أينما كانت .

ويقول القرطبى فى هذه الآية : « أخبر تعالى أن فى أهل الكتاب الخائن والأمين . والمؤمنون لا يميزون ذلك ، فينبغى اجتناب جميعهم . وخصَّ أهل الكتاب بالذكر ـ وإن كان المؤمنون كذلك ـ لأن الخيانة فيهم أكثر » [2].

ثم يقرر الله تعالى قاعدة خلقية عامة وميزانًا خلقيًّا فيقول :

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

فالوفاء بالعهد مرتبط بالتقوى لمن حافظ على حقوق غيره ، أيًّا كان هذا الغير ، وليست القضية قضية مصالح شخصية ، إنه تعامل مع الله وليس مع الناس .

يقول الله تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

يقول ابن كثير « إن الذين يعتاضون [3] عما عاهدوا الله عليه ، من اتباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس ، وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة ، بالأثمان القليلة .

(١) ابن كثير : ١/ ٣٧٤ (٢) المصدر : تفسير القرطبى : ٤/ ١١٦ . (٣) يرضون بديلا وعوضا .

الزهيدة ، وهى عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿ أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة﴾ أى لانصيب لهم فيها ولاحظ لهم عنها ﴿ ولايكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة﴾ أى برحمة منه لهم، يعنى لا يكلمهم الله كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿ولا يزكيهم ﴾ أى من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿ ولهم عذاب أليم﴾»[1].

ثم يعرض الله سبحانه نموذجًا آخر من نماذج أهل الكتاب المضللين ، الذين يسخرون ما بأيديهم من كتاب الله خدمةً لأهوائهم ، فيُؤَوِّلون النصوص على غير مرادها، ابتغاء ثمن قليل من أعراض الدنيا . يقول تعالى :

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

قوله ﴿ يلوون ألسنتهم﴾ معناه : أنهم يعمدون إلى اللفظة فيحرفونها فى حركات الإعراب تحريفا يتغير به المعنى ، وهذا كثير فى لسان العرب . فلا يبعد مثله فى العبرانية . فلما فعلوا مثل ذلك فى الآيات الدالة على نبوة محمد ـ ﷺ ـ من التوراة ، كان ذلك هو المراد من قوله تعالى (يلوون ألسنتهم) وهذا تأويل فى غاية الحسن [2].

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

والربّانى : نسبة إلى الرب سبحانه . فمن صفا قلبه عن الأغيار ، واستنارت بصيرته، وكان شغله ـ ليله ونهاره ـ طاعة الله سبحانه ، فيتوجه إلى الله فى القصد والعمل ،فهو ربّانى .

وإذا كانت دعوة الرسل الذين اصطفاهم الله عزّ وجل هى عبادة الله وحده : فما ينبغى أن يصدر منهم شىء يصادم ذلك ،لأنهم بعثوا لتنقية الأرض من الشرك ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٧٥ . (٢) تفسير الرازى : ٢ / ٤٧٨ .

وتطهير الجنان من أدران الاعتقادات الفاسدة، فكيف يدعون الناس إلى الشرك ؟!

﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ٨٠

إن رسل الله أرسلوا لدعوة الناس إلى الإسلام . والإسلام لا يلتقى مع عبادة غير الله . إنهما لا يجتمعان أبدا . فكيف يتناقض الرسل فى دعوتهم، يدعونهم إلى الإسلام وفى الوقت نفسه يقومون بدعوتهم إلى اتخاذ الملائكة أو النبيين أربابا من دون الله ؟ فهل هذا يُعقل ؟! أيأمرونكم بطريق كله ضلال وكفر بعد أن وضعتم أيديكم على طريق النور والهدى ، وهل يستوى الطريقان ؟! كلا .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ ٨١

لقد أخذ الله ميثاق جميع الأنبياء ، أن يصدقوا ويؤمنوا بمحمد - ﷺ - وينصروه إن لحقوه ، وأمرهم أن يأخذوا ذلك الميثاق على شعوبهم وأممهم .

ولذلك نجد فى التوراة والإنجيل - رغم تحريفهما - بشارات بمحمد - ﷺ - ، لا ينكرها إلا جاحد مكابر . ﴿ إصرى ﴾ أى عهدى . إن الله عز وجل أشهد الأنبياء على أنفسهم من ميثاقهم الذى أخذه عليهم، وشهد الله بذلك عليهم ، وكفى بالله شهيدًا .

﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ٨٢

فمن أعرض ونأى بجانبه عما جاء به الأنبياء ، وعن الميثاق الذى أخذه الله عليهم ، ولم يؤمن برسول الله - ﷺ - ، وأنكر أنه قد بشرت به الكتب التى نزلت من عند الله : فأولئك هم الكافرون ، الخارجون عن دين الله الحق .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ٨٣

ينكر الله عز وجل على من يبتغى لنفسه دينا غير دين الله ، ويشذ عن الحق ، خاصة وأن من فى السموات والأرض قد أسلم لله . المؤمنون أسلموا لله طوعا . والكافرون يسلمون لله كرها ، فلا يخرج واحد منهم عن سنن الكون التى وضعها الله . فالكل محكوم فى إطار هذه السنن .

إن البشرية الآن تعانى مشاكل معقدة من قلق واضطراب ، لأنها خرجت عن ناموس الكون . ولذا : فالحضارة البشرية المعاصرة تسير بخطى مسرعة نحو الهاوية ، وما من إنسان يزور أية دولة من الدول الغنية الثرية إلا ويصدم من كثرة الأمراض العصبية والنفسية ، والشذوذ والقلق والجنون ، والسكْر والجرائم . إنهم لا يجدون سعادتهم فى هذه الحياة ، رغم الثراء الفاحش . لأنهم بعدوا عن الله ، وعن طريق الإسلام الذى فيه سعادة البشرية .

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

﴿قل﴾ لهم يا محمد إننا ﴿آمنا بالله﴾ ، وبالقرآن ، وما أنزل على جميع الأنبياء ، ومنهم : الأسباط ، وهم بطون بنى إسرائيل المتشعبة من أبناء يعقوب ، وكانوا اثنى عشر - آمنا بهؤلاء وما أنزل إليهم من وحى . وهذا ما ندين به ، ونموت عليه ، **﴿لانفرق بين أحد﴾** من الأنبياء ، ولا نكفر ببعضهم **﴿ونحن له﴾** تعالى **﴿مسلمون﴾** .

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

يقرر الله سبحانه وتعالى بأبلغ أسلوب ، وأوضح بيان ، للبشرية كلها : أن من يبتغ لنفسه دينا غير دين الإسلام **﴿فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾** . لا يهودية ولا نصرانية ، ولا أى دين من أديان البشر ، أو العقائد . كل ذلك : لا ينال القبول عند الله .

الإسلام الذى أرسل به جميع الرسل فقط : هو الدين الوحيد الذى يقبل عند الله .

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ
ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾

يستبعد الله سبحانه وتعالى هدايته على أهل الكتاب ، وذلك بسبب كفرهم المتعمد ، بعد إيمانهم وتصديقهم بما جاء به محمد - ﷺ - ، وشهادتهم بأنه حق وما جاء به صدق ، وقد جاءتهم البينات بذلك فى كتبهم التى بين أيديهم . وإن موقفهم هذا : هو عين الظلم ، ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

اللعن هنا : بمعنى الطرد من رحمة الله ، وهذه اللعنات بسبب إعراضهم عن الهدى بعد إذ جاءهم ، ومصيرهم الخلود الأبدى فى نار جهنم . ثم يستثنى الله عز وجل من هذا الحكم من يتوب إليه ، ويصلح من شأنه . فمن تاب من أهل الكتاب ورجع عما كان عليه من كفر وردّة ، وآمن بالله ورسوله ، وكذلك من تاب : ممن ارتد بعد إسلامه ﴿فإن الله غفور رحيم ﴾ . ونلاحظ فى مغفرة الله بقبول توبة التائبين أنه لابد مع التوبة من عمل صالح ، فإن التوبة وحدها لا تكفى بل لابد من أن يضاف إليها العمل الصالح، فيتفضل الله حينئذ على التائب بقبول توبته ، رحمة منه وفضلاً . لأن الله سبحانه وتعالى لا يغلق باب توبته فى وجه أحد ، حتى وإن كان كافرا، إذا رجع إلى الله تائبا نادما عازما على السير فى طريق مرضاة الله تعالى . وفى الآية تشويق لكل كافر وكل عاص ألا ييأس من رحمة الله ، بل إنه عز وجل يشتد فرحه بتوبة عبده العاصى . أما من عاند وكابر فلم يرجع إلى الحق ولم يتب إلى الله من كفره وردته ، وازداد فى كفره ، وعاند وطغى ، فهذا الصنف يقول الله عنه :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

إن هذا النوع من المرتدين لن تقبل توبتهم إذا تاب أحدهم عند الاحتضار ، كما يقول سبحانه فى موضع آخر من القرآن :

﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما﴾ (١) .

وعلى ذلك فالمرتدون على نوعين : نوع رسخ فى قلوبهم الكفر ، واستولى على نفوسهم ، لعمق بعدهم عن الله ، وقبول الهدى الذى جاء به محمد - ﷺ - ونوع زلت أقدامهم ، ولكن لم يرسخ الكفر فى قلوبهم ، ولم يتمادوا فى غيهم حتى تداركتهم رحمةُ الله ، فندموا على ما فعلوا ، وتابو إلى الله تعالى ، وهم الذين قال الله فيهم **﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . . ﴾** إلخ الآية .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

تهديد شديد لكل كافر على ظهر الأرض إلى قيام الساعة كى لا يستمر على ما هو فيه من كفر وعناد ، حتى لا يأتى يوم القيامة ويتمنى أن يفدى نفسه بملء الأرض ذهبًا فلا يتحقق له . وهذه الآية نظير قوله تعالى : **﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾** (٢) .

أخرج البخارى فى صحيحه عن أنس بن مالك يرفعه : « إن الله يقول لأهون أهل النار عذابا : لو أن لك ما فى الأرض من شىء كنت تفتدى به ؟ قال : نعم . قال : فقد سألتك ماهو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم : أن لا تشرك بى ، فأبيت إلا الشرك »(٣) .

إن عمر الإنسان مهما طال فهو قصير ، فكيف يبيع عاقلٌ جنة عرضها السموات والأرض بدنيا قصيرة حقيرة فانية ؟ ألا فليعقل الإنسان الحكمة من خلقه ، وليستعد ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم :

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

---

(١) النساء : ١٨ .   (٢) المائدة : ٣٦

(٣) كتاب أحاديث الأنبياء . باب خلق آدم وذريته .

يوجه الله عزّ وجل خطابه للمؤمنين ، لبيان ما ينفعهم من العمل ، وما يُقبل منهم ، بعد ذكر مالا ينفع الكفرة ، ولا يقبل منهم ، فيقول إن جنة الله ورضاءه ورضوانه لا ينالها إلا من أنفق مما يحب من أموال . فلا يجعل لله ما يكره ، بل يتخير من الأموال أحسنها ، وينفق منها فى سبيل الله .

وفى الصحيحين : عن أنس بن مالك أنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً .وكان أحبَّ أمواله إليه (بيرحاء) [1]وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس : فلما نزلت هذه الآية ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ وإن أحب أموالى إلىّ : (بيرحاء) وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : بخ ، ذاك مال رابح . ذاك مال رابح . وقد سمعت ماقلت، وأنا أرى أن تجعلها فى الأقربين . فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله . فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه » [2].

ولم يكن أبو طلحة وحده من الصحابة على هذا الخلق بل كانوا كلهم كذلك .

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾

يقول الله عزّ وجل مفندا مطاعن اليهود فى هذا الدين ، حين عابوا على الرسول ـ ﷺ ـ أكل لحوم الإبل وألبانها وهى محرمة عليهم ، وقالوا كما أورد النيسابورى فى أسباب النزول حين قال النبى ـ ﷺ ـ : إنه على ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقالت اليهود : كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : كان ذلك حلالاً لإبراهيم ـ عليه السلام ـ فنحن نُحِلُّه . فقالت اليهود : كل شىء أصبحنا نحرمه فإنه كان على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا . فأنزل الله عزّ وجل تكذيبا لهم ﴿ **كل الطعام كان حلاً . . .** ﴾ إلخ الآية [3]

---

(١) اسم مال وموضع بالمدينة وهى : بفتح الباء بعدها سكون ثم راء مفتوحة ، (انظر : النهاية فى غريب الحديث والأثر مادة « برح ») .

(٢) البخارى كتاب الزكاة ، باب « الزكاة على الأقارب » ومسلم كتاب الزكاة ، باب «فضل النفقة على الأقربين. . . إلخ » .

(٣) أسباب النزول للواحدى ص ٦٥ ط الحلبى ـ مصر .

فالقرآن يخبر اليهود بما يكتمونه من أن كل المطعومات كانت حلالاً لهم إلا ما حرمه يعقوب ـ عليه السلام ـ على نفسه . واليهود قالوا ذلك طعنا فى رسول الله ـ ﷺ ـ ، وفى دينه ، فقال الله تعالى إن كنتم صادقين فى دعواكم أن لحوم الإبل كانت حراما من آدم ـ عليه السلام ـ إلى موسى ـ عليه السلام ـ ، ﴿ **فأتوا بالتوراة فاتلوها** ﴾. فلم يستجيبوا لذلك لعلمهم صدق رسول الله ـ ﷺ ـ وبهتوا وانقلبوا صاغرين .

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾

فمن كذب على الله منكم أيها اليهود وادعى أن كلامه هو الصحيح من بعد ما قدمنا لكم من الحجج والبراهين . ﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾ .

قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

أى صدق الله فيما أنزل من القرآن وإن ادعيتم أنكم على ملة إبراهيم ، وأنكم ورثته ، فإن ملة إبراهيم ـ عليه السلام هى ما جاء بها محمد ـ ﷺ ـ ، وما كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ من المشركين المفترين على الله الكذب ، فانظروا إلى أى ملة تنتسبون .

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾

يقول ابن كثير: « يخبر الله تعالى أن أول بيت وضع للناس ، أى لعموم الناس ، لعبادتهم ونسكهم ، يطوفون به ، ويصلون إليه ، ويعتكفون عنده ﴿ **للذى ببكة** ﴾ يعنى الكعبة التى بناها إبراهيم الخليل ـ عليه السلام . . . ﴿**مباركا**﴾ أى هو بيت وضع مباركا لكل العالمين» (١) .

فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٨٣ .

إن من مظاهر بركة هذا البيت أن فيه آيات بيناتٍ دالة على فضله وشرفه . وأكبر هذه الدلائل أن من دخله كان آمنا . فهو مأمن كل خائف. حتى فى جاهلية العرب المنحرفين عن دين إبراهيم، بقيت حرمة هذا البيت مصونة بينهم .بل إن حرمة هذا البيت وأمنه امتدا إلى الصيد والطيور التى بالحرم ، ومن دلائل بركته أيضا أن فيه مقام إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

ثم يقرر الله فريضة الحج إلى هذا البيت على الناس جميعا ، فلم يشرع عزّ وجل الحج إلى أى بيت من بيوت الله إلا إلى البيت الحرام. ومن رحمة الله بهذه الأمة أن علق الفريضة على الاستطاعة . وجعل فريضة الحج مرة فى العمر .

وأخرج الإمام مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :«خطبنا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أيها الناس : قد فرض الله عليكم الحج فحجوا. فقال رجل : أكلّ عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثا ،فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم »[(1)].

﴿ومن كفر﴾ أى ومن أنكر فريضة الحج ﴿فإن الله غنى عن العالمين﴾ ، وضرر كفره على نفسه .

ثم يقول الله عزّ وجلّ .

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ٩٨﴾

أى : ﴿لم تكفرون بآيات الله﴾ الدالة على صدق نبوة محمد ـ ﷺ ـ ؟

وهذا وعيد آخر بعد ما سبق فى السورة من وعيد وتعنيف ـ يفيد أن الله مطلع على أعمالهم ، ما ظهر منها وما خفى ، وسيجازيهم عليها جزاءً وفاقا .

ثم يؤنبهم الله تأنيبًا آخر حيث يقول سبحانه :

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩٩﴾

إن وسائل أهل الكتاب فى صد المؤمنين عن دين الإسلام كثيرة ، عددت السورة

(١) كتاب الحج باب فرض الحج مرة فى العمر .

بعضا منها : كإلباس الحق بالباطل ، وكتمان الحق الذى يعرفونه من صفات رسول الله ـ ﷺ ـ الموجودة فى كتبهم ، والإيمان بهذا الدين أول النهار والرِّدة عنه فى آخره . . وغيرها . وقد عاب القرآن عليهم هذا الصد وهذه الوسائل ، كما عاب أن تكون سبيل الله المستقيمة معوجة عن الحق فى الوقت الذى هم فيه شهداء عند أهل ملتهم أن دين الله الحق هو الإسلام .

ثم يتوعدهم الله ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ .

وعند هذه الآية : ينتهى الجدال مع أهل الكتاب ، بعد فضح عقائدهم ، المنحرفة .

ثم تتوجه الآيات إلى : نصيحة وتوجيه الأمة المسلمة ، محذرة من أعدائها ، مبينة لهم وسائل تحقيق منهج الله فى حياتهم . يقول الله تعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

تحذر الآيةُ الكريمة الأمةَ المسلمة إلى قيام الساعة ، من طاعة أى فريق من أهل الكتاب ، فى أى شأن من شئون الحياة ، مهما قلَّ هذا الأمر ، لأنهم لا يريدون لهذه الأمة إلا الانحراف عن سبيل الله .

إنهم قد يلبسون لهذه الأمة لباس الناصحين المخلصين ، فليحذر المسلمون من خداعهم .

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

يقول ابن كثير: « يعنى أن الكفر بعيد منكم ـ وحاشاكم منه ـ فإن آيات الله تنزل على رسوله ليلا ونهارا ، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم »[1] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٣٨٧.

يأمر الله تعالى المؤمنين بتقوى الله حق تقاته ، وهذا تنبيه ،على أهمية التقوى فى حياة المسلمين ، خصوصًا أن التقوى هى وصية الله للأمم كلها . إن تقوى الله حق تقاته كما ورد عن عبد الله بن مسعود: أن يطاع فلا يعصى ،ويشكر فلا يُكْفر ،ويذكر فلا ينسى[1] .

ولما نزلت الآية شق ذلك على المسلمين وقالوا يا رسول الله : ومن يقوى على ذلك فأنزل الله ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾[2] .

إن للتقوى أهميةً خاصة فى بناء هذه الأمة وهدايتها . ولو أننا اتقينا الله حق تقاته، لحلت جميع مشاكلنا الدنيوية والأخروية ، فعندنا : مشكلة الرزق ـ مثلاً ، ومشكلة الغذاء ، وحلها فى تقوى الله ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من من السماء والأرض** ﴾[3] . ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾[4] .

وتأمين مستقبل الذرية فى تقوى الله فى تلك الآية الجميلة ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذريةً ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدًا** ﴾[5] .

ويقول سبحانه : ﴿ **تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا** ﴾[6] .

هذه هى التقوى وهذه هى أهميتها فى بناء الشخصية المسلمة ، وفى بناء المجتمع المسلم . ولو أن التقوى أخذت محلها فى القلوب لأمن الناس على أعراضهم ودمائهم .

وفى قولى تعالى : ﴿ **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ يقول ابن كثير : «أى حافظوا على الإسلام فى حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شىء مات عليه ، ومن مات على شىء بعث عليه فعياذا بالله من خلاف ذلك»[7] .

ثم تأتى الآيات بعد ذلك وتركز على الأخوة فى الله فيقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) ابن كثير : ١ / ٣٨٧ . (٢) التغابن : ١٦ . (٣) الأعراف : ٩٦ .
(٤) الطلاق : ٢ ـ٣. (٥) النساء : الآية ٩ . (٦) مريم : ٦٣ .
(٧) تفسير ابن كثير : ١/ ٣٨٨ .

سورة آل عمران

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾

يأمر الله عزّ وجل الأمة المسلمة بالاعتصام بحبل الله ، وحبل الله هو القرآن ، كما ورد بذلك أكثر من حديث عن سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ . فالأمة مطالبة بالاعتصام بالقرآن وتحكيمه فيما بينهم ، لإقامة مجتمع قرآنى ربانى ، لأنه هو الكتاب والدستور الذى تتوحد عليه الأمة . وإن اعتصمت الأمة بكتاب الله : باء عدوها بالفشل ، ولا يفلح فى تفريقها أبدا . أما إذا تركوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واتخذوه مهجورًا ، فإن أعداءها سيتداعون عليها كما تتداعى الأكلة على قصعتها . فكونوا أيها المؤمنون فى دين الله إخوانا ، حتى لا يجد عدو هذه الأمة ثغرة ينفذ منها لاستئصال شأفتنا ، واذكروا إنعام الله عليكم : حيث كانت العداوات والحروب تطحن البلاد والعباد ، **﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾** بالإسلام .

هذه هى آيات الله الواضحة لإنقاذ الناس مما هم فيه من ضلال **﴿لعلكم تهتدون﴾** .

وكما أنقذكم الله عزّ وجل من النار بالإسلام ، وبالكتاب الذى نزل على رسوله ـ ﷺ ـ ، فليكن منكم من يعمل على إنقاذ الآخرين مما هم فيه :

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾

إن الله سبحانه وتعالى : يربى الفرد المسلم على أن يكون داعيا إلى الخير فى مجتمعه ، وهذه الأمة ما فضلت على غيرها من الأمم إلا لأنها تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر **﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾**(١) . ولقد كان من الأسباب الأساسية فى استحقاق بنى إسرائيل لعنة الله تركهم واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر **﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان**

---

(١) آل عمران : ١١٠ .

داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾[1].

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٠٥

ثم يحذر الله عزّ وجل الأمة من التفرق ، بعد التوحد ، أى : لا تتفرقوا ، فتختلفوا ، فتكونوا كالذين ﴿ تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ فيكون لكم عذاب عظيم، كما ﴿ لهم عذاب عظيم ﴾ .

ويقول القرطبى : المراد من الذين ﴿ تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾ اليهود والنصارى فى قول جمهور المفسرين. وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة[2].

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ١٠٦ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ١٠٧

أى يوم القيامة حين تبيض وجوه المؤمنين ، الذين اعتصموا بحبل الله ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، ولم يتفرقوا فى دين الله تعالى . . يوم تسودّ وجوه الكافرين والمنافقين ، فيقال لهم ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

وبعد أن ذكر الله عزّ وجل مصير الكافرين والمنافقين بين سبحانه وتعالى نهاية المؤمنين الذين ابيضت وجوههم بطاعة الله تعالى ، واتباعهم لرسوله ﷺ ﴿ ففى رحمة الله﴾ وهى الجنة هم خالدون فيها لا يبغون عنها حولا ، فضلاً من الله ونعمة .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ١٠٨

أى هذه آيات القرآن الكريم ، تليت عليك يا محمد بالحق ، ليختار كل إنسان المصير الذى يرضاه لنفسه ، والله لا يظلم الناس شيئًا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

---

(١) المائدة : ٧٨ ، ٧٩ .
(٢) تفسير القرطبى : ٤ ـ ١٦٦ .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

إن ما فى السموات وما فى الأرض ملك لله وحده لا شريك له ، أى الجميع ملك له وعبيد له ، وإليه وحده ترجع أمورهم ، فيجازى كلا بعمله ، فكيف يظلم وهو الغنى عن كل خلقه ، وكيف يظلم وقد حرّم الظلم على نفسه . إنه تعالى هو وحده الحاكم المتصرف فى الدنيا والآخرة .

كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾

إن الآية الكريمة تحدد بوضوح وظيفة هذه الأمة فى الأرض ، والتى بها استحقت أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، يعنى خير الناس للناس . والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس ، ولهذا قال ﴿ **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**﴾ فالخيرية هنا معلقة بقيام هذه الأمة بمهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب** ﴾ بما أنزل على محمد ﷺ ، وصدقوا ما ورد على لسان رسلهم من البشارة به : ﴿**لكان خيرا لهم**﴾فى الدنيا ، مما هم فيه من مناصب زائلة وزخارف عارضة .

وأخبر الله سبحانه عنهم فقال ﴿ **منهم المؤمنون** ﴾ بما أنزل على رسولهم، وبما أنزل على محمد ﷺ وقليل ما هم ، ﴿ **وأكثرهم الفاسقون** ﴾ الكافرون الخارجون عن دائرة الإيمان .

ثم طمأن الله عزّ وجل هذه الأمة ، حتى لا ترهبهم كثرةُ الكافرين من أهل الكتاب، فقال عزّ من قائل :

لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

فى الآية : بشارة لهذه الأمة بالنصر على أهل الكتاب فى كل موقعة تكون بينهم، وكل ما يمكن أن يناله أهل الكتاب من المسلمين هو أذى قليل ، أىْ ضرر يسير لا يذكر.

وقد يقول قائل : كيف تخبر الآية بالنصر الدائم للمسلمين على أهل الكتاب مهما يحدث من حروب بينهما ؟﴿ **وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ وواقع

المسلمين المرير يدل على غير ذلك ؟!! والجواب أن أهل الكتاب لا يمكن أن يتحقق لهم نصر على جيش توفرت فيه شروط هذه الأمة ، من اتباع لله ورسوله ، وتحكيم شرع الله فى مجتمعهم . فإذا تخلت الأمة عن واقع خيريتها ، فلا يتحقق نصر إلا للأقوى ماديًّا . والتاريخ خير شاهد على ذلك .

ثم يبين الله عزّ وجل سبب هزائمهم المتوالية أمام جيش المسلمين القائمين بدين الله المدافعين عنه فيقول : ـ

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

يخبر الله عزّ وجل أنه ـ جلت حكمته ـ قد كتب الذلة والمسكنة على اليهود أينما كانوا ﴿ **إلا بحبل من الله** ﴾ إلا إذا اعتصموا بحبل الله تعالى ﴿ **وحبل من الناس** ﴾ فلا عزّ لهم ولا كرامة إلا إذا دخلوا فى ذمة المسلمين .

وهذه الذلة التى كتبها الله عليهم ما فرضت عليهم إلا لأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق .

يقول ابن كثير « إنما حملهم على ذلك الكبر والبغى والحسد ، فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبدا متصلاً بذلّ الآخرة . . . ﴿ **ذلك بما عصو وكانوا يعتدون** ﴾ أى إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله . . . أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله والغشيان لمعاصى الله والاعتداء فى شرع الله »(١) .

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

لما أسلم من أحبار أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم ، قالت أحبار اليهود : ما آمن لمحمد إلا شرارنا . ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم ، وقالوا لهم : أنتم خنتم حين استبدلتم بدينكم دينا غيره ، فأنزل الله تعالى ﴿**ليسوا سواء**﴾ (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٩٦ـ٣٩٧ .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٣٩٧ .

فالآية تخبر أن أهل الكتاب ليسوا كلهم سواء فى الكفر والظلم والإعراض عن الحق ولكن ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون** ﴾ وهم من آمن بمحمد ، واستقام على شرعه ، واهتدى بهدى الله تعالى .

ثم يبين الله عزّ وجل العقيدة التى دفعتهم إلى هذا الاجتهاد فى طاعة الله وقت غفلة الناس :

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾

إنهم آمنوا بالله سبحانه وتعالى وبكل ما يتطلبه هذا الإيمان من اتباع لرسول الله ـ ﷺ. كيف لا وهم قد دخلوا فى هذا الدين عن علم عندهم بأنه هو دين الله الوحيد الذى جاء به محمد ـ ﷺ ـ . هؤلاء دخلوا الإسلام عن حب له وكذلك كانوا يسارعون فى الخيرات ، فاستحقوا شهادة الله سبحانه وتعالى لهم بقوله ﴿ **وأولئك من الصالحين** ﴾ .

وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

ويعدهم تعالى بجزيل الثواب على ما يقدمونه لأنفسهم من خير .

ثم يبين الله سبحانه الصنف الآخر من أهل الكتاب ومآلهم فى الآخرة بعد إعراضهم عن الإيمان برسول الله ـ ﷺ ـ فيقول سبحانه :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾

هؤلاء هم الصنف المقابل للطائفة المؤمنة من أهل الكتاب ، وهم الأكثر عددا ، فلن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا ، يوم يخلدون فى جهنم جزاءً لعنادهم وكفرهم بالله ورسوله .

ثم يقطع الله عزّ وجل كلّ أمل لهم فى النجاة إذْ إن من يتصدق منهم وينفق من ماله عسى أن ينفعه ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون ، يذهب عمله هباءً منثورا ، فيقول :

مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

إن الذين كفروا مهما قدموا من أعمال صالحة ، ومهما أنفقوا من أموالهم ، فلن تنفعهم ، ما داموا لا يؤمنون بمحمد ـ ﷺ ـ . إن ما تفعله الريح الشديدة بالحرث : من إهلاك للثمر والنبات ، مثل ما يفعله الله سبحانه وتعالى بنفقتهم .

وبعد أن كشفت الآيات الكريمة عن حقيقة أهل الكتاب من الجدال بالباطل والانحراف عن الحق : ، يأتى تحذير ربّانى للأمة المسلمة من أن تتخذ من أعدائها بطانة ، يأتمنونهم على أسرارهم ، أو يجعلون من بعضهم مستشارين فى أمور حياتهم إذْ يقول تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

وهذا إخبار من العليم الخبير العليم بذات الصدور .

﴿وما تخفى صدورهم﴾ للأمة المسلمة من كل ما سبق الحديث عنه ﴿ أكبر ﴾ مما ظهر من أفواههم ، وليس بعد هذا البيان بيان !!

فهل من تفكُّرٍ فى هذه الآيات ؟!!

هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

إن المسلم مأمور أن يعامل الناس على أساس ظاهرهم ، ولقد كان المنافقون يظهرون الإيمان للمسلمين ، ولذلك كانوا يحبونهم ، فبينت الآيات ما فى ضمائرهم : ﴿ ها أنتم﴾ أيها المؤمنون ﴿تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ .

والمؤمن : يؤمن بكتب السماء كلها ، أما هم : فلا إيمان عندهم ، إنما : الحقد

والبغض والكفر ، وبيان ذلك : أنهم ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ وهذا : كناية عن شدة حقدهم على هذه الأمة ، ويرد الله عليهم بقوله : ﴿ **قل موتوا بغيظكم** ﴾ أى : مهما اشتد غيظكم على المسلمين ودينهم فالله متم نوره . وهذا الحقد سيعود وباله عليكم أنتم فموتوا على ما أنتم عليه .

ولم يكتف أعداء الأمة المسلمة بهذه المواقف الظالمه بل هم :

إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

بذلك : يرشد الله عزّ وجل الأمة المسلمة إلى طريق النجاة من كيد أعدائها ، مهما كان هذا الكيد ، ومهما اشتدت قوته ؛ فطريق النجاة : الصبر والتقوى .

ثم تأتى الآيات التالية لتبين أن المسلمين حين التزموا بالصبر والتقوى فى بدر نصرهم الله ، وساء ذلك أعداءهم ، ولما فرطوا قليلا فى غزوة أحد دارت الدائرة عليهم ، لتردهم إلى التمسك الكامل بطريق النصر والصبر والتقوى . إذْ يقول تعالى :

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

هاتان الآيتان الكريمتان: تتحدثان عن غزوة أحد، التى كانت فـى شوال سنة ٣ هـ.

وسببها : أن أهل مكة لما قتل منهم من قتل من رؤسائهم ونجت العير وقائدها أبو سفيان ؛ قال أبناء من قتلوا لأبى سفيان : أرصد أموال هذه القافلة لقتل محمد ، فأنفقوها وجمعوا الجموع ونزلوا قريبا من أحد ، القريب من المدينة ، وخرجت نساؤهم معهم حتى يحرضن الجيش على القتال ، ووصل الخبر النبى ـ ﷺ ـ يوم الجمعة ، فصلى الجمعة بالمسلمين ، واستشار أصحابه : هل نخرج إلى الكفار فنقاتلهم خارج المدينة أو نقاتلهم داخلها ؟ . وكان أسبق الناس إلى إعطاء الرأى : « عبد الله بن أُبىّ » رأس المنافقين ، الذى رأى أن يمكث الرسول ـ ﷺ ـ بالمدينة ، فهى خير حصن ، وإن دخل الكفار عليهم : قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من

فوقهم . وأشار آخرون من الصحابة ممن لم يشهدوا بدرًا : بالخروج إليهم . ولم يجب الرسول ـ أحدًا من الفريقين ، بل دخل ـ ﷺ ـ فلبس لأمته وخرج عليهم ، وقد ندم بعضهم ، وقالوا : لعلنا استكرهنا رسول الله ـ ﷺ ـ ، فقالوا يا رسول الله : إن شئت أن نمكث ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يرجع حتى يحكم الله له . فسار عليه الصلاة والسلام فى ألف من أصحابه . . ورجع عبد الله بن أبى بثلث الجيش . . . واستمر رسول الله ـ ﷺ ـ سائرا حتى نزل الشِّعب من أحد فى عدوة الوادى ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال : « لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال . ويكمل ابن كثير القصة فيقول [1] وتهيأ رسول الله ـ ﷺ ـ للقتال وهو فى سبعمائة من أصحابه وأمَّر على الرماة (عبد الله بن جبير) أخا بنى عمرو بن عوف ، والرماة يومئذ خمسون رجلاً فقال لهم ـ ﷺ ـ « . . . الزموا مكانكم . . .

وتهيأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائة فرس . . »

وبدأت المعركة وبدأ النصر يلوح للمسلمين ، ولكن الله عزّ وجل أراد شيئًا آخر وهو أن يلقن الأمة دروسا ما كانت لتتعلمها لو انتهت المعركة بالنصر على المشركين ، وهى تربية المؤمنين على الصبر والتقوى ، والجندية الكاملة ، والتزام الطاعة لأوامر الله ورسوله ، ولأوامر القيادة ، مهما كانت هذه الأوامر تتعارض مع وجهة نظر الجندى . هذه الدروس تبدأ من رؤية الرماة لجيش المسلمين وهو يجمع الغنائم . فنسوا أوامر القيادة :

« لا نؤتين من قبلكم والزموا مكانكم إن كانت النوبه لنا أو علينا وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم» .

هذه الأوامر الصارمة القاطعة التى لا تقبل التأويل ، ولكن الله قدر ما قدر . ونسى الرماة أوامر القائد ولم يصبروا ، وفارقوا مكانهم ، وشغلوا بجمع الغنائم ، فاستغل خالد بن الوليد ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ الفرصة وعلا الجبل بجيشه وظل يرمى المسلمين من أعلى الجبل ، وأبلى المؤمنون بلاءً شديدًا ، وكان يوما عصيبا عليهم ، وكان درسًا قاسيًا يجب أن نستفيد منه فى كل مرحلة من مراحل دعوتنا .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ١٢٣

إن الله سبحانه وتعالى يضع أمام المسلمين نصره لهم يوم بدر بجوار ماحدث لهم يوم

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠١ .

أحد ، وذلك ليستعرضوا أسباب النصر فى بدر وأسباب الانهزام فى أحد . وبعد أن وعوا الدرس جيدًا يأتى التوجيه الإلهى ﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ أى سارعوا إلى تقوى الله وارجعوا إليه وتوبوا عما بدر منكم يوم أحد لعل الله يقبل توبتكم ويكتبكم من الشاكرين له .

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾

أخلص المسلمون التوجه إلى الله ، والتفوا حول نبيهم ، وأيقنوا أن النصر لا يكون إلا من الله وحده ، فلم ترهبهم كثرة عدوهم ومهاراتهم القتالية ، لأنهم يحتمون بجناب الله ، ويدافعون عن دين الله ، لا لأجل مغنم أو مأرب من مآرب الدنيا ، ولكن لتمكين دين الله فى أرض الله . فحق أن تتنزل عليهم الملائكة ، ألفا ، فثلاثة ، فخمسة آلاف من الملائكة .

بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

يقول ابن عباس رضى الله عنه : أتت الملائكة محمدا ـ ﷺ ـ مسومين بالصوف فسوّم محمد وأصحابه أنفسهم وخيلهم على سيماهم بالصوف . وقال قتادة وعكرمة (مسوّمين) أى بسيما القتال و«عن ابن عباس قال : كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها فى ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمر ، ولم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر »(١).

وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

وما جعل الله عزّ وجل إمداد المسلمين بالملائكة فى بدر إلا بشرى لهم ، وطمأنةً لقلوبهم . ولو شاء ربنا لانتصر منهم بلا قتال منكم لهم ولكن لله الحكمة البالغة .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٤٠٢ .

وهذه الآية تشتمل على دروس السماء ، فعلى الأمة أن توقن بهذا الدرس وتتعلم أنها بنفسها لا تجلب النصر .

إن النصر غير مرتبط بكثرة العدد والعدّة . وإن النصر ليس بالتفوق المادى وإن كانت الأمة مطالبة به أشد المطالبة . ولكنه سبب من الأسباب . والأسباب لا تؤثر فى النتائج بنفسها ، ولكن خالق الأسباب وحده هوالذى يملك النصر .

إن المؤمن حينما يوقن بهذا الدرس ينطلق فى جهاده لأعداء الله بعد ألا يدخر جهدا فى إعداد العدة ، ولا يهاب عدوا مهما كانت عدته ، فهو فى كل حال من أحواله يحقق إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . إنه درس حينما تعيه الأمة تجلب النصر المؤزر، وحينما تغفل عنه تحل بها الهزائم والنكسات ، والتاريخ خير شاهد على ذلك .

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

إن الله عزّ وجل لو شاء لأهلك المشركين وهم فى ديارهم ، ولم يجر أى تقابل بينهم وبين المسلمين ، ولكن حكمة الله البالغة شاءت ذلك ، ليهلك جزءًا منهم أو يخزيهم ويغيظهم بالهزيمة تقوية للمؤمنين .

لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾

عن أنس رضى الله عنه أن النبى ـ ﷺ ـ كُسرت رباعيته يوم أحد ، وشج فى وجهه حتى سال منه الدم فقال : « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عزّ وجل » ؟ فأنزل الله **﴿ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾**[1] .

وبعد نزول الآية : ترك رسول الله ـ ﷺ ـ الدعاءَ على مَنْ كان يدعو عليهم .

وبذلك : يربى الله عزّ وجل نبيه ـ ﷺ ـ ، والأمة كلها على عدم الدعاء على الظالمين ـ وهى منزلة رفيعة فى تفويض الأمر كله لله ـ فلعل فيهم من سيقلع عن ظلمه ويفىء إلى الإسلام ويكون جنديًّا لله .

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٠٣ .

وهى فى الوقت نفسه : تربية على عدم التدخل فيما هو من اختصاص المولى عز وجل .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢٩﴾

يبين الله عزّ وجلّ أن ما فى السموات والأرض ملك لله وحده .

فإذا كان الأمر كذلك ، وهو حقا كذلك فمن يملك ، ومن يغفر ، أو يعذب ، وهو وحده ـ ولا أحد غيره ـ الذى يملك هذا الحق ؟

وبهذه الآية وأمثالها : يقضى الإسلام على كراسى الاعتراف ، وصكوك الغفران ومهزلتها ، والحرمات التى ابتدعها الأحبار والرهبان . . ! !

وفى الآية ملمح يجب أن نتلمسه : هو تقديم المغفرة فى الآية على العذاب . وهذا من رحمة الله تعالى الواسعة .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٣٠﴾

قبل أن تتحدث الآيات عن التعقيب على غزوتى بدر وأحد تأتى هذه الآيات لتحدث معركة فى داخل النفس المؤمنة ، وهى معركة التطهير من المعاملات الآثمة ، مثل الربا ، انطلاقا من تقوى الله ـ ليحل محله الإنفاق فى سبيل الله، فى السراء والضراء، ليتم بناء المجتمع المسلم المتكامل على الخير .

كان العرب فى الجاهلية يقرضون بعضهم البعض إلى أجل محدود بزيادة يتفقون عليها . فإذا حل ميقات سداد الدين ولم يستطع المدين أن يقضى ما عليه ضوعف عليه مقدار ما كان سيدفعه من زيادة . ولأن الله عزّ وجل يريد أن يطهر المجتمع المسلم من هذا الإثم : فقد نهاهم هنا أن يتعاملوا به .

وقوله تعالى: ﴿مضاعفة﴾ إشارة إلى تكرير التضعيف عاما بعد عام، كما كانوا يضعّفون.

وفيه : توبيخ للفعل ، لا تقييد للحرمة ، بمعنى : أنه ليس المراد من قوله تعالى ﴿أضعافا مضاعفة﴾ أن هذا النوع من الربا حرام دون غيره . وتخصيص هذا النوع بالذكر فى الآية : إما لمزيد التوبيخ لهم على فعله وإما بحسب الواقع ، فيكون قيدًا للنهى

بحسب ما كانوا عليه ، وليس قيدا للنهى مطلقا ، حتى لا يفهم منه ، أو يستدل به ، على أن الربا بدون هذا القيد جائز[1]. « . . إنه فى الحقيقة ليس وصفاً تاريخيًّا فقط للعمليات الربوية التى كانت واقعة فى الجزيرة ، والتى قصد إليها النهى هنا بالذات ، إنما هو وصف ملازم للنظام الربوى المقيت ، أيًّا كان سعر الفائدة .[2]»

هذا : وقد ذكرت سورة البقرة النهى المطلق عن الربا أيـا كان قدره فـى قوله تعـالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾[3] .

ولا تزال أصوات شاذة تخرج على المسلمين بين الحين والحين ، تدعى : أن الله تعالى ما حرم من الربا إلا إذا كان أضعافا مضاعفة ، أما العشرة فى المائة أو العشرون فى المائة : فلا حرمة فيها. وهؤلاء إما جهلاء : وإما أنهم يفهمون الإسلام ويريدون هدمه عمالةً لأعدائه .

وأعداء الإسلام فى كل مكان : لا يروقهم أن يتحرر المسلمون اقتصاديا ، ويبنوا اقتصادهم على منهج شريعتهم ، لذلك فهم يحاربون أى نـظام اقتصادى يقوم على غير الربا ، وعلى المسلمين أن يعيدوا حساباتهم ويعرفوا مكر أعدائهم بهم. فالربا مدمر لاقتصاد أية أمة مهما كان قويا ، وانظر إلى ما تدفعه الدول الفقيرة من الربا على قروضها .

إن فلاح الأمة معلق على تقوى الله . ومن مستلزمات التقوى ترك الربا والخوف من الله تعالى ، ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ١٣١

الذين لم يؤمنوا برسول الله ـ ﷺ ـ ، ولم يحكموا كتاب الله بينهم ، هؤلاء أعدّ الله لهم نارا يصلونها .

وإن الخروج عن طاعة الله ، والخروج عن الانقياد لأمره ، سواء فى ترك الربا أو غيره من المحرمات ، يوصل إلى الكفر ، ويدخل فى النار.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ١٣٢

إن رحمة الله سبحانه تتنزل على : من كانت طاعة الله وطاعة رسوله ، منهجًا له فى حياته ، فمن أراد رحمة الله فعليه بمفتاحها .

(١) انظر : الفتوحات الإلهية (بتصرف) ١ / ٣١٣ . (٢) فى ظلال القرآن : ١/ ٤٧٣ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٨ .

وانظر إلى حكمة مجيء هذه الآية بعد النهى عن الربا إذ يفيد ذلك أن من يأكل الربا لا يمكن أن يحب الطاعة من نفسه لله ورسوله .

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾

أى : سارعوا إلى كل ما يؤدى إلى المغفرة ، ولا تحقروا من المعروف شيئا .

وينبغى أن يلحظ المؤمن فى قوله تعالى ﴿ وسارعوا ﴾ : هذه الحركة السريعة ـ التى لا تلكؤ فيها ولا تسويف ـ نحو طاعة الله فى كل ما أمر من عبادات ومعاملات وأخلاق ، فى إطار استقامة كاملة على منهج الله عزّ وجل .

وهذه هى المسارعة الحقة : التى يستحق أصحابها بسببها وصف المتقين .

فلينظر كل منا إلى حاله مع مطالب الدنيا ومغانمها وحاله مع طاعة الله !

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ ﴾

ثم ذكر الله تعالى صفات أهل الجنة ، وأول وصف ذكره الله تعالى لأهل الجنة : أنهم ينفقون من أموالهم فى كل أحوالهم من السراء والضراء ، أى فى الشدة والرخاء والمنشط والمكره ، والصحة والمرض. وحال الإنسان يدور بين هذين الأمرين، فإن كانوا فى نعمة: فإن الإنفاق يذكرهم بالمنعم دائما ، وإن كانوا فى ضراء : لا يسخطهم ما هم فيه من ضر، وينسيهم حق الآخرين ، بل يوقنون أن النفقة ترفع البلاء. والمعنى أنهم لايشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى ، والإنفاق فى مراضيه، والإحسان إلى خلقه بأنواع البر .

ونلاحظ أن الوصف بالإنفاق : جاء فى مقابل النهى عن الربا .

ومعنى هذا : أن النفقة فى السراء والضراء ، هى البديل الشافى عن الربا المدمر للمجتمعات ، ولو وجد المقترض من يقرضه قرضا حسنا ، فضلا عن أن ينفق عليه ابتغاء مرضاة الله ، فما الذى يدعوه إلى الاقتراض بالربا ؟

إن ترك المسلمين لهذا الخلق السامى : هو الذى جعل الربا يسرى فى دماء المجتمع .

ثم يذكر لنا المولى سبحانه وتعالى من صفاتهم ـ كذلك ـ لنتحلى بها : كظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، والإحسان إليهم .

إذْ يجب أن تكون هذه الأخلاق من سماتنا ، فكم من الآثام ترتكب فى غضبة عابرة؟ وكم من خير حرم الإنسان من نفسه حين انساق فى طريق غضبه ؟

وانظر معى إلى ثمرة من ثمار العفو عن الناس ! إن الإنسان الذى يعصى الله فيك ؛ فيؤذيك ، أو يعذبك بشىء يضرك ، أو يسلط عليك من قبل عدوك ، حينما تعفو عنه وتحسن إليه : قد ينتقل من عالم المعصية إلى عالم الطاعة والتوبة إلى الله ؛ بسبب ما لمسه منك من حسن خلق .

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

وهذا وصف آخر لهؤلاء المتقين المحسنين ، فتقواهم لله ليس معناها العصمة من المعاصى ، لأن العصمة ليست إلا للأنبياء فقط ـ فهم متقون ، وقد يقعون فى معصية ، أو يغفلون عن طاعة ، ولكنهم إذا وقعوا فى غير ما يرضى الله ؛ لا يصرون على معصيتهم ، بل يذكرون الله ، ويستغفرون من ذنوبهم . يقول عزّ وجل : **﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾** [1]. فإذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار .

أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

أولئك على ما تخلقوا من أخلاق ، وعلى ما صبروا على الأذى ، وعلى ما أنفقوا من أموالهم وأوقاتهم فى سبيل الله فى السراء والضراء وعلى ذكرهم الدائم ، وكثرة توبتهم : لهم من الله مغفرة تمحو جميع ذنوبهم ، بل يجزيهم الله الجزاء الأوفى .

بعد هذه الآيات الكريمة : يقود السياق إلى التعقيب على معركة أحد ، فيقول عزّ شأنه :

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

---

(١) الأعراف : ٢٠١ .

وفى الآية تسلية من الله تعالى . أى قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين ، ولهذا قال تعالى ﴿ فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

والسنن : جمع سنة ، وهى الطريق المستقيم ، وفلان على السنة ، أى على طريق الاستواء ، لا يميل إلى شىء من الأهواء .

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

يعنى القرآن ، فيه بيان الأمور على جليتها ، وفيه خبر ما قبلكم ، وهدى لقلوبكم وموعظة .[1]

فيأهل أحد ، ويا أتباع محمد ـ ﷺ ـ ، ويا من تحملون مشعل هدايته فى العالمين ! ! لا بأس عليكم إن أصبتم فى أحد أو فى معركة من المعارك ؛ فالهزيمة ما هى إلا اختبار وتربية وتمحيص ، وإعداد لانتصارات جديدة .

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

هذه الآية : ترفع من عزائم الجماعة المسلمة دائما . ومعناها : لا تضعفوا عن مواصلة الجهاد ، لنيل إحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة ، ولا تحزنوا على من استشهد منكم ، أو يستشهد ، فى أية معركة مع الأعداء ، فأنتم الأعلون ؛ لأنكم وحدكم المؤمنون .

ونلاحظ : أن الآية قررت حكما ، هو أن الجماعة المسلمة هى الأعلى دائما ؛ ما تمسكت بمقتضيات الإيمان .

إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

«أى إن كنتم قد أصابتكم جراح ، وقُتِل منكم طائفة ، فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح »[2] .

---

(١) تفسير القرطبى : ٤/ ٢١٦ .   (٢) تفسير ابن كثير : ١/ ٤٠٨ .

والأيام تداول بين المؤمنين والكافرين . «تكون مرة للمؤمنين لينصر الله عزّ وجل دينه، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويمحص ذنوبهم ، فأما إذا لم يعْصوا فإن حزب الله هم الغالبون . » [١].

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

وهذه : حكمة أخرى من مداولة الأيام بين الناس ، وهى تمحيص الله للمؤمنين ، تمحيص تربية ، وتطهير ، وإعداد لهم، ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ أى : يهلكهم على أيدى من قامت العناية الربانية بتربيتهم وتمحيصهم ، وذلك بعد إصرارهم على الكفر، وعنادهم للحق .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

لقد أنكر الله عزّ وجل حسبان بعض المؤمنين دخولهم الجنة بلا جهاد وصبر فى سبيل الدعوة إلى الله ؛ ويقول لهم : لايحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا بالقتال والشدائد ، ويرى الله منكم المجاهدين فى سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء .

إن دخول الجنة ليس سهلاً ، إنه طريق شاق ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ [٢].

إن الجنة التى ينشدها المؤمنون : طريقها الجهاد ، والصبر على مشقاته ، وكذلك : تحمل تبعات الدعوة وتكاليفها ، والصبر على مشقات ذلك .

وما أعذب الآلام على من يذوق حلاوة الطاعة ، وحلاوة القرب من الله عزّ وجل ! !

إن كل شىء حينذاك يهون فى سبيل مرضاة الله عزّ وجل .

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

لقد تمنى الصحابة قتالا يستشهدون فيه لما سمعوا رسول الله ـ ﷺ ـ يحدث عما أعد الله من كرامة لشهداء بدر ، فأراهم الله عزّ وجل ما تمنوه بأعينهم فى أحد . وفى

---

(١) القرطبى : ٤ / ٢١٨ . (٢) العنكبوت : ٢

الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموه : فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » .

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

روى : أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أحد ، ويقول القرطبى « قال بعض الناس : قد أصيب محمد ، فأعطوهم بأيديكم ، فإنما هم إخوانكم. وقال بعضهم : إن كان محمد قد أصيب ، ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به ؛ فأنزل الله تعالى ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ إلى قوله : ﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا﴾ . . » ثم يقول بعد قليل : « فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين ، أى لم يكن لهم الانهزام وإنْ قتل محمد ، والنبوة لا تدرأ الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء ، والله أعلم »[1].

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

يقرر الله تعالى أن الآجال مقدرة ، أى لايموت أحد إلا بقدر الله ، وحتى يستوفى المدة التى ضربها الله له ، ولهذا قال ﴿ كتابًا مؤجلا ﴾ ، وقال : ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[2].

وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء ، وترغيب لهم فى القتال ، فإن الإقدام والإحجام لاينقص من العمر ولايزيد فيه ، ولا علاقة للموت بالقتال أو اقتحام المخاطر فـ ﴿ أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾[3] ـ ﴿قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾[4]. وكم من مجاهد ما ترك معركة إلا وكان فى مقدمتها، ثم مات على فراشه .

إن الجهاد لا يقدم الأجل ، والتقهقر والتخلف عن المعارك لا يطيل العمر ، وهذه قضية يجب أن ترسخ فى قلوبنا جيدًا .

وقد عرّض الله فى الآية بمن حضر المعركة فى أُحد طلبا للغنائم ، وامتدح ووعد من حضرها طاعة لله ، وابتغاء ثواب الآخرة .

---

(١) القرطبى : ٤/ ٢٢١ـ٢٢٢ .

(٢) النحل : ٦١ .

(٣) النساء : ٧٨ .

(٤) الجمعة : ٨.

ونظير هذه الآية : قوله تعالى ﴿**من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب**﴾ (١).

ثم يعاتب الله عزّ وجل الذين ضعفوا عن القتال يوم أحد بعد ما أشاع المشركون كذبا خبر استشهاد رسول الله قائلا :

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ١٤٦﴾

كم من نبى قاتل وقاتلت معه جموع كثيرة ! فما ضعفوا لما أصابهم ، وما تركوا جهادهم ، بل صبروا وصابروا ، فكونوا مثلهم ، لتكونوا نماذج مضيئة لمن بعدكم من المؤمنين ، والله يحب الصابرين .

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ١٤٧﴾

علموا أن النصر لا يكون إلا بالطاعة ، فدعوا ربهم أن يغفر ذنوبهم . وعلموا أيضا أن ثباتهم فى المعركة لا يكون إلا بتوفيق الله وعونه : فقالوا ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ وطلبوا النصر منه وحده . فالنصر لا يملكه أحد إلا الله .

وهذا أدب المسلم مع ربّه : حيث ينبغى أن يتوجه إلى الله دائما فى كل نوائبه .

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٤٨﴾

لبىّ الله دعاءهم فغنموا فى الدنيا وقهروا عدوهم ، ونالوا الدرجات العلا فى الجنة ، لأنهم أحسنوا طاعة ربهم ، وساروا على منهجه فى حياتهم ، وحملوا لواء الدعوة إلى دينه ، ففازوا وسعدوا فى الدارين .

ويذكر الإمام الرازي رحمه الله تفسيرا جميلا فى هذا الشأن فيقول : « إن هؤلاء اعترفوا بكونهم مسيئين حيث قالوا : ﴿ **ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا** ﴾ . فلما اعترفوا بذلك، سماهم الله محسنين ، كأن الله تعالى يقول لهم: إذا اعترفت

(١) الشورى : ٢٠.

بإساءتك وعجزك ، فأنا أصفك بالإحسان ، وأجعلك حبيبا لنفسى ، حتى تعلم أنه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلا بإظهار الذلة والمسكنة والعجز»[1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

لما أمر الله تعالى بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء : حذر من طاعة الكافرين ، يعنى : مشركى العرب : أبا سفيان وأصحابه ، وقيل : اليهود والنصارى وقيل : يعنى المنافقين [2]، وقيل : عام فى مطاوعة الكفرة والنزول على أحكامهم ، فإنه يجر إلى موافقتهم[3]. والمعنى أن الله تعالى يحذر عباده المؤمنين من طاعة الكافرين والمنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردى فى الدنيا والآخرة .

بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

إن مولاكم هو الله : فلا تطيعوا غيره ، لأنه هو وحده الذى سيتولى نصركم على عدوكم بإلقاء الرعب فى قلوبهم ، وهو سلاح لا يملكه أحد سواه سبحانه وتعالى .

سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

بعد أن أمر الله المؤمنين بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه ، بشرهم بأنه سيلقى فى قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم ، مع ما ادّخره لهم فى الدار الآخرة من العذاب والنكال .

روى أنه لما ارتحل جيش المشركين إلى مكة يوم أحد حتى بلغوا بعض الطريق ندموا وقالوا : سنرجع نقتل منهم ما تركناه ونستأصله ، فألقى الله فى قلوبهم الرعب ، فرجعوا عما عزموا عليه .

وقد ثبت فى الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا . وأحلت لى الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث

(١) تفسير الفخر الرازى : ٩/ ٢٥ . (٢) تفسير القرطبى : ٤ ـ ٢٣٢ .
(٣) انظر : الفتوحات الإلـهية : ١ ـ ٣٢٣ .

إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[1].

وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

روى أنه « لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أحد وقد أصيبوا ، قال بعضهم لبعض : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر ؟! فنزلت هذه الآية . وذلك أنهم قتلوا صاحب لواء المشركين وسبعة نفر منهم بعده على اللواء ، وكان الظفر ابتداءً للمسلمين ، غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة ، وترك بعض الرماة أيضا مركزهم طلبا للغنيمة ، فكان ذلك سبب الهزيمة »[2]، وهو عدم سماعهم أوامر الرسول للرماة بألا يتركوا مكانهم أبدا ولو قتل الجيش كله، إذْ لابد للجيش كله من هدف واحد ، حتى يخلص لهم النصر ، أما إذا تعددت أهدافهم : فإن الهزيمة تكون من نصيبهم .

ثم يمنّ عليهم أرحم الراحمين بعد استيعاب الدرس . بعفوه سبحانه عنهم ، فضلا منه تعالى عليهم .

۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

لقد صرف الله النصر عن المؤمنين : لما فشلوا ، وتنازعوا فى الأمر ، وترك الرماة مراكزهم، وظهرت فيهم طائفة تؤثر الدنيا على الآخرة .

كما أنه تعالى كافأهم على كل ذلك : غما على غم ، أى : هزيمة ، وضياع غنيمة ،

---

(١) رواه : البخارى كتاب الصلاة باب قول النبى ﷺ : «جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا » ورواه : مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

(٢) تفسير القرطبى : ٤ / ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

وسقوط قتلى وجرحى ، تمحيصا لهم وتدريبا على الطاعة ، لكيلا ينشغلوا بعد ذلك عن مهامهم الأساسية التى نيطت بهم ـ بالغنائم والاختلاف عليها .

وفى ختام الآية الكريمة : يهدد المولى ويتوعد من يعود لمثل هذه المخالفات ، قائلا ﴿والله خبير بما تعملون ﴾ . وفيها ـ كذلك ـ وعد بالخير والنصر : لمن يمتثل ويطيع أوامر الله تعالى ، وقادته .

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

ثم بعد هذا الدرس تفضل الله على المؤمنين الذين ثابوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، ورجعوا إلى ربهم : فغشيهم ـ من فضله ـ نعاس ، عاد إليهم به الأمن والأمان .

أما طائفة المنافقين ، وهم الذين ﴿ قد أهمتهم أنفسهم ﴾ : فلم يتفضل الله عليهم بهذه العناية ، إذْ لم يكن لهم همّ إلا نجاة أنفسهم ، حيث ظنوا أنه لن ينصر الله رسوله ، وظنوا أنه لن يعود الرسول والمؤمنون إلى المدينة .

ثم أشارت الآية إلى الكلام الذى صدر عن ظنهم الجاهلى الباطل ﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شىء ﴾ ؟ إنهم يلقون باللائمة على رسول الله ـ ﷺ ـ ، حيث لم يأخذ بمشورتهم ورأيهم . ولو عمل بمشورتنا ، وأخذ برأينا ، ومكثنا فى المدينة ولم نخرج إليهم ﴿ ما قتلنا ها هنا ﴾ .

وهذا جهل منهم ، وزعزعة ، وعدم رسوخ إيمان ، فلا يمنع حذر من قدر . ويرد الله عليهم جهلهم بأنه سبحانه يشرح صدور من كتب عليه القتل إلى الخروج من بيته ، تنفيذا لقدره عزّ وجل ، الغالب ، المحتوم ، الذى لا يفر منه أحد ، كما أن ما يجريه الله على عباده المسلمين من ابتلاء ومصاعب ومشاق ليس إلا ليخرج ما فى الصدور ،

ويظهر ما فيها من إيمان وإخلاص أو نفاق وارتياب والله عليم بذات الصدور .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

يعنى من هرب إلى المدينة فى وقت الهزيمة من أمام جيش المشركين دون من صعد الجبل ، إنما استذلهم الشيطان فكرهوا البقاء فى المعركة لكى لا يُقتلوا .

ثم أخبر الله عزّ وجل عن جزيلِ لطفه ورحمته بمن أثمر درسُ أحد فى قلوبهم ، ورجعوا إلى ربهم تائبين نادمين ، وذلك بالعفو عنهم والمغفرة لهم . . !! فسبحانك يا غفور يا حليم .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾

فى هذه الآية : ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار فى اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا فى الأسفار والحروب : لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم ، فقال تعالى : يأيها الذين آمنوا لا تكونوا مثل هذا الصنف الكافر . إنما هى أقدار وآجال ، والله يتخذ ويصطفى من عباده الصالحين شهداء فى سبيله . أما أقوالهم هذه فما وجدت فى قلوبهم إلا لتكون حسرة على ما أصابهم .

واعلم أن الذى بيده الحياة والموت هو الله ، ولا دخل للضرب فى الأرض بالسفر إلى التجارة أو غيرها من غزو ونحوه فيما يعتقدونه .

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

إن الموت فى سبيل الله أو القتل : خير من الدنيا وما فيها ، إذْ هو الموت الذى لا يدانيه شرف ، إنه رحمة من الله ومغفرة للذنوب ، فهل بعد هذا الخير من خير ؟

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

إن موتكم أو قتلكم مرجعه إلى الله ، فالذى بيده هذا كله هو خالقكم ، وستحشرون

إليه ، ليجزيكم بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءًا!

ثم يبين الله عزّ وجل خلقا ساميا من أخلاق رسوله ـ ﷺ ـ ، وهو الذى نال القسط الأوفى مما حدث يوم أحد ، بسبب مخالفة الرماة لأوامره ، فيقول سبحانه :

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

يخاطب الله تعالى رسوله ممتنا عليه وعلى المؤمنين فيها ألآن به قلبه على من خالف أمره يوم أحد بصفة خاصة وعلى أمته المتبعين لأمره بصفة عامة ، كأنه تعالى يقول له : فبأى شىء جعلك الله لهم سهلا لينا ، لولا رحمة الله بك وبهم ؟ و(ما) هنا صلة كما يقول المفسرون ، والمعنى فبرحمة من الله .

إن رحمته ـ ﷺ ـ ولين جانبه هما اللذان جمعا الناس عليه ـ ﷺ ـ ، ولو كان على غير هذا الخلق : لانفض الناس من حوله .

وهذا الخلق يجب أن يتحلى به كل من يدعو إلى الله ليجمع حوله القلوب بإذن الله .

وقد أمر الله رسوله قائلا ﴿ فاعف عنهم ﴾ وليس هذا فحسب، بل كذلك ﴿واستغفر لهم ﴾ وأيضا ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ ـ وهو أغنى الناس عن مشورة أحد ، : ليكون ذلك منهاجا لمن يخلفه ـ ﷺ ـ .

وبعد التشاور فى الأمر : ، إذا عزمت على شىء يا محمد وكذلك ـ أمتك ـ ﴿فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ أى : بعد الأخذ بأسباب اختيار أصوب الأمور، اعزم، ثم توكل على الله .

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

هذه الآية الكريمة تركز فى قلوب المؤمنين : أن النصر والخذلان مرجعهما إلى الله وحده ، وأنه سبحانه هو الذى يقدر الأسباب، وأن هذه الأسباب مهما كثرت ، والقوة المادية مهما حشدت ، مع غفلة الأمة عن الله ، حلت الهزيمة بها ، إذ لا أحد ينصركم

من غير الله إن خذلكم ، وإن نصركم الله فلن يستطيع أحد أن يغلبكم .

وهذا هو الدرس الذى يجب ألا يغيب عنا فى حياتنا ونحن نواجه الكفر والجاهلية : وهو توثيق علاقتنا بالله تعالى .

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

« لما أخلّ الرماة يوم أحد بمراكزهم خوفا من أن يستولى غيرهم من المسلمين على الغنيمة ، فلا يصرف إليهم شىء : بينّ الله سبحانه أن النبى ﷺ لا يجور فى القسمة ولا يخون فيما كان من حقكم أن تتهموه [(١)]» .

إن أنبياء الله كلهم معصومون، فلا يمكن أن يتأتى من واحد منهم خيانة فى شىء، وكيف يخونون وهم المؤتمنون على وحى السماء ، وقد اشتهروا بالأمانة بين الناس ؟

﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

إن الله عزّ وجل لا يسوى بين من اتبع رضوان الله ، ـ فلم يغْلُل ، ولم يجعل لنفسه هدفا غير اتباع مرضاة الله ـ وبين من تولى عن النبى ﷺ ، وأراد الكفر والغلول ؛ فالأول له رضوان الله فى الدنيا والآخرة ، والثانى مأواه جهنم وبئس المصير . **﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين *ما لكم كيف تحكمون﴾** [(٢)] .

﴿أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ [(٣)].

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

يعنى أهل الخير وأهل الشر درجات ، أى متفاوتون فى منازلهم ؛ فمن اتبع رضوان الله ومن باء بسخط من الله كل منهما له مكانته عند ربه ، فاحذروا اطلاع الله على قلوبكم وأعمالكم .

---

(١) تفسير القرطبى : ٤/ ٢٥٤.
(٢) القلم : ٣٥ـ٣٦ .
(٣) القصص : ٦١ .

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

يمتنّ الله سبحانه على المؤمنين بأعظم نعمة أنعمها عليهم ، وهى نعمة الرسالة التى أرسل بها النبى محمدًا ﷺ ، والتى أخرجتهم من الظلمات إلى النور، وأعادت إليهم إنسانيتهم ، وعرفوا طريق التوحيد والاستقامة بسببها ، حيث أرسل إليهم هذا النبى ﷺ بالقرآن والسنة ، فأرشدهم بعد أن كانوا من قبله فى ضلال كبير، وجهل مطلق . ﴿من أنفسهم ﴾ أى من جنسهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به .

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

إن الحديث عن غزوة أحد وما لحق المسلمين فيها من إصابات : لم ينته ، بل ما تزال الآيات تذكر المسلمين بفضل الله عليهم يوم بدر، وتضع أسباب الانهزام يوم أحد أمام أعينهم ، وتربيهم على أن يرجع كل مسلم عند أية مصيبة إلى نفسه ، ليفتش وينقب عما اقترف من ذنوب . ﴿ قد أصبتم مثليها ﴾ أى يوم بدر؛ فلقد أصاب المسلمون من المشركين يوم بدر ضعف ما أصاب المشركون منهم يوم أحد ؛ فلم تستغربون وتقولون : من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ؟ ونحن نقاتل من أجل الله ، ونحن مسلمون ، وفينا رسول الله ، وأعداؤنا مشركون ؟ ﴿قل هو من عند أنفسكم ﴾ يعنى : مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ كما سبق القول .

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

يبين الله سبحانه فى هذه الآية : أن كل ما يحدث فى الكون بإذن الله . أى أن «فراركم بين يدى عدوكم، وقتلهم لجماعة منكم، وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة فى ذلك، ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أى الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا»[1] .

(١) تفسير ابن كثير : ١/ ٤٢٥ .

وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

إن من حكم إنزال الهزيمة بالمسلمين فى أحد: إظهار علم الله الأزلى فى واقع الناس، ليكون علم مشاهدة؛ إذ يُميّز الله المؤمنين وهم الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ واستشهدوا، من المنافقين وهم فئة عبد الله بن أبى بن سلول، الذين رجعوا معه فى أثناء الطريق عن نصرة النبى ﷺ فاتبعهم رجال من المؤمنين يحرضونهم على الإتيان والقتال والمساعدة، ولهذا قال ﴿أو ادفعوا﴾ أى: كونوا معنا دون أن تقاتلوا، ليكثر سوادنا، أمام أعدائنا، فيكون ذلك دفعا وقمعا، فتعللوا قائلين ﴿ **لو نعلم قتالا لاتبعناكم**﴾ قال مجاهد: « يعنون لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم؛ ولكن لا تلقون قتالا »[1] ﴿ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان** ﴾ أى: قد بان حالهم، وانكشف سترهم وظهر نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون؛ فصاروا أقرب إلى الكفر فى ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين فى الحقيقة، وواقع الحال[2].

ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

لما انتهت المعركة، وأسفرت عما أسفرت عنه: نفث المنافقون سمومهم فيما بينهم، فقالوا: لو أطاعونا وقبلوا مشورتنا، فلم يخرجوا من المدينة، ما قتل من قتل من المسلمين.

ويأتى الرد ليصحح هذه العقائد الفاسدة ﴿ **قل فادرءوا عن أنفسكم الموت**﴾ أى: فادفعوا وامنعوا عن أنفسكم الموت حين يأتيكم الملك الموكل بكم، لقبض أرواحكم فى غير وقت القتال، ودون الخروج، إن كنتم صادقين فى مشورتكم وزعمكم..!!

وهيهات.. هيات..!!

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

---

(١) انظر ابن كثير: ١/ ٤٢٥.　　(٢) انظر: القرطبى ٤/ ٢٦٧.

بعد أنْ ميَّز الله عز وجل المؤمنين من المنافقين ، وكشف أباطيل المنافقين ، وردّ مكائدهم إلى نحورهم ، طمأن الله عزّ وجل قلوب المؤمنين على مصير الشهداء ، فأنزل الله هذه الآية مصححًا بعض المفاهيم عن الشهيد ، فيخبرنا تعالى أن الشهداء وإن قتلوا فى هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة فى دار القرار .

إذ لما بينت الآية السابقة : أن الحذر لا ينجى من القدر ، وأن الشجاعة فى مواجهة المخاطر لا تقدم أجلا ، وأن الجبن والتخاذل لا يؤخر موتا ، أو يطيل عمرًا ، بين سبحانه فى هذه الآية : أن من قتل فى سبيل الله لم يمت، بل هو حىّ عند الله فى جنة عرضها السموات والأرض ، تجرى عليه أرزاق الخالق ، كما كانت تجرى عليه فى الدنيا ـ وحياته حيئذٍ أكمل وأفضل من حياته فى دار الدنيا .

والآية : فى شهداء أحد ، وقيل : بل هى عامة فى جميع الشهداء (١) .

وقد اختلف العلماء حول معنى هذه الحياة . فالذى عليه المعْظم هو «أن حياة الشهداء محققة (٢) . ثم منهم من يقول : تُرد إليهم الأرواح فى قبورهم ، فينعمون ، كما يحيا الكفار فى قبورهم ، فيعذبون . وقال مجاهد : يرزقون من ثمر الجنة ، أى يجدون ريحها وليسوا فيها . وصار قوم إلى أن هذا مجاز. والمعنى أنهم فى حكم الله مستحقون للتنعّم فى الجنة وهو كما يقال : ما مات فلان، أى : ذكره حى ؛ كما قيل :

مَـوْتُ التقـىِّ حَيَـاةٌ لا فَنَـاءَ لـها
قد مات قومٌ وهمْ فى الناسِ أحيـاءُ » (٣)

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ١٧٠

إن هؤلاء الشهداء الذين قتلوا فى سبيل إعلاء كلمة الله ، فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة . ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم فى سبيل الله ، أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لايخافون مما أمامهم ، ولايحزنون على ماتركوه وراءهم .

وبعد أن أخبر الله عزّ وجل أنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، يخبر تعالى كذلك أنهم يتمنون أن يردوا إلى الدنيا فيقتلوا عشر مرات .

---

(١) القرطبى : ٤/ ٢٦٨ .
(٢) للتوسع انظر : مبحث « الحياة البرزخية » من كتاب « زاد الدعاة » ٢ / ٩٥ الطبعة الثالثة للمراجع .
(٣)تفسير القرطبى : ٤ / ٢٦٩ .

روى البخارى ومسلم ـ واللفظ له ـ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أنها ترجع إلى الدنيا ولا أن لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل فى الدنيا لما يرى من فضل الشهادة»[1] .

إن الشهداء يستبشرون بإخوانهم الذين يسيرون على درب الجهاد فى سبيل الله حتى إنهم يقولون لما رأوا ما أعد لهم فى الجنة : يا ليت إخواننا الذين فى الدنيا يعلمون ما عرفناه من الكرامة .

وكفى بهذه الآية ترغيبا فى الشهادة فى سبيل الله .

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٧١ ﴾

إنهم فى بشارات متعددة من ربهم الكريم ، وفضائل لا تحصى . وهذا هو كرم الله عزّ وجل .

فهل من مشمر عن ساعديه لينال الشهادة فى سبيل الله؟ .

فما تأخرت الأمة إلا بعد أن تركت الجهاد ! وما تداعت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها إلا بعد أن هابت عدوها ، ورغبت فى الدنيا واشترتها بالآخرة !!

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ١٧٢ ﴾

كان هذا يوم حمراء الأسد . فبعد أن عزّى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ والمؤمنين عمن قتل منهم يوم أحد فى سبيله بأفضل أنواع التعزية وألطفها ، بأن ذكر ما أعدّ لهم من الكرامة والفضل : ذكر سبحانه وتعالى حال من رجع من أحد ، وموقفهم من إرهاب عدوهم ، وتجمعهم لاستئصالهم .

وسبب ذلك :«أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد ، وبلغوا الروحاء ، ندموا، وقالوا : إنا قتلنا أكثرهم ولم يبق منهم إلا القليل ، فلم تركناهم ؟ بل الواجب أن نرجع ونستأصلهم . فهموا بالرجوع . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأراد أن يرهب

---

(١) رواه البخارى كتاب الجهاد باب : تمنى المجاهد أن يرجع إلى الدنيا ورواه مسلم كتاب الإمارة باب فضل الشهادة فى سبيل الله تعالى .

الكفار ، ويريهم من نفسه ومن أصحابه قوة ، فندب أصحابه إلى الخروج فى طلب أبى سفيان وقال : " أريد أن يخرج الآن معى إلا من كان معى فى القتال . فخرج الرسول ـ ﷺ ـ مع قوم من أصحابه ، قيل كانوا سبعين رجلا ، حتى بلغوا حمراء الأسد ، وهى من المدينة على ثلاثة أميال ، فألقى الله الرعب فى قلوب المشركين ، فانهزموا . »[1] وانصرفوا إلى مكة مسرعين . وكانت غزوة حمراء الأسد صبيحة يوم أحد ، فأقام بها الرسول الاثنين والثلاثاء والأربعاء ، ثم رجع إلى المدينة ، مما يؤكد أنه لم يكن هناك هزيمة واضحة فى هذه الغزوة ، لأن للهزيمة معالم لاتنطبق على هذه المعركة ، منها الاستيلاء على الأرض أو قتل القائد أو سبى النساء وغير ذلك .

هذا وقد وعد الله عزّ وجل الذين استجابوا لرسول الله ـ ﷺ ـ على ما هم من جهد ومشقة أجرًا عظيما فقال سبحانه ﴿ للذين أحسنوا منهم واتقوْا أجرٌ عظيم ﴾ .

ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

وهذه الآية أيضا وإن كان نزولها للسبب نفسه : إلا أنها تدعو المسلمين فى كل الأزمان ألا يخافوا جموع أعدائهم ، وأن يحسبوا عليهم ربهم ، فهو حسبهم ونعم الوكيل .

إن تجمع الجموع لحرب المسلمين لا يزيد المسلمين الصادقين إلا إيمانا ، ولا يزيدهم إلا اعتصاما بحبل الله ، وثقة فى دينهم ، واطمئنانا إلى مولاهم ، حيث إن النبى ـ ﷺ ـ وصحابته لم يضعفوا حين ﴿قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم﴾ ، بل كان ذلك عاملاً قويا من عوامل اطمئنانهم ، واعتزازهم ، وتمسكهم بدينهم !!

وهذا هو السبيل إلى النصر ، لا ترهبنا الجموع ، ولا ترهبنا الأحلاف ، ولا ترهبنا الاتحادات المعادية بل لا يزيدنا ذلك إلا استمساكًا بديننا ، واعتصامًا به ، والتجاءً إلى الله .

عن ابن عباس : ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ـ ﷺ ـ حين قال الناس ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[2] .

« . . . . وهذه الواقعة تدل دلالة ظاهرة على أن كل أمر بقضاء الله وقدره .

---

(١) تفسير الرازى : ٩ ـ ٧٩ الطبعة الثالثة ـ دار إحياء التراث العربى ـ بيروت .

(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٣٠ .

«وذلك لأن المسلمين لما انهزموا عسكريا من المشركين يوم أحد : كان المقتضى ـ بحكم العادة ـ أن يحصل لهم ذل وانكسار وضعف ، إلا أن الله سبحانه وتعالى : قلب القضية ههنا ، حيث قذف فى قلوب الغالبين ، وهم المشركون ، الخوف والرعب ، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصلابة .

«وذلك يدل على أن الدواعى والصوارف من الله تعالى ، وأنها متى حدثت فى القلوب وقعت الأفعال على وفقها »[1] .

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾

«قال علماؤنا : لما فوّضوا أمورهم إليه ، واعتمدوا بقلوبهم عليه ، أعطاهم من الجزاء أربعة معان : النعمة ، والفضل ، وصرف السوء ، واتباع الرضا . فرضّاهم عنه ورضى عنهم »[2] .

وبعد . . فإن آلام أحد قد زالت ، وجراحها قد برئت ، وآثارها قد محيت ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء . وقد أخذ تعالى يبين مكر الشيطان وأوليائه ، ويحث المؤمنين على خوفهم منه تعالى فقط فيقول :

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٥﴾

فلا تخافوا أحدًا إلا الله ، وهو من تمام الإيمان. وهذا يكمن فى قوله ﴿ إن كنتم مؤمنين﴾ .

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾

يأمر الله عز وجل رسوله والأمة كلها من خلاله ـ ﷺ ـ : ألا يحزنوا على كفر من كفر ، وعناد من يعاند ، وإن كثروا وانتشر باطلهم ، فإنهم لن يضروا الله شيئا ، ولن ينقصوا من ملك الله شيئا ، ولا من سلطانه سبحانه .

---

(١) انظر تفسير الرازى : ٩/ ٨١ـ ٨٢ بتصرف .

(٢) تفسير القرطبى : ٤ / ٢٨٢ .

أخرج الإمام مسلم عن أبى ذر عن النبى ـ ﷺ ـ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا. يا عبادى : كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم . يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم . يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى . يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . يا عبادى : لو أنّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكى شيئًا . ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . ياعبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1] .

وكما أن الله يريد ألا يجعل للذين يسارعون فى الكفر حظًّا ونصيبًا فى الآخرة، فإنه يتوعدهم ـ كذلك ـ بالعذاب العظيم .

نعم لابد من الاختبار والابتلاء بالأوامر والنواهى :

فمن التزم وآمن ، فقد نجا ، ومن أعرض ونأى بجانبه ، فقد هلك .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾

إن الذين يسارعون فى الكفر : هم الذين اشتروا الكفر بالإيمان ، وهل يشترى الكفر بالإيمان ، عاقل ؟ وهل يشترى الكفر بالإيمان إنسان يحب الخير لنفسه ؟ إنه عمى البصيرة وطمس الفطرة ، نعوذ بالله من الخذلان .

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾

---

(١) رواه مسلم كتاب البر باب تحريم الظلم .

إن هذه الآية الكريمة ، تجيب عن بعض ما يدور فى الصدور : كيف يترك الله الباطل يصول ويجول ويظهر فى بعض الأحيان ؟ وكيف يتمكن أهل الباطل من إنزال الأذى بأولياء الله ؟ حيث تعالج هذه التساؤلات بقوله تعالى : ﴿إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ﴾ ليزدادوا فى غيهم وضلالهم ، وهذا هو كيد الله لهم ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا﴾ [(١)] ـ ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ [(٢)] .

هؤلاء لهم عذاب مهين يوم القيامة .

مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

«أى : ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ـ أيها الكفار والمنافقون ـ من : الكفر ، والنفاق ، وعداوة النبى ﷺ .

بل إنه سبحانه يفرق بين الخبيث والطيب : بالمحنة والتكليف .

وكذلك : ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أى : على من يستحق النبوة ، حتى يكون الوحى باختياركم .

بل إنه سبحانه يختار من رسله من يشاء ليطلعه على غيبه تعالى .

ولذلك : فعليكم الإيمان والتصديق لا التشوف إلى اطلاع الغيب ، الذى لايعلمه إلا الله .

﴿وإن تؤمنوا وتتقوا ﴾ : فلكم الجنة ، وهو ﴿ أجر عظيم ﴾ ، وهذا هو الطريق الوحيد: للنجاة» [(٣)] .

وإلى هنا ينتهى الحديث عن غزوة أحد بعد بيان ما فيها من دروس .

ثم يبدأ درس آخر من دروس المعركة ، بين الأمة المسلمة وبين أعدائها ، وبخاصة اليهود . فيقول الله تعالى :

---

(١) الطارق : ١٧ . (٢) القلم : ٤٤ ـ ٤٥

(٣) انظر : تفسير القرطبى : ٤ ـ ٢٩٠ (بتصرف واختصار) .

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَـٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

تعالج هذه الآية : قضية البخل ، وتبين أن إمساك المال عن أهله ، ممن لهم حق فيه ، سيعود بالهلاك على صاحبه فى الآخرة .

إن المالك الحقيقى للمال ـ فى نظر الإسلام ـ هو الله وحده ، والناس مستخلفون فيه . يقول الله : ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ [١] ـ ﴿ **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** ﴾ [٢] .

وقد بين الإسلام معالم هذه القضية بما لا خفاء فيه. وقد وعى المسلمون هذه الحقيقة : فكانوا يقومون فى أموالهم بما يرضى الله سبحانه ـ المالك الحقيقى ـ فنجدهم ﴿ **يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ . ونجدهم يجاهدون بأموالهم فى سبيل الله ، كما يجاهدون بأنفسهم هم ، ونجدهم يحسنون القيام بواجب الوكالة عن الله فى الأموال ، .

ولقد كان الرسول ـ ﷺ ـ القدوة للأمة فى ذلك ، إذْ كان أجود من الريح المرسلة ، كما كان ـ ﷺ ـ يحث المسلمين دائما على القيام فى أموالهم بما يرضى مولاهم .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ، مُثل له يوم القيامة شجاعا [٣] أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بِلهْزِمَتيه ـ يعنى شدقية ـ ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا ﴿ **ولايحسبن الذين يبخلون** . . ﴾ الآية [٤] .

نعم : فالكل سيترك ما تحت يده ، وكلنا راحلون عن أموالنا وأهلينا ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾ .

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

---

(١) الحديد : ٧ . (٢) النور : ٣٣ .

(٣) شجاعا : نوع من الحيات . (٤) كتاب الزكاة باب إثم مانع الزكاة .

«لما نزل قوله تعالى : ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾[1] قالت اليهود : يا محمد : افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟!! فأنزل الله ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ »[2].

وهذا هو دأب اليهود والمعروف عنهم من سوابق سوء الخلق ، وعدم التأدب مع الله ، وتحدى المؤمنين ، وسلاطة ألسنتهم ، وتشبيه يد الله بالغل . ـ غُلَّت أيديهم ـ فليس بعيدا عليهم أن يقولوا هذا القول ﴿سنكتب ما قالوا﴾ ونقدمه لهم فى صحائف أعمالهم ، ونكتب ﴿ قتلهم الأنبياء ﴾ السابقين بدون حق .

وهذه هى بعض جرائمهم . . !! فعلينا أن نعتبر من هذه الجرائم التى ينسبها الخالق إليهم ، فهم هكذا، ودائما يكونون !!

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

سنقول لهم ذوقوا العذاب الشديد بما أسلفتم من جرائم بشعة . وهذا من عدل الله . ولا يظلم ربك أحدا .

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

نزلت فى وفد من اليهود أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : «إننا فى كتبنا قد عهد الله إلينا ألا نؤمن بأى رسول حتى يأتينا بقربان (صدقة) تأكله النار ، وهذه دلالة من دلالات النبوة التى نصدق بها أى نبى ، وأنت يا محمد ما فعلت ذلك ، ولا رأينا ذلك عندك . فإن جئتنا به صدقناك ، وإلا فلست من الأنبياء[3].

وكان ذلك منهم على سبيل التعنت ، لا على سبيل الاسترشاد[4].

ولذلك : قل لهم يا محمد ﴿ قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات ﴾ الدالة على صدقهم، وكذلك ﴿ وبالذى قلتم﴾ أى جاءوكم بالذى طلبتم منهم قبلا ، وتطلبونه الآن ﴿ فلم قتلتموهم﴾ إذن . . ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تطلبون ؟!

---

(١) البقرة : ٢٤٥ .
(٢) تفسير ابن كثير : ١/ ٤٣٣ .
(٣) القرطبى : ٤/ ٢٩٥ .
(٤) الفخر الرازى : ١/ ١٢١ .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

فإن كذبوك بعد هذا الذى بينته ، فلا تحزن ، ولا تغتم ، فهذا هو دأبهم ومسلكهم . فقد كذب رسلٌ كثيرون قبلك مع مجيئهم بالدلالات الواضحة . منهم نوح وهود وصالح وإبراهيم وشعيب وموسى ولوط وغيرهم . (الزبر) يعنى الكتب، فكتاب مزبور أى مكتوب . ﴿ والكتاب المنير ﴾ أى الواضح الجلى .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

«المقصود من هذه الآية : تأكيد تسلية الرسول ﷺ ، والمبالغة فى إزالة الحزن من قلبه ، وذلك من وجهين : أحدهما : أن عاقبة الكل الموت . وهذه الغموم والأحزان تذهب وتزول، ولا يبقى شىء منها ، والحزن متى كان كذلك لم يلتفت العاقل إليه . والثانى : أن بعد هذه الدار دارًا يميز فيها المحسن عن المسىء »[1].

فالفائز برضوان الله : هو الذى سيُبْعَد عن النار ، ويدخل الجنة برحمة الله ورضوانه، وما هذه الحياة : إلا غمضة من الدهر تمر ، وإن طالت : فهى دنيئة حقيرة .

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾

الخطاب هنا موجه إلى النبى ﷺ والمعنى : لتختبرن ولتمتحنن فى متاعكم وأموالكم ، وذلك بالمصائب التى تحل عليها ، أو بالإنفاق منها فى سبيل الله وبقية تكاليف الإسلام الموجهة إلى المال .

أما الابتلاء فى النفس فيكون بالمرض وألمه ، والموت وصعوبة الفراق .

---

(١) تفسير الرازى : ٩ : ١٠١ .

وللمال وظيفة كبرى فى الإسلام ، فهو : وكل ما يملك المرء ، ملك لله سبحانه وتعالى، وهو الرازق ، والمسبب للأرزاق . فللفقراء نصيب من أموالنا ، فمنه تخرج الصدقات ، وتؤدى الزكاة ، وإن لم يسخر المال لأعمال الخير : فهو نقمة على صاحبه وابتلاء .

نعم إن المال ييسر حوائج الإنسان فى الدنيا ، ولكن إذا كان جمعه فى حد ذاته : خرج عن مفهوم وظيفته. وقد تكلمنا عن قيمة المال ووظيفته وأهميته فى تفسير سورة البقرة .

والبلاء : هو ما قد بينه الله تعالى فى موقف آخر ﴿ **ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾ (١).

إن الله يسلى عباده المؤمنين عند مقدمهم المدينة المنورة قبل غزوة بدر الشهيرة. يسليهم عما يصيبهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين . آمرًا إياهم بالصفح والعفو، فإن لكل ذلك جزاءً عظيما .

ثم يشد على أيديهم ، ويشحذ هممهم ، ويقوى عزائمهم ، بقوله تعالى : ﴿**وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور**﴾ .

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾

هذه الآية : تنعى على أهل الكتاب مسلكهم وتصرفاتهم ، فهى توبخهم وتهددهم حيث إنهم أمروا أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وببيان أمره ، وما أنزل عليه ، وذلك بأن الله أخذ عليهم العهد على ألسنة أنبيائهم بذلك ، وألا يكتموا شيئا من ذلك العلم، وهذا العهد الذى يعرفون بمقتضاه صفة محمد ونعته . لكنهم خالفوا العهد ونبذوه وراء ظهورهم واستبدلوا به قيمة رخيصه وثمنًا بخسا ، فبئست الصفقة صفقتهم ! وبئست البيعة بيعتهم كما يقول ابن كثير !! (٢) .

وهذا هو عهد اليهود دائما وما يزالون : بارعون فى نقض العهود والمواثيق ، ولم

---

(١) البقرة : ١٥٥ .
(٢) ١ / ٤٣٦ .

الحقائق، والهروب من الواقع ، خبثاء فى أنفسهم ، غادرون على من حولهم ، ناقضون كل بناء عتيد .

وفى هذا درس من الله سبحانه لكل إنسان ، ولكل أمة ، أن يحذر ـ وأن تحذر ـ منهم .

«قال الحسن وقتادة : هى ـ الآية ـ فى كل من أوتى علم شىء من الكتاب ، فمن علم شيئا فليعلمه ، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة . وقال محمد بن كعب.

لا يحلّ لعالم أن يسكت على علمه ولا للجاهل أن يسكت على جهله [1]» .

وفى هذا : تأكيد لقيمة العلم ، وأثره بين الناس ، وقيمة نقله وإشاعته وتعليمه .

لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

كان رجال من المنافقين« إذا خرج النبى ـ ﷺ ـ إلى الغزو : تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ـ ﷺ ـ ، فإذا قدم النبى ـ ﷺ ـ : اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت الآية» [2].

وفى رواية للضحاك أوردها القرطبى كذلك : «أن اليهود كانوا يقولون للملوك إنا نجد فى كتابنا أن الله يبعث نبيا فى آخر الزمان يختم به النبوة ، فلما بعثه الله سألهم الملوك أهو هذا الذى تجدونه فى كتابكم ؟ فقال اليهود طمعا فى أموال الملوك : هو غير هذا فأعطاهم الملوك الخزائن ، فقال الله تعالى ؛ ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا﴾ الملوك من الكذب ، حتى يأخذوا عرض الدنيا. [3] » فلا تحسب يا محمد أن هؤلاء الملاعين ناجون من النار .

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

وهذا احتجاج على الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء وتكذيب لهم [4].

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

---

(١) انظر تفسير القرطبى : ١ / ٣٠٤ . (٢) ، (٣) تفسير القرطبى : ٤/ ٣٠٦ .

(٤) القرطبى : ٤ / ٣٠٨.

فى هذه الآية الكريمة : دعوة واضحة إلى النظر فى خلق الله تعالى ، وإعمال الفكر فى ملكوته سبحانه ، وذلك للاستدلال بآياته المبثوثة : فى ﴿ السموات والأرض ﴾ ، وفى كيفية خلقهما ، وكذلك فى ﴿ اختلاف الليل والنهار ﴾ وما ينتج عن ذلك ، وما يدل عليه ذلك . !!

إذْ لا يصدر كل ذلك ، أو بعض ذلك ، إلا عن : حى ، قيوم ، قدير ، قدوس ، سلام ، غنى عن العالمين .

وبهذا : يكون إيمانهم مستندًا إلى اليقين ، لا إلى التقليد ، ووراثة الدين .

وأولو الألباب : هم أصحاب العقول الزكية، التى تدرك الحق فتتبعه ، والباطل فتتجنبه .

ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾

هذه صفات أولى الألباب . وكأن الله تبارك وتعالى يقول لنبيه ﷺ : إنى أريد بك فتحًا جديدًا فى عالم الإنسان. نعم إن الله يريد بمحمد أن تتفتق العقول ، وتنشرح القلوب ، وتطرب الصدور بفهم جديد فى عالم الأرضين والسموات .

إن محمدا ينادى بتوحيد الله وعبادته ، كما ينادى بدراسة الأرض ودراسة الإنسان . يقول تعالى : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (1). ويقول كذلك ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ (2).

إذْ إنّ الإسلام ليس دين عبادة وتقديس للخالق الأعلى بغيبيات غير منظورة فقط ؛ بل هو إدراك للحقيقة ، يقذف به الحق سبحانه فى قلوب الذين قالوا لا إله إلا الله وحده لاشريك له، فتتفتح أنفاس المعرفة فيهم، فينظرون فى ملكوت السموات والأرض .

وهنا مجال واسع لدراسة علم طبقات الأرض، وطبقات الجو ، لكى يخوض الباحثون من المسلمين فى طبقات الجو العليا حتى يصلوا ـ أو يكادوا أن يخترقوا غلاف الأرض ـ إلى عوالم أخرى كونية .

---

(1) الذاريات : ٢١ .   (2) الذاريات : ٢٠ .

وهذا مطلوب منهم .

ولكن السؤال : لِمَ تعطلت ملكات البحث عند المسلمين ؟

وهذه وقفة مهمة يجب أن : نسأل فيها كثيرا ، وأن نبحث فى دائرتها طويلا ، عن سبب تقدم الغرب وتأخر الشرق الإسلامى فى هذا المضمار ؟!!!

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ ١٩٢

يا ربنا إنك من تدخله النار فقد «أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع . . ويوم القيامة لا مجير لهم منك ، ولا محيد لهم عما أردت بهم »[1] .

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ﴾

أى داعياً يدعو إلى الإيمان ـ وهو الرسول ﷺ قائلا ﴿ آمنوا بربكم فآمنا ﴾ فاستجبنا له واتبعناه . وبثبوت إيمانهم دعوا الله مخلصين صادقين قائلين :

﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ ١٩٣

الذين استمعوا لعبدك ونبيك فأصبحوا فى طريقك وعلى طريقك .

ولما عاشت هذه النفوس ، وتلك الضمائر ، وتلك الأرواح فى سبحاتها القدسية التى نورت الأرواح ، وأخذت بالقلوب والضمائر فرققتها وزكتها ، فعاشت تتذاكر وتدرس معانى الآيات ومقاصدها ، وما تريده بالإنسان الذى آمن وسلم ، بالوجود والقدرة ، ووجدت أن الله يطلب من عباده التفكر فيه : طلبت هذه النفوس غفران الله لها ، وتكفير سيئاتها ، وصفح الله الدائم عن ذنوبها ؛ حيث إنه باستغراق الإنسان فى صورة الكون يصبح حريصا على أن ينال كل ما وعدت به الرسل والأنبياء من قبل محمد فتهب الأرواح داعية :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ ١٩٤

وهذا : طلب الواثق من عبوديته ، المطمئن لكرم ربه وسخائه .

(١) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٣٩ .

وتتجلى عليهم أنوار الإشراق بالاستجابة. سبحان الله !قلوب تدعو . . ورب فرد صمد يستمع لعباده !

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

إن من إكرام الله سبحانه وتعالى أنه العدل الحق لا يضيع عمل عامل من خلقه ، ذكرا كان أو أنثى .

وفى قوله تعالى ﴿ بعضكم من بعض ﴾ : منتهى الإنصاف والتكريم للمرأة والرجل معًا ، فهو يجعلهما حقيقة إنسانية واحدة . . ناط بهما أمانة التدبير فى الخلق ، وكلفهما بالتلقى عن رسول الله ﷺ ، ومشاركته حمل الأمانة ، وتأدية الرسالة .

ثم رفع الذين تقدموا للجهاد من الرجال والنساء فهاجروا فى سبيل الله ، واحتملوا فى سبيله أن يخرجوا من ديارهم ، ويلقوا أذًى كثيرا من الكافرين الظالمين .

ثم كانت المكافأة من الله سبحانه وتعالى : أن كفر عنهم سيئاتهم ، وأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأثابهم من عنده حسن الثواب .

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

يقول القرطبى : «قيل الخطاب للنبى ﷺ والمراد الأمة ، وقيل : للجميع . وذلك أن المسلمين قالوا : هؤلاء الكفار لهم تجائر[1] وأموال . . . وقد هلكنا نحن من الجوع ، فنزلت هذه الآية أى لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم فى أسفارهم »[2].

إنهم لا يحوزون من الدنيا إلا متاعًا قليلا يساقون بعده إلى جحيم أبدى ، فبئست النهاية .

---

(١) جمع تجارة .

(٢) تفسير القرطبى : ٤/ ٣١٩ .

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

إنهم كانوا صادقين فيما اعتقدوا ، فرزقهم الله علما ومعارف ، برّوا بها آباءهم وأبناءهم .

عن عبد الله بن عمرو قال : إنما سماهم الله الأبرار ، لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقا كذلك لولدك عليك حق .

والبار : هو الذى لا يسىء وإن أُسِىء إليه ، وهو الذى يعطف على كل ضعيف منكسر ، ويحسن إلى من أساء إليه ، ولا ينسى الفضيلة لمن أكرمه .

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

يقرر الله سبحانه وتعالى : أنه ليس كل أهل الكتاب فى شر وكفر وقسوة وغلظة قلب وظلمة نفس ، ولكن منهم من يؤمن بالله ، فيخشع قلبه ، وترق مشاعره ، فيصدق بمحمد ﷺ . وهم الذين أيقنوا بالكلمات التى أنزلها الله على آدم ، وبرسالة نوح ، وأن إبراهيم وموسى وعيسى امتداد لآدم عليه السلام ، وأن محمدا جاء خاتما ومتمماً لكل الحق من لدن هبوط آدم ـ عليه السلام من الجنة .

أخرج البخارى فى صحيحه عن أبى بردة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لهم أجران : . . » الحديث وذكر منهم رجلاً من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى [(١)] .

﴿لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا﴾ أى لا يكتمون ما بأيديهم من العلم ، كما فعلته الطائفة المرذولة منهم ، بل يبذلون ذلك مجانا ، ولهذا قال تعالى : ﴿أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب﴾ قال مجاهد : يعنى سريع الإحصاء [(٢)] .

---

(١) كتاب العلم باب تعليم الرجل أمته وأهله . (٢) تفسير ابن كثير : ١ / ٤٤٤ .

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

يأمر الله سبحانه عباده بالصبر على العبادة ، وإقامتها فى مواقيتها . فإن فعلوا فقد أفلحوا . والمرابطة : بمعنى القتال فى سبيل الله وحراسة ثغور المسلمين . أما الصبر فهو على أشياء كثيرة ، منها : العبادة والنفقة ، والمصابرة على إقامة الصلوات فى أوقاتها، والصيام إذا حضر الشهر ، والحج إذا توافرت النفقة والأمن والصحة ، وأداء الزكاة ، كل ذلك يعد رباطا فى سبيل الله . والجهاد لتكون كلمة الله هى العليا .

واليوم وقد غابت دولة الإسلام : فقد وجب الجهاد ، والجهاد اليوم هو الرباط ، وقد ربط الله سبحانه تبارك وتعالى بين الصبر والرباط والتقوى والفلاح .

فالذين يقيمون الصلاة ويصابرون على إقامتها وعلى الرباط فى سبيل الله هم الذين مُنحوا الفلاح جائزة من الله .

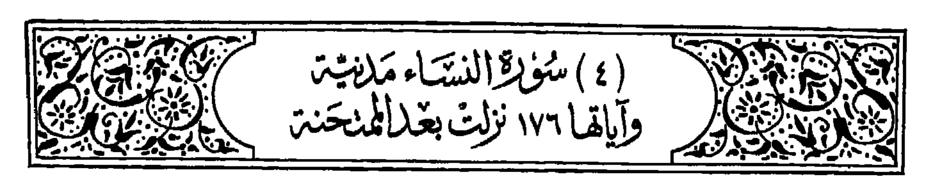
إن من أوجب الواجبات على المسلمين أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا ويتقوا الله فى العمل المستمر الدءوب على عودة دولة الإسلام رشيدة مسترشدة بكتاب الله وسنة رسوله . فذلك هو الرباط المعهود .

وإنى لأرى اليوم أن المرابطة هنا لا تنصب فقط على المداومة على العبادات : ولكنها أصبحت ضرورة تتحقق بأنها مرابطة دفاع وحماية لحدود المسلمين . ثم مرابطة عمل وإرشاد وتعليم للأمة المسلمة التى فقدت هويتها ، وأصبح واجبا على المسلمين الدراسة والبحث لعلاج هذا الأمر الذى أفقدنا هويتنا الإيمانية .

ندعو الله فى ختام هذه السورة الكريمة : أن يكتبنا من الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا . وضحوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . مرابطين من أجل إعلاء كلمة الله . لا يخشون فيه سبحانه لومة لائم ، ولا يحيدون عن صراطه . لا يرهبهم عدو فينحيهم عن الجهاد ، ولا ظالم فيغريهم جبروته أن يخلدوا إلى السكينة .

اللهم اجعلنا من المجاهدين فيك الداعين إليك المرابطين الصابرين على السراء والضراء ، حتى تقوم الدولة والأمة على شريعة الله وأمره . سبحانك توكلنا عليك واستعنا بك وإليك المصير .

سُورَةُ النِّسَاءِ



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾

إن الرجل والمرأة هما معا نفس واحدة . . كانت الرجل فشطر منها نفس ثانية هى المرأة . ومعنى ذلك أن حياة أحدهما بغير صاحبه حياة غير مكتملة . وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يثرى العالم بالحياة والوجود ؛ فبث من آدم وحواء كثرة كثيرة من الرجال والنساء ؛ وبذلك كانت حركة الخلق فى إنماء الأرض .

فالآية : تقرر حياة قائمة بين رجل وامرأة ، تتكاثر بهما الذرية بإنجاب شرعى ، وهو الزواج . فالزواج شريعة الله ، ونظام تقوم به الحياة ، منذ بدء الخلق إلى أن ينتهى العالم، تلك حكمة الله وإرادته .

ويأمرنا الحق تبارك وتعالى ، نحن أولاد آدم ، بأن نتقى الله الذى أوجدنا من عدم ، ويوصينا بالأرحام ، كما ينبهنا تعالى : إلى رقابته الدائمة للإنسان ، وأنه يحصى عليه عمله ، وهو رقيب عليه ﴿ والله على كل شىء شهيد ﴾[1] .

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ٢﴾

كما يأمر الله سبحانه وتعالى ، ويوصى عباده الذين أسلموا وصدقوا به ، أن يجعلوا سعيهم لجمع الرزق فى العمل الحلال . فإن كانوا أوصياء على أيتام كان خوفهم من الله أشد ، وحبهم للعدل أصلاً فى ضمائرهم ، فلا يجورون على يتيم ، ولا يأكلون من ماله

---

(١) البروج : ٩ .

إلا بالحق ، فهو من أمانات الله لديهم ، فهم مسئولون عنه ، ومحاسبون عن ماله إن كان يملك . فالله تعالى يأمر يدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾

روى عن عروة أنه قال : قلت لعائشة ما معنى قول الله ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ﴾ فقالت يا ابن أختى : هى اليتيمة تكون فى حجر وليها : فيرغب فى مالها وجمالها ، إلا أنه يريد أن ينكحها بأدنى من صداقها ، ثم إذا تزوج بها عاملها معاملة رديئة لعلمه بأنه ليس لها من يذب عنها ويدفع شر ذلك الزوج عنها »[1] .

فاليتيمة : أمانة فى حجر وليها حتى تنتقل من رعايته إلى وليها بالزواج .

وإن خفتم ـ حال تعداد النساء ـ أن لا تعدلوا بينهن كما بين ذلك الحق فى موضع آخر ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[2] ، فليقتصر على واحدة .

﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾

« قال ابن عباس : النحلة : المهر . وعن عائشة نحلة : فريضة . وقال ابن زيد : النحلة فى كلام العرب : الواجب . يقول : لا تنكحها إلا بشىء واجب لها ، وليس ينبغى لأحد أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب . ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتما ، وأن يكون طيب النفس بذلك .

فإن طابت هى له به بعد تسميته أو عن شىء منه فليأكله حلالاً طيبا »[3] .

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف فى الأموال التى جعلها الله للناس قياما ، أى تقوم بهامعايشهم من التجارة وغيرها . ويوصينا الله سبحانه وتعالى أن

---

(١) تفسير الرازى ٩ ـ ١٧١ طبعة دار إحياء التراث المعدلة .
(٢) النساء : ١٢٩ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ ـ ٤٥١ باختصار .

نكون حكماء فى تصريف ما نملك من المال فلا نتركه بين أيدى من لا يُحْسِن التصرف فيه ، ولكن نصرفه بأنفسنا ، ونأتمن عليه الأتقياء ، الذين يخافون الله ، ويحذرون لقاءه ، وأن يكون الإنسان حكيما فى تصريف ماله ، فلا يبذر ، ولا يعطيه لسفيه غير أمين ، ولا يمنعه عن فقير ذى مخمصة وشدة وفقر وحاجة إلى المال . يبر به الأيتام ، ويصل ذا القربى ويقضى حاجة إخوانه المؤمنين .

وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

اعلم أن الله قد ضمن حق اليتيم كاملاً فى هذه الآية التى رسم فيها سبحانه خط سير التصرف فى مال اليتيم وكيفيته . والخطاب فيها واضح يبدأ من بدء تسلّم مال اليتيم مارا بمراحل نموه ورشده حتى يبلغ الحلم . ومعنى ﴿ إسرافا وبداراً ﴾ هو ألا تأكلوا مال اليتيم من غير حاجة ضرورية .

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾

«كان المشركون : يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا ، فأنزل الله هذه الآية . . أى الجميع فيه سواء فى حكم الله تعالى يستوون فى أصل الوراثة ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم» (١) .

وكانت هذه الفئات المشركة من العرب قبل الإسلام لا تورث إلا حامل سلاح ، فأصبحت المرأة وارثة ، والأطفال أيضا .

وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾

والمعنى ، أنه إذا حضر قسمة الميراث هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى ، والمساكين ، وكانت قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شىء

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ـ ٤٥٤ .

منه ، إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ وهم يائسون لا شىء يعطونه ، فأمر الله تعالى وهو الرءوف الرحيم ، أن يرضخ لهم شىء من الوسط ، يكون برا بهم وصدقةً عليهم ، وإحسانا إليهم ، وجبرا لكسرهم[1] .

وقدم الله تعالى اليتامى على المساكين فى الآية لأن ضعف اليتامى أكثر ، وحاجتهم أشد ، فكان وضع الصدقات فيهم أفضل وأعظم فى الأجر [2] .

وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾

واجب على من يوصى ألا يظلم ورثته ، وألا يوصى بأكثر من الثلث ، وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - لما دخل على سعد بن أبى وقاص يعوده ، قال : يا رسول الله إنى ذو مال ولا يرثنى إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟قال : لا. قال : فالشطر ؟ قال : لا. قال فالثلث قال - ﷺ - « الثلث والثلث كثير» . ثم قال صلواتُ ربى وتسليماته عليه « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[3] .

ويقول الإمام الرازى : «والآية توجب الاحتياط للذرية الضعاف . وللمفسرين فيها وجوه :

الأول : أن هذا خطاب مع الذين يجلسون عند المريض فيقولون : إن ذريتك لايغنون عنك من الله شيئا ، فأوص بمالك لفلان وفلان . ولا يزالون يأمرونه بالوصية إلى الأجانب إلى أن لا يبقى من ماله للورثة شىء أصلاً ، فقيل لهم : كما أنكم تكرهون بقاء أولادكم فى الضعف والجوع من غير مال ، فاخشوا الله ولا تحملوا المريض على أن يحرم أولاده الضعفاء من ماله .

وحاصل الكلام أنك لا ترضى مثل هذا الفعل لنفسك فلا ترضه لأخيك المسلم . .

والقول الثانى : هو الرجل الذى يحضره الموت ويريد الوصية للأجانب فيقول له من كان عنده : اتق الله وأمسك على ولدك مالك . . . . .

ففى القول الأول الآية محمولة على نهى الحاضرين عن الترغيب فى الوصية . وفى

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ـ ٤٥٥ . (٢) تفسير الرازى ٩ـ١٩٨ طبعة دار إحياء التراث العربى .

(٣) البخارى كتاب « الجنائز » باب « رثاء النبى - ﷺ - سعد بن خولة » - مسلم كتاب « الوصية » باب «الوصية : بالثلث » .

القول الثانى محمولة على نهى الحاضرين عن النهى عن الوصية ، والأول أولى ، لأن قوله ﴿لوتركوا من خلفهم ذرية ضعافا﴾ أشبه بالوجه الأول وأقرب إليه» . [1] .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾

من يأكل مال اليتيم بدون حق فإنما هو فى الحقيقة يأكل سحتًا ونارا ، ومصيره عسير يوم القيامة ، ويقذف به فى نار السعير .

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١﴾

هذه الآية والتى بعدها بالإضافة إلى الآية ١٧٦ التى هى خاتمة سورة النساء قد أجملت أحكام المواريث، بل إن مجمل علم المواريث أو الفرائض مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة فى ذلك مما هو كالتفسيرلذلك .

والآيات تأمرنا بالعدل فى الأولاد بعد أن كان كل الميراث يذهب فى الجاهلية القديمة إلى الذكر دون الأنثى . فأمر الله تعالى بالمساواة بينهما ، والتسوية فى أصل الميراث .

و ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ فى الآية لعلة يعلمها الحكيم الخبير مؤداها ، والله أعلم ، احتياج الرجل إلى مؤنة النفقة والكلفة ، ومصاعب العمل ، والتكسب ، والتجارة ، وتحمل المشاق، فكان حقا أن يأخذ ضعف ما تأخذه الأنثى .

قوله ﴿ فإن كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ﴾ قال بعض الناس : قوله «فوق» زائدة ، وتقديره فإن كن نساء اثنتين ، كما فى قوله ﴿ فاضربوا فوق الأعناق﴾ ، وهذا غيرُ مسلَّم به ، لا هنا ولا هناك ، فإنه ليس فى القرآن شىء زائد لا فائدة فيه ، وهذا ممتنع . ثم قوله : ﴿ فلهن ثلثا ما ترك ﴾ لو كان المراد ما قالوه ، لقال : فلهما ثلثا ما ترك . .

(١) تفسير الإمام الرازى ١٩٨ ، ١٩٩ طبعة دار إحياء التراث .

ولكنه سبحانه قال ﴿ فلهن ﴾ . وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين من حكم الأختين فى الآية الأخيرة؛ فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين . وإذا ورث الأختان الثلثين فلأن يرث البنتان الثلثين بالطريق الأولى .

وأيضا ، فإنه قال : ﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ فلو كان للبنتين النصف لنص عليه أيضا ، فلما حكم به للواحدة على انفرادها دلّ على أن البنتين فى حكم الثلاث والله أعلم . .

قوله تعالى ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس ﴾إلى آخره . الأبوان لهما فى الإرث أحوال :

أحدهما : أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس ، فإن لم يكن للميت إلا بنت واحدة : فرض لها النصف ، وللأبوين لكل واحد منهما السدس ، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعصيب . .

والثانى : أن ينفرد الأبوان بالميراث، فيفرض للأم الثلث، ويأخذ الأب الباقى بالتعصيب المحض ، فيكون قد أخذ ضعفى ما حصل للأم وهو الثلثان ، فلو كان معهما زوج أو زوجة ، أخذ الزوج النصف ، والزوجة الربع .

والثالث من أحوال الأبوين، وهو اجتماعهما مع الإخوة ، سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم ، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئا ، ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب، أخذ الأب الباقى. وحكم الأخويين فيما ذكرناه كحكم الأخوة عند الجمهور .

وقوله ﴿ فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ . . . . لا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث، ويحجبها ما فوق ذلك . وكان أهل العلم يرون أنهم إنما حجبوا أمهم عن الثلث أن أباهم يلى إنكاحهم ونفقتهم عليه دون أمهم .

وقوله ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدَّين مقدم على الوصية . . .

وقوله ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ أى إنما فرضنا للآباء والأبناء وساوينا بين الكل فى أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر فى الجاهلية ، لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوى أو الأخروى أو هما من أبيه مالا يأتيه من ابنه ، وقد يكون العكس ، ولذا قال ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم أقرب لكم نفعًا﴾ ، أى أن

النفع متوقع ومرجو من . ذا . كما هو متوقع ومرجو من الآخر، فلهذا فرضنا لهذا وهذا ، وساوينا بين القسمين فى أصل الميراث والله أعلم .

وقوله ﴿ فريضةً من الله ﴾ أى هذا الذى ذكرناه من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض من الله حكم به وقضاه . وهو الحكيم الذى يضع الأشياء فى محالها ، ويعطى كلاً ما يستحقه ، بحساب ودقة ، ولهذا قال﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ أ . هـ(1)

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

يبين الحق فى هذه الآية : أن للزوج النصف ما دامت المرأة لم تنجب وتوفاها الله . ولها كذلك الربع ما دام الزوج لم ينجب وتوفاه الله .

وإذا كان أخ أو أخت وتوفاه الله ، وللواحد منهما أخ أو أخت فلهما الثلث مناصفة ، وإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث . ولصاحب المال أن يوصى بثلث ماله أو ربعه فقد قال عليه الصلاة والسلام الثلث والثلث كثير كما سبق .

أما قوله ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار ﴾ فيقول ابن كثير : أى لتكن وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحيف ، بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى فى ذلك كان كمن ضاد الله فى حكمه وشرعه .

---

(1) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٥٧ ومابعدها .

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾

أى هذه الفرائض والمقادير التى جعلها الله للورثة، هى حدود الله ، فلا تعتدوها ولاتجاوزوها . وفى هذا تنبيه للعبد المسلم أن لا يظلم فى المواريث، فذلك أمر عظيم عند الله .

ثم يبشر الذين يخشون الله ، ويرجون رحمته بعدلهم فى مسائل الميراث والوصية ، سواء كانوا وارثين أو موروثين .

وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

ثم ينذر الذين لا يخافون الله ، ويجورون على حدوده ويعطلون أوامره بأنه سبحانه يدخلهم نارا خالدين فيها ولهم عذاب مهين ، وذلك بسبب عدم العدل بين الورثة والجور فى الوصية .

وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾

كانت المرأة فى ابتداء الإسلام إذا ثبت عليها الزنا بالبينة العادلة حبست حتى الموت، إلى أن أنزل الله سورة النور ، فنسخت هذا الحكم . روى مسلم عن عبادة بن الصامت عن النبى ـ ﷺ ـ قال : خذوا عنى، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[1].

«لما ذكر تعالى فى الآيات المتقدمة الأمر بالإحسان إلى النساء ، ومعاشرتهن بالجميل ، وما يتصل بهذا الباب، ضم إلى ذلك التغليظ عليهن فيما يأتينه من الفاحشة ، فإن ذلك فى الحقيقة إحسان إليهن ، ونظر لهن فى أمر آخرتهن . وأيضا ففيه فائدة أخرى : وهو ألا يكون الأمر بالإحسان إليهن سببا لترك إقامة الحدود عليهن ، فيصير ذلك سببا

(١) كتاب « الحدود » باب « حد الزنى » . والحديث أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه .

لوقوعهن فى أنواع المفاسد والمهالك . وأيضا فيه فائدة ثالثة ، وهى بيان أن الله تعالى كما يستوفى لخلقه فكذلك يستوفى عليهم ، وأنه ليس فى أحكامه محاباة ، ولا بينه وبين أحد قرابة . وأن مدار هذا الشرع الإنصاف والاحتراز - فى كل باب - عن طرفى الإفراط والتفريط [(1)] » .

وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾

أى واللذان يقومان بالفاحشة فآذوهما . قال ابن عباس أى : بالشتم والتعيير والضرب بالنعال . وكان الحكم كذلك حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم[(2)] .

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ
فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ
ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٨﴾

يبلغ الحق سبحانه وتعالى عباده بأنه لن يغلق باب رحمته عن تائب قبل الغرغرة ، وخصوصا الذين ﴿ **يعملون السوء بجهالة** ﴾ . والسوء : بمعنى الذنوب . والعبد يقسو على نفسه بمعصيته لله ، والله يرحمه بتوبته عليه قبل الغرغرة ، ما دام الصدق مصدرها ، وذلك فضل العليم الحكيم . ﴿ **وليست التوبة** ﴾ لأهل الكبر الغارقين فى السيئات . الذين تحتضنهم الغفلة ، لأن وليهم الشيطان .

قال مجاهد : كل من عصى الله خطأً أو عمداً فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . وقال قتادة : كان أصحاب رسوله - ﷺ - يقولون : كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة[(3)] .

(١) تفسير الفخر الرازى ٩ ، ٢٢٩ طبعة دار إحياء التراث .
(٢) تفسير ابن كثير ١ - ٤٦٢ .
(٣) تفسير ابن كثير : ١ - ٤٦٣ .

ولما ذكر تعالى« فى الآية الأولى أن المرتكبين للفاحشة إذا تابا وأصلحا زال الأذى عنهما، وأخبر على الإطلاق أيضا أنه تواب رحيم ، ذكر وقت التوبة وشرطها ، ورغبهم فى تعجيلها ، لئلا يأتيهم الموت وهم مصرون فلا تنفعهم التوبة »(١) .

إن كل ذنب أصابه عبد هو جهالة . وكل شيء عصى العبد به ربه فهو جهالة ـ كما قلنا من قبل ـ وكل عاص لله متمرد على أوامره، فهو واقع فى جهالة وغفلة عن الحق ، وبالتوبة تتلبس به صحوة تجعله مع الله على يقظة لأداء أوامره على أكمل وجه ، فيحيا فى يقظة التوبة ،فلا يزال يراجع نفسه ويحاسبها حتى يصبح عبدا ربانيا ، قد غطت توبته على ذنوبه ، حتى غدا وكأن لا ذنب له .

والتوبة لا تقبل إذا غرغر العبد ، والله غفور رحيم . والأولى أن يسارع العبد إلى التوبة فى يقظة حياته وحيويته ، لتستغرقه أنوار التوبة .

فمن يفعل غير ذلك تدركه نيران جهنم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

كانت العرب فى الجاهلية تُوَرِّث ابن المتوفى زوجةَ أبيه . فكانت امرأة الأب متاعاً من ضمن أمتعة المتوفى . يرثها أولياء الرجل أو ابنه ، ويتصرف فيها كيف يشاء . إن شاء تزوجها ، وإن شاء زوّجها وأخذ صداقها . وكان هذا نوعا من أنواع إيذاء النساء فى الجاهلية حتى جاء الإسلام ، وأنزل الله هذه الآية .

فلا تضاروهن ولا تؤذوهن فى المعيشة ، ليتركن لكم صداقهن ، لتتمتعوا به . فهذا حيف وظلم وجور كبير . وهذا من ضمن أنواع إيذاء النساء فى الجاهلية الذى نهى عنه الإسلام ، وجاء وحسم الأمور وأعاد لها حقها وسوّدها وشرفها وكرمها . ذلك لأنهم فى الجاهلية كذلك : كان الرجل منهم إذا كره زوجته وأراد أن يفارقها أساء العشرة معها ،

(٢) تفسير الرازى جـ ١٠ ص ٢ طبعة دار إحياء التراث ـ الطبعة الثالثة .

وضيق عليها حتى تفتدى نفسها منه ، وتترك له المهر. جاء الإسلام فأبطل هذا الصنيع المعيب المشين ، الذى لا يرضاه عاقل ، فجعل للمرأة حقوقا كما جعل عليها واجبات ، وجعل أمر زواجها بأمرها ورغبتها . ووليها وكيل عنها لا مالك لها . وجعل مهرها لها ، وميراثها لها ، وهى حرة فيما تملك . هل هناك أكثر من ذلك تكريم وإكرام للمرأة ؟ فالمرأة كانت كما مهملاً . كان عليها ولم يكن لها . وجاء الإسلام وصانها ، وصان كرامتها ، وعززها ، وأغناها بتعاليمه وحدوده الحاسمة .

أما قوله ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا ﴾ فيقول فيه ابن كثير :

« فعسى أن يكون صبركم فى إمساكهن مع الكراهة فيه خير كثير لكم فى الدنيا والآخرة » (١).

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

وإذا أراد الرجل أن يطلق زوجه ليستبدل بها زوجة ثانية وقد أعطاها قنطارا من الذهب ، لا يحل له أن يأخذ منه شيئا . وإذا شاء أن يأخذ منها شيئاً فذلك بهتان وإثم عظيم .

فكيف أيها الناس تستردون المهر ، ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾؟أى جامع بعضكم بعضا كما يقول ابن عباس. وكيف تأخذون صداقهن وبينكم عقد وميثاق متين مقدس .

وفى صحيح مسلم عن جابر فى خطبة حجة الوداع أن النبى ﷺ قال فيها «واتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله » (٢) .

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

---

(١) ابن كثير : ١/ ٤٦٦ . (٢) الحديث بطوله رواه : مسلم كتاب « الحج » باب « حجة النبى - ﷺ - » انظر ابن كثير : ١ـ ٤٦٧ . ورواه الإمام أحمد وأهل السنن (انظر ابن كثير : ١ ـ ٤٦٧) .

كان أهل الجاهلية يبيحون لأنفسهم زواج امرأة الأب بعد وفاته فنهاهم الله عن ذلك بهذه الآية ، وذلك تكرمة لها و إعظاما واحتراما أن توطأ من بعده . كما يقول ابن كثير حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها . كما يقول الحق تبارك وتعالى فى موطن آخر ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سلف ﴾ كل ذلك لو تم ولو استمررتم عليه لكان فاحشة وذنبا كبيرا عند الله ، وبئس السبيل والطريق هو .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

هذه الآية الكريمة قرر فيها الله سبحانه وتعالى تحريم المحارم ، سواء بالنسب أو الرضاع أو المصاهرة . فيبدأ الحق بتحريم الأمهات ، ثم البنات ، ثم الأخوات ، ثم العمات ثم الخالات ، ثم بنات الأخ ، وبنات الأخت ، ثم الأمهات اللائى أرضعنكم ، ثم الأخوات من الرضاع ، ثم أمهات نسائكم ، ثم ربائبكم ـ والربائب جمع ربيبة ، وهى بنت امرأة الرجل من غيره ، ومعناها مربوبة ، لأن الرجل هو الذى يربيها ـ ثم حلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، أى وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم ، ثم الفئة المحرمة من النسب الأخرى ، وهى ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ فى الزواج منهما إلا ما كان منكم فى الجاهلية فقد عفونا عنكم وغفرنا لكم .

۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا

ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾

والمحصنات معطوفة على المحرمات السابقة ، وهن المتزوجات ، إلا ما ملكتموهن بالسبى أو الشراء ، « فكأنهن كلهن ملك يمين وما عدا ذلك فزنا »[1].

فهذا هو حكم الله ارتضاه لكم فاتبعوه ولا تخالفوه ، وهذه هى محرماته التى حرمها عليكم . فما عدا كل ما ذكر فهو حلال لكم ، فلا حرام إلا ما حُرِّم . فقد أحل لكم أن تنكحوا الأزواج نكاحا شرعيا بالطريق الذى رسمه الله من واحدة إلى أربع ، تستمتعون بهن بعد أن تؤتوهن مهورهن فى مقابل ذلك .

وإذا فرض الزوج لزوجته مهراً صداقا لها فأبرأته منه أو عن شىء منه ، فلا جناح على الاثنين فى قبول ذلك .

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

ومن لم يكن عنده القدرة والسعة أن يتزوج المؤمنات المسلمات ، وهن الحرائر العفيفات ، فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللائى يملكهن المؤمنون ، فالله قد أحلّ لكم هذا النوع من المؤمنات ـ وهذا غير موجود الآن ـ والله عليم ببواطن وحقائق الأمور وسرائرها ، ولا تعرفون أنتم أيها الناس أين الخير ؟ وأين الشر ؟ وعندما تنكحون الإماء المؤمنات لاتتزوجوهن إلا بإذن سادتهن ، فالسيد « هو ولىّ أمته ، لاتزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو ولىّ عبده ، ليس له أن يتزوج بغير إذنه . »[2].

وادفعوا لهن مهورهن بالمعروف ، ولا تبخسوا منه شيئا ، وتزوجوهن محصنات عفيفات غير زوان ، أو متخذاتِ خدنا ، أى صديقاً يزنى بهن ؛ لأن الزنا فى الجاهلية كان على حالين : جهرا وسرا .

---

(١) تفسير القرطبى : ٥/ ١٢٣ طبعة دار إحياء التراث . (٢) ابن كثير : ١/ ٤٧٥ .

فالمسافحات هن الزانيات جهرًا، أى اللاتى لايمنعن أحدًا أرادهن بالفاحشة . أما المتخذات أخدان فهن ذوات الخدن ـ أى الخليل ـ اللائى يزنين سرا . فإن زُوجن وزنت الأمةُ المسلمةُ بعد ذلك، جُلدتْ نصف ما تُجلد به الحرة . فذلك لمن خشى أن يقع فى الزنا نتيجة العزوبة .

ولكن الصبر على الزواج من الإماء إلى أن يجد طولاً يتزوج بمقتضاه الحرة العفيفة : أفضل .

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

يريد الله سبحانه وتعالى رحمة بعباده أن يبين ما أحل لهم وماحرم عليهم ، رحمة بهم ، وإشفاقا عليهم ، ويعرفهم طريق الذين اهتدوا به ، واتبعوا كتابه العزيز ، فيما أحل الله لهم ، وما حرم عليهم ، فهداهم إلى الطريق المستقيم ، الذى أنعم عليهم باتباعه ، والانتهاء عن طريق المغضوب عليهم ، وهو العليم الحكيم ، يعدل فى خلقه بحكمته ، ويرشدهم بعلمه .

وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

فبتوبته عليكم ، يطهركم من ذنوبكم ، ويهديكم صراطا مستقيما .

ولكن أهل الأهواء والعلل يميلون بكم عن طريق الله بما يزينونه لكم من المعاصى والشهوات والمغريات ، التى تشغلكم عن طريق الله المستقيم ، الذى ينتهى بكم إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

فاحذروا يأهل الإسلام والإيمان من فتنة الذين لا يخافون الله ، واحذروا أن تميلوا إليهم ميلا عظيما ، فيغضب الله عليكم كذلك غضبا عظيما . إذْ الإنسان بطبيعته خلق ضعيفا ، وركبت فيه الشهوة ، فزادته ضعفا أمام المغريات فى المال والنساء ومفاخر الدنيا ، وزينتها . ولكن الله يريد برحمته وإحسانه أن يجعل ابن آدم قويا راشدا ـ رجلاً كان أو امرأة ـ فيخفف عنه ، أى : يحجز نفسه برحمته عن شهوات الدنيا ، بتحصينه بالإيمان بالله ، والخوف من الله ، والرغبة فى الجنة .

وقد سهّل الله للإنسان وخفف عنه من أجل أن يقضى شهوته فى متاع حلال ، حتى ولو كانت أَمَةً .

فالإسلام يريد العفة والعفاف للعالم كله ، ويريد حماية العرض ، ويحذر من اختلاط النسب والأنساب ، ويريد أن يحفظ للمجتمع هويته وذاتيته ، فيصبح مجتمعا قويا متين الوشائج ، قوى الصلة بالله ، فينطلق فى الأرض ساعيا بأبنائه منتشرا ، يبتغى وجه الله ، والرزق الحلال ، وإقامة المهمة العظيمة التى شرفه المولى بحملها ، وهى الخلافة فى الأرض ، لتعميرها وبنائها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾

يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من أن يأكلوا أموال بعضهم بعضا بالباطل ، أى بأنواع المكاسب التى هى غير شرعية ، كأكل الربا ، والغش فى التجارة ، وأكل مال الضعفاء .

فلا تأكلوا أموالكم بينكم باطلا ، إلا أن يكون هذا المال بينكم نتيجة بيع وشراء ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾ (١) .

فالتعاون فيما بينكم فى تنمية أموالكم بالتجارة أمر مباح غير محرم ، بتراضٍ منكم ، وأمانة شديدة ، وحرص على مصالحكم المشتركة بين بعضكم البعض . وذلك لا يتحقق إلا بالخوف والخشية من الله .

والبيع والشراء لابد أن يكون بالقبول والرضا المتبادل . وعن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : «إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار مالم يتفرقا »(٢). ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم﴾ نهى عن أن يقتل الناس بعضهم بعضا . واللفظ يتناول النهى عن أن يقتل الرجل نفسه كذلك . والآية كذلك : تشتمل على النهى عن ارتكاب محارم الله ، وتعاطى معاصيه ، وأكل الأموال بالباطل . وما أقسى الإنسان وهو يحكم على نفسه بغضب الله عليه وذلك عندما يتجرأ على حد من حدود الله ، أو يرتكب كبيرة من الكبائر، لذلك يقول الحق :

وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عاقل لبيب ، ممن ألقى السمع وهو شهيد(٣)

---

(١) البقرة : ٢٧٥ . (٢) رواه البخارى كتاب « البيوع » باب « إذا خير أحدهما صاحبه . . إلخ »

(٣) تفسير ابن كثير : ١/ ٤٨٠ .

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

فإذا تجنبتم الآثام الكبيرة ، التى هى ذنوب عظيمة ، غفرنا لكم صغائرها وأدخلناكم الجنة .

والآثام الكبيرة هى كما وضحها رسول الإنسانية محمد - ﷺ - فى الحديث الذى ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »[١] .

ويعلق ابن كثير على هذا الحديث فيقول : فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفى ما عداهن[٢] .

وموضوع الكبائر موضوع طويل[٣] .

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

لا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، ولا تتمنوا ما قسم الله من أموال الميراث بأن للرجل مثل امرأتين ، فذلك تنظيم للنفقة ، إذْ أعطى الله الرجل بقدر ما كلفه ، وأعطى المرأة بقدر ما كلفها ، فاسألوا الله أن يمن عليكم من فضله الواسع .

وفى الآية دلالة على أن الأمر بالسؤال لله تعالى واجب . وقد أخذ بعض العلماء هذا المعنى فنظمه فقال :

اللهُ يغضبُ إنْ تركتَ سؤالَه ... وبنىّ آدمَ حين يُسألُ يغضبُ[٤]

---

(١) رواه البخارى كتاب « الوصايا » باب « قول الله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ﴾ ورواه مسلم كتاب « الإيمان » باب « بيان الكبائر وأكبرها » .

(٢) تفسير ابن كثير : ١ ـ ٤٨١ .

(٣) ومن أراد التوسع ، فعليه بكتب السنة وكتب التفسير عند هذه الآية ، وكتاب الكبائر للإمام الذهبى مثلا .

(٤) القرطبى : ٣ ـ ١٦٤ .

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

لكل إنسان جعلنا موالى : أى ورثاثا لما ترك . فلينتفع كل واحد منكم بما فرض الله له أو عليه من الميراث ، ولا يتمنى ويطمع فى مال أحد غيره . ويشترك فى الإرث معهم الذين عقدت أيمانكم ، على اعتبار أنه كان فى الماضى يرث المهاجرىُّ الانصارىَّ، وكما يقول جمهور العلماء أن هذه الآية قد نسخت بعد ذلك(١) .

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾

فى هذه الآية الكريمة قرار من الله بأن الرجال قوامون على النساء ، وأن لهم حق القيادة فى الأسرة . وذلك لا ينفى ولاية المرأة فى بيتها ، وكونها أميرة تتصرف فى شئونه ، لحفظ مصالح الأسرة ، وسلامة وحدتها .

والأصل فى القوامة : المسئولية ، بمعنى أن الرجل هو صاحب النفقة على الزوجة والأولاد ، ومسئول كذلك عن مشاركة زوجته فى كل شئون البيت ، متخذين من القرآن الكريم ، وسنة الحبيب المصطفى - ﷺ - ، نهجا وقدوة وسلوكا . فالأسرة هى مدرسة الأمة الأولى . والزوجة هى ولية أمرها داخل البيت . وهى محاسبة أمام الله على سلامة الزوج والأولاد . وذلك كله لا يتأتى إلا بتسليم المرأة عن رضا وحب وطاعة لله بأن قوامة الرجل عليها هى عين العدل ،وفى صالحها . لأن القوامة تكلف الرجل حسن المعاملة والإنصاف تجاهها فى كل ما تحتاج إليه من خدمة ، وخفظ لكرامتها وعزتها وإنسانيتها ؛ لأنها بولايته عليها أصبحت أمانةً بين يديه .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٥ـ ١٦٥ ، ١٦٦

وذلك الفهم السليم للقوامة يعطى المرأة ثقةً بزوجها ، واطمئنانا إليه ، فتصبح الحياة الزوجية مستقرة آمنة ، وبذلك تتفرغ المرأة لتدبير بيتها ، وتربية أولادها .

كذلك يريد الإسلام بالزوجين إقامة دوحة من الزهور المتناسقة ، فى حديقة غنية بمعطياتها ، لإسعاد المستظلين بأريجها . تلك هى الزوجية فى الإسلام . وتلك هى درجة الرجل فى ميزان الأسرة ، لتقيم بنجاح صرح سعادة أسرته ، فيستقر البيت ، ويرقى المجتمع ، وذلك بما أحسنوا فى فهم كتاب الله ، الذى هو عدل مطلق .

وفى هذا يقول ابن كثير : « الرجل قيم على المرأة أى هو رئيسها وكبيرها والحاكم عليها ومؤدبها إذا اعوجت »[1] .

وأخبرنا الحق أن النساء اللاتى يُخاف منهن النشوز على أزواجهن - والنشوز هو الارتفاع ، فالمرأة الناشز هى التى ترتفع على زوجها تاركة لأمره ، كارهة له - فلنا أن نعظهن ، وأن نخوفهن عقاب الله فى عصيانه .

فإن لم تقبل العظة والتذكير بحق الزوج ، فالهجر لها أولى - أى يضاجعها على فراشها ويوليها ظهره ولا يجامعها ، كما قال ابن عباس - وإن لم ينفع معها ذلك : فاضربوهن ضربا خفيفاً غير مُبَرِّح. لأن الهدف هو إرجاعها عما هى فيه من عصيان ونشوز ، ويكفى الضرب الخفيف . لأن عملية الضرب سبقها موعظة وهجران ، وذلك عليهن شديد . ومع ذلك ، فقد قال ﷺ وهو يتلو هذه الآية : « ولايضرب إلا شراركم». لكن سوء معاملة بعض الرجال لأزواجهم هو تخلف ناتج عن قصور شديد فى فهم حقائق الإسلام وروحها . فإن أطاعت المرأة - سواء قبل هذه الخطوات أو بعدها - بما يرضى الله ورسوله، فلا سبيل له عليها بعد ذلك ، وليس له أن يضربها أو يهجرها . ﴿ إن الله كان عليا كبيرا ﴾ تهديد من الحق لمن يخالف أمره ، سواء فى عصيان المرأة لزوجها ، أو لظلم الرجل لزوجته ، فالله مطلع وعليم ببواطن الأمور .

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

إن من رقى الإسلام ، وطهارة مقاصده أنَّ فى شريعته بذل قصارى الجهد من أجل الحفاظ على أمن واستقرار الأسرة والحياة الزوجية ، وألا تغرس فيها بذور الشقاق والخلاف والشقاء .

---

(١) تفسير ابن كثير ١-٤٩١ .

يقول الإمام الرازى : « اعلم أنه تعالى لما ذكر عند نشوز المرأة أن الزوج يعظها ، ثم يهجرها ، ثم يضربها ، بين أنه لم يبق بعد الضرب إلا المحاكمة إلى من ينصف المظلوم من الظالم فقال هذه الآية »[1].

فيقوم الحكمان هنا بالحكم والتصالح بينهما ، والحكمان من قبل الطرفين ينظران فى أمرهما ، ويمنعان الظلم بينهما ، ويفعلان ما فيه الخير والصلاح للطرفين ، ويقومان بنصح الزوجين معاً ، أو كل منهما على انفراد ؛ إن كان ذلك أصلح . وللحكمين أن يفرقا إذا أبى الزوجان إلا التفرقة ، أو ظهر من أحدهما ذلك بعد محاولات التوفيق . وقرار الحكمين معتبر ونافذ حسب ما يقع بين أيديهم من أدلة وأسباب للإصلاح أو التفريق .

﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾

لما أرشد الله تعالى كل واحد من الزوجين إلى المعاملة الحسنة مع الآخر ، وإلى إزالة الخصومة والخشونة ، أرشد فى هذه الآية إلى سائر الأخلاق الحسنة ، وذكر منها عشرة أنواع[2] . وهى ما تحدثت عنها الآية من أوامر ونواه .

والعبودية هى التذلل والافتقار لمن له الحكم والاختيار ، فأمر اللهُ تعالى عباده بالتذلل له والاخلاص له ، وعلى هذا فالآية أصل فى خلوص الأعمال لله تعالى ، وتصفيتها من شوائب الرياء وغيره .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ «قال الله تبارك وتعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشِرْكَه»[3] .

ثم أوصى الله تعالى ـ بعد وصيته بعدم الإشراك به مباشرة ـ بالوالدين لأنهما سبب فى الخروج إلى الحياة . وكثيرا ما نجد الحق تبارك وتعالى يقرن بين الأمر بعبادته وبين الإحسان

(١) تفسير الرازى ١٠ـ٩٢ . (٢) انظر تفسير الرازى ١٠ـ٩٤ .

(٣) كتاب « الزهد والرقائق » باب « من أشرك فى عمله غير الله » .

بالوالدين ، لما لهذا الأمر ـ والإحسان إليهما ـ من أهمية عظمى . ثم أوصى بالإحسان إلى ذى القربى والإحسان إلى اليتامى والمساكين . واليتامى هم من فقدوا عائلهم الذى يقوم بمصالحهم وينفق عليهم . أما المساكين فهم الذين يحتاجون إلى من يقوم بكفايتهم وسد ضروريات حياتهم . وأوصى بالجار ذى القربى أى الجار المسلم الذى بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب أى الجار الغريب ولو كان يهوديا أو نصرانيا .

وعن عائشة ، وابن عمر : رضى الله عنهما أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه [(١)].

أما قوله (الصاحب بالجنب) فهو الرفيق فى السَّفر كما أجمع على ذلك جمهور العلماء . وقال الإمام الرازى : « هو الذى صحبك بأن حصل بجنبك إما رفيقا فى سفر، وإما جارا ملاصقا ، وإما شريكا فى تعلم أو حرفة ، وإما قاعدا إلى جنبك فى مجلس أو مسجد أو غير ذلك ، من أدنى صحبة التأمت بينك وبينه ، فعليك أن ترعى ذلك الحق» [(٢)].

وابن السبيل وهو المار بك مسافرا فى طريق ويحتاج إلى عون ومساعدة . كما وصى الله تعالى على الرقيق المماليك لأنهم ضعيفو الحيلة ، وهذا ما عبر عنه المولى فى ﴿ ما ملكت أيمانكم ﴾ .

﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً ﴾ ، «أى مختالا فى نفسه ، معجبا متكبرا فخورا على الناس ، يرى أنه خير منهم ، فهو فى نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض» . هكذا يقول ابن كثير [(٣)] .

ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧

وكأن سياق الآية يقول : إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا الذى يبخل ويأمر الناس بالبخل . . إلخ .

والبخل المذموم فى الشرع : هو الامتناع من أداء ما أوجب الله تعالى عليه .

والشارع سبحانه : يذم البخل وأهله ، الذين يبخلون ولا يكتفون بأنهم على ذلك القبح طبعوا ، ولكن يأمرون غيرهم بالبخل أيضا .

---

(١) رواه البخارى كتاب « الأدب » باب « الوصاة بالجار» وكذا رواه : الإمام مسلم والإمام أحمد وأصحاب السنن .

(٢) انظر تفسير الرازى ١٠ ـ ٩٩ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ١ ـ ٤٩٥ .

والبخل فى الآية عام فى البخل بالعلم والدين، وفى البخل بالمال ؛ لأن اللفظ عام ، والكل مذموم، فوجب كون اللفظ متناولاً للكل .

وقد ذم الله أيضا فريقا آخر غير بخيل، ولكن به مذمة أخرى ، وهى إنفاق المال رئاء الناس ، متقربين به إلى الحكام أو كبار القوم ، من منصب أوجاه وخلافه ، لجلب مصالح الدنيا . فهم لا ينفقون فى سبيل الله ، ولكن فى سبيل دنيا يصيبونها ، أو مركز يحوزونه ، فنفقتهم مردودة عليهم ، لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا . فهؤلاء الناس لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، فهم من أولياء الشيطان ، والشيطان ولىٌّ لهم ، فبئس القرين . وكل هذا عبّر عنه الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾

ثم يبين الله تعالى الطريق المستقيم مبينا لهم أن من يفعل ذلك ، فهو من المؤمنين حقا بالله واليوم الآخر فيقول سبحانه :

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

وهو استفهام إنكار : يعنى ماذا عليهم لو عدلوا إلى الإيمان ، وإلى البعد عن الرياء، وإلى الإخلاص لله ، حيث إن الله عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة التى تتبع أعمالهم .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يخبر جل ثناؤه عباده بأنه سيوفيهم أجورهم ، وأنه «لا يظلم أحدا من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ، ولا مثقال ذرة ، بل يوفيها له ، ويضاعفها له»[1] . وهناك آيات كثيرة تدل على هذا المعنى . نذكر منها قوله تعالى ﴿ يا بنى إنها إن تك مثقال حبة

(١) تفسير ابن كثير ١ـ ٤٩٧ .

من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ﴾ [1]، وقوله ﴿ونضع الموازين القسط ﴾[2] ، وقوله ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾[3].

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾

روى البخارى عن عمرو بن مرة قال قال لى النبى - ﷺ - : « اقرأ علىّ » قلت : أأقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : فإنى أحب أن أسمعه من غيرى » . فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال : أمسك [4] : فإذا عيناه تذرفان [5].

قال علماؤنا [6] : بكاء النبى - ﷺ - إنما كان لعظم ما تضمنته هذه الآية من هول المطلع ، وشدة الأمر؛ إذ يؤتى بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب ، ويؤتى به - ﷺ - يوم القيامة شهيدا على الجميع .

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

أى فى هذا اليوم الذى يجىء فيه - ﷺ - شهيدا على كل شهداء الأمم . يتمنى الذين كفروا وخالفوا الرسول أن تنشق بهم الأرض وتبلعهم ، فذلك أهون عليهم من أن ينكروا على الله ما وقع منهم من كفرٍ ومنكر . إنه هول الموقف ، وعدل الله فيهم بما ظلموا ، يجعلهم يكذبون على الله فيقولون والله ربنا ماكنا مشركين . وهنا يختم الله على أفواههم ، ويتمنون أن لو تسوى بهم الأرض إذْ تتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، كما يشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وبصفة عامة لايكتمون الله حديثا . . فسبحان الله !

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

(١) لقمان ١٦ . (٢) الأنبياء ٤٧ . (٣) الزلزلة ٧ ، ٨ . (٤) أمسك : أى قف عن القراءة .
(٥) كتاب التفسير « سورة النساء » . (٦) القرطبى ٣ ـ ١٩٧ .

سُورَةُ النِّسَاءِ

سبحان الله الرحمن الرحيم ، يأخذ بعباده إلى ما يصلح به أمرهم بتؤدة وروية ، لايتعجلهم فيرهقهم بتشريعاته مرة واحدة ، فهو الرءوف الرحيم . وفى هذه الآية الكريمة ثلاثة أحكام من الله .

أولها : اجتناب شرب الخمر فى أوقات الصلاة حتى يدخلوا فى الصلاة بكامل عقلهم . وقد كان هذا قبل أن تنزل آية تحريم الخمر فى سورة البقرة .

ثانيها : اجتناب القرب إلى الصلاة فى حالة الجنابة ، إلا المسافرون فيتيممون إن لم يجدوا ماءً . وهذا مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

ثالثها : الاغتسال والتطهر من الجنابة ، وإن لم يجدوا ماءً فعليهم أن يتيمموا من الصعيد الطيب ، أى التراب أو الرمل الطاهر ، فيمسحوا به أيديهم ووجوهم .

ذلك من عفوه لكم وغفرانه ورحمته بكم أن جعل لكم التيمم ، وتلك رخصة من الله سبحانه لعباده ، حتى لا يضيق أحد ولا يتحرج ، لأن الدين الإسلامى يسر سمح فى شرائعه .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

نزلت هذه الآية فى يهود المدينة ، عليهم لعنة الله إلى يوم القيامة ، الذين هم على شرك وضلال دائم ، منكسة قلوبهم يستغرقها الباطل ، مطموسة قلوبهم يشترون الضلالة بالهدى فتستغرقهم ظلمتها ، ويعملون على إضلال الناس ، يخفون عنهم الهداية فهم قد ضلوا وأضلوا .

وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾

أى هو أعلم بهم ويحذركم منهم ، وكفى به وليا ونصيرا لمن لجأ إليه من عباده واستنصر به .

مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

من اليهود من يحرفون النصوص والمعانى عن مواضعها قصداً منهم وافتراءً، ويقولون لقد سمعنا يامحمد ولكننا لا نطيعك ، ويتأولون القرآن حسب عللهم وأمراضهم النفسية والقلبية ، يحقدون على رسول الله - ﷺ - ، ويبغضون أمته .

وكانوا يلوون ألسنتهم بالألفاظ والكلمات حتى يوهموا محمدًا - ﷺ - بالانتباه والسماع لهم ، فإذا بهم أقذر خلق الله خُلُقا . والأفضل لهم أن يسمعوا ويطيعوا لمحمد ، فهو الخير لهم ولكن الله لعنهم بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا منهم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

يأهل التوراة - الكتاب الذى نزل على موسى - أنتم أولى بالتصديق بما أنزل على محمد من غيركم ، وأنتم على يقين بأن محمدا رسول الله ، ونبى من عند الله ، ولكنكم كنتم تودون أن يكون هذا الرسول من ولد إسحاق ، فلما جاء من ولد إسماعيل انتكست رءوسكم ، وضاعت أمانيكم ، فازددتم كفرا على كفركم بما فى التوراة من الحق ، فأبدلتم فيها ، وغيرتم منها ، وسترتم الكثير من أحكامها ، فالأولى أن تؤمنوا ، لنكفر عنكم سيئاتكم ، وإلا فأنتم ملعونون .

وأمر الله نافذ على عباده ، بالإحسان لمن صدق وآمن ، وبالعذاب لمن كذّب وتولّى عن الحق . والطمس فى الآية - كما قال بعضهم - هو ردّها إلى الوراء وأبصارهم تنظر من خلفهم . أعاذنا الله من ذلك .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من عبده أن يلقاه مشركا به ، ويغفر ما دون ذلك من الذنوب لمن يشاء من عباده .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾

قال الحسن وقتادة : نزلت هذه الآية . . فى اليهود والنصارى عندما قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وفى قولهم ﴿ **لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى** ﴾[1]. وقال مجاهد كانوا يقدمون الصبيان أمامهم فى الدعاء والصلاة يؤمونهم ويزعمون أنهم لاذنوب لهم[2].

وفى صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : « أمرنا رسول الله ـ ﷺ ـ أن نحثى فى وجوه المداحين التراب »[3] وفى الصحيحين عن عبد الله بن أبى بكرة عن أبيه قال «مدح رجل رجلاً ، عند النبى ـ ﷺ ـ فقال « ويْحَكَ ، قطعتَ عنق صاحبك ، قطعت عنق صاحبك (مرارًا). ثم قال : « إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل : أحسب فلانا ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحدا . أحسبه كذا وكذا . »[4]. .

وفى هذا درس عظيم لنا فى هذا العصر الملىء بصور المدح والنفاق ، والملىء بأوجه العلاقات الاجتماعية المتشابكة بين الناس ، التى قوامها الغش وقضاء المصلحة فقط . وليس لله فيها نصيب .

والناظر فى شرائح العلاقات الاجتماعية فى هذه الأيام يجد معظمها من هذا النوع إلا من رحم ربّك . وما دخل الرياء عملاً إلا فسد هذا العمل ولم يدم . وما دخل النفاق أعمال الناس إلا أجهضها .

وهل العمل فى الآية هو العمل السيئ ؟! لا إنه الغمل الصالح الخالى من وجه الله وإلا ما احتاج الأمر من الله أن يذكر نتيجة العمل السيئ ، لأن العمل السيئ بالطبع نتيجته الأخروية معروفة .

ويقول الحق أيضا ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[5].

ﭐنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

---

(١) البقرة : ١١١ . (٢) انظر تفسير ابن كثير ١ / ٥١١ .

(٣) كتاب « الزهد » باب « النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط » .

(٤) رواه البخارى كتاب « الشهادات » باب « إذا زكى رجل رجلا كفاه » . وراه مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب «الزهد » النهى عن المدح إذا كان فيه إفراط . . »

(٥) النحل : ٩٧ .

هذا تعجيب للنبى ـ ﷺ ـ من فريتهم على الله ، وهى تزكيتهم أنفسهم ، وافتراؤهم على الله وهو قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾وقولهم ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى﴾ وقولهم : ما عملناه بالنهار يكفر عنّا بالليل[1] .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

إن الله سبحانه وتعالى يحكى نوعًا آخر من مكر اليهود الملاعين ، وهو أنهم كانوا يفضلون عبدة الأصنام على الموحدين المؤمنين ، مع علمهم من كتابهم التوراة أن ذلك باطل وغير حق .

اختلف أهل التأويل فى تأويل الجبت والطاغوت، ومما روى: الجبت السحر والطاغوت الشيطان . وأياً ما كان معنى الجبت والطاغوت[2] فقوام كل هذه المعانى يدور حول الرضا بالحاكمية إلى غير الله، وارتضاء كل ما عدا تشريعات المولى سبحانه وتعالى .

وما أحوجنا فى هذا العصر إلى أن نعود إلى الله ، وإلى كتابه الهادى المنير ، بعد أن تفشى فى مجتمعاتنا الطاغوت ، وسبر الظلم أعماق الأمة ، وساد الفساد فى قلوب الناس من جراء ما ارتضوه من حكم غير الله .

إن حكامنا ـ هداهم الله ـ إن لم يحسنوا النية ، سواء اليوم أو غدا ، ويحكموا كتاب الله فيما بينهم ، ويولوا عمالاً أمناء على الرعية ، ويقضوا على مفاسد البشر بالدعوة والترشيد ، وسد مآرب الشيطان ، وسدِّ أبواب الغواية ، ثم إقامة حكم الله فى الرعية والمجتمع ، باتباع أحكام القرآن ، وهدى السنة النبوية ، ثم إقامة المثل الأعلى فى عيون الناس ، وذلك بإبراز عامل القدوة الحسنة فى الحاكمين أنفسهم . . .

إن لم يفعلوا كلَّ ذلك وغير ذلك : فالهلاك موعدهم ، والفساد رائدهم ، وكل أنواع الرذائل تتفشى فى مجتمع ظُلِّمَ بسياسة حكم الطاغوت .

ندعو الله أن يعين حكامنا على الاحتكام إلى كتاب الله وبكتاب الله حتى يعلنوها خالصة لا إله إلا الله بكل مقتضياتها .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

---

(١) تفسير الرازى ١٠ـ١٢٧ .   (٢) انظر تفسير القرطبى ٥ـ٢٤٨ .

هؤلاء الذين يحتكمون إلى الجبت والطاغوت عليهم لعنات الله . ولعنة الله ليس لها من مرد ، وليس لصاحبهامن نصير .

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣﴾

هذا استفهام إنكار ، أى ليس لهم نصيب من الملك . ثم وصفهم الله سبحانه وتعالى بالبخل والحسد من عند أنفسهم ، وذلك بأن ساق لهم الكلام على طريق الإنكار والتقريع ، يعنى : أَلَهم ﴿نصيب من الملك﴾؟ والمعنى : ليس لهم من الملك شيئا ، حتى ولو كان لهم لم يعطوا أحدا من الناس منه شيئا لبخلهم وحسدهم . والنقير هو النقطة فى ظهر النواة . وهو تعبير يدل على أدق الأشياء وأتفهها وأصغرها .

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾

أمْ فى الآية بمعنى بل ، أى بل اليهود يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

والحسد مذموم ، وصاحبه مغموم ، وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ، ولله درّ قول الشاعر :

ألا قل لمن ظلَّ لى حاسدا ... أتدرى على مَنْ أسأتَ الأدبْ
أسـأت على الله فى حكمه ... إذا أنت لم ترض لى ما وهـبْ

ويقول آخر :

اصبر على حسد الحسود ... فإن صـبرك قاتـله
فالنار تأكـل بعضهـا ... إن لم تجـد مـا تأكله

ويخبر الله عز وجل أنه أعطى الحكم والنبوة لآل إبراهيم ، وجعل النبوة فيهم وفى أسباطهم ، فمنهم من آمن بهذا الفضل وهذا الإيتاء ، ومنهم من صدّ عنه وانحرف عن المنهج .

واليهود قد اختلفوا على أنبيائهم وملوكهم ، فإن اختلفوا اليوم فى أمرك يا محمد فذلك ليس بغريب عليهم ، فهم قتلةُ أنبيائهم ، وهم أصحاب السبت ، وهم سراق الذهب ، الذى صنعوا منه العجل ، الذى عبدوه ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

أى كفى بالنار عقوبة لهؤلاء الذين كفروا وعاندوا وخالفوا كتب الله ورسله . أعاذنا الله من نار جهنم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

إن الذين كفروا وحاربوا الرسول محمدا ـ ﷺ ـ سنعاقبهم بنار جهنم ، يدخلون فيها مساقين إليها بكفرهم وضلالهم عن الحق ، تصلى ـ أى تشوى ـ فيها أجسامهم . كلما نضجت جلودهم بدلت بجلودٍ غيرها ، لاستمرار عملية العذاب .

« والمراد من العزيز : القادر الغالب ، ومن الحكيم : الذى لا يفعل إلا الصواب ، وذكرهما فى هذا الموضع فى غاية الحسن ، لأنه يقع فى القلب تعجبٌ من أنه كيف يمكن بقاء الإنسان فى النار الشديدة أبد الآباد! فقيل : هذا ليس بعجيب من الله ، لأنه القادر الغالب على جميع الممكنات ، يقدر على إزالة طبيعة النار . ويقع فى القلب أنه كريم رحيم ، فكيف يليق برحمته تعذيب هذا الشخص الضعيف إلى هذا الحد العظيم؟ فقيل كما أنه رحيم فهو أيضا حكيم ، والحكمة تقتضى ذلك . (١) » .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

ذلك مقام المتقين الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا على ما جاء به محمد ـ ﷺ ـ ، فنفذوا أركان الإسلام قولا وعملاً وجوهرا ، ولم يحتكموا إلى طاغوت . والطاغوت يحكم بغير ما أنزل الله .

هؤلاء المتقون سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، منعمةً قلوبهم، تطوف على أرواحهم الملائكة ، تحييهم وتؤنسهم صباحا ومساء ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ (٢) ـ ﴿ فنعم عقبى الدار ﴾ (٣) . هؤلاء الصالحون لهم فى الجنة أزواج مطهرة

---

(١) تفسير الرازى ١٠ـ١٣٦ . (٢) يونس : ١٠ . (٣) الرعد : ٢٤ .

يعيشون معهن فى سعادة وأمان ، فى ظلال الجنة الوارفة المغدقة، بجمال رحمة الله ، وإحسانه إليهم. مطهرة: أى من الحيض ، والنفاس ، والأذى ، والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة ، طاهرات مطهرات .

فهل يعتبر من لم يحكم بكتاب الله ؟ وهل فكر فى مصيره الأخروى ؟ أو أنه ارتضى ذلك الطاغوت حكما ؟ .

هيا يا حكام الشعوب إلى كتاب الله، ونحن معكم ووراءكم وهيا أعلنوها صادقة وقودوا الأمم إلى طريق الله بدلا من طرق الفساد والدمار . لا نقول شيئا فى إسلامكم ، ولكن كونوا صادقين فى قول لا إله إلا الله . وها هى ذى مذاهب الشيوعية العتيدة تهوى من صرحها الكبير إلى مدارك الأرض ، وتهوى أمام قوى الإسلام ودروب الصحوة الإسلامية، وفى ذلك عبرة للمنحرف عن الحق وعن الله ، وها هى ذى المذاهب الفكرية الأخرى فى طريقها إلى الاندثار والسقوط .

اللهَ اللهَ فى شعوبكم ومحكوميكم . اللهَ الله فى مناصبكم ورعيتكم . اللهَ الله، حكموا فينا كتاب الله . وارعوْا الناس بحكم خلافتكم فى الأرض . فأنتم وعباد الله ظل لله فى أرضه . ارتضى لكم الحق أن تحكموا وأن تكونوا خلفاء . فكيف يتمرد المحكوم المعين من قبل الله على حاكمه المختار له ؟

أرجو الله أن يعينكم على تحكيم كتاب الله ، ونبذ الطاغوت وحكمه ، حتى ترتقى أمتنا ، وتسيروا بدون حراس ، لأن الشعب ساعتها سيحرسكم ويحميكم بفضل الله وكرمه . وتلك هى كل أمنياتى لحكام المسلمين دونما تعسف أو كره أو تعصب . فما أريد بذلك إلا وجه الله عزّ وجل .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

يقول القرطبى : إن «هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع . وقد اختلف مَن المخاطب بها . . فقيل . . هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة ، فهى للنبى - ﷺ - وأمرائه ، ثم تتناول مَن بعدهم»(١) .

وفى ذلك إخبار من الله العلى الكبير بأن الأمانة لها عند الله منزلة كبيرة وخطيرة .

---

(١) تفسير القرطبى ٣/ ٢٥٥-٢٥٦ .

ورأس الأمر فى الأمانة أن يوفى الإنسان بكل أوامر الله المفروضة عليه : من توحيده وعبادته بإخلاص ، والخوف منه بيقين ، والصلاة أمانة إذا حضر ميعادها ، والزكاة إذا بلغ نصابُها ، وكذا الصيام ، والحج إذا حضرت نفقته مع صحة البدن ، والأمن فى الطريق أمانة ، وأسرار الغير ما داموا قد أسروا بها إليك ، والخادم فى بيتك أمانة ، والعامل والمحكومون والشركاء فى التجارة ، وأمانة الحاكم فى المحكومين : أن ينصف ضعيفهم من قويهم ، ويعطى كلّ ذى حق حقه . . إلى غير ذلك .

إذن الآية حكمها عام فى الأمانة . فليست الأمانة مقصورة فقط على الودائع كما يفهم الكثيرون ، ولكنها تتجاوز حدود الودائع والأشياء العيْنية إلى مفاهيم وقيم دينية أوسع وأعمق ، تعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

لما أمر الله سبحانه وتعالى ـ فى الآية السابقة ـ الحكام بالعدل فى أحكامهم ، ولما أمر الدعاة والولاة بالعدل فى أمر رعاياهم ، أمر سبحانه وتعالى فى هذه الآية المحكومين بطاعة حكامهم .

وهذا ترتيب فى الخطاب عادل حيث إن الله أمر الحكام بالعدل أولا ، فإذا حكموا بالعدل كما يريد المولى فمن غير الجائز مخالفة أمرهم . لذلك يقول الإمام على كرم الله وجهه : حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ، ويؤدى الأمانة ، فإذا فعل ذلك فحقٌّ على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا [(١)].

ويستنتج الإمام الرازى رضى الله عنه من تفسيره لهذه الآية على أنها «مشتملة على أكثر علم أصول الفقه ، وذلك لأن الفقهاء زعموا أن أصول الشريعة أربع : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وهذه الآية مشتملة على تقرير هذه الأصول الأربعة بهذا

(١) انظر تفسير الرازى ١٠/ ١١٥ ـ ١١٧ .

الترتيب . أما الكتاب والسنة، فقد وقعت الإشارة إليهما بقوله ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ . . وقوله ﴿ وأولى الأمر منكم ﴾ يدل عندنا على أن إجماع الأمة حجة . . وقوله ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول﴾ يدل عندنا على أن القياس حجة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾

«هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله . كما ذكر فى سبب نزول هذه الآية أنها فى رجل من الأنصار ، ورجل من اليهود تخاصما . فجعل اليهودى يقول : بينى وبينك محمد، وذاك يقول : بينى وبينك كعب بن الأشرف .وقيل : فى جماعة من المنافقين ممن أظهروا الإسلام أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية »[1].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

أى يعرضون عنك يا محمد ويستكبرون على طاعة الله بمجرد دعوتهم إلى حكم الله .

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾

فها هم أولاء عند الشدائد والمصائب احتاجوا إليك. .يعتذرون إليك يامحمد، ويحلفون ماأردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى أعدائك، إلا الإحسان والتوفيق، أى المدارة والمصانعة، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة، وهم بذلك يقرون رسميا أنهم منافقون .

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

هذا النوع من الناس يا محمد : منافقون ، والله سبحانه يعلم ما فى قلوبهم ، ومدى

(١) تفسير ابن كثير ١ ـ ٥١٩

صدقهم وكذبهم ، وسيحاسبهم على ذلك فإنه ﴿ لا يخفى عليه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء ﴾ (١) فأعرض عنهم ، وانههم عما فى قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ، وانصحهم بالهوادة والموعظة فيما بينك وبينهم بما تتمتع به من كلام بليغ مؤثر يردعهم ويرجعهم عمّا هم فيه .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾

«لما أمر بطاعة الرسول فى قوله ﴿ وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ ثم حكى أن بعضهم تحاكم إلى الطاغوت ولم يتحاكم إلى الرسول ، وبين قبح طريقه وفساد منهجه ، رغب فى هذه الآية مرة أخرى فى طاعة الرسول فقال هذه الآية» (٢) .

أى : وما أرسلنا من رسول إلا وفرضت طاعته على من أرسله الله إليهم ، فلا يطيعه أحد إلا بإذنى وتوفيقى إياه إلى أمر تلك الطاعة .

ثم يوجه الحق سبحانه وتعالى العصاة المذنبين ، ويفتح أمامهم طريق الأمل والخلاص من بريق المعاصى ، ببيان أن الواحد منهم إذا وقع فى المعصية يمكنه أن يأتى إلى الرسول ـ ﷺ ـ فيستغفر الله عنده ويسأل الرسول أن يستغفر له الله . إنه لو فعل ذلك عن صدق ويقين ، وعزم على عدم الرجوع فى المعصية والذنب، لوجد الله توابا رحيما . سبحانه هو القائل ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ (٣) . وهو القائل ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ (٤). وسبحانه هو القائل ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ (٥) . فكيف تغلق أبواب الرحمة والتوبة أمام الأوابين الراجعين إلى الله ؟

إن مفاتيح رحمة الله ، ومفاتيح جنته ، ليست ملكا لأحد . ولكن العمل الصالح ، والعزم الأكيد على عدم الرجوع إلى المعاصى ، والتوبة النصوح ، هى طريق المرء إلى الجنة . ومشكلة كبرى أن يذنب الإنسان، ولكن المصيبة الأكبر أن يشعر فى لحظة ما أن ذنوبه أكبر من عفو الله . . !!

---

(١) آل عمران ٥ . (٢) تفسير الرازى : ١٢٨/١٠ . (٣) الكهف : ٥٨ .
(٤) الزمر : ٥٣ (٥) غافر : ٣.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

إنه قسم عظيم من الله سبحانه بنفسه الكريمة المقدسة أنه لايؤمن أحد حتى يحكّم الرسول ﷺ فى جميع الأمور. فيا محمد إن إيمان الخلق لا يعترف به لدينا ولا يصلح ولا يعتمد إلا إذا حكَّموك أنت فيما شجر بينهم ووقع من شقاق وخصام واختلاف فى شئون حياتهم وما يملكون . فإن حكموك ورضوا حكمك : كانوا مؤمنين حقا . يقول الإمام الرازى فى تفسيره العظيم فى هذه الآية (١) :

«اعلم أن قوله تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ﴾ قسم من الله تعالى على أنهم لا يصيرون موصوفين بصفة الإيمان إلا عند حصول شرائط : أولها : قوله تعالى ﴿ حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم الرسول - ﷺ - لايكون مؤمنا . . . واعلم أن الراضى بحكم الرسول ﷺ قد يكون راضيا به فى الظاهر دون القلب ، فبين فى هذه الآية أنه لابد من حصول الرضا به فى القلب . واعلم أن ميل القلب ونفرته شىء خارج عن وسع البشر ، فليس المراد من الآية ذلك . بل المراد منه أن يحصل الجزم واليقين فى القلب بأن الذى يحكم به الرسول هو الحق والصدق. . . وبين الحق أنه كما لابد فى الإيمان من حصول ذلك اليقين فى القلب، فلابد أيضا من التسليم معه فى الظاهر، فقوله ﴿ ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ﴾ المراد به الانقياد فى الباطن ، وقوله ﴿ويسلموا تسليما﴾ المراد منه الانقياد فى الظاهر. والله أعلم».

ثم يقول الرازى : « دلت هذه الآية على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الخطأ فى الفتوى وفى الأحكام، لأنه تعالى أوجب الانقياد لحكمهم ، وبالغ فى ذلك الإيجاب ، وبين أنه لابد من حصول ذلك الانقياد فى الظاهر وفى القلب ، وذلك ينفى صدور الخطأ عنهم. . ».

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾

والمراد أننا لو شددنا التكليف على هؤلاء المنافقين بأن نأمرهم بقتل أنفسهم ، أو

---

(١) انظر : ١٠/ ١٣١ (بتصرف يسير) .

بالخروج من أوطانهم ، لصعب ذلك الأمر عليهم ، ولما فعله إلا قليل منهم ، فليقبلوا الأمور السهلة الميسرة الأخرى التى أمرناهم بها حتى ينالوا رضا الله ، ويفوزوا بجنته لذلك يقول الحق :

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

أى فى الدنيا والآخرة . اللهم اجعلنا ممن اتبعوا صراطك وسبيلك ، وحاسبنا برحمتك ، واهدنا الصراط المستقيم .

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

أى من عمل بما أنزل فى كتاب الله ، وأرضى الله ورسوله ، وترك كل مانهى الله عنه ، فإنه سبحانه يسكنه مع النبيين ، ومع من بعدهم فى الرتبة ـ كما يقول ابن كثير ـ وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم عموم المؤمنين الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم، وذلك فضل من الله تعالى وليس نظير أعمالكم ، فلو حاسبكم الله على نعمة واحدة من نعمه عليكم ما استطعتم أن توفوه حقه أو شكره .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾

يأيها الذين آمنوا بمحمد وما أنزل عليه من الحق احذروا المنافقين والكافرين معا ، فهم لكم أعداء ، وإن أظهروا السكينة لبعض الوقت ، فاعلموا أنهم يرصدون حركاتكم، ويحصون عليكم خطاكم ، ويتجسسون عليكم لمعرفة عَدَدِكم وعُدَدِكم، من معاش وعلم وسلاح . فتسلحوا بالإيمان وبعدة القتال فذلك من الإيمان . و﴿ثُبَات﴾ أى : جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة ، وسرية بعد سرية ﴿ أو انفروا جميعا ﴾ أى كلكم .

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾

﴿ ليبطئن ﴾ أى ليتخلفن عن الجهاد ، وذلك لا يكون إلا من منافقين ، فهم لا يسارعون إلى الله وإلى الجهاد فى سبيله ، فيتخلف المنافق عن الجهاد حتى يسمع ويرى ما حدث من غلبة العدو للمؤمنين مثلا ، فيدعى أن تخلفه عن القتال كان له الحق فيه ، إذ إنه لو ذهب معهم لناله القتل مع من قتل . هذا من وجهة نظره ، وقد فاته أنه خسر الأجر فى الصبر أو الشهادة إن قتل هو معهم . وإن أصاب المؤمنين الفوز على الأعداء كان كأنه ليس من أهل دينهم ويقول ياليتنى كنت معهم ، فأضرب بسهمى معهم ، وأفوز بنصيبى فى الغنائم والمكاسب ، وهذا هو غاية قصده وأهدافه . فهم عُبَّاد دنيا فقط ولاينظرون إلى مرضاة الله ورضاه . فالفوز الحقيقى عند المؤمنين إنما هو الإيمان بالله ، والتصديق بكتبه ورسله واليوم الآخر.

لذلك يقول الحق فى هذا النوع المنافق الطالب للدنيا والناظر إلى مغانمها فقط :

وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

وهذا هو النوع المنافق المخادع ، فاحذروهم أيها المؤمنون ، وخالفوا أمرهم .

۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

فلا حق يضيع عند الله ، والذين يفضلون الآخرة على الدنيا هم الذين يقاتلون فى سبيله . والفائز والمغلوب فى ساحة الجهاد له أجر عظيم .

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

يحرض الله تعالى عباده المؤمنين على الجهاد فى سبيله و على السعى فى سبيل إنقاذ من لا حيلة لهم ، وهم المستضعفون بمكة من الرجال والنساء والولدان ، الذين يدعون

ربهم ويتضرعون إليه أن يخرجهم من هذه القرية ـ أى مكة ـ ويقولون : سخر لنا من عندك يارب وليا وناصرا .

وهنا ملحوظة لطيفة فى قوله تعالى ﴿ أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ فلم تنسب مكة للظلم ولم ينسب الظلم إلى مكة ، ولكنَّ الظلمة من سكانها هم المنسوبون إلى الظلم . ومادام فى القرية نفس مسلمة واحدة وجبت الإقامة فيها لا الخروج منها بدعوى الهجرة . أ هـ .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

يبين الحق أن المؤمنين يقاتلون فى سبيل الله ، والكافرين يقاتلون فى سبيل الطاغوت ـ أى الباطل ـ الذى يزينه الشيطان لأتباعه وأعوانه . ويقرر الحق أن كيد الشيطان هزيل تذروه رياح الباطل .

ونفهم من الآيتين السابقتين أن المؤمنين أمتهم واحدة ، ومسئولون بعضهم عن بعض ، حتى تستقر سفينة النجاة بهم جميعا ، فلا يصح لمسلم أن يتمتع بالأمن وأخوه المسلم مشرد معذب بأيدى الظالمين المفترين .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾

هذه الآية والتى بعدها تتحدث عن جماعات من المسلمين كانوا يتعجلون القتال مع الكافرين ، فلما كتب عليهم القتال جزعوا منه ، وخافوا من مواجهة الناس يقول ابن كثير :

« كان المؤمنون ، فى ابتداء الإسلام وهم بمكة ، مأمورين بالصلاة والزكاة . . . وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم . ولم يكن الحال إذ ذاك مناسبا لأسباب

كثيرة. . . منها : كونهم كانوا فى بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض . فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء كما يقال ، فلهذا لم يؤمروا بالجهاد إلا بالمدينة . . . ومع هذا لما أُمروا بما كانوا يودونه ، جزع بعضهم منه ، وخافوا من مواجهة الناس خوفا شديدا[1] » .

وتمنوا ساعتها أن يؤجل القتال ، ولكن آخرة المتقين خير من دنياهم ، ولا يظلم ربك أحدا .

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

أى أنتم صائرون إلى الموت لامحالة ، ولاينجو منه أحد منكم . والمقصود من هذا الكلام ، كما يقول الرازى ، هو تبكيت من حُكى عنهم أنهم عند فرض القتال ﴿**يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال**﴾؟ فقال تعالى : ﴿**أينما تكونوا يدرككم الموت**﴾ فبين الله تعالى أنه لاخلاص لهم من الموت[2]. وحقا قول الله : ﴿ **كل من عليها فان** ﴾[3] وقوله : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾[4] وقوله : ﴿**قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتمتعون إلا قليلا**﴾ [5]. وفى الآية خصلة أخرى من الخصال الرذيلة عند المنافقين فوق تخاذلهم وتخلفهم عن القتال : وهى أنهم إن أصابهم الفوز ولحقتهم الغنيمة قالوا هذه من عند الله ، وإن أصابهم شر ومكروه قالوا هذا من شؤم مصاحبة محمد (ﷺ) ، وهذا يدل على غاية حمقهم ، وجهلهم ، وشدة عنادهم .

إن خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه قال : لقد شهدت كذا وكذا موقفاوما من عضو من أعضائى إلا وفيه جرح من طعنةأو رمية وهأنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء[6] .

(١) تفسير ابن كثير: ١ـ٥٢٥ . (٢) تفسير الرازى : ١٠/ ١٨٧ . (٣) الرحمن : ٢٦ .
(٤) الأعراف : ٣٤ . (٥) الأحزاب : ١٦ . (٦) تفسير ابن كثير : ١ـ٥٢٦ .

وقد روى فى الصحيحين عن النبى (ﷺ) :

« مايصيب المسلم من نصب ولاوصب ولاهم ولاحزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفرّ الله عنه بها من خطاياه » (١).

﴿ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ ﴾

يخبر الله تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله ، وماذاك إلا لأنه ماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

يقرر الحق أن بداية الخير للعبد أن يستمع لحضرة الرسول - ﷺ - ، فإذا شرح الله صدره ، ونوّر قلبه ، ورفع الغشاوة عن بصره وبصيرته ، أصبح يعقل كلام الله المتلو على لسان سيد الخلق محمدٍ - ﷺ - ، فيصدق بكل ما جاء به رسول الله ، وينتهى عما نهى عنه . وبهذه الطاعة يوثق الله الصلة بينه وبين عبده . وجلّ قوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾(٢) .

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ ﴾

هؤلاء المنافقون الذين يقولون لك يامحمد أطعناك ، إذا خرجوا من مجلسك غيروا كلامهم وعصوْك . كلا ! إننا كاتبون كل ماقالوه ونخبرك به يامحمد ، فاصفح عنهم وكن حليما ، ولاتؤاخذهم ، ولاتخف منهم ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلا .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

إنهم لو تدبروا القرآن تدبرا يليق بجلاله وقدسيته ، وبإخلاص النية لله ، فقرءوه بقلوب مفتوحة ، لكانوا مع المتقين إذْ لو كان هذا القرآن من صنع وتأليف غير الله تعالى لما كان بهذه الدقة والبلاغة .

ومع التمعن فى قوله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ نجد أن القراءة وحدها بدون تدبر ونظر وتأمل فى المعنى لاتفيد . ولو تدبر الإنسان مقاصد الآيات ، ودقة نظمها ،

(١) رواه البخارى - واللفظ له - كتاب « المرضى » باب « ما جاء فى كفارة المرضى » ، ورواه مسلم كتاب « البر » باب « ثواب المؤمن فيما يضنيه - إلخ » .
(٢) آل عمران : ٣١ .

وجمال تدفقها ، لوقف على حقائق القرآن ومقاصده ، وشعر أنه لايمل ولايسأم منه ، بل يفارقه وهو فى شوق إليه ، وكلما استغرقته تلاوته اشتاق إليه ، وبذلك يخرج من التلاوة وهو منشرح الصدر ، فنجده فى معاملاته وتعايشه مع الآخرين قرآنا يمشى على الأرض ، كل حركته عطاء وإحسان وإنشاء وتجديد فى الحياة بحق وعدل ومساواة .

نعم إن المتمعن العارف المدقق فى تلاوته لكتاب الله ، هو الإنسان الذى يُكنّ كل معانى الحب والعطاء والبذل والتضحية فى سبيل إسعاد الغير لوجه الله ، لايرجو بذلك عرضا من الدنيا ، ولكنه الحب فى الله .

وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها ، فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لايكون لها صحة .

سبحانه العزيز الحكيم ، بعد أن دعا عباده المؤمنين الموحدين إلى أن يتدبروا القرآن ، الذى هو حق اليقين من الله ، دعاهم ألا يستسلموا لخلافات يوسوس بها الشيطان ، ليفرق بها بين المؤمنين . وإذا وقع بينهم خلاف فى أمر ولكل منهم وجهة نظر فيه ، كان عليهم أن يرجعوا فى بحثه ومعرفته إلى كتاب الله ، وسنة رسوله ، وإلى الدارسين الباحثين المتفقهين فى توضيح وتبيين شريعة الله ، الذين هم قوم من العلماء الأتقياء الحاكمين العادلين، الذين لديهم حلول مستنبطة من أصول شريعتنا الإسلامية الحكيمة . هذا موقف الذين أنعم الله عليهم من المؤمنين ، لا يرون فى القرآن اختلافا ولا تضادا، ولكنه الحق والنور والهدى، وهم دائما مع الذين يرددون قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾[1] .

فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

---

(١) آل عمران : ٨ .

« لما أمر تعالى بالجهاد ورغب فيه أشد الترغيب فى الآيات المتقدمة ، وذكر فى المنافقين قلة رغبتهم فى الجهاد ، بل ذكر عنهم شدة سعيهم فى تثبيط المسلمين عن الجهاد ، عاد فى هذه الآية إلى الأمر بالجهاد . . »[1] .

إذْ يأمر الحق تبارك وتعالى نبيه بالقتال فى سبيل الله ، لرفع كلمة الله - أى دينه وشريعته . وهنا نلاحظ قول الحق ﴿لاتكلف إلا نفسك﴾ وفى نفس الأمر : المؤمنون مكلفون بالقتال ومرغبون فيه ، وإذا رجعنا إلى قول الحق : ﴿ **فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما**﴾ ، ودققنا النظر فى هذه الآية والآية التى نحن بصددها ، نجد وكأن الله سبحانه يقول لنبيه ما عليك من الذين يتقاعسون عن القتال ، فالله سبحانه مؤيدك بالمؤمنين ، الذين صدقوا بكلمات الله ، فتقدم يا محمد فعندما يراك أهل الصدق والإيمان سيسارعون إلى الجهاد ، ولن يتركوك .

ولما كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ثقة ويقين بأن النصر من عند الله ، فقد أطاع الله ، وخرج للقتال غير متوان مادام الله قد أمره ، وكانت ثقتهم بنصر الله هى التى تدفعهم للقتال دائما .

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

الشفاعة هى شفاعات الناس بعضهم لبعض وتقديم الخير لأنفسهم . فمن يشفع فى الخير يأخذ أجره من هذا الخير ، ومن يشفع فى الشر يناله جزء من هذا الشر ، ويكون على وزر من تلك الشفاعة . ووجوه الشفاعة كثيرة ، منها معاونة الإخوان فى الخير ، وتقديم المصلحة لهم ، ودرء المفسدة عنهم . والحسنة بعشرة أمثالها ، وجزاءسيئةٍ سيئةٌ مثلها . ﴿ مقيتا﴾ أى حفيظا ، وهو قول ابن عباس ، وشهيدا على قول مجاهد ، والرزاق على قول الضحاك[2] .

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾

(١) تفسير الرازى : ١٠-١٦٢ .　　(٢)انظر تفسير ابن كثير: ١-٥٣١ .

التحية تقع من الوافد على غيره ، أو من طارق ، أو من مار فى الطريق على جماعة . وهى من القادم سنة وردّها فرض . وإذا قال القادم : السلام عليكم يحييه الذى ألقى عليه السلام بقوله : وعليكم السلام ورحمة الله . وإذا قال المبتدئ : السلام عليكم ورحمة الله ، قال المجيب : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فإذا قال الوافد : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته قال المجيب وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وفى الحديث : عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم . . ؟ أفشوا السلام بينكم »(١) .

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

سبحانه هو المتفرد بالألوهية وحده ، وهو الذى يجمع الخلائق كلها إلى يوم القيامة ، الذى لاريب فى حدوثه وقيامه ، وعندها يكون الحساب لكل عبد عما قدمت يداه . فذلك حق واقع لامحالة ، فالفوز لمن احتاط له وأعد له عدته وحسابه .

﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾

اعتراض من الحق العزيز الحكيم موجه إلى الأمة المسلمة فى المدينة .

ذكر أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أنها نزلت فى قوم جاءوا إلى المدينة ، وأظهروا الإسلام ، فأصابهم وباء المدينة وحُمَّاها ، فأركسوا ، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفر من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا مالكم رجعتم ؟ فقالوا : أصابنا وباء المدينة فاجتويناها(٢) فقالوا : مالكم فى رسول الله ـ ﷺ ـ أسوة ؟

قال بعضهم عن هؤلاء القوم : نافقوا ، وقال بعضهم لم ينافقوا هم مسلمون ، فأنزل الله الآية(٣) . وأركسهم أى ردهم إلى الكفر(٤) ، أو أهلكهم على قول قتادة بما كسبوا أى بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل(٥) .

(١) رواه مسلم . كتاب الإيمان ، باب « بيان أنه لن يدخل الجنة إلا . . . إلخ »
(٢) أى كرهنا المقام فيها وإن كنا فى نعمة . (٣) انظر القرطبى : ٣ـ٣٠٦ .
(٤) نفس المرجع . (٥) تفسير ابن كثير : ١ـ٥٣٣ .

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾

هؤلاء القوم المنافقون يودون لكم الضلال والهلاك ، لتكونوا أنتم وإياهم سواء فى الكفر والضلال ، وماذلك إلا لشدة كرههم وبغضهم لكم .

وهذه الآية تدل على أنه لا يجوز موالاة المشركين والمنافقين والمشتهرين بالزندقة والإلحاد . . والسبب فيه أن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين ، لأن ذلك هو الأمر الذى به يتقرب الإنسان إلى الله تعالى ، ويتوسل به إلى طلب السعادة فى الآخرة[١] .

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

يقول ابن كثير « أى إلا الذين لجئوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة ، أو عقد ذمة ، فاجعلوا حكمهم كحكمهم . »[٢] وهذا استثناء من الله سبحانه وتعالى لهؤلاء القوم الذين تحدثت عنهم الآية السابقة .

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

---

(١) تفسير الرازى : ١٠ـ٢٢١ .

(٢) ابن كثير : ١/ ٥٣٣

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : « هؤلاء فى الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك فإن هؤلاء قوم منافقون يظهرون للنبى ـ ﷺ ـ ولأصحابه الإسلام ، ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، ويصانعون الكفار فى الباطن ، فيعبدون معهم مايعبدون ، ليأمنوا بذلك عندهم ، وهم فى الباطن مع أولئك كما قال تعالى : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ﴾[1] » . ﴿أركسوا فيها﴾ أى انهمكوا فيها . وحكى ابن جرير عن مجاهد : أنها نزلت فى قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبى ﷺ فيسلمون رياء ، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا ، فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

سبحانه وتعالى حرّم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرما ، فالقاتل بغير موجب للقتل : ظالم وقاس القلب ، والمؤمن لايقسو ، فليس لإنسان مؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بأى وجه من الوجوه .

روى فى الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : لايحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيب الزانى والتارك لدينه المفارق للجماعة »[2] . ثم إذا وقع شىء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله ، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه[3].

---

(١) البقرة : ١٤ . وانظر ابن كثير : ١/٥٣٣ .

(٢) رواه البخارى كتاب « الديات » باب قوله تعالى «النفس بالنفس ... إلخ .» ورواه مسلم كتاب «القسامة» باب « مايباح به دم المسلم » .

(٣) انظر تفسير ابن كثير: ١ـ٥٣٤ .

وسبب نزول هذه الآية ما قال مجاهد : إنها نزلت فى عياش ابن أبى ربيعة وذلك أنه قتل رجلا كان يعذبه مع أخيه على الإسلام ، وهو « الحارث بن يزيد الغامدى » ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر ، وعياش لايشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه فظنّ أنه على دينه ، فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية . وهناك آراء أخرى فى سبب نزول آية قتل المؤمن للمؤمن خطأً .

فالقتل كما يذكر الإمام الشافعى على ثلاثة أقسام : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ .

فجزاء قتل المؤمن خطأً تحرير رقبة ثم دية مسلمة إلى أهل القتيل ، وهما واجبان : كفارة ما ارتكبه من ذنب عظيم ، والثانى عوض لأهل القتيل .

ومن لم يجد تقديم الكفارة ، أو الواجب ، فصيام شهرين متتابعين بدلاً من الرقبة .

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

هذه الآية ـ كما قال ابن كثير والقرطبى ـ «نزلت فى قوم من المسلمين مروا فى سفرهم برجل معه جمل وغُنيمة يبيعها فسلَّم على القوم وقال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فحمل عليه أحدُهم فقتله . فلما ذكر ذلك للنبى ـ ﷺ ـ شق عليه ونزلت الآية » [١] .

فمتاع الدنيا متاع قليل إذا قسناه بمتاع الآخرة الدائم الخالد . فلا تتعجلوا أيها المؤمنون فى أحكامكم على الناس ، واتقوا الله ، وحاسبوا أنفسكم ، وارحموا الناس ، فأنتم مسئولون عنهم وعن أنفسكم ، وما ارتكبتموه من ذنوب يغفرها لكم ربكم إذا تبتم وندمتم ثم استقمتم . وأما حق الناس فأنتم مسئولون عنه ومحاسبون عليه ، ﴿ **إن الله كان بما تعملون خبيرا** . ﴾

---

(١) القرطبى : ٣/٣٣٦ .

﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ
الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾

نعم . لايستوى المجاهد المقاتل المقدم ماله وولده وزوجه فى سبيل الله ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والقاعدون ﴿ من المؤمنين غير أولى الضرر ﴾ . نعم يتميز الذين قالوا ربنا الله ، ثم وحدوه وعبدوه ، وأقاموا أمره ، ودافعوا بأنفسهم وأموالهم عن حدود الله ، وإقامتها ، وعن أرض الله وصيانتها ، وأقاموا دولة الإسلام فى قلوبهم ، وفى أرض الله التى هم تاركوها إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ومهدوا أرض الدنيا للتوحيد ، فمهد الله لهم فى الجنات قصورا وبحارا وأنهارا وحورا عينا وأزواجا مطهرة ورضوانا من الله أكبر . إنها نفوس تبذل ، وأرواح تدفع ، وأموال تنفق ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾[1] ، وجلّ قول الحق ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[2] ، نعم . . كيف يستوى هؤلاء والقاعدون ﴿ من المؤمنين غير أولى الضرر ﴾ ؟ وأولو الضرر فى الآية : هم الذين حبسهم عذرهم عن الجهاد مع السالمين الأصحاء .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ
قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً
وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾

(١) التوبة : ١١١ . (٢) الصف : ١٠ ، ١١ .

يعتذر الحليم الكريم العدل سبحانه عن المستضعفين الذين كانوا لا حيلة ولا قوة لهم فيشعرنا الله سبحانه وتعالى بعدله وإنصافه ، فالذين لم يهاجروا نتيجة عجز أو ضعف : لهم عذرهم المقبول ، وهو سبحانه يعلم السر والجهر وما تخفى الصدور ، فيجازى ويحاسب على ما فى القلوب [illegible] لم يهاجروا وهم قادرون عليها فهم المحاسبون فيما فعلوه .

ويوضح ذلك موقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عمه العباس ، وتلك صورة تحسب للإسلام من خلال عمل النبى المعصوم ـ ﷺ ـ ، فقد عامل أحب الناس إليه بذلك الحق والعدل كما يعامل أى أسير من الأعداء .

۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

فى هذه الآية يقرر الحق سبحانه أن الذين يهاجرون فى سبيل الله يوسع الله عليهم أرزاقهم ، ويكفيهم بعزته وقدرته شر أعدائهم ، ويجعل لهم من كل ضيق فرجا ومخرجا ومراغما (عطاءً وسعة) فى العطاء .

يقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث الذى رواه البخارى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] .

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

وإذا ضربتم فى الأرض ـ أى سافرتم فى البلاد ـ سواء كان سفر جهاد ، أو حاج أو عمرة ، أو طلب علم من بلاد بعيدة ، أو زيارة ، إلى غير ذلك ، فإنه يسنّ فى هذه

(١) صحيح البخارى « كتاب الإيمان » باب « ماجاء إن الأعمال بالنية والحسبة »

الحالة القصر فى الصلاة ، وهى الرباعية إلى ركعتين فقط ، تخفيفا من الله ، ورحمة منه لعباده . أخرج الإمام مسلم عن يعلى بن أمية قال : قلت لعمر بن الخطاب قوله ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ وقد أمن الناس ؛ فقال لى : عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله عن ذلك فقال : «صدقةٌ تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»[1] .

وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾

هذا بيان تفصيلى مشروح عن صلاة الخوف وكيفيتها التى وضعها الله للمسلمين المتقين المجاهدين العابدين ، حتى يضرب المثل الأعلى فى اتخاذ كافة الأسباب فى جميع الأعمال ، فإن الله سبحانه وتعالى كفيل بأن يحمى ظهور المصلين أثناء الجهاد أو الحرب ، ولكن الحق سبحانه يعطينا مثالاً واضحا على أن لنا أسبابا وله مشيئة . ولاتقارن أفعاله بأفعال العباد . فسبحانه هو خالق الأسباب والمسببات ، وسبحانه تختلف مقاييس أسبابه عن مقاييس البشر .

فها هى ذى صلاة الخوف التى تنتقص يصليها الإمام ركعتين يأتم المصلون بالإمام فى الركعة الأولى ويكونون النصف ـ أى نصف العدد الموجود ـ والنصف الآخر يقف خلفهم حاملاً السلاح ، ومستعدا لأية خيانة أو غدر من عدو . وبعد الركعة الأولى يتبادل النصفان المكان خلف الإمام ، أى أن الفريق المصلى يخلى المكان بعد الراكعة الأولى ، ويقف حاملاً السلاح ، ويحل محله الفريق أو النصف الآخر الذى كان يحمل

(١) انظر تفسير ابن كثير : ١ ـ ٥٤٤

السلاح ليصلى الركعة الأولى بالنسبة له وراء الإمام ، وتعتبر هذه الركعة هى الثانية بالنسبة للإمام . فتكون بذلك صلاة الإمام ركعتين وصلاة المأمومين ركعة واحدة [١] . وبذلك لايستطيع الكافرون المتربصون للمؤمنين أن يباغتوهم .

يقول الإمام القرطبى : « واختلفوا فى صلاة الخوف عند التحام الحرب وشدة القتال وخيف خروج الوقت ، فقال مالك والثورى والأوزاعى والشافعى وعامة العلماء : يصلى كيفما أمكن لقول ابن عمر : فإن كان خوفٌ أكثر من ذلك فإنه يصلى راكبا أو قائما يومئ إيماء» [٢] .

وكل ذلك يدل على مدى الحرص على الصلاة ، وعلى عدم تركها حتى وإن صعب الوقت والموقف ، وهل هناك أكثر من مواجهة العدو ؟!

فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

يقول ابن كثير: « يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعا مرغبا فيه أيضا فى كل وقت . ولكن هاهنا أكد لما وقع فيها من التخفيف فى أركانها ، ومن الرخصة فى الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما لايوجد فى غيرها . »[٣] ﴿ موقوتا ﴾ عن ابن عباس ، أى : مفروضا ، ويقول ابن مسعود : إن للصلاة وقتا كوقت الحج [٤] .

وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

أى لاتضعفوا أبدا فى النيْل من عدوكم ومن طلبه ، بل جدّوا فى ذلك ولاتقصروا فيه ، فإن مايصيبكم يصيبهم ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ [٥] . ولكن ! هل ماتنتظرونه من الله هو مثل ماينتظرونه من الله ؟ كلا . إنهم قوم كفروا بالله

---

(١) للتوسع فى معرفة الأقوال فى هيئة صلاة الخوف راجع ـ على سبيل المثال ـ تفسير القرطبى ٣/ ٣٦٣ومابعدها . (٢) القرطبى : ٣ـ٣٦٩ . (٣) ابن كثير : : ١/ ٥٤٩ .
(٤) تفسير ابن كثير: ١ـ٥٥٠ . (٥) آل عمران : ١٤٠ .

وبرسوله فهم مطرودون من رحمة الله معذبون بغضبه ، لايحيون ولايموتون ، غير مأجورين . فهل ترقى رجاءاتهم إلى درجة رقى رجاءاتكم ؟ كلا إنكم ترجون النصر أو الشهادة . وفى حالة الهزيمة أو النصر لكم رضوان من الله أكبر ، أما هم فعبَّادٌ للدنيا ، مصيرهم جهنم ، ومطالبهم دنيوية خالصة ، ولايعرفون لله حقا ، ولا لرسوله طاعة . والله حكيم فيما يفرضه ويقرره وينفذه من أحكامه العادلة الكونية والشرعية ، وهو المحمود على كل حال كما يقول ابن كثير .

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾

نعم . لقد أنزل الله الكتاب أى القرآن الكريم الموصى به من عنده ، ثم السنة الملهمة لرسول الله - ﷺ - بمثابة مذكرة تفسيرية لهذا القرآن ، وذلك يامحمد لتحكم بين الناس بما سطر فى القرآن الكريم حكما عادلاً لاجور فيه ولا ظلم ، يسعد من تمسك به ، من جعله أمامه : قاده إلى الجنة ، ومن تمسك بغيره قاده إلى النار. فيأيها الذين آمنوا احذروا أن تحيدوا عن طريق الحكم بما أنزل الله وبما بيّن رسولُ الله فى سنته ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (١) .

فالحكم بكتاب الله أمر من الله ينبغى أن لا يختلف عليه من أمة محمد - ﷺ - إنسان . فكونوا يأهل الإسلام موازين قسط وعدل . حكمكم إنصاف وأمركم حق . فأنتم موازين الله فى الأرض ، واعلموا أن كتابكم « القرآن » هو بيان لعدل الله وقسطه ، وأنتم حراسه ، فاحذروا ألا تكونوا مقسطين . واعلموا أنكم خلفاءالله فى الأرض . والخلافة من مقتضياتها الحكم بما أنزل الله. حكما يعتمد على هديه فى كتابه وسنة رسوله .

وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾

فاستغفر الله يامحمد للمذنبين من أمتك . والمتخاصمين بغير وجه حق .

وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾

---

(١) النجم : ٣ .

«أى لا تحاجج عن الذين يخونون أنفسهم» (١) .

يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾

وهذا إنكار من الله سبحانه ، ، جلّ فى علاه ، على المنافقين الذين يستخفون بأفعالهم المنكرة من الناس لشدة قبحها . ولكنهم يجاهرون الله بها مع أنه مطلع على السرائر والنفوس والضمائر ، لذلك يهددهم الله بقوله (وهو معهم إذ يبيتون ـ أى يضمرون ـ مالايرضى ـ أى الله ـ من القول) .

وهناك نوعيات كثيرة فى كل العصور من هؤلاء . ذنوب تقترف وآثام تفعل من الأشخاص ، ويخافون من إظهارها أمام الناس ، لكن الله هو آخر شىء عندهم فى ذلك الأمر . كلا . إن الله مطلع ، وهو ذو الطول ، شديد العقاب ، يمهل ، ولكنه لايهمل .

هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾

وفرضا إن كانوا منتصرين فى الدنيا التى لم يقصدوا فيها وجه الله بأى شىء من أفعالهم ، والتى ظنوا أن الله غائب عنهم فيها ، وأنه يهمل مواقفهم وحسابهم ، وتجادلون عنهم الآن ، وتبررون أفعالهم بحجج واهية فيما بينكم ، فمن يجادلنى الحجة عنهم يوم القيامة ، ويتحمل مسئوليتهم الأخروية فى يوم شديد عسير على الكافرين غير يسير ؟!

وليعلم المنافقون المدلسون : أن الله من ورائهم محيط ، وهو الحارس والحفيظ على نبيه عليه الصلاة والسلام ، فليطمئن المؤمنون ، فهم كذلك بصدق اتباعهم لنبيهم وإخلاصهم لربهم محفوظون برعاية الله ورحمته .

وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾

---

(١) القرطبى ٣ ـ ٣٧٨ .

سُورَةُ النِّسَاءِ

تصوير لإشراق الرحمة الإلهية . إنها رحمة الله من فيض حبه لخلقه سبحانه الذى يعلم تراكيب النفس البشرية ، فيخبرنا الله تعالى عن كرمه وجوده أن كل من يتوب إليه ويخلص النية فى ذلك ، عازما على عدم الرجوع ، يجد الله غفورا رحيما .

وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾

وهنا يعلن الحق عبر باقتضاء حكمته بأن صاحب الذنب يؤذى به نفسه ، فيحملها فوق طاقتها من المسئولية أمام الله ؛ فلايغنى أحد عن أحد ، وإنما على كل نفس ما عملت لايحمل عنها لغيرها . والإنسان العاقل هو الذى يشفق على نفسه ، ويعمل على صيانتها مما يهلكها . والله سبحانه العليم الحكيم يحذر عباده أن يفعلوا الإثم ، فذلك أمر يهلكهم .

وهو سبحانه لايؤاخذ العبد بما يقول عنه الخلق ، ولكنه مطلع على سريرته وضميره ونفسه . والعبد يحاسب بنيته ، والنية السليمة يشهد لها العمل السليم ، والله ينجى عباده الذين لايخشون الناس ، ولكن يخشونه هو ، ويجعلون عملهم لوجهه . فمن يعمل إثما أو خطيئة ـ ولم يتق الله ـ ويتهم به بريئا فقد وقع فى دائرة الظالمين ، وإثمه على نفسه ، وليتحمل نتيجة هذا الظلم .

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

ولولا فضل الله وإنعامه عليك يامحمد ، لهمَّ كثير من الناس أن يضلوك عن طريق الهداية والصراط المستقيم ، ولكنك بعين الله وحفظه ، والله سبحانه وليك وجبريل وصالح المؤمنين ، ولن يستطيع أحد من البشر أن يغير مما قضاه الله لك من الكمال

والصدق فى اتباع ما أنزل عليك من الكتاب والحكمة فأنت فى فضل الله ورحمته ، وهؤلاء الذين يضلونك مايضلون إلا أنفسهم ، ولايضرون إلا أنفسهم .

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

يقرر الحق سبحانه أن أناساً يكثرون من لغو الحديث فى غير مايفيد ، فلا خير فى مايتحدثون فيه .

ثم يستثنى من هذا النوع قوما يكون حديثهم محصورا فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإصلاح بين المتخاصمين أو المختلفين من الناس ، فيهدونهم إلى الخير بإرشادهم إلى صالح العمل والقول .

والمهم فى كل ذلك أن يبتغى الآمر بالمعروف ، والناهى عن المنكر ، أو المصلح بين الناس بعمله وجه الله ، وإلا صار عمله هذا هباءً منثورا .

وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

بين الله تعالى لخلقه طريق هدايتهم وفوزهم ونجاحهم فى كتابه العزيز الذى جاء الرسول وشرحه بسنته الشريفة ، فمن سلك غير طريق الشريعة التى جاء بها القرآن والرسول وصار فى عداوة ومشاقة لهذه الشريعة : جازاه الله على ذلك ، بأن يزين له عمله ويستدرجه فى فعله وعمله الخطأ ، كما يقول الحق : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون ﴾ (١) . ويقول سبحانه : ﴿ ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ (٢) .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾

---

(١) القلم : ٤٤ .　　(٢) الأنعام : ١١٠ .

إن من أكبر الكبائر الشرك بالله ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ .

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ ﴾

والشيطان هو الذى يملى عليهم هذه التصورات الفاسدة ، وإنما هم فى الحقيقة يعبدون إبليس اللعين .

﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى قد حكم على إبليس باللعنة وبطرده من رحمته ، وقد تصور الشيطان اللعين أنه يتحدى المولى فقال سوف يكون لى من عبادك من يطيعوننى ويمشون ورائى ، وسوف يكون لى فيهم نصيبا مقدرا معلوما ، وسوف أبعدهم وأضلهم عن الحق ، وأزين لهم الأمانى ، وآمرهم بالتسويف .

﴿ فليبتكن آذان الأنعام ﴾ قال قتادة يعنى تشقيقها ، وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ . قال الحسن البصرى يعنى بذلك الوشم . ومن يجعل الشيطان قرينا وصاحبا له : فقد خسر الدنيا والآخرة .

﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾

« وهذا إخبار عن الواقع ، فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون فى الدنيا والآخرة . وقد كذب وافترى فى ذلك [١] ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومايعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ كما قال تعالى : مخبرا عن إبليس يوم الميعاد ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى . . ﴾ [٢] .

(١) تفسير ابن كثير ١ ـ ٥٥٦

(٢) سورة إبراهيم : ٢٢ .

فالمتبعون للشيطان مأواهم ومصيرهم جهنم خالدين فيها أبدا .

وهذا هو الوعيد الحق من الله ، والله تعالى صادق فى وعده ووعيده .

أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

إن مصير هؤلاء الذين وعدهم الشيطان ومنّاهم ، واتبعوه : جهنم ، لاخلاص لهم منها ، ولامأوى لهم فى غيرها أبدا .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

الذين صدقت نياتهم ، فكانت قلوبهم هى موضع عقيدتهم وولائهم لله سبحانه وتعالى ، وقالوا صدقا ، وعملوا حقا ، وعاشوا بإخلاص نية ، وصفاء ضمير، لايجادلون فى ما أُمِروا به ، ومانهوا عنه ، وعدهم الله بالجنة ، والله صادق فى وعده ، ومن أصدق من الله إذا قال ؟!!

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾

قال قتادة : ذُكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضى على الكتب التى كانت قبله . فأنزل الله هذه الآية[1] .

إن العبرة دائما بطاعة الله سبحانه ، والتعامل لايكون إلا مع الله ، ولا يغترّن عابد بعبادته ، فإن منكم من يعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع : فيسبق عليه القول ، فيصير من أهل النار . وإن منكم من يعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع : فيسبق عليه القول ، فيصير من أهل الجنة .

(١) انظر تفسير ابن كثير ١ـ٥٥٧ .

فالعبرة بالطاعة والامتثال بالمنهج وإسلام الوجه لله . فليست العملية بالافتخار والتمنى والتحلى ، لكن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل . من يعمل سوءًا يجز به كقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره *ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[1] .

وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾

يطمئن الله تعالى ويربط على قلوب المؤمنين ويبشرهم ﴿ ومن يعمل من الصالحات . . . ﴾ بعد قوله السابق ﴿ ليس بأمانيكم ﴾ وسبحانه ما أخاف ولا أفزع إلا وطمأن وسكَّن ، فهو الرءوف الرحيم ، فبعد أن أرهب من عمل السوء ، أعلن السلام والأمن والسكينة لمن يعمل الصالحات ، ويتحرى الطاعة ، وينفذ أركان الإسلام قولاً وعملا ، يقينا وصدقا . فهؤلاء يدخلون الجنة ولايظلمون قدر نقير فى ظهر نواة التمرة ، وهو شىء ضيئل جدا . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[2] .

وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾

هل هناك أحسن ممن يسلم وجهه لله ، ويعتمد عليه اعتمادا حقيقيا ، ويؤمن إيمانا صادقا ، قاصدا وجه الله فى كل مايفعل ، مخلصا النية له ؟ هل هناك أحسن من ذلك ؟!!

إذا لم يعد الإنسان فى دنياه بإيمانه فلا فائدة فى تدينه وإيمانه هذا ، فالإيمان صدق وعيش ومعاملة ، ورحمة من الله للإنسان .

الإيمان راحة مطلقة ، وظل ظليل ، وبرد جميل ، وواحة غنّاء ، يفىء إليها المرء هاربا من لهيب الحياة الحار .

اللهم ارزقنا الإيمان والعمل الصالح . . !!

---

(١) الزلزلة : ٨ . (٢)النحل : ٩٧ .

وشرط قبول العمل الصالح : الإيمان وتسليم الوجه لله ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن . . . ﴾ وإلا ضاع العمل هباءً منثورا ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا ﴾ (١) .

﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ وهم محمد وأتباعه المسلمون ، كما يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا ﴾ . (٢) والحنيف كما يقول ابن كثير هو المائل عن الشرك قصدا ، أى : تاركا له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكليته ، لايصده عنه صاد ، ولا يرده عنه راد ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ .

وهذا ترغيب للكلام السابق الذى أوحاه الحق لعباده ﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ .

ومكانة سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام عند ربه تكاد تكون معلومة عن كل العباد ، وحسبه شرفا ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ﴾ (٣) .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾

أى الجميع ملكه وعبيده وخلقه ، وهو المتصرف فى جميع ذلك ، لاراد لما قضى ، ولامعقب لما حكم ، ولايسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته .
وقوله ﴿ وكان الله بكل شىء محيطا ﴾ أى : إن علمه نافذ فى جميع خلقه ، وكيف لا وهو لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، سبحانه لايعزب عنه مثقال ذرة ، يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور، ولا يخفى عليه من الأمر شىء .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ﴿١٢٧﴾

---

(١) الفرقان : ٢٣ . (٢) آل عمران : ٦٨

(٣) النحل : ١٢٠ .

إن بعضا من المسلمين كانوا يستفتون رسول الله - ﷺ - فى أمر النساء .

إذ كان فى الجاهلية إذا مات الرجل أو الزوج : وضع أخوه ، أو ابنه من امرأة أخرى ، أو أولياؤه ، أو وارثه ثوبه على زوجة المتوفى ، وبذلك يمنع عنها طلاب الزواج منها ، وإن كانت جميلة : تزوجها وأخذ مالها ، وفى ذلك ظلم للنساء . وهضم لحقوقهن حتى أنزل الله أحكامه الصارمة الحكيمة ، وعزّز المرأة ، وجعلها كفيلة بحقوقها ، وأمينة على مستقبلها وحياتها .

وأيضا كان الجور والظلم قد امتد فى الجاهلية إلى الصغار ، فكانوا لايورثون الصغار والبنات ، فنهى الله عن ذلك ، وبين أسهم الورثة ، وأعطى كلَّ ذى حق حقه .

إن الله خبير مطلع على أفعالنا وأعمالنا ، وهذا تحفيز من الله يرد الحقوق إلى أهلها ، وترغيب باتقاء الله فى النساء والمستضعفين منهن والولدان .

وفى مقدمة سورة النساء حديث مفصل عن هذا الموضوع لمن أراد المزيد .

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

إذا أحست الزوجة من زوجها جفاءً وسوء معاملة ، فلا مانع أن يستعينا بالأهل والعلماء من أهل التقوى والصلاح ، ليتدخلوا فى الصلح بعد أن تنفد حيل الزوجين من أجل الصلح بينهما .

والله سبحانه وتعالى المطلع على مافى القلوب ، وسيجزى من يتحمل من الزوجين ، ويبذل من الخير ويؤثر على نفسه ، لتبقى العشرة ، وتدوم تربية الأبناء معهم ، وتحت رعاية أبوين .

وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾

نقول بداية إذا كان الزوج قد أثقلته متاعب الحياة ومسئولياتها فعلى الزوجة أن تخفف عنه ، بتيسير مسئولياته بالتعاون والمشاركة ، حتى يشعر الزوج بحنانها وعطفها ومشاركتها ، فيجاهد فى الحياة بقلب مفتوح ، وصدر مشروح ، ليوفر لها مطالب الأسرة وتكاليف الحياة .

والمرأة العاقلة صاحبة التصرف الحسن والعقل الراجح ، تعالج قلب زوجها ، بإظهار الانشغال بأمره ، والحرص على سعادته وراحته ، وبالسهر على مصالحه ، وإشعاره دائما أن ما يعنيه يعنيها ، إذْ الزوجة العاقلة : يريحها مايريح زوجها ، ويقلقها ما يقلقه .

وزوجان على هذا النمط : سوف يتمتعان ويسعدان ، وتسعد بهما الحياة والأبناء من حولهما ، فلابد أن تحل المودة والرحمة بين الزوجين ، بدلاً من الشحناء والبغضاء ، والتركيز على الصغيرة والكبيرة والتوافه فى عداد الحياة اليومى . وكان الله واسعا حكيما .

وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه ، بأن يعوض الله كلا منهما عن الآخر بمن هو خير منه ، فإن الله واسع الفضل ، عظيم المن ، حكيم فى جميع أفعاله وأقداره وشرعه كما يقول الإمام ابن كثير .

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾

إن الله سبحانه وتعالى له الحق المطلق فى أن يعطى أو يمنع ، والإنسان العاقل هو الذى يقول باعتقاد ويقين لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، خلق الخلق ، وصور الوجود ، وأبرز الظاهر ، وستر الباطن ، وهو بالجملة مالك السموات والأرض ، وهو الحاكم فيها ، له التصرف كيفما يشاء ، فيجب علينا تقوى الله ، والخوف منه ، والعمل بمقتضى قول لا إله إلا الله وحده لاشريك له حقا وصدقًا ويقينا وتلك وصية الله لنا ،

التى وصاها لمن قبلنا ، وهو نداء لكل العالمين ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾(١) .

سبحانه لاتنفعه عبادة ولاتضره معصية . سبحانه لو أن أولنا وآخرنا وإنسنا وجننا اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منّا مانقص ذلك من ملكه شيئا جل قوله : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾(٢) .

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾

التكرار فى هذه الآية والتى قبلها بقوله ﴿ ولله مافى السموات ومافى الأرض ﴾ : (ليتنبه العباد وينظروا مافى ملكوته وملكه وأنه غنى عن العالمين)(٣) .

سبحانه يعطى عن غنى ، ويمنع عن قدرة ، ويعفو عن إحسان ، إن شاء أغنى كل مافى الوجود ، وهو قيوم السموات والأرض ليس كمثله شىء ، وكان الله على كل شىء قديرا .

نعم . . اكتفينا بالله وكيلا .

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾

هو القادر على الإفناء ثم الإيجاد ، وذاك أمر يسير على الله ، فهو قادر على محونا من الدنيا ، والإتيان بآخرين ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾(٤) يخلق أقواما آخرين يشتغلون بتقديسه وعبادته ، ولكن الله حق رحيم له فى خلقه شئون .

مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

---

(١) سورة الزمر : ٦٥ ، ٦٦ .
(٢) سورة الإخلاص : ٤ .
(٣) تفسير القرطبى : ٣ـ٤٠٩ .
(١) سورة : محمد ٣٨ .

فيا من ليس له شغل يشغله إلا الدنيا ، والجمع لها ، والإعداد لها ، والتمتع بها : هاهى الدنيا أمامك ، يامن تريد الدنيا : تمتَّعْ ولك فيها كل أنواع النعيم ، لكنك خاسر فى الآخرة مالك فيها من خلاق ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد** ﴾[1] ـ ﴿ **فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق** ﴾[2] ـ ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه** ﴾[3] ـ ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا* والآخرة خير وأبقى** ﴾[4] ـ ﴿ **ما عندكم ينفد وماعند الله باق** ﴾[5] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

« يأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط ـ أى بالعدل ـ فلا يعدلوا عنه يمينا ولاشمالا ، ولا تأخذهم من الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنها صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه »[6] . ويأمرنا الله أن نكون شهداء لله نؤدى الشهادة ابتغاء وجهه الكريم ولو على أنفسنا ، وهذا قمة العدل فى النسق القرآنى ، حتى ولو عاد ضرر الشهادة علينا ، فإن كنا نريد وجه الله فعلاً فى الشهادة : فلا خوف من ضرر ، أو أى ردّ فعل قد تحدثه هذا الشهادة التى شهدنا بها على أنفسنا أو على غيرنا ، والله حق كريم فلم تخاف ضررا أو ألماً يقع من جراء تلك الشهادة ؟ سبحانه هو القائل : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾[7] ـ وإن كانت الشهادة على الوالدين أو أحد الأقربين : فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . ومن هنا يقول الحق ﴿ **وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ أى إن حرفتم فى الشهادة وغيرتموها ، فإن الله سيجازيكم بذلك .

واللَّىُّ كما يقول ابن كثير : هو التحريف وتعمد الكذب .

---

(١) الإسراء : ١٨ . (٢) سورة البقرة : ٢٠٠ . (٣) سورة الشورى : ٢٠

(٤) سورة الأعلى : ١٦ ، ١٧ . (٥) النحل : ٩٦ (٦) تفسير ابن كثير : ١ـ٥٦٥ .

(٧) سورة المائدة : ٨ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول فى جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه. وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه.

الجميل فى هذه الآية أن النداء للذين آمنوا، ومضمون النداء هو الأمر بالإيمان ﴿يأيها الذين آمنوا آمنوا﴾ فكيف نأمر الذين آمنوا بأن نقول لهم آمنوا فى نفس الوقت؟!

وهذا من الإعجاز البيانى فى القرآن.

يقول القرطبى: «نزلت هذه الآية فى جميع المؤمنين والمعنى: يأيها الذين صدّقوا أقيموا على تصديقكم واثبتوا عليه»[(١)].

ويقول الرازى: «والمعنى يأيها الذين آمنوا داوموا على الإيمان واثبتوا عليه... يأيها الذين آمنوا فى الماضى والحاضر آمنوا فى المستقبل»[(٢)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾

سبحان الله الغنى، لم يرض من عباده الكفر، لأنه خلقهم، وأنعم عليهم بالحياة، فكان حقا عليهم أن يعبدوه، ويمتثلوا لأمره، ويشكروا له. فالذين آمنوا منهم ثم لعب بهم الشيطان فسوّل لهم طريق الضلال فكفروا، ثم آمنوا ثم لعب بهم مرة أخرى فكفروا: لم يكن الله بعد ذلك ليغفر لهم. إذْ طمس على قلوبهم فازدادوا كفرا وصاروا من أصحاب الجحيم. والمنافقون من هذا النوع، لذلك قال الله عنهم:

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾

وهم من المذبذبين غير المستقرين على حال واحدة.

---

(١) القرطبى: ٣ـ٤١٥.

(٢) تفسير الرازى: ١١ـ٧٥.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ ١٣٩

يكلف الله سبحانه وتعالى المؤمنين أن يجتنبوا الذين يخوضون بالباطل فى آيات الله بغير الحق ، وليس لديهم من حجة على باطلهم إلا أنهم يحقدون على المؤمنين ، ويحسدونهم على أن الله هداهم للإيمان ، ويتخذونهم أولياء من دون المؤمنين بحثا عن العزة والنصرة عندهم .

يقول تعالى لهم : احذروا مجالستهم ، وانتهجوا طريقا غير طريقهم ، واحذروا طريق المغضوب عليهم ، وهم اليهود . وطريق الضالين ، وهم النصارى .

إذ العزة والغلبة لله ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (١) .

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ ١٤٠

إن المشركين كانوا يخوضون فى ذكر القرآن ويستهزئون به فى مجالسهم ، وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون ذلك أيضا ، وجاراهم المنافقون على فعلهم هذا ، فوعدهم الله جميعا بعذاب أليم . فمن يجاريهم ويخوض فى الحديث معهم فهو مشارك لهم ، وراض عن كلامهم ، ومعذب معهم ، وداخل فى زمرتهم .

يقول الرازى « هذا يدل على أن من رضى بالكفر فهو كافر ، ومن رضى بمنكر يراه وخالط أهله وإن لم يباشر كان فى الإثم بمنزلة المباشر» (٢) .

وفى هذا درس عظيم لنا . فما أكثر أن ينُال كتابُ الله بالسوء والخوض فيه والاستهزاء به من بعض الجهلة المنافقين ، الذين يحاربون الله ورسوله بطرق خبيثة حتى يستهووا ضعاف الإيمان .

---

(١) سورة محمد : ٧ .   (٢) تفسير الرازى : ١١ ـ ٨١ .

فتنبهوا أيها المسلمون لأعدائكم وخصوصا هؤلاء المنافقين الذين هم أخطر من الكفار الظاهرين . فما أكثر الجدل العقيم بين عامة الناس وما أكثر المفاهيم الخاطئة التى يجب أن تصحح فى أذهان الناس ، وما أكثر المتفلسفين المستعلمين، حتى إن العامة يخوضون فى الحديث معهم ،وكلٌّ أصبح يدلى برأيه فى الموضوع ، وكأن القرآن والرسول أصبحا لعبة فى يد الناس يتقاذفها كل غادٍ ورائح .

إن الله ورسوله لأكبر وأقدس من أن يُخاض بالحديث فيهما وتلوكهما الألسنة الحداد بأدنى أنواع قلة الأدب والذوق . فلنتأدب مع الله . ولنتأدب مع الرسول ، ولنحترم القرآن . فلقد خلقت الجنة من أجله ، وبه ندخلها ، ومن غيره لن نراها . نسأل الله الهداية

ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

إن حصل للمؤمنين نصرٌ وفوز قال المنافقون الذين يتربصون بهم : ألم نكن معكم؟ وهم فى الوقت نفسه يتمنون لدولة الإسلام عدم الظهور ، وإن ظهرت فهم يتمنون لها الزوال والهزيمة ،وإذا حدثت هزيمة للمؤمنين ، قالوا : لقد ساعدناكم فى الباطن وماكنتم تشعرون .

وهم فى حقيقة الأمر يرجون فى سريرتهم المظلمة الآثمة انتصار الكافرين على المؤمنين، فهؤلاء قوم منافقون مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهو سبحانه وتعالى يحكم بينهم يوم القيامة . ولن يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل فى الدنيا حتى وإن حدث لهم انتصار على المؤمنين فى بعض الأحيان ، فإن العاقبة للمتقين فى الدنيا والآخرة ، كما قال الله تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (١) .

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾

---

(١) سورة غافر : ٥١ .

« لاشك أن الله لايخادَع فإنه العالم بالسرائر والضمائر، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون ذلك »[1] . وقوله ﴿ وهو خادعهم﴾ أى هو الذى يستدرجهم فى طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق والوصول إليه فى الدنيا وكذلك يوم القيامة .

والآية توضح صفة المنافقين فى أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهى الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها لأنهم لانية لهم فيها . وواقع الأمر أن الصلاة هى أشرف علاقة بين الإنسان وخالقه ، فهى مناجاة مباشرة بين الله والإنسان ، تملأ عواطفك بها ، وترقّى بها أخلاقك ، وتقوى جوانب التقوى فى نفسك ، وتملأها خشية من روعة هذا اللقاء الربّانى الكريم .

وفى هذه الأيام يكثر الكسالى عن الصلاة حيث تراهم يقومون لأدائها دونما رغبة أو فرح أو شوق ، وكأنها شىء ثقيل أو هو عبء كبير نفعله بغير رضا . فنعوذ بالله من أن نكون من المنافقين الذين يكسلون عن أداء الصلاة فى أوقاتها ، أو أن نؤديها ناقصة نقرةً نقرةً .

والمنافقون عادة يصلون الصلوات التى بالنهار، ويتخلفون عادة عن صلاة العشاء والصبح وقتى العتمة والغلس ، لأن الناس لايشهدونهم فى هذين الوقتين .

مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

هؤلاء المنافقون محيرون بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين من أصحاب محمد، ولا مع الكافرين ظاهرا أو باطنا، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، وهذا نوع سيئ جدا من الناس .

وموقفهم هذا ضال لايصح فى عملية الإيمان والعقيدة . ومن صرفه الله عن طريق الهدى ، فلا هادى له ، ولامنقذ له مما هو فيه .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ١ـ٥٦٨ .

ينهانا المولى سبحانه وتعالى عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أو أن نصاحبهم أو نصادقهم أو نناصحهم أو نوادّهم . كما قال الحق فى موضع سابق : ﴿لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ (١) .

وإنكم أيها المؤمنون إن لم تنتهوا عن ذلك تجعلوا لله حجة عليكم عند عذابكم على هذا الأمر . وفى هذا تنفير شديد من مصاحبة ومصادقة الكافرين .

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ١٤٥﴾

أى جزاؤهم يوم القيامة النار بل أسفل النار كما يقول ابن عباس ، وقال ابن كثير النار دركات كما أن الجنة درجات .

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ١٤٦﴾

يخبرنا الحق سبحانه بأن العذاب واقع على المنافقين ،إلا الذين يتوبون بشرط الإخلاص، والنية الحسنة ، وعمل الصالحات ، والتمسك بدين الله ، فهؤلاء مع المؤمنين ، وفى زمرتهم وكلهم جميعا فى رضوان الله ونعيمه .

والإخلاص سرٌّ من أسرار الله تعالى وهداية منه ومنحة .

﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾

الله غنى عن كل العالمين . وهل هو محتاج إلى تعذيبنا ، أو أن القضية قضية اختبار، فنجاح ، أو زلل ؟!

آلله يعذبنا لمجرد إرادته العذاب ؟ أو أن القضية قضية ابتلاء واختبار؟ ابتلاء فصبر ، أو رزق كريم فشكر ؟ وهل إذا آمنا وشكرنا المولى : يكون لله حاجة فى تعذيبنا . . ؟ !! كلا . .

(١) آل عمران : ٢٨ .

إن الله يجازى كل شكور ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ فالاستفهام فى الآية يعنى التقرير، والخطاب للمنافقين ، فإن تعذيب الله للناس لايزيد فى ملكه . وتركه لذنوبهم لاينقص من شأنه وملكه سبحانه

وهذا قول جميل لمكحول رضى الله عنه : (*)

أربع من كنَّ فيه كن له ، وثلاث من كنّ فيه كن عليه . فالأربع اللاتى له هى :

(أ) الشكر ، (ب) والإيمان ﴿ مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾(١) .

(جـ) الاستغفار ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾(٢)

(د) الدعاء ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ . (٣) يعنى لولا دعاؤكم المستمر لله وضراعاتكم إليه ما اهتم بكم الله ولأهملكم .

والثلاث اللاتى عليه هى :

(أ) المكر ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾(٤) .

(ب) البغى ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ (٥) .

(جـ) النَّكْث ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ (٦)

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

إن من آداب الإسلام ألا يؤذى المسلم مسلما . وإن دخل عليه ضيف كان عليه أن يكرمه، وعندما يعتدى المسلم على أخيه فأفضلهما الذى يعفو ، فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

ومن أذى اللسان : الجهر بالقول السيئ ، والجهر بفحش الكلام أيًا كانت صور هذا القول السيئ أو الكلام الفاحش .

فمن الناس من يؤذى الآخرين متسلطا عليه بأقذع العبارات والسب ، ومنهم من يلوك لسانه سيرة الناس بالباطل ، ومنهم من لايرحم لسانه أعراض الآخرين ، ومنهم

(*) انظر : تفسير القرطبى ٣ـ٤٢٧ .
(١) النساء : ١٤٧ .
(٢) سورة الأنفال : ٣٣ .
(٣) سورة الفرقان : ٧٧ .
(٤) سورة فاطر : ٤٣ .
(٥) سورة يونس : ٢٣ .
(٦) سورة الفتح : ١٠ .

من يواجه الآخرين بأساليب السب واللعان . وإن الله طيب لايقبل إلا طيبا . ومن طيب الأشياء القول الحسن الذى يحبب الآخرين إليك . وحسن الكلام يوثق العلاقات بين المؤمنين . بل إن من مقومات الأخلاق : القول الحسن ، واللسان الطاهر النظيف ، ولنا فى رسولنا ـ ﷺ ـ أسوةٌ حسنة ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [1] .

ووالله ما أحوجنا اليوم إلى هذه القيم التى كادت أن تتقوقع فى قلب مجتمعاتنا التى قضى عليها الغزو الأجنبى . الذى لايحترم قيمة ولا يحفظ فضيلة . ماكان للمسلمين أبدا أن يلقوا بأنفسهم ، نحدروا إلى قاع بعيد عن الحصن الأخلاقى المتين ، الذى رسمه الحق وطبقه المصطفى ـ ﷺ ـ وما نهضت أمتنا الإسلامية فى عصورها الأولى إلا بسلاح الأخلاق المتين . فالخلق الطيب باب كبير ، وجواز سفر تتفوق به فى الدنيا . والمتبصر فى قواعد وشرائع الإسلام يجد أنها تقوم على أسس أخلاقية متينة يحكمها العمل الصالح المخلص بإيمان بالله عميق .

هذه الأسس إن لم توجد فمصير هذا العمل قصير وإن طال ، ومصير أية حضارة إلى الانهيار وإن علت لأنها فى الأساس مبنية على غير أسس أخلاقية .

إننا لو بقينا نرتمى فى أحضان الغير بهذه الطريقة لخسرنا الدنيا والآخرة . نعوذ بالله من ذلك .

ولو بقينا نقبل هذا الغزو الفكرى اللعين الذى يتشربه شبابنا تشربا : لضلت عقول أبنائنا ، ولهبطنا إلى الهاوية ، ولجنت الأمة أشواكا من الكفر والضلال الذى يحاول الأجانب الذين يبدون لنا الصداقة وهم ألدّ أعداء الله ـ أن يغرسوه فى عقول أمة كانت الخيرية فيها من أجل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

الإسلام أيها السادة جميل . تمسكوا به . وعضوا عليه بالنواجذ ، فوالله ماهو إلا كرم منه سبحانه أن هدانا له وخلقنا مسلمين . نسأل الله أن نكون مخلصين للإسلام قولا وعملا .

﴿ إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ ١٤٩

« أى إن أظهرتم أيها الناس خيّرا ، أو أخفيتموه ، أو عفوتم عمن أساء إليكم ، فإن

(١) سورة القلم : ٤ .

ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم .

ولهذا ورد فى الأثر : أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾

خلق الله آدم وهو أول الأنبياء ، وجاء محمد - ﷺ - وهو خاتم الأنبياء ، وما بين آدم عليه السلام ومحمد كوكبة مشرقة من الرسل والأنبياء، المذكور منهم فى القرآن ثمانية وعشرون .

وأهل الإسلام أصحاب محمد - ﷺ - وأمته لايفرقون بين أحد من رسله **﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾** (1) . يؤمنون بهم جميعا ويصدقون برسالاتهم .

والله سبحانه وتعالى يتوعد الكافرين به وبرسله وأنبيائه ، وخصوصا اليهود والنصارى ، الذين فرقوا بين الأنبياء ، وآمنوا ببعضهم وكفروا بالبعض الآخر . لا عن دليل ولكن بعنجهية وجهل مطلق ران على قلوبهم .

فاليهود الشرذمة الحقيرة عليهم اللعنات : آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمدا عليهما السلام والصلاة من الله .

والنصارى : آمنوا بالأنبياء وكفروا بمحمد - ﷺ - والذى يكفربنبىٍّ من الأنبياء فقد كفر بسائر النبيين .

هؤلاء بنص القرآن : هم الكافرون حقا ، وقد أعد الله لهم عذابا أليما مهينا .

---

(1) سورة البقرة : ٢٨٥ .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

هؤلاء قوم آخرون هم المؤمنون حقا لايفرقون بين أحد من رسله ، ولهم جزاء عند الله كبير ، والمقصود بهم أمة محمد - ﷺ - .

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾

هذا نوع من جهالات اليهود وعنتهم وضلالهم ، مازال الحق سبحانه يفضح أهواءهم للعالمين ضمن آيات من القرآن تتلى إلى يوم الدين .

والمقصود من الآية بيان ماطبعوا عليه من جهل وعناد .

فقد سأل اليهود محمداً - ﷺ - وطلبوا منه أن يصعد إلى السماء وينزل عليهم كتابا وصحفا إلى فلان وفلان وفلان ، وذلك على سبيل التعنت والكفر والإلحاد .

والحق سبحانه وتعالى يقرر أن صنيعهم هذا ليس غريبا منهم ، لأنهم - قديما - سألوا سيدنا موسى عليه السلام أكبر من ذلك ، وأشد إنكارا ﴿ **فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة** ﴾ بكفرهم وطغيانهم .

وقد فسرنا ذلك فى سورة البقرة عندما قال الحق ﴿ **وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون** ﴾[1] .

ومن مواقف جهلهم وعنتهم قصة اتخاذهم العجل الذى عبدوه ، وقصته مشروحة فى سورة الأعراف بعد أن ذهب موسى عليه السلام إلى مناجاة ربه ورجع ووجدهم يعبدون العجل . . إلخ هذه القصة .

---

(١) سورة البقرة : ٥٥ .

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

وقد وضح معنى الآية من مواقف هؤلاء اليهود المتعنتين الجهال عليهم لعنات الله .

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

إن اليهود قوم غضب الله عليهم ولعنهم وطردهم من رحمته ، بسبب نقضهم المواثيق والعهود ، وعصيانهم ، وقتلهم كثيرا من الأنبياء طغيانا منهم على حدود الله وأوامره ، وقد طبع الله على قلوبهم غضبا وسخطا لدرجة أن قلوبهم طبعت على العصيان والتمرد ، فلم تعد مستعدة لقبول الحق ولتلقى الإيمان .

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

قال ابن عباس (يعنى أنهم رموْها بالزنا) ﴿ **يا أخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمك بغيا** ﴾ [1] .

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾

ويذكر ابن كثير قصة صلب عيسى عليه السلام ، ونرى أنه من باب الأمانة نقلها هنا كى ترسخ قصة صلب عيسى فى أذهان الناس ، ونقضى على الاختلاف الوارد فى صلبه ، والقرآن الكريم وضح ذلك بيانا عيانا بصريح القول وصدق الحديث . يقول ابن كثير :

---

(١) سورة مريم : ٢٨ .

« وكان من خبر اليهود، عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه، أنه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى ، حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات (المعروفة) . . . ومع هذا كذبوه وخالفوه وسعوا فى أذاه بكل ما أمكنهم ، حتى جعل نبى الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم فى بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام . ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق فى ذلك الزمان . وكان رجلاً مشركا من عبدة الكواكب : . وأنهوْا إليه أن فى بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه، فغضب الملك من هذا ، وكتب إلى نائبه بالقدس أن يحتاط على هذا المذكور ، وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، ويكف أذاه عن الناس. فلما وصل الكتاب امتثل، والى بيت المقدس لذلك ، وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذى فيه عيسى عليه السلام ، وهو فى جماعة من أصحابه، اثنى عشر أو ثلاثة عشر وقيل سبعة عشر نفرا. وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ـ فحصروه هنالك. فلما أحس بهم وأنه لامحالة من دخلوهم عليه أو خروجه إليهم ، قال لأصحابه : أيكم يُلْقَى عليه شبهى وهو رفيقى فى الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم، فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة، وكل ذلك لاينتدب إلا ذلك الشاب. فقال : أنت هوا ! وألقى الله عليه شبه عيسى، حتى كأنه هو وفتحت روزنة[1] من سقف البيت . وأخذت عيسى عليه السلام سنةٌ من النوم فرُفع إلى السماء ، وهو كذلك كما قال الله تعالى ﴿ **إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى** ﴾[2] . فلما رُفع خرج أولئك النفر . فلما رأى أولئك ذلك الشابَ ظنوا أنه عيسى ، فأخذوه فى الليل ، وصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه . وأظهر اليهود أنهم سعوا فى صلبه، وتبجحوا بذلك . وسلم لهم طوائف من النصارى بذلك لجهلهم وقلة عقلهم، ماعدا من كان فى البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون فإنهم ظنوا ـ كما ظن اليهود ـ أن المصلوب هو المسيح بن مريم . . . وهذا كله من امتحان الله لعباده ، لما له فى ذلك من الحكمة البالغة. وقد أوضح الله الأمر وجلاَّه وبينه وأظهره فى القرآن العظيم ، الذى أنزله على رسوله الكريم ، المؤيد بالمعجزات والبينات والدلائل الواضحات ، فقال تعالى وهو أصدق القائلين . . . : ﴿ **وما قتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ أى رأوْا

---

(١) روزنة أى فتحة دائرية فى سقف البيت . (٢) سورة آل عمران : ٥٥ .

شبهه، فظنوه إياه ، ولهذا قال : ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ يعنى بذلك من ادعى أنه قتله من اليهود ومن سلمه إليهم من جهال النصارى كلهم فى شك من ذلك وحيرة وضلال ، ولهذا قال ﴿ وما قتلوه يقينا ﴾ أى وما قتلوه متيقنين أنه هو بل شاكين متوهمين » [1] .

بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾

هذه هى القصة كما أوردها ابن كثير، ومعها روايات من طرق أخرى عن قصة صلب المسيح ورفعه إلى الله . والغريب أن نصارى اليوم أو كما يسمون أنفسهم المسيحيين يعتقدون كما كان يعتقد يهود عيسى أنه قتل وصلب ، ويلبسون الصليب ، ويباشرون ـ إلى اليوم ـ نسكا غريبة ماأنزل الله بها من سلطان . نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ـ اهدنا يارب صراطك المستقيم ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾

قال بعض العلماء ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنَّ به قبل موته﴾ أى قبل موت عيسى عليه السلام . فكلهم جميعا يصدقون به إذا نزل لقتل الدجّال فتصير الملل واحدة، وهى ملة الإسلام الحنيفية .

فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾

ببغى الذين ظلموا : كان سبحانه عدلاً فى الأخذ على أيديهم بما ظلموا . حرم عليهم طيبات أحلت لهم ، لأنهم سلكوا غير طريق الحق الذى بُيِّن لهم فى التوراة ، وصدوا الناس عن سبيل الله . وهذه صفاتهم من قديم الزمن إلى الآن .

---

(١) انظر هذه القصة وروايات أخرى فى تفسير ابن كثير ١ ـ ٥٧٣ وما بعدها .

وانظر إليهم فى هذا العصر تجد أن سياساتهم هى بالضبط كما وصفهم الله بها ، هم ألعن ذرية فى الأرض ، لمايمارسونه من مماطلات وبذاءات وجهالات .

ذلك أنهم يحتالون بشتى الطرق، فقد أكلوا الربا بعد أن نهوا عنه ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، ولذا : أعد الله لهم عذابا أليما .

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

أما المتمكنون فى الدين ، الواثقون بإيمانهم ، الذين لهم قدم راسخة فى العلم من أهل الكتاب ، ومع هؤلاء الراسخين فى العلم ، المؤمنون بالله واليوم الآخر ، كل هؤلاء أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما .

۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾

يقول القرطبى : «نزلت فى قوم من اليهود ـ منهم سُكَيْن وعدى بن زيد ـ قالوا للنبى ـ ﷺ ـ ما أوحى الله إلى أحد من بعد موسى، فكذبهم الله »[1] وأنزل هذه الآية . والزبور اسم الكتاب الذى أوحاه الله إلى داود عليه السلام .

والله سبحانه وتعالى ذكر فى القرآن أسماء بعض الأنبياء ولم يذكر فيه البعض الآخر . وهذه أسماء الأنبياء التى ورد ذكرها فى القرآن وهم (آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى وذو الكفل (عند كثير من المفسرين) ثم محمد ـ ﷺ ـ لذلك يقول الحق :

---

(١) تفسير القرطبى .

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ
مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ
حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾

فهناك رسلٌ لم يذكرهم الله فى القرآن لمحمد . ويذكر الله فى الآية تشريفه لموسى بكلامه إياه، ولذلك يقال على سيدنا موسى (كليم الله) وهى صيغة مبالغة فعيل من كلمّ .

هؤلاء الرسل بعثهم الله يبشرون عباد الله الطائعين المخلصين بالجنة والرضوان ، وينذرون المنافقين الفاسقين ، والكافرين ، وكل من خالف أمره وشرعه ، وبالعقاب والجزاء الأخروى، وهو نار جهنم ، كى لايكون هناك لشخص عذر أو حجة .

لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

إن ربّ العزة يُشهد نفسه ـ جل علاه ـ بأنك يا محمد رسول الله ، وأنزل عليك الكتاب بالحق . هذا الكتاب الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ومعه الملائكة وكفى به شهيدا . وكلمة ﴿ أنزله بعلمه ﴾ يقول ابن كثير « أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان ، ومايحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضى والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التى لايعلمها نبى مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يُعلمه اللهُ به . كما قال تعالى ﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾ [١] ـ ﴿ ولا يحيطون به علما﴾[٢] .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٢) سورةطه : ١١٠ .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا
طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾

إن الذين كفروا ، وستروا نعمة الله عليهم ، واتبعوا طرائق الشيطان وأهواءهم ، ولم يتبعوا الحق الذى بيناه لهم ، ورضوا بالكفر والضلال ، وجاهدوا فى سبيل صد غيرهم عن الإيمان والهدى ، بأن سعوا مفسدين فى الأرض ، يغوون الناس ، ويرسمون لهم طريق الغواية والكفر: هؤلاء كفار بآيات الله ورسوله ، ظلموا أنفسهم باتباعهم هذا الطريق ، وارتكبوا أبشع وأنكر الجرائم، وقد أخبر الله عنهم بأنه لايغفر لهم ولايرشدهم إلى طريق إلا طريق جهنم فقط .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن
تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

وهذا نداء لكل الناس وإعلام بأن محمدا قد جاء من عند ربه بالحق ، فإن آمنتم فذلك هو الخير ، وإن كفرتم فقد أهلكتم أنفسكم ، فسارعوا إلى طريق الإيمان . هذا هو الخير لكم وأنا ربكم وأعلم مصلحتكم. وبعثة محمد إنما كانت إيذانا بأن الله أسبغ على الدنيا نورا جديدًا ، يبدد ظلمات الضالين والمغضوب عليهم . فمن قال لا إله إلا الله مسلما عاملا بمقتضاها كان له فى الجنة مكان عال . وإن كفرتم فإن الله غنى عن العالمين ـ سبحانه لا تنفعه عبادة ولاتضره معصية .

السعداء هم أهل طاعته ، والأشقياء هم أهل الكفر به ، وهو سبحانه فيما قضى عليم حكيم .

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا
ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ
فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ
سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا ﴿١٧١﴾

ينهى ربُّ العزة ـ سبحانه وتعالى ـ أهل الكتاب وخصوصا النصارى عن الغلو فى الدين ، والشطح فيه إلى ما لا تحتمله النصوص ، أو البعد تماما عن مرادات الحق من الدين المنزل . فالغلو هو المبالغة ، ومن المبالغة والغلو : الإطراء والثناء المطلق . وهذا موجود فى النصارى الضالين الذين ألَّهوا نبيهم عيسى بن مريم . مرة جعلوه شريكا ، وجعلوه ابنا مرة أخرى ، وفى كل ذلك كفر وشرك ، وتجاوز لحدود الأدب والتعامل مع الله ، فظلوا يرفعون من قدر عيسى حتى وضعوه فى منزلة أكبر من منزلته ، بل أكثر من ذلك ، حيث قد غالوا فى أتباعه وأشياعه حتى جعلوهم من المعصومين ، ولذلك فإن المتتبع لتاريخ أوروبا فى العصور الوسطى المظلمة يجد أن هؤلاء المعصومين الذين نصّبوا أنفسهم حماةً للنصرانية وولاةً للشعوب قد ارتكبوا حماقات كنسية كبيرة . منها قتل العلماء وهو ماعرف بمحاربة الكنيسة للعلم ، وصكوك الغفران ومهزلتها المعروفة ، ثم الهيمنة الروحية التى كانوا يخيفون بها الناس ، من أن رضاهم عن فلان هو عين رضا الله سبحانه وتعالى ، وما ترتب على هذه الهيمنة من إلقاء أوامر وإجراء محاكم إلى آخر هذه الأشياء .

نقول إن المتتبع لخط سير هذه العصور الوسطى المظلمة ، يجد أن أوروبا قامت بالثورة على الدين ، وعلى التخلص من موروثاته الحمقاء ، التى أودت بهم فى هوة سحيقة من التخلف . ثورة جعلت أوروبا تتمرد على الأديان وتجعل الدين ـ أى دين ـ بمعزل تام عن فكرة الثورة ، وفكرة التحضر ، وهمَّشته جانبا ، وجعلته نسكا يؤدى داخل المعابد فقط ، مما انبثقت عنه «العلمانية » التى مازال العالم كله اليوم يجنى ويلات شراستها وانتشارها .

إذن العيب ليس فى الدين المسيحى النصرانى ذاته ، لكن العيب فى أتباعه وأصحابه وأشياعه ، الذين حرفوا وانحرفوا ، وبدلوا وادّعوا أشياء خطيرة ، ما أنزل الله بها من سلطان . ومن الطبيعى أن يكون دين كهذا وبهذه الصورة جديرا بأن تطيح به أوروبا عند قيام ثورتها ، وإن كانت مخطئة فى تقديرها للأمور عند القيام بالثورة[1] .

والحق سبحانه وتعالى ينهى هؤلاء الحمقى عن الغلو فى دينهم ، وتصوير مكانة

---

(١)لمعرفة المزيد من هذا الموضوع اقرأ «جاهلية القرن العشرين » و «مذاهب فكرية معاصرة» للأستاذ محمد قطب .

نبيهم ، ويبين لهم أن عيسى بن مريم هو عبدٌ لله ورسوله ، وكلمته ـ أى أمره ـ الذى أودعه الله جبريل إلى مريم نافخا فيها لتحمل بعيسى ، فلا تقولوا عنه ثلاثة ، أى : لا تجعلوه شريكا هو وأمه مع الله ، فهو الذى يقول عنه :

﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾[1] ـ **﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾**[2] ـ **﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إدًّا ﴾**[3] . فلا تزيدوا من إطرائكم عليه .

لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾

يخاطب الحق جلَّ فى علاه هذه الفئة ، بل كل الناس ، بأن عيسى ابن مريم لم يستنكف ـ أى لم يستكبر ـ ولم يتعال أن يكون عبدا لله ورسوله ، بل قد أرسله الله خصوصا لتوحيد كلمة الله ، وإخراج الناس من عبادة المادة إلى سمو الروح ، وصفاء النفوس ، كما أن الملائكة شرفوا بأن يكونوا عبّاداً لله ، لايستنكفون هم الآخرون عن عبادته ، ولأنهم يعلمون أن من يستنكف عن عبادته فقد خسر خسرانا مبينا ، وهم قد شهدوا ضلال إبليس ساعة استنكف عن عبادة ربّه ، فأخذ جزاءه ، وهو الطرد من رحمة الله ، ويوم القيامة توزن الأعمال ولايظلم ربك أحدا .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

أما الذين آمنوا وعملوا الصحالحات فتعطى لهم حقوقهم من الله كاملة **﴿ ولايظلم ربك أحدا ﴾**[4] ويزيدهم فضلا من عنده على حسن أعمالهم ، وكثرة إحسانهم .

---

(١) سورة المائدة : ٧٥ .
(٢) سورة الزخرف : ٥٩ .
(٣) سورة مريم : ٨٨ـ٨٩ .
(٤) سورة الكهف : ٤٩ .

وذلك على العكس من المستنكفين المستكبرين على الله ، فلهم الويل مما يصنعون ، وحقا قوله : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[1] .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾

ينادى الحق خلقه منبها إياهم ، ومفهما لهم ، بأنه قد نزّل القرآن على سيد البشر محمد - ﷺ - وهو برهان منه بأن محمدا نبيه ورسوله ، والقرآن نور تتبينون به طريق الهدى والفوز بالجنة . فهو صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين . من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

فهؤلاء فى رحمة الله ، لأنهم كما يقول ابن كثير: « جمعوا بين مقامىْ العبادة والتوكل على الله »[2] فى جميع أمورهم .

فسيرحمهم ربهم ويدخلهم الجنة ويزيدهم ثوابا ومضاعفة ورفعا فى درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم . ﴿ ويهديهم إليه صراطا مستقيما ﴾ أى طريقا واضحا قصداً قواما لا اعوجاج فيه ولا انحراف . وهذه صفة المؤمنين فى الدنيا والآخرة ؛ فهم فى الدنيا على منهاج الاستقامة ، وفى الآخرة على صراط الله المستقيم المفضى إلى الجنة .

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

---

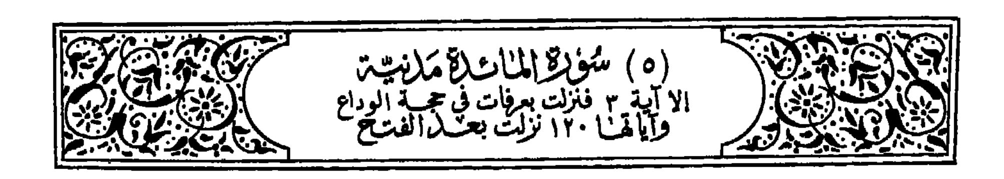
(١) سورة : غافر : ٦٠ . (٢) تفسير ابن كثير : ١-٥٩٢ .

سُورَةُ النِّسَاءِ

من يرجع إلى أول سورة النساء يجد أن الله تكلم عن الكلالة . وقد تكلم الله عنها مرة أخرى هنا فى نهاية السورة . ولذلك يطلق على الآية الأولى آية الشتاء ، وعلى الآية الأخيرة آية الصيف لنزولها فى الصيف كما يقول العلماء .

وهنا نلاحظ أن الله تكلم فى أول السورة عن أحكام المواريث والأموال ، ثم فى نهايتها أيضا ، ولكنه تكلم فى وسط السورة عن الفرق المخالفة للدين بعد أن استمتعنا بمناظرة ربانية بينه ـ سبحانه ـ وبين هذه الفرق التى فضح الله فيها أمرهم ، وكشف سترهم وخبث نواياهم .

هذه هى حدود الله بينها لكم فى شرعه وحكمه ، لكى لانضل عن رد وإعطاء كل ذى حق حقه . والله بكل شىء قدره وشرعه عليم . وهو عليم بما فى نفوس عباده العادلين أو الظالمين من الناس ، وهذا ختام مناسب ينضم إلى أول السورة ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة** ﴾ تذكير بأن الله من أول الأمر إلى نهايته عليم بكل شىء علما يتناسب مع قدرته على خلقنا نفسا واحدة . هذا وبالله التوفيق ، والله أعلم .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾

نداء من الحق العزيز الحكيم لخلقه الذين آمنوا أن يفوا إذا باعوا وإذا اشتروا. ومن مقتضيات البيع والشراء إجراء العقود ، ومن شروط العقود التراضى والوفاء بالعهود الموثوقة بينهما . لذا يقول الرسول - ﷺ - : « البيعان بالخيار مالم يتفرقا [1]» وفى رواية تكملة للحديث : « فإن صدقا وبيّنا بورك لهما فى بيعهما ، وإنْ كذبا وغشا مُحِقَتْ بركة بيعهما » .

فعلى المؤمن أن يلتزم بما باع أو اشترى إن لم يجد فى الآخر مخالفة لشرع الله فيما اتفق عليه . والعقود : العهود. وتشمل العقود أيضا ماأحل الله وحرم ، فعلى المؤمنين أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام . والمقصود بقوله ﴿ بهيمة الأنعام﴾ الإبل والبقر والغنم .

أما قوله ﴿ إلا مايتلى عليكم ﴾ فالمراد بها الميتة والدم ولحم الخنزير وما لم يذكر اسم الله عليه . أى فيما يتلى عليكم سواء الآن أو المستقبل ، وكل ذلك إلا الصيد وأنتم محرمون . وقوله تعالى ﴿ غير محلى الصيد﴾ أى ما كان صيدًا فهو حلال فى الإحلال دون الإحرام، ومالم يكن صيدًا فهو حلال فى الحالين.

يقول الإمام القرطبى : « وهذه الآية الكريمة مما تلوح فصاحتها وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل ذى بصيرة بالكلام ؛ فإنها تضمنت خمسة أحكام: الأول : الأمر

(١) رواه البخارى - واللفظ له - كتاب « البيوع » باب « البيعان بالخيار مالم يتفرقا » . ورواه مسلم كتاب «البيوع» باب «ثبوت خيار المجلس للمتبايعين » . ورواه : أحمد فى مسنده ، وأبو داود، والترمذى ، والنسائى.

بالوفاء بالعقود ؛ **الثانى** : تحليل بهيمة الأنعام ؛ **الثالث** : استثناء ما يلى بعد ذلك ؛ **الرابع** : استثناء حال الإحرام فيما يُصْطاد ؛ **الخامس** : ماتقتضيه الآية من إباحة الصيد لمن ليس بمحرم[1] » .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

قيل إن الشعائر فى الآية : هى مناسك الحج ، وقال آخرون : هى كل محارم الله ، أى لاتحلوا محارم الله التى حرمها تعالى . ولهذا قال تعالى ﴿ **ولا الشهر الحرام** ﴾ ، يعنى بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمة .

فقد نهى الله عن القتال فى الشهر الحرام﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير**[2] ﴾ . والأشهر الحرم فى القرآن : أربعة ، ثلاثة متوالية : ذو العقدة وذو الحجة والمحرم ، وشهر واحد بعيد عنها هو رجب .

ثم نهى الحق عن ترك الإهداء إلى البيت الحرام أثناء الحج ،فإنها من شعائر الله العظيمة .

والقلائد : جمع قلادة ، وهى التى تشد حول عنق البعير وغيره .

والمعنى لاتتركوا تقليدها فى أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام ، وليعلم أنها هدى إلى الكعبة ، فيجتنبها من يريدها بسوء وتبعث من يراها على الإتيان بمثله ، كما يقول ابن كثير[3] .

﴿ **ولا آمين البيت الحرام** ﴾ أى ولاتستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذى

---

(١) تفسير القرطبى ٦/ ٣١ .
(٢) البقرة ٢١٧ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٤ .

من دخله كان آمنا ، ولاتحلوا قتل قوم قاصدين وجه الله فى ذهابهم للحج ، ولزيارة الكعبة ، والطواف بها . فهؤلاء القوم جاءوا يسترضون الله ، ويريدون وجهه .

وإذا فرغتم أيها المؤمنون من الإحرام ، وأحللتم منه ، فمباح لكم ماكان محرمًا عليكم فى أثناء الإحرام.

﴿ ولا يجرمنكم شنئان قوم أن صدوكم . . . ﴾ إلخ ، يعنى : لايحملنكم بغض قوم على ترك العدل ، فإن العدل واجب فى كل حال . فلاينبغى ـ بسبب أن صدكم هؤلاء القوم عن المسجد الحرام يومًا ما فأبغضتموهم لذلك ـ أن تدفعكم هذه العداوة للاعتداء عليهم ، فتمنعوهم أنتم من الدخول فى المسجد الحرام .

وقوله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات وهو التقوى ، وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم .[1] .

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

﴿الميتة﴾ الحيوان أو الطير الذى مات بغير تذكية ـ أى ذبح ـ ﴿والدم﴾ أى السائل النازل من الحيوان أو الطير . ويبدو أن الجاهليين كانوا يشربونه . وأيضا حرم علينا (لحم الخنزير) وكل متعلقاته ، وقد أثبت البحث العلمى الحديث مدى خباثة لحم الخنزير . وأيضا حُرم علينا كل ماذبح ولم يذكر عليه اسم الله ، فهو حرام لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم[2] . ﴿ والمنخنقة ﴾ وهى التى تموت خنقا ،

(١) ابن كثير ٦/٢ .　(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٨ .

﴿ والموقوذة ﴾ وهى التى تضرب بشىء ثقيل حتى تموت؛ لما ورد عن أهل الجاهلية أنهم كانوا يضربونها بعصا حتى تموت . أما ﴿ المتردية ﴾ فهى التى تموت هلاكا بوقوعها من مكان عال أو جبل ، ﴿والنطيحة ﴾ التى تموت نتيجة عراك بينها وبين أخرى نطحتا حتى الموت . ﴿وما أكل السبع ﴾ أى وماافترسته الحيوانات المتوحشة كأسد أو نمر أو ثعلب فأكلت منه ثم تركته إلا إذا لحقتموه بسكين فذ بحتموه قبل طلوع روحه ، فذلك حلال ، وهذا معنى ﴿ إلا ماذكيتم ﴾ . وحرم الحق أيضا ﴿ماذبح على النصب﴾ ، قال مجاهد : هى حجارة كانت حول الكعبة يذبحون عندها فحرم الله هذا النوع من الذبح ، ثم حَرَّم الاستقسام ﴿ بالأزلام ﴾ ، ومفرد الأزلام : زلم ، والزلم : هو القدح ، والاستقسام بالأزلام هو نوع من ضرب القسمة [1] كل ذلك يخبرنا الحق أن فعله فسق وغى وضلالة وجهالة وشرك .

فها هو ذا الشيطان وأولياؤه قد يئسوا من اتباع الذين آمنوا بالحق ، فلا تخافوهم أيها المؤمنون أو تخشوهم واخشون ، فها هى ذى نعمتى وشريعتى أهديها إليكم ، وأصلحت بها شأن دينكم ودنياكم ، ورضيت لكم أن تسلموا الوجه لله غير ساجدين لأحد غيرى .

ومن رحمة الله بنا : أن رخّص لنا أن نأكل هذه المحرمات حالة الاضطرار والتعذر ، فالمضطر ليس أمامه سبيل وقد نفدت أمامه كل الأسباب . والمخمصة هى الجوع الشديد وفراغ الأحشاء من الطعام ﴿غير متجانف ﴾ أى غير مائل إلى حرام ، والجنف هو الميل .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾

والطيبات : المقصود بها كلّ حلال أريق دمه بذبح شرعى ، ويكون مباحًا فى أصله ونوعه . ﴿ وماعلّمتم من الجوارح ﴾ أى من كلاب الصيد أو أدواته من طير وخلافه ،

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ١١ .

فكلوا مما أمسكن عليكم، ولاتأكلوا مامات، فذلك يكون محرما . كالمنخنقة وغيرها .

ولقد وصى الحق سبحانه وتعالى معاشر المسلمين أن يكون طعامهم مما ذكر اسم الله عليه ، ثم يوصيهم بالتقوى ، فالله سريع الحساب ، فواجب المسلم أن يكون على حذر من نفسه ومن الشيطان .

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ يعنى ذبائحهم حلال للمسلمين، فإن ذبائح أهل الكتاب حلال لنا ، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولايذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله .

ثم تكلمت الآية بعد ذلك : عن فضل الله تعالى ورحمته فى تشريعه بأن أحلّ لنا النكاح بالمحصنات المؤمنات والمحصنات من أهل الكتاب ، وبناء عليها يحل زواج المسلم من النصرانية أو اليهودية وليس العكس .

ولكن الأولى : الزواج بالمسلمة حفاظا على سلامة الأسرة المسلمة وصيانتها .

وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصارى، ولم يروا بذلك بأسا، أخذا بهذه الآية .

وقوله تعالى ﴿ اذا آتيموهن أجورهن ﴾ - أى مهورهن - عن طيب نفس وحب . ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ يقول ابن كثير :[1] فكما شرط الإحصان فى النساء وهى العفة عن الزنا ، كذلك شرطها فى الرجال ، وهو أن يكون الرجل أيضا محصنا عفيفا . ولهذا قال ﴿ غير مسافحين ﴾ وهم الزناة . ﴿ ولا متخذى أخدان ﴾ وهو الزنا فى السر .

يقول الشعبى : « الزنا ضربان : السفاح وهو الزنا على سبيل الإعلان . واتخاذ

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢١ .

الخدن وهو الزنا فى السر . والله تعالى حرمها فى هذه الآية ، وأباح التمتع بالمرأة على جهة الإحصان وهو التزوج [1] » . والمقصود بالزنا فى السر اتخاذ الخليلات والصواحب .

ذلك . . ومن يكفر بالإيمان ـ فقد كفر بالله لأنه هو رب الإيمان ـ فقد راح عمله هباءً منثورا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

الآية : آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو فى حق المحدث واجب ، وفى حق المتطهر ندب .

ويستحب : أن يزيد الإنسان فى أماكن وضوئه بإتمام العضو المغسول ، وزيادة فوق ماهو مفروض من غسل الوجه واليدين إلى العضد ، والرجلين إلى مافوق الكعبين .

ولذلك يقول الرسول ـ ﷺ ـ : إن أمتى يدعون يوم القيامة غرًّا محجلين من آثار الوضوء فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل [2] .

وغسل الوجه : فرض ، والسنة أن تستنشقوا مع المضمضة بعد غسل الأيدى ، والوجه يجب أن يغسل من منبت الشعر فى الرأس إلى أسفل الذقن .

ثم تمسحون برءوسكم إلى الربع أو النصف أو الكل ، فالمؤمن يسعى يوم القيامة نوره فى أعضاء الوضوء فيفرق بين أمة محمد وباقى الأمم بهذا النور ، لذلك سمّاهم الرسول الغرّ المحجلين ، ولذلك أثره الكبير فى غسل الخطايا والذنوب .

---

(١) تفسير الرازى جـ ١١ ص ١٤٨ .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة كتاب «الوضوء» باب «فضل الوضوء» .

والجنابة : تأتى بالاحتلام أو الاتصال الجنسى بين الزوجين .

و﴿فاطّهروا﴾ أمرٌ بالاغتسال بالماء .

ويسهل الله علينا دائما ولايعسر فأباح التيمم عند المرض ، وعند فقد الماء ، توسعة منه علينا ، ورحمة بنا ، لعلنا نشكر نعمه وفضله .

● والقراءة بنصب ﴿ أرجلكم ﴾ تفيد وجوب الغسل كما قاله السلف ، ومن هنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب فى الوضوء كما هو مذهب الجمهور .[1] .

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾

إن تشريع الحق لهذا الدين ، وارتضاءه لنا ، وإرساله لهذا الرسول ، وماأخذه علينا فى عالم الذر من مواثيق غلاظ على مبايعة واتباع هذا الرسول الأمى ، كل ذلك فضل ونعمة من الله سبحانه ، تستدعى الشكر له والعمل بمقتضى ذلك الشكر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

أى كونوا أيها المؤمنون قوامين بالحق لله ، يعنى من أجل الله خالصى النية له ، ومن أجله لا من أجل السمعة والمدح . حتى لاتصبح أعمالكم الصالحة هباءً منثورًا يوم القيامة .

وكونوا شهداء بالعدل ، لابالظلم والجور .

﴿ ولا يجرمنكم ﴾ يعنى لا يدفعنكم ولا يحملنكم كرهكم لقوم على أن تظلموهم ، فاعدلوا معهم حتى ولو كنتم تبغضونهم ، فالبغض شىء وإقامة العدل شىء آخر . فاستعملوا العدل مع كل الناس أصدقاء كانوا أو أعداء ، فذلك أقرب للخوف والتقوى من الله ، وسيجزيكم الله على عملكم هذا ، لأنه خبير بما فى النفوس ، عليم بما يدور فى خلجاتها .

---

(١) انظر ابن كثير : ٢/ ٢٥ ومابعدها .

سُورَةُ المَائِدَةِ

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٩﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٠﴾

إنه تشريف وتكريم لمن ترك طريق المعصية ، واتبع طريق الطاعة واستقام على صراط الله المستقيم ، طريق الصدق والأمانة والحياء من الله والحب فى الله . إن لهؤلاء الأخيار مغفرةً وأجراً عظيما ، أى الجنة التى هى من رحمته على عباده .

ومن عدله ـ سبحانه وتعالى ـ وحكمته وحكمه الذى لايجور فيه ، أنه يجازى كل واحد حسب عمله ، ولايستوى الأعمى والبصير فى ذلك ، ومن عدله أنه يعاقب الكفار والمكذبين ، الذين هم أصحاب الجحيم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾

نداء من الله عز وجل لخلقه الذين آمنوا يعلمهم فيه ـ وقد منَّ عليهم بالإيمان ـ بأنه سبحانه البارئ المعطى الوهاب الذى أنعم عليهم بنصره وتوفيقه . إذ وفقهم لاتباع رسوله ـ ﷺ ـ والتصديق بما أنزل عليه من كلام الله ، وأكرمهم الله بأن جعل لهم الغلبة على أعداء الإسلام ، الذين عادوهم وحاربوهم . والحمد لله الحفيظ الذى أنعم على نبيه بأن جعل له حفظة من ملائكته ، وكان ـ ﷺ ـ بعين الله وحفظه ، فلم يتمكن منه الأعداء حين أرادوا أن يغدروا به ، سواء من اليهود أو من العرب .

وفى الآية : مايجعل المؤمنين على ثقة دائمة بأن الله معهم ماداموا متمسكين بكتاب الله وسنته ـ ﷺ ـ قائمين على الدين ، وبذلك لن يتركهم الله لعدو ، ولكنه هو الحفيظ الذى يدافع عن الذين آمنوا ، ومن توكل على الله كفاه الله ما أهمه وحفظه من شر الناس .

۞ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ

سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾

يعرض الله تعالى صورة أخرى عندما أخذ ميثاق بنى إسرائيل ، وجعل منهم نقباء اثنى عشر يتولون الأمر فيهم ، ويبينون لهم أمر الشريعة التى بينها لهم موسى عليه السلام ، ووعدهم سبحانه : أن يكون معهم ، متوليا أمرهم ، محسنا إليهم ، إن هم أقاموا الصلاة ، وأخرجوا الزكاة ، وآمنوا بكل رسله ، وأنه سوف يؤتيهم أجرهم ، ويجزيهم بفضله . كما أنذرهم إن كفروا بعد ذلك : أن يعذبهم عذابا شديدا لأنهم قد ضلوا سواء السبيل .

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ۙ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

لقد نسى بنو إسرائيل المواثيق التى أخذها الله عليهم ، ونقضوها نقضا شديداً ، فبسبب ذلك لعنهم الله ، وجعل قلوبهم قاسية بما ظلموا . ونتيجة لذلك : حرفوا كلام الله عن مواضعه ومراميه وأهدافه ، ولايزالون على خيانة ونقض لأوامر الحق . فيا محمد اعف عنهم ، واصفح ، إن الله يحب المحسنين . إن موعدهم يوم لاتضيع فيه الحقوق ، وسيكون الإنسان فيه رهين عمله ، محاسباً على كل صغيرة وكبيرة .

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

يقول ابن كثير : أى : ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ومناصرته ومؤازرته واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبى يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود: خالفوا المواثيق ونقضوا العهود . . . فألقينا بينهم العداوة

والبغضاء لبعضهم بعضا ، ولايزالون كذلك إلى قيام الساعة .

وفى الآية : تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه ، من الكذب على الله ورسوله ، ومانسبوه إلى الربِّ عز وجل وتقدس عن قولهم علوا كبيرا من جعلهم له صاحبة وولدا[1] .

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

يأهل الكتاب قد جاء محمد ـ ﷺ ـ بما يهدى به الخلقَ إلى النور والكتاب المبين ، يهدى به الله من يستمع إلى محمد فيهتدى إلى طريق مستقيم ، وسوف تعرفون ماكنتم تخفونه من حقائق فى توراة موسى عليه السلام .

يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

هذا إخبار من الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن منزلة القرآن العظيم ، الذى نزل على نبيه . أى إن هذا القرآن هو طريق النجاة ، وهو منهج الاستقامة يخرجكم أيها الناس من المهالك ، ويوضح لكم أبين وأظهر المسالك ، وينفى عنكم الضلالة ، ويهديكم إلى الطريق المستقيم . وفى قوله «يهدى به الله» عودة ضمير الواحد على الاثنين يفيد أن الثانى عين الأول فكأن النور والكتاب شىء واحد وقد اجتمعا فى الرسول ـ ﷺ ـ لأن كتاب الله فيه الهدى والنور ورسول الله يدعو به إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه . أ هـ .

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣ .

وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

لقد حكم الله تعالى على من قال ذلك بالكفر ، وبيَّن تعالى أن ماقالوه محض افتراء على الله وكذب وبهتان . فما المسيح إلا عبد أنعم الله عليه ، فضرب به المثل الأعلى للخلق على مطلق القدرة .

ثم قال تعالى مخبراً عن قدرته على كل الموجودات ، وأنها تحت قوته وقدرته وسلطانه ، لأنه لو أراد الهلاك للجميع ، فمن يمنعه من ذلك ؟ ومن الذى يستطيع إيقاف قدرته؟ والله يخلق الموجودات كلها على ظهر الدنيا التى هى ملك له وحده . وهذا فيه ردّ على النصارى

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ
بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

خوَّف رسول الله ـ ﷺ ـ قوما من اليهود العقاب فقالوا : لانخاف ؛ فإنا أبناء الله وأحباؤه ، فنزلت الآية : وهذا من مواضع افترائهم وتحريفهم الكلم عن مواضعه : فلو كنتم كما تدعون أنكم أبناء الله وأحباؤه : فلماذا أعدّ الله لكم نارا على كذبكم وافترائكم؟ ولمَ يعذبكم الله بذنوبكم إن كنتم صادقين فى ذلك ؟

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟
مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

إن هذه الآية لاتترك للذين لم يؤمنوا بمحمد حجةً يحتجون بها ، فقد أقام الله حجته على عباده برسالة محمد ، فدعاهم إلى الإيمان ، فهو البشير النذير ، يبشر بالجنة ، وينذر بالنار ، ويهدى إلى صراط مستقيم ، وليست للعباد حجة يعتذرون بها أمام الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومعنى (على فترة من الرسل) أى بعد مدة طويلة مابين إرساله ومابين عيسى بن مريم .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾

وكأن الحق يقول لنبيه محمد ـ ﷺ ـ يامحمد لاتبتئس من مخالفة اليهود لك ، وذكّرهم بما أنعمنا عليهم به على يد عبدنا موسى عليه السلام ، وقل لهم هل تعاملوننى بالسوء، وإنكار الحق الذى جئت به إلا كما عاملتم نبيكم موسى ؟!

وكان الرجل فى بنى إسرائيل إذا ملك داراً أو زوجة ومعاشا يسمى « ملكا » ويعنى ذلك أنه ليس فى حاجة إلى أن يسأل غيره .

وفى هذا الكلام تسلية لمحمد ـ ﷺ ـ كذلك .

يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾

يأمر الله تعالى اليهود أن يدخلوا الأرض المقدسة ،التى وعدهم الله إياها على لسان أبيهم إسرائيل ، ولكنهم يأبون النزول على أمر الله تعالى وطاعته، إذ اعتذروا بأن فى هذه البلاد قوما جبارين لايقدرون على مقاومتهم :

قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾

ولوأطاعوا موسى لنصرهم الله ، ولكن اليهود اعتادوا دائما التمرد على الحق ، والخروج على أمر الله ، وكذلك دائما يفعلون . وها هو ذا تاريخهم لايزال تؤصله الأحداث فى هذا العصر ،التى إن دلت على شىء فإنما تدل على أنهم مجبولون على ذاك التمرد ، وهذا العناد اللئيم الأزلى فيهم منذ خلقوا إلى يوم القيامة .

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

عند نكوص بنى إسرائيل عن طاعة موسى قال رجلان من أسباط بنى إسرائيل :

﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ ولكنّ بنى إسرائيل أصروا على معصية موسى ولم يستمعوا لنصح الرجلين ، بل فى صلفٍ وكبرياء :

قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾

وهذا موقف لبنى إسرائيل يدينهم ، ويقرر أنهم دائما فى صلفهم يفترون ، وعلى الحق يتعالون .

قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾

أى لاأحد يطيعنى منهم ، فافرق بيننا يارب وبينهم لأنى لاأملك إلا نفسى وأخى .

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

يستجيب الله ـ سبحانه وتعالى ـ لدعوة هذا النبى الكريم المرسل موسى عليه السلام على قومه ، فعاقبهم بالتيه فى الأرض أربعين سنة .

۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾

خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ آدم ، وخلق زوجه حواء من ضلعه ، لتبدأ البشرية سيرها بالرجل والمرأة معا ، واللذيْن بهما تتكاثر الأبناء ، وتستمر البشرية .

وكان لابد من قانون ـ أى شريعة ـ ترسم كيف تبدأ خطاهما على الأرض فى تكاثر شرعى بقانون إلهى . وصارت سفينة البشرية الأولى بأحفادهما وأبنائهما مسيرة السلامة والطاعة ، بينما كان الشيطان اللعين يرقب المسيرة الهادئة المهدية بنور الله وطاعته ، وهو يدبر فى حقد غليظ وحسدٍ أسود كيف وبم يوسوس لهما ، فيعكر مجرى الحياة ، ويعوّق المسيرة المهدية الهادئة .

ويبين ـ سبحانه وتعالى ـ وخيم عاقبة الحسد والبغى والظلم فى سيرة ابنى آدم ، وهما قابيل وهابيل ، وكيف تعدى الأول على الثانى ، فقتله بغير حق لما وهبه الله من النعمة والفضل العظيم .

يقول ابن كثير « أى اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة ، إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم ، خبر ابنى آدم وهما قابيل وهابيل »[1].

وفيها «التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود ، ونقضهم المواثيق والعهود ، كظلم ابن آدم لأخيه . والمعنى : إنْ همَّ هؤلاءِ اليهود بالفتك بك يامحمد ، فقد قتلوا قَبلك الأنبياء ، وقتل قابيل هابيل ، فالشر قديم . أى ذكرهم بهذه القصة فهى قصة صدق . . . وفى ذلك تبكيت لمن خالف الإسلام ، وتسلية للنبى ـ ﷺ ـ »[2] .

وقد وردت فى قصة قابيل وهابيل روايات كثيرة لانستطيع أن نحصرها كلها فى هذا الموضوع . ومن أراد التوسع فعليه بالمطولات .

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

يقول له أخوه : لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله ، بل أصبر وأحتسب ، ولكن قابيل لم يرتدع ، وقتل أخاه ، وتلوثت الأرض بأول دمٍ أُريق ظلما وغدراً من الإنسان لأخيه الإنسان وتوأمه .

وكان درساً خالدا يحكيه ركب البشرية للعظة وللتربية والإنشاء والتكوين . بعيدا عن العدوان على أمر الله .

إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

يقول الإمام والقرطبى : « قيل معناه هو معنى حديث « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، قيل يارسول الله : هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٤١ .
(٢) تفسير القرطبى ٦/ ١٣٣ .

كان حريصا على قتل صاحبه»[1] . وكأن هابيل أراد أن يقول: إنى لست بحريص على قتلك؛ فالإثم الذى كان يلحقنى لو كنتُ حريصا على قتلك أريد أن تحمله أنت مع إثمك فى قتلى .

« وقيل المعنى ﴿بإثمى﴾ الذى يختص بى فيما فرطت ؛ أى يؤخذ من سيئاتى فتطرح عليك بسبب ظلمك لى ، وتبوء بإثمك فى قتلى»[2] .

وعلى الرغم من ذلك، سولت له نفسه قتل أخيه، فقتله بعد هذه الموعظة وهذا الزجر:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٣٠﴾

أى فى الدنيا والآخرة . واحتار قابيل بعد ذلك كيف يوارى سوءة أخيه ؟

﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ۝٣١﴾

يقول الرازى : « قيل : لما قتله تركه لايدرى مايصنع به ، ثم خاف عليه السباع فحمله فى جراب على ظهره ، حتى تغير ، فبعث الله غرابا . (وكان هـذا الغراب فى عراك مع غراب آخر فقتله) . . . فحفـر له بمنقاره ورجليه ، ثم ألقاه فى الحـفرة . فتعلم قابيل ذلك من الغراب »[3] .

وانصرف قابيل كالمعتوه خاسراً الدنيا والآخرة ، وأى خسارة أعظم من هذه ؟!

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝٣٢﴾

---

(١) تفسير القرطبى ٥/ ١٣٧ .   (٢) تفسير الرازى ١١/ ٢٠٩ .

(٣) رواه البخارى كتاب « الإيمان » باب « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . إلخ » . ورواه مسلم كتاب «الفتن» باب «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما» .

من أجل قتل ابن آدم أخاه بغيا وظلما وعدوانا ، شرعنا لهؤلاء اليهود وأعلمنا هم أن من قتل نفسا بغير سبب من قصاص أوفساد فى الأرض، وحلل لنفسه قتلها بلا أسباب، فكأنما قتل كل الناس ، لأن الله سبحانه لافرق عنده بين نفس ونفس . ولقد جاءتهم رسل الله بالشرائع ، والبراهين ، والحجج الواضحة ، والدلائل البينة . وبرغم ذلك ، يفسد كثير منهم فى الأرض، ويسرف فى القتل .

وهذا تقريع من الله لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها .

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

هذه الآية فى قطاع الطريق ، والذين يشيعون فى الأرض الفساد ، بتفزيع الناس ، عن طريق نهب أموالهم ، وقتل الأنفس بغير حق ،إلى غير ذلك من صور نشر الإرهاب، والفساد .

قال فريق من العلماء إن (أو) فى الآية للتخيير ، أى للحاكم اختياره الحر فى فرض أيٍّ من هذه العقوبات .

ولكن ابن عباس يقول فى رواية عطاء : « كلمة « أو » ههنا ليست للتخيير ، بل هى لبيان أن الأحكام تختلف باختلاف الجنايات ، فمن اقتصر على القتل قُتل ، ومن قتل وأخذ المال قتل وصلب ، ومن اقتصر على أخذ المال قطعت يده ورجله من خلاف . ومن أخاف السبلَ ولم يأخذ المال نفى من الأرض »(١).

وفى الآيات استثناء الذين تابوا من قبل القدرة عليهم من تنفيذ هذه الأحكام . أى سقطت عنهم الحدود وأخذوا بالحقوق ،فلا يسقط عنهم ولا عن غيرهم بالتوبة قود

(١) تفسير الرازى ١١/ ٢١٥ .

ولامال ولا باقى الحدود من حد زنا وسرقه وشرب خمر وقذف ؛ لأن العمومات الواردة فيها لم تفصل بين ماقبل التوبة ومابعدها . والمعنى « أن مايتعلق من تلك الأحكام بحقوق الله تعالى ، فإنه يسقط بعد هذه التوبة ؛ ومايتعلق منها بحقوق الآدميين ، فإنه لايسقط »(١) .

فاعلموا أيها الناس أن الله غفور ، للتائبين الذين يرجعون ولايفعلون مثل هذه الآثام، رحيم بعباده ، يقدر لهم الأحكام العادلة ولايظلم ربك أحدا .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾

يأيها الذين آمنوا خافوا لقاءه وحسابه ، واعملوا بما أمركم به ، وانتهوا عما نهاكم عنه وحذركم منه ، تفوزوا برضاه ورضوانه ، ويغفر لكم ذنوبكم .

و﴿ الوسيلة ﴾ درجة عند الله .

قال ـ ﷺ ـ من قال حين يسمع النداء (أى الأذان) اللهم ربّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته ، حلت له شفاعتى يوم القيامة »(٢).

ويقول ـ ﷺ ـ إذا سمعتم الأذان فقولوا مثل مايقول المؤذن ، ثم صلّوا علىّ فإنه من صلّى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ، فإنها منزلة فى الجنة، لاتكون إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، ومن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة »(٣).

وقال ابن عباس الوسيلة : أى القربة .

وقال قتادة : أى تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ

(١) تفسير الرازى : ١١/ ٢١٧ . (٢) رواه البخارى كتاب« الأذان » باب « الدعاء عند النداء » .

(٣) رواه : الإمام أحمد فى مسنده ، و الإمام مسلم ، وأبوداود ، والترمذى : كتاب المناقب ، باب « فى فضل النبى ـ ﷺ ـ » وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى فى سننه .

مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن
يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾

وتنتقل بنا الآيات من ظلال أنوار الوسيلة والجهاد إلى الحديث عن عالم مظلم بغيض إلى الذين لم يؤمنوا بمحمد - ﷺ - ولم يؤمنوا بكتابه، وحاربوا الله ورسوله ، وعبدوا، الدنيا وزينتها ، فخرجوا منها عرايا ، لايملكون إلا اعار المعصية ، وذلّ المساءلة، يود الواحد منهم أن يفتدى نفسه بأمه وبنيه ، وصاحبته (امرأته) وأخيه ، وكل مايملك وبكل مافى الأرض، ومن فيها ، ولكن هيهات هيهات يريدون أن يخرجوا من النار ولكنهم ليسوا بخارجين ، وهم سجناء أعمالهم فى عرصات جهنم ، خالدين فيها أبدا .

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٣٨﴾

ولما كانت خيانة النفس والمال من أقبح الخصال ، فقد جعل الله العقاب عليهما شديدا .

وخيانة النفس بألا يهذ بها صاحبها ، ولايربيها على الصدق والأمانة فى الكلمة ، وفى الأخلاق ، والستر على الناس .

أما الخيانة فى المال : فهى السرقة ، وإنكار الأمانة وتبديدها .

ومن هنا يقول الحق هذه الآية حاكماً وآمراً بقطع يد السارق والسارقة . ثم قال تعالى :

فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾

أى من تاب بعد سرقته ورجع إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، بشرط : أن ترد أموال الناس إليهم .

وهنا يفرض سؤال نفسه : إذا تاب السارق قبل القطع تاب الله عليه فهل يسقط عنه الحد ؟

يذكر الرازى أن بعض العلماء التابعين قالوا : يسقط عنه الحد لأن ذكر الله بأنه

الغفور الرحيم فى نهاية الآية يدل على سقوط الحد عنه . وقال الجمهور : لايسقط عنه هذا الحد بل يقام عليه على سبيل الامتحان[1] .

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

سبحانك ياربنا نعلم أنك أنت المالك لجميع ذلك ، وأنك أنت الحاكم المدبر ، لامعقب لحكمك ، وأنت الفعّال لما تريد ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾[2] .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

يخاطب الله ـ سبحانه وتعالى ـ رسوله محمداً ـ ﷺ ـ ليعلمه أن اليهود قوم ظالمون ، لايخافون الله ، ولكنهم يراءون الناس ، لايستمعون إلى الله ، ولكنهم يستمعون إلى شياطين الجن والإنس ، الضالين عن أمر الله ، الكافرين المترصدين للمؤمنين ، ليصرفوا عن الله عباده .

يقول ابن كثير: : نزلت هذه الآيات الكريمات فى المسارعين فى الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عزّ وجل . . . فإن هؤلاء المسارعين بالكفر أظهروا بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، وهؤلاء هم المنافقون ﴿ومن الذين هادوا﴾ أعداء الإسلام ، وهؤلاء كلهم ﴿ سماعون للكذب ﴾ أى مستجيبون له

---

(١) تفسير الرازى ١١/ ٢٣٠ . (٢) آل عمران ٢٦ .

منفعلون عنه ، ويستجيبون لأقوام آخرين لايأتون مجلسك يامحمد [1] .

وهؤلاء لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من أدنا سها ، فلهم خزى وعار فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلهم عذاب عظيم .

سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾

هذه الفئة يامحمد سماعة للكذب ،أكَّالة للسحت ، يأكلون حراما ، ويقولون حراما . فإذا طلبوا منك أن تحكم بينهم ، فأنت بخيارك أن تحكم أو لاتحكم ، واحذرهم أن يفتنوك ، فهم لايريدون لك ولا لأمتك الخير .

وإن حكمت : فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين .

والسحت فى الآية هو الحرام ، وهو الرشوة كما قال ابن مسعود ، ومن كانت هذه صفته فكيف يطهر الله قلبه ، وكيف تستجاب له الدعوات ؟!

وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

إنكار عليهم فى آرائهم الفاسدة ، وأهدافهم الخبيثة ، لأنهم تركوا مايعتقدون صحته من الكتاب ، وحرفوه عن موضعه ، وخرجوا عن حكمه ، وعدلوا إلى غيره .

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

كما أنزلنا إليك القرآن لتهتدى به البشرية على يديك، فقد أنزلنا على موسى التوراة ليهتدى بها اليهود ، فيتبعون موسى ، ولكنهم باءوا بغضب من الله ، فعصوْا موسى ،

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٨ .

وخالفوا هارون ، وقتلوا أنبياءهم ، ولم يحكموا بالتوراة كما أمروا وضلُّوا وأضلّوا .

وفى هذه الآية : يندد الله بالذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا . والثمن القليل هو الدنيا هؤلاء لايحكمون بما أنزل الله ، ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾ ، أى ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فتركه عمدًا ، أو جار وهو يعلم ، فهو من الكافرين .

وهنا لنا وقفة مع أمتنا أمة الإسلام : إذا كان الله قد حكم على بنى إسرائيل بالكفر عندما هجروا حكمه الذى أنزله فى كتابه ، فماذا مع أمة الإسلام عندما لاتحكم بالقرآن؟! والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول :﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾؟! وبعدها بقليل يقول﴿**فأولئك هم الظالمون**﴾وبعدها بقليل﴿**الفاسقون**﴾ .

وإن كانت الآيات قد نزلت سياقا فى أهل الكتاب ، فهل نحن لانُسأل عندما نحكم بغير ماأنزل الله؟!

إن الفهم السليم يقرر أن الحق الواجب اعتقادُه هو ماكان عليه الرسول ـ ﷺ ـ وخلفاؤه ، لأن أهل الإسلام أشد إدانةً عندما يهجرون كتاب الله ويحكمون بحكم الطاغوت .

إنها قضية المسلمين اليوم : كيف تستقر أمور الحاكمين فينا ، وهم يهجرون كتاب الله والحكم به . . ؟

قال الامام القرطبى : نزلت كلها فى الكفار [1] .

وقال البراء بن عازب وابن عباس والحسن البصرى وغيرهم : « نزلت فى أهل الكتاب وهى علينا واجبة » ، وقال عبد الرزاق عن إبراهيم قال : « نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل ورضى الله لهذه الأمة بها» [2] .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾

---

(١) انظر : القرطبى ٦/ ١٩٠ . (٢) انظر : ابن كثير ٢/ ٦١ .

وهذا أيضا مما وبخت به اليهود ، وقرعوا عليه ، فإن عندهم فى التوراة أن النفس بالنفس وهم يخالفون ذلك عمداً وعناداً . ويبين الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أن من قتل نفسا فبها يقتل ، ومن فقأ عينا فبها تفقأ عينه ، ومن جدع أنفا فبها تجدع أنفه ، ومن خلع سنا فبها تخلع سنه ، وأن الجرح بالجرح .

فمن عفا عمن أذاه : فعفوه له عند الله وله به أجر .

كما يبين أن الذين يتعدون على قرارات الله وأحكامه فيحكمون بغيرها : ظالمون ؛ لعدم تسليمهم بالحاكمية لله ـ سبحانه وتعالى ـ .

فالمسلم الذى لايحتكم إلى كتاب الله ظالم لنفسه ، ويوصف بالكفر ـ أى كفر بالأمر ـ وهل الشر والكفر إلا معصية ؟ فالكفر والظلم والفسق فى الآيات واحد . وقيل : الكفر يتعلق بالأمور العقائدية ، والفسق يتعلق بالعبادات ، أما الظلم فيتعلق بالمعاملات . لذلك كان الفاسق والظالم فى دائرة الإيمان ، خلافًا للكافر فإنه قد خرج منها .

وقد وصفهم الله بأنهم ظالمون : لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم فى الأمر الذى أمر الله به بالعدل والتسوية .

يقول ـ ﷺ ـ : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما . فقالوا يارسول الله : هذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالما ؟ قال : تأخذ فوق يديه »(١) .

وعن عبادة بن الصامت قال: مامن رجل يجرح من جسده جراحة فيتصدق بها إلاكفر الله عنه مثل ماتصدق به .

ومن عفا عن أخيه ، أو صفح عنه ، فهذا الصفح وهذا التصدق كفارة لتلك الذنوب .

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وجئنا بعيسى بن مريم على آثار النبيين الذين أسلموا ، مصدقا بالتوراة التى وجدها

(١) رواه البخارى كتاب « المظالم » باب « أعن أخاك ظالما أو مظلوما » . وكذا رواه : الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى فى سننه .

وحكم بما فيها ، وآتيناه الإنجيل ، فيه هدى ونور ، كما للتوراة هدى ونور بهما فى محو الشبهات ، والقضاء على مشكلات زمانهم .

وقد قرر الحق هنا أنه من أصول مهمة عيسى بن مريم ـ عليه السلام ـ لبنى إسرائيل مسيرتهم المنحرفة عن تعاليم الله ، فهو كما يعلم بالإنجيل يعلـ والحلال والحرام فى شريعة التـوراة هو الحلال والحـرام فى شريعة الإنجيل . و التوراة يحكمون بما أُنزل فيها ، فكذلك أهل الإنجيل يحكمون بما أنزل لهم فى لذلك يأمرهم الحق قائلا :

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَـ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

اللام فى ﴿ وليحكم ﴾ لام الأمر ، أى ليؤمنوا بجميع مافيه ، ﴿ الـ الخارجون عن طاعة مولاهم ، التاركون للحق . وقد تقدم أن هذه الآيـ النصارى ، وهو ظاهر من السياق ، ولكن القاعدة الفقهية « أن العبرة بعـ لابخصوص السبب » .

نسأل الله أن يعين حكامنا على الحكم بما أنزل الله حتى نعلنها عالية «لاإلـه

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَ عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُـ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾

إنما أنزلنا كتبا من قبلك يامحمد على الأنبياء ، فبشروا وأنذروا ، وجاهـ مااستطاعوا ، وأنعمنا عليك ، فاحكم بين أمتك التى اتبعتك ، وصدقت بـما أنزلنا فيه ، وبين لهم أن القرآن مهيمن على كل الكتب السابقة ، إذ هو أمين على ماقبله من الكتب ، بماحمل من الحق .

والقرآن هو الدليل على أن التوراة والإنجيل من عند الله ، وليس لدى اليهود والنصارى من يشهد للتوراة والإنجيل غيره . فمن لم يؤمن به فقد أهلك نفسه .

فلا تتبع أهواءهم يامحمد ، ولاتمش وراء رغباتهم ، إنهم يريدون هلاكك ، وهلاك أمتك . هم لهم شرائع ومناهج فى كتابهم ، وأنت لك شريعتك ومنهجك فى كتابك . لاتتبع منهج اليهود أو النصارى الذى نُسخ بالقرآن ، ولن يُقبل منهم ، وسيأتون إلى الآخرة خاسرين ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ولكن شاء أن يبلوكم ليجزى من ينجح فى اختباره أجرا عظيما ، ويوم القيامة الذى لاريب فيه آتٍ لامحالة ، وساعتها سيحكم بينكم فيما اختلفتم فيه . والفوز الكبير يومها لمن آمن بكل رسله ، ولم يفرق بينهم ، واحتكَمَ إلى القرآن ، ورضى حكمه . ويوم القيامة : موعدنا جميعا لتنبأ كلُّ نفس بما عملت وبما كنا فيه نختلف .

وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾

إعادة وتأكيد لقرارات الله السابقة وتأكيد لنهيه بألايتبع أهواء اليهود والنصارى فى الحكم بغير ماأنزل الله .

واحذر يامحمد أن يفتنوك عن بعض أحكام الله أو مقرراته فى قرآنه الحكيم . فإن أعرضوا عنك ولم يسمعوا كلامك ، فاعلم أنما أراد الله أن يعاقبهم ببعض ذنوبهم .

واعلم يامحمد أن كثيرا من الناس فاسقون ، خارجون عن طاعة مولاهم ، مفارقون للحق ؛ فلا تبتئس عليهم ، ولاتحزن ، فعند الله العاقبة . وجلَّ قول الحق ﴿ وماأكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ [1] ويقول تعالى ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ [2].

أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

---

(١) يوسف ١٠٣ . (٢)الأنعام ١١٦ .

أى يبتغون ويريدون العدول عن الإسلام ، والحكم بغير القرآن . ولم يقل المولى أفحكم الجاهلية يحبون أو يريدون أو غير ذلك من الألفاظ . وإنما جاء بكلمة يبغون ـ وهى من البغى والظلم ـ وراء المنكر يفعلونه وهو حكمهم بالجاهلية لذلك قال : ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ ؟

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾

يحذرنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن نتخذ اليهود والنصارى أولياء ، فمهما عدلنا فيهم حسب شريعتنا ، فإنهم لايصدقوننا، ولايأمنون لنا ، اللهم إلا قليلاً منهم ، وهذا القليل من الخطر أن يكون المرجع إليه فى تحمل مستقبل الأمم .

ويُعْلمنا الله أن اليهود والنصارى يتولى بعضهم بعضا . ولكن عندما يكون الأمر للمسلمين فإنه يصعب عليهم أن يكون ولاؤهم للمسلمين صادقا .

ولذلك وجب على المسلمين الحذر والحيطة حتى لا يُخدعوا بالكلمة السهلة المغلفة بالمخادعة ، لأن قلوبهم سليمة على عكس أولئك.

والذين يسارعون فى صحبة الكافرين من اليهود والنصارى وكل أهل الضلال المحاربين لله وللرسول لن يتقبل الله معذرتهم ، عن موالاتهم هؤلاء الضالين ، والمغضوب عليهم .

وها هو ذا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول : ﴿ لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ لاتتخذوا بطانة من دونكم ﴾ (٢) .

فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

وهناك فئة من الناس يبادرون إلى موالاة ومودَّة النصارى واليهود ، ويتذرعون فى ذلك بحجج واهية ، منها : أنهم يخافون أن تدور الدوائر على المسلمين يوما ما وبذلك يأمنون شرهم ساعتها ، لأنهم كانوا موالين لدولتهم . إلى غير ذلك مما يستحدث فى

(١) آية ٢٨ سورة آل عمران . (٢) آية ١١٨ سورة آل عمران .

هذه العصور من موالاة لهؤلاء وهؤلاء والصداقة معهم ، على صور مختلفة من تطبيع العلاقات ، وتغليب المصالح ، والتبادل السلعى، بل الفكرى أحيانا . كل ذلك داخل فى عموم لفظ الآية .

والفتح فى الآية الكريمة هو فتح مكة ، وقيل هو القضاء والفصل . أما﴿ أو أمر من عنده ﴾ قال السدّى : يعنى ضرب الجزية وفرضها على اليهود والنصارى ، وساعتها يندم الذين والوا اليهود والنصارى على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئا ، ولادفع عنهم محذورا ، بل كان عين المفسدة . فبدلاً من خشيتهم أن تدور الدائرة عليهم من انتصار الكفار على المسلمين ، فسوف تدور عليهم أيضا عندما يُذل الكفار ، وتفرض على اليهود والنصارى الجزية ، فهم فى الحالتين خاسرون ، لأنهم قدّروا واحتملوا طريقا واحدا ولم يقدروا الطرفين ، وهو نفاق وجبن صريحان .

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

يتعجب المؤمنون من حال المنافقين عندما أظهروا الميل إلى موالاة اليهود والنصارى وقالوا : إنهم يقسمون بالله جهد أيمانهم : «إنهم معنا ومن أنصارنا ، فالآن كيف صاروا موالين لأعدائنا محبين للاختلاط والاعتضاد بهم ؟!» [1].

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾

تهديد من الله ووعيد بأن الذين آمنوا ثم خانوا الله ، فارتدوا على أدبارهم إلى الكفر ، قد خسروا الدنيا والآخرة ، ولن يضروا الله ولارسوله ولاالمؤمنين شيئا .

وهو سبحانه قادر على أن يستبدل بمن يرتد عن دينه ويخونه قوما آخرين ، لايمنعهم عن عبادة الله شىء ، بل هم خيرٌ منهم ، وأشد منعة وأقوم طريقا . يكون الواحد منهم

(١) تفسير الرازى ١٢ / ١٨ .

«متواضعا لأخيه ووليه ، متعززاً على خصمه وعدوه »[1] . كما قال الحق ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[2].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على الإتيان بمثل هؤلاء يحبونه ويحبهم ، يرجون عفوه ونصره ، يحاربون أعداءه ، لايخافون إلا الله ، يجاهدون بأنفسهم وأموالهم وأولادهم فى سبيله . هؤلاء عباد الله الذين لايخافون فى الله لومة لائم ، ولايردهم عن طاعة الله مخلوق على ظهر الأرض . .

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾

يبين الله ـ سبحانه تعالى ـ للمؤمنين أن وليهم الله ، ومن كان الله وليه فقد ملك الدنيا والآخرة . ولتعلموا يأهل الإسلام أن الله ولىُّ الذين آمنوا بمحمد وبالكتاب الذى أنزل عليه ، الذين أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وحجوا بيت الله إن استطاعوا ، وصاموا شهرهم . والذين هم على صلة بالله دائمة ، فقلوبهم وضمائرهم ومشاعرهم وكلّ مواجيدهم فى خشوع مستمر بين يدى الله ، يراقبونه فى السر والعلن .

وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

ذلك أن كل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، فهو مفلح ومنصور فى الدنيا والآخرة ، ومن بعد عن طريق الله ، فإنه خاسر دنياه وآخرته . وليعلم أن طريق الله هو الصحيح ، وسبحان من لاتخفى عليه خافية فى الأرض أو فى السماء . اللهم اجعلنا من حزب الله المفلح ، و ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولاالضالين** ﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾

وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٧٠.   (٢) الفتح ٢٩ .

شرائع الإسلام المطهرة المحكمة هزوًا ولعبا . والآية نداء للذين آمنوا يحذرهم الله به من كيد الكفار والمنافقين ، الذين يتخذون دين الله- أى الإسلام - ليهزءوا به ، ويتركوا الالتزام به واتباع أوامره واجتناب نواهيه . هؤلاء منافقون من المسلمين ، وجماعة من الكفار أهل الكتاب ، وكذلك الذين لايؤمنون بأى دين ، وهم فى عصرنا كثيرون ، ومنهم : الذين يحكمون بالطاغوت ويهجرون كتاب الله ، وإن كانوا يتلونه فهم يعطلون أحكامه وتعاليمه . فالعبرة بالاتباع والالتزام بمقتضى شرع الله . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون .

فاتقوا الله أيها الناس ولا تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين حقا بشرع الله وبالدين الإسلامى الحنيف .

وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾

وكذلك من خصال هؤلاء الخاسرين، أنهم إذا سمعوا الأذان داعيا إلى الصلاة، أظلمت قلوبهم ووجوههم ، وملأهم الغيظ وصاروا يهزءون بالحق ونداثه، لعنة الله عليهم .

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾

أى قل يامحمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من أهل الكتاب : هل لكم علينا مطعن أو عيب ﴿ **إلا أن آمنا بالله وماأنزل الينا وماأنزل من قبل** ﴾ ؟ وهذا ليس بعيب ولامذمة . هل ترفضون أن تؤمنوا بالله ، وبما أنزل علينا من عنده سبحانه ؟ أوَ لم ينزل على موسى من قبل وكذلك على عيسى ؟ ! ألم تعلموا - وتكتموا الحق الذى تعرفونه - بأن الذى أوحى إلى محمد هو الله الواحد الأحد ، الذى أنزل على موسى التوراة وعلى عيسى الإنجيل ؟ إنكم تعلمون ذلك ولكن فى فطرتكم الكذبُ على الله وعلى رسوله ، وأنتم تعلمون أن عيسى عبد الله ورسوله فلم تنكرونه ؟ وتعلمون أن محمداً عبد الله ورسوله فلم تنكرونه ؟ إن يوم القيامة لآت ! ! ويومها سوف تخذلون ، ولن يغنى عنكم ما تمكرون ، وستكونون فى شر مكان ، وأضل طريق ، لاسبيل لكم إلا النار تستغيثون

فيها فلا مغيث لكم ! فلم تنقمون من هذا الدين ؟ أى تنكرونه ، وما الذى تجدون فيه مما يجعلكم تتخذونه هزوا ولعبا ؟

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾

أى هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله ﴿ **من لعنه الله** ﴾ أى أبعده من رحمته ﴿ وغضب عليه ﴾ أى غضبا لايرضى بعده أبدا ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ [١] . يقول أهل التفسير : القردة يعنى أصحاب السبت ، أما الخنازير فالمقصود بهم كفار مائدة عيسى . وقيل إن عبدة الطاغوت هم أصحاب العجل ، وقيل الطاغوت الأحبار ، وكل من أطاع أحدا فى معصية الله فقد عبده . ﴿**أولئك شرٌّ مكانا** ﴾ أى أولئك الملعونون الممسوخون شرٌّ مكانًا ، لأن مكانهم النار ، وأما المؤمنون : فلا شر فى مكانهم[٢] .

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾﴾

إن من خصال اليهود وطبيعتهم الهابطة فى حضيض الفسق أنهم جاءوا إلى أهل الإسلام وأهل الحق يقولون آمنا ، ويدَّعون التصديق بالله وكتبه ورسله ، ولكنهم كذابون مخادعون ، فهم كما دخلوا على أهل الإيمان مخادعين ، خرجوا وهم على خداعهم ، مصرين على باطلهم وكفرهم بالله وبرسوله ، والله أعلم بما فى صدورهم وبما يكتمون من الحق ، ليظلوا عبَّاداً للدنيا، يختزنونها ، وهم لايسارعون لخير أبدا . ولكنهم منغمسون فى ظلمات العدوان . لبئس ما كانوا يعملون . فهذه هى صفة المنافقين يصانعون المؤمنين فى الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر .

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٧٣ . (٢) انظر : القرطبى ٦/ ٢٣٦ .

أى يسارعون إلى اقتراف الآثام ، والذنوب ، والمحارم ، والاعتداء على الناس ، وأكلهم الحرام . لبئس العمل كان عملهم وبئس الاعتداء اعتداؤهم .

لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

يقول ابن عباس : « ما فى القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية » ويقول الضحاك : مافى القرآن آية أخوف عندى منها .

ومعنى الآية : هلا ينهاكم ، أى ألم ينهكم الربانيون ـ أى العلماء أصحاب الولايات عليكم ـ والأحبار وعن كل ماتقترفونه من آثام ومعاصٍ ، من قول الإثم ، والزور وأكلكم الحرام . ؟ لبئس ماكانوا يصنعون . . !

وهنا لفتة كريمة للإمام الرازى فى تفسيره يقول : « والمعنى أن الله تعالى استبعد من علماء أهل الكتاب أنهم مانهوا سفلتهم وعوامهم عن المعاصى .

«وذلك يدل على أن تارك النهى عن المنكر بمنزلة مرتكبه ، لأنه تعالى ذمّ الفريقين فى هذه الآية على لفظ واحد .

«بل نقول ـ والكلام مازال للرازى ـ إن ذم تارك النهى عن المنكر أقوى لأنه تعالى قال فى المقْدمين على الإثم والعدوان وأكل السحت ﴿ لبئس ماكانوا يعملون ﴾ . وقال فى العلماء التاركين للنهى عن المنكر ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ والصنع أقوى من العمل، لأن العمل إنما يسمى صناعة إذا صار مستقراً راسخاً متمكناً ، فجعل جرم العاملين ذنباً غير راسخ ، وذنب التاركين للنهى عن المنكر ذنبا راسخا . والأمر فى الحقيقة كذلك» .[1]

وفى هذا توجيه لنا نحن أمة الإسلام ، التى هى خير أمةٍ أخرجت للناس . ومن مقتضيات الخيرية فى أمة محمد أننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر .

فإذا عطلت الأمة على مدى العصور هذا التكليف الربانى : يكون إيذانا بالهلاك ، وبانتشار الشر ، وبانكسار الخير وتنحيته جانبا .

(١) تفسير الرازى ١٢ / ٣٩ .

وإذا أصابنا جدْبٌ أو هلاك : فلا نأسى ولاننادم على مايصيبنا ، إذ يكون نتيجة ابتعادنا عن قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وفى الآية : توبيخ وتهديد وإنكار من الله على أهل الكتاب ، الذين لم يقوموا بدورهم الفعّال فى تذكير الناس ، وردّهم إلى الصواب .

وقال ابن أبى حاتم عن يحيى بن يعمر قال : خطب علىٌّ بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس : إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى ، ولم ينههم الربانيون والأحبار ، فلما تمادَوْا فى المعاصى : أخذتهم العقوبات . فمروا بالمعروف وانهوْا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لايقطع رزقا ولا يقرب أجلا »[1] .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

اشتدت سفاهة اليهود حتى قالوا على الله ما لايليق بمقام كرمه وإحسانه ، فادّعوا أن الله بخيل ـ حاش لله ـ وماذلك إلا لجهلهم بذات الله ، وماهو عليه سبحانه من الكمال ، وبأن من أسمائه وصفاته الكريم المحسن المعطى الوهاب .

واعلم يامحمد أن اليهود لم يكفوا عن كيدهم لك ، وسيبلغ بهم الحقد مداه . لأن النفوس مظلمة آثمة .

إذْ بسبب إكرام الله ـ سبحانه وتعالى ـ لك يامحمد بإنزاله عليك القرآن الكريم ، قد حسدوك على ذلك ، وامتلأت قلوبهم حقدا عليك ، وازدادوا غما وحسدا ، وإنه جزاء حقدهم وحسدهم : ابتليناهم بما صنعوا من الشر ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٧٤ .

نعم . سيظلون إلى يوم القيامة يحقدون ، ولكن الله من ورائهم محيط ، فكلما ازدادوا طغيانا وكفرا وبغيا : سلط الله عليهم أنفسهم بالحقد والبغضاء ، فتتآكل من القسوة قلوبهم ، ومن الظلمة أنفسهم .

وها هو ذا وعد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يتحقق فى كل العصور ، فهم لما أفسدوا وخالفوا كتاب الله (التوراة) أرسل الله عليهم (بخْتنصر) ، ثم أفسدوا فأرسل عليهم بطرس الرومى ، ثم المجوس ، ثم المسلمين من بعد ذلك . ومنذ عهد الرسول ـ ﷺ ـ وإلى اليوم ، كلما استقر أمرهم واستقام ، وقويت دولتهم شتتهم الله . وكلما أجمعوا أمرا على حرب المسلمين أطفأها الله . وهم دائما يسعوْن فى إبطال الإسلام . وذلك من أعظم الفساد كما يصف القرطبى .

وها نحن أولاء اليوم فى حاجة ماسَّة إلى تجمع ووحدة المسلمين لمحو هذه الفئة الضالة الكاذبة المنافقة ، عبدة الطاغوت منشئى الربا ، وآكلى السحت ، وتطهير بيت المقدس وذلك بالجهاد ضدهم وبكل ما نملك ؛ حيث إنهم أصل الفساد فى الأرض .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

أى لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ، لأزلنا عنهم المحذور ، وأنلناهم المقصود . ولو أنهم استعملوا عقولهم ، ونظروا فى ماأنزل الله من الحق ، بنفوس طاهرة ، خالية من الحقد والحسد ، لكفر الله عنهم ماارتكبوه من ذنوب فى حق محمد وأتباعه ، وكفر عنهم آثامهم التى حاربوا بها الله ورسوله والمؤمنين .

وفى قول الحق سبحانه ﴿ ولو أنهم ﴾ : مايفيد أنهم لم يكونوا طائعين لله فى نبوة موسى وعيسى ، وأنهم كانوا عند بعثته ـ ﷺ ـ غير مسلمين ، أى غير مؤمنين بما أنزل فى الإسلام الذى هو موجود عندهم فى التوراة والإنجيل .

لذلك يقول الحق ﴿ ولو أنهم آمنوا ﴾من قبل محمد ومن بعده ، لأغدقنا عليهم من نعمنا ، فأكلوا حلالاً طيبا ، ولكانت نعم الله عليهم غامرة ، وأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، لأننى أنا الله المعطى الكريم الوهاب غير متصف بالبخل والغل كما قالوا . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا .

ثم أخبر الله تعالى أن منهم مقتصدًا كالنجاشى وسلمان وعبد الله بن سلام ، كما يذكر القرطبى . هؤلاء اقتصد وا فلم يقولوا فى عيسى ومحمد إلا مايستحقانه .

والاقتصاد: هو الاعتدال. و﴿ساء مايعملون ﴾ أى ساء صنيعهم هذا وعملهم هذا ، من تكذيبهم للرسل ، وأكلهم الربا ، وأكلهم السحت ، وتحريفهم للكتب .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

﴿يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك ﴾ من الوحى الذى أتاك به رسولنا جبريل عليه السلام ، وإن لم تفعل فذلك أمر عظيم .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ اختارك وأعدك لتكون أمينَه وصفيه وإمامَ رسله وأنبيائه . فلا تخف يامحمد على نفسك من أعدائك ؛ لأنك بأعيننا .

واعلم : أن الله يعصمك من الناس : ويحفظك من شرورهم .

قال البخارى عند تفسير هذه الآية عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت : من حدثك أن محمداً كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقدكذب ، والله يقول ﴿ يأيها الرسول بلغ ﴾[1] .

وهذا تأديب للنبى ﷺ وتأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئا من أمر شريعته . وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، فأبلغ جميع ماأرسله الله به ، وقام به أتم القيام . وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة .

قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ

(١) رواه البخارى كتاب « التفسير » باب « يأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك » .

إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾

يقول ـ الله تعالى ـ لليهود والنصارى لستم على شىء من دين موسى وعيسى ، ولو كان عندكم من يقين ولو قليل من التوراة والإنجيل ، لعلمتم بأن محمدا عبدُ الله ورسولُه ، لأن ذلك مكتوب عندكم فى التوراة والإنجيل .

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ (1) .

فلا تحزن يامحمد عليهم ، واعلم أن الله على كل شىء قدير .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

الذين آمنوا هم أهل لا إله إلا الله محمد رسول الله . وهم المسلمون ، وهم الذين آمنوا بكافة رسل الله ، من لدن آدم حتى جاء محمد ـ ﷺ ـ .

والذين هادوا : هم أهل التوراة .

والصابئون : فرقة من النصارى والمجوس ، وقيل من اليهود ومن المجوس .

والنصارى : هم أهل الإنجيل .

كل هذه الفرق إذا أرادوا أن ينجوا من النار : فلا بد لهم من إيمانهم بمحمد ـ ﷺ ـ واتباع شريعته ، والعمل بكتابه وسنته .

ومن مقتضيات اتباع محمد ، والسير على نهجه وسنته وكتابه الذى أنزل عليه : الإيمانُ بالله واليوم الآخر ، وعملُ الصالحات ، لأن ذلك هو مانادى به محمد ـ ﷺ ـ نفسه . ومامحمد إلا رسول جاء ليهدى الناس بأمر ربه ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويرشدهم إلى العمل الصالح .

فإن فعلت هذه الفرق كل ذلك ، فلا خوف عليهم فى مستقبلهم الأخروى ، ولاهم يحزنون على مافاتهم ، من ترك عاداتهم وعقائدهم القديمة .

---

(1) الصف : ٦ .

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

ولقد أخذنا عليهم الميثاق ، وهو ألا يعبدوا إلا الله ومايتصل به ، فلا تأس يامحمد على القوم الكافرين ، ولاتحزن ، فإنا قد أعذرنا إليهم ، وبعثنا لهم الرسل ، وأخذنا عليهم المواثيق ،فنقضوا هذه العهود، وساروا حسب أهوائهم ، وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه ، وما خالفهم ردّوه .

وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

أى وحسبوا ألا يترتب لهم شر على ماصنعوا ، فترتب ، وهو أنهم عموا عن الحق وصموا . إن هؤلاء الأغبياء قد ظنوا أن إمهال الله لهم ، وتركه إياهم دون عقاب على أفعالهم ، ينجيهم من غضب الله ،كما ظنوا أنه لايقع من الله عزّ وجل اختبار لهم ، وابتلاء بالشدائد ، لأنهم مغترون أصلاًعندما قالوا﴿نحن أبناءُ اللهوأحباؤه﴾[1]. ولذلك : عموا وصموا ،ونقضوا المواثيق والعهود ، ثم تابوا إلى الله ، ثم عموا وصموا مرة أخرى ، و الله تعالى﴿ بصير بما يعملون ﴾ أى مطلع عليهم وعليم بهم وسيجازيهم ؛ فهو يمهل ولايهمل .

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾

---

(١) آية ١٨ سورة المائدة .

فى قوله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين . . . ﴾ حكم واضح بتكفير الذين قالوا إن الله هو المسيح ، والذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة أى واحد من هؤلاء الثلاثة .

والتثليث عندهم يتكون من أن الابن إله ، والأب إله ، وروح القدس إله .

ويرد عليهم سبحانه : قائلا ﴿ ومامن إلهٍ إلا إله واحد ﴾ أى : إن الإله لايتكاثر ولايتعدد ، بل هو وحده لاشريك له . وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير فى المهد ﴿ إنى عبد الله ﴾ ولم يقل إنى أنا الله ولا ابن الله .

﴿وإن لم ينتهوا ﴾ عن هذه الأكاذيب وهذه الأقوال ليمسّنهم عذاب شديد فى الدنيا والآخرة .

ويوبخهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى نهاية الآيات فيقول : ﴿ أفلا يتوبون ﴾ أفلا يسألون ربهم ستر ذنوبهم ، ويستغفرونه ، ويعودون إليه ؟ . إنه هو الغفور الرحيم .

مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾

أى له أسوة أمثالة من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ، ورسول من رسله الكرام ، وأمه مؤمنةبه مصدّقة له . وكانا يحتاجان إلى التغذيةبالطعام وإلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس وليسا بإلهين . وليس المسيح ابن مريم إلا رسولاً شاء الله سبحانه أن يجعله آية للناس فحملت به أمه مريم الصديقة بغير زواج ، ليكون آية إعجاز مماثلة لآية خلق آدم من غير أبوين ، وليضرب به المثل أمام بنى إسرائيل ، الذين كانوا يعبدون المادة ، ولايجعلون للروحانيات نصيبا فى تفسيرهم للأشياء . فكل شىء عندهم مادى ، يقيسونه بمقاييس مادية بحتة ، ولايؤمنون بالمعجزة أو الإعجاز . فضرب الله ـ سبحانه وتعالى ـ المثل الأعلى فى اختلاف الأسباب والمقاييس ، فى آية خلق عيسى عليه السلام من غير أب . وكيف يكون المخلوق المحدث المربوب ربا؟ فالمربوب لايكون ربًّا أبدا . والرب منزه عن الطعام والشراب والجوارح ، ولا نقيسه بمقاييس بشرية ناقصة ، وهو مهيمن على الكون كله ، ليس كمثله شىء .

وقيل عن مريم إنها صديقة : لكثرة اعتقادها وتصديقها لكلام ربها وآياته ، وتصديقها بكلام ولدها نفسه الذى نطق وهو على كتفها .

انظر يامحمد كيف يبتعد أهل الكتاب عن الحق بعد أن بينا لهم فى الكتاب كل شىء .

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ ﴾

يقول الله - سبحانه وتعالى - لنبيه - منكرا على من عبد غيره تعالى - قل لهم أتعبدون من دون الله ما لايملك لكم ضرا ولا نفعا ؟! أى لايستطيع دفع الضر عنكم ولايستطيع جلب النفع ؟ !

إن الله هوالسميع لأقوالكم والعليم بعبادتكم هذه الأشياء التى لاتنفع ولاتضر .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾

يأمر الله عبده محمدا ـ ﷺ ـ أن يقول لليهود والنصارى : يأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم غير الحق ، أى لاتجاوزوا الحد فى اتباع الحق .

والحقيقة أن الغلو فى الدين نوعان كما يقول الرازى : « غلو حق ، وهو أن يبالغ فى تقريره وتأكيده ، وغلو باطل ، وهو أن يتكلف فى تقرير الشبه ، وإخفاء الدلائل »(١).

وقد غالى اليهود فى ذلك فرموْا مريم بالزنا فى عيسى .

أما النصارى فقد ادّعوا فى عيسى الألوهية . « وماذاك إلا لا قتدائهم بمن ضل قديما ، وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال ، إلى طريق الغواية والضلال(٢) » .

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

يبين الحق أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود وعلى

---

(١) تفسير الرازى ١٢/ ٦٣ . (٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٨٢ .

عيسى بن مريم ، بسبب عصيانهم لله ، واعتدائهم على خلقه . فبنو إسرائيل لم يتعظوا ولم يخضعوا لتعاليم الله حتى جاءهم داود عليه السلام ، وناداهم إلى الله ليتوبوا ، ولكنهم لم يتوبوا ولم يسمعوا فلعنوا على لسانه .

وكذلك جاء عيسى بن مريم رسولاً لهم ، فلم يستمعوا ولم يطيعوا ، ولعنوا كذلك على لسانه ، بل استغرقتهم المعاصى ، وكان ينصح بعضهم فى الصباح ، فإذا جاء المساء اجتمع من وُعِظ وذُكِّر بالله وكتبه ورسله مع العصاة الطغاة المرتكبين للإثم ، الظالمين لأنفسهم وغيرهم ، وعاقروا المعاصى معا فى غير حياء .

كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾

أى كانوا يبحثون عن المنكر ويفعلونه ولايتناهون عنه ، ويعلمون المعروف ويتجنبونه ولايأمرون بعضهم بعضا به . فبئس العمل عملهم ، وبئس الصنيع صنيعهم .

تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾

إن اليهود يلذّ لهم أن يتوادوا مع الذين كفروا ، وكذلك مع المنافقين والعصاة .

فهؤلاء سخط الله عليهم وأضلهم بما ظلموا أنفسهم وبما فعلوا ، ولكن لايشعرون ، ولهم عذاب أليم يوم القيامة .

وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

يعنى لو أنهم آمنوا بالله وبمحمد - ﷺ - وماأنزل عليه من كتاب ، لما صاحبوا الكافرين ، وما والوهم ، لأن الله ينهى عن ذلك ، ولكن كثيرا منهم - كما يخبر الحق - خارج عن طاعة الله ورسوله مخالف لتعاليم ربه - سبحانه وتعالى - .

۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ
وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾

لتجدن يامحمد أنت وأمتك أشدَّ الناس بغضًا لكم وعداوةً : اليهود والمشركين .

والسبب فى ذلك : كبر وجحود للحق تربوا عليه ، فقست قلوبهم فهى كالحجارة ، بل هى أشد قسوة ، فهم لايفقهون الحق .

وبين صفحات التاريخ مايد ينهم ، ويسود صحائفهم .

وإنى لأعجب فى هذه الأيام من ممالآت المسلمين وتراجعهم عن القتال والجهاد لاسترداد بيت المقدس وفلسطين .

وقد نسب الله البغض والعداوة فى الآية لليهود بالذات وعلى وجه الخصوص ، لأنهم مفطورون على ذلك .

والنصارى فى الآية هم الذين جاء عليهم القرآن والإسلام ، وقالوا إنا نصارى بحق ، أى أنصار المسيح عيسى بن مريم ، الذى على منهاجه نسير ، وبتعاليمه نمشى ، وبما فيها نؤمن أنك يامحمد آتٍ لامحالة ، وها أنت ذا اليوم أمامنا مبعوث من عند الله نؤمن بك وبقرآنك .

وماذاك إلا لما فى قلوب هؤلاء القوم من الرقة والرأفة لما يوجد فيهم من القسيسين وهم علماؤهم ، والرهبان وهم العبّاد .

من هؤلاء وهؤلاء أقوام بالجملة لايستكبرون عن عبادة الله والإذعان لمحمد ، والإيمان بالقرآن ، لأن محمداً مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل ، وهم لايستكبرون بل يظهرون تلك البشائر الموجودة عندهم فى توراتهم وإنجيلهم .

وسر إسلام هؤلاء النصارى أن قساوستهم قرءوا وفهموا وصدقوا بأن محمداً رسولُ الله فأسلموا . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[1] .

وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ
ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾

---

(١) آل عمران ٨٥

﴿ مما عرفوا من الحق ﴾ أى مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ـ ﷺ ـ يقولون ﴿ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ ،أى : اكتبنا مع الذين يشهدون لمحمد أنه قد بلغ الرسالة ، وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة ، وكشف الغمة ، وجاهد فى الله حق جهاده .

وهاهم أولاء أصحاب النجاشى وأنصاره تفيض أعينهم من الدمع عند سماعهم القرآن من النبى أو من جعفر بن أبى طالب .

وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾

وهؤلاء الذين كانت عيونهم تفيض من الدمع قد أسلموا ، فالذين يدخلون فى الإسلام من النصارى تلك صفاتهم ، يقولون فى خشوع قلب وتجرد ذات : ربنا آمنا بك وبرسلك من لدن آدم حتى إبراهيم فموسى فعيسى ، وتوَّجنا مااعتقدناه من الحق بدخولنا الإسلام مصدقين بأن محمدا ـ ﷺ ـ خاتم رسلك وأنبيائك ، فارزقنا الإيمان وآتنا الحجة ، ويسِّر لنا الطريق إليك ، ووضحه سهلاً نستقر فى أنواره وحقائقه مع رسولك الذى أرسلت ، فاجعلنا ياربنا من الأبرار الأخيار ، وأدخلنا مع القوم الصالحين فى رحمتك .

فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾

هؤلاء القوم أثابهم الله بما قالوا وصدقوا ، وجعلهم من أصحاب النفس المطمئنة الراضية ، وأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ، وتلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار. وقوله : ﴿ فأثابهم ﴾ أى فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

هذه فئة الأشقياء ، وهى عكس الفئة الأولى قلوبهم صماء وقاسية كالحجارة ، بل

أشد قسوة ، فهم لايعرفون تفكيرا ولاتدبرا ولانظرا ، فجحدوا بآيات الله وخالفوها ، وهؤلاء : هم أهل النار . وأصحابها الداخلون فيها .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ ٨٧

أى : من الطعام والشراب واللباس والنساء الأزواج .يقول لاتسيروا بغير سنة المسلمين ، فالذى حرم عليكم بوحى أو بسنة : هو فقط ماحُرم عليكم ، وليس لكم أن تريدوا غيره ،أو تزيدوا عليه أو تنقصوا منه ؛ إذْ ليس من حق العبد أن يضيف إلى ماقرر الله من فروض وسنن ، أو ينقص منها ،وليس له أن يغير فى الكتاب والسنة أو يحذف منهما ، فوجوب الالتزام بما فى الكتاب والسنة فرض لازم ، وكذلك كل ماأحل الله للناس من رزق فهو طعام وشراب هنىء .

وقد ذهب بعض الأئمة ، منهم الإمام أحمد بن حنبل ، إلى أن من حرم مأكلا أو مشربا أو ملبسا أو شيئا من الأشياء : فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين .

﴿ ولا تعتدوا﴾ معناها : لاتبالغوا كثيرا فى التحريم على أنفسكم ، وفى التضييق لطيبات الله عليكم .

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ ٨٨

أى زيدوا وكلوا مما أحله الله لكم ، ولاتحرموا حلالاً ولاتضيقوا على أنفسكم ، واتقوا الله فى جميع أموركم ،واتبعوا طاعته ورضوانه، وأطيعوا نبيه ، واتركوا مخالفته وعصيانه .

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٨٩

لغو العبد فى الأيمان أن يحلف بالله من غير قصد أن يفعل ثم لايفعل ، أو ألا يفعل

ثم يفعل ، ولايلتزم بالدقة فيما حلف له وفيه : لايحاسب الله عليه مع التحذير من الوقوع فيه .

لكن عندما تعقد الأيمان ، أى يكون اليمين مصحوبا بنية وإصرار ثم يحنث فيه ، أى يقع فيه ، فذلك فيه الكفارة .

والكفارة هنا إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة أى عتقها ، فإذا عجزالعبد عن أداء إحدى الكفارات السابقة ، فيصوم ثلاثة أيام .

والأولى والأصلح والأصوب لدينكم ودنياكم أن تحفظوا أيمانكم ، ولاتحنثوا فيها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾

نداء من العزيز الحكيم الرءوف الرحيم للذين آمنوا ، يبين لهم أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان : ليجتنبوه .

ولما كانت الخمر هى أمّ الكبائر ، والخمر هى رأس الإثم ، والأنصاب والأزلام رموز للشر والإثم ، فقد سماها الله ـ سبحانه وتعالى ـ رجس من عمل الشيطان ، وأمرنا باجتناب كل ذلك الباطل ، وجعل اجتنابه سببا فى نجاح المؤمنين .

وقد حفلت السنة بأحاديث كثيرة واردة فى بيان تحريم الخمر ، ليس هذا مجال التطويل بها .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾

يريد الشيطان بهذه المحرمات أن يفتن بينكم ، ويوقعكم فى الخصام والكره والعداوة بسببها ، ويريد أن يصدكم عن ذكر الله ، لأن هذه الأشياء تنسى الإنسان ذكر الله تماما ، والصلاة ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ ؟ .

والأمر الطبيعى للمسلمين أن يجيبوا ربهم سمعاً وطاعة .

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾

فى هذا أمر بالطاعة وتهديد عظيم لمن خالف هذه الأوامر وأعرض فيها عن حكم الله.

ومعناها: إن توليتم، فالحجة قد أقيمت عليكم، والرسول قد بلغكم ومرجعكم إلىّ.

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وعاشوا فى الحلال الذى أمروا به فى مطعمهم وملبسهم ومشربهم، وسرهم وعلنهم، وتحروا كل مافى كتاب الله، وسنة رسوله، فاتبعوه فى يقظة قلب، وصدق ضمير، وحب للحق. هؤلاء هم الذين أحسنوا الفهم والعمل. والله يحب المحسنين.

و (إذا) فى الآية الكريمة للمستقبل لا للماضى. والمقصود من تكرار التقوى فى الآية هو التأكيد والمبالغة فى الحث على الإيمان والتقوى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾

هو الضعيف من الصيد وصغيره، يبتلى الله به عباده فى إحرامهم، حتى لوشاءوا لتناولوه بأيديهم، فنهاهم الله أن يقربوه. إن الله ـ سبحانه تعالى ـ يربى أمة محمد ـ ﷺ ـ على خشيته فى السر والعلن، فمن التزم وأطاع أوامره، واجتنب نواهيه: صدق فيه وعليه قول رب العزة ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرةٌ وأجر كبير ﴾ (١). أما من اعتدى بعد ذلك وخالف ﴿ فله عذاب أليم ﴾.

---

(١) الملك ١٢.

سُورَةُ المَائِدَةِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

هذا تحريمٌ منه ـ سبحانه تعالى ـ لقتل الصيد فى حالة إحرامكم أيها المؤمنون ، ونهىٌ عن تعاطى هذا الصيد فى حالة الإحرام .

يقول ابن كثير : « وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ولو ماتولد منه ومن غيره، فأماغير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعية يجوز للمحرم قتلها ، والجمهورعلى تحريم قتلها أيضا ، ولايستثنى من ذلك إلا ماثبت فى الصحيحين» (١) .

ومن فعل ذلك بعد تحريمه فإن الله سبحانه تعالى ﴿ عزيز ذو انتقام ﴾ إن الحجة قد جاءتكم ، وعليه بعد ذلك الكفارة أيضا .

إنها تربية وإرشاد للذين آمنوا وعملـوا الصالحات ، إلى الأصلح . عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « خمس مـن الدواب كلهن فاسق يقتلن فى الحرم ، الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » (٢) .

أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

يقرر الله ـ سبحانه تعالى ـ أن للمحرم والمحل أن يأكل من صيد البحر ، ميتا وحيًّا ، فما صيد منه : فهو حلال للمحرم والمحل والمسافر والمقيم .

وأما صيد البر : فمحرم حتى تحلوا إن كنتم محرمين ، ولغير المحرمين حلال فى كل الأوقات مادام قد استوفى كل شروطه المشروعة .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٩٨ .

(٢) رواه البخارى كتاب « جزاء الصيد » باب « مايقتل المحرم من الدواب ». وكذا رواه : الإمام مسلم فى صحيحه ، والترمذى والنسائى فى سننهما .

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ
ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾

أى : خلق الله الكعبة قياما للناس ، أى صلاحاً ومعاشا ، يأمنون فيها ، ويقومون بشرائعها .

﴿ والشهر الحرام ﴾ اسم جنس، والمراد الأشهر الحرم الأربعة وهى : رجب وذوالقعدة وذو الحجة والمحرم . فكان العرب لايطلبون فيها دما ، ولا يقتلون فيها عدوا ، ولايتوقعون فيها ثأرًا .

﴿ والهدْى ﴾هو مايهدى إلى الكعبة ويذبح هناك ، ويفرق لحمه ويوزع على فقراء الحرم .

وكل ذلك أى : الكعبة ، واحترامكم للأشهر الحرم ، وإقامتكم الهدى والقلائد ، كل ذلك ، دليل على عظمة هذا البيت ، وغاية تشريفه .

و«لما ذكر الله تعالى أنواع رحمته بعباده ، ذكر بعده أنه شديد العقاب ، لأن الإيمان لايتم إلا بالرجاء والخوف . . . ثم ذكر عقيبه مايدل على الرحمة وهو كونه غفورا رحيما ، وذلك يدل على أن جانب الرحمة أغلب »[(1)].

﴿ ماعلى الرسول إلا البلاغ ﴾ يعنى أن الرسول - ﷺ - مكلف فقط بالتبليغ ، والله يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور .

﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي
الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

اعلموا أن الله اختار لكم خير رسله ، واختار لكم هذا الدين وارتضاه لكم شريعة ومنهاجا ، فلا تعجبكم كثرة الخبيث من متاع الدنيا ، فالعبرة بالكيف لا بالكم ،

---
(١) انظر تفسير الرازى ١٢/ ١٠٢ .

والقليل من الحلال خير من الكثير وهو حرام ، فاحذروا أن تجمعوا من الدنيا بغير شرع الله ، فالدنيا تغرى وتهلك ، والمؤمن يعرفها بصحبته لكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -.

﴿فاتقوا الله ياأولى الألباب﴾ أى ياذوى العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ودعوه ، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ، لعلكم تفلحون فى الدنيا والآخرة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

نداء من الله للذين آمنوا بألايسألوا عن شىء لم يخبر الحق عنه من أخبار الغيب ، فالغيب لله ، يبرز منه ماشاء بما يشاء ، ويستر منه ماشاء بما يشاء ، وهو الستار ، فما أظهره هو الخير ، وماستره فى ستره خير لانعلمه .

وفى « هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهى لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لافائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها . وفى الصحيح عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : «دعونى ماتركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم . . .[(1)]» .

ولهذا يقول الحق مخبرا :

قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

فيأيها الناس أنتم خير أمةٍ أخرجت للناس ، فاذكروا نعمة اختيار الله لكم ، وإحسانه إليكم ، واعلموا أن اليهود والنصارى من قبلكم قد سألوا هذه المسائل المنهى عنها ، فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بسببها كافرين . فاحذروا أن تكونوا كما كانوا ، فتوبوا يتب الله عليكم ، ويجعلكم صالحين .

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَـٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

(١) رواه البخارى كتاب « الاعتصام » باب « الاقتداء بسنن رسول الله - ﷺ - » .

(البحيرة) هى البهيمة التى يمنع درُّها فلا يحلبها أحدٌ من الناس ، وهو قول سعيد ابن المسيب .

(والسائبة) كانوا يسيبونها لآلهتهم لايحمل عليها شىء ، ولاينتفعون بها حق منفعتها .

أما (الوصيلة) فهى إذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم ، وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم . وإن ولدت ذكرا وأنثى قالوا : وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . فالوصيلة بمعنى الموصولة ، كأنها وصلت بغيرها .

أما (الحام) فهو الفحل ، وهو نوع من ذكر البقر ، كان إذا انقضى ضرابه[١] جعلوا عليه من ريش الطواويس وسيبوه .

والمعنى مجملا : أن الحيوانات مخلوقة لمنافع المكلفين ، وتركها وإهمالها يقتضى فوات منفعةٍ على مالكهـا من غير أن يحصل فى مقابلتها فائدة . والبهيمة إذا أعتقت وتركت لم تقدر على رعاية مصالح نفسها فوقعت فى أنواع من المحنة أشد وأشق مما كانت فيها حال ما كانت مملوكة .[٢] .

أى إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يشرع لكم مثل هذه الأفعال التى تفعلونها .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

فهؤلاء الناس إذا دعوا إلى شرع الله وحكمه وتكاليفه قالوا : يكفينا ماجبلنا عليه من طباع وما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك .

فكيف تتبعون آباءكم وأجدادكم أيها الناس ؟ هل تتبعون الجهل بعينه ؟ والظلام نفسه ؟ أو أنكم لاتفهمون حقا ؟ !

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

---

(١) أى : نكاحه : انظر « لسان العرب ـ مادة ضرب » .

(٢) انظر فى ذلك تفسير الرازى ١٢/ ١١٠ .

ينادى الحق سبحانه الذين آمنوا بأن يقوموا على أنفسهم بالتربية والإرشاد ، وتعلم كتاب الله ، وسنة رسوله ، فإن كملت معارفهم بالدين ، فعليهم بعد ذلك أن يدعوا غيرهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن استمعوا لهم فذلك فضل الله عليهم وعلى من دعوهم . وإن لم يستجيبوا فقد ثبت لهم أجرهم ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر** ﴾ (١) ـ ﴿ **وماأنت بهادى العمى عن ضلالتهم** ﴾ (٢) .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ سيعطى الذين أقاموا من أنفسهم دعاة إليه ، مذكرين لشرعه، أجرهم على أنهم بلغوا فقط ، وليس على أنهم قد استجيب لهم ، لأن الهادى هو الله ، ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ (٣).

فالاستجابة لله ومن الله فقط ، ولو شاء ربك لآمَنَ مَنْ فى الأرض كلهم جميعاً .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

يأيها الذين آمنوا : اعلموا أنه إذا كان أحدكم فى سفر وأراد أن يوصى بشىء ، فعليه أن يختار للإشهاد على وصيته ، اثنين عدلين من الأقارب ، فإن لم يجد : فمن غير الأقارب .

(١) الآيتان ٢١ , ٢٢ من سورة الغاشية . (٢) آية ٨١ سورة النمل .
(٣) آية ١٧ سورة الكهف .

فإذا مات الموصى : فليؤد هذان الشاهدان شهادتهما بما أوصاهما به ، ويكون ذلك عقب الصلاة : التى يجتمع عليها الناس ، ويحلفان بمثل هذه الصيغة « نقسم بالله العظيم ، لانستبدل بيمينه تعالى عوضًا ، ولو كان فيه نفع لنا أو لأحد أقاربنا ، ولانخفى الشهادة التى أمرنا الله تعالى بأدائها صحيحة ، إنا إذا أخفينا الشهادة ، أو قلنا غير الحق : نكون من الظالمين ، المستحقين لعذاب الله .

هذا . . وإذا ظهر أن الشاهدين قد كذبا فى شهادتهما ، أو أخفيا شيئا : فإن اثنين من أقرب المستحقين للتركة ، يقومان مقام الشاهدين الأولين ـ بعد الصلاة كذلك ـ ليظهرا كذبهما .

حيث يحلفان بالله إن الشاهدين قد كذبا ، وأن يميننا أولى بالقبول من يمينهما ، ولم نتجاوز الحق فى أيماننا ، ولم نتهمهما زورا ، وإلا كنا من الظالمين .

وهذا التشريع : هو أقرب الطرق التى تؤدى الشهادة على وجهها ؛ فتحفظ الحقوق .

واتقوا الله وراقبوه فى وصاياكم وفى شهاداتكم وفى كل أحوالكم ، واسمعوا لشرع الله تعالى وأطيعوه ، وتذكروا اليوم الآخر دائما ، فإن الله لايهدى القوم الفاسقين .

۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْۖ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم . فاذكر يامحمد أنت وأمتك يوم يجمع الله رسله وأنبياءه فيسألهم بماذا أجابتكم الخلائق ، فتقول الرسل والأنبياء فى أدب وخشوع ، وتواضع لله ، ﴿لاعلم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ .

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى

فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ
تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم
بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى
ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

يذكر تعالى ما امتن بـه على عبده ورسوله عيسى بن مريم عليه السلام ، مما أجراه على يديه من المعجزات . فاذكر كذلك يامحمد إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك ، إذْ جئتَ خلقة مخالفة لطبيعة الخلق ومألوف العادة ـ من غير أب ـ بنفخة من روح القدس وهو جبريل . وجئتَ تكلم الناس وأنت طفل فى المهد ، وبرأتَ أمك بكلماتك المقدسة وأنت مولود لساعتها ، وذلك على خلاف العادة والمألوف بين الناس ، وجئتَ تدعو الناس مولودا إلى توحيد الله وبأنك عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وأقدرتك أن تنفخ فى الطين فيكون طيرا ، والأكمه والأبرص دعوتنى فشفيتهم بإذنى ، تثبيتاً لك وتكريما ، وأخرجتَ الموتى من قبورهم أحياءً بإذنى وقدرتى ، حتى يعلم المبطلون أنك بعينى رسولاً ونبيا وعبداً مكرما . وكففت عنك أذى بنى إسرائيل ، ونجيتك من خبثهم وحقدهم ، إذ جئتهم بالبينات ، فلم يرتدعوا ، ولم ينزلوا على الحق ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين وبفضلى ألهمتُ الحواريين فآمنوا بك واتبعوك ونصروك .

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا
مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

هذه الآية : تعبر عن قصة المائدة ، وبسببها سميت السورة بالمائدة . وأنزل الله آيةً باهرة وحجة قاطعة ، وهى المائدة على عيسى ، حينما طلب الحواريون ، وهم أوائل التلاميذ لعيسى عليه السلام ، فقد سألوه أن يسأل ربه أن يُنزِّل عليهم مائدة من السماء ، عليها طعام ، فقال لهم عيسى خافوا من الله ، أى اتقوه إن كنتم صادقين .

قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾

وهذا دليل على قلة تفكيرهم وقصر نظرهم فالذى رفع السموات بغير عمد ، وبسط الأرضين ، وشق فيها البحار ، وأخرج منها نباتا مختلفا ألوانه ، قادر على طلبهم .

قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

رفع عيسى عليه السلام يديه إلى السماء وطلب من ربه ماسأله الحواريون .

والمقصود بكلمة ﴿ عيدا ﴾ فى الآية : أنه يريد أن يتخذ من هذا اليوم الذى تنزل فيه المائدة عيدا يعظمه هو ومن بعده من الحواريين ، وقيل : إنه أراد أن يكون هذا اليوم عظة له ولمن بعده ، ودليلاً على قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ وإجابته لنبيه .

﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ بعيسى وبقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإن الله يتوعده بعذاب شديد يوم القيامة .

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لعيسى عليه السلام ، يوم القيامة : أأنت ياعيسى قلت للناس إنك وأمك إلهين ، وناديتها ليعبدكما الناس ؟ فيرد عيسى : ياربّ سبحانك إن كنتُ قلتُ ذلك فأنت رب الكون كله ، تعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، أنت

علام الغيوب . وماقلت لهم إلا ما أمرتنى به من عبادتك وحدك :أن الله ربى وربكم أيضا ، وأنا عبد لله ورسولُه ، وكنتُ أشهد على عملهم حين كنتُ بينهم فقط ، وهم عبادك ، إن شئت عذبتهم ، وذلك عدل منك فيهم ، وإن شئت صفحت عنهم وذلك فضل منك وإحسان .

وهذه الآية : فيها التوبيخ والتقريع للنصارى يوم القيامة ، وتهديد الله لهم على رءوس الأشهاد .

﴿قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾

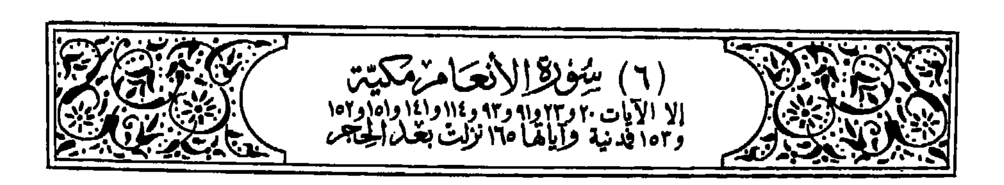
المراد باليوم فى هذه الآية هو يوم القيامة . والمعنى أن صدقهم فى الدنيا ينفعهم يوم القيامة .

يقول الرازى « اعلم أنه لما أخبر الله أن صدق الصادقين فى الدنيا ينفعهم فى القيامة، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب »[١] . وهذا الثواب هو جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . وهذا هو الفوز العظيم الذى لا أعظم منه ولاأحسن ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾[٢] وجل قوله ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾[٣] .

وفى ختام السورة : يصدر العدل الكبير المتعالى قراراً بأن يوم القيامة ينتفع الصادقون بصدقهم ، ولهم فيه رضوان من الله ، وهو أكبر جزاء للصدق ، وسوف تنطفئ ساعتها شعلة الكافرين ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار﴾ المتصرف القادر على جميع ملكه ، وتحت قهره وقدرته ومشيئته . فلا نظير ولاوزير ولامعين ولا والد ولا ولد ولاصاحبة ولارب غيرك يارب . ﴿سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ .

---

(١) تفسير الرازى ١٣٨/١٢ .
(٢) آية ٦١ سورة الصافات .
(٣) آية ٢٦ سورة المطففين .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾

يمدح الله تعالى ذاته الكريمة ، ويحمد لها على خلقه السموات والأرض قرارًا لعباده ، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده فى ليلهم ونهارهم ، أى : أبعْد ذلك يكفرون به ويجعلون له شريكًا وعدلاً ويتخذون له صاحبة وولدا ؟ والعدل هنا هو المثل .

أى : تجعلون له مثلاً وندا وعدلا ؟!! سبحان الله العظيم . سبحانك اللهم وبحمدك أنت متنزه عن أى شىء وعن أى صاحبة وعن أى ولد . تعاليت يارب عن المثل والند والشريك علوا كبيرًا . .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ونحن جميعًا نعلم أن أصل خلقتنا آدم الذى خلق من طين . والأجل الأول فى الآية هو الموت ، أما الأجل الثانى فهو الآخرة . فيجب أن نحذر ما بعد الموت من سؤال ثم مصير إلى الجنة أو النار ، كما لا ينبغى أن نتشكك أو نشكك فى ذلك أو فى شىء من ذلك . ﴿ تمترون ﴾ يعنى تشكون فى أمر الساعة .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى هو الذى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض من سر وجهر ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ [1] .

---

(١) غافر : ١٩ .

ويعلم جميع أعمالكم سواء كانت خيرًا أو شرًا ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره ﴾ (١) .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ ٤

يقول الله تعالى مخبرًا عن المشركين المكذبين المعاندين أنهم كلما أتتهم دلالة على وحدانية الله وصدق رسله الكرام ، فإنهم يعرضون عنها ، فلا ينظرون إليها ، ولا يبالون بها . والإعراض عن الحق : استهزاء ، وتلك صفة من صفات المشركين المكذبين المعاندين ، الذين فضحتهم الآيات ، وكشفت عن نواياهم ومكنون قلوبهم .

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ ٥

هذا تهديد من الله سبحانه وتعالى ، ووعيد شديد منه على تكذيبهم بالحق .

ولابد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، ثم يعذبون بسبب ذلك عذابًا أليمًا .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ ٦

إننا قد أهلكنا أممًا قبلهم بسبب ذنوبهم ، وبسبب سيئاتهم التى اقترفوها واجترحوها ، وجعلنا سيرتهم أحاديث بين الناس ، وأنشأنا جيلاً آخر ، لكى نختبرهم ، فعملوا مثل صنيعهم ، فأهلكناهم كما أهلكنا الأولين ، وهذه عاقبة من يمكن فى الأرض فلا يتبع هدى الله ، ولا يشكر نعمه ، ثم بعد ذلك يفسد فى الأرض ، وجل قوله ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ﴾ (٢) .

﴿ مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ أى من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود . ﴿ مدرارا ﴾ أى شيئًا بعد شىء .

فاحذروا أيها الناس أن تقعوا فى مثل هذا الصنيع الذى هلك أهله بسببه .

وإلا يستبدل بكم قومًا غيركم ﴿ يحبهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ .   (٢) الانعام : ٤٤ .

يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ (١) .

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾

يخبر الله تعالى عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه ، فيقول لو أنزلنا عليك كتابًا يا محمد من السماء ، وعاينوه ولمسوه بأيديهم ، وأصبح عيانًا بيانًا أمامهم ، ما آمنوا ، ولأصروا على مكابرتهم ، وقالوا فى غطرسة وكبر وجهل : إنْ هذا إلا سحر مبين ، فعليهم لعنة الله .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ ﴾

إمعانًا فى مكابرتهم ، وجحودًا وإنكارًا منهم للنبى محمد صلى الله عليه وسلم ـ ، إذ أرادوا أن يكون مع الرسول ملكٌ ، ليكون معه نذيرًا ، وهذا تعجيز منهم لمهمة محمــد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعدم تصديق أنه من عند الله ، مع أنه لو أنزل عليهم ملك فى هذه الحال التى هم عليها ، لهلكوا فى العذاب المهين ، وجل قول الحق ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين ﴾ (٢) .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩ ﴾

إننا لو أردنا أن نرسل إلى الناس رسولاً ملكًا لكان على هيئة رجل ، ليمكنهم مخاطبته ، والانتفاع بالأخذ عنه . ثم إننا لو فعلنا ذلك ، لالتبس عليهم الأمر ، كما هم تختلط عليهم الأمور مع أنفسهم فى قبول رسالة الرجل البشرى ، وهو محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠ ﴾

---

(١) المائدة : ٥٤ . وارجع إلى تفسيرها فى سورة المائدة .　　(٢) الحجر : ٨ .

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يواسى نبيه ، ويخفف عنه من عنت الكافرين المنكرين ، ويسليه فى تكذيب من كذبه من قومه ، ويعده بالنصر له وللمؤمنين به ، وأن النصر للنبى لا محالة ، والدائرة السوء على المكذبين . والعاقبة الحسنى للمتقين .

﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ١١

أى فكروا فى أنفسكم ، وانظروا عاقبة المكذبين . ألم تسبقكم أمم كذبت كما تكذبون ، وتعالت عن الحق وضلت وأضلت ؟ . أين الذين كذبوا نوحًا ؟ أين النمرود ؟ أين عاد ؟ وثمود ؟ وفرعون ؟ والظالمون ؟ .

انظروا أيها المكذبون ما أحلّ الله بالقرون الماضية ، الذين عاندوا رسلهم ، وما آتاهم من العذاب والنكال ، والعقوبة فى الدنيا ، وما ينتظرهم فى الآخرة من عذاب مهين ، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٢

قل يا محمد للناس كافة : ﴿ لمن ما فى السموات والأرض ﴾ ؟ فإن لم يجيبوك ، فقل لهم : إنها لله ، الذى خلقكم من تراب ، ثم صوركم فى أحسن تصوير ، وبث فيكم العقول والأفهام ، ثم كلفكم بمعرفته ، فمنكم من آمن به ، ومنكم من كفر ، وسوف يجمعكم ليوم القيامة لا ريب فيه ، فالذين خسروا أنفسهم بعدم إيمانهم ، ستقتلهم الحسرة على ما فاتهم من واجب الإيمان بالله ، ولن يجدوا لهم أولياء يدفعون أو يدافعون عنهم .

وكتب على نفسه الرحمة أى وعد بها فضلاً منه وكرمًا فلذلك أمهل « وذكْر النفس هنا عبارة عن وجوده وتأكيد وعده »[1] .

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ١٣

---

(١) تفسير القرطبى ٦/ ٣٩٥ .

أى كل دابة فى السموات والأرض ، الجميع عبادك وخلقك ، وإن من شىء إلا يسبح بحمدك وتحت تصرفك وتدبيرك ، لا إله إلا أنت .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

لا أتخذ إلهًا ولا وليا إلا الله سبحانه ، ولا شريك له ، فإنه خالق الأرض والسماء ومنسقهما ومبدعهما . أما قوله تعالى ﴿ وهو يُطْعِم ولا يُطْعَم ﴾ أى وهو الرزاق لغيره ولا يرزقه أحد دون حاجة إليهم .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾

يعنى عذاب يوم القيامة . قال ابن عباس (أخاف) هنا بمعنى أعلم .

﴿ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

أى : من يصرف عنه العذاب ﴿ فقد رحمه ﴾ ، بمعنى قوله تعالى : ﴿ فمن زحزح عن النار وأُدْخِلَ الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ [1] الفوز بدخول الجنة والحصول على جزاء الأعمال الصالحة .

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾

سبحان الله ! هو الفعال لما يريد : يمرضك ويشفيك ، يغنيك ويفقرك ، يمنحك القوة البدنية ويختبرك بسلبك إياها ، كل ذلك ؛ لتعلم أنه لا إله هو وحده لا شريك له . نعم . . الفعال لما يريد ، القابض الباسط ، المانع المعطى ، فلم تعبد أيها الإنسان غيره ؟ ولِمَ تخاف سواه ؟ ! ! وكيف لا تقيم حكمه ؟

إن الله سبحانه وتعالى هو مالك الضر والنفع المتصرفُ فى خلقه حسبما يريد ولا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

وأخرج البخارى فى صحيحه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول (اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدُّ) [1] .

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ١٨

كل الرقاب قد خضعت لله سبحانه ، وعنت له الوجوه ، لأنه هو الحى القيوم الدائم ، وتضاءلت أمام قدرته كل الخلائق ، لأنه هو خالق السموات والأرض ، حكيم فى جميع أفعاله ، خبير بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطى إلا من يستحق ، ولا يمنع إلا عمن لايستحق .

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ١٩

أليس الله الذى خلق الخلق ، فسوى أفهامهم ، وقدر أرزاقهم وآجالهم ، هو المستحق وحده للعبودية والاحتكام إليه ؟ . . بلى . فمن أولى بالشهادة عليهم منه سبحانه ؟ فإن خالفوه وعصوا أمره : فمن أولى بعقابهم ؟ إنه الله ، ولكن عدله اقتضى أن يُنزل عليهم قرآنًا ، أوحى به إلى نبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأنذرهم به : أن من أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ، لأن الله سبحانه وتعالى هو العادل والعليم . وقوله سبحانه ﴿ وأوحى إلىّ هذا القرآن ﴾ هو مقول القول فى الآية لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، أى قل يا محمد إنه قد أوحى إلى هذا القرآن وأيدنى به ربى لأنذركم به ومن بلغ .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ٢٠

---

(١) كتاب الدعوات باب الدعاء بعد الصلاة .

إن الله سبحانه وتعالى يخبر عن أهل الكتاب أنهم يعرفون ويعلمون هذا القرآن جيدًا كمعرفتهم لأبنائهم ، وذلك بما عندهم من رصيد الأخبار الموجودة فى كتبهم ، والأنباء عن الرسل المتقدمة ، والأنبياء التى جاءتهم وجاءت لأمم قبلهم ، لذلك : أخبر أنهم قد خسروا كل الخسارة ، وخسروا أنفسهم بسبب إنكارهم هذا .

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ۝٢١﴾

إن الظالم المفترى بكذبه على الله ليس أحد أفظع منه قبحًا وضلالاً وظلمًا . والله تبارك وتعالى قضى بأن الظالمين لا يفلحون ، مهما ظنوا أنهم انتصروا بامتلاكهم بعض متاع الدنيا ، ومن ذلك البعض : الحكم بغير ما أنزل الله ، وزخرف الدنيا المكتسب من حرام ، وكل كسب حرمه الله فهو فى النار .

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝٢٢﴾

فى يوم القيامة يسأل الحق تبارك وتعالى الذين أشركوا بالله ، فعبدوا الأصنام ، أو اعتقدوا أن فى يد البشرية أن تتدخل فيما يضر وينفع بغير مشيئة الله تبارك وتعالى - وذلك شرك - سوف يُسأل هؤلاء المشركون عن الأصنام والأنداد الذين أشركوهم فى الحاكمية لله سبحانه وتعالى ونحّوا الله جانبًا فى كل أمور حياتهم، وفى كل أمور دنياهم .

والمقصود من هذا الكلام هو التقريع والتبكيت لا السؤال .

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝٢٣﴾

توبيخ وتقريع لهم كذلك ، لأنهم سوف يتنصلون من الإجابة رغم كذبهم ، ورغم فعلهم الحقير ، وشركهم بالله سبحانه ، واتخاذهم الحاكمية لغير الله فى الدنيا ، ولتخليهم عن ربوبية الله وحده . لكن هذا اليوم هو يوم تزيغ فيه الأبصار ، ولا ينفع الشركاء شركاؤهُم ، فهم كاذبون فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٢٤﴾

إن فى ذلك لعبرة لمن يتوهم أنه يستطيع أن يدلس على الله ، ويفترى عليه جحودًا وظلمًا .

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا
كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ
الْأَوَّلِينَ ﴾ ٢٥

وإذا جاءوك يا محمد لا يستمعون إليك أملاً فى التفقه ، ولكن ليجادلوك ، ويماروا فى الحق ، ليدفعوا عن أنفسهم أنهم مجرمون آثمون لكفرهم بك وبما أنزل عليك من عند الله . وقد جعلنا على قلوبهم أكنّة - أى : أغطية - من ظلمة كثيفة ، وبها لا يستطيعون أن يفقهوا ما يُلقى إليهم ، ففى آذانهم وقر ، أى صم عن السماع النافع .

وبالرغم من ذلك جاءوا يجادلونك يا محمد ، أى يحاجونك ويناظرونك فى الحق بالباطل ، ويقولون : إن هذا القرآن من أساطير الأولين المنقولة عنهم .

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ ٢٦

إنهم يجمعون بين الفعلين القبيحين ، فهم يردون الناس عن محمد - صلى الله عليه وسلم - ويبتعدون بأنفسهم عنه ، وعن اتباع الحق ، وتصديق الرسول ، والانقياد للقرآن ، وما يهلكون بهذا الصنيع إلا أنفسهم ، ولا يعود وباله إلا عليهم وهم لا يشعرون .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ٢٧

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من أهوال بأعينهم . إنهم لا تلين قلوبهم ولا تصحو ضمائرهم ، إلا عندما يرون العذاب . إنهم لما شاهدوا النار ، ووجدوا أنهم مواقعوها ، ورأوْا بأعينهم تلك الأغلال والسلاسل والأهوال العظام ، تمنوا ساعتها أن يُردوا إلى الدار الدنيا ، ليعملوا العمل الصالح ، ويكونوا من المؤمنين .

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ٢٨

إنهم ماطلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة فى الإيمان ، بل خوفًا من العذاب الذى

عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولو ردّوا لعادوا لما كانوا عليه من كفر وفسوق . وفى هذا دليل من الله سبحانه وتعالى على مدى فجرهم ، وعنادهم له ، وخروجهم عن طوعه وأمره ، ومروقهم عن الحق .

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ٢٩

ظلمة كفرهم قتلت جوهر الإبصار عندهم ، فصاروا ينظرون ولكن لا يبصرون ، وقلوبهم قد طبع عليها فى الوقت نفسه ، لا يستطيعون أن يفقهوا بها ، ولا أن يدخل الإيمان فيها . إنهم لا يظنونها إلا حياة واحدة ، فقالوا ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ ٣٠

إنهم لو وُقِفوا بين يدى الله وسئلوا : أليس هذا الذى تشهدونه وترونه بحق ؟ لقالوا : بلى إنه حق يا ربنا . فلما شهدوا على أنفسهم ، وتناقض قولهم وفعلهم فى الدنيا ، قال لهم سبحانه وتعالى ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ أى بسبب كفركم فى الدنيا .

« وفى هذا تقرير وتوبيخ »[1] .

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ ٣١

لما تعالوْا على أمره فلم يطيعوه ، أخذتهم الحياة الدنيا بزخرفها ومتاعها ، فاستغرقتهم فتنتها ، فعبدوا ذهبها وزخرفها ، وأنفقوا ليلهم ونهارهم فى جمعها .

ولما كانت الساعة تأتى بغتة ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾[2] .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٦/ ٤١١ .

(٢) المؤمنون : ١٠١ .

فإن كل إنسان ساعتها يندم على ما فرط فى جنب الله ، وما قد فاته من فعل الصالحات . . !!

حينئذ ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * إن كانت إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ [1] وصاروا يحملون أوزارهم على ظهورهم ، وهى صورة قبيحة لمنظرهم أمام الله يوم القيامة . وكأن الكافر يوم القيامة دابة تحمل عليه أوزاره التى فعلها فى الدنيا .

وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

أى إنها غالبها كذلك . والذين اتقوا كان لهم تدبير وحكمة ، خرجوا بهما من الدنيا سعداء . ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يأهل اللهو والجهل والغرور ؟ ياليتكم تعقلون . !!

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ
أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم فى تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه ، لا تحزن يا محمد فإنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم ، كما قال أبو جهل للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنا لا نكذبك ولكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ .

إذ يلوح الشيطان لهم بالدنيا فيغرقهم فى ظلماتها فيجحدون بآيات الله ، ويكذبون رسله ، لعدم قدرتهم على استيعاب ما حمل الرسول من حق ، ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وحرصًا منهم ـ كذلك على دنياهم أن تُسلب منهم بنبوتك . ورسول الله لايطلب دنيا ، ولكن الله اختاره واجتباه ليكون نورًا يهدى إلى صراط

---

(١) يس : ٥٢ ، ٥٣ .

مستقيم، لكنهم فى الآخرة سنذيقهم عذابًا مهينًا ، فهم قد كذبوا رسلاً قبلك يا محمد ، وهؤلاء الرسل قد صبروا على ما كُذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله .

يقول الإمام الرازى رضى الله عنه : « اعلم أنه تعالى أزال الحزن عن قلب رسوله . . . بأن بيّن أن تكذيبه يجرى مجرى تكذيب الله تعالى . . . ثم بين أن سائر الأمم عاملوا أنبياءهم بمثل هذه المعاملة ، وأن أولئك الأنبياء صبروا على تكذيبهم وإيذائهم حتى أتاهم النصر والفتح والظفر ، فأنت أولى بالتزام هذه الطريقة ، لأنك مبعوث إلى جميع العاملين . فاصبر كما صبروا ، تظفر كما ظفروا . »[1] .

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾

« . . . تلك سنتنا يا محمد ، فإن كان قد كبر عليك إعراضهم ، وشق عليك تكذيبهم، وكنت ترغب فى إتيانهم بآية . . إذن ، فإن استطعتَ فابتغ لك نفقًا فى الأرض، أو سلمًا فى السماء فأتهم بآية . إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية ، إذْ ليس الذى ينقصهم هو الآية التى تدلهم على الحق فيما تقول . . ! ولو شاء الله لجمعهم على الهدى[2] » .

۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

إنما يستجيب لك يا محمد الذين قدروا الله ، ووعوا أمره ، فتفتحت لذكره قلوبهم قبل أسماعهم . أولئك هم الأحياء ، أما الموتى فيبعثهم الله على صورتهم القبيحة المحرومة من رحمة الله ، وهؤلاء هم الذين ماتوا على الكفر أعاذنا الله منهم .

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

---

(١) انظر تفسير الرازى ١٢/٢٠٦ .

(٢) انظر ظلال القرآن سيد قطب جـ ٢/١٠٧٨ طبع دار الشروق .

إنه سبحانه وتعالى قادر على إنزال ما يطلبون ، ولكن حكمته تقتضى تأخير ذلك ، لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ، كما فهمنا من الآية السابقة ، ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة ، ولكنها رحمة منه أن يمهل ولكنه لا يهمل .

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

« يقول مجاهد ﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ أى : أصناف مصنّفة تعرف بأسمائها ، وقال قتادة : الطير أمة ، والإنس أمة ، والجن أمة . وقال السدى : أى خلق أمثالكم »[1] .

إن الله سبحانه وتعالى رغم كثرة هذه المخلوقات : لا ينسى واحدًا منها سبحانه هو القائل ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين** ﴾[2] .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

أى مثلهم فى جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم ، كمثل أصم لا يسمع ، أبكم لا يتكلم ، وهو مع هذا فى ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدى مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه ؟! إن الله تعالى هو المتصرف فى خلقه بما يشاء . من شاء الله أضله بقديم علمه وعدله ، والذين نور قلوبهم إنما كان ذلك عطاءً منه سبحانه لهم، جزاء صدقهم، فأنعم عليهم ، وجعلهم على صراط مستقيم ، ولهم عنده مغفرة ورضوان . إنهم أتباع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأتباع كتاب الله ، وذلك هو الصراط المستقيم .

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾

قل يا محمد لهؤلاء الذى يجادلون : أترجعون إلى غير الله إن أتاكم عذاب الله فى

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢/ ١٣١ .

(٢) هود : ٦ .

الدنيا، أو أتاكم العذاب يوم القيامة ؛ لكى يدفع عنكم هذا العذاب وهذا الضر الذى يقع بكم ؟!!

يقول الحق سبحانه إجابةً على هذا السؤال الاستنكارى :

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ ٤١

أى إنكم فى وقت الضرورة سوف لا تدعون أحدًا إلا الله ، وستنسون ساعتها أصنامكم وشركاءكم وآلهتكم التى كنتم تدعونها من دون الله .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ٤٢

وقد أخذهم الله بعذاب شديد ، فأذاقهم بأساء الفقر والمرض والحرمان . الحرمان من فهم حقيقة الإنسان ، لكنهم عندما يصرون على إنكار الله ولا يتضرعون إلى الله ليكشف عنهم ظلمة الجحود والكفر ، فإن الله يأخذهم بهذه البأساء والضراء .

﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ ٤٣

وفى ذلك : نفى التضرع منهم ، والتقدير : فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا .

وذكر كلمة (لولا) يفيد : أنه ما كان لهم عذر فى ترك التضرع إلا عنادهم وقسوتهم، وإعجابهم بأعمالهم التى زينها الشيطان لهم والله أعلم [1] .

« والقلب الذى لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة، ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس ، وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه ، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة التى تنبه القلوب الحية للتلقى والاستجابة »[2] .

إن الشدة ابتلاء من الله للعبد .

فالإنسان المؤمن يتلقى هذه الشدائد بإيمان عميق ، بعيد عن سطحية التدين المنقوص ، الذى يجعل صاحبه يهرع ويجزع ويتألم . هذا إن لم ييأس ويقنط من رحمة الله، والعياذ بالله .

---

(١) تفسير الرازى ١٢/ ٢٢٥ .
(٢) ظلال القرآن جـ ٢/ ١٠٨٩ .

فمفهوم الشدة والابتلاء فى القرآن الكريم هو مفهوم إيمانى عميق ، لا يفهمه ولايتلقاه إلا من فى قلبه مضغة حية من الإيمان ، تستجيب لرغبات الله وتعلم أن كل شىء من عنده .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

هؤلاء القوم قد أعرضوا عن الله ، وجعلوه وراءهم ظهريًا ، فكان هذا اللون من العذاب ، وهو فَتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، استدراجًا لهم ، وإملاءً منه سبحانه ، حتى يفرحوا بهذا الرزق ، وهذا النعيم الذى لا ينتهى ، سواء أكانت أموالاً أم أولادًا أم أرزاقًا أخرى وقد فرحوا . . ثم أخذنا هذه الأشياء بغتة على غفلة ، فإذا هم مبلسون أى يائسون من كل خير .

وكان الصحابة - رضوان الله عليهم - يخافون من إقبال الدنيا عليهم ، لأنها تلهى وتغر، خشية أن تؤخذ منهم بغتة ، فيقعوا على ما وقعوا فيه نادمين ، وخشية أن تلهيهم عن ذكر الله ، لأن الإنسان عادة يستغنى عن القوة القادرة إذا رأى نفسه فى نعيم محيط به . ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى** ﴾ ويقول الحق بعدها مباشرة ﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ وهذا تذكير بأن كل شىء لا محالة زائل ، وأن النهاية فى الرجوع إلى الله بالأعمال الصالحة .

فيجب أن يشكر الإنسان دائمًا ربه ، وأن يقتنع بكل ما يأتيه من رزق ، ولا يلهث وراء الدنيا لهثًا ، فإن الأرزاق تأتى بمقادير ، فلنطلب الدنيا بعزة وإيمان لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الإمام القرطبى : « الدابر : الآخر ، يقال دبر القوم يدبرهم دبرًا إذا كان آخرهم فى المجىء . . . والمعنى هنا قطع خَلَفهم من نسلهم وغيرهم فلم تبق لهم باقية . قال قطرب : يعنى أنهم استئصلوا وأهلكوا [1] » .

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٦/ ٤٢٧ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾

إن الإيمان نعمة ، واكتساب الأفهام نعمة ، وحب الله نعمة ، والتفقه فى الدين نعمة ، وارتجاف القلب من ذكر الله نعمة ، والقلب الحى النابض المتلهف دائمًا على ذكر الله نعمة . ماذا تفعلون إن سلب الله منكم هذه النعم ، وختم على قلوبكم ؟ هل ستجدون غير الله يعوضكم من هذه النعم التى فيكم : نعمة الحياة ، ونعمة الوجود ، فبغير الإبصار والسمع والقلب هل يحيا الإنسان ؟!! .

إنه بغير تلك النعم يصير فى الأموات ، الذين ليس لهم فى عالم الآخرة كذلك إلا الهلاك . فلينظر أصحاب العقول والقلوب كيف نبين الآيات ، لأن الله خلق الخلق وخلق فيه ما يدل عليه من آيات خلقه وإبداعه ، وكلها شاهدة على أنه الخالق المبدع المصور . فكيف تعبدون من دونه ، وكل ما دونه باطل ؟ فانصفوا أنفسكم ، ولاتعرضوا عن الحق ، وتصدوا الناس عن اتباعه !!

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾

ماذا سيكون حالكم عندما يبغتكم الموت على حين غفلة منكم ، فتنقلون من زخرفكم فى الدنيا وإثمكم ، إلى عذاب أليم ، وهل نهلك إلا القوم الظالمين ؟!!

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

إن أنبياءنا يبشرون عباد الله المؤمنين بالخيرات ، وينذرون الكافرين بالنقمات والعقوبات . إنهم يأتون بالبشرى بالجنة وبرضوان من الله أكبر لمن قالوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، بقلب تعرف على ربه فأحبه وأطاعه ، وامتثل لأوامره ، ولم يشرك معه أحدًا فى حبه لذاته سبحانه ، ولكنه خصه بتوحيد القلب له ، فهو فى ضميره الفعالُ لما يريد، المحيى المميت ، هذا العبد مع الذين أنعم الله عليهم ، فلا يخاف ولا

يحزن ، وهو آمن يوم الفزع الأكبر . إنه فى عباد الله المخلصين ، الذين عاشوا فى الدنيا ذاكرين لله دائماً ، خاشعين له ، يخافونه ويخافون سوء الحساب . هؤلاء القوم لا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

أولئك الذين فى غطرسة وجهل كذبوا بآيات الله : لهم فى الآخرة غضب من الله ، يدخلون به النار فى انكسار وذلة ، فقد هتكوا فى الدنيا ستر الطاعة بانتهاك حرمات الله ، فينالهم العذاب بما كانوا يفسقون .

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

قل يا محمد للكافرين : أنا عبد الله ورسوله ، لا ملك لى فى الأرض ، ولا خزائن لى فيها ، ولا أعلم الغيب ، إنما ذاك من علم الله عز وجل ، وأنا كذلك لست بملك ، أى إننى : بشر ، رسول ، عبد الله ، يُوحى إلىّ من ربى ، بأمره أبلغكم إياه . فيه نفعكم فى الدنيا والآخرة ، والذى أبلغكم إياه إنما هو الحق من ربكم ، وليس لى فيه مصلحة ، ولا أستطيع أن أحذف أو أضيف . إن هو إلا وحى يوحى إلىّ ، أنزله إلىّ ربى ، وأنا أمين عليه وعلى تبليغه ، قل هل يستوى الأعمى مع البصير ، فى قدراته الحركية ؟ .

ليس الذين يفرقون بين الحق والباطل فيهجرون الباطل ، ويتمسكون بالحق ، يتساوون مع الذين لا يبصرون ، ولا يفقهون ، ولا يفرقون بين الظلمات والنور ، والحق والباطل . أفلا تتفكرون .

وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

فأنذر يا محمد بهذا القرآن الذين هم من خشية ربهم مشفقون .

أنذرهم يا محمد لعلهم يعملون بهذا القرآن فى هذه الدار عملاً ينجيهم به الله سبحانه وتعالى من خزى الآخرة .

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾

يا محمد إن الذين جاءوك يقولون لا إله إلا الله محمد عبده ورسوله ، هؤلاء سلموا بما جئت به وهم خلصاؤك ، فقراء وأغنياء . لا تُؤْثِر عليهم كبار القوم ، فأكْرَمُ القوم عند الله أتقاهم ، والله يرفع بالإيمان لا بجاه الدنيا ، والذين أعرضوا عنك يا محمد من قومك ما عليك من حسابهم ، إنْ حسابهم إلا على الله .

والله يزن الناس بموازين الإيمان . وتقوى الله وخشيته ، وحاش لله يا محمد أن تكون نصيرًا للظالمين ، إنْ فعلت ذلك . فلا تذهب نفسك على أهل الدنيا حسرات ، لعل الله يرشدهم للحق ، وتطيب نفسك ، لكن الله لن يجعلك أبدًا لهم أو معهم ، ولقد سبقت لك منا الحسنى والعصمة والفوز العظيم .

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

يا محمد إذا قال لك الكبراء فى الدنيا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم وأعطاهم نعمًا كثيرة من بيننا وكانوا خدمًا لنا وعبيدًا ، فهذا الذى يقولون يدل على جهلهم ، إذْ إن الله يمُنُّ على من يشاء من عباده ، ولو عقلوا ما قالوا ذلك ، كما قال قوم نوح لنوح : ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾ [1] وكقوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقامًا وأحسن نديًّا ﴾ [2] والجواب فى قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثًا ورئيا ﴾ [3] .

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾

(1) هود : 27 . (2) مريم : 73 . (3) مريم : 74 .

يا محمد إن الذين صدَّقوا بك ، ولم يجادلوك فى الحق لما جاءهم ، بل آمنوا بآياتنا : هؤلاء خلصاء عقيدة الإسلام يذودون عنها بالروح والمال والولد والزوج ، يعيشون فى شوق دائم إلى ما أنزل الله إليك ، قل لهم يا محمد : مادمتم قد ارتديتم أردية لا إله إلا الله محمد عبده ورسوله ، فاعلموا أنكم إذا جهلتم أو أذنبتم أو وقعتم فى سهو أو نسيان، فاعلموا أن الله قد خصكم برحمة من عنده إذْ فتح لكم باب التوبة ، وهو الغفور الرحيم، يغفر لكم الذنوب ، ويقبل منكم التوبة ، ما دمتم قد عزمتم على ألا تعودوا ، وأصلحتم العمل. ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ فأكرمهم يا محمد ، وردّ عليهم السلام ، وبشرهم بهذه البشريات الكبيرة العظيمة ، وبهذه الرحمة التى أوجبها رب العزة على نفسه ، كرمًا منه وإحسانًا وامتنانًا .

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

يبين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما أوحى إليه من ربه لأمته ما غمض عليها فى معرفة الطريق إلى الله ، وآياتُ الله فى كونه شاهدة على قدرته ورحمته وقهره ، فمن شرح الله صدره للإسلام وللإيمان فتعرف على صراط الله فاتبعه ، فقد نجا وأصبح من المنعم عليهم . وأما من ضلّ عن الحق ولم يستبن ولم يخلص إلى طريق الله وإلى الصراط المستقيم ، فقد ضلَّ ضلالاً بعيدًا .

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

قل لهم يا محمد : إن الله قد عصمك بنهيه عن اتباع طريق الشيطان . والشيطان لا ولن يستطيع أن ينفذ إلى مجالسته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولا يجرؤ أن يقترب منه .

وقل لهم يا محمد كذلك : إنى على نور وبصيرة من الله ، لا أتبع طريقكم ولاأهواءكم ، ولو اتبعت ذلك لخسرت الدنيا والآخرة ، وما أنا مأمور بذلك ، وحاش لله أن أفعل ذلك .

قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو خير من يفصل فى القضايا ، وخير الفاصلين فى الحكم بين عباده ، فقل لهم يا محمد : إننى على بينةٍ من ربى ، وما عندى من العذاب الذى تستعجلونه إنما يرجع إلى الله ، إن شاء عجله لكم فى الدنيا ، وإن شاء أجله وأنظركم ، لما له فى ذلك من قدرة وحكمة لا يعلمها إلا هو .

قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

دلت هذه الآية على أنه لو كان إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم .

۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده يعلم ما هو ظاهر وما هو غائب مستور ، وما من ورقة إلا وهى معلومة مكانًا وزمانًا وأجلاً ، والجنَّة يعلم مستقرها ، ومتى تُستنبت ، أو حتى يؤكل ثمرها ، وكل شىء عنده بمقدار ، وكل مفاتيح الغيب هى له ، سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ويروى أن مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله (١): ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير** ﴾ (٢).

وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

خلق الله الإنسان بفطرة بشرية ، من خصائص احتياجاتها أن تنام بالليل وتبعث

---

(١) ابن كثير : ٢ / ١٣٧ . (٢) لقمان / ٣٤ .

بالنهار ، بحركة مدركة واعية فى تحصيل ما كتب الله لها من رزق تحصله بجهد رزقها الله به ، وقضاه لها بفهم وإدراك .

والإنسان مسئول عما يكتسب فى نهاره وليله ، وقد بين الله للإنسان مسار الحلال فى ليله ونهاره ، والفطن من يسأل نفسه عند النوم عما حصله من الخير أو من الشر ، فإن كان خيرًا شكر الله ، وإن كان شرًا تاب واستغفر .

والإنسان ينام فى حراسة الملك المكلف بنومه وبعثه ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يبعث العبد من نومه لتحصيل رزقه فى النهار . ومن فضل الله على المسلمين أن يختموا يومهم بصلاة قبل أن يناموا ، ثم يفتتحوا يومهم بصلاة الصبح حين يبعثهم من نومهم . وهاتان الصلاتان هما صلاة العشاء وصلاة الفجر . فالمؤمن ينام على صلة بربه ، ويبعث من نومه على صلة بربه .

وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

وهناك ملائكة حفظة يحصون عمله نهارًا ، ويحفظونه فى نومه ، والأعمال عنده بالنيات ، فليحذر المؤمن غضبه ، وليحرص على مرضاته فى ظلمات الليل ووضوح النهار ، حتى إذا رجعنا إليه يكون لنا شرف الطاعة والنجاة من المعصية . فالله هو القاهر بقوته لكل الخلق ، فيجب علينا أن نخافه ـ سبحانه وتعالى ـ عن حب وعن علم منا أنه القادر ذو البطش الشديد على من عصاه ، والرءوف الرحيم لمن خاف قهره وغضبه وسلطانه .

وجل قول الحق ﴿ وإن عليكم لحافظين * كرامًا كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾ (١) وجل قوله ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيد ﴾(٢) .

أما قوله تعالى ﴿ وهم لا يفرطون ﴾ أى إن هؤلاء الملائكة الحفظة الكرام لا يفرطون فى

---

(١) الانفطار : ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
(٢) ق : ١٧ـ ١٨ .

حفظ روح المتوفى بل يحمونها ويحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أن يشاء الله .

﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

يردّ الله سبحانه بقدرته الخلائق كلهم إليه يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعدله ، وجل قول الحق ﴿ قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ (١) .

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى يمتن على عباده فى أنه ينجى المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر عندما تقع بهم الشدائد . والعبد كلما استغرقته مصائب الدنيا وابتلاءاتها من ضيق ذات يد ، أو أزمة مرض ، أو مصيبة فى ذات نفسه أو ولده ، هل يجد غير الله يستنجد به ؟ وهو فى مصيبته كالغريق ينظر شماله ويمينه وفوقه وتحته فلا يجد غير الله فينصرف إليه حتى عن نفسه ، فينادى ربه بكل جارحة فيه : ربى ليس لى سواك ، ويجد ربه غفورًا رحيمًا كريمًا . لهذا يقول الحق :

﴿ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

فأنتم يا عبادى تعلمون أننى أنا الله العزيز الحكيم الفعال القادر ، بفضلى أنجيكم من أى شدائد تحيط بكم ، ولكنكم ترتدون على أعقابكم عند زوال الشدة ، فتكفرون بنعمى ، وتخافون غيرى ، فتشركون بى ، وذلك لجهلكم أننى الفعّال الضار النافع . ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى ﴾ (٢) فلو أنصفتم أنفسكم ما خشيتم سواى وما شكرتم غيرى ، وما أشركتم بى أحدًا .

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

---

(١) الواقعة : ٤٩ ـ ٥٠ .   (٢) العلق : ٦ ، ٧ .

قل يا محمد إن الله الذى نجاكم من ظلمات البر والبحر ، ثم عصيتم أمره ، هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا لا تدرون من أى مكان يأتى ، من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم ، أو يجعلكم شيعًا ـ أى جماعات متفرقة مختلفة متقاتلة متناحرة ـ فيهلك بعضكم بعضا ، وتصبحون فرقًا متحاسدة ومتفرقة ومتباغضة ، ويذيق كل فريق بأس الآخر ، بكراهية حاقدة .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « سألت ربى ثلاثا : فأعطانى ثنتين ومنعنى واحدة ، سألت ربى أن لا يهلك أمتى بالسفه : فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتى بالغرق : فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها » [1] .

والحق سبحانه وتعالى يصرف آياته فى الأرض وفى السماء وفى أنفسكم ، لعلكم تفقهون حقيقة وجودكم ، وضعفكم ، وعظمة الخالق ، الذى خلق فسوّى ، وجعل لكم عقلاً يدرك ، ونفسًا تفقه ، لعلكم تشكرون نعمته بما فقهتم .

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ
غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾
وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

إن قريشًا قد كذبت بهذا الكتاب الذى هو هدى ورحمة للمؤمنين ، فقل لهم يا محمد لست موكلاً بكم ، إنما علىّ البلاغ ، وما أنا إلا نذير ، ولن أستطيع أن أحصى عليكم أعمالكم ، فمن أطاع فقد أطاع الله ، ومن عصى فقد عصى الله . ولهذا قال ﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ أى لكل شىء نهاية ، وعندها سوف تعلمون أن الله حق ، والآخرة حق ، وتؤجرون فيها على ما قدمتم فى الدنيا . ولكن عند ذلك لا يستطيع عبد أن يغير ما سبق . فأهل التقوى والطاعة فى عفو الله ، وأهل المعصية فى غضب الله وشقاء مقيم .

---

(١) رواه مسلم كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة . . الخ .

كل ذلك سيعلمه المكذبون ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[1].

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا ﴾ ويكذبون بها فلا تقعد معهم . وهذا الخطاب موجّه لكل الأمة المسلمة ، لأن حضرة المخاطب وهو رسولها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، وهو وليها ، بعث ليبلغ هذا الذكر وهذا القرآن إلى أمته ، على أكمل وجه وبكل أمانة . وعلى الأمة أفرادًا وجماعات أن يقوموا على كتاب الله وسنة نبيه . دونما تغيير أو تشويه أو تبديل . ويجب على المسلم أن يفارق مجلس هؤلاء الظالمين إذا أصروا على إثمهم ، ولم يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، باتباع الإسلام ، فلا يجوز استمرار مودتهم ، والجلوس إليهم . إنهم رجس وظلم عظيم .

﴿ وقد نَزَّلَ عليكم فى الكتاب أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾[2].

وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يا محمد : اترك الذين نظروا إلى دين الله بما لا يليق ، فاتخذوا هذا الدين هزوا ، وذلك من جهلهم وغرورهم بالدنيا ، واترك هؤلاء حتى يأتوك صاغرين أو يهلكوا بكفرهم ، وقل إن الله يأخذ النفس فيحاسبها ويعاقبها ويسألها ، فإما إلى الجنة بما عقلت وتدبرت أمرها فأطاعت الله ، وإما أعرضت عن طريق الله فهلكت ولن تجد من دون الله منقذًا ولا شفيعًا . ولا يستر العبدَ غير الله فاحذروا أن تفضحوا بمعاصيكم ، وتعيشوا بلا مُعلِّم ينقذكم فى الدنيا من ذلك الضلال الذى استغرقكم وبلا شفيع يوم القيامة لكم حين تُبسل ـ أى تفضح ـ ويعلن عن جرائمها ، وأولئك ليس لهم إلا

---

(١) الشعراء : ٨٨ ـ ٨٩ .

(٢) النساء : ١٤٠ .

شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . فأعرض عنهم يا محمد ، وأمهلهم قليلاً ، فإنهم لا محالةَ صائرون إليّ .

أما قوله ﴿ وإن تعدل ﴾ يقول ابن كثير (١) : « أى ولو بذَلَتْ كلَّ مبذول ما قُبل منها» . وذلك يوم القيامة .

﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبل من أحدهم ملءُ الأرض ذهبا ولو افتدى به ﴾ . (٢) اللهم إنا نسألك الجنةَ وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل . اللهم إنا نسألك ـ يارب ـ رضاك والجنة ، ونعوذ بك من سخطك والنار .

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾

إن الذين لم يستمعوا لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد استمعوا لشياطين الإنس والجن ، فارتدوا على أعقابهم وانكفئوا على وجوهم ، كأنهم لا يسمعون ولا يبصرون ، وقد رانت على قلوبهم ظلمة الجهل ، وغشاوة الضلال ، فدعوا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر ، ولشدة كفرهم فى غير حياء . ولكن الذين اتبعوا محمدًا فأسلموا لله وجوههم وقلوبهم قالوا لهم : لا ، كيف نرتد على أعقابنا إلى الضلالة وقد هدانا الله ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور . فكيف نستمع لكم وقد أضلكم الشيطان ، واستهوتكم شياطينه ، فاخسئوا إنكم ومن اتبعكم الهالكون . إن هدى الله وإرشاد نبيه ذلك هو الهدى ، وأمرنا فأطعنا ، وأسلمنا وجوهنا لله ربّ العالمين .

وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

أى وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه فى جميع الأحوال . وأولئك الذين أسلموا وجوههم استطاعوا أن يقيموا الصلاة إقامة سليمة ، منصرفين فيها عن كل ما حولهم من مشاغل الدنيا ، فتصوروا أنهم بين يديه فعاشوها صلاة صلةٍ ومحبةٍ فى الله .

---

(١) ابن كثير : ٢ / ١٤٤ .　(٢) آل عمران : ٩١ .

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ
قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ
ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

إنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق السموات والأرض بالحق ، أى بالعدل ، فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما ، وقد أقام ملكه الظاهر والباطن ، فأبرز منه ما أبرز ، وستر منه ما ستر ليدل على أنه الواحد القهار البر الرحمن ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير . يقول للشىء كن فيكون ، ويوم النشور ينادى كل الكون لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . وله وحده سر الكون وبها يقوم وبها ينتهى عليه . بحكمته أقام الوجود ، وهو صاحب البعث والنشور ، وهو الحكيم الخبير .

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ
لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ
يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ
هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى
وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ .

خاصم إبراهيم أباه فى الله ولله ، وتعجب الأبُ من قولٍ لم يسمع مثله فى قومه وفى حياته ، فقد كانوا عبّاد أصنام ، وعباد بشر ، وادّعى حاكمهم النمرود أنه إله ، وجعل اللهُ سبحانه إبراهيم بعينه ، ولفت عقله وبصره إلى آياته فى ملكوت السموات والأرض ، ليكون توحيده بيقين وعلى يقين . فلما جاء الليل رأى إبراهيم نجماً فقال هذا ربى ، فلما أفل ـ أى غاب ـ قال : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . أى إننى لا أحب ربًّا يغيب ، فإن الرب

دائم لا يختفي ولا يغيب . ﴿ فلما رأى القمر بازغًا ﴾ ـ أى ظاهرًا فى السماء ـ ﴿ قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ﴾ .

وكأنّ سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول لربه : إنى بحاجة إليك يا من بعثت بتلك الآيات فى سمائك . إنى أحسّ أن خلْف ذلك الكون إلها أكبر . فلما رأى الشمس بازغة قال لعلّ ذلك هو أكبر ممن سبقه من الكوكب والقمر ، فلما أفلت الشمس قال ليس كل ما رأيت هو مطلبى . إنى أبحث عن الخالق . وقال لقومه ﴿ إنى برىء مما تشركون﴾ . إنى وجهت وجهى للذى لا أراه ولكنى أحسّ أنه أكبر من كل شىء . رأيت أنه فاطر السموات والأرض حنيفًا ـ أى صاحب شرف كبير ـ ليس له من يماثله ، لابد أن يكون كذلك . وهذا ما أتصوره ، ويحكى لى قلبى عنه : أنه خالق الكون كله بسمائه وأرضه ، إننى أحسُّه ينادينى . إنه هو مصدر الطهر والعقل والقدرة . إننى موجهٌ قلبى وعقلى وكلى إليه . وما أنا من المشركين ، ولن أشرك به شيئًا .

يقول ابن كثير : والحق أن إبراهيم عليه السلام كان فى هذا المقام مناظرًا لقومه ، مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام .

وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾
وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ
بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ
حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ
عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

أخذ قوم إبراهيم فى جداله بحجج باطلة ، فقال لهم فى ثبات ويقين : ﴿ أتحاجونى فى الله وقد هدانِ ﴾ . أى تجادلوننى فى أمر الله وأنه لا إله إلا هو ، وقد بصرنى بالحق .

إنه واحد قهار رازق : هدانى إليه ، وعرفنى عليه . فإن شئتم النجاة فاتركوا الأوثان والأصنام ، واشهدوا له بربوبيته ، وخافوه إن كنتم مؤمنين .

وكيف أخاف ما أشركتم ؟ إنه أمر عجيب !!! أن تتصوروا أننى أخاف أصنامكم من الحجارة والطين ، وأنتم لا تخافون ربّ السموات والأرض ، والظاهر والباطن . وعجائب قدرته المستورة والمتطورة شاهدة على وجوده . ﴿ **فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾ ؟!! الذين نظروا فى آيات الخالق فاعتبروا بها وآمنوا به ، أم الذين استعبدهم الشيطان ، فعبدوا حجارة وخشبًا ؟!! إن أهل الأمان والسكينة والفلاح عند لقاء الله : هم الذين آمنوا بالله وبرسوله ، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم ـ والظلم هو الشرك ـ .

﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[1] ـ فهداهم الله إليه ، فصدقوا رسوله ، وعملوا بما أنزل فى كتبه ، فكانوا مهتدين ، فرزقوا الأمن والفلاح ، أما آياتنا وحجتنا التى آتيناها إبراهيم فهى انتصاره على النمرود ، ونجاته من النار ، وتعمير البيت الحرام بأمر الله . إن ربك حكيم عليم .

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾
وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ
ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ
هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ
وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ
ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

يمن الله على إبراهيم ـ عليه السلام ـ بأنه وهب له إسحاق بعد أن طعن فى السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد ، ومن بعد إسحاق يعقوب . أى أن هذا الولد سيكبر

---

(١) لقمان : ١٣ .

ويرزق بيعقوب . فيعقوب حفيد لإبراهيم . ومن قبل إبراهيم هدينا نوحا ووهبنا له ذرية صالحة أيضًا ، ومن هذه الذرية الصالحة داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، وكلهم محسنون هم وبقية الذرية الصالحة زكريا ويحيي وعيسى وإلياس وإسماعيل واليسع ويونس ولوط ، نسل طاهر من نسل طاهر ، اخترناهم وفضلناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم .

﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ يا محمد ، وقل للمعاندين المكذبين إني لاأسألكم على إبلاغي لكم هذا القرآن أجرًا . إن الأجر على الله ولا أريد منكم شيئًا . وما هذا القرآن إلا ذكرى لمن يريد التذكر ، وهدى لمن يريد الهداية ، والرجوع إلى النور بعد الظلمة ، والرشاد بعد الغى ، والإيمان بعد الكفر .

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

أي وما عظموا الله حق تعظيمه ، إذ كذبوا رسله إليهم . هكذا يخبر الله سبحانه وتعالى عن اليهود وعن كل من لم يتقبل دعوة الله بصدق . وكأن الله سبحانه يقرر فى هذه الآية أن من كذّب رسوله فقد كذبه سبحانه وتعالى . ولو قدروا الله لأكرموا رسوله . فيكفيهم نقيصة وعارًا أنهم لم يفقهوا كيف يستقبلون من جاءهم بالحق مبشرًا ونذيرًا ، ونبيًّا من الصالحين ، وسراجًا منيرًا ، فحملوا بذلك عارًا وإثمًا مبينًا .

ويا محمد قل لهم ولجميع اليهود المنكرين ، الذين يجعلون كتاب موسى قراطيس أى يجعلون جملتها قراطيس أى قطعا يكتبونها من الكتاب الأصلى الذى بأيديهم ، ويحرفون منها ما يحرفون ، ويخفون كثيرًا مما جاء فيها حسب أهوائهم : من الذى أنزل هذا الكتاب على موسى ؟

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

يعنى القرآن . يشهد هذا القرآن يا محمد بأن الله سبحانه قد أرسلك بالحق ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل ليهتدى بهما بنو إسرائيل ، ويشهد كذلك بصحة ما نزل من الكتب، ويعطى الخلق ـ كل الخلق ـ أسودهم وأبيضهم ما يحتاجون إليه زادًا علميًّا يعرفون به ما بقى صحيحًا سليمًا من الكتب السابقة ، وسيجدون فيه كلَّ ما يحتاجون إليه فى معاشهم ومعادهم حتى تقوم الساعة ، وسيكون الحساب والجزاء فى الآخرة عليه وبه . فهو الكتاب الخاتم والفائزون بنوره ومعارفه هم الذين على صلاتهم يحافظون . والمقصود بـ (أم القرى) فى الآية مكة ، ومن حولها أى كل العالمين ، وذلك كقوله ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا** ﴾ [١] ـ ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا** ﴾ [٢] .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، وذكر منهن . . وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » [٣] .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله ، فجعل له شركاء أو ولدًا ، أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله . وأفجر من كذب : الذين يكذبون على الله ، ويقولون إن

---

(١) الأعراف : ١٥٨ . (٢) الفرقان : ١ .

(٣) رواه البخارى كتاب التيمم باب قوله تعالى ﴿ فلم تجدوا ماء ﴾ إلخ ـ واللفظ له ـ ومسلم فى صحيحه ، والنسائى فى سننه عن جابر بن عبد الله .

الله أوحى إليهم، والعبد عندما يتلبس به فجوره يدّعى على الله كذباً، وذلك أكبر الذنب، وأبشع الكفر. وهؤلاء الظالمون عندما تنتهى آجالهم فى الدنيا، ويدخلون فى غمرات الموت، يتمنّون أن يُهلكوا، ويتحولوا إلى عدم ليس له من أثر، وقد شهدوا الحقيقة.

والحاكم الذى ظلم ، والخائن الذى بغى ، والمستبد الذى طغى ، زالت دولهم ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، وانصرف الجاه والسلطان ، وطاغوت الحكم . إنهم مكشوفة عوراتهم . إنهم أذلّاء ، والملائكة تلعنهم . إنهم فى عرصات الجحيم يعيشون ، فأين شركاؤهم ؟ إنهم فى النار ، والملائكة قائلة لهم : ﴿أخرجوا أنفسكم اليوم﴾ ، فكم افتريتم على الله غير الحق ، وكنتم بعباد الله تستهزئون ، فعيشوا الخزى والعار بما عاديتم الله ورسوله والمؤمنين ، فذلك ما قدمتم﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾. وهكذا يقال لهم يوم معادهم، وجل قوله ﴿ وعرضوا على ربك صفًا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾[1] لقد تركتم نعيم الدنيا وزخرفها وراء ظهوركم .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « يقول ابن آدم : مالى مالى (قال) وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت[2]» .

وها هو ذا يوم القيامة لا يجدون شيئًا غير منادٍ من قبل الحق الذى عنت له الوجوه يقول : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾

إن الذى بعث فى الحبة الجافة حياتها من ماء الأرض وطينها وبما أنزل من السماء فأحيا الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة : هو الله . فكيف تكذبون وتضللون ؟

---

(١) الكهف : ٤٨ .

(٢) رواه : مسلم كتاب الزهد والرقائق حديث رقم ٣ ـ واللفظ له ـ وكذا رواه : الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى والنسائى فى سننهما .

هو الذى يبعثكم من أرحام أمهاتكم وكذلك يريكم كيف يسوى الحبّ فى رحم الأرض ثم ينبته فيستوى على سوقه ، أبعد ذلك تكفرون به وتشركون ؟

إنكم إن أنصفتم أنفسكم لا تكذبوا. فإن الشرك ظلم عظيم . فـ... ربكم ووحدوه وتفكروا فى آياته كى تهتدوا ولا تضلوا فوق ضلالكم . وهو بقدرته خالق الضياء والظلام ، فتفكروا كيف ينسلخ الليل من النهار ؟ وماذا لو كان ليلاً دائماً أو نهاراً دائماً ؟ فاذكروا آلاء الله لعلكم تتقون .

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

أى أن الله جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر . وقوله ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أى قد بيناها ووضحناها لقوم يعرفون الحق ويتجنبون الباطل . إنها آيات لو تدبرها الإنسان لعاش يحاسب نفسه ثم يرشدها لطاعة القادر الخالق العزيز الحكيم . إن الله فصّل لنا الآيات لنعتبر ، ونعمل على بعث اليقظة فى القلوب، لعلها تخشع فتلين فتتقى الله فترعى أمره . ولا يفعل ذلك إلا قوم يتبعون الحق بعد أن علموه .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

النفس الواحدة أى آدم عليه السلام . يقول الحق ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء** ﴾ (١) . أما مستقر : فمعناها الأرحام ، كما يقول ابن مسعود ، والمستودع : معناه الأصلاب ، وهو رأى ابن عباس ومجاهد وعطاء وآخرين كما أوردها ابن كثير .

والله تعالى أعلم .

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ

---

(١) النساء : ١ .

وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ انظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

سبحانه وتعالى أخرج من الأرض نباتات شتى ، كلها يسقى بماءٍ واحد ، حلوه ومره، ثم يختلف طعمًا وثمنًا وقيمة . كل مختص بمادة غذائية يحتاجها الجسد . سبحان المبدع الخالق و ﴿ متراكبًا ﴾ أى يركب بعضه بعضا كالسنابل ونحوها .

﴿ قنوان دانية ﴾ : قنوان : جمع قنو ، وهى عذوق الرطب . دانية : أى قريبة من المتناول . والمقصود بالقنوان الدانية قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض ، كما يورده ابن كثير . فتفكروا فى قدرة الخالق العظيم . إن فى كل ذلك دلالاتٍ كبيرة على كمال قدرة الحق سبحانه وحكمته .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

ردٌّ على المشركين الذين أشركوا مع الله غيره فى عبادته ، مثل الجن ، فجعلوهم شركاء له فى العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم .

﴿وخلقهم ﴾ أى وقد خلقهم ، فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره ؟! ومعنى خرقوا فى الآية أى اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا . ﴿ سبحانه ﴾ أى تقدس وتنزه وتعاظم .

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أى خالقهما ومبدعهما ومنشئهما على غير مثال سبق .

فكيف يكون لله ولد وصاحبة وشريك ومساعد ومكافئ وهو خالق كل الأشياء ، وعليم بها ؟

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

إنه هو الله الواحد الفرد الصمد ، ليس له من يماثله ، عليٌّ كبيرٌ متعال ، عظيم لا يُدرَك ، قادر لا يعجزه شيء ، وهو يعجز كلَّ شيء ، وهو وحده المستحق للعبادة ، فاعبدوه مخلصين له الدين ، تفلحوا وتفوزوا فوزًا عظيمًا . واعلموا أن الأبصار لا تدركه ولكنه هو سبحانه يدرك كلّ شيء ، وهو يدرك الأبصار ، ويعلم حركتها ، وما أبصرته ، وما كفت عن إبصاره ، وهو لطيف خبير ، عفوٌّ لمن تاب إليه وعليه .

قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

قد جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحقائق واضحة ، ليخرج بها الناس من ظلمات جهلهم إلى نور المعرفة وتوحيد الله .

والبصائر هى البينات والحجج التى اشتمل عليها القرآن ، ودلّ عليها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . أما قوله : ﴿ **فمن أبصر فلنفسه** ﴾ فهى نظير قوله تعالى ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلّ فإنما يضل عليها** ﴾ [1] لذلك يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ **ومن عمى فعليها** ﴾ أى إنما يعود وباله على نفسه جزاء عماه الذى افتعله ، وجزاء إغراقه لقلبه فى اللهو والفجور حتى طبع الله عليه .

هذه هى آيات الله ـ سبحانه وتعالى ـ التى توضح أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، والتى يفسر بها مواطن جهالة الجاهلين الذين يقولون يا محمد إنك قد دارست أهل الكتاب الذين سبقوك ، وقارأتهم وتعلمت منهم أخبار الأمم السابقة .

نوضحها لقوم يريدون أن يتعلموا الحق ويعلموه فيتبعوه ، ويريدون أن يعرفوا الباطل فيجتنبوه . فالله ـ سبحانه وتعالى ـ متصرف بحكمته كيف يشاء فى هداية قوم وإضلال آخرين . وهى نظير قوله تعالى ﴿ **يضل به كثيرًا ويهدى به كثيرًا** ﴾ [2] .

---

(١) الإسراء : ١٥ .　　(٢) البقرة : ٢٦ .

﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾

اجتنب طريقهم مع بيانك لهم الحق الذى أنت عليه ، وقل اللهم قد بلغت ، حتى لا تكون لهم حجة يوم القيامة . ولو شاء الله سبحانه لهداهم ، فلا يقع فى كونه إلا ما أراد .

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

نهى الله سبحانه عن سبّ آلهة المشركين حتى لا تقع مفسدة فيسبوا الله ويهجوه ، لشدة جهلهم بالله عزّ وجلّ .

يقول قتادة كما يذكر ابن كثير « كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدوا بغير علم ، فأنزل الله ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله ﴾ » .

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

قد أجهدوا أنفسهم تمامًا ، وأقسموا وحلفوا بأيمان مؤكدة صريحة ﴿ لئن جاءتهم ﴾ معجزة خارقة فسوف يصدقونها ، فقل لهم يا محمد ردّاً على هذا الزعم وعلى هذا السؤال الذى يسألونه من باب التعنت والكفر ، لا من باب الاسترشاد والهدى مثلاً : إنما مرجع هذه المعجزات والخوارق إلى الله أيها الناس . فهو إن شاء أتاكم بها وإن شاء ترككم .

وهى نظير قوله تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ (١) .

أما قوله ﴿ وما يشعركم ﴾ فالخطاب هنا للمشركين ، وقيل إن الخطاب هنا للمؤمنين ، والمعنى : وما يدريكم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون .

---

(١) الإسراء : ٥٩ .

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

يجعل الله تعالى قلوب المشركين فى ضلال متقلبة مع أبصارهم لما جحدوا بما أنزل الله ، فلم يثبت الله قلوبهم على شىء ، ولم يستقروا على الإيمان ، فأحال الله بينهم وبين أن يؤمنوا حتى ولو جاءتهم كل آية .

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

هؤلاء القوم لا يؤمنون حتى ولو كلمتهم الملائكة قائلة لهم إنه الحق ، أو قام الموتى من قبورهم وقالوا لهم : إن هذا النبى وما جاء به حق ، إلا أن يشاء الله أن يؤمنوا ؛ وذلك لأن كثرتهم تجهل الحقيقة ، فما عليك منهم إلا البلاغ .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

لكل نبى عدو من الشياطين ، من الجن والإنس ، وهم الذين لا تخشع قلوبهم لذكر الله ، ولا يخافونه سبحانه ، فيوحى بعضهم لبعض بكل زخرف القول والفعل ، ولو شاء الله ما فعلوه ، فذرهم يفترون ، فسوف يعلمون أن ما افتروه باطل ، وأنهم به مهلكون . . حيث لا تخضع للباطل إلا قلوب ﴿**الذين لا يؤمنون بالآخرة**﴾ ، الذين لهم فى نار جهنم ـ بما اقترفوه من باطل ـ عذاب مهين .

فليقترفوا ما يقترفون ، وليكتسبوا من ذنوبهم ما يكتسبون ، وليعملوا ما هم عاملون ، وليفعلوا ما هم فاعلون . . !!

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ

ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن
تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

قل لهؤلاء المشركين يا محمد الذين يعبدون غير الله ، أفغير الله أرتضيه حكماً بينى وبينكم وهو أحكم الحاكمين ؟ والقرآن الكريم فيه كل شىء ؟ ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ (١) . مع أن الذين آتيناهم الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أى بما عندهم من بشارات بك من الأنبياء المتقدمين ، وأخبار سابقة فى كتبهم أن هناك نبيًّا فى آخر الزمان اسمه محمد ، ﴿ فلاتكونن من الممترين ﴾ .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ ليس مبدلاً لكلماته ، ولا أحد يعقب على حكمه ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهو السميع العليم . يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله : « وما يزال أهل الكتاب يعلمون أن هذا الكتاب منزل من الله بالحق ، وما يزالون يعلمون أن قوة هذا الدين إنما تنبثق من هذا الحق الذى يتلبس به ، ومن هذا الحق الذى يحتويه . وما يزالون ـ من أجل علمهم بهذا كله ـ يحاربون هذا الدين ، ويحاربون هذا الكتاب ، حربًا لا تهدأ . وأشد هذه الحرب وأنكاها ، هو تحويل الحاكمية عن شريعة هذا الكتاب ، إلى شرائع كتب أخرى من صنع البشر ، وجعل غير الله حكماً ، حتى لا تقوم لكتاب الله قائمة ، ولا يصبح لدين الله وجود » (٢) .

ثم يخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن حال أكثر أهل الأرض من البشر أنه الضلال . وهم فى ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم فى ظنون كاذبة وحسبان باطل . فهؤلاء كلهم فى ضلال مبين ، وفى ظن . فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالفريقين : من يضل عن سبيله ، ومن هو ميسر للإيمان ومستعد له ، وكل ميسر لما خلق له .

---

(١) الأنعام : ٣٨ .
(٢) تفسير ظلال القرآن سيد قطب ٣/ ١١٩٤ .

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟
مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ
كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

منحة وإباحة من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسم الله . ومفهوم المخالفة هنا أنه لا يباح أكل ما لم يذكر اسم الله عليه . كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النُّصب وغيره ، وكما يفعله من يفعله من الناس الآن .

﴿وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟
يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ (١) .

وهؤلاء ممن يقترفون الإثم ، سواء أكان ظاهرًا أم خفيًا ، سيجزيهم عليه الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ
أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾

يقول ابن كثير : « استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلمًا ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى هذه المسألة (٢) » .

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى
ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

---

(١) الأعراف : ٣٣ .
(٢) لمزيد من المعرفة تراجع فى كتب الفقه وكتب تفسير الأحكام .

يضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً لكافة الخلق أنه : لا يستوى الأعمى والبصير ، إذْ هل يستوى العبد الذى كان ميتًا ـ أى فى الضلالة ـ وكان حائرًا بعيدًا عن الإيمان مع نفسه بعد أن أحياه الله ـ أى أحيا قلبه بنور الإيمان ـ ثم وفقه ، وشرح صدره للإسلام ، ولاتباع رسله ؟

يقول الإمام الشهيد سيد قطب : « إن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية التى لا تفنى ولا تغيض ولا تغيب ، فهو موت وانعزال عن القوة الفاعلة المؤثرة فى الوجود كله . . . أما الإيمان فهو اتصال ، واستمداد ، واستجابة ، فهو حياة . . . إن الصلة بالله ، والصلة فى الله ، لتصل الفرد الفانى بالأزل القديم والأبد الخالد . . . وإن الإنسان الذى يجد فى قلبه هذا النور تتكشف له حقائق هذا الدين ، ومنهجه فى العمل والحركة ، تكشفًا عجيبًا . . إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما شتان »[1] .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

إن فى كل قرية أو مدينة أعيانًا كبراء أغنياء ، أو كبارًا حاكمين ، ومن هؤلاء مجرمون يفسدون ، وينهبون الأموال ، ويخربون البيوت ، ويعذبون البشر ، ولا يخافون الله ، ولا يعتقدون بالحساب ولا بالقيامة .

وإذا جاءتهم آية أو معجزة خارقة ، قالوا لن نؤمن . وهذا القول منهم دليل جهلهم بالله ، وهل يختار الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرسالته إلا الأخيار المتقون ؟

إن الله سبحانه وتعالى يعلم من المتقون ومن المستحقون لفضل الله وعطائه ، ومن الأمناء على رسالته ، إن هؤلاء المتمردين على الله ، المفترين على اختياره ، سيصيبهم عذاب شديد ، وسوف يحقرون ويعذبون ، وينفون من عالم المؤمنين الذين قالوا : ربنا

---

(١) ظلال القرآن ٣/ ١٢٠٠ـ١٢٠١ .

الله ، إنهم بجهلهم هذا يتدخلون فى قدر الله وشئونه ، ويريدون بذلك أن يعلموا الله كيف ينشر رسالته ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ (١) .

والصغار فى الآية هو الذلة الدائمة نتيجة استكبارهم عن عبادة الله .

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾

إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد خيرًا لعبده شرح صدره له ، ونور فكره ، وزين قلبه لتلقى الخير لما أمر الله ، حتى يكون فى أهل الإسلام والإيمان مثلاً يحتذى به . أما الضالون عن نداء الله وطريقه ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يضلهم ، ويجعل صدرهم فى ضيق ، ويعيشون فى حرج معاصيهم وكفرهم بالله وأوامره ، ويكون مثلهم كإنسان صعد فى أجواء السماء ، فعاش فى أجواء سامة قاتلة ، فتقل نسبة التنفس عنده ، فيعلو وينخفض صدره وقلبه . وتزداد ضرباته ، فتدور عليه الدائرة ، فلا يستطيع التنفس والحياة .

والرجس فى الآية كل ما لا فائدة فيه ولا خير .

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

وصراطه المستقيم : فيما أوحى به من الحق لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم . والذين يؤمنون ، ﴿ لهم دار السلام ﴾ ، أى لهم الجنة لا يتخلل حياتها كدر ـ قد أنعم الله بها عليهم . وهكذا كان وليهم فى الدنيا ؛ فلما انتقلوا لدار السؤال كان وليهم كذلك .

---

(١) الزخرف : ٣١ ـ ٣٢ .

فأنعم برضوان من الله بما كانوا يعملون ، و ﴿ وليهم ﴾ أى حافظهم وناصرهم ومؤيدهم . كما يقول ابن كثير .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

اذكر يا محمد ، فيما تقصه عليهم وتنذرهم به ، يوم يحشرهم الله جميعًا ، يعنى الجن وأولياءهم من الإنس ، الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا ، ويعوذون بهم ، ويطيعونهم ، ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ، فيقال لهم : يا معشر الجن إنكم قد أضللتم كثيرًا من الإنس. فيقول أولياء الجن من الإنس: إنه كان بعضنا يستمتع ببعض، قال الحسن وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس(١).

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

قال قتادة فى تفسير هذه الآية « إنما يولى الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن أينما كان وحيثما كان . والكافر ولى الكافر أينما كان وحيثما كان . ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى » (٢).

ويولى الله بعض الظالمين بعضا فى النار ، يعنى يتبع بعضهم بعضا ، وجل قوله تعالى ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نُقيض له شيطانًا فهو له قرين ﴾ (٣) أى ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس . .

كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم لبعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾

---

(١)، (٢) ابن كثير : ٢/ ١٧٦ .　(٣) الزخرف : ٣٦ .

نداء من الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقرع به كافرى الجن والإنس يوم القيامة ، حيث يسألهم ، وهو أعلم : ألم يأتكم رسل منكم يبلغونكم رسالاته ؟ وهذا استفهام تقرير . ومتفق عليه أن الرسل من الإنس فقط ، ولكن أرسلوا للإنس وللجن معًا ، والذين أسلموا من الجن لهم أجرهم ، والرسل من الإنس هم الحجة عليهم ، والله أعلم .

﴿**قالوا شهدنا على أنفسنا**﴾ أى أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك .

﴿ **وغرتهم الحياة الدنيا** ﴾ أى فرطوا فى حياتهم الدنيا لما اغتروا به من زخرفها وزينتها . ومرجع الخلق جميعًا من الإنس والجن إليه سبحانه .

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يظلم أحدًا ، وإنه قد أقام الحجة على كل البشر ، وأرسل إليهم الرسل ، وأقام عليهم البراهين ﴿ **لئلاَّ يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**﴾(١) .

ولكل إنسان درجة فى الجنة أو النار ، لأن الله سبحانه وتعالى يدخل من يدخل الجنة برحمته . أما أعمالهم فهى التى تحدد لهم أماكنهم .

وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾

إن ربك يامحمد هو الغنى عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم ، وهو مع ذلك رحيم بهم . إن يشأ سبحانه يذهبكم ، ويأت بخلق جديد يحبهم ويحبونه . وجل قوله تعالى : ﴿ **وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ (٢) وقوله ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز**﴾(٣) .

إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾

---

(١) النساء : ١٦٥ . (٢) محمد : ٣٨ .

(٣) إبراهيم : ١٩ ـ ٢٠ .

إن الذى توعدون به سيأتى لا محالة ، لأنه ﴿ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد﴾ (١) .

وأنتم لا تُعجزون الله ، ولا تُثنونه عن أى مشيئة له ، بل هو القادر على إعادتكم وخلقكم مرة أخرى ، وهو أهون عليه .

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتى ومنهجى . .

فسوف نرى العاقبة لمن ؟ أتكون لى أم لكم ؟ وقد أنجز الله وعده لرسوله صلوات الله عليه وسلامه ، فإنه تعالى مكنه فى البلاد ، وحكمه فى نواصى مخالفيه من العباد ، وفتح له مكة ، وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب (٢).

وكل ذلك فى حياته . وجل قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ (٣) .

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعا وكفرا ، وجعلوا لله شركاء وجزءا من خلقه ، وهو خالق كل شىء سبحانه وتعالى .

---

(١) ق : ٢٩ . (٢) انظر ابن كثير : ٢ / ١٧٨ .
(٣) غافر : ٥١ـ٥٢ .

إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثًا ، أو كان لهم ثمر جعلوا لله منه جزءًا وللوثن جزءًا، تعالى الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو رب كل شىء ، ومليكه وخالقه ، وله الملك وكل شىء له وفى تصرفه وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه . . وذرأ أى خلق ، و (الحرث) أى الزرع والثمار و (نصيبًا) أى قسمًا . . وهذه سخافة من سخافات تصرفاتهم التى كانوا يعتقدونها فى الجاهلية . وما أكثر الأفعال التى تشابهها فى هذه الأيام وإن اختلف الموضوع ، ولكنه يأخذ أشكالاً أخرى من الوثنية والكفر والشرك، والعياذ بالله .

وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

وكما زين لهم الشيطان أن يجعلوا للأوثان نصيبًا ويدّعوا أنهم يجعلون لله مثله ، فكذلك زين لهم الشيطان ، وزين لهم الشركاء قتل أولادهم خوفًا من العيلة والفقر ، ووأد البنات خشية العار . وادّعوا أنهم يتقربون إلى الأصنام لتقربهم من الله .

وكل ذلك كان من تزيين الشيطان لهم ، فدعهم يا محمد ، واجتنبهم وما هم فيه ، فسيحكم الله بينك وبينهم ، وسوف يبين الله لهم سوء صنيعهم وشركهم .

وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾

هذه الآية نظير قوله تعالى :

﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ (١) .

إن الكفار يدّعون على الله الكذب ، ويحلون ويحرمون فى أنعامهم نتيجة ما فى

---

(١) يونس : ٥٩ .

نفوسهم من مرض ، وما فى فهمهم من نقص ، وما فى تقديرهم من أخطاء . فهم يتخذون لأنفسهم صفة الحق فى التصرف فيما يملكون بهواهم لا بأمر الله سبحانه وتعالى .

وسوف يجازيهم الله سبحانه وتعالى على هذا الافتراء .

وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

ادَّعَوْا : أن ما فى بطون أنعامهم هى حق خالص لأبنائهم من الذكور ، ومحرم على الإناث ، وذلك نوع من أنواع الجور والظلم للمرأة فى عصر الجاهلية قبل الإسلام . وذلك كذب على الله ، وافتراء ، وسيجزيهم الله بما يصفون من باطل شر الجزاء وأقساه . إنه حكيم عليم .

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

الذين فعلوا هذه الأفاعيل خسروا فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا عليهم فى أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم . وأما فى الآخرة : فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله وافترائهم . . عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : « إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام » ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهًا بغير علم ﴾ إلخ [1] .

۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

---

(١) انظر ابن كثير : ٢ / ١٨١ .

سُورَةُ الأَنْعَامِ

يبين تعالى أنه الخالق لكل شىء من الزروع والثمار والأنعام التى تصرف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة وقسموها وجزءوها فجعلوا منها حراما وحلالا . إن الله سبحانه وتعالى أنعم على الإنسان بإيجاده وإيجاد ما يستعمله فى معاشه ، من زروع تحصد ، وكروم وأشجار تؤكل ، وجنات من نخيل وأعناب وزيتون ورمان ، وفواكه كثيرة متقاربة صورة وطعومًا أو متباعدة ، غير أنها سائغة ومطلوبة . منها خاص بالصيف ، ومنها خاص بالشتاء . والحق - سبحانه وتعالى - يطلب من خلقه أن يأكلوا من هذه النعم الكثيرة ثم يعطوا الفقراء حقهم المعلوم منها يوم الحصاد فتقع البركة والإثمار الكثير .

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾

يحذرنا الله من الشيطان وغروره . حيث يأمرنا بالبخل فنبخل ، ونعطل الزكاة والصدقة وفعل الخير . . إن الشيطان كان للإنسان عدوًا مبينًا .

ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا قد حرموا من الأنعام . ويبين الله أصناف الأنعام ، وأنه تعالى لم يحرم شيئًا من ذلك ، ولا شيئًا من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبنى آدم أكلاً وركوبًا وحمولة وحلبًا ، وغير ذلك من وجوه المنافع . وفى هاتين الآيتين يعدد الله سبحانه وتعالى أصناف الأنعام ، ثم يقرر حِلّها ، ثم يسفه الذين ادعوا كذبًا بالتحريم فيقول ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه

وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك . وهذه الآيات رد عليهم فى قولهم ﴿ ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ ﴿ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين﴾ . . أى أخبرونى عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه ؟

قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

يقرر الحق سبحانه وتعالى أن ما حرم برأى البشر فى الجاهلية لا عبرة فيه ، حيث لاعبرة فى التحريم إلا بما يحرمه الله تعالى فيما يوحيه إلى رسول الله ﷺ من كتاب أو سنة .

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

يقرر الله سبحانه وتعالى أنه قد حرم على اليهود هذه الأشياء جزاء بغيهم .

فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

فإن كذبوك يا محمد ، وكذبوا فعلك وقولك ، فقل إن ربى ذو رحمة واسعة ، وسعت كل شىء ، وهذا ترغيب لهم فى ابتغاء رحمة الله الواسعة ، واتباع رسوله . أما قوله ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ فهو ترهيب لهم من عصيانهم له ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكثيرًا ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب فى القرآن .

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ

كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

بهذه الشبهة ضل من ضل من آبائهم وأقرانهم ، لأنهم تمسكوا بحجج داحضة باطلة غير مستقيمة ، لأنها لو كانت صحيحة لما ذاقوا وبال أمرهم ، ولما دارت عليهم الدائرة، وذاقوا ألم الانتقام . وإن كنتم على حق أتستطيعون أن تظهروه لنا أو تبينوه ؟ لكنكم لاتتبعون حقيقة أبدًا . إنكم لا تتبعون إلا وَهْما وخيالاً واعتقادًا غير صحيح ، وما أنتم إلا كذابون تدعون على الله الكذب فيما ادعيتموه .

قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

أى له الحكمة التامة والحجة البالغة فى هداية من هدى وإضلال من ضل ﴿ **فلو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ . سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت علام الغيوب . . لا قدرة فوق قدرتك، ولا مشيئة فوق مشيئتك ، ولا اختيار فوق اختيارك .

قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

فإن كانت لديكم حجة أيها المشركون ، فأتوا بها ، وهاتوا شهداءكم الذين يشهدون لكم ، ولن تجدوهم ، فأنتم وهم على غير هدى . وإن شهدوا يامحمد بغير ما أنزلنا إليك فلاتشهد ظلمهم وبغيهم ، إنهم أصحاب أهواء وضلال . إنهم الذين كذبوا بآياتنا ومعهم الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ومن صفات هؤلاء الضالين أنهم لا يؤمنون بالآخرة ﴿وهم بربهم يعدلون ﴾ أى يشركون بالله ربًا ويجعلون له عدلاً ، أى مثلاً وظلا ، وذلك مستحيل ، فاتركهم فى غيهم وجهلهم .

۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ

وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ
إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ
اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

قل يا محمد للذين يتعبدون الطاغوت ويجتنبون حاكمية الله : تعالوا لأقرأ لكم وأعلمكم ما حرم الله عليكم وما طلب منكم ، وهى هذه المذكورة .

قال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : « من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التى عليها خاتمه ، فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ » .

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن
سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

يقرر الله تعالى أن الإسلام دينه وصراطه المستقيم . ويأمرنا باتباعه ، ويحذرنا من الطرق المتفرقة .

وطريق الله واحد ، وسبل الشيطان متعددة . وقد وصى الله عباده بالاستقامة على ما أمر به الله سبحانه وتعالى ، واجتناب ما نهى عنه ، فالناجون : هم الذين تواصوا بالحق، فكانوا على صراط الله المستقيم .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

بعد أن أخبر الله سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم بقوله ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ﴾ جاء يمدح التوراة ، ويمدح الرسول الذى بُعث بها ، وهو موسى ـ عليه السلام ـ ، وهذا ما نجده دائماً فى القرآن الكريم من مقارنة الحق سبحانه وتعالى بين

القرآن والتوراة . أى أننا آتينا موسى هذه التوراة تامة كاملة جامعة لما يحتاج إليه فى شريعته ، كى يحكم بها بين قومه بالحق ، وهى هدى ورحمة ﴿ على الذى أحسن ﴾ يقول ابن كثير أى جزاء على إحسانه فى العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله تعالى ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

ثم يرجع الحق سبحانه وتعالى إلى القرآن الكريم فيقول : وهذا هو كتاب الله أنزلناه على خير وصف وهو البركة لمن يتبعه فى الدنيا والآخرة . وهذه دعوة إلى اتباع القرآن ، فيرغب سبحانه عباده فى كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به فى الدنيا والآخرة لأنه حبل الله المتين .

أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

إن قال أهل الجاهلية من العرب لك يا محمد إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ، أى على اليهود ثم على النصارى ، وكانت لغتهم العبرية ولم نكن نفهمها ، فكنا عن دراسة كتبهم غافلين ، فاعلم أنهم يكذبون عليك ، وما فى قلوبهم ليس هو الذى على ألسنتهم ، وكانوا يقولون لو أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ، وها هو ذا القرآن عربى بليغ وواضح ، وهدى ورحمة ، فمن أعرض عنه بعد ذلك ، ولم يسلم لما جاء من الله فأولئك هم الضالون .

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

يتوعد الله الكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادين عن سبيله . إن الذين تعالوا على الله ولم يؤمنوا به ، ماذا يريدون ؟ وماذا ينتظرون ؟ هل يريدون أن يروا الساعة وقد جاء أشراطها ؟ هل يريدون أن تأتى آيات الله ويحضروا العذاب ويشهدوا النار ؟ إن كل ذلك واقع عندما تأتى بعض آيات الله ، ويومها ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾ .

فلينتظروا فالله رقيب عليهم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

يقول ابن كثير : « نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى . . . ويقول ابن عباس : إن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد - صلى الله عليه وسلم - فتفرقوا ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم أنزل الله عليه هذه الآية . . . والظاهر : أن الآية عامة فى كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه ، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق »[1] .

يقول الشهيد سيد قطب : « إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليس من هؤلاء كلهم فى شىء . إن دينه هو الإسلام ، وشريعته هى التى فى كتاب الله ، ومنهجه هو منهجه المستقل المتفرد المتميز . وما يمكن أن يختلط هذا الدين بغيره من المعتقدات والتصورات ، ولا أن تختلط شريعته ونظامه بغيره من المذاهب والأوضاع والنظريات . وما يمكن أن يكون هناك وصفان اثنان لأى شريعة ، أو أى وضع أو أى نظام . . إسلامى . . وشىء آخر . . !!!

إن الإسلام إسلام فحسب ، والشريعة الإسلامية شريعة إسلامية فحسب ، والنظام الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى الإسلامى إسلامى فحسب ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليس فى شىء على الإطلاق من هذا كله إلى آخر الزمان[2]» .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٦ .

(٢) ظلال القرآن تفسير سورة الأنعام ص١٢٣٩ سيد قطب .

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ
لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

هذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل فى الآية الأخرى ، وهى قوله ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ .

الذين يعملون الخير ، ويتقون الله ، وينفقون أموالهم فى سبيل الله ، لهم من إحسان الله سبحانه وتعالى وعطائه الحسنة وزيادة . والحسنة هى الجنة ، والزيادة أن يضاعف لهم ما أنفقوا فى سبيل الله . فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف مضاعفة ، والله يعطى عن غنى لا يعقبه فقر . فهو الغنى المالك على الإطلاق ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، والذين بخلوا بما عندهم فلم ينفقوا فى سبيل الله لاستحواذ الشيطان عليهم وإيهامهم بالفقر ، هؤلاء يعيشون فقراء على الحقيقة ولو ملكوا الدنيا ، والبخل والإيمان لا يجتمعان فى قلب رجل ، وليس للبخيل عند الله مقام ، فهو ذميم فى الدنيا ، مطرود فى الآخرة ، ولا يجتمع الإيمان والبخل فى قلب رجل .

قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ
ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾
لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ
وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى آمرا نبيه صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف .

يقول الإمام الشهيد سيد قطب ـ رضى الله عنه ـ : « فى ختام السورة. . . تجىء التسبيحة الندية الرخية فى إيقاع حبيب إلى النفس قريب ، وفى تقرير كذلك حاسم فاصل، ويتكرر الإيقاع الموحى فى كل آية : « قل » . . « قل » . . « قل » . . ويلمس فى كل آية أعماق القلب البشرى ، لمسات دقيقة عميقة فى مكان التوحيد ، توحيد

الصراط والملة ، توحيد المتجه والحركة ، توحيد الإله والرب ، توحيد العبودية والعبادة .. مع نظرة شاملة إلى الوجود كله وسنته ومقوماته » (١) .

يا محمد قل الحمد لله حمدًا يليق بجلال عطائه وعظمته ، لقد هداك إلى صراط مستقيم وجعلك على دين أبيك إبراهيم ، ثم أكمل هذا الدين على يديك ، وختم بك النبيين المرسلين ، وجعل شريعتك متممة لكل أحكام الله وتشريعاته حتى تنتهى هذه الدنيا ، وتقوم الساعة ، ثم أعطاك الوسيلة والشفاعة ، ومع مقام إبراهيم وقربه من الله فأنت أكمل من أرسل من الأنبياء والمرسلين ، أعطيت الشفاعة وأكرم ما تدعو به أمتك أن تقول : « أصبحنا على ملة الإسلام ، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وملة أبينا إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » وهذا الدعاء كان يقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أصبح .

وقل لهم يا محمد : إن صلاتك لله ، وكذلك نسكك ، من صيام وحج وصلاة وذبح وإحسان بالمال الطيب والكلمة الطيبة ، وكذلك حياتك التى ليس فيها عبادة لغير الله ، كل ذلك لله رب العالمين لا شريك له، شاهدًا أنه هو الله الواحد ، وأن محمدًا هو عبده ورسوله . . . أخافه ولا أخاف أحدًا سواه ، وأنا محمد بن عبد الله على دين أبى إبراهيم ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين. . . وقد قال الإمام أحمد عن على ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا كبّر استفتح ثم قال : ﴿ **وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين** ﴾ ﴿ **إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ .

وقل لهم يا محمد أغير الله أطلب ربا سواه ، وهو رب كل شىء وربى ، ويحفظ ويدبر ؟ فكيف لا أتوكل عليه ، وهو رب العالمين ورب الأشياء كلها ؟ كيف لا أنيب إليه وهو مالك الملك ؟ ، يقول ابن كثير : « فى هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التى قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرًا فى القرآن كقوله تعالى مرشدًا لعباده أن يقولوا له : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ (٢) وقوله ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ (٣) وقوله ﴿ **قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا** ﴾ (٤).

---

(١) انظر ظلال القرآن ٣/ ١٢٤٠ .
(٢) الفاتحة : ٥ .
(٣) هود : ١٢٣
(٤) الملك : ٢٩ .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾

هو الله سبحانه وتعالى جعلكم خلفاء فى الأرض لكم رسالة فيها ، تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وأزمانًا بعد أزمان وخلقًا بعد خلق ، وسلفًا بعد سلف . ورسالة الإنسان فى الأرض معروفة وواضحة ، إن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان فى الأرض خليفة ، هو ظل له فى الأرض ، يحكم بمنهج رسله الذين أرسلهم الله إليه ، ويحكمون بشريعة الله التى ارتضاها لعباده ، ولقد رفع الله سبحانه وتعالى بعض الناس وفاوت بينهم فى الأرزاق والأخلاق ؛ لحكم وعلل يعلمها الحق سبحانه وتعالى . كما فاوت فى الأخلاق والأشكال والمناظر والألوان والدرجات ، وله الحكمة فى ذلك أيضًا ، كقوله تعالى : **﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريًا﴾** [1] والله سبحانه وتعالى : القادر المحيي المميت خلقكم أيها الناس ، وجعلكم قادرين على تعمير الأرض بالإنشاء والزرع والتجارة والصناعة . ولم تفلح أمة إلا بالعمل والإيمان . والإيمان وحده لا يكفى ولا ينفع ، لكن العمل مقرونًا بالإيمان هو فى النهاية مجموع لتعمير الإنسان فى الأرض والكون ، وهو تأدية للرسالة على أكمل وجه ، فالأمة الكسولة لا تتقدم . . والأفراد العاطلون لا يتقدمون ، فاليد العاملة هى يد يحبها الله ورسوله بشرط أن تكون يدًا عاملة ، لها صاحبٌ قلبه مطمئن إلى الله ، وراض بقضائه ، يؤدى شعائره ، ويؤدى نسكه ، وينطلق فى الأرض يبتغى الرزق، ويسعى فى الأرض إصلاحًا وتعميرًا ، بدلاً من الإفساد .

كما جعلكم الله سبحانه وتعالى طبقات ودرجات بعضها فوق بعض مركزًا ومالاً وصناعة وعلمًا ، ومعارف ، فذاك غفير ، وآخر وزير ، وذاك ملك ، وآخر أمير ، وذاك حاكم وذاك محكوم ، والكل بالنسبة له سبحانه عبيد مسئولون محاسبون . . أكرمهم عند الله أتقاهم . فالمقياس هو الإيمان والتقوى والعمل الصالح . .

والله سبحانه وتعالى على ما قدمت أيديهم من عدل يجزى به ، ومن جور يحاسب

---

(١) الزخرف : ٣٢ .

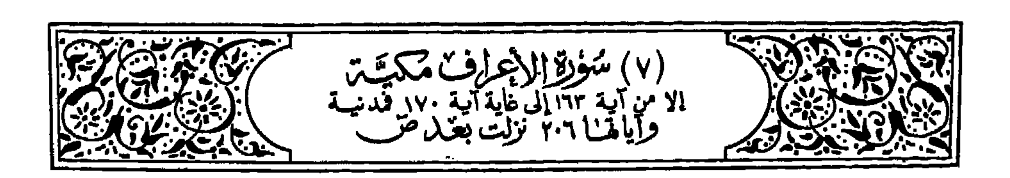
عليه ، وسبحـانه سريع العقاب . إن شاء الله عجـل به فى الدنيا لعل العبد يتذكر فيتوب ، وذلك منه سبحانه وتعالى إحسان ، وإنه لغفور رحيم لمن راجع نفسه فحاسبها .

إنه بهذه النفس التوابة النادمة المستغفرة لغفور رحيم . سبحانه وتعالى عما يصف المشركون .

هذا هو قرآننا ، وهذا هو هدى الله لعباده المؤمنين ، الذى منحهم أعظم منحة فى تاريخ الإنسانية ، وهو الكتاب المبارك « وهذه بلا شك واحدة من بركاته الكثيرة » [1] .

والحمد لله رب العالمين .

(١) سيد قطب ٣/ ١٢٤٢ .



(٧) سورة الأعراف مكية
الا من آية ١٦٣ إلى غاية آية ١٧٠ فمدنية
وآياتها ٢٠٦ نزلت بعد ص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾

سبق وبينا فى سورة البقرة معنى ما قاله المفسرون فى الحروف التى افتتحت بها السور.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾

وهذا الكتاب المبين الذى أنزل إليك من ربك إنذار للناس المؤمنين خاصة ، ينتفعون به ، ويتفقهون فى مقاصده وحكمه ، يتبعون أوامره ، ويجتنبون نواهيه. فلا تتحرج أن تبلغه للناس يامحمد. وهذه الآية فيها تصبير للرسول ﷺ ومواساة له .

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

الخطاب من الله لكل العالم وذلك بقوله تعالى : ﴿ اتبعوا ﴾ ، أى اقتفوا آثار النبى الأمى الذى جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شىء ومليكه . ثم ينهاكم سبحانه أن تتبعوا غير طريق محمد ﷺ ، فهو أمين الله فى الأرض ، يبلغ كتابه سبحانه وتعالى، ويفسره لأتباعه بالسنة المطهرة . فالكتاب والسنة هما مصدرا التشريع فى الأرض . .
أما قوله تعالى: ﴿قليلا ما تذكرون﴾ فهى نظير قوله تعالى ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ (١)

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤﴾

---

(١) يوسف : ١٠٣ .

لقد كذبت قرى كثيرة رسلنا، فماذا كان مصيرهم ؟ أهلكناهم - أى أهل هذه القرى - بما ظلموا وكذبوا رسلهم وخالفوهم، ولم نهلكهم إلا بعد أن أنظرناهم وبعثنا إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ومذكرين، ولكنهم أصروا على كفرهم ، فجاءهم بأسنا - أى قدرتنا - فباءوا بغضب من الله ، فأورثهم الله خزى الدنيا وذل الآخرة ، فى نار يصلونها وبئس المصير.

والبيات المقصود به الليل، والقيلولة هى الاستراحة وسط النهار، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو .

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾

عندما وقع عليهم العذاب ، وشاهدوا قدرة الله ، قالوا إنا كنا ظالمين ، وهو اعتراف بباطلهم وظلمهم حين لا ينفع الندم .

فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

يسأل الله - سبحانه وتعالى - الخلائق يوم القيامة عما أجابوا به رسله فيما أرسلهم به، كما يسأل رسله أيضا عن إبلاغ رسالاته. وقال ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون[1] . ثم يحاسبون ، فإما الجنة بما صدقوا ، وإما النار لتكذيبهم لرسل الله، سبحانه وتعالى .

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

يزن الله أعمال العبد بالحق ، وهو الحق العدل ، فمن غلبت أعمالُه سيئاتِه فقد فاز ، ومن ثقلت فى الميزان سيئاتُه ، وخفت حسناته ، فقد أُدين لله. والله الحكم العدل ، ولا يظلم الناس شيئًا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ؛ لأن الدنيا غرتهم ، ففتنوا بها ، فضلَّ سعيهم ، وخابت مقاصدهم ، وجاءوا يوم القيامة خزايا، ليس لهم شىء، ولكن عليهم ، فأهلكتهم أنفسهم بما ظلموا وكانوا يعتدون .

---

(١) ابن كثير ٢ / ٢٠١ .

«والذى يوضع فـى الميزان يوم القيامـة قيل : الأعمال وإن كانت أعـراضًـا ، إلا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقلبها يوم القيامة أجسامًا . وقيل : يوزن كتاب الأعمال ، وقيل : يوزن صاحب العمل . . فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها»[1].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

مكن الله للإنسان فى الأرض ، فجعل له فيها معايش ، أقامها الإنسان بفضل الله عليه لما منحه من الفهم ، والقدرة على العمل ، والتحصيل ، وبما منحه من صحة فى بدنه ، وقدرة فى فهمه . ولولا ذلك لكان كالدواب يأكل ويشرب ولا يتدبر أمره . ولو أحسن الإنسان إلى نفسه وتدبر وتفقه فى نعم الله عليه لكان خيرًا له ، ولكن الشيطان زيَّن له فقلَّ شكرُه لله .

و﴿معايش﴾ أى مكاسب وأسبابًا تكون سببًا فى تحصيل الرزق والمعاش .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾

يمتن الله على أبناء آدم بأنه خلقهم ، ثم صورهم ، وجعلهم فى أحسن تقويم . ثم أمر الملائكة أن تسجد لهذا البشر الجديد ، ولهذا الخلق الجديد ، فسمعوا كلهم وأطاعوا عدا إبليس اللعين لم يكن يسمع ، ولم يكن مطيعا ، ولم يكن من الساجدين .

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

يقول تعالى للَّعين إبليس ما أحرجك وألزمك واضطرك أن لاتسجد لآدم إذ أمرتك؟فاحتج اللعين بأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين . وفى ظن إبليس أن النار أشرف من الطين ، وذلك لجهله .

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾

بعد تمرد إبليس وعصيانه بعدم سجوده لآدم ، قال الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لهذا

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٢ .

اللعين فاهبط منها ـ أى من الجنة ـ إنها ليست بدارك . إنها لم تكن للمتكبرين على أمرى . إنها مأوى للطائعين الممتثلين لأوامر الله ، وهم المسلمون لأمرى ، السامعون لنهيى . إنها محرمة على كل متكبر جبار يتعالى على أن يكون عبدًا متواضعًا لما يأمر به الله سبحانه وتعالى، أو ينهى عنه . فاخرج إنك من الصاغرين ، أى الحقيرين الذليلين ، وأسرع اللعين فسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يبقيه حيًّا فلا يهلكه حتى يوم القيامة . ولما كان قدرًا قديمًا فى علمه ـ سبحانه ـ فقد استجاب له ، فجعله طريق غواية وإفساد وإهلاك لمن عصاه سبحانه من ذرية آدم .

فالجنة للمتقين بكرمه وعفوه سبحانه لمن أطاعه ، والنار لمن أعرض عن ذكره وعصاه، فيقول للّعين إبليس ﴿ إنك من المنظرين ﴾ .

أى من المهلين إلى يوم البعث والحساب . لك ألا تموت فيها ، وليس ذلك من باب التكريم ، ولكن لحكمة يعلمها تعالى .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

أى بما ابتليتنى سوف أحسِّن لهم القبيح ، وأقبح لهم الحسن ، أرغبهم فى المعصية ، أبغضهم فى الطاعة ، أصدهم عن صراطك المستقيم ، أجعلهم بغوايتى يتخبطون فى المعاصى ، حتى أهلكهم بها . سأجمِّل لهم الدنيا فيظنونها النعيم وهى خيال باطل، سأظل حتى يوم البعث أجمل لهم طريق النار ، وأبغضهم فى طريق الجنة ، وبجهل أشقيائهم يظنوننى ناصحًا أمينًا . فويل لمن أطاع الشيطان .

يقول ابن كثير فى تفسير ﴿ من بين أيديهم ﴾ أى أشككهم فى آخرتهم ، ﴿ومن خلفهم﴾ أى أرغبهم فى دنياهم .

﴿ وعن أيمانهم ﴾ أى أشبه عليهم أمر دينهم .

﴿ وعن شمائلهم ﴾ أى أشهى لهم المعاصى(١) .

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

قرر سبحانه إخراج إبليس من رحمته ومن اتبعه من أولاد آدم .

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٢٠٤ .

و﴿مذءومًا مدحورًا﴾ أى حقيرًا صغيرًا قبيحًا .

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾

أباح الله تعالى لآدم وزوجته حواء الجنة ، يتمتعان فيها ، ويأكلان منها ومن جميع ثمارها إلا شجرة واحدة ـ كما تقدم فى تفسير ذلك فى سورة البقرة ـ لكن الشيطان لم يتركهما وشأنهما ، فقد حقد عليهما وحسدهما ، ومشى ساعيًا بينهما بالمكر والخديعة ليسلبهما هذه النعم والخيرات .

﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾

أخذ الشيطان يوسوس لهما ليأكلا من هذه الشجرة التى نهاهما الله عنها .

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١﴾

وما يزال الشيطان يوسوس لآدم وزوجته وهو يحلف لهما بالله أنه ناصح لهما ، مخلص معهما ، حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله .

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾

نجح الشيطان فى إغراء آدم وزوجه حتى أكلا من هذه الشجرة المحرمة ، وبدت لهما سوءاتهما بعد الوقوع فى هذه المعصية .

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾

بدأ آدم فى الأسف والندم ، واعترف بأنهما ظلما أنفسهما ، وإن لم يصفح الله ـ

سبحانه وتعالى ـ عنهما ويغفر لهما فسيكونان من الخاسرين الهالكين هو وزوجه . «ويقول الضحاك بن مزاحم فى قوله ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه » (١) .

قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

وقد أعلمهم الله سبحانه وتعالى كذلك أن لهم فى الأرض مستقرا ومتاعًا إلى حين ـ أى إلى أن ينتهى أجلهما الذى قدر لهما فى الدنيا بالموت ، وقيل : إلى قيام الساعة (٢) .

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

ألهم الله تعالى بنى آدم أن يصنعوا لأنفسهم ثيابًا ، يسترون بها عوراتهم .

ثم يقول ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ وقد اختلف المفسرون فى معناه . فمنهم من يقول : إنه هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة ، ويقول آخرون : هو الإيمان . ويقول ابن عباس : هو العمل الصالح . وعنه أيضًا : أنه السمت الحسن فى الوجه . . ومنهم من يقول : هو خشية الله . وكل هذه المعانى تصب فى معين واحد .

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

يحذر تعالى بنى آدم من إبليس وقبيله ، مبينا لهم عداوته القديمة لأبى البشر آدم عليه السلام فى سعيه فى إخراجه من الجنة التى هى دار النعيم إلى دار التعب والعناء ، والتسبب فى هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه . فيابنى آدم إن آمنتم بالله ورسوله فاحذروا وسوسة الشيطان ، إنه عدو لكم حاقد عليكم حتى قيام الساعة . وجل قول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ (٣) .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٦ . (٢) انظر : القرطبى ١ / ٣٢١ . (٣) الكهف : ٥٠ .

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

احتجوا على أن ما فعلوه ليس قبيحًا لأن آباءهم كانوا كذلك يفعلون ، فكيف تكون قبيحة وآباؤنا وأجدادنا يفعلونها ؟ هذا هو قولهم .

فقل لهم يا محمد إن الله لا يأمر إلا بالحق لأنه هو الحق . والحق هو طريق الله ، وطريق الله لا يتخلله باطل ، ولا يدعو إلا إلى صراط مستقيم ، فبعد ذلك تسندون إلى الله من الأقوال مالا تعلمون صحته !

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

القسط هو العدل والحق . فالذين يقيمون العدل فى الناس هم الذين يستطيعون أن يتجهوا بقلوبهم ووجوههم معا إلى الله تعالى ، وهم الذين يقدرون مكانة المسجد ، وقداسة مسئوليته ، وهم أصحاب القلوب الصادقة فى محبتها لله، وبذلك يلهمها الحق، وينطقها بما يرضيه ، سواء كانت فى بيت الله تدعوه ، وتتضرع إليه ، أو فى أى مكان آخر . وهى التى دائما تتصور وتتذكر رجعتها إلى الله بالعبادة ، أو عند نهاية هذه الحياة.

والإنسان بين فريقين : فريق هداه الله ، فهو صاحب الطاعة ، المستغرق فى توحيده لله ، وموعده الجنة . وفريق قد استغرقتهم الدنيا ، واستحوذ عليهم الشيطان ، فموعدهم النار .

أمر الله تعالى بثلاثة أشياء فى هذه الآية . أولا : أمر بالقسط ، والقسط هنا هو العدل والاستقامة ، وما القسط إلا شهادة أن لا إله إلا الله . ثانيًا : أمر بالصلاة .

والأمر الثالث : وهو أن ندعوه مخلصين له الدين . والدعوة له ـ سبحانه وتعالى ـ وإليه هى جزء من أعمال الصلاة أيضا ، لأن الصلاة فى معناها الأصلى الدعاء .

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١

خطاب لكل العالمين ، يشمل كل مسجد للصلاة فى أى بقعة من العالم .

ويقول ابن كثير[1] : إن العرب رجالاً ونساء كانوا يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار والنساء بالليل ، فأمرهم ـ سبحانه وتعالى ـ بالزينة ، والزينة هنا معناها اللباس ، وهو ما يوارى السوأة .

وهكذا جاء الإسلام وحرم همجية الجاهليين ، وأقام حضارته بمساواة وعدل ، فحدد للمرأة لباسها ، وللرجل لباسه ، وأصبحت عورة المرأة كل بدنها إلا الوجه والكفين ، وعورة الرجل ما فوق الركبتين إلى ما فوق السرة ، وأباح الله ـ سبحانه وتعالى ـ كل أكل حلال ، وكل لباس حلال ، فى حدود ما بُيِّن فى كتابه وفى سنة رسوله ـ ﷺ ـ التى هى شارحة للكتاب .

ويقول ابن عباس كما يذكر الإمام القرطبى فى مسألته : أحل الله فى هذه الآية الأكل والشرب ما لم يكن سرفًا أو مخيلة [2] .

قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢

القاعدة : أن كل شىء حلال إلا ما حرم الله . فكل طيبات الله ـ سبحانه وتعالى ـ مخلوقة لمن آمن بالله وعبده فى الحياة الدنيا وإن شاركهم فيها الكفار حبا فى الدنيا . لكنها خالصة وخاصة بهم يوم القيامة ، لا يشاركهم فيها أحد من المشركين أو الكفار، لأن الجنة محرمة على الكافرين .

قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣

أحل الله تعالى كل شىء ، ثم استثنى القليل القليل فحرمه . ومن أكبر ذلك الزنى ، والخمر ، والميسر ، والسرقة ، وأكل الخنزير ، والقتل بغير حق ، وعقوق الوالدين ،

(١) انظر ابن كثير : ٢/ ٢١٠ .
(٢) القرطبى : ٧/ ١٩١ .

والإفساد بين الناس ، والتكبر على أهل الصلاح ، وإيذاء الجار ، والتجسس عليه ، ولعب الميسر ، وأكل الربا إلخ ، وأن يبغى الإنسان على أخيه الإنسان ، بغير حق ، والشرك بالله أكبر الذنوب ، والمشرك بالله هالك لا محالة ، وأن يقول الإنسان ما لا يعلم، أو يظن بالله غير الحق ، والخروج على جماعة المسلمين . كل هذه فواحش وآثام حرمها الله ـ سبحانه وتعالى ـ على عباده المخلصين .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾

وكما أن للأفراد آجالاً فلكل أمة من الأمم أجل . والأمة معناها الجيل أو القرن . ويطول أجل الأمم بالعدل ، ومخافة الله ، واتباع دينه، وتنفيذ شرعه . ويقصر بما اكتسبت من إثم وضلال .

وإذا انتهى الأجل لا يستأخرون ساعة عن أجلهم المحدود ولا يستقدمون كذلك .

يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾

يأيها الناس ستأتيكم رسل وأنبياء يدعونكم إلى الله وإلى عبادته وتوحيده، وسيقصون عليكم الحرام والحلال بآيات منزلة عليهم من عندى فمن اتقانى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أما من لا يتقى الله ولا يخافه فله جزاؤه. لذلك يقول الحق :

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾

هؤلاء المستكبرون عن عبادة الله ـ سبحانه وتعالى والمكذبون بآياته ، ماكثون فى جهنم مكثا مخلدا .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

ليس أظلم ولا أطغى من عبد يفترى على ربه وخالقه ورازقه الكذب . إن هؤلاء المكذبين بالرسل وبالكتب هم المكذبون بالله . أولئك سيحاسبون على ذلك من الله، وإذا حضرهم الموت ، وجاءتهم رسل ربهم ليقبضوا أرواحهم قالوا لهم : فيم كنتم ؟ وأين الذين دعوتموهم من دون الله وهم خلق أمثالكم لا يملكون نفعًا ولا ضرًا ؟ قالوا وهم فى سكرات الموت ﴿ضلوا عنا﴾ ، أى ذهبوا عنا فلا نرجو نفعهم ولا خيرهم ـ كما يقول الإمام ابن كثير ـ وقد اعترفوا ساعتها وأقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

يقول الله العزيز الحكيم لهؤلاء الذين كفروا به وبرسوله ، ولكل من عصاه وكفر بأوامره بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى : ادخلوا أيها الكافرون فى أمم ومع أمم سبقتكم قد ضلت ضلالكم ، وأشركت بالله كما أشركتم ، وأبت إلا أن تكفر بما أنزل الله على رسله .

وعندما يجتمعون فيها تقول أخراهم لأولاهم ـ أى أخراهم دخولاً وهم الأتباع لأولاهم دخولاً وهم المتبوعون ـ الذين أضلوهم عن سواء السبيل مشيرين إليهم : ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار﴾ . أى ضعِّف عليهم العقوبة لأنهم فى الجرم أكبر منا ، ولأنهم هم الذين وجهونا إلى هذه الوجهة ، فعصيناك ، وخالفنا أمرك ، وكذبنا بك وبرسولك . فيقول الحق سبحانه وتعالى : لكل صنف منكم ضعف ولكن لا تعلمون .

ولكن الموقف لا ينتهى فى هذه الحال إذ يرد المتبوعون على الأتباع قائلين لهم :

وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

يقولون لهم ما كان لكم علينا من فضل ، لقد ضللتم كما ضللنا ، فنحن وأنتم سواء . وهذه الحال نظير قوله تعالى كما أخبر الحق عنه فى ساعة المحشر ﴿ولو ترى إذ

الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » [1] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

إن الذين استمعوا لآيات الله فاستكبروا وتعالوا على سماعها ، وأبوا أن يعوا معانيها وأوامرها ، هؤلاء لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا لأرواحهم عند موتهم ، ولكن تساق إلى السعير وإلى النار ، لتسأل وتحاسب ، وتظل فى العذاب ، والجنة محرمة عليهم .

ولنتصور هل من الممكن أن ينفذ الجمل من ثقب الإبرة ؟! هذا مستحيل . فكذلك دخولهم الجنة مستحيل . فإذا دخل الجمل من ثقب الإبرة ، دخل هؤلاء الجنة . كذلك يجزى الله ـ سبحانه وتعالى ـ المجرمين ، الذين أبوا أن يوحدوه ، ويصدقوا برسوله .

هؤلاء المكذبون ﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ أى : فُرُش . ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ أى اللحف . وكذلك يجزى الله الظالمين .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾

انتهى المشهد السابق برعبه وقسوته وضغطه على النفوس ، وجاءت تلك الآية تربط على القلوب الندية ، بتوحيدها لله ، وعملها للصالحات ، من توحيد لله ، وصلاة ، وكل سائر العبادات التى كلف بها الإنسان المسلم ، الذى أسلم وجهه لله ، ثم أطاع رسوله ﷺ ، فتلقى الأوامر بنداوة نفس ، واطمئنان قلب . والله رحيم بعباده الذين آمنوا ، وصدقوا رسله . لا يكلف إلا على قدر طاقة الإنسان وبقدر ما يستطيع أن

(1) سبأ : ٣١ .

يحتمل من التكاليف الشرعية ، من تبتل واستغراق في العبادات ، ليشعر الإنسان بمعية الله ـ سبحانه وتعالى ـ معه . وهؤلاء أصحاب المعية الإلهية هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

نزع الله ما فى قلوب أهل الجنة مما كان يقع بين الخلق فى الدنيا ، من حقد أو حسد ، وأدخلوا الجنة تجرى من تحتها الأنهار . ساعتها قال أصحاب الجنة : الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وقد أخذنا كل ما كنا نتمناه فى الدنيا ، ولم يكن عملنا فى الدنيا يجازيه ، ولكن فضل الله ـ سبحانه وتعالى ـ يؤتيه من يشاء ، وهو ذو الفضل العظيم . ويقولون ساعتها أيضا : الحمد لله الذى جعلنا وألهمنا الاستجابة لرسل ربنا لما جاءتنا ، ففزنا بذلك النعيم . وتحييهم الملائكة : ﴿ أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾

أهل الجنة فى الجنة قد كشف عن عالمهم الحجاب ، فشاهدوا أهل النار فى عرصاتها ، فقالوا لهم : إننا فى نعيم مقيم من الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل أنتم فيما وعدتم به من الحق فى عذاب مقيم ؟ فقالوا ـ أى أصحاب النار ـ مجيبين على سؤال أهل الجنة : نعم قد وجدنا ما لم نصدقه فى الدنيا . وجدنا نارًا وعذابًا مقيما . فأذن مؤذن بينهم يعلن فى أذانه : أن لعنة الله على الكافرين بما ظلموا .

هذه اللعنة على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويريدون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة لكى لا يتبعها أحد . وهؤلاء هم الكافرون بلقاء الله ، وبالآخرة ،

وبالبعث . جاحدون لكل ما أنزل الله على رسله بالحق .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هذا الحجاب الذى ضربه الله بين النار والجنة هو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، وهو السور الذى ذكر فى موضع آخر من القرآن **﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾** (١) **﴿وعلى الأعراف رجال﴾** أى على أعراف السور (وهى أعلى شىء فيه) .

و يقول ابن كثير : «واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم » (٢) .

أما قوله تعالى : **﴿ يعرفون كلا بسيماهم ﴾** أى يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه .

﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

إن أصحاب الأعراف ينظرون إلى أهل النار ويعرفونهم بسيماهم ـ أى بسواد وجوههم ـ وسرعان ما يتعوذون بالله أن يجعلهم معهم ، ويرفعون أكفهم إلى الله قائلين : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذا تقريع أهل الأعراف لرجال من أئمة المشركين وقادتهم ، يعرفهم أهل الأعراف بسيماهم ، ويقولون لهم **﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾** ـ أى كثرتكم ـ فلا تنفعكم هذه الكثرة ولا جموعكم التى كانت فى الدنيا من عذاب الله ، بل تذوقون اليوم ما تذوقون من أشد أنواع النكال والعذاب . ثم يقولون لهم أيضا **﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم ﴾** إشارة إلى قوم من المؤمنين الفقراء فى الدنيا أنه لا ينالهم الله فى الآخرة برحمة .

(١) الحديد : ١٣ . (٢) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢١٦ .

وفى هذا درس عظيم لمن يستهزئ بعباده ، ويستهزئ بالمؤمنين الضعفاء الفقراء ، وينظر إليهم نظـرة حقد واستعلاء وتكبر . فعسى أن يكون هذا الفقير المؤمن المتواضع خيرًا عند الله من هذا المتعنت الغنى الكافر .

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

ونادى أهل النار أهل الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو نعم الله التى أفاضها عليكم . فأُجيبوا من أهل الجنة : أن الله حرمهما على الكافرين . فتستغرقهم النار فى عرصاتهم ، لأنهم كانوا بأمر الله ونهيه كافرين

وفى الآية : دلالة على أن سقى الماء من أعظم القربات . وقد غفر الله ذنوب الذى سقى الكلب . فكيف بمن يسقى واحدًا من المؤمنين ، موحدًا باللهوأنجاه من عطشه؟

وفيها أن أصحاب النار يستذلون يوم القيامة عندما يرفض طلبهم بشربة الماء التى طلبوها من أهل الجنة ، لأن الله حرمهاعليهم ، فقد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا، وغرتهم الحياة الدنيا وزخرفها ، ونسوا أوامر الله فلم ينفذوها ، ولم ينتهوا عما نهوا عنه .

فاليوم يعاملهم الله سبحانه وتعالى معاملتهم له فى الدنيا ، ينساهم كما نسوا لقاءه. وجل قوله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى* قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ (١)

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ

---

(١) آيات ١٢٤ : ١٢٦ طه

فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

يخبر الله تعالى « عن إعذاره إلى المشركين بإرسال الرسل إليهم ، وبالكتاب الذى جاء به الرسول وأنه كتاب مفصل مبين .[1] » . لقد أنزل ـ سبحانه وتعالى ـ القرآن العظيم ، وفصل فيه كل ما يحتاج إليه الإنسان فى الدنيا ، فى كل عصور الدنيا حتى قيام الساعة .

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أى ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار . «والنظر ههنا بمعنى الانتظار والتوقع ، فإن قيل : كيف يتوقعون وينتظرون مع جحدهم له وإنكارهم ؟ قلنا : لعل فيهم أقوامًا تشككوا وتوقفوا ، فلهذا السبب انتظروه . وأيضا إنهم وإن كانوا جاحدين ، إلا أنهم بمنزلة المنتظرين من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لا محالة » [2] .

أما قوله تعالى : ﴿ يوم يأتى تأويله ﴾ يريد يوم القيامة . إن الكفار سيرون يوم القيامة عاقبة أمرهم ، وأنهم خسروا كل شىء بعدم تصديقهم لله لما بعث إليهم الرسل والأنبياء . ويوم القيامة يعلمون أن كل ما جاء من عند الله على أيدى الرسل ، وعلى لسان سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ كان هو الحق . ويقولون ياليتنا صدقنا برسل ربنا ، إنهم جاءوا بالحق وقد كنا ظالمين . وعندها لا ينفع الندم ، فيبتغون فى هذه الساعات شفعاء يخلصونهم ويشفعون لهم عند ربهم مما هم فيه ، ولات حين مناص ، فإنهم ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ بدخولهم النار ، وذهب عنهم ما كانوا يتخذونه من دون الله ، فلا يشفعون لهم ساعتها ولا ينصرونهم ، ولا يقدرون أن يشفعوا لهم .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

إن الله العزيز الحكيم خالق السموات والأرض ، وهو الحكيم الخبير ، وهو الذى استوى على عرش قدرته وحكمه ، بعد أن سوّى السموات والأرض فى ستة أيام ، ويغشى الليل النهار ـ أى يجعله كالغشاء ـ أى يذهب ظلام الليل بضياء النهار ،

(١) ابن كثير : ٢/ ٢١٩ .

(٢) انظر تفسير الرازى : ١٤ / ٩٥ .

وضياء النهار بظلام الليل ، وكل من الليل والنهار يطلب الآخر طلبًا حثيثا ـ أى سريعًا لا يتأخر عنه ـ كل منهما يطلب الآخر دائما من غير فتور . سبحانه له الخلق والأمر ـ أى له الملك والتصرف فى خلقه كيف يشاء .

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذى هو صلاحهم فى دنياهم وأخراهم ، فاشكروا ما أنعم الله به عليكم ابتداء من الوالدين ، ثم بالصحة والحياة والرزق ، عندما أصبحتم مسئولين عن أنفسكم . فرزقكم القدرة على العمل والكسب . فادعوه مخلصين له الدين ، وثقوا فى أنكم إن أحسنتم فى عبوديتكم له ، أحسن إليكم بالتوفيق والسداد فى الأمر ، واحذروا أن تعتدوا على أمر من أوامره وعلى خلقه بغير حق ، إنه لا يحب المعتدين . وقوله تعالى : ﴿ تضرعًا ﴾ أى تذللاً واستكانة له سبحانه ﴿وخفية﴾ بقنوت قلب ، وخشوع واعتقاد بوحدانيته وربوبيته ، لا جهارا أو نفاقًا . ثم ينهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن الفساد فى الأرض ، والإفساد فيها ، طالبًا أن ندعوه خوفا من عذابه ، وطمعا فى ثوابه . لأن رحمته ـ سبحانه وتعالى ـ قريبة من المحسنين ، الذين يتبعون أوامره . وجل قوله : ﴿ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون﴾ (١) .

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

سبحانه الله القادر وبقدرته ﴿ يرسل الرياح بشرًا ﴾ أى مبشرة للخلق بأن رحمة الله وفضله ستسوق الرياح بالأرزاق ، فتحمل المطر بإذن الله إلى الأرض الميتة ـ غير المنبتة ـ

(١) الأعراف : ١٥٦ .

فتنبت بقدرته ـ بأسباب يجريها على أيدى العباد ، من بذر الحب فى الأرض بعد حرثها وإصلاحها للزراعة وذلك الخير ، اجتباءً وعطاءً على صلاحهم ومعرفتهم ، أو ابتلاء ليكون عطاؤه فى الآخرة لمن شكر وأحسن فى تصريف النعم ويكون عقابه لمن أنكر المعروف الذى ساقه إليه الله ، فبدل أن يشكر النعمة عصى بها الله سبحانه وتعالى . .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب مثلاً أنه كما يحيى هذه الأرض الميتة بالماء والخصب والنماء ، كذلك يحيى الأجساد بعد أن تصبح رميماً ـ ترابًا ـ يوم القيامة .

وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إن البلد الطيب ـ أى الأرض الطيبة ـ يخرج نباتها سريعًا حسنا مستساغًا .

إن الله سبحانه وتعالى ينمى زراعة هذه البلدة ، ويزيد صلاح أهلها ، فيجعلهم طيبين . ويصلح لهم أرض قريتهم ومزروعاتها ، فيجرى لها المطر ، ويثمر شجرها ، وينبت أرضها .

أما البلد الذى خبثت جماعته ، وضل أهله عند عبادة الله وتوحيده ، فهؤلاء يصبح ما تسوقه الأرض لهم من خير نقمة لا نعمة .

إن النعمة لا تتم إلا بطاعة الله ، والعبرة ليست بكثرة الكسب من الأرض ، أو بأعمال أخرى ، ولكنها بطاعة الله فى الكسب ، وفى إنفاقه ، وفى إدخاره . وكذلك ـ سبحانه وتعالى ـ يصرف الآيات لقوم يشكرون . فالشكر لله أصل كل نعمة .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم فى أول السورة ومايتعلق بذلك ومايتصل به ، وفرغ منه ، تعود بنا السورة فى سياقها إلى القصص عن جماعة الأنبياء ، ابتداءً بنوح ـ عليه السلام ـ ، لأنه أول من أُرسِلَ نبيًا ورسولا بعد آدم عليه السلام .

فلما أرسل الله نوحًا ـ عليه السلام ـ قال لهم ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ فرد عليه الكبراء والسادة من قومه ، الذين يملكون زمام الأمور قائلين : ﴿ إنا لنراك فى ضلالٍ مبين ﴾ ، لأنك تدعونا إلى ترك عبادة هذه الأصنام ، التى وجدنا عليها أباءنا ، فرد عليهم قائلا : ﴿ يا قوم ليس بى ضلالة ﴾ ولست بمختل ﴿ ولكنى رسول من رب العالمين ﴾ هدانى ربى وما أنا بضال . وقد جئت ﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ﴾ وأقول لكم ما لاتعلمون .

هكذا كان نوح مع قومه الذين كذبوه واتهموه بالضلال ، وأصروا على عدم تصديقه .

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

قال نوح لقومه : لا تعجبوا من هذا ، فإننى رجل منكم ، وإرسال الله ـ سبحانه وتعالى ـ لرجل منكم رسولا إليكم لطف منه ورحمة بكم وإحسان لكم ﴿ لينذركم ولتتقوا ﴾ غضب الله ونقمته ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ . لكنهم تمادوا وكذبوا وخالفوا وعصوا . وما آمن معه منهم إلا قليل .

﴿ فأنجيناه ﴾ أى أنجيناه من الغرق هو والذين اتبعوه وركبوا معه السفينة فقط ﴿ وأغرقنا ﴾ الباقين ﴿ الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وعاندوه .

﴿ إنهم كانوا قوما عمين ﴾ لا يبصرون الحق ولايهتدون إليه .

وبذلك نقول إن أمة الإسلام من لدن آدم ـ عليه السلام ـ لم تتعدد ، ولكنهم أمة واحدة ، عاشت فى حجر نوح بعد السفينة ، فجاء إبراهيم فنادى الشاردين ، فنجى الذين لبّوا وأسلموا من جديد وجوههم لله رب العالمين .

يقول ابن كثير: « وهذه سنة الله فى عباده فى الدنيا والآخرة : أن العاقبة فيها للمتقين ، والظفر والغلب لهم كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجّى نوحًا وأصحابه المؤمنين »[1] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ
أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ
جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ
ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ
عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

يقول تعالى وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا ، كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا . وعاد هى إحدى قبائل العرب موطنها بالأحقاف ، ما بين اليمن وحضرموت . وكان لهم أصنام يعبدونها . وكان هود نبى الله من أشرفهم نسبا ، وأعلاهم منزلة . يعرفونه كبيرا فى قومه. إذ عرف بمكارم الأخلاق ، وجليل المحامد والخصال ، أرسله الله إليهم ليدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، فنادى فيهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ تعبدونه ﴿ أفلا تتقون ﴾ قالوا: ﴿ إنا لنراك فى سفاهة ﴾ أى فى ضلالة . فأجابهم فى أدب الأنبياء، وكمال المخبتين ﴿ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول﴾ مبعوث من رب العالمين، رب كل الخلق، الذى بيده ملكوت السموات والأرض، وهو الذى يرزقكم الفهم والعقل فأحسنوا النظر والفهم فيما أنتم عليه، ولما أدعوكم له .

ولكنهم لم يهتدوا، وزادت مقاومتهم له ـ عليه السلام ـ وقال لهم : ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ أي أنه يقول لهم : لا تعجبوا أن الله

بعث إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم عذابه ولقاءه ، بل احمدوا الله واشكروه على نعمه الكثيرة : أن جعلكم من ذرية نوح . ﴿ وزادكم فى الخلق بسطة ﴾ - أى زاد طول أجسامكم على نظرائكم من أبناء جنسكم - واذكروا يا قوم نعم الله الكثيرة ومننه عليكم لعلكم تفلحون .

لكنهم أعلنوا عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ، فقالوا له ﴿أجئتنا لنعبد الله وحده ﴾ ؟ وكأنهم يقرون إقرارًا واضحًا ظاهرًا أن الله وحده لا يكفى لأن نعبده ، وأنه لابد أن يكون مع الله إله آخر ، ولابد أن نعبد ونشرك مع الله آلهة أخرى . فازدادوا إثمًا على إثم وقالوا : ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

وهنا أنذرهم هود وقال لهم : قد وقع عليكم غضب من ربكم العلى القدير الكبير، وسترون عاقبة الظالمين . والرجس معناه السخط والغضب ، فهأنتم أولاء أيها القوم تبادلوننى الحجة ، وتحاجوننى فى هذه الأصنام ، التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهى أحجار لا تضر ولا تنفع ﴿فانتظروا﴾ عذاب الله ﴿ إنى معكم من المنتظرين ﴾ تهديد من الله - سبحانه وتعالى - لهؤلاء القوم . لذلك يقول الحق : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ .

والمتتبع لقصة هود فى القرآن الكريم وقومه يرى أن عذابهم كان الريح التى أرسلها الله عليهم ، وهى الريح العقيم ، التى وصفها الله فى القرآن بقوله ﴿ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ (1) .

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ

---

(1) الذاريات : ٤٢ .

ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ
إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ
يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ
فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ
رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

يخبر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنه قد أرسل إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا ، فقال لهم مثل ما قال نوح وهود : ﴿ اعبدوا الله ﴾ ثم قال : وهذه آيات قد جاءتكم بينة من ربكم ، أى حجة من الله عليكم ، لأنهم قد طلبوا منه علامة على أنه رسول من عند الله فطلبوا منه أن تخرج لهم من صخرة صماء يختارونها بأنفسهم ناقة . ظانين أنه لا يقدر على ذلك ، ولا يستطيع تنفيذ ذلك . افتراء منهم وكذبا وإفكا وتعجيزا . فما كان من صالح إلا أنه أخذ عليهم المواثيق والعهود والشروط ، إذا جاءهم بهذه الناقة فماذا يكون حالهم ؟ أيؤمنون بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ويعبدونه وحده ؟ فأعطوه على ذلك العهود والمواثيق . وقام صالح ـ عليه السلام ـ ودعا ربه ، وتضرع إليه . فما كان إلا أن تحركت الصخرة ، ثم تمخضت عن ناقة يتحرك جنينها بين جنبيها . كما طلب القوم أن تكون ناقة عشراء . وخرجت الناقة ومعها ابنها أو وليدها بعد ما وضعته بينهم . وكانوا من بجاحتهم يشربون لبنها ، ويحتلبونها ، ويملئون أوعيتهم . فقال لهم صالح : هذه آية الله ﴿فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء ﴾ . فلما اشتد تكذيبهم ، أرادوا أن يقتلوا هذه الناقة ، ليستأثروا بالماء الذى تشرب منه . واتفقوا على قتلها . فعقروا الناقة وقتلوها .

فلما علم بذلك صالح ـ عليه السلام ـ ، جاء إليهم وبكى ، ودعا عليهم ﴿فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ أى صرعى لا أرواح فيهم . ولم يفلت منهم أحد صغيرا كان أو كبيرا . ذكرًا كان أو أنثى . ولم يبق منهم غير صالح ومن اتبعه رضوان الله عليهم .

ويقول القرطبى [1]: « كانت صيحة شديدة خلعت قلوبهم؛ كما فى قصة ثمود فى سورة هود. . . فأخذتهم الصيحة». ﴿ فأصبحوا فى دارهم ﴾ أى فى بلادهم ﴿جاثمين﴾ أى لاصقين بالأرض على ركبهم ووجوههم. وذلك من شدة الهول والعذاب. وأصل الجثوم هذا يكون للأرنب.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾
وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ
أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

هذه هى القصة الرابعة التى تتكلم عن الأنبياء وفعل أقوامهم معهم.

يقول ابن كثير والقرطبى: إن لوطا هذا هو ابن أخى إبراهيم الخليل ـ عليهما السلام ـ، واسمه لوط بن هارون بن آزر.

ويذكر أنه آمن مع إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهاجر معه إلى الشام، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله عز وجل، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر.

ولكن سدوم كانت أمة باغية، وهى أول من عزف عن شرع الله فى زواج الرجال والنساء، وقد مارسوا فاحشة اللواط وهو إتيان الذكور دون الإناث. وذلك أمر مخالف لسنة العمران، واستقامة البشرية. قال لهم نبيهم: ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾. الإسراف هنا بمعنى الجهل. لأنه استعمال للشيء فى غير مقصده ومحله.

ولكنهم لم يرتدعوا عن غيهم. بل ماكان جوابهم للوط إلا أن هموا بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم، وقالوا: ﴿ أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ وذلك عهد الظالمين دائماً، يقولونه على سبيل السخرية بهم، ويتطهرهم من الفواحش. وقد قدر الله للوط ومن اتبعه النجاة من غم المعصية. غير أن امرأته كانت من ثمود، فإنها لم تؤمن به، بل كانت على دين قومها، وكانت تتفق مع هؤلاء القوم الفاعلين للفاحشة بإشارات بينها وبينهم.

(١) القرطبى: ٧/ ٢٤٢.

فلما جاءهم العذاب أصابها ما أصابهم ، وبقيت معهم، وأمطر الله عليهم حجارة مسنونة ، هلاكًا لهم على فعلهم هذا . . ويقول الإمام القرطبى :

«سرى لوط بأهله كما وصف الله ﴿ بقطع من الليل﴾ ، ثم أمر جبريل ـ عليه السلام ـ فأدخل جناحه تحت مدائنهم فاقتلعها ورفعها حتى سمع أهل السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم جعل عاليها سافلها، وأمطرت عليهم حجارة من سجيل» (١).

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ
وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾
وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ
بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ
وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ
ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ
وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾
قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ
لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ

---

(١) تفسير القرطبى : ٧ / ٢٤٧ .

جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

هذه هى القصة الخامسة فى سياق هذه السورة عن الأنبياء فيقول الحق : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا ﴾ كما قال فى القصص الأربعة السابقة والتقدير « وأرسلنا إلى قوم مدين أخاهم شعيبا » . والأخوة هنا كما يقول الإمام الرازى : «أخوة فى النسب ولم تكن أخوة فى الدين» .

ومدين اسم بلد وقطر، وقيل اسم قبيلة ، وقيل هم من ولد مدين بن إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ . وشعيب كان واحدًا منهم ، يذكر المفسرون أنه ينتهى بنسبه إلى سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

وكان يقال له خطيب الأنبياء لبلاغته ، وقوة بيانه ، وحسن رده على قومه الذين كانوا أهل كفر بالله ، وأهل بخس للمكيال والميزان . ﴿ بينة ﴾ أى بيان ، وهو مجىء شعيب بالرسالة . والواضح أن رسالة شعيب كانت رسالة جامعة . فكما تدعو إلى التوحيد ، تدعو كذلك إلى الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى .

ونأخذ من ذلك أن رسالة الأنبياء من لدن آدم كانت عقيدة وشريعة . غير أن اكتمال الشريعة كلية كان على يدى خاتم الرسل محمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ . ونلحظ جزئية التشريع فى الرسالات السابقة فى قول شعيب ﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ . ثم يدعوهم إلى عدم الفساد فى الأرض بعد إصلاحها ، لأن الأنبياء الذين سبقوه قد أصلحوا ، ثم لما طال الأجل بعد موتهم عادت الناس إلى الإفساد فى الأرض ، فأمرهم سيدنا شعيب ـ عليه السلام ـ ألا يطففوا فى المكيال والميزان ، أى ألا يحتالوا فى النقصان منهما .

وقوم شعيب كانوا مشهورين بهذه العادة الدنيئة .

والظاهر أن قوم شعيب كانوا يتعقبون المؤمنين ، وكانوا يصدون الناس عن الإيمان بالله ، ولا يريدون الإصلاح ، بل يصرون على هذا الصّد عن الإيمان بالله ، وعما جاء به شعيب ـ عليه السلام ـ من الخير والتوحيد .

إذْ يقول الحق لهم : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ حيث إنهم كانوا يوعدون من آمن بالله ورسوله بالعذاب والحرب بكل صراط ـ أى بكل طريق ـ . وقد كشف الله ـ سبحانه

وتعالى ـ على لسان سيدنا شعيب أنهم يودون أن يكون الطريق إلى الله المؤدى إلى طاعته طريقًا أعوج مائلاً ، فيقول تعالى لهم : لا تفعلوا ذلك أيها القوم ، خصوصًا أنكم كنتم مستضعفين فى الأرض ، لقلة عددكم فكثركم الله ، وزاد من أعدادكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك ، وانظروا إلى حال الأمم السابقة عليكم الذين كانوا يفعلون فعلكم ، كيف كانت عاقبتهم ؟

ثم دعاهم إلى الالتجاء إلى الله وحكمه عندما قال لهم : إن كنتم قد اختلفتم علىّ ، فهناك طائفة منكم آمنت بما أرسلت به ، وطائفة أخرى لم تؤمن ، فاصبروا ـ أى انتظروا ـ حتى يفصل الله بيننا وبين قومنا وهو خير الحاكمين ، فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

فما كان جواب المستكبرين عليه من قومه ، وزعماء الشرك ، ورءوس الضلال والكفر إلا أن قالوا : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ أى من أرضنا التى نسكنها ، إن لم تعودوا فى ملتنا ـ أى فى ديننا ـ وما نحن عليه من اعتقاد . فقال شعيب لهم ﴿ أولو كنا كارهين ﴾ لهذا الاتباع ، وكارهين للدخول معكم فى ملتكم ، أتجبروننا عليه؟ إننا إن فعلنا ذلك فإنما نفترى على الله ، نشرك به ، ونجعل له أندادًا ، ونكذب عليه . كل ذلك إن عدنا فى ملتكم بعد أن وهبنا الله أعظم منحة فى البشرية ، وهى الالتجاء إليه ، والعبودية له وحده . لا يحق لنا أن نعود فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها . ﴿ وسع ربنا كل شىء علمًا ﴾ .

فاحكم يا رب بيننا وبين هؤلاء القوم ، واجعل النصر لنا عليهم . فأنت خير الحاكمن الفاتحين العادلين . وهذا الدعاء هو عين من عيون الحق . ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ أى خير الحاكمين ، فإنه العادل الذى لايجور أبدًا . لكن القوم أصروا على كفرهم وقالوا لبقية قومهم : ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذن لخاسرون ﴾ وكذلك جثم الشيطان عليهم بظلمات كثيفة . فأخذتهم رجفة شديدة ، وأهلكهم الله برياح عاصفة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين على هيئة هياكل صماء ، عبرة لمن يأتى بعدهم . وكذلك يفعل الله بالظالمين .

وأصبحوا ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى كأن لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ، لما أصابتهم النقم والمصائب .

وتولى عنهم شعيب ـ أى تركهم ومعه جماعة المؤمنين ـ هو يقول : يا قوم ما لى ذنب

﴿لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم﴾ ، ولذلك فإنى غير آسف عليكم .

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾

إن البأساء هى ما يصيب القوم من أمراض وأسقام . أما الضراء فهى ما يصيب القوم من فقر وعوز .

وما يفعل الله ذلك إلا اختبارًا منه سبحانه وتعالى لهذه الأمم التى يُرسل إليها الرسل . لعلهم يتضرعون ويخشعون ويبتهلون ولا ينسون الله .

ولما عرّفنا الله تعالى أحوال هؤلاء الأنبياء ، وأحوال ما جرى على أممهم ، كان من الجائز أن يظن أنه تعالى ما أنزل عذاب الاستئصال ـ أى الخزى والدمار والهلكة ـ إلا فى زمن هؤلاء الأنبياء فقط .

فبين ـ فى هذه الآية ـ أن هذا الجنس من الهلاك قد فعله بغيرهم ، وبين العلة التى بها يفعل ذلك ﴿ لعلهم يضرعون ﴾[1]. والتضرع هو الخضوع والانقياد لله ، سبحانه وتعالى .

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ ، أى حولنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن مرض إلى صحة ، ومن عسر إلى يسر ، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك ، ﴿حتى عفوا﴾ أى كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم[2] ومع هذا لم يزدهم كل ذلك إلا طغيانا وكفرا ، ولم ينيبوا إلى الله سبحانه ويشكروه شأن من يؤمن بالله ، عز وجل .

فكان رد المولى سبحانه وتعالى عليهم أن أخذهم بالعقوبة بغتة على عدم استعداد منهم .

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

(١) تفسير الرازى : ١٤ / ١٨٣ . (٢) انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٣٣ .

ولو أن الخلق من أهل القرى والبلدان آمنوا بالله ، وأرجعوا كل فعل إليه ، وعرفوا أنه الخالق والرازق والمنعم والمتفضل ، وعبدوه وفق هذه المعرفة به سبحانه ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، أى لجعلنا أرزاقهم واسعة عريضة غير محدودة . فيصبحون فى نعمة من الله وفضل . ولكن كما كذبوا رسل الله ، وكفروا بالله أخذناهم بما كانوا يكسبون ، من الإثم ، وتكذيب الرسل ، ومعصية الله ، سبحانه وتعالى .

ثم قال تعالى مخوفا ومحذراً من مخالفة أوامره :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ٩٧

وأهل القرى، أى القرى الكافرة . وبأسنا ، أى عذابنا . وبياتًا . أى ليلاً . . أوأمن الناس أن يأتيهم بأس الله وشدته وعذابه وهم فى قراهم نائمون ، أو لاهون فى غرورهم وانصرافهم عن أمر الله ورسله ؟!

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ٩٨

أى أوأمن أهل القرى أن يأتيهم العذاب بغتة فى وقت الضحى حال شغلهم ولهوهم عن الله ؟إن الله قادر أن يهلكهم فى ذلك الوقت أيضًا ، بل وفى كل وقت وحين .

﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ٩٩

ومكر الله فى الآية ، أى بأسه وعذابه ونقمته وأخذه إياهم فى حال سهوهم وغفلتهم ، ولهذا قال الحسن البصرى رحمه الله : «المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف . والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن » [1].

إنهم إن كانوا قد أمنوا مكر الله فهم خاسرون ؛ لأن المؤمن لا ينسى الله أبدًا ، ولا ينسى نقمه وعذابه ، وأنه فى كل الحالات مبتلى .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ١٠٠

إننا لو نشاء . . ومشيئتنا هى الغالبة . . لأصبناهم بذنوبهم ، وأهلكناهم بكفرهم ، ونطبع على قلوبهم بالكفر والهلاك فى عرصات جهنم ، فيدخلون النار لا

---

(١) تفسيرابن كثير : ٢ / ٢٣٤ .

يسمعون إلا حثيثها ، ولا يشهدون إلا دخانها وظلمتها . إنهم كانوا كافرين أفلم يهتدوا إلى معرفة ذلك ؟!

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

لما قص الحق على نبيه محمد ﷺ تلك القصص تسلية له ، وذكر أنه تعالى قد قدم لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله وتسليماته عليهم . من أنبائها أى من أخبار أهلها حينما ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ ، أى الحجج على صدقهم فيما أخبروهم به .

بين سبحانه أنهم ما كانوا ليؤمنوا ـ بعد هلاكهم ـ لو أنه ـ عز وجل ـ أحياهم ، وذلك كفرا منهم وعنادا . هذه هى أخبارهم يا محمد وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ أى مثل طبعه تعالى على قلوب هؤلاء المذكورين يطبع على قلوب الكافرين بمحمد ﷺ (١) .

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

يقول ابن كثير « أى ما وجدنا لأكثر الأمم الماضية من عهد ، ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين ، خارجين عن الطاعة والامتثال والعهد الذى أخذ عليهم فى الأصلاب ، أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله إلها غيره بلا دليل ولا حجة » (٢) .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

يذكر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنه أرسل موسى ـ عليه السلام ـ بآيات من ربه ، ورغم كل ذلك ما كان من فرعون وقومه إلا أن كذبوا بالآيات الواضحة الظاهرة ؛ وبدل أن يسلموا لموسى ويؤمنوا كفروا بالله ، وحاربوا موسى ، فنكل الله بهم ، ونجى موسى ومن ومعه .

---

(١) انظر تفسير القرطبى : ٧/ ٢٥٥ . (٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٣٥ .

يقول الرازى : « اعلم أن هذه هى القصة السادسة من القصص التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة . وذكر فى هذه القصة من الشرح والتفصيل ما لم يذكر فى سائر القصص، لأن معجزات موسى كانت أقوى من سائر معجزات الأنبياء ، وجهل قومه كان أعظم وأفحش من جهل سائر الأقوام »(١).

وقوله تعالى ﴿ فظلموا بها ﴾ أى كفروا بها ولم يصدقوا .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾
قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا
هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ
فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾
وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ
نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

هذه مناظرة رائعة أوردها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بين موسى وفرعون ، مليئة بالحجج والبراهين الحسية والمعنوية ، التى تدحض حجج فرعون وسحرته .

إذ قال موسى لفرعون : ﴿ إنى رسول من رب العالمين ﴾ ورب العالمين هورب كل شىء ومليكه ، لا يقول إلا الحق، وأنا رسول من عند هذا الحق . فأنا لا أقول إلا الحق . لأن رسول الله دائما لا يقول إلا الحق . ﴿ حقيق علىَّ ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ .

وإنى قد جئتكم ببية ـ أى بحجج قاطعة ـ وهبنى الله إياها دليلا على صدقى فيما جئتكم به ، وأطلق معى بنى إسرائيل وخلّهم ليتخلصوا من قهرك وعذابك وطغيانك ،

(١) انظر الرازى : ١٤/ ١٨٩ .

ليتوبوا إلى ربهم ، ويرجعوا إلى عبادته وحده ، فإنهم من سلالة نبى كريم هو إسرائيل ، وهو : «يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن » . فرفض فرعون طلبه وقال له : لست بمصدق لك ، وسوف لا أعطيك بنى إسرائيل ، وإن كانت معك حجج أو بينات أظهرها لنا ، وأرنا إياها إن كنت صادقًا فيما تزعم وتدعى . فألقى موسى عصاه آية ، وإذا بالعصا ﴿ ثعبان مبين ﴾ أى عظيم وواضح. ثم نزع موسى يده من جيبه ﴿فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ شديدة البياض شديدة النور . يذكر القرطبى أن ابن عباس قال : كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض .

وقيل كانت تخرج يده بيضاء كالثلج تلوح فإذا ردها عادت إلى مثل سائر بدنه[1] .

وهذا هو معنى قوله فى آية أخرى ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾ [2] أى من غير مرض أو برص .

﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ والملأ : هم الجمهور والسادة وعلية القوم. قالوا : ﴿إن هذا﴾ سحر وإن موسى ﴿ لساحر عليم ﴾ بالسحر ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم﴾ بسحره.

فقال فرعون ردا عليهم ﴿ فماذا تأمرون ﴾؟ أى أشيروا علىّ .

﴿ قالوا أرجه ﴾ أى أخره أو احبسه ، وابعث فى كل الأقاليم و ﴿ المدائن ﴾ التى هى كلها تحت ملكك وتصرفك ابعثهم ﴿ حاشرين ﴾ أى من يحشرون لك السحرة من جميع البلاد ويجمعونهم . وقد كان السحر فى زمن فرعون غالبًا وكثيرًا .

وأقنعوا الجمهور والعامة أن موسى فعلا ساحر لا ينفع معه إلا السحر المبين . وجمعوا كبار السحرة المشهورين فى السحر من جميع أطراف البلاد ، وحضروا بين يدى فرعون .

وقالوا له : ﴿ إن لنا لأجرًا إن كنا نحن الغالبين ﴾ فأجابهم فرعون بقوله: نعم، وليس الأجر فقط ، ولكن ستكونون من المقربين إلىّ والمحظوظين برضاى ، وستغرقكم نعمى وعطاياى . وبعد ذلك تبدأ حلبة الصراع وتبدأ الجولة بين الحق والباطل فى تلك الآيات الخالدة :

---

(1) انظر تفسير القرطبى : ٧ / ٢٥٧ .　　(2) طه : ٢٢ .

قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ
أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ
وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ
سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام ، حين تقدموا أمام الجمع الكبير من الناس بحضور فرعون وقالوا لموسى : يا موسى إما أن تبدأ بسحرك وإما أن نبدأ نحن . فقال لهم موسى : ألقوا أنتم ﴿ فلما ألقوا ﴾ ما بأيديهم من سحر ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ «أى خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال »[1]، أدهش الجميع حتى ظنوا أنهم قد انتصروا على موسى ، أو كادوا ينتصرون .

وأوحى الله إلى موسى أن يلقى عصاه . فألقى موسى عصاه فإذا بها حية ، أى ثعبان ، تسعى ، وتلقف ـ أى تبتلع ـ كل ماصنع السحرة .

وكان لذلك وقع كبير سرى فى نفوس السحرة ، وعلموا بأن هذه آية من الله وليست من صنع موسى . لأنهم سحرة ماهرون يعرفون السحر فلا يمكن أن يكون ما فعله موسى سحرا أبدا . فلابد أن يكون موسى نبيا موحى إليه من عند الله رب العالمين الذى بعثه رسولاً نبيًا أمينا على الحق .

وتغلب الحق على الباطل ، وانتصر موسى وسجد السحرة كلهم لله رب العالمين ، و﴿قالوا آمنا﴾ برب موسى وهارون رب العالمين وكفروا بفرعون ، وضربوا بزينته وملكه وطغيانه عرض الحائط .

وهنا وفى ثورة عارمة وطغيان بارز :

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟

(١) انظر تفسير ابن كثير : ٢/ ٢٣٧ .

مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون السحرة عندما آمنوا . أنكر فرعون على السحرة الذين جمعهم من كل المدائن والأطراف ، أنهم سجدوا لله رب العالمين ، وآمنوا بموسى وبسحره ، ورماهم بالخداع والمكر والخيانة ، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا ليخرجوا أهل هذه البلاد منها . ليستولوا على مصر. وهددهم قائلا: **﴿فسوف تعلمون﴾** ما أنا فاعل بكم .

ثم فصل تهديده ، زيادة فى تخويفهم ، قائلا : **﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾** أى سوف أقطع يدكم اليمنى ورجلكم اليسرى ، أو يدكم اليسرى ورجلكم اليمنى . **﴿ ثم لأصلبنكم أجمعين﴾** على جذوع النخل . ويقول ابن كثير على لسان ابن عباس : وكان أول من صلب وأول من قطع الأيدى والأرجل من خلاف هو فرعون .
لكن هؤلاء القوم كانوا مصممين على رجوعهم إلى الله **﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾** أى إننا قد تحققنا من رجوعنا إليه ، وإنك مهما فعلت بنا من عذاب فهو أهون علينا من عذاب يوم القيامة .

ثم رفعوا أيديهم إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يلهمهم الصبر على دينه ، والثبات على الوحدانية والعقيدة الراسخة . لذلك يقول الحق فى موضع آخر على لسان هؤلاء القوم : **﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى * إنه من يأت ربه مجرما فإن لهم جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا ﴾** (١).

يقول ابن كثير : كانوا فى أول النهار سحرة ، فصاروا فى آخره شهداء بررة (٢).

وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ

(١) طه : ٧٢ ـ ٧٥ .
(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٣٨ .

مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ
مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه ، وما أضمروه لموسى وقومه من الأذى والبغضاء . ففى تحريض وتزلف ونفاق وتزيين للباطل ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ له أتترك موسى ومن آمن به ليفسدوا فى الأرض . . ؟

فأجابهم فرعون بأنه سيقتل قوم موسى ويذبّح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انتقامًا منهم ، وقهرًا لهم ، وسنكون دائمًا فوقهم قاهرين لهم .

ولكن موسى اتجه إلى قومه وقال لهم : ﴿ استعينوا بالله واصبروا ﴾ واعلموا أن ﴿الأرض لله﴾ ليس يملكها أحد ، والله هو العدل﴿ يورثها من يشاء من عباده ﴾ والأمر فى ذلك له وحده ، وقد وعد أن يورثها لعباده الصالحين ﴿ والعاقبة ﴾ دائمًا بالنصر ﴿للمتقين ﴾ من عباده . وقال قوم موسى له لقد ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ .

قال موسى ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ ،وهذا تحضيض لهم على أن يعزموا على الشكر عند حلول النعم وزوال النقم.

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾
فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن
مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

لقد أخذ الله آل فرعون بشدة ، وابتلاهم بسنى القحط بسبب قلة الزروع ونقص فى ثمرات الأرض ، ونقص فى المال . لعلهم يعتبرون ، ويتذكرون نعم الله التى لم يشكروها . ولكنهم كانوا لا يعتبرون . فإذا أحسن الله إليهم بالحسنات ﴿قالوا لنا هذه﴾ ولم يشكروا الله .

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ يقولوا يا موسى لقد أوذينا بك وبمن معك ، تشاؤما به ، وتطيرا يحصيه المولى تعالى عليهم ، ولكنهم بجهلهم لا يعلمون الحق .

وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

وفى صلف وعتو وتمرد وعناد للحق وإصرار على الباطل ، قالوا لموسى ـ عليه السلام ـ لن نتبعك ، ولن نؤمن بك مهما فعلت ووعظت وذكرت .

فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم عذابه بأن ابتلاهم بالطوفان ليغرقهم ، والجراد يعذبهم بهجومه عليهم ، وبالقمل والضفادع .

وبعد ذلك أرسل الله عليهم الدم ، فسال النيل عليهم دما .

تلك آيات مفصلات أرسلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وأوردها لبنى اليهود الذين خالفوا موسى ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين .

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

الرجز هنا هو اسم من أسماء العذاب وهؤلاء القوم لما عتوا وتمردوا على موسى وعلى ربه ، رغم ما جاءهم من ابتلاءات بالآيات التى ذكرت واحدة بعد الأخرى ، انتقم المولى ـ عز وجل ـ منهم بإغراقهم فى اليم ، وهو البحر ، بسبب تكذيبهم بآيات الله ، ثم مكّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأورث قوم موسى الذين كانوا مستضعفين فى الأرض ، وهم بنو إسرائيل ، أورثهم مشارق الأرض ومغاربها .

وحقا قوله تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ (١).

وهكذا يفعل الله دائماً بالظالمين مثل فعله بفرعون وقومه !

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾

ونجّى الله موسى ومن معه من بنى إسرائيل من الغرق فى البحر ، فلما خرجوا من البحر وساروا فى الأرض اليابسة ، وجدوا قوما يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى : اجعل لنا أصناما نعبدها مثلهم . فقال لهم موسى : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ . إن الذين تريدون مثله باطل ، وهؤلاء القوم باطل ما هم فيه من عمل ، وباطل كل ما يعملون

وهكذا تنتكس بنو إسرائيل دائما ، وتهبط من علياء ما يدعوهم إليه موسى بطلبهم . ثم يذكرهم الله تعالى بنعمه التى أسبغها عليهم . . من إنقاذهم من ذل فرعون وأسره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، والحال التى وصلوا إليها من السعادة والعزة وأنه فضلهم على العالمين . قائلا :

وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

أى كيف يليق بكم الاشتغال بعبادة غير الله ؟!!

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

---

(١) القصص : ٥ ، ٦ .

قد وعد الله موسى بالمناجاة واللقاء على جبل الطور . فصام موسى ثلاثين يومًا شكرًا لله . فكلفه الله أن يتمها أربعين يوما .

ثم استخلف موسى على قومه أخاه هارون ، وذهب لميقات ربه ـ أى لموعد ربه المضروب ـ وقال لأخيه : اخلفنى فى قومى ، وأصلح بينهم ، ولا تتبع طريق المفسدين الضالين منهم .

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

وذهب موسى طاعة لربه إلى الميقات المحدد ، وإلى المكان الموعود بلقاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وكلمه الله العزيز الحكيم ، ولما سمع موسى ربه سأله أن ينظر إليه، فقال : يا ﴿ رب أرنى أنظر إليك﴾ .

فأجابه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله : ﴿لن ترانى ولكن ﴾ يا موسى ﴿انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه ﴾ وظل على حاله ﴿ فسوف ترانى ﴾ . وتجلى نور الله على الجبل، ولم يطق الجبل جلال التجلى ، فصار دكا ، أى ترابا . أما موسى فخر صعقًا أى أغمى عليه ، وتاه عن نفسه ، ولكن الله برحمته أفاقه . فقال موسى : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ بأنه لايراك أحد ، بل وبقدرتك وعفوك .

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

اصطفيتك ـ أى اخترتك على خلقى من الناس ، وجعلتك رسولاً لى إليهم تبلغهم رسالتى وكلامى ـ فخذ ما آمنتك عليه من الحق ، وبلغهم إياه ، وكن من عبادى الشاكرين ، أى على ذلك ، ولاتطلب مالا طاقة لك به .

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ
فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

كتب الله تعالى لموسى فى هذه الألواح مواعظ وأحكاما، مفصلة مبينة للحلال والحرام.

فخذها يا موسى بعزم وقوة ، وإرادة على الطاعة، وأمر أهلك وقومك أن يعملوا بالأوامر، ويتركوا المعاصى ، وإن خالفتم: ﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ أى سأعاقبكم.

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ
ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟
سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾
وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

يخبر تعالى أنه سيصرف الذين يتكبرون على أمر الله وعلى رسل الله عن الاعتبار بآياته، وفهم الحجج والأدلة الدالة على عظمته تعالى وشريعته وأحكامه . أى كما استكبروا بغير حق ، أذلهم الله بالجهل. وهم الذين يتكبرون فى الأرض بغير حق ، وكلما رأوا آية لله ، دالة على وجوده أنكروها .

وعندما يدعون للحق يعرضون عنه ، ويتخذون سبيلا وطريقًا غير طريقه ، وذلك لأنهم كذبوا بآيات الله ، وأعرضوا عنها ، وكانوا من الغافلين عن أمر الله ونهيه . وهؤلاء ضاعت منهم الدنيا . وهم فى الآخرة أيضًا خاسرون . لأنهم ظنوا أن متاع الدنيا هو الحياة . فخسروا دنياهم وآخرتهم .

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ
لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل الذى اتخذه السامرى لهم من حلى القبط ، إذ لما كان موسى فى لقاء ربه وصى أخاه هارون بالقيام بأمر الأمة حتى يعود . ولكنَّ بنى إسرائيل اتخذوا عجلاً جسدًا من ذهب قبط مصر

وعبدوه. لذلك ينكر الله عليهم جهلهم وضلالهم، وذهولهم عن خالق السموات والأرض ، بقوله : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا﴾ ولا يرشدهم إلى خير ؟! ﴿ ولما سقط فى أيديهم﴾ أى ندموا على مافعلوا ، لجئوا إلى الله عز وجل، بعد عودة موسى من الميقات اعترافا منهم بذنبهم، وإقرارًا بخطئهم الفادح، وشركهم الصريح .
ولذلك يقول الحق :

وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

تعبيرا عن ندمهم وحسرتهم .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

ولما رجع موسى من مناجاة ربه تعالى إلى قومه فى غضب شديد عليهم، قال لهم : بئس ما فعلتم من بعدى فى عبادة العجل. وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه. قال هارون : يا ابن أمى : إن القوم من بعدك عصونى ، ولم يطيعوا أمرى ، فلا تعاقبنى بفعلهم وتشمتهم بى . فقال موسى : رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا رحمتك وأنت خير الراحمين .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾

يقرر تعالى غضبه على الذين اتخذوا العجل ، ويسجل عليهم الذل فى الدينا والآخرة، وذلك جزاء المفترين والمفسدين فى الأرض . وأما الذين تابوا وعادوا إلى الله

تائبين نادمين ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ من بعد ذلك غفور رحيم .

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ١٥٤﴾

وعندما ذهب الغضب عن موسى وسكن ، أخذ الألواح التى ألقاها وقد نسخت فيها التوراة ، وهى كتاب الله إلى بنى إسرائيل ، وفيها الهدى والحق الذى تسير به أمةبنى إسرائيل ، إنْ أطاعوا موسى واهتدوا بهداه .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يقرر هنا أنها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، أى يخافون .

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ١٥٥ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ١٥٦﴾

كان الله تعالى قد أمر موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا ، وطاعة من موسى لربه اختارهم ، وذهب لمناجاة ربه وهم ينتظرون رجوعه إليهم . فلما عاد إليهم ، قالوا له أرنا الله بغير حائل بيننا وبينه . فأخذتهم الرجفة وكأنهم قد ماتوا . فاستعطف موسى ربه وقال له : ياربى لو كنت أهلكتهم من قبل أن آتيك بهم كان ذلك أرحم بى ، وأنت أعرف سبحانك بصلف بنى إسرائيل ، أَوَ تهلكنا يا رب ﴿بما فعل السفهاء منا﴾ ؟ إنك أنت الفعال لما تريد . وقد ابتليتهم بما فعلوا ، ولكنهم سيدّعون أننى الذى أمتهم ، وأنت سبحانك أعرف بهم منى ، فلا تؤاخذنى بفعل السفهاء منا .

إنها ﴿فتنتك يا رب﴾ ، ﴿تضل بها من تشاء وتهدى﴾ بها ﴿من تشاء﴾ ، وأنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ، وأنت خير الغافرين . ﴿واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة﴾

إنا تبنا ورجعنا وأنبنا إليك . ثم يقول تعالى : إننى أفعل ما أشاء ، وأحكم بها أشاء ، ولى التصرف والحكمة والعدل فى كل ذلك ، ورحمتى قد عمَّت وشملت كلَّ شىء .

هذه الرحمة سيكتبها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للذين يتقون ويخافون مقامه ، و يفعلون الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بكل آية ينزلها الحق .

وهذه صفات أمة محمد ﷺ ، وأيضًا من صفات هؤلاء المتقين الذين تشملهم رحمة الله وعنايته :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

يقول ابن كثير «وهذه صفة محمد ﷺ فى كتب الأنبياء . بشروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة فى كتبهم يعرفها علماؤهم وأحبارهم »(١).

وهذا النبى موجود وصفه عندهم فى التوراة والإنجيل ويعرفه علماؤهم جيدا .

وهو يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم كل طيب ، ويحرم عليهم كل خبيث .

وكل ما أحل الله تعالى من المآكل فهو طيب نافع فى البدن والدين ، وكل ما حرمه فهو خبيث ضار فى البدن والدين .

وهناك أشياء مستحدثة تعد من باب الخبائث . كجميع أنواع المخدرات والدخان مثل السجائر وغيرها من سائر الأنواع الحديثة . فهى بهذا النص حرام حرام حرام، لقوله ﴿ ويحرم عليهم الخبائث ﴾وقد أثبت العلماء المحدثون الذين، هم أدرى بمدى خبث هذه الأشياء ، أن هذه الأنواع كلها بما فيها الدخان والسجائر حرام ، لأنها

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥١ .

خبيثة ، تضر بالجسم . والرسول ـ ﷺ ـ يقول : « لا ضرر ولا ضرار » (١) .

كما يرفع عنهم الأغلال والقيود التى كانت مفروضة عليهم .

وذلك لأن الأمم التى سبقت عصر محمد ـ ﷺ ـ قد ضُيِّق عليها ، فوسع الله على أمة محمد ـ ﷺ ـ أمورها .

يقول ابن كثير « ولهذا أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ » (٢) .

وهكذا يخبر الحق سبحانه وتعالى عن الذين يؤمنون بمحمد ـ ﷺ ـ ويساندونه ويعزرونه ـ أى يعظمونه ويوقرونه ، ﴿ واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾ أى القرآن والوحى ، أنهم هم المفلحون فى الدنيا والآخرة .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

« هذا خطاب للأحمر والأسود والعربى والعجمى » (٣) .

أما الملائكة فقد علموا بذلك وصدقوه . فقل لهم يا محمد : إن الله هو الذى أرسلنى إليكم جميعا ، وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة . والله سبحانه وتعالى له ملك السموات والأرض ، واعلموا أنه لا إله إلا هو فاعبدوه ، وأنه يحيى ويميت ، ويبعث بعد الموت للحساب ، فآمنوا بالله ورسوله محمد ـ ﷺ ـ النبى الأمى ـ الذى يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ، فاتبعوه ، أى اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ، تكونوا على الحق والصراط المستقيم ، ولعلكم بذلك تهتدون إلى ما يحب الله ، فتكسبون رضاه .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه ـ كتاب الأحكام ، باب من بنى فى حقه ما يضر بجاره عن عبادة بن الصامت ، وفى الزوائد : فى حديث عبادة هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع لأن اسحق بن الوليد ـ قال الترمذى وابن عدى ـ لم يدرك عبادة بن الصامت ، و ـ قال البخارى ـ لم يلق عبادة .
كما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة من طرق أخرى عن ابن عباس ، ورمز السيوطى فى الجامع الصغير له بالصحيح .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٥٤ .

(٣) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٥٤ .

وقد ورد فى حديث رسول الله ـ ﷺ ـ ما يثبت أنه رسول من رب العالمين إلى كل الناس «قال ـ ﷺ ـ أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجلعت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة »(١).

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم يموت ولا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار »(٢).

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٥٩ ﴾

يقرر تعالى أن من اليهود جماعة كانوا يدعون للحق ، ويهتدون به قبل بعثة محمد ـ ﷺ ـ ، فلما جاء محمد آمنوا به ، فأصبحوا من المسلمين . هذه الطائفة تشير إليهم آية أخرى من كتاب الله ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون** ﴾ (٣).

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٦٠ ﴾

قسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بنى إسرائيل إلى اثنتى عشرة جماعة ، على عدد أبناء يعقوب ، لأنهم كانوا اثنى عشر ، وأصبح لكل جماعة من الاثنتى عشرة أسباط ـ أى

---

(١) رواه : البخارى فى كتاب التيمم باب . قول الله تعالى «فلم يجدوا ماءً . . »

(٢) كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا . . والخ . (٣) آل عمران : ١١٣ .

جماعات ـ كبيرهم أمير عليهم ـ أى أصبحوا اثنتى عشرة أمة . لها رئيس ومعاونون له، يقومون على أمر معايشهم ، وقطعناهم فى الآية ـ أى صيرناهم وجعلناهم قطعًا ، أى فرقا، وقد قالت هذه الجماعات الاثنتا عشرة لموسى : نريد ماءً عذبًا نستقى منه ، ونسقى منه أنعامنا . فأمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى قائلاً : اضرب يا موسى ذلك الحجر . فضرب موسى الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا بعدد هذه الجماعات .

وجعل لكل عين من الاثنتى عشرة علامة لأصحابها . وأتم الله عليهم النعمة ، فظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وقال لهم : كلوا من ذلك الرزق الطيب .

وبدل أن يشكروا لله نعمته ظلموا أنفسهم بمعصيتهم الله .

وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا
حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

بعد أن أنعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هؤلاء الأسباط بهذه النعم السالفة، يخبر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ: أنهم لم يشكروا هذه النعمة ، فيذكر أنه إذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية، وكلوا من خيراتها حيث شئتم ، ﴿قولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم﴾ خطاياكم وسنزيد المحسنين منكم، بدل فريق منهم ، وهم ظالمون لأنفسهم ، هذه الأقوال ، وفعلوا بعكسها ، فأرسل الله عليهم رجزًا من السماء ـ أى عذابًا أليمًا ـ بسبب ظلمهم هذا . وقد تقدم تفسير هذه الآيات فى سورة البقرة وإن اختلف موضوع السياق .

وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ
إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ
اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾

قوله تعالى واسألهم عن القرية ـ أى عن أهل القرية ـ لأنها كانت مستقرا لهم ، كقوله تعالى : ﴿ واسأل القرية التى كنا فيها ﴾ ـ أى اسأل أهل القرية ـ والمعنى : أى يا محمد اسأل اليهود الذين هم جيران لك عن أخبار المتقدمين من أسلافهم . والسؤال هنا للتقرير والتوبيخ ، اسألهم عن أمر أهل القرية التى كانت بقرب البحر ، وحرم الله عليهم الصيد يوم السبت ، ولكنهم احتالوا وصنعوا آبارا فى البحر تحت الماء وحبسوا فيها الأسماك الجمعة ، فلما جاء السبت لم توجد أسماك فى البحر إلا القليل ، ولما انتهى يوم السبت وجاء يوم الأحد أخذوا الأسماك التى حبسوها فى الأحواض ، احتيالاً على أمر الله ، ولكن الله رقيب عتيد ، ففاجأتهم نقمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ على فعلهم هذا ، واحتيالهم فى مخالفة أوامر الله . وقوله تعالى ﴿ إذ يعدون فى السبت ﴾ معناه يعدون فى تعظيم هذا اليوم ، أى يصيدون الحيتان فى يوم السبت وقد نهوا عن ذلك . أما قوله تعالى : ﴿ شرعًا ﴾ أى ظاهرة على الماء كثيرة ، ويقال حيتان شرع أى رافعة رءوسها . يقول الإمام الرازى « وذلك يدل على أن من أطاع الله تعالى خفف الله عنه أحوال الدنيا والآخرة ، ومن عصاه ابتلاه بأنواع البلاء والمحن » [(١)].

وكانت هناك منهم جماعات صالحة ، تجنبت عملهم ، وحرمت ما حرم الله ، واعتزلتهم وما يفعلون . فوعظوهم ، وسألوهم عن سوء عملهم . فكانوا على حق ، لأن اعتزال المنكر لا يكفى من الصالحين ، فلابد من الجهاد بالكلمة وباليد ، وإن عجز الإنسان عن الجهاد باليد والمال ، اعتزل أهل الباطل . فالصمت وحده لا يكفى . لذلك كانت مسألة الذين اعتزلوا ونصحوا واجبة . وفى تلك الحالة ، يكون الاعتكاف عن أهل الباطل مع المقاطعة ، حتى يكون الإعلان عن أن هذا حق وهذا باطل . وقد وفينا هذا الموضوع حقه فى سورة البقرة لمن شاء أن يرجع إليه .

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾

---

(١) تفسير الرازى : ١٥ / ٣٧ .

لما لم ينته المبطلون عن باطلهم أهلكهم الله ، ونجا الذين كانوا صالحين منهم . سواء من اعتزلهم فى صنعهم ، وهم أعلى مقامًا وإيمانا ، أو من سكت ولم يفعل ولم ينه ، كما بينا .

وهكذا دائما ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ مع عباده الذين يعيشون يقظة الطاعة ويجتنبون المعصية .

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

أى لما تمادى هؤلاء المجرمون فى معصية الله سخط الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليهم ، وطردهم من رحمته ، ونزل بهم من مرتبة البشر إلى حضيض ما خلق ، فجعلهم قردة خاسئين ، أى ذليلين حقيرين مهانين .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

أذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأعلم أن يظل اليهود حتى يوم القيامة يسلط عليهم من يسومونهم سوء العذاب ، أى بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على المحارم ؛ فهم اليوم إن ظنوا أن لهم دولة لكنهم لن يطمئنوا إلى استقرار هذه الدولة ، لأنها لها أصحابًا سلبت منهم ، وهم لن يتركوا حقهم فى أرضهم . فسيظل اليهود فى رعب وقلق ، وستعود الأرض التى اغتصبوها من المسلمين إلى أصحابها ، ويعود اليهود إلى شتاتهم وضياعهم ، وذلك كائن إن شاء الله . إن ربك لسريع العقاب لمن عصاه وخالف شرعه ، وإنه لغفور رحيم ، أى لمن تاب إليه وأناب وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس ، فيقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً لتبقى النفوس بين الخوف والرجاء .

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

﴿وقطعناهم فى الأرض أمما﴾ أى فرقناهم فى البلاد طوائف وفرقا ، والمراد بهذا المعنى

هو تشتيت أمرهم، وعدم جمع كلمة لهم. ﴿ منهم الصالحون ﴾ المراد بهم المؤمنون بمحمد ـ ﷺ ـ. وقيل المراد بهم القوم الذين كانوا فى زمن موسى ـ عليه السلام ـ . لأنه كان فيهم أمة يهدون بالحق ، أى فيهم الصالح وغير ذلك. ومنهم قوم دون ذلك أى أقل من ذلك ، وهذه مراتب فى كيفية تفريقهم فى البلاد ، وقد اختبرهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بالحسنات وبالسيئات «أى بالرخاء وبالشدة والرغبة والرهبة والعافية والبلاء»[1] لعلهم يرجعون .

فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

« فخلف من بعد الصالحين منهم ـ الذين تقدم ذكرهم ـ خلفٌ »[2] أى : أولاد .

أما قوله تعالى : ﴿ ورثوا الكتاب ﴾ أى ورثوا دراسة الكتاب وهو التوراة . وهؤلاء الخلف جاءوا ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أى يبيعون الحق بالتافه من الدنيا ودناءتها ، ويستغنون بذلك عن نشر الحق وإقامته ، واتباع المعروف . وهذا تحقير لأمر الدنيا وما فيها من ملهيات ومغريات لأنها عرض زائل يأكل منها البر والفاجر . فهؤلاء الخلف يأخذون الأدنى من العمل ، ويقيمون دائماً مع الباطل ، ويقولون فى غطرسة الباطل : سيغفر لنا ، ويظلون يحاربون الحق ، وينسون أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، وقد درسوا هذا الكتاب . ألم يعلموا أن الدار الآخرة آتية ، وهى خير للذين يتقون ؟ ألم يعلموا أن العقلاء هم الذين ينظرون للعاقبة؟ ولكن اليهود والعياذ بالله لا ينظرون إلا للدنيا ، فهى دارهم وستهلكهم بأعمالهم .

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه ، فقال تعالى :

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٦٠ . (٢) تفسير الرازى : ١٥ / ٤٣ .

من أحسن عملاً ﴾ (١) . والذين يمسكون بالكتاب ـ أى بالتوراة ـ أى بالعمل بها .
« فالتمسك بكتاب الله والذين يحتاج إلى الملازمة والتكرير بفعل ذلك » (٢) .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

و﴿ نتقنا ﴾ معناه رفعنا ، وهذا عذاب الله لهذه الفئة . فكأنه ، أى الجبل ، لارتفاعه بدا كأنه سحابة تظلل فوق اليهود الذين راجعوا موسى بالباطل ، وأصبح الجبل فوق رءوسهم وكأنه سيقع عليهم . فقال لهم ربهم وهم فى ذلك الحرج ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ أى بجد ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . ولكنهم بعد ما وعدوا بالاستقامة والتوبة نكثوا عهودهم ، وكانوا فى ضلالهم القديم .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

بعد ذكر قصة موسى ـ عليه السلام ـ وقومه يخبر الحق أنه استخرج ذرية البشر من أصلابهم ـ شاهدين على أنفسهم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو ربهم ، وأنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له . وقال الملائكة : نحن شهدنا على ابن آدم وعلى بنى آدم كلهم حتى لا يقولوا يوم القيامة ـ بحجة واهية ـ ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ .

وبذلك يخبرنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أننا قد شهدنا على أنفسنا أن الله واحد لا شريك له ، وهو ربنا ، وشهدت علينا الملائكة ، لكى لا نقول يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين ، أو نتذرع بحجة أخرى واهية ونقول : إنما أشركنا لأن آباءنا كانوا مشركين ، فقلدناهم فى ذلك الشرك .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾

---

(١) الكهف : ٣٠ . (٢) تفسير القرطبى : ٤ / ٣١٣ .

هو رجل أتاه الله العلم والمعرفة، ثم أغواه الشيطان عن علمه ومعرفته ، فضل السبيل، وانكفأ على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، وقد انسلخ ممن أنعم الله عليهم من علم ومعارف ، كما تنسلخ الحية من جلدها ، فقد استحوذ الشيطان عليه ، فتخلى عن هذه المهمة ، وتناسى هذه المسئولية ، وصار يضل الناس عن دين موسى ، ﴿فكان من الغاوين﴾ أى من الهالكين الحائرين البائرين.

ولعل العلماء يتعظون. فيتوبون عن مجاملة الحكام . إذْ إنه لو استمر فى إخلاصه لله لرفعه تعالى إلى المنازل العالية .

لذلك يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ :

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

ولهذا فقد أورد ابن كثير أكثر من رواية فى معجزة هذا الرجل وتقربه إلى الله وكيف انسلخ من رحمة الله (١).

وقوله : ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أى « لرفعناه من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التى آتيناه إياها، ولكنه مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها ،وأقبل على لذاتها ونعيمها ، وغرته كما غرت غيره من أولى البصائر والنهى(٢) » .

فمثل هذا الذى انسلخ من الإيمان ، ومن رحمة الله ، مثل الكلب سواء . فالكلب إن زجرته أو تركته فهو فى الحالتين يلهث ، ويندلع لسانه على صدره ، فصار هذا الرجل مثل هذا الكلب فى ضلاله واستمراره فى هذا الكفر ، وهذا الضلال، وهذا الانسلاخ ، لأنه لم ينتفع بالدعوة إلى الإيمان وعدم الدعاء ، ولا انتفع بالموعظة ، ولا بترك هذه الموعظة .

وهكذا دائماً حال الكافرين المنافقين الضالين الضعفاء ، الفارغة قلوبهم من الإيمان والهدى . فيجب أن يكون لعلمائنا فى ذلك موعظة ، فيفارقوا مجاملة الحاكمين لأنها مهلكة.

---

(١) لمزيد المعرفة انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٦٥ .   (٢) المرجع السابق .

إذْ إن كل من كذب بآيات الله ، أو أعرض عنها ، أو جامل فيها وبها حاكمًا ظالمًا ، فقد ساء مثلا ، وأصبح من الغاوين . فيأيها العلماء لا تبيعوا الآخرة بالدنيا ، وقولوا للحكام الظالمين ، الحاكمين بغير ما أنزل الله : توبوا إلى الله يتوب الله عليكم ، ويدخلكم مدخلاً كريمًا ، ولا تبيعوا آخرتكم بدنياكم ، لذلك يختم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الآية بهذا التذكير المفزع ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أى قل هذا القصص ، وهذه العبرة لعلماء بنى إسرائيل لعلهم يتفكرون فى رحمة الله وعقابه .

سَاءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾

حقا فقد ساء مثلاً هذا الرجل ، وأصبح من الغاوين ، وكل من يتبعه فى فعله هذا أو يقلده أو يضل بعد أن هداه الله .

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

إن الهدى هدى الله ، فالله يهدى من يشاء إلى صراطه المستقيم ، ومن يأب أن يهتدى إلى دعوة الله فى قرآنه وسنة نبيه فقد خسر خسرانًا مبينًا .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

ولقد ذرأنا ـ أى جعلنا من خلقنا خلقًا هم حطب جهنم ـ هيأناهم لها ، وجعلناهم يعملون بعمل أهل النار ، لأنه ـ سبحانه وتعالى ـ سبق فى علمه عندما أراد أن يخلقهم ما هم عاملون ، فكان هذا عنده فى الكتاب قبل خلقه السموات والأرض .

وقد ورد فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو : أن رسول الله ـ ﷺ ـ . كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء (١).

وفى الصحيحين ثم « يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه

(١) كتاب : القدر ، باب : حجاج آدم وموسى ـ عليهما السلام ـ .

وأجله وعمله وشقى أو سعيد» [1] . فهؤلاء الذين جعلهم الله أهلاً للنار لم ينتفعوا بشيء من الجوارح التى خلقها الله لهم ، التى هى سبب للهداية فهم ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون﴾ [2] .

فهؤلاء لا يهتدون بنبى ، ولا يؤمنون بالبعث والنشور ، ولا يتدبرون القول ، فهم كالأنعام بهائم بشرية ، لا تفرق بين الحلال والحرام ، لا تعقل الدين ولا تصدق فى اتباع الأنبياء ، هم حطب جهنم وإن كانوا ملوكًا أو رؤساء ، فهم الظالمون لأنفسهم ، الكافرون بالله ، عليهم اللعنة ولهم سوء الدار .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

إن أسماء الله الحسنى هى أجل الأسماء وأعظمها ، عالية فى معانيها ، جليلة فى مقاصدها .

أجملت أجمل معانى الوجود ، وفصلت مقاصد العزيز الحميد ، الله الواحد ، المجيد ، الله العظيم المجيب القادر ، فادعوه بأسمائه . فعلى قدر إيمانكم به ، وتسليمكم له ، تكون الإجابة . وأسماؤه ـ سبحانه هى أجل وأحسن وأعظم الأسماء . من دعاه بها وهو صادق فى عبوديته له استجاب الله له . .

وفى حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « ما أصاب أحدًا قط هَمٌّ ولا حزن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتى بيدك . ماض فى حكمك . عدل فى قضائك . أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه ، وأبدل مكانه فرحا . فقيل : يا رسول الله أفلا نتعلمها ؟ فقال : بلى ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها» [3] .

---

(١) البخارى . . كتاب : بدء الخلق ، باب : ذكر الملائكة . ومسلم . . كتاب القدر ، باب : كيفية الخلق الأدمى . إلخ . (٢) البقرة : ١٨ .

(٣) رواه أحمد بن حنبل فى مسنده عن عبد الله بن مسعود .

أما قوله تعالى : ﴿ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾ أى اتركوا وانصرفوا عن الذين يلحدون ويشركون فى أسمائه . لأنهم كانوا قد اشتقوا كلمة اللات من الله ، والعزى من العزيز ، فهم يشركون فى أسمائه ، وقد خسروا الدنيا ، وسيجزون فى الآخرة بعذاب أليم، ولن يجدوا لهم من النار مخرجا ، وهم الهالكون .

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾

وممن خلقنا أمة صدقوا فى إيمانهم بالله ، وفى تصديقهم لمحمد ـ ﷺ ـ ، فهم يهدون لدين الله على بصيرة بحسن اتباعهم لسيد الرسل ، وخاتم النبين محمد ـ ﷺ ـ . وهم سواء فى فهمهم وتنفيذهم لأوامر الكتاب ونواهيه ، وللسنة كذلك ، وقد حازوا رضوان الله ومغفرته ، فهم قائمون بالحق قولا وعملا، يقولونه ويدعون إليه ، ولا يكفون عنه ، ﴿ وبه يعدلون ﴾ أى يعملون ويقضون. وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة »(١).

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾

أما الذين كذبوا محمدًا ـ ﷺ ـ ، وحاربوا الحق الذى نزل عليه ، فسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ،أى نفتح لهم أبواب الرزق ووجوه المعاش والنعيم فى الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ويعتقدوا أنهم على شىء ، وأنهم قد حازوا الدنيا كلها بحذافيرها . وجل قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾(٢). لأنهم عمى القلوب وهذا العمى فى القلب قد ضلل الطريق أمامهم ، فأنكروا الحق وحاربوه ، وقاوموا الأنبياء والدعا المذكرين بالحق ، والداعين إلى الصراط المستقيم . وقال الله لرسوله ـ ﷺ ـ : ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ لمن عصانى ، وحاد عن طريق الحق، وحارب العدل والنور

(١) رواه : البخارى كتاب الاعتصام ، باب « قول النبى ـ ﷺ ـ : لا تزال طائفة . . إلخ ،ومسلم ـ واللفظ له ـ كتاب الإيمان باب « نزول عيسى ابن مريم . . . إلخ » . وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجة ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده .
(٢) الأنعام : ٤٤ .

والعلم ، فلهم الويل بما كسبت أيديهم وبما كانوا به مفسدين ، ﴿وأملى لهم﴾ أى أطول لهم ماهم فيه ، وأعطيهم وأمهلهم . إن كيدى أقوى وأشد .

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾

إن محمدا صاحبهم الذى عاش بينهم ، والذى لقبوه بالصادق الأمين ، هو رسول من عند الله . ولما جاءته الرسالة ، ودعاهم لترك عبادة الأصنام ، والتخلص من الباطل ، قالوا عنه إنه مجنون . ولكن الله يدافع عنه ﴿ إن هو إلا نذير مبين ﴾ أى ظاهر يبين الحق، ويدعو للتخلص من الباطل ، ويدعو إلى صراط مستقيم .

لذلك ينبههم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لأن يجلسوا مع أنفسهم مثنى وفرادى أى مجتمعين ومتفرقين ، ثم أن يتفكروا فى هذا الذى جاءهم بالرسالة من الله أبه جنون أم لا، فإنهم إن فعلوا ذلك دون تعصب أو عناد ، بان لهم وظهر أنه رسول الله حقا وصدقا .

أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾

﴿ألم ينظروا ﴾ويفكروا ﴿فى ملكوت السموات والأرض﴾ ؟ إنهم إن فعلوا ذلك ربما يؤمنون بالخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ، المدبر لهذا الكون العظيم . أو لم يروا من يُحمل منهم إلى المقابر كل يوم ؟ وقد أخبرهم محمد بأنهم مسئولون . وبعد هذا البلاغ المبين ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾؟ فبأى تخويف وتحذير وترهيب يؤمنون به بعد ذلك ؟ إنهم حقا لفى ضلال قديم .

مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الهادى . ومن يضلله سبحانه فلا هادى له . بل يذرهم فى طغيانهم يعمهون . سيظلون فى كبر على الحق حتى تنتهى آجالهم . وعندها سيجدون أنفسهم فى طغيانهم يعمهون فى نار حامية ، لا تبقى منهم ولا تذر ، لواحة للبشر ، كلما هلكوا فيها يعودون ، ثم هم فى العذاب مقيمون . وجل قوله تعالى:

﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا﴾[1] .

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

ويسألونك يا محمد عن الساعة كأنك تعلم موعدها ، فقل لهم : إن علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . والذى يبين تجليتها وإظهارها وحده هو الله . أما الذين آمنوا بالله ورسله وكتبه فهم دائمًا فى اطمئنان لموعدها ، وإن لم يعلموها ، لأنهم يصدقون بها فقط . وقوله تعالى ﴿ ثقلت فى السموات والأرض ﴾ أى أن علم موعدها ثقل على أهل السموات والأرض ـ أى صعب على أهل السموات والأرض ـ ولا يمكن أن يعلمها إلا الله : ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام﴾[2] .

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

قل لهم يا محمد : إنك لا تملك لنفسك إلا ما قدر الله لك نفعا وضرا ، وأنت بما شاء الله لك راض ومحتسب ذلك عند الله . وقل لهم كذلك : إنك لا تعلم الغيب ، لأن الغيب من شأن الله فلا ملك يعلمه ولا نبى ، فالخير يأتينى بعلم الله وأنا راض به . ﴿إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ . وهذا أمر من الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى محمد أن يفوض الأمور إليه ، وأن يخبر البشرية فى قرآن يتلى أنه نفسه خاتم المرسلين ، وسيد المرسلين، والشفيع يوم القيامة لا يملك لنفسه نفعا أو ضرا . وسبحان من لا تنفعه عبادة، ولا تضره معصية . والنفع والضرر من الله . وفى بعض الحديث : « اعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلاَّ بشىء قد كتبه الله عليك »[3]. ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما

(١) المائدة : ٤١ . (٢) لقمان : ٣٤ .

(٣) رواه الترمذى كتاب صفة القيامة ، وقال : حديث صحيح . ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عباس .

كتب الله لنا هو مولانا﴾. فقل يا محمد لو كنت أعلم أشياء عن الغيب لأكثرت من عمل الصالحات.

ولو كنت أعلم متى أموت أيضًا لأكثرت من عمل الصالحات .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

هو الذى خلقكم بعظمته وقدرته المنزهة من نفس واحدة ، وهى آدم ـ عليه السلام ـ ، ثم خلق منها زوجها حواء ، وذلك ليسكن إليها ، وجل قوله ـ سبحانه وتعالى ـ : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾(١) .

وجل قوله أيضًا : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ (٢). ﴿ فلما تغشاها ﴾ أى وطِئَها وجامعها ، حملت بالجنين الأول . ومعنى ﴿خفيفًا ﴾ يقصد به أول الحمل ، الذى لا تجد المرأة له أى ألم ، إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة . كما أخبرنا بها الحق فى مواضع أخرى . فمرت حواء بأشهر الحمل التسعة لحين ميلاد ذلك الحمل ، ودعت الله هى وآدم يا رب إن أتيتنا ابنا صالحًا ذكرا كان أو أنثى لنكونن من الشاكرين لك فضلك علينا . ورزقت حواء بابن صالح، أى : سوى الخِلْقة .

ومن العجيب أن الله جعل بنى آدم ذرية سوية الخِلْقة ، وهم يجعلون لله شركاء فى الخَلْق .

والمقصود فى الآية : جنس بنى آدم ، أى المشركون من ذرية آدم ،ولذلك قال سبحانه : ﴿ فتعالى الله عما يشركون﴾ ولم يقل « عما يشركان » .

(١) الحجرات : ١٣ . (٢) النساء : ١ .

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ
صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ
أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ
ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ
يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ
وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

« هذه الآية من أقوى الدلائل على أن المقصود بقوله تعالى ﴿ **فتعالى الله عما يشركون**﴾هو الرد على عبدة الأوثان . . . والمقصود من هذه الآية إقامة الحجة على أن الأوثان لا تصلح للألوهية » (١).

ويقول ابن كثير : « هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ، ، ولا تنتصر لعابديها ، بل هى جماد لا تتحرك ، ولا تسمع ، ولا تبصر ، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم »(٢) .

إن هذه الأصنام الذين تدعونها من دون الله عباد أمثالكم . وسميت الأوثان عبادًا : لأنها مملوكة لله مسخرة . وجل قوله : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ (٣)، أى بحمد الله وهو الخالق . أتعبدون شيئًا مخلوقا وتتركون الخالق ؟ وليس فى الخلق من يستطيع أن ينصر أحدا بغير الله . حتى أنفسهم لا يستطيعون نصرها إلا بإذن الله القوى

(١) انظر تفسير الرازى : ١٥ / ٩٠ .
(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧٦ .
(٣) الإسراء : ٤٤ :

العزيز القادر ، الذى يملك كل شىء ، وهو الغنى عن كل شىء . فما بال أصنام صماء من أحجار جماد خلقها الله يعبدها البشر عبادة جاهلين ؟ إن هذه الأحجار والتماثيل صنعتها يد بشر . فكيف بهذا البشر يعبدهابعد ما يسويها بيديه ؟ . إنه الجهل الأسود . إن هذه الأصنام لو دعيت إلى الهدى لا تجيب ، لأنها حجارة صماء ، فكيف تعبدونها وهى لا تسمع ولا تتكلم ، ولا تفعل ، ويفعل بها ناحتها ما يشاء ، حسب قدرته العاجزة ؟ عجبًا أن تكون هذه الأحجار معبودة . وسواء عليها إن تدعوها أو لا تدعوها فهى حجارة كما ترونها ، يقول الحق لنبيه : قل لهم يا محمد ألهذه الأصنام أرجل يمشون بها ؟ أفلا تعقلون ؟ أم لهم أيد يبطشون بها ؟ أفلا تعتبرون ؟. أم لهم أعين يبصرون بها ؟أفلا تبصرون ؟ . قل لهم يا محمد : ﴿ قل ادعوا شركاءكم﴾ أى استنصروا بها على هل يستجيبون لكم ؟ . ﴿ إن وليى الله ﴾ أى الله حسبى وكافينى ، وعليه توكلى ، وإليه ألجأ وأنيب ، وهو وليى فى الدنيا والآخرة ﴿ **إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم** ﴾[(1)].

إن هذه الآلهة المزعومة التى تعبدونها من دون الله لا يستطيعون نصركم ولا حتى نصر أنفسهم ، وإن دعوتموهم ليلاً ونهارًا فلا يسمعونكم ولا يرونكم، وتراها تنظر إليك ولكنها نظرات جماد غير عاقل . فكيف تُعبد من دون الله ؟ وحقا فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . !!

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾

يا محمد إنك عبد الله المختار المجتبى ، فليس لك إلا العفو طريقا ، والمعروف سبيلا. فطوبى لمن صار على هداك ، وامتثل خطاك . خذ العفو وأعرض عن الجاهلين، وأمر بالمعروف والإحسان ، فهو طريقك . أما الجاهلون فهم زرع فى أرض سبخ ، فأصلح الأرض من تحتهم لعلهم يرون آيات الله وقدرته فى إحسانك إليهم فيهتدون ، والجهل مرض فارحم يا محمد مرضاهم بالمسح على قلوبهم بما أنزل الله إليك، فأنت رحمة للعالمين .

---

(1) هود : ٥٦ .

وقد وردت أقوال عدة فى معنى ﴿ العفو ﴾ [1]. « ويذكر القرطبى أيضا أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ خذ العفو ﴾ قال ـ عليه السلام ـ كيف يا رب والغضب » فنزلت : ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نـزغ فاستعذ بالله ﴾ أى عندما يوسوس عليـك الشيطان الوحى والتنزيل ، فاستعذ بالله ، إن الله يسمع لك [2].

وعندمـا تلجأ إلى الله يا محمد فـأنت بعينه ، تحوطك رعـايته وحفظه ، إنه سبحـانه السميع العليم لكل خلقه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

إن الذين يخافون الله ويتبعونه بقلوب خاشعة مبصرة إذا مسهم الشيطان ـأى وسوس إليهم وزين لهم ما بين أيديهم من زينة الحياة الدنيا ـ ﴿ تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ .

وأسباب التذكر عند المؤمنين كثيرة ، الصلاة لله تذكر ، والحج لله تذكر ، والصوم لله تذكر ، ذكر الله بالله تذكر .

والمتقون هم أهل الخوف من الله ، يتصورون على الدوام لقاءه وسؤال الملكين والوحدة فى قبورهم ، وبذلك هم على حذر دائم من الشيطان . فإذا مسهم بوسوسته ، طغى نور الإيمان على وسوسـة الشيطان فيطرد من مجالـس الصالحين وخلواتهم بالله . وذلـك من إنعام الله وفضله عليهم ، وبدل أن يغويهم فبإيمانهم يتذكرون .

﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ إخبار من الله عن المتقين من عباده ، الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما نهى عنه الله ـ سبحانه وتعالى ـ أى إذا هم قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

أما المقصود من ﴿ وإخوانهم يمدونهم فى الغى ﴾ الجن الذين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ثم لا يسأمون عن ذلك ، بل يمدونهم بكل أسباب الغواية والضلال ، لأن الشياطين لا تضعف ولا تفتر ولا تمل من فعل المعاصى . وجل قوله تعالى : ﴿ ألم تَرَ أنَّا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾ [3].

(١) للتوسع ومزيد المعرفة انظر : تفسير ابن كثير : ٢ / ٢٧٧ .
(٢) انـظر : تفسير القرطبى : ٤ / ٣٤٧
(٣) مريم : ٨٣ .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

يقول الإمام الرازى [1]: بين تعالى فى هذه الآية نوعا من أنواع الإغواء والإضلال، وهو أنهم كانوا يطلبون آيات معينة، ومعجزات مخصوصة، على سبيل التعنت كقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا﴾ [الإسراء : ٩٠]. ثم أعاد أنه عليه ـ الصلاة والسلام ـ ما كان يأتيهم، فعند ذلك قالوا ﴿ لولا اجتبيتها ﴾ والمعنى لولا تقولتها وافتعلتها، وجئت بها من عند نفسك، لأنهم كانوا يقولون ﴿ ما هذا إلا إفك مفترى﴾[2].

وإن لم تأتهم يا محمد بمعجزة سخروا منك، وتهكموا بك، وقالوا لو اشتريتها ـ أى أنك تختلق لنا من عندك أقوالا وأفعالا ـ وصاروا يتهكمون ويسخرون من الحق الذى أنزل على محمد. وكلما زود الله نبيه بالآيات والمعجزات لم يزدادوا إلا بغيا وطغيانا على الحق. والرسول حق، وما ينزل الله عليه هو الحق. ولكن الكافرين لا يعقلون، وهم فى صمم دائم عن الحق. والرسول فى نور ربه منصرف عنهم وعن ضلالهم، يقول الحق: ﴿ وهو يهدى السبيل ﴾ .

اعلموا أيها الناس أنها ﴿ بصائر ﴾ أى حقائق من ربكم، ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾.

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

خطاب للمؤمنين، يأمرهم المولى فيه أن يتدبروا القرآن عند سماعه، ولن يكون ذلك إلا بالتدبر والسماع والتفكر فى المعنى وحسن الإنصات. يقول الحق: ﴿لعلكم ترحمون﴾ يقرن الله سبحانه وتعالى الرحمة مع سماع القرآن، والإنصات له، والتدبر فيه، وإن

(١) الفخر الرازى : ١٥ / ١٠٦ .
(٢) سبأ : ٤٣ .

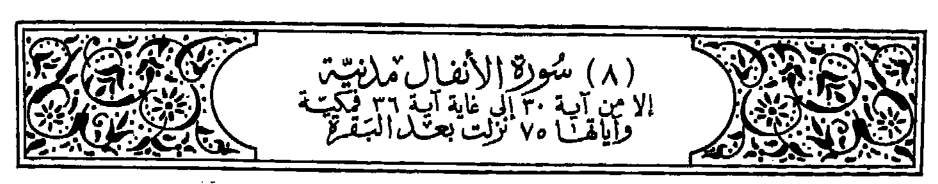
رحمة الله قريب للمحسنين ، الذين يستمعون للحق وبه يعملون ، لأن كفار قريش كانوا يتعمدون التشويش على قارئى القرآن ، فكانوا يقولون ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴾ . واملأ نفسك يا محمد أنت والمؤمنون بذكر الله ، وأشبعوا قلوبكم وجوارحكم وكل حواسكم ونبضاتكم بذكر الله . ﴿ تضرعا وخيفة ﴾ تضرعا إلى الله فى دعائه ، وتذللا بين يديه فى انكسار لذاته ، وفى إعظام لذاته ، وفى انكسار بين يديه للنفس والقلب والجوارح ، واستغراق مع الله فى خضوع ، وامتثال لكل أمر منه افعله بقلبك ، بسرك وبعلنك ، وبحبك وصدقك فى عبوديتك له ، إنه هو الله الذى يجب أن نتضرع إليه ونخاف منه .

أما قوله تعالى ﴿ودون الجهر ﴾ أى دون الرفع فى القول أى أسمع نفسك فقط . كما قال الله ــ سبحانه وتعالى ـ فى موضع آخر ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ أى بين الجهر والسر . ويقول الإمام القرطبى فى ذلك : « ودل هذا على أن رفع الصوت بالذكر ممنوع» . والغدو والآصال مصدران ، الغدو جمع غدوة وهو النهار. أما الآصال فهى وقت الأصيل ـ أى العشيات ودخول الليل ـ أى كن فى صورة العاقل العابد الذى يذوب قلبه تحرقا وشوقا إلى الله ، فى كل وقت ، وفى كل حين ، صباحا ومساء. واحذر الغفلة عن الله ، أو عن أمره ، فهى القاتلة . عش يقظًا فى حضرته ، وأبعد نفسك عن الجهال ، واستر عن الجهال حالك ، فالحسد للمتقين الله أقوى من الحسد للمالكين الدنيا . فامتلاك الدنيا سهل ، أما الآخرة وامتلاكها إنما بحب من الله لعباده ، وحب من العباد لربهم، وهذا مقام دونه الأرواح والأموال والأولاد والأزواج ، ودونه الدنيا كلها . إنه مقام كريم عند رب كريم . إنما الدنيا متاع ، أما الآخرة فهى دار القرار . فاحذر أيها العبد المسكين الفقير إلى الله ، وإن امتلكت الدنيا كلها ، أن تغفل عنه سبحانه . فما أشقاهم إن ملكوها وهم عن الحق غافلون .

اعلم أيها العبد المؤمن أن الملائكة فى ملكوت ربهم الأعلى فى سمواته وأرضه يسبحون ربهم بالليل والنهار فى كل آن وله يسجدون .

وأما أبناء آدم فهم على أمر ونهى حتى نفخة الصور ، نعم هم فى جهاد على إبليس ، فطوبى لمن غلب الشيطان فأطاع ربه ـ سبحانه وتعالى ـ ، حتى قبضت روحه . وهو يقول بطاعة ممتدة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد عبده ورسوله ، فيبعث مع

الساجديـن والشهداء ، ويحشر مع النبيين والصديقين ، لأنـه عاش محبا عاشقـا لذات الله ، فيصحو بذكره ، وينام بذكره ، ويتوب إليه فى كل وقت وفى كل حين ، وإن غفل عنه وسها سجد معتذرا راجيا من الله المحسن المتفضل حسن الوقوف ، وحسن الركوع ، وحسن السجود ، وحسن النجاة ، والتبتل والخضوع والانكسار لرب كريم حليم غفور تواب ، يمحو الذنوب بـدمعات حب فيه . سبحانه . وباستغفار قلـب ساجد أغرقته دموعه شوقا للقـاء الحق ساجدًا عابدا مستغفرا عن لحظات غفلهـا وعاشها مع زوج أو ولد أو مال يجمعه . فيا غفار الذنوب توبتى بين يديك ، وغفلتى فى سجودى وصحوى ونومى بين يديك . لا أدعـو أحـدا سواك ، ولا أرجـو ربا إلا أنت . يا غفار يا رحمـن يا رحيم . .



بسم الله الرحمن الرحيم

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾

السائلون هم أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المقاتلين معه فى غزوة بدر . والأنفال : هى ما غنمه المقاتلون المسلمون من أعدائهم الكفار . والتساؤل : هل من غنم من الكفار غنيمة تكون له ـ أى من نصيبه ـ أو يُجمع كل ما غُنم بعد الحرب فينضم إلى الغنائم وتوزع على أصحاب الأنصبة بالتسوية ؟

كان ذلك الحديث يدور بين المؤمنين المقاتلين وبين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله سبحانه ﴿الأنفال لله والرسول﴾ . ولما أصبحت كذلك قرر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقسمها على المسلمين المقاتلين ، وهى غير الغنائم التى لرسول الله خُمُسُها . وإذا حضرت المؤمنات القتال فلهنَّ نصيبهنَّ .

ثم يقول الحق ﴿ فاتقوا الله ﴾ أى خافوا الله . ومن مقومات ذلك الخوف أن تصلحوا ذات بينكم . يقول ابن كثير : « أى اتقوا الله فى أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا ولا تخاصموا ولا تشاجروا ، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه . ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أى فى القسمة بينكم على ما أراده الله ، فإنه إنما يقسمه كما أمره الله من العدل والإنصاف »(١) .

إن قضية إصلاح ذات البين تحتاج إلى وقفات كثيرة من البشر ، حيث إنها : مناط الود ، وعناق المرحمة ، وانتشار الإسلام .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٨٥ .

سُورَةُ الأَنفَالِ

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

هؤلاء هم عباد الله ، الذين ترتعد أبدانهم رعدة تتخلل القلوب عند سماعهم ذكر الله فتخيفهم ، وتذكرهم بأمر الله ونهيه .

عن ابن عباس : « المنافقون لا يدخل قلوبهم شىءٌ من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشىء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم . فأخبر الله تعالى بأنهم ليسوا بمؤمنين »(1) .

ولكن المؤمنين فى أكثر أوقاتهم إذا استمعوا لآيات الله تتلى عليهم وقع فى قلوبهم خوف تخللته رعدة حانية تذكرهم بالله وجنته وناره ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا - أى تصديقًا - وفى هذا دلاله على أن الإيمان قابل للنقص أو الزيادة . هؤلاء المؤمنون يجدون حلاوة الصلة بالله ، وجلال الحضور بين يديه ، فتهون الدنيا فى قلوبهم ، فيتوكلون على الله فى ثقة وحب . هؤلاء هم المؤمنون حقًّا لهم درجات عند ربهم ، ومنازل فى الجنة يرتقون فيها ، ويتمتعون بمختلف نعمها .

وكثيرًا ما نجد القرآن يصف هؤلاء المؤمنين بالخوف والوجل لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لرب العزة . من ذلك قوله **﴿ وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾**(2) وقوله : **﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾**(3) وقوله : **﴿ وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾**(4) .

---

(1) تفسير ابن كثير 2 / 285 .
(2) الحج : 34 ، 35 .
(3) الزمر : 23 .
(4) المائدة : 83 .

كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾

والمعنى امض لأمرك فى الغنائم ونفِّل من شئت وإن كرهوا ، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جعل لكل من أتى بأسير شيئًا قال : يبقى أكثر الناس بغير شيء .

أى : نفل من شئت من الغنائم وإن كرهوا ذلك ، كما أخرجك ربك من مكة وهم كارهون لترك أموالهم وديارهم (١) .

حيث إن الأمر : عبادة وطاعة .

يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

هم ﴿ يجادلونك ﴾ يا محمد ﴿ فى الحق ﴾ أى القتال . لأنهم يعلمون جيدًا أنك لاتأمر بباطل ، ولا بإذن نفسك ، وهذا هو معنى ﴿ بعد ما تبين ﴾ . وقيل إن معناها : «بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم إما الظفر بالعير أو بأهل مكة » (٢) . فهم يكرهون تنفيذ أمرك ، ويكرهون لقاء العدو ، وكأن الموت جُسد أمامهم فيرونه رأى العين ، أو أنهم يعلمون ذلك .

وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾

وهذا إنكار من الله على هذا الفريق الذى يكره لقاء العدو . ومن مظاهر كرههم لقاء العدو، أنهم يودون أن يقابلوا الطائفة التى ليس لها قوة أو عتاد أو سلاح ، وهى غير ذات الشوكة . وهذا جبن فى حد ذاته ، لكن الله ، يريد أن يظهر الإسلام ويعليه على

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٧/ ٣٦٧، ٣٦٨ .

(٢) انظر تفسير القرطبى جـ ٧ / ص ٣٦٩ .

سائر الأديان ، كما قال ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ [١] . ﴿ بكلماته ﴾ أى بأمره . ويريد الحق أن يستأصل فئة الكفر من الدنيا ، ﴿ ليحق الحق ﴾ أى الإسلام ، ويعدمَ الكفر، حتى ولو كره ذلك المجرمون .

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

الاستغاثة هى طلب العون والنصر .

روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ القبلة ثم مدّ يديه فجعل يهتف بربه « اللهم أنجز لى ما وعدتنى ، اللهم آت ما وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » . فمازال يهتف بربه ، مادًّا يديه ، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك . فأنزل الله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم . . . ﴾ فأمده الله بالملائكة [٢] .

ثم التقى الفريقان ، المؤمنون والكافرون ، ونصر الله المؤمنين ، وقتل يومئذ سبعون من المشركين ، وأُسر كذلك سبعون ، واستشهد من المسلمين ثلاثة عشر مسلما . والحمد لله فقتلاهم فى النار ، أما شهداؤنا ففى جنات ونَهَر ، بين فراديس الجنان ، وفى خدمتهم الحور العين والولدان المخلدون . وقوله تعالى : ﴿ مردفين ﴾ أى تابعين لاحقين معاونين معينين .

وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامَه إياكم إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم [٣] . ومع

---

(١) التوبة : ٣٣ .

(٢) كتاب : « الجهاد والسير » باب : « الإمداد بالملائكة » .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ص ٢٩٠ .

ذلك نبّه الحق سبحانه وتعالى على أن النصر من عنده هو لا من الملائكة ، « فلولا نصر الله لما انتُفع بكثرة العدد بالملائكة . والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة »(١).

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

فى هذه الآيات : يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أمانًا أمّنهم به من خوفهم الذى حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم »(٢).

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : « ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يصلى تحت شجرة ويبكى حتى أصبح »(٣).

فيأهل الإيمان والتسليم : ألم تنظروا إلى ما أنعم الله به عليكم إذ أصابكم بالنعاس ليلة اللقاء أمنًا منه وتطمينًا لقلوبكم وأنزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان .

ثم يأمر الله الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا على الحق لينتصروا على أعداء الله ، فتكون لهم الكرامة عند الله والفوز برضوانه تعالى . وهو من عنده سيلقى فى قلوب الأعداء الرعب والفزع الشديد ، فلا يجدون لهم من ملجأ إلا أن يتخبطوا فى خبل هزيمتهم ، فاضربوا أيها المسلمون كل بنان ـ أى أطرافهم ـ واقطعوها وافلقوا رءوسهم ، لأنهم تركوا

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ / ص ٣٧١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ص ٢٩١ .

(٣) المرجع السابق .

أوامر الله ، وخالفوا الرسول ، وتركوا الشرع ، وجعلوا أنفسهم فى جانب المعصية والكفر، والرسول فى جانب الله والإيمان به والدعوة له ، وذلك جزاء المفسدين ، المحاربين لله ورسوله، فليس لهم إلا خزى فى الدنيا وعذاب فى الآخرة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن
يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ
مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

يأيها المؤمنون بمحمد وما أنزل عليه من الحق ، تحصنوا بالله عندما تجدون الذين كفروا قد تجمعوا وتحزبوا ليكونوا عليكم يدًا واحدة . واعلموا أن النصر من عند الله ، فلا بسبب كثرتهم ينتصرون ، ولا بسبب قلتكم تنهزمون ، ولكن الله ينصر الذين آمنوا بإيمانهم ، ويهزم الكافرين بكبرهم على الله ، وحربهم له سبحانه وتعالى ، ومخالفتهم للرسول ولجماعة المؤمنين . ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ أى لا تفروا من أمامهم معطين لهم ظهوركم ، بل استقبلوهم بشجاعة وثبات ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . فالنصر بكم ، ولكن يلزمه الجهاد والثبات والعمل المستمر الدءوب ، ويكون ذلك لوجه الله ، لا لدنيا يصيبها ، ولا لمجد ينتظره ، ولكن المقصد هو الله . وإياكم أن تولوهم الأدبار، والفرار .

وقوله ﴿ إلا متحرفًا لقتال ﴾ أى « يفر بين يدى قرنه ليريه أنه قد خاف منه فيتبعه ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه » (١) . أما قوله ﴿ أو متحيزًا إلى فئة ﴾ فهو ضمن استثناء الآية للذين نهوا عن أن يفروا من أمام العدو ، فيخرج من هذا الحكم هاتان الفئتان ﴿ إلا متحرفًا لقتال ﴾ و ﴿ متحيزًا إلى فئة ﴾ ، أى فرّ من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونونه فيجوز له ذلك » (٢) .

ومن يفعل ـ من غير هاتين الفئتين ـ غير ذلك ، أى يفرّ من أمام العدو ﴿ فقد باء بغضب من الله ﴾ ، أى استحق غضب الله وسخطه ، ومقامه جهنم وبئس المصير .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ / ص٢٩٣ . (٢) المرجع السابق .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ
وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

اعلموا أن الله سبحانه وتعالى هو الفعال ، وأن النصر به والهزيمة به .

وروى أن أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل : قتلت كذا . فعلت كذا . فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك ، فنزلت الآية إعلامًا بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء ، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده (١) .

فالأصل فى الفعل لله سبحانه وتعالى ، وهو سبحانه يبتلى المؤمنين أو يختبرهم ، ثم ينظر برحمته أيّ العباد يخشاه ويحذر غضبه ، والسعادة والرضا لمن يخشاه . والله سبحانه وتعالى يلقى فى قلوب الكافرين الرعب حتى يتشتتوا ويتفرق جمعهم فيضعفوا. والكيد فى الآية يعنى المكر.

إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟
نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

يقول الله تعالى مخاطبًا الكفار : إن تستفتحوا أو تطلبوا الفتح والنصر فقد جاءكم الفتح ، ولكنه للمسلمين عليكم . وقد ظهر وانكشف لكم الحق ، وإن تنتهوا ـ أى عن الكفر ـ فهو خير لكم ، وإن تعودوا إلى مثل هذه الأقوال ، ومحاربة محمد وقتاله ، نعد مرةً أخرى إلى نصر المؤمنين ، ولن تغنى عنكم فئتكم الكثيرة . لكن ما هى أقوالهم التى كانوا يستفتحون بها أى يطلبون بها الفتح ؟ قالوا : اللهم أقطعنا للرحم وأظلمنا لصاحبه فانصره عليه . وقال النضر بن الحارث : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ وهو ممن قتل ببدر .

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ٧ / ص ٣٨٤ .

كل هذا إذا كان الخطاب للكافرين فى الآية . أما إذا كان الخطاب للمؤمنين ، فيكون التأويل كما يلى : إن تستنصروا وتطلبوا النصر والفتح فقد جاءكم الفتح والنصر ، «وإن تنتهوا أى عن مثل مافعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى فهو خير لكم ، وإن تعودوا إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم »(1) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ٢٠

نداء من الله للمؤمنين بأن يطيعوا الله والرسول ، ففى ذلك سعادتهم ونجاحهم وتوفيقهم للخير والفلاح والفوز على من يعاديهم من الكفار والمنافقين ﴿ ولا تولّوا ﴾ أى ولا تعرضوا . وقال عنه ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول هى من طاعة الله ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾(2) . فاحذروا أن تتولوا عن رسولكم وأنتم تسمعون نداءه .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ ٢١ ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ٢٢

أى لا تكونوا مثل المنافقين واليهود والمشركين الذين سمعوا فأعرضوا وضلوا ، فخسروا الدنيا والآخرة . فإنهم يظهرون السماع والاستجابة ولكنهم عند التنفيذ كفروا. وشبههم الله بالأنعام لأنهم صم عن سماع الحق بكم عن الفهم ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ من الأنعام ، لأن الدواب على الأقل مخلوقة لله مطيعة له فيما خلقها له .

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ٢٣

لقد سبق فى علم الله الأزلى أنه لو أسمعهم وفتح قلوبهم للفهم والوعى والبصيرة ، للنظر والتأمل ؛ ما حصل منهم ـ رغم ذلك ـ خير ، لأنه ليس فيهم خير يرجى نفعه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ٢٤

---

(1) تفسير القرطبى جـ ٧ / ص ٣٨٦ .
(2) النساء : ٨٠ .

هذا خطاب للمؤمنين المصدقين وتكليف لهم بأن يجيبوا لما يصلحهم . أما قوله ﴿يحول بين المرء وقلبه﴾ أى فلا يستطيع أن يؤمن إلا بإذنه ، ولا يكفر أيضًا إلا بإذنه ومشيئته ، فيحول الله ـ أى يمنع ـ بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان .

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » . قال فقلنا يا رسول الله : آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ؟ قال : نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها كيف يشاء [1].

وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

« يحذر الله تعالى عباده المؤمنين فتنة ـ أى اختبارًا ومحنة ـ يعم بها المسىءَ وغيرَه . لايخصُّ بها أهل المعاصى ولا من باشر الذنب بل يعمها » .

وعن ابن عباس « أمر الله المؤمنين ألا يُقرُّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب » [2].

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

نزلت هذه الآية فى المهاجرين ـ كما يذكر المفسرون ـ تصف حالهم قبل الهجرة ، حيث كانوا : قليلين فكثرهم ، ومستضعفين فقواهم ، وقوّى شوكتهم ، وفقراء فرزقهم الطيبات .

وكانوا عرضة للخطف من قبل المشركين والمجوس ، فآواهم الله إلى نعمة الإسلام والإيمان وهكذا . . جعلهم الله ملوكًا فى الأرض بدخولهم هذا الدين .

---

(١) رواه : الترمذى ، كتاب القدر ، باب ما جاء أن القلوب . . إلخ ، قال أبو عيسى : وفى الباب : عن النواس بن سمعان وأم سلمة وعبد الله بن عمرو وعائشة ، وهذا حديث حسن .
ثم قال : وحديث أبى سفيان عن أنس « أى المذكور » أصح .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ / ص ٢٩٨ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ٢٧

وخيانة الله والرسول تكون بمعصية الله ومخالفة رسوله . وإذا خانوا الله والرسول فقد خانوا أماناتِهم .

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ٢٨

واعلموا أيها المسلمون أن المال فتنة ـ أى اختبار ـ والولد فتنة ، والزوج فتنة ، كل ذلك أعطاكموه الله سبحانه وتعالى ليعلم أتشكرونه عليه وتطيعونه فيه ، أم تتلهون به فيشغلكم عن الله وذكره ، واتباع أوامره . وجل قوله ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾ (١)ـ وجل قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوًّا لكم فاحذروهم** ﴾ (٢)ـ أيها المسلمون اعلموا أن ثواب الله هو الباقى ، وعطاءه هو المستمر ، وهما خير لكم من عرض الدنيا الزائل ، حتى ولو كانت أولادًا أو أموالاً .

كما ثبت فى الصحيح أيضًا أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » (٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ٢٩

إن المؤمنين الذين صدقوا بالله وكتبه ورسوله واليوم الآخر ، فخافوا حساب الله وعقابه ، فاجتنبوا ما يغضبه ، وفعلوا ما يرضيه حسب أوامره ونواهيه ، وأقاموا الصلاة ، وأخرجوا الزكاة ، واعتكفوا عن الحرام ، واستظلوا بالحلال ، فاستغرقتهم محبة الله ، واتخذوا من سنة رسول الله مدرسة تعدهم لفهم كتاب الله فهمًا يؤهلهم ليكونوا عباد الله الصالحين ، وقياداتِ الإسلام المصلحين ، ليعيدوا دولته ، ويؤسسوا أمته على كتاب الله .

---

(١) المنافقون : ٩ . (٢) التغابن : ١٤ .

(٣) رواه : البخارى ، واللفظ له ، كتاب الإيمان باب « حب الرسول من الإيمان » .

ورواه : مسلم والنسائى وابن ماجة والدارمى ، عن أنس .

أين عزة الإسلام فينا إن لم يكن هؤلاء الرجال ؟ أين دولته ؟ أين حكمه ؟ أين خلافته الرشيدة ؟ ومتى يجعل الله لنا فرقانًا ـ أى نجاةً ـ لنعلم الحق من الباطل ، فنستقيم على الحق ، ونهجر الباطل ، فتعود لنا ريادة العالم من جديد ؟

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

إن الكفار فى مكة لما أجمعوا على قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك فى دار الندوة ، أخبر الله رسولَه عن طريق جبريل ـ عليه السلام ـ بأنهم سيجتمعون على قتله ، وبلَّغَه أمرَ الله له بالهجرة . وقصة الهجرة معروفة فى السيرة [1] من خروجه ليلاً وبقاء سيدنا على ـ رضى الله عنه ـ نائمًا فى فراش سيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ومعنى ﴿ ليثبتوك ﴾ : ليحبسوك . أما المكر من الله فهو معناه جزاؤهم بالعذاب على مكرهم من حيث لا يشعرون .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

إخبار عن كفار قريش الذين كانوا يزعمون قدرتهم على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، حتى إن القرآن تحداهم فى ذلك ولو بإتيانهم آية واحدة ولكنهم عجزوا . ويذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث الذى كان يخرج إلى الحيرة فى تجارة ، فاشترى أحاديث كليلة ودمنة وكسرى وقيصر وزعم أنه يستطيع أن يأتى بأخبار مثل الأخبار التى يوردها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خصوصًا الماضية منها .

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

فى كبر وتبجح يخاطبون الحق ـ سبحانه وتعالى ـ اللهم إن كان هذا القرآن حقًّا فعلاً

---

(١) ذكرها ابن كثير فى تفسيره كاملةً لمن أراد الرجوع إليها جـ ٢/ ص ٣٠٢ .

ومن عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، وهذا « من كثرة جهلهم وشدة تكذيبهم وعنادهم وعتوهم ومما عيبوا به . وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ، ووفقنا لاتباعه . ولكنهم استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب ، وتقديم العقوبة » (١) كقول القرآن ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾(٢) ـ و ـ ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ (٣) .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قضت رحمته ألا يعذبهم وأنت يا محمد بين أظهرهم ، ولكن يؤخرهم ليوم عظيم شديد على من أنكر رسالتك ، وضل عن الطريق الحق الذى أمرك أن تدعو إليه .

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

يخبر الله تعالى أنهم أهلٌ للعذاب مستحقون له ، ولكن لم يحدث ذلك التعذيب بفضل بركة وجود رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينهم ، وكيف لا يقع بهم العذاب وهم يصدون عن المسجد الحرام أهلَه الذين أتوا إليه يصلون ويطوفون به ؟ لذلك يقول الحق عنهم إنهم ليسوا أهل هذا البيت الطاهر ، إنما أهله هم النبى وأصحابه المؤمنون المتقون . هؤلاء حقًّا هم أولياؤه ، وجل قوله : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ (٤) ـ وجل قوله ﴿ وصد عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ (٥) .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ـ ٣٠٤ .
(٢) المعارج : ١ .
(٣) الشعراء : ١٨٧ .
(٤) التوبة : ١٧ ـ ١٨ .
(٥) البقرة : ٢١٧ .

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥ ﴾

كانت قريش تطوف بالبيت الحرام عرايا يصفقون ويصفرون . معتقدين أن ذلك هو العبادة الصحيحة . والمكاء فى اللغة : الصفير . أما التصدية فهى التصفيق .

ويعلق الإمام القرطبى قائلاً : على أن هذا « رد على الجهال من الصوفية الذين يرقصون ويصفقون ويصعقون . وذلك كله منكر يتنزه عن مثله العقلاء ويتشبه فاعله بالمشركين فيما كانوا يفعلون عند البيت » (١) .

وفى كلام الإمام القرطبى السابق غنى عن الحديث والخوض فى هذا الموضوع الذى شاع حديثًا تحت مسميات « الحضرة » و « الزفّة » و « المولد » و « الذِّكْر » معتقدين أنها قربات إلى الله ، وأنهم بذلك وصلوا الله وارتقوا إلى مراتب الصوفية العليا ، ومنازل السعداء . والحقيقة أنهم أقرب إلى الشرك منهم إلى الإيمان . فما حظهم من ذلك إلا بضع تخاليع متراقصة ، ومجهودات جوفاء . لو وضعوها فى إنتاج ، أو كسب رزق ، أو قضاء المصالح ، لكانت عند الله خيرًا من عمرهم الذى ينفقونه هباءً منثورًا . والمصيبة أنهم يسمون أنفسهم المتصوفة (٢) .

إن الإيمان الحق هو حسن الظن بالله ، الذى يجعل الإنسان يرتقى بإيمانه إلى مشارف إلٰهية مشرقة . وهى استشراف ربّانى يصل المرء به إلى أعلى مراتب التكليف الإلٰهى . وهى نقاء سريرة ، وصفاء قلب ، يجعلان صاحبهما حبيبًا إلى الله وإلى رسوله . وما بين صفاء القلب وحب الله مراحل متعددة من التكاليف المصحوبة بشتى الاختبارات والابتلاءات ، بها يترقى مرة ويهبط مرة ، لكنه دائمًا فى صعود إلى منتهى إيمانى راق ، لا إلى هاوية مفرطة سحيقة . إن رقصات المؤمن الحقيقى يوقعها فى أرق لقاء مع الله عندما يدخل صلاته . هى فى خطوات يتكسب بها عيشه بدلاً من أن يسأل الناس أعطوه أو

---

(١) تفسير القرطبى ، ٧/ ٤٠٠ .

(٢) يقسم لى أحد الأبناء الموثوق فيهم أنه جاءت إليه دعوة من إحدى الطرق الصوفية تدعوه للحضور ، ومكتوب على بطاقة الدعوة « يتشرف . . فلان بدعوتكم إلى حضور الاحتفال بمولد سيدى محمد أبو الفضل قطب دائرة الوجود ، من عمت بركته كل مولود ، ومعكم البيارق والطبل والسيوف » .

منعوه ، بل هى فى أعظم سير له عندما يقصد المسجد يريد الجماعة . أما أنغامه فهى خلاصة الارتياح النفسى ، بدلاً من الذى يرجى من وراء الأنغام الشيطانية العابثة . هو إحساس غامر بعظمة المولى وقدرته ، وتكفله بعمره وحياته ، وليست أنغام المؤمن تَلَهِيَات إبليسية ، يختلط فيها الماجنون بالصعاليك الذين لاهم لهم إلا ملء البطون ، وإتيان الفواحش . . ذلك هو الإيمان الحق من وجهة نظر استشرافية مؤمنة شعارها ﴿إنا إلى ربنا راغبون﴾ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ
تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾
لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ
جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

يخبر الحق : أن هذه الأموال التى ينفقونها فى محاربة الدعوة ستكون عليهم حسرة وندمًا ، لأن الله متم نوره ولو كره الكافرون ، فيميز الله ساعتها المؤمن من الكافر ، السعيد من الشقى . وساعتها أيضًا يجمع الله كلَّ الخبيث بعضه فوق بعض ويجعله متراكمًا ، ويدخله جميعًا جهنم . أولئك هم الخاسرون الدنيا فى والآخرة .

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ
مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ
ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن
تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

فتح الباب أمام الذين كفروا كى ينتهوا عن ضلالهم عن الحق وعن الطريق المستقيم ، فإن اهتدوا ودخلوا الإسلام ، ورجعوا إلى طريق الطاعة والإنابة ، غفر الله لهم ما قد سلف .

وإن لم ينتهوا ويعودوا ويستمروا على ما هم فيه ، فإنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة ،

كما فى قريش يوم بدر ، وغيرها من الأمم . وإن أصروا على بغيهم فقاتلوهم ، ففى عدم قتالهم فتنة للناس . فإن انتهوا نتيجة إصراركم على الحق ، فإن الله بصير بهم وبما يعملون ، ويجازيهم به . واجعلوا نيتكم أنكم تريدون بصلاحهم وجه الله حتى يبارك فى قتالكم . واعلموا أن الله بما تعملون بصير . وإن تولوا عنكم ولم يسمعوا لكم ، ويستجيبوا لما فيه صلاحُهم ، فتأكدوا أن الله هو مولاكم . ومن كان الله مولاه فالنصر حليفه لا محالة ، حتى ولو هزم فى الدنيا لبعض الوقت ، فهو بعقيدته وبالثبات عليها منتصر . لأن النصر الحقيقى هو أن تكون مع الله ، وذلك هو النصر الحق .

۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

الغنائم هى مكاسب الحرب للفريق الغالب ، وقد قسم الله غنائم الحرب بين المسلمين عندما تكون لهم الغلبة . وقد كان يوم فرق الله بين الحق والباطل يوم بدر . يوم التقى الفريقان فى السابع عشر من رمضان .

إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

يمن الله على عباده المجاهدين ، الذين رأوا جمع الكفار وكثرة عددهم وعدتهم وقلة عددهم هم وعدتهم ، ويذكرهم بفضله عليهم وبنصره ، إذ كان كل فريق بجانب من وادى الجبل ، إذ أنتم بالجانب الأدنى إلى المدينة ، وهم بالجانب الأقصى ، وبضائع الفريق الآخر وركبهم أسفل منهم ناحية البحر . ويذكرهم أنه بفضله لم يجعلهم يحددون أو يضربون موعدًا . ولو كان تمّ ذلك لبلغكم كثرة عددهم فتشيع فى صفوفكم

الفوضى، ويعم الرعب ، وينتشر الفزع ، وشاع فى نفوسكم أنكم لا محالة منهزمون . وجاء النذير والنبى فى عشيرته يدعو الله ويرجوه ، ويشعره الله بالنصر ، وأنه آتٍ لامحالة، وأن النصر لا بكثرة العدة والعتاد والناس ، ولكنّ القلةَ مع الإيمان بالله قوة ضاربة ، لا بأيديها فحسب، لكن بعون الله وحبه واصطفائه كذلك . لذلك كانت آيات الله فى موقعة بدر . فجاءت قريش بخيلها ، والمسلمون بيقينهم ، فكانت الغلبة للمسلمين . وكانت موقعة بدر هى الفاصل التاريخى بين غطرسة الكفر والبعث الإيمانى . وببدر قامت دولة الإسلام فى المدينة . وما النصر إلا من عند الله . والهزيمة لدى أهل الإيمان تمحيص، ولدى الكافرين تأديب وردع ، وسحق للباطل . وهى عند المؤمنين عزة وهيبة وثبات ، وتجديد للعمل والنشاط لمعاودة الجهاد وذلك ﴿ ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً ﴾ ليؤمن المؤمن على حق ، وليكفر من كفر بعد حجة قامت عليه . ويؤمن من آمن على ذلك .

إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

لقد صور الله المشركين فى عين أهل الإيمان قلة ، ولو تركهم ورؤيتهم لهم كثيرين لفشلوا ، ولعم الخوف والفزع بين النفوس والصفوف . فكان المسلمون بعون الله كثرة فى أعين أنفسهم، والكفار فى أعين المسلمين قلة قليلة . فكانت جرأة المسلمين على القتال قوية ثابتة متأكدة من النصر . فكان الفوز للمسلمين والهزيمة للكفار . فالسلاح آية ظاهرة ، والإيمان قوة باطنة . وقوة الإيمان أقوى من قوة السلاح ، لذلك يقول الحق :

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

رؤية متبادلة : رؤية المسلمين للكفار وهم (أى الكفار) قلة ، وهذا دفع وشحذ للقتال دونها فزع أو استكانة أو يأس . ورؤية الكفار للمسلمين وهم (أى المسلمين) قلة، حتى يستهين الكفار بأمر المعركة ، فيخدعوا حتى أن أبا جهل قال فى ذلك اليوم : إنما هم أكلة جزور .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم
بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

نداء من الله القوى المتين لعباده الذين آمنوا أن يثبتوا عند لقاء فئة من الأعداء . ثم يأمرهم بألا ينشغلوا عن ذكر الله ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1] فيجب أن يكثروا الذكر ، وأن يستمروا فيه ، وحسن التوكل على الله . ولعل الفلاح يأتيكم بحسن الثقة فى الله ، وصدق التوكل عليه ، ثم يوصى ويأمر المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله ، وأن يترابطوا ثم يحذر المؤمنين من التنازع والاختلاف ، لكى لا يأتى الفشل وتذهب القوة والنصرة . كما يأمرهم بالصبر ، وهو أمر محمود فى كل المواطن خصوصًا الحروب .

ثم يحذر المؤمنين - مرة أخرى - من أن يكون خروجهم للقتال رياءً ومفاخرة .

وتخص الآية وتذم أباجهل وأصحابه الذى قال : « إن كنّا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله مالنا بالله من طاقة ، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة ، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نَرِدَ بدرًا فنشرب فيها الخمور ، وتعزف علينا القيان . . . حتى تسمع العرب بمخرجنا فتهابنا آخر الأبد »[2] .

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ
وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ
مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

أغرى الشيطان أولياءه الكفار أنه معهم ، يحارب معهم ، وأنهم على حق فى قتالهم ، لأنهم يحاربون على دين آبائهم ، وقال لهم ﴿ إنى جار لكم ﴾ سأقاتل معكم حتى

---

(١) الرعد : ٢٨ . (٢) تفسير القرطبى جـ٨ / ص ٢٥ .

تنتصروا . ولكن الله أمدّ رسوله والذين معه بعونه . فأرسل جبريل والملائكة يقاتلون عن المؤمنين . ففر الشيطان هاربًا من المشركين وقال لهم ﴿ **إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ . ونكص على عقبيه ـ أى أدبر مسرعًا ـ وقيل إن إبليس خاف أن يكون يوم بدر هو اليوم الذى أُنظر إليه .

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

قال المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ﴿ **والذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى ضعيفو الإيمان حديثو العهد بالإسلام ، الشاكّون وهم دون المنافقين ، قال هؤلاء وهؤلاء عند الخروج إلى القتال : ﴿ **غرّ هؤلاء دينهم** ﴾ مشيرين إلى جماعة المسلمين . أو أن المقصود من هذه الفئة هم الكفار الذين قالوا ذلك عندما رأوْا عدد المسلمين صغيرًا وقوتهم ضعيفة فظنوا أنهم سيهزمونهم . وهذا من جهلهم ولكنّ المؤمنين كانوا متوكلين على الله واثقين بصدق نبيهم ، فثبتهم الله وانتصروا .

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾

إن منظر توفى الملائكة للكفار يوم بدر لمنظر عظيم فظيع منكر ، إذ يضرب الملائكة وجوه الكفار وأدبارهم قائلين لهم : ﴿ **ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ فشوهت وجوههم وظهورهم وأدبارهم ، فيعودون كما كانوا فيهلكون مرة أخرى غير منقطعين ، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم ، لأن الله ليس بظلام للعبيد ، أى لا يظلم أحدًا من خلقه ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ

حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ
وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ
وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

إن الذين يكذبون اليوم بما أنزل على محمد متساوون فى الكفر بآل فرعون وبالذين من قبلهم من الكفار من قوم لوط وهود وشعيب ، ومن يماثلهم من الظالمين حتى قيام الساعة . فعذبهم الله بسبب ذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب . هذا العقاب لم يكن الله مجريه عليهم بدون سبب ، ولكن بسبب تغييرهم وتبديلهم نعمة الله ، وهذا من تمام نعمة الله وعدله وقسطه ، وهو أحكم الحاكمين ، لا يغير نعمة على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه هو .

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ
ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ
فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً
فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

أشر من يدب على وجه الأرض هم الذين كفروا بنعمة الله الذين لا يؤمنون .

هؤلاء من صفاتهم نقض العهود ، ولا يخافون سوء العقاب على هذا العهد وتلك المواثيق . والمراد بهؤلاء القوم هم بنو قريظة وبنو النضير ، وهذا هو دأب اليهود الدائم ، وعلى المسلمين أن يحذروا من عدوهم ، لأن فتنة العصر قد اجتاحت ساحتنا . فنكل بهم يا محمد عند ظفرك بهم فى حرب ، وأسرهم لعلهم يتذكرون بوعدك إياهم ، ولا ينقضون العهود . وإن خفت الخيانة من هؤلاء القوم بالعهود فاطرح إليهم عهدهم فى وجههم إنهم منبوذون . ومعنى ﴿ على سواء ﴾ أى على مهل « أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء ، أى تستوى أنت وهم فى ذلك » (١) فإن الله لا يحب الخائنين ، حتى ولو كان على الكفار أنفسهم .

---

(١) ابن كثير جـ ٢/ ص ٣٢٠ .

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

لا تحسبن من أفلت من الكفار يوم بدر أنهم فاتونا فلا نقدر عليهم ، بل هم تحت سلطاتنا وقدرتنا فلا يعجزوننا ، إذ العبرة بالنهاية ، والنهاية بأيدينا .

وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ
وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وأعد لهم يا محمد أنت وأمتك من عدة القتال ما ترهبهم بها ، فنظم جيشك ، وجهز سلاحه على أقوى ما تستطيع من السلاح والرجال وكل ما يساعد على التقدم والتفوق فى كل مجالات الحياة .

بل إن من واجبنا اليوم امتلاك الذرة والنوويات وكل ما أحدثه العلم من عدة السلاح : صواريخ موجهة . قنابل ذرية . أقمار صناعية . كل علوم الحرب يجب أن نملكها ونصنعها لنصون بها عشرتنا بالله ثم بها أمرنا الله به .

واعلموا أيها المسلمون أنه مهما أنفقتم من جهدكم ووقتكم فى الجهاد فإنه يرد إليكم ، ويوفّ إليكم على أكمل وجه .

إنه قرار بالتكليف بإعداد العدة كما هى فى عصرنا الحديث ، من ذرة ومشتقاتها . ذلك واجبنا اليوم ، لنكون أمة الإسلام كما أرادها الله سبحانه وتعالى ، ولنخرج من الذلة والهوان الذى نحن فيه ، ونملك أمرنا ، ونعيد سيادتنا فى الأرض ، ونقيم خلافتنا . فنعيد للإنسان كرامته ، وللعالم سكينته ، ونوقف غطرسة الإنسان المتمرد على أمر الله .

وعندما نخلص النية لله ، ونعد العدة لحرب عدوه ، يبعث سبحانه الرهبة والخوف فى قلوب أعداء الإسلام .

۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى بالحرب والاستعداد الكلى لها فى الآية السابقة ، وكلف

المسلمين بالاستعداد الكامل بعدة القتال قال سبحانه : ﴿ وإن جنحوا للسلم﴾ أى مالوا إلى السلام والمصالحة .

وبذلك يكون الأصل هو الاستعداد للحرب ، وإعداد عدته على أكمل وجه ، وبذلك يجب على المسلمين أن يتفقهوا ويدرسوا شئون الحرب والجهاد لعامة الأمة وخاصتها مع وجود الجيوش الحديثة المتخصصة . كما يجب عدم إعفاء أى فئة من الشعوب الإسلامية من التدريب على الدروس فى شئون الحرب ، فى مراحل التعليم ، ثم يكون التخصص والدراسات العليا فى فنون الحرب للجيوش النظامية . هذا ما يأمر به الإسلام ويجعله واجبًا حكميًّا .

﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ إذا تأكد المسلمون من صدق عدوهم فى طلب المسالمة ، والنزول على أمر الله . وهذا هو الدليل على صدق النية . ويجب على النبى أو الأمير أن يفاوض فى أمر المسالمة دون إجبار أو إرغام على اعتناق الإسلام . ولكن يترك لهم الخيار بين الجزية أو الإسلام . والجزية هى تساوى ما يدفعه المسلمون من الزكاة .

وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ
وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ
بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾

واعلم يا محمد أن الكفار لا يستطيعون أن يخدعوك أو يخدعوا من ينوب عنك من حكام المسلمين الملتزمين بسنتك وبكتاب الله . فالله مؤيدك بنصره ومن سار مسيرتك من المؤمنين . ولن يستطيع غير الله أن يؤلف بين المؤمنين ، فقد منّ الله عليهم بأن ألف بين قلوبهم ، وجعلهم أتباعك ، مؤيدين بنصره . ولن تستطيع أن تؤلف بينهم يا محمد حتى ولو كلفك ذلك ما فى الأرض جميعًا . ولكن الله هو الذى يربط على قلوبهم . وجل قوله سبحانه : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانًا ﴾ (١) .

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

سُورَةُ الأَنفَال

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

أى كافيك وناصرك ومؤيدك على العدو هو الله سبحانه وتعالى ، الذى ألف بين قلوب المؤمنين ، وألّفهم إليك ، وتجمعوا حولك .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

فيا محمد حرض المؤمنين على القتال ـ وابعث فيهم روح الجهاد والمثابرة ، وقتال أعداء الله . فإن كنتم قلة فالنصر من عند الله .

ثم يشرح الله لنبيه ولخلفائه من بعده أن الانتصار ليس بكثرة العدد ولكن بما وقر فى القلب من الصدق ، والإخلاص والاندفاع للقتال مع اليقين بالجنة لشهداء المعركة . والله يهب المؤمنين قوة من لدنه . فالمائة المؤمنة تغلب ألفا من الذين كفروا ، والمائة الصابرة تغلب مائتين ، والألف تغلب ألفين .

هذا عطاء ما فوقه عطاء . إنه إكرام الحق للمجاهدين . إنه سبحانه ﴿ **اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون وعدا عليه حقًّا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به** ﴾ (١) .

مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ

---

(١) التوبة : ١١١ .

أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

نزلت هذه الآيات عقب انتصار المسلمين فى موقعة بدر . ونحن نعلم قصة مشاورة النبى صاحبيه أبا بكر وعمر فى أمر الأسرى . فكان رأى أبى بكر الفداء ، ورأى عمر القتل . ولكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مال إلى رأى أبى بكر . ونزلت الآيات معارضة لأخذ الفداء .

وبعد العفو أباح الله الانتفاع بمال الفداء حيث قال : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيبًا﴾ .

يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

هذا منتهى الرحمة من الله سبحانه . « قال ابن العربى : لما أسر من أسر من المشركين تكلم قوم منهم بالإسلام ولم يمضوا فيه عزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافًا جازمًا ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين . قال علماؤنا : إنْ تكلّم الكافر بالإيمان فى قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنًا ، وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرًا . . . وقد بين الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحقيقة فقال : ﴿وإن يريدوا خيانتك ﴾ أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرًا فقد خانوا الله من قبل بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك ، وإن كان هذا القول منهم خيرًا ويعلمه الله فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيرًا مما خرج عنهم ، ويغفر لهم ما تقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم » (١) .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا

(١) انظر تفسير القرطبى جـ٨/ ص ٥٥ .

عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ
أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣

قسَّم الله المؤمنين إلى أصناف : مهاجرين خرجوا من ديارهم ، وجاهدوا بأموالهم وانتصروا لدين الله وإقامته وإظهاره . وأنصار وهم أهل المدينة فى ذلك الوقت الذين فتحوا قلوبهم قبل دورهم ومتاعهم لإخوانهم المهاجرين ، تجمعهم أخوة فى الإيمان ، ومحبة فى الله ، وانتصروا لله وللرسول بروحهم وأموالهم . فهؤلاء وهؤلاء بعضهم أولياء بعض من أجل ذلك آخى حبيب الله بينهما . وجل قول الحق : ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة** ﴾(١) .

وهناك صنف ثالث من المؤمنين : هم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل آثروا البقاء فى ديارهم .

ومن عدل الإسلام وعظمته أنه يأمر جماعة المسلمين أن ينصروا هذه الفئة إن طلبت النصرة يومًا ما إلا فى حالة واحدة وهى حالة طلبهم النصر « على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته »(٢) .

أما الكفار فبعضهم أولياء بعض .

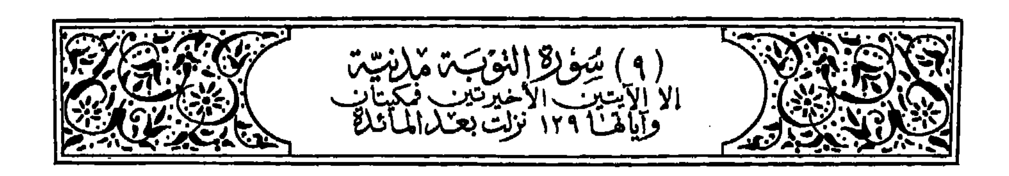
وقد حذر الله المؤمنين من موالاة المشركين وهددهم إن لم يجانبوهم ، فستقع الفتنة فى الناس ، ويختلط الفاسد بالمؤمن ، والعاصى بالمسلم ، وينشر الفساد بين الناس .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ
وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥

هذا توثيق لأخوة المهاجرين والأنصار ومن استن بسنتهم ، وحذا حذوهم إلى يوم الدين . فياليت المسلمين يتعظون بكتاب ربهم ، وسنة رسولهم ، لعلّ عزتهم تعود ، وسيادتهم تسود . !!

---

(١) التوبة : ١١٧ .　　(٢) تفسير القرطبى جـ٨ / ص ٥٧ .



بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾

أنزل الله هذه الآيات الكريمة : يعلن فيها نقض عهد الذين نكثوا عهودهم ، وأن لهم أربعة أشهر يدبرون فيها أمرهم ، ويرحلون خلالها إلى حيث شاءوا ، وبعد ذلك يقاتلون أينما وجدوا .

ولذلك لم يبسمل فى أولها كعادة كل السور ، جريًا على عادة العرب الذين كانوا - كما يقول الإمام القرطبى - إذا نقض أحد الطرفين المتعاهدين عهدًا أو أرادوا ذلك أرسلوا إليهم كتابًا ولم يكتبوا فيه « البسملة »[1] .

وفور نزول هذه الآيات : ألحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بن أبى طالب بأبى بكر - رضى الله عنهما - فى موسم الحج ، ليقرأ على المشركين هذه البراءة منهم . فإن تابوا وآمنوا فهو خير لهم ، وإن تولوا فليعلموا أنهم غير معجزى الله . ثم يعلن الحق أن هؤلاء الكافرين لم ولن يكونوا معجزين الله سبحانه وتعالى ، فهو القوى العزيز القادر على كل شىء . وأنذر يا محمد هؤلاء الكفار إن لم يرجعوا إلى الله ويؤمنوا بعذاب أليم وخزى دائم ؛ لذلك يؤكد الله هذا المعنى فى الآيات التالية أيضًا قائلاً :

وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ

---

(١) انظر : تفسير القرطبى ٨/ ٦١ وما بعدها .

وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

المعنى أن الله برىء من المشركين إلا المعاهدين فى مدة عهدهم ، الذين لم ينقضوا المسلمين شيئًا ، الذين ثبتوا على العهد ، فأمهلوا هؤلاء إلى مدتهم . ومعنى ﴿ لم يظاهروا﴾ لم يعاونوا . فهؤلاء أبقوهم إلى مدتهم وإن فاقت أربعة الأشهر . و ﴿ الحج الأكبر ﴾ هو يوم النحر لأنه أعظم المناسك ، ولذلك « حرض الله تعالى على الوفاء بذلك فقال ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ أى الموفين بعهدهم » [١] .

إن الله سبحانه وتعالى يحب لعباده الخير والإسلام . فها هو ذا سبحانه يحرض على ذلك المؤمنين بأن يعينوا التائب الموفى بعهده حتى يبلغ مأمنه أى مكان إقامته وأمنه ، وذلك لأن الكافرين قوم لا يعلمون ، فالإسلام بالخيار لا بالجبر ويجب على المسلمين أن يبينوا للناس معالم الإسلام ثم على الناس أن يختاروا ، وما على الرسول إلا البلاغ .

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ
وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟
سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

إذا انتهت الأشهر الأربعة التى ضربها الله لهم موعدا لرجوعهم عن النكث ومخالفة العهد ولتصريف أمورهم فيها ، فقد تم العهد وأصبح للمؤمنين أن يطلبوا منهم : إما إسلامهم وإما الأسر أو القتل أينما وجدوا . وللمسلمين أن يترصدوا لهم أينما كانوا إلا أن يتوبوا ، فإن تابوا وأعلنوا إسلامهم وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعند ذلك يصبحون إخوانكم فى الدين ، لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، وعندها تُخلّى سبيلُهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٣٥ .

عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . . فإذا قالوها : عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله »[1].

من هنا كان أمرُ الله لنا ألا نكتفى بمجرد ملاقاتهم فقط لنقتلهم ، بل أمرنا بالترصد لهم والتخفى والخدعة والإتيان بهم من كل مكان يختبئون فيه ، وهذا أدعى للإنهاء عليهم وأقوى لمحاربتهم . عن على بن أبى طالب قال : بعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأربعة أسياف : سيف فى المشركين من العرب قال تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ .[2] والسيف الثانى هو قتال أهل الكتاب لقوله تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عند يد وهم صاغرون** ﴾ .[3] والسيف الثالث قتال المنافقين فى قوله ﴿ **يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين** ﴾ .[4] والسيف الرابع قتال الباغين فى قوله ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء إلى أمر الله** ﴾[5]،[6] .

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

إذا طلب الأمن والأمان أحد المشركين الذين أمرك الله بقتالهم : فعليك يا محمد أن تجيبه إلى طلبه حتى يعود إلى الإسلام والقرآن . وهذا هو معنى ﴿ **حتى يسمع كلام الله** ﴾ . فهم ، أى المشركون الطالبون الأمان ، فى حال مستمرة من الأمان إلى أن يهتدوا . كل ذلك ليعلموا دين الله وسماحةَ الإسلام . ثم بعد ذلك بين الحق سبحانه حكمته فى البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر ثم بعد ذلك السيف أينما ثقفوا ، فقال تعالى :

---

(١) رواه : البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى .
(٢) التوبة : ٥ . (٣) التوبة : ٢٩ . (٤) التحريم : ٩ .
(٥) الحجرات : ٩ . (٦) ابن كثير ٢/ ٣٣٦ .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ
عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾

يبلغنا الحق أن نفى بالعهد ماداموا يفون بعهدهم . يقول القرطبى قال ابن زيد : «فلم يستقيموا فضرب لهم أجلاً أربعة أشهر . فأما من لا عهد له فقاتلوه حيث وجدتموه إلا أن يتوب »(١) .

كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ
وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾

إنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد وهم لو تمكنوا من المسلمين وعلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة (٢) .

و ﴿ إلا ﴾ يعنى قرابة ، وقيل : عهدا ، والذمة : العهد . وأكثرهم فاسقون لغلظة قلوبهم .

ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ
ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى
دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً أى « اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة »(٣) . ومعروف أن الباء تدخل على المتروك . ولجهلهم أيضًا صدوا عن

---

(١) تفسير القرطبى جـ٨ ص ٧٨ .   (٢ ، ٣) ابن كثير جـ ٢ ص٣٣٨ .

سبيل الله ودعوا إلى غيره . إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون فى المؤمنين عهدًا ولا يخافون ميثاقًا لله ولا لعباده ، إنهم أهل عدوان على الحق وأهله .

أما الذين نكثوا أيمانهم من بعد إعلانهم الإسلام وازدادوا فجورًا فطعنوا فى الدين وعابوه وحاربوه ، فيقتل أئمةُ الكفر منهم إنهم منافقون لا أيمان لهم حتى ينتهوا .

فيا أمة الإسلام : طهروا صفوفكم منهم إنهم مجرمون لا أمان لهم لعلهم ينتهون بالهلاك أو بتوبة صادقة تصلح مسيرتهم فتجعلهم معكم على صراط مستقيم . وأئمة الكفر فى الآية : أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف ومن على شاكلتهم .

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

قاتلوا المشركين أيها المسلمون فتنالوا شرف تعذيب الله لهم بأيديكم ، ولتنال تلك الأيادى المجاهدة شرف البذل والجهاد فى سبيل الله ، وإن الله مخزيهم وهازمهم بكم وناصركم عليهم ، وسبحانه وتعالى يشفى صدور قوم مؤمنين يحبهم ويحبونه ، وإنه سبحانه لمذهب غيظ قلوبكم وبفضله يذيقكم حلاوة الإيمان به ويتوب عليكم وهو بفضله يتوب على من يشاء من عباده .

يقول ابن كثير : « هذا .. تحضيض وتهييج وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة »(١) .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص٣٣٩ .

هذه الآية نظير قوله تعالى ﴿ الم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (١) ونظير قوله تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (٢) .

و ﴿ وليجة ﴾ أى : بطانة ، والمعنى : مودة من دون الله ورسوله .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

ينبه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ أنه ما ينبغى للمشركين أن يدخلوا مساجد الله ويعمروها كالمسلمين المخلصين العابدين وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر من أول يوم ، فهؤلاء أعمالهم هباء ، وفى النار هم فيها خالدون . إنما المعمرون مساجدَ الله هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ولم يخشوا إلا الله ، فهؤلاء هم عمار البيت وهؤلاء هم المهتدون .

۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

إن الأجر على العمل يختلف فى الكثرة والقلة ، فليست صلاة الفرض كالنافلة وليس

---

(١) العنكبوت : ١ ـ ٣ .　　(٢) آل عمران : ١٤٢ .

الحج تغنى عنه العمرة وكذلك سقاية الحاج وخدمته وخدمة المسجد الحرام لايغنى عن الإسلام وعن توحيد الله سبحانه وتعالى والجهاد فى سبيله . فإن أضيفت إلى العبادات سقاية الحجاج وخدمة المسجد الحرام فمقبولة بإذن الله الذى لا يرد توبة تائب ويتجاوز عن كثير لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى وأحسن فى توحيده وأخلص لله عبوديته . هؤلاء هم الذين آمنوا وهاجروا فى سبيل الله وصدقوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاهدوا بكل ما يملكون من أنفس وأموال لإعلاء كلمته وإقرار شرعه والحكم به ، هؤلاء أعظم درجة عند الله ولهم الفوز العظيم بجنات عرضها السموات والأرض جزاءً لهم على حسن العمل وحسن الجهاد وصدق النية وتخلصها من الدنيا ومفاتنها لتكون لله غير مشوبةٍ برياءٍ أو نفاق ، فالله طيب لا يقبل إلا طيبًا . هؤلاء يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان لهم فيها حقًّا نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدًا . ﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ لمن خاف مقامه فعمل للقائه فصلح وأصلح .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

إن القرابة الحقّة ليست قرابة الدم ، ولكنها قرابة العقيدة ، وجميل أن تجتمع قرابة الدم مع قرابة العقيدة والأخوة فى الله فقامت بالله مباركة زكية لا تخشى الموت ولا تهابه مادام المراد هو الله . والآية خطاب لجميع المؤمنين وهى باقية الحكم إلى يوم القيامة فى قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين [1] .

---

(١) تفسير القرطبى ٨/ ٩٣ .

وقد خص سبحانه الآباء والإخوة لأنه لا قرابة أقرب منها بالنسبة للإنسان « فنفى الموالاة بينهم« ليبين أن القرب قرب الأديان لا قرب الأبدان » (١) .

ولله در قول الشاعر:

يقولون لى دار الأحبة قد دنت ... وأنت كئيبٌ إنّ ذا لعجيبُ
فقلت وما تغنى ديار قريبةٌ ... إذا لم يكن بين القلوب قريبُ
فكم من بعيد الدار نال مراده ... وآخر جارُ الجنْب مات كئيب

هذه هى المودّة الحقيقية مودة الإيمان والحب فى الله ، وليس هناك من هو أحب إلى المؤمن من الله ورسوله ﴿ **لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ (٢) .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين) (٣) .

وهكذا من يرض بالشرك فهو مشرك .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

هنا يذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بيوم حنين ، حين أعجبتهم كثرتهم وظنّوا أنهم بها ينصرون ولكنهم هزموا لأن النصر من عند الله ، والقتال سبب ظاهر أما النصر فهو أمر

---

(١) القرطبى جـ٨ ص ٩٤ . (٢) المجادلة : ٢٢ .

(٣) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ورواه مسلم كتاب « الإيمان » باب « وجوب محبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ » .

يستره الله لأمر عنده ، والكثرة لا تفيد إذا صحبها الزهو والغرور وانصرفت عن رجائها لله وحبها له ، لذلك ، فقد هزمتم يوم حنين وأنتم كثرة ولولا فضلُ الله ورحمته وإنزاله السكينةَ عليكم وإنزاله جنودًا للحق لم تروْهم لهلكتم ، ليعلمهم درسًا لا ينسى أن النصر من عنده وحده فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين .

وكانت وقعة حنين هذه بعد فتح مكة فى شوال سنة ثمان للهجرة بعد تفرغ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فتح مكة وهدوء الأمور وإطلاق أهلها ، فجمعت له قبيلة هوازن جيشًا كثيفًا ليقاتلوه ، فخرج إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جيش كبير يبلغ عشرة آلاف من المقاتلين مهاجرين وأنصارًا والتقوا بواد بين مكة والطائف يقال له حنين . . . [1] .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ بعد الهزيمة نصر الله نبيه وأسلمت هوازن وقام الرسول فقسم الغنائم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

الآية تنهى عن أن يقترب المشركون من المسجد الحرام لأنهم نجس والدخول كان منهيًّا عنه سنة عشر للهجرة . ﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ أى مالاً أو فقرًا أو انقطاع معاش فسوف يغنيكم الله من فضله . ذلك لأن المشركين الذين منعوا دخولَ المسجد الحرام كانوا يجلبون الأطعمة وأنواع التجارة المختلفة ، فوسوس الشيطان إلى المسلمين بأن قالوا : من أين نعيش وكيف ؟ فوعدهم الله أن يغنيهم من فضله الواسع سبحانه هو المغنى . أما أن يدخلوا المسجد الحرام بعد ذلك فهذا أمر نهى الله عنه .

قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

---

(١) القصة كاملة أوردها ابن كثير جـ ٢ ـ ص ٣٤٣ وانظرها بتوسع ـ فى كتب السيرة .

وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟
ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

وكما أمرهم أن يقاتلوا الكفار المشركين ، أمرهم أن يقاتلوا الذين أوتوا الكتاب من الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق حتى يعطوا الجزية عن قهر وهم مذلولون حقيرون مهانون . يقول ابن كثير : « فلهذا لايجوز إعزاز أهل الذمة ولا رفعهم على المسلمين » .

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ
ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ
قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟
إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ
أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

يقرر المولى أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا برسوله ، ولكنهم يتخذون عزيرًا ابنًا لله لأنه كتب التوراة لما فقدت بعد موت موسى عليه السلام فادعوا أنه ابن الله ، ولانعلم كيف كتبها ؟ هل كان يحفظها ؟ أو هل كانت عنده أصول ؟ الله أعلم . ولازالت اليهود تقدس عزيرا ويسمونه عزره . وكذلك ادعت النصارى أن المسيح ابن الله ، وبذلك يكون التقارب بين اليهود والنصارى فى قول الباطل ، لأن مورد معارفهم واحد وهو الافتراء والكذب على الله . وقوله ﴿ **يضاهئون** ﴾ أى يشابهون . وقد ردّ الله عليهم فأخزاهم ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون** ﴾ [1] .

---

(١) المائدة : ٧٥ .

سُورَةُ التَّوْبَةِ

إن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم اليهود ورهبانهم النصارى أربابًا من دون الله ، واتبعوهم فى كل ما حللوه لأنفسهم وما حرموه ، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم ، تعالى الله وتقدست صفاته إنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد . هكذا أمروا ولكنهم خالفوا .

إن مرادهم هم واليهود إطفاء نور الله وحصار دينه ، لكن الله يأبى أن يُطفأ نورُه حتى لو كرهوا ذلك ، وإن الله سبحانه وتعالى متم نوره بقيام الإسلام وقيام دولته وعودة خلافته ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله .

يقول الهادى البشير ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين يعز عزيزًا ويذل ذليلاً عزًّا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر »[1] .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾

هاتان الآيتان نزلتا فى الأحبار وهم رجال الدين اليهود ، وفى الرهبان والقساوسة : رجال الدين فى المسيحية .

ويبين الله هنا أن رهبان النصارى وأحبار اليهود فى خصائص طباعهم وغرائزهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويكنزون الذهب والفضة ويضنون بها على غيرهم ويحرصون على كنزها وإكثارها ويمتنعون عن إنفاقها فى سبيل الله ، كما أن هؤلاء الرهبان والأحبار والقساوسة يصدون عن سبيل الله وعن الإسلام وهم يعلمون من كتبهم أنه

---

(١) الحديث عن تميم الدارى ورواه : الشيخان ، والإمام أحمد فى مسنده ، والطبرانى فى الكبير . والحاكم فى المستدرك ، وسعيد بن منصور فى سننه .

الحق وأن محمدًا رسولُ الله وخاتم أنبيائه ، ولكنهم أنكروا ليظلوا مالكين متاع الدنيا ينكرون الحق ويدعون إلى الباطل ويستمرئون فى ظلماته . فجزاؤهم فى الآخرة ويوم القيامة أن يتحقق قول الله سبحانه فيهم ﴿ يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴾ وتمر عليهم خزنة النار قائلين لهم ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

وحقًّا قوله ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ (١) وحقًّا قوله ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى ﴾ (٢) .

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

أربعة أشهر حرم ، ثلاثة منها متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ثم رجب .

هنا عاد الحق مرة أخرى للحديث عن أهل الشرك والكفر وعن تحريفهم فى نظام الأشهر القمرية التى ارتضاها الله سبحانه وتعالى مواقيت لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فهذه مواقيت الله لا البشر ، فمن حاد عنها حاد عن نظام الله فى التوقيت لأنه نظام مرتبط بنظام الخلق كونًا وبشرًا وحياة ونشورا ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم بمخالفة أمر الله ، لأنه بطاعته تسعدون وتأمنون وتسودون . وفى غير الأشهر الحرم لكم أن تقاتلوا المشركين كافة بغير استثناء حتى يرجعوا للحق الذى فيه حياتهم ونجاتهم . لذلك فقد «خصّ الله تعالى الأربعة الأشهر الحرم بالذكر ، ونهى عن الظلم فيها تشريفًا لها ، وإن كان منهيًّا عنه فى كل الزمان » . (٣) ﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ .

(١) النحل : ٩٦ .
(٢) الأعلى : ١٦ ، ١٧ .
(٣) القرطبى جـ٨ ص١٣٥ .

إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا
وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ
سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧

النسيء هو تأخير الشيء عن موعده ، وهو التغيير والتبديل فى نظام وترتيب الأشهر الحرم والإتيان بها فى غير مواقيتها من السنة القمرية . مثلاً تبديل شهر مكان شهر حيث كانوا يحتاجون إلى القتال فى المحرم مثلاً ، ولأن المحرم محرمٌ فيه القتل كما أمر الله فيقاتلون فيه رغم ذلك ثم يحرمون شهر صفر وهذا نسيء . وأيضًا هو الإتيان بالحج فى غير موعده المشروع . فالتغيير والتبديل فى نظام المناسك حرام وكفر ، والله سبحانه وتعالى يهدى إلى الحق . والله لا يهدى القوم الكافرين لأنهم يحلون النسيء عامًا ويحرمونه عامًا ويبدلون ويغيرون الشهر مكان الشهر حتى تبقى الشهور أربعة كما قال الله ، وكأنهم يظنون أنهم يضحكون على خالق السموات والأرض ، لذلك فقد فضح الله سرائرهم فقال ﴿ ليواطئو ﴾ أى ليوافقوا عدة الأشهر الحرم الأربعة التى ذكرها .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى
ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨

مالكم ؟ ما اسم استفهام معناه التقرير والتوبيخ . والمعنى : أى شىء يمنعكم عن تلبية الجهاد ؟

يقول ابن كثير «هذا شروع فى عتاب من تخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال فى شدة الحر » (١) . والمعنى أنكم تتكاسلون وتميلون إلى الدعة والراحة والاستكانة عن الجهاد والحرب . ويقول القرطبى

(١) ابن كثير : ٢ / ٣٥٧ .

«عاتبهم الله على إيثار الراحة فى الدنيا على الراحة فى الآخرة إذ لا تُنال راحة الآخرة إلابنصب الدنيا [1]» .

إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

تهديد شديد ووعيد لهؤلاء الذين رضوا بالحياة الدنيا من الآخرة ،والذين نسوا أن أعظم الزاد جهاد فى سبيل الله يشترى به العبد الآخرة .

وفى عصرنا هذا أصبح المسلمون لاوزن لهم ، إلى أن يعودوا للجهاد يمارسون فيه وبه الحياة . وياليت المسلمين اليوم يعقلون ذلك فيدرسوا القرآن ثم السنّة من جديد ، كى يعلموا أن عزّة الإنسان المسلم وكرامتَه متوقفة على أن يبذل نفسه وماله وجاهه فى سبيل الله ، فينال الخلود فى الدنيا تاريخًا ومجدًا وسمعةً حسنة ، وفى الآخرة مغفرة من الله ورضوانًا وجنات عرضها السموات والأرض . والعبد المسلم عندما يوثق حياته بالجهاد فقد اشترى من الله جنة ورضوانًا ، وبالجهاد والشهادة ينتصر الإنسان المسلم على شهواته الدنيا ويرقى إلى معالى المعرفة بالله فيعيش فى الدنيا سيدًا وله فى الآخرة مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن المسلمين لو عادوا إلى الجهاد يقاتلون فى سبيل الله يدعون إليه بصدق نية فى مرابطة ومثابرة لا يخشون فى الله لومة لائم ولا يخشون الدنيا ، فمعية الله لهم نصر مبين وليعلموا أن العزة فى البذل فى سبيل الله بذلاً نفسيًا وماليًا وبالولد والزوج . فالجهاد فى بدايته عزيمة وخاتمته نصر وفوز مبين ، فهل يعود للمسلمين رشدهم فيرتدوا حلل الجهاد ويبايعوا الله بيعة رجل واحد ؟ لعل الله ينعم عليهم فيخرجهم من ذلك الذل المخيم عليهم بسبب احتكامهم إلى غير ما أنزل الله ؟ اللهم ارزقنا حب الجهاد وألبسنا حلله ، حتى تعود إلينا عزتنا ، فنسود العالم من جديد ، وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ

(١) القرطبى جـ ٨/ ١٤١ .

ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

إن لم تعينوا نبيكم وتنفروا معه فى غزوة تبوك لقتال الروم فالله كفيل به ينصره كما نصره فى مواطن كثيرة وأظهره على عدوه بالنصرة والغلبة . فقد نصره فى غار ثور ليلة الهجرة . فنصره الله منفردًا ونصره أحد اثنين هو وصاحبه وأيده بجنود لم تروها من الملائكة ، ليتم أمرُ الله وتكون كلمته وحكمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله « عزيز فى انتقامه حكيم فى أقواله وأفعاله » .

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

أمر من الله أن ينفروا للجهاد عامة شبابًا وشيوخًا مشاغيل وغير مشاغيل من له عيال ومن ليس له ، صاحب الضيعة ومن لا ضيعة له رجالاً وفرسانًا شجعانًا وجبناء . (١) والمعنى أنهم أمروا جميعًا سواء أخفت حركاتهم أم ثقلت . وتلك دعوة عامة للجهاد فى كل الحالات بالنفس والمال ، وذلك من ورائه خير كثير لا يعلمه إلا الله .

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ
وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

مازال الحق يوبخهم فى استكانتهم وركونهم إلى الراحة واستنامتهم عن الجهاد ، فيبين لهم مدى جبنهم وتكالبهم على أتفه الأشياء التى لو دعوا إليها لولوا إليها ورغبوا فيها و﴿لو كان عرضا﴾ أى : منافع الدنيا التافهة ، والمعنى : نفع أو غنيمة قريبة ، أو دعوا إلى سفر قصير مقصود غير شاق لو دعوا إلى ذلك أو ذاك لاتبعوك يا محمد ، ولكن بعدت عليهم الشقة أى مشقة السفر . وساعتها يحلفون لك بأغلظ الأيمان أنهم لو

(١) أورد الإمام القرطبى عشرة أقوال لمعنى خفافا وثقالا ذكرنا منها بعضها - راجع القرطبى جـ٨ ص١٥٠ .

استطاعوا الخروج معك لخرجوا ، ولكن يقولون عندنا قصور فى الظهر والمال . ولكنهم بكذبهم هذا ونفاقهم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون .

إن القاعدة فى الإسلام عندما ينادى الإمام وهو خليفة المسلمين للحرب يستجيب له الكل عدا أصحاب الأعذار ، وقد كان الأولون من الصحابة يجاهدون بالنفس والمال . ألم يجهز عثمانُ بنُ عفانَ جيشَ العسرة كله من ماله الخاص يرجو بذلك رضا الله لا يطلب به دنيا ؟!!

والمسلمون يجب أن يكونوا دائمًا على استعداد للحرب والجهاد ، وهو ما يعرف فى زماننا هذا بالتجنيد العام الإجبارى . فالإسلام غائب ويجب أن يعود بأمة حاكمة بما أنزل الله وخلافة رشيدة فى قولها وفعلها . ولن تعتدل الموازين فى الأرض إلا بقيام دولة القرآن مسيطرةً على العالم كله . والمؤمن الحق هو الذى يخرج للجهاد لا يبغى دنيا يصيبها ، ولكن يرجو رضوان الله وحسن المقام فى الآخرة اللذين هما نيته وقصده ولو بذلت فى سبيل ذلك النفوس والأموال والجاه . أما الذين يساوون بين الدنيا والآخرة إنما يهلكون أنفسهم .

عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾

لقد عفا الله عنك ياسيدى يا رسول الله لم أذنت لهم فى الخروج معك للقتال بغير نية صادقة وعزيمة قوية على الجهاد ؟ وقيل إن العتاب على الإذن لهم بأن يتخلفوا عن الجهاد لاعتلالهم بأعذار . فلم أذنت لهم يا رسول الله وأنت حبيبى ومصطفاى ورسولى إليهم لا أتركك بدون وحيٍ قرآنى ينزل عليك فلم تنتظر وحيًا أو قولاً فصلاً ؟ ورغم ذلك لقد عفوت عنك يا محمد .

لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ
أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ

وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا
وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ
جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾

إن الذين يستأذنون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر القعود عن الجهاد والتخلف عن الحرب والخروج مع المسلمين إنما هم ضعاف النفوس وضعاف الإيمان . هم المنافقون الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الذين شكت أفئدتهم فى صحة ما أنزل الله إليك وعليك ، وما يزالون على الطريق مترددين بين قعودهم وتقدمهم وبين جهادهم وتخلفهم ، فهم مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء حيارى .

ولو كان الإيمان قد خالط قلوب المنافقين لتنشطوا للخروج معك ليجاهدوا مع رسول الله والمؤمنين ، ولكن الله سبحانه يعلم ما فى قلوبهم من النفاق وضعف الإيمان ، ولكن الله كره الخروج لهم معك فحبسهم عنك وخذلهم وقعدوا مع القاعدين عن الجهاد. وثبّطهم أى أخرهم . ولذلك يبين الحق بعدها سبب بغضه الخروج لهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويوضح حكمته من ذلك وسبحانه هو العليم ، فيبين أنهم لو خرجوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما زادوا المسلمين إلا فسادًا وتخلفًا ونشروا بينهم النميمة والإيقاع بينهم ، إذْ يريدون أن يبعثوا الفتنة بين صفوف المؤمنين ويقلبوا الأمور عن مرادها الصحيح حتى يحولوا بين المؤمنين ونصر الله ، ولكن الله مظهر للحق ورافع راياته ولو كرهوا ذلك .

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ
جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ
وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ
فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

إن من هؤلاء المنافقين من يقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ائذن لى حتى لا

أقع فى الفتنة فى الخروج معك بسبب الجوارى الجميلات من بنات الروم ، وهو عذر غير مقبول مردّه إلى النفاق ، لكنهم سقطوا فى الفتنة فعلاً ورسبوا فيها بسبب تخلفهم هذا وأقوالهم هذه . إن المنافقين ليصابون بغم شديد وسوء وحزن عندما ينصر الله أهل الحق ويؤيد رسوله . وعندما تقع بالمؤمنين هزيمة اختبارًا وتمحيصًا من الله يفرحون بذلك ، ويقولون قد أخذنا أمرنا من قبل أى احتطنا وأخذنا حذرنا ولم نخرج معهم ولم نقتحم صفوفهم الأولى حتى لا يقع فينا القتل ، ولكن الله حرمهم الشهادة فى سبيله . هم يعتقدون فى مفهومهم أن التخلف عن الجهاد أنجاهم من القتل والفقد عند الهزيمة ، لكنهم جهلوا قيمة الجهاد والشهادة عند الله ، فهم نظروا تحت أقدامهم وقاسوا الأمور الإيمانية بنتائجها الدنيوية الظاهرة ونسوا حظهم من الآخرة . بلى ﴿ **وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ .

قُلْ لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

إذا كان المنافقون يفرحون أنهم قعدوا عن الجهاد وبذلك قد فاتهم القتل ، وإذا كانت هذه نظرتهم للجهاد أنه نصر أو قتل وفناء ، فإن المؤمنين لا ينظرون إلى الهزيمة والقتل على أنهما فناء ولكنهما بقاء وخلود عند الله دائم : ﴿ **بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ قائلين لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا فى سابق علمه وكتابه ؛ فالنصر حسنى لنا أما القتل فهو أعظم حسنى لنا ، وهى شهادة ، فنحن غير يائسين من أى نتيجة ، فإما النصر أو الشهادة . « والمعنى كل شىء بقضاء وقدر »(١) .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

إن الذين يتربصون بالمؤمنين ويتمنون لهم الشر لا يفلحون ، وإن المؤمنين حين يتربصون إنما يريدون طمس الباطل وإظهار الحق . ولن ينتصر الباطل على الحق أبدًا ،

---

(١) القرطبى جـ٨ ص ١٥٩ .

وإن وقع أحيانًا فإنما لتمحيص المؤمنين وتقوية عزائمهم ليعاودوا القتال أشد قوةً من المرة الأولى .

﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول الحق سبحانه وتعالى : مهما أنفق الكافر أو المنافق وتظاهر بالعمل وبالنفقة وأنها لله فالله عليم خبير يعلم سر النفس وجهرها . وإنما يتقبل الله من المتقين الذين يرجون بنفقتهم وجهَ الله والدار الآخرة ويسعون سرًّا وعلنًا لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة المنافقين والضالين والكافرين هى السفلى . والفسق تنطوى تحته كل الصفات الذميمة البغيضة ، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا . والأمر الذى كان سببًا فى أن رفض الله تعالى قبول صدقاتهم أنهم كفروا بالله ورسوله ، وهم يدّعون أنهم قد أسلموا وهم فى ادّعائهم هذا كاذبون ؛ فلو كانوا قد أسلموا ما أقبلوا على الصلاة وهم كسالى مترددون لا خشوع لهم ولا وجود ولا استحضار فى الصلاة ، كأنهم خُشُب مسنّدة . إنهم فى الحقيقة أموات وإن كانوا يتحركون . وإن أنفقوا ارتعدت أيديهم لأنهم لا ينفقون إلا مكرهين فقد غطّى النفاق على بشريتهم فأغرقهم فى الظلمات .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم يا محمد . ولا تتساءل أنت وأصحابك عن دنياهم فهى زيف . إن الله يريد أن يعذبهم بها فى الآخرة وهما (أى الأموال والأولاد) استدراج وفتنة لهم فيما هم فيه . والآية نظير قوله تعالى ﴿ **أيحسبون أنّما نمدهم به من مال وبنين** ﴾

نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[١] ونظير قوله تعالى أيضًا ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾[٢] .

وهؤلاء الكافرون يحلفون بالله كذبًا أنهم من المؤمنين الموحدين معاشر أهل الإيمان ، والحقيقة أنهم قوم يفرقون أى يخافون « أن يُظهروا ما هم عليه فيُقتلوا » ،[٣] فلا تصدقوهم فإنهم أعداء لكم . وهى نظير قوله تعالى ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾[٤] .

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

إنهم أى المنافقين لو يجدون حصنًا يحتمون فيه أو مغارات بعيدة فى الجبال أو مدّخلاً (أى نفقًا) داخل الأرض لأسرعوا إلى كل هذه الأماكن يدارون أنفسهم فيها منكم ، «أى يسرعون فى ذهابهم عنكم لأنهم إنما يخالطونكم كرهًا لا محبة وودّوا أنهم لايخالطونكم ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لايزالون فى هم وحزن وغم لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عزّ ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سُرّ المسلمون ساءهم ذلك فهم يودون ألا يخالطوا المؤمنين» .[٥] و ﴿ يجمحون ﴾ أى يسرعون .

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

إن من المنافقين يا محمد من يعترض على فعلك فى الصدقات . إنهم إن كان لهم منها نصيب رضوا . ولكنهم لعدم قناعتهم فى نفوسهم يعارضون عملك فى الصدقات لأنهم يريدون أن تميزهم على غيرهم . وحاش لله أن يفعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا الحق والعدل والخير بما أمره الله سبحانه وتعالى . فما عليك يا محمد

---

(١) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) طه : ١٣١ .
(٣) القرطبى جـ ٨ ص ١٦٤ .
(٤) المنافقون : ١ .
(٥) ابن كثير جـ ٢ ص ٣٦٣ .

من ضعاف الإيمان الذين إذا أعطوا رضوا وإن مُنِعوا غضبوا وضلوا عن الحق الذى أنت عليه . ولو أنهم رضوا بقسمة رسول الله لهم وأخذوا حقهم عن رضا وحب وإيمان بالله وبرسوله لكان خيرًا لهم ، فما عطاء الرسول إلا عطاء الحق سبحانه وتعالى ، ولا يفعل ذلك إلا المؤمن الراغب إلى الله المبتغى وجهه . والفعل يلمز معناه يعيب والمعنى أنهم يعيبون فعلك يامحمد .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ٦٠

إن الصدقات لثمانية أصناف من المسلمين ، وفى هذا ردٌّ على اعتراض بعض من يلمز محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أمر الصدقة وكيفية توزيعها حيث تولى الله تعالى بنفسه عملية توزيعها وتقسيمها فى القرآن الكريم .

والفقراء هم أشد الناس احتياجًا من غيرهم ، فهم الذين لا يجدون قوت يومهم وعيالهم وأزواجهم لشدة فاقتهم وحاجتهم . أما المسكين فهو الذى عنده ولكن ما عنده لا يكفيه . أما ﴿ العاملين عليها ﴾ فهم الجامعون للزكاة . و ﴿ المؤلفة قلوبهم ﴾ هم الذين لا يتمكن إسلامهم حقيقة إلا بالعطاء، فلا مانع أن تتألف قلوبهم بالمال[1]. أما قوله ﴿ وفى الرقاب ﴾ ، فيجوز عتق المؤمن المملوك . ويجوز دفع الديات عن المسلمين المثقلين بالديون والمحكوم عليهم بالديات والحجوزات وما يماثله ويكون ذلك عن عجز .

أما ﴿ الغارمين ﴾ فى الآية فهم أقسام كما يقول ابن كثير : « فمنهم من تحمل حَمَالة أو ضمن دينًا فلزمه فأجحف بماله أو غرم فى أداء دينه أو فى معصية ثم تاب فهؤلاء يدفع إليهم »[2].

وأما ﴿ وفى سبيل الله ﴾ فمنهم « الغزاة » .[3] وعند الإمام أحمد أن الحج من سبيل

---

(١) وفى تحديدهم أقوال عديدة . انظر : القرطبى ٨/ ١٧٨ .

(٢) ابن كثير جـ ٢ / ٣٦٥ . (٣) انظر : القرطبى ٨/ ١٨٥ .

الله . أما ﴿ ابن السبيل ﴾ فهو المغترب المقطوع به الطريق المسافر إلى بلد آخر ليس معه شيء ، فيعطى من الصدقات ما يعينه على نفقة سفره حتى يرجع إلى بلده وإن كان ذا مال .

وتلك الأبواب الثمانية فريضة على المسلمين القادرين فهى حكم مقدر بتقدير الله وحده ﴿والله عليم حكيم﴾ .

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

إن من المنافقين فريقًا يدّعى الإسلام إعلانًا أمام الناس . لكنّ سريرتهم مظلمة وقلوبهم مغلقة على ظلام دامس ، فهم يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويجرحونه بالكلام فيه ويقولون عليه : هو أذن أى سمّاع ومصدِّق لكل من يحدثه شيئًا فكل من يقول له شيئًا عن فلان صدقه وإذا حلفنا ـ نحن ـ له كذب الأولين وصدقنا . ولكنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خير من يستمع القول فيقدره ويزنه وينزله منزلته . فالحق عنده مقبول والباطل مرفوض ، فالله وليه وهو سبحانه يتولى الصالحين الذين يصدقون رسول الله ويعادون من يكذبه ويعلمون بيقين أن رسول الله أذن خير يصدق المؤمنين ويثق فى مشورتهم ويحذر الكفار والمنافقين . ألم يتلق بأذنيه كلمات الله الخالدة وكذلك بقلبه وحواسه ؟ وحقًّا ﴿الذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ .

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

درج المنافقون على إيذاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو منصرف عنهم . وما يزالون يؤذونه وهو يراجعهم ويقول ما بال أقوام يقولون أو يفعلون كذا وكذا . والمنافقون معروفون بنفاقهم ومداهنتهم ومواجهتهم أمام المسلمين المؤمنين بأكثر من وجه

فيحلفون أنهم مع المسلمين ليرضوهم ويقفوا موقفًا معاديًا لله وللرسول بعد ذلك أمام أنفسهم وأمام الآخرين ناسين أنه من يعاد الله ورسوله ويحاربه ويخالفه فإن له نار جهنم خالدًا فيها ، فويل للمنافقين من لقائه . أما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه ففى رضوان من الله ونعمه .

يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

المنافقون دائمًا يرتعدون لما يفعلون ومما يفعلون ، فالشيطان يزين لهم فيقول بعضهم لبعض إنا نخاف أن ينزلَ الله سورةً على محمد فتنشر عنا قبح أفعالنا وتفضح سرائرنا . وعندها يعود الشيطان يثبط عزائمهم فيظلون فى نفاقهم يتخبطون وفى بغيهم يترددون . وهذه هى عاداتهم الدائمة ووجه نفاقهم القبيح . فلا تعتذروا أيها المنافقون فلابد أن نعذبكم ولا يُعفى عن جميعكم بسبب مقالاتكم الفاجرة الخاطئة المجرمة .

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

إن من خصال المنافقين أنهم ينهون عن المعروف ويصدون عنه ويأمرون بالمنكر ، ويمسكون أيديهم عن الإنفاق فى سبيل الله ، فعاملهم الله بمثل معاملتهم : نسيهم ، ومن ينْسه الله فقد خرج من رحمته والعياذ بالله . إن المنافقين هم الفاسقون أى الخارجون عن طاعة الله الداخلون فى الضلالة . إنهم والكفارَ فى نار جهنم خالدون فيها .

كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا
فَاسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم
بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى الدُّنْيَا
وَالْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ
وَالْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

يحذر الله سبحانه وتعالى المسلمين أن يفعلوا فعل اليهود والنصارى ، فيضلوا ويقترفوا من الآثام ما اقترفت الأمم من قبلهم سواء اليهود أو النصارى أو غيرهم من الأمم التى ضلت طريق أنبيائها فخاضوا فى طريق الضلال .

هذه الفرق قد ضلت طريقها وخسرت أعمالها فى الدنيا والآخرة . ثم يستمر الحق فى تذكير الأمة المسلمة فيقول : ألم تصلكم أنباء قوم نوح عليه السلام وكذلك عاد وثمود وغيرهم ؟!

كل هؤلاء الأقوام حاربت رسلها فكانت عاقبتهم الخسران فى الدنيا والعذاب فى الآخرة وتلك عاقبة الضالين عن طريق الأنبياء والمرسلين أولئك ليس لهم إلا النار وبئس مثوى المنافقين المتكبرين .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ
وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

إن حُكم الله سبحانه وتعالى بأن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يبين دور

الوحدة بين المسلمين وأهميتها ،وأن الفرقة فى الرأى بين المسلمين مضيعة لجهودهم مثبطة لعزائمهم، فما كان نصر المسلمين الأوائل حول رسول الله إلا لأنهم كانوا كالسوار حول المعصم . وبذلك أصبح من أوجب واجبات المسلم العامل توحيد صفوف أمته والعمل الدءوب على إلغاء الفرق والطرق والتقسيمات التى تعدد الجماعات فى الأمة فتضعف وحدتها وتبدد قوتها . وليكن لنا معاشر المسلمين درس من حكمة صلاة الجماعة والترغيب فى إقامتها بالمساجد . إن هذا يؤكد لنا أن الإسلام قوته فى تلاقى أفراد جماعته صفوفًا متراصة حول كتاب الله نتلو آياته فى ركعاتنا فى تلاق وحب . فهل آن الأوان لأن ننظر فى أمر الأمة وأين هى من كتاب الله ومن وحدة صفها حوله فى إخاء وحب واجتهاد وعمل؟ وعد الله عباده أهل الإيمان والتوحيد والصدق فى القول والعمل فى السر والعلن جنات تجرى من تحتها الأنهار هم فيها خالدون ، ولهم فيها مساكن طيبة فى جنات عدن ، ولهم أكبر من ذلك فيها وهو رضوان الله عليهم وذلك هو الفوز العظيم .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ
وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟
بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ
فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ
وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

أمر من الله العزيز الحكيم إلى نبيه بأن يجاهد الكفار والمنافقين ويشتد عليهم ، فإن جهنم مثواهم بنفاقهم ومقاومتهم للحق وبئس المصير . إنهم يحلفون بالله كذبًا وقد قالوا ما يغضب الحق سبحانه وتعالى من قول يخالف صدق الإيمان ونزاهة التوحيد . إنهم بظلمة قلوبهم كفروا بعد أن أعلنوا أنهم آمنوا فلم يكن لهم إسلام ولا إيمان . إنهم كفروا بعد إسلامهم وبعد أن أغناهم الله من فضله ، فما مصير من يفعل ذلك إلا أن يتوبوا بصدق وندم على ما وقع منهم من نفاق . إنهم إن فعلوا ذلك : يكن خيرًا لهم ، وإن تولوا وأعرضوا عن التوبة والاستقامة فسوف يعذبهم الله عذابًا أليمًا فى الدنيا والآخرة، ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير .

۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾
فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا
كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ
وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

ومن الناس الذين أسلموا من قالوا لو أتانا الله الرزق الواسع والمال العريض لنصدقن وسوف نكون من الذين صلح أمرهم مع الله ، ولكن لما أتاهم الله من فضله لم يفوا بها وعدوا وتولوا عن طاعته وهم معرضون عنها ، فأعقبهم ذلك نفاقًا فى قلوبهم وسيظل لهذا النفاق ظلمةٌ مخيمة عليهم حتى يلقوا الله يوم القيامة وهم فى خزيهم يتقلبون فى ظلمات إثمهم وبغيهم .

ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب سبحانه من عليم خبير يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يزال يفضح المنافقين وسرائرهم ، فيعيب عليهم نقدهم ولمزهم بالمتصدقين واعتراضهم عليهم ، بعد أن فضحهم الله فى بدايات السورة عندما قال ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾ ، فإن تصدق الفقير بالقليل عرضوا به وإن أنفق الغنى قالوا مراءٍ . ثم يقول الحق لنبيه :

ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

يقول الحق لنبيه استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم ، فليسوا جديرين ولاأهلاً بهذا الاستغفار منك يا محمد . وكلمة السبعين فى الآية : لا يقصد بها التحديد

ولكنها مبالغة من العرب فى كلامهم وعدم المغفرة لهم بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين .

﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يذم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الخروج للقتال فى غزوة تبوك ، وبخلوا وآثروا أن يمسكوا بأموالهم ضنًّا بها فى سبيل الله وتعللوا بأن الجو حار . ويقول لهم ربُّ العالمين إن نار جهنم أشد حرًّا ، ولو عقلوا لعلموا أن قيظ الحر فى الدنيا له ما يرطبه ولكنّ نارَ جهنم ليست بمنتهية .

إن المنافقين والكافرين خالدون فيها لا يخفف عنهم من عذابها ، وسيضحكون فى الدنيا والدنيا قليلة مهما طالت ، والعبرة بمن يأتى مستبشرًا يوم القيامة بما قدمت يداه ، والويل لمن يشاهد الموقف الشديد فيها ، إذ لا ولد يشفع له ولا والد . إنه يوم عصيب كل امرئ بما كسب رهين . وحقًّا **﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرًا جزاءً بما كانوا يكسبون﴾** .

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

يقول الحق لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا عدت ومن معك من المؤمنين وجاءك طائفة من المنافقين فاستأذنوك ليخرجوا معك للجهاد فقل لهم لن تخرجوا معى أبدًا ولن تقاتلوا معى عدوًّا ، لأن شرف القتال لا يناله إلا الذين استقاموا على أمر الله . إنكم رضيتم بالقعود وخالفتم رسول الله فاقعدوا مع الخالفين الذين اشتروا الدنيا بالآخرة .

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

احذر يا محمد أن تصلى على أحد منهم مات ولا تمش فى جنازته ولا تقم على قبره ، فقد فتحت لهم عرصات جهنم لأنهم كفروا بالله وتعالوا على الإيمان به وكذلك كذبوا رسوله وحادوا عن الطريق المستقيم وفسقوا عن الحق وانغمسوا فى نفاق الضالين فماتوا وهم كافرون . فالنفاق أشد من الكفر لأن الكافر صريح فى عدائه والمؤمنون يحذرونه ويتجنبون طريقه ، أما المنافق فيخدع ويراوغ حتى يوقع بالمؤمنين الصادقين ، فاحذرهم يا محمد حتى وهم فى سكرات الموت ، واحذر أن تعجبك أموالهم فإنها رجس يغريهم بها الشيطان ليوقعهم فى قاع جهنم ، واحذر كذلك أن تعجبك أولادهم إنها يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا فيعصوا الله بها .

وعدم صلاة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ميت منهم فيها فوات كبير للخير تجاه هذا الميت . لم لا وهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة والشفيع يوم العرض على الله . والصلاة رحمة ودعاء .

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ
مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ
وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

إن الذين تخلفوا عن رسول الله وقعدوا عن الجهاد وهم قادرون عليه ، قد تلبست نفوسهم بعار النفاق والتقاعس عن طريق أهل التوحيد الصادقين ، ورضوا بأن يكونوا مع الخوالف من النساء والأطفال والشيوخ ، فإذا كان القتال كانوا أجبن الناس ، وإن كان أمنٌ كانوا أول المتحدثين كلامًا . وهى نظير قوله تعالى ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم

ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد﴾(١)

فسبحان الله خلق الحق وأهله وخلق الباطل وأهله . سبحانه حكم عدل لا يسأل عما يفعل لا إله إلا هو . فبعد أن عدّد مساوئ وذنوب المنافقين ، بين أن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا وبذلوا المال والنفس والولد والوقت والجاه فى سبيل الله بغير منٍّ ولا خيلاء ، ولكن فى تواضع وحب لله ثم لرسوله والمؤمنين. وقرر أن أولئك الخيرين الطيبين أهل الصلاح والفلاح بما عملوا وقدموا من الصالحات هم الخيرون فعلاً وهم المفلحون حقًّا مقابلةً بموقف المنافقين الجبناء الذين رضوا لأنفسهم الذل والعار والقعود مع النساء .

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ
سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

وجاء إلى رسول الله المتخلفون عن الجهاد من الأعراب يعتذرون له عن تخلفهم عن الجهاد . والآية توضح حال هؤلاء المعاذير فى ترك الجهاد . فمنهم من قبل النبى عذره ومنهم من لم يقبل . وفريق آخر تخلف حتى عن المجىء للاعتذار إلى النبى هؤلاء هم **﴿الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾** .

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ
حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ
مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟
مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ
رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

---

(١) الأحزاب : ١٩ .

إن الجهاد فى الإسلام فريضة على من أنعم الله عليه بالصحة والعافية والمال ، فأولئك إذا تقاعسوا عن الجهاد والدعوة إلى دين الله وإقامة دولته وتطبيق شريعته كانوا مقصرين ومسئولين عن تقصيرهم فى حق دينهم وشريعتهم . وإن أهل الإسلام كما يُسألون عن الصلاة والصيام والزكاة والحج وحسن توحيدهم لله وصدق عبوديتهم له سبحانه وتعالى، فكذلك يسألون عن تعطيل شعائر دينهم وعن ضلال حكامهم وعن التوقف عن الحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى . فالجهاد فى سبيل الله الركن السادس من أركان الإسلام ، وحقًّا قوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾[١] .

فالحق سبحانه وتعالى يستثنى من الأمة الضعفاء والمرضى وكذلك الفقراء الذين لا يجدون من المال ما يبذلونه فى سبيل عدة القتال ﴿ **لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها** ﴾[٢]ـ ﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج** ﴾[٣] .

« ليس على كل هؤلاء حرج إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه »[٤] .

قال العلماء : « فعذَّر الحقُّ سبحانه أصحاب الأعذار وما صبرت القلوب ؛ فخرج ابن أم مكتوم إلى أُحُد وطلب أن يُعطَى اللواء فأخذه مصعب بن عمير فجاء رجل من الكفار فضرب يده التى فيها اللواء فقطعها فأمسكه باليد الأخرى فضرب اليد الأخرى فأمسكه بصدره وقرأ ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾[٥] هذه عزائم القوم »[٦] . إن الذين صدقت نياتهم فى الله يسألون عن الدعوة إلى دين الله . ومن هؤلاء المستثنين من أمر الجهاد هؤلاء النفر الذين جاءوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يستحملونه إلى المعركة ، أى يطلبون إليه أن يرفعهم على الظهور أو يوفر لهم أحمالاً يذهبون ، بها فقال لا أجد ما أحملكم عليه ، هؤلاء أراحهم الله وسمح بقبول عذرهم لكن بشرط صفاء النيات والإخلاص القلبى لإخوانهم المسلمين فى المعركة ، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا على عدم مشاركتهم فى الجهاد ، ولم يفرحوا بمجرد أن وجدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير قادر على توفير حمولة لهم .

---

(١) التوبة : ١١١ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

(٣) النور : ٦١ .

(٤) القرطبى جـ٨ ص٢٢٦ .

(٥) آل عمران : ١٤٤ .

(٦) انظر تفسير القرطبى جـ٨ ص ٢٢٦ .

كل هؤلاء المستثنين فى الآية ما عليهم من سبيل أى من عقوبة وإثم ، والله غفور رحيم .

ثم يبين الحق بعد ذلك أن السبيل أى العقوبة والإثم على الأقوياء فى المال والصحة غير ما ذُكر فى أول الآية . هؤلاء رضوا أن يكونوا مع الخوالف . لقد طبع الله على قلوبهم ، فهم لا يعلمون مكانة الجهاد والمجاهدين ، غافلون عن الحق واتباعه .

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾

حين رجع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ميدان الشرف والقتال مع الذين آمنوا وصدقوا ، أخذ المنافقون القاعدون عن الجهاد يعتذرون وينتحلون أسبابًا لتخلفهم ، فيقول لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تعتذروا ، فقد أخبرنا الله خبركم ونبأنا عن نفاقكم وستعرضون على الله وأسراركم مكشوفة وكتبكم منشورة وسرائركم مفضوحة ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ، ويومها تشهد عليكم جوارحكم وعندها تهلكون بما ظلمتم به أنفسكم » . وأى ظلم أعظم من معصية الله ثم معصية رسوله ؟! فيأيها المؤمنون لا تصدقوا المنافقين واحذروهم ، سيحلفون بالله ، فلا تصدقوهم ، وأعرضوا عنهم واجتنبوهم ، إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن الله غير راضٍ عنهم إن الله لا يرضى عن قوم فاسقين والله من ورائهم محيط .

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ

ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ
ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩

الأعراب هم سكان البادية ، وقد عرف عنهم أنهم ذوو بأس وغلظة فى أنفسهم وعلى غيرهم قساة الطبع أجلاف .

والحق سبحانه وتعالى يخبر أن فى الأعراب كفارًا ومنافقين ، لكن كفرهم ونفاقهم يفوق غيرهم ، وقليل منهم مؤمن يعلم حدود الله فيتقيه . كذلك من الأعراب من يمنّ بما ينفق ويتربص بالمؤمنين ولكن الله يجعل السوء عليهم هم ، وسبحانه سميع عليم . كذلك منهم من يصدق فى إيمانه وتوحيده وينفق حبًّا فى الله ثم يتخذ من أعمال الرسول وصلواته قدوة فيعمل خوفًا ورجاء فى الله وأملاً فى دعاء الرسول لهم . وصلوات الرسول فى الآية : بمعنى دعاء الرسول لهم ، وكل ذلك حاصل لهم وباق عند الله لأنهم داخلون فى رحمته ، إن الله غفور رحيم .

وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ
رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم باحسان ، الذين هاجروا قبل رسول الله ومعه وبعده إلى المدينة ، وكذلك أصحاب الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وعلى رأسهم الصديق ـ رضى الله عنه ـ صاحب رسول الله فى الغار ومستشاره الأول وحبيبه الأوفى ـ كل هؤلاء رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وقد أعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم .

وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ
لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

إن الله سبحانه لا يترك رسوله حتى ينبهه إلى ما حوله من المنافقين الذين يظهرون غير ما يبطنون سواء أكانوا من الأعراب أم من أهل المدينة وأولئك قد مارسوا النفاق فهم يقولون غير ما يبطنون فما عليك منهم يا رسول الله ، إن الله معك يعرفك إياهم لن يضروك فإن وليك الله ومن كان الله وليه فما عليه من الناس . وهؤلاء سنعذبهم مرتين يعنى « القتل والسبى » (١) ثم عذاب شديد يوم القيامة .

يقول ابن كثير « لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيبًا وشكًّا ، شرع فى بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق ، فقال ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أى أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ، ولهم أعمال أخرى صالحة خلطوا هذه بتلك ، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه . وهذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين إلا أنها عامة فى كل المذنبين الخطّائين المخلطين المتلوثين » (٢) .

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

إن الله جعل فى أموال الأغنياء قسمًا للفقراء ، والصدقة المعلومة هى الزكاة المحدودة وتخرج من المال إذا بلغ نصابه المستحق عليه . وهناك صدقة غير محدودة وهى حسب سخاء النفس ورغبتها فى الخير . وهذه الصدقة تطهر صاحبها وتباركه وتبارك له فيما عنده . والرسول يأخذ الصدقات ويصلى على أصحابها أى يدعو لهم بالبركة والنماء ، ويخلفه فى ذلك الحاكم المقيم لأحكام الشرع الحارس لدين الله . ثم يعلن الحق أنه يقبل

(١ ، ٢) ابن كثير ٢ / ٣٨٥ .

التوبة عن عباده ترغيبًا فى الرجوع إليه والتوبة له ، وهذا « تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها . وأخبر تعالى أن كل من تاب إليه تاب عليه ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله تعالى يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير التمرة مثل أحد » (١) .

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

وكأن تلك الآية تنذر الذين لا يطيعون الله فى كل ما أمر به من عبادات جسدية أو مالية أو جهادية أو أخلاقية ! إذْ هى عامة فى كل أمر ونهى .

فالحق يخبر أن أعمال العباد ستعرض عليه سبحانه وتعالى وعلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى المؤمنين ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ (٢) .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

إن المنافقين اتخذوا مسجدًا ليضروا به الذين آمنوا وليفرقوا به بين المسلمين ، كما اتخذوه مرصدًا لمحاربة المسلمين .

---

(١) ابن كثير ٢ / ٣٨٦ . (٢) الحاقة ١٨ .

يقول الإمام القرطبى : « قال أهل التفسير: إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء وبعثوا للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا : نبنى مسجدًا ونبعث إلى النبى يأتينا فيصلى لنا كما صلى فى مسجد إخواننا . فأتوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا يا رسول الله قد بنينا مسجدًا لذى الحاجة والعلة والليلة المطيرة ونحب أن تصلى لنا فيه وتدعو بالبركة. فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنى على سفر وحال شغل فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا لكم فيه . فلما انصرف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضرار ، فدعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشيًا قاتلَ حمزة فقال « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه» فخرجوا مسرعين. . . ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه . وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً » . ثم يخبر الحق نبيه ألا يقم فيه أبدًا لأن من أقاموه إنما هم مدلسون كاذبون منافقون ، وإن المسجد الذى يليق بصلاتك يا محمد إنما هو مسجد أسس على التقوى من أول يوم ، إنه لمسجدك يا محمد الذى بناه معك رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

إن عمل المنافقين والمرائين سيظل علامة على خبث سرائرهم وظلمة قلوبهم كما قال عز وجل ﴿ لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ﴾ فسحقًا لهم بما ظلموا وطوبى لمن صدق مع الله وعده وصفى قلبه ونقّاه للعمل بدينه وشريعته .

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾

إن الله سبحانه وتعالى يعلن رضوانه وحبه للذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر ، ويقرر أن نفوسهم وأموالهم له سبحانه وتعالى ، إن الصفقة هى الجهاد وإن الثمن هو الجنة . فالمؤمن يساوى الجنة فى تقدير الله والجنة تساوى المؤمن وبذلك يرفعه الله إلى مصاف ﴿الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ .

إن هؤلاء المؤمنين قد باعوا لله بصدق فاشترى سبحانه ، فنعم البيع بيعهم ونعم الشراء شراؤه . والشراء أنهم قالوا ربنا الله ثم استقاموا على الحق على ما بين دفتى الكتاب العزيز وبيان الرسول فكانت تلك صفاتهم . إنه اشترى منهم نفوسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ثم قدم تسعَ صفات هى مقامهم فى منازل السالكين إلى الله عن طريق الإسلام . منازل تسعة يرتقون فيها حتى يكونوا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقا . فكيف نجتاز تلك المواقف كلها ؟ إنها كلمة واحدة ، كلمة حق قررها الله لعباده الذين اصطفى ، إذا قالوها كانت لهم الجنة وكانوا عباد الله المخلصين ، إذا قالوا لا إله إلا الله وحده لا شريك له محمد عبده ورسوله ، إذا أخلصوها وصدقوا فيها فقد باعوا لله والله قد اشترى . كلمة الإخلاص كلمة التوحيد . كلمة يخرج بها العبد من الظلمات إلى النور فتصفو عبوديته ويصدق حبه لله فيطيع الله ويطيع الرسول فيصبح مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

إنه شراء رابح لتجارة طيبة أحد طرفيها المخلصون الموحدون ﴿ **الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾ [1] والذين قال لهم ربهم ﴿ **لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾ [2] ذلك عهد الله لهم ومن أوفى بعهده من الله ؟ لا أحد أوفى بالعهد من الله .

« و ﴿ **التائبون** ﴾ هم الراجعون عن الحالة المذمومة فى معصية الله إلى الحالة المحمودة فى طاعة الله والتائب هو الراجع . . ﴿ **العابدون** ﴾ أى المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه . . و﴿ **الحامدون** ﴾ أى الراضون بقضائه . . ﴿ **السائحون** ﴾ : الصائمون . . ﴿ **الراكعون الساجدون** ﴾ يعنى فى الصلاة المكتوبة . . ﴿ **الآمرون بالمعروف** ﴾ أى

---

(١) آل عمران : ١٩١ .

(٢) آل عمران : ١٩٥ .

بالسنة وقيل الإيمان . . . و ﴿ **الناهون عن المنكر** ﴾ قيل عن البدعة وقيل عن الكفر .
و ﴿ **الحافظون لحدود الله** ﴾ أى القائمون بما أُمر به والمنتهون عما نهى الله عنه » (١) .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

يذكر ابن كثير رواية لسبب نزول الآية (١١٣)فيقول : « قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية فقال «أى عم ، قل : لا إله إلا الله كلمةً أحاج لك بها عند الله عز وجل » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال أنا على ملة عبد المطلب . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » ، فنزلت هذه الآية (٢) .

أما الإمام القرطبى ، فيقول « روى النَّسائى عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه ؟ فأتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكرت ذلك له ، فنزلت ﴿ **وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه** ﴾ .
والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون فى استغفار إبراهيم الخليل لأبيه ؛ فإن ذلك لم يكن إلا عن عِدَة » (٣) .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٨ / ٢٦٩ .
(٢) ابن كثير ٢ / ٣٩٣ .
(٣) القرطبى ٨ / ٢٧٤ .

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا
لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

إن الله سبحانه وتعالى لا يضل الناس بعد إذ هداهم إلى دينه وطريقه . وهو يبين لهم أسباب النجاة وطريق التقوى وبعد ذلك يسألهم ويحاسبهم وهو بكل شىء عليم . والله سبحانه له ملك السموات والأرض ليس له فيها شريك ، فاحذروا غضبه وليس لكم من دونه من ولى ولا نصير .

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى
سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ
عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾

قيل إن التوبة التى تابها الله على النبى والمهاجرين والأنصار هى من أجل إذن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمنافقين أن يقعدوا عن الجهاد ويتخلفوا عن الحرب . وقيل التوبة فى الآية هى خلاصهم من نكاية العدو . و ﴿ ساعة العسرة ﴾ أى جميع أوقات الغزوات العصيبة التى شهدها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابُه من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم عن الحق ويشكون فى دين الله والرسول بسبب مالاقوه من شدة وعسر فى هذه الغزوات ، لكن الله لا يترك عباده ضالين فسرعان ما يأخذهم إليه برحمته وحنانه ، وحقًّا ﴿تاب الله عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾ .

وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

هؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة العامرى وهلال بن أمية الواقفى

وكلهم من الأنصار ، هؤلاء الثلاثة لم تكن تقبل توبتهم وأخر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن .

يقول القرطبى : قال كعب : كنّا خُلِّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله عز وجل ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ وليس الذى ذكر الله مما خُلِّفنا تَخَلُّفَنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه »[1] .

إن من شدة ضيق هؤلاء الثلاثة أن ضاقت عليهم الأرض على اتساعها لأنهم كانوا يعاملون معاملة قاسية من المسلمين لا يكلمون ولا يعاملون بل كانوا منبوذين مهجورين ، « وفى هذا دليل على هجران أهل المعاصى حتى يتوبوا »[2] .

وفى هذا درس للعاصى المذنب المقترف الذنوب والآثام أن يسرع فى العودة إلى الله حتى ينال رضا الله ورضا المجتمع ويعيش بينهم كائنًا حيًّا غير منعزل ، فالعزلة الحقيقية هى الانقطاع عن الله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

أمر بالتزام الصدق واتباع طرقه وبتقوى الله وخشيته وهذا من كمال الإيمان .

عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا . . وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا »[3] .

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ٨ ص ٢٨٢ . (٢) القرطبى جـ٢ ص٢٨٧ .

(٣) رواه الإمام البخارى فى الأدب ، ومسلم والإمام أحمد والترمذى .

مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ
مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا
إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

لم يكن من صالح أهل المدينة ولا لصالح الأعراب من حول المدينة أن يتخلفوا عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى غزوة تبوك ، وما كان ينبغى لهم أن يفعلوه ورسول الله فى مشقة وعسرة . وإن الذين خرجوا مع رسول الله ولبّوا النداء والجهاد بارك الله لهم ورضى عنهم ، ذلك لأنهم لم يسيروا سيرًا يقطعون به وديانا أو طرقًا أو يصيبهم ظمأ وعطش شديد ولم يصبهم تعب ومشقة فى الغزوة أو مخمصة أى مجاعة ولا ينزلون أو يدوسون أرضًا مما يغيظ أهل الكفر والشرك بسبب دخولهم هذه الأرض ولا يقتلون العدو ويقتصون منه ، لا يفعلون واحدة من هذه إلا وكتب لهم بها أعمالٌ صالحة وجزاؤهم فى الدنيا والآخرة رضا الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. والله لا يضيع أجر المحسنين.

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ
لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

ليس على المؤمنين أن ينفروا للجهاد كلهم فلابد من أن يكون فى القتال جماعة تخلفهم جماعة أخرى هم المقيمون خارج القتال لإدارة شئون المعاش والنظام . وكذلك لابد من انقطاع جماعة للتفقه فى الدين حتى يكون منهم الدعاة والفقهاء العارفون فى علوم الشرع والدين .

والمسلمون مكلفون بدراسة كل علوم الدنيا والدين معًا لأنهم مكلفون من الله بحراسة الدنيا . وما أصابنا من تقاعس وتخلف ما هو إلا تقاعس عن الدراسة والتحصيل والعلم والمعرفة التى هى أساس من أسس الشريعة الإسلامية . ولم تكن هناك شريعة إلا بدراسة هذه الشريعة والتفقه فيها حتى تنفذ على أكمل وجه . وحقًا

قولُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة »(١) .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

هذا أمر صريح من الله أن يقاتل المؤمنون الكفار أولاً فأولا الأقرب من العدو ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بدأ بالكفار من العرب ثم الروم والفرس . وليجدوا فى المؤمنين غلظة وشدة ومجافاة حتى يرتدعوا ولا يغتروا ولتكن فيكم حمية الغيرة على الإسلام ومحارمه .

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

يقرر الحق فى هذه الآيات حال المؤمنين والكافرين عندما يتنزل القرآن على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يتلوه عليهم . فالمؤمنون يزدادون بما يسمعون إيمانًا ومعرفة ووصولاً للحق الذى نزل ، فانشرحت صدورهم وفاض نور الإيمان واليقين من قلوبهم فنور وجوههم وشرح صدورهم فازدادوا بعد ذلك حبًّا ووثوقًا وقربًا بحضرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . أما المنافقون وهم أصحاب القلوب المريضة والنفوس الخبيثة فلم يزدادوا بسماعهم للحق إلا رجسًا أى شكا إلى شكهم وكفرًا إلى كفرهم . وذلك أمر يقع لأصحاب الوساوس والباطل ، يفتنون فى المعاش أو فى المرض أو ضيق ذات اليد

---

(١) رواه الترمذى كتاب العلم ، باب : فضل العلم . وقال : حديث حسن .

فلا يذكّرهم ذلك بالله ، وبدلاً من أن يتوبوا ويستغفروا ربهم إذا هم مصرون على الباطل والمعصية .

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

إن من عادة المنافقين أن يتلفتوا خلفهم وأمامهم احتراسًا من أن يراهم أحد وهم فى إثم نفاقهم يترددون . فإذا حضروا إلى الرسول ووجدوه يتلوا قرآنًا مذكورًا فيه فعلهم فاضحًا لهم وكاشفًا سرائرهم ، ينظر بعضهم إلى بعض نظرة رعب وخوف ويتساءلون فيما بينهم هل يراكم أحدُ عندما تتكلمون عن محمد فينقلَ له أحاديثكم ؟ وهذا استمرار لجهلهم لأنهم مازالوا حتى هذه اللحظة يشكون فى محمد ونبوته وإطلاعه على الغيب من جهة ربه بما يشاء سبحانه . حقًّا إنهم قوم لا يفقهون .

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

الخطاب هنا للعرب ثم للناس كافة بأن الله بعث لهم أشرف وأكرم رسول ، خيار من خيار من خيار فهو منكم ومن دمائكم وهو بشر رسول ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ** ﴾ (١) بل هو من أَنْفَسِكُم (٢) نسبًا وحسبًا وشرفًا .

عن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم » (٣) .

---

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) أفعل تفضيل من نفيس أى غال وأصيل .

(٣) رواه : مسلم ، كتاب : الفضائل ، باب أفضل نسب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، واللفظ له ورواه : الترمذى .

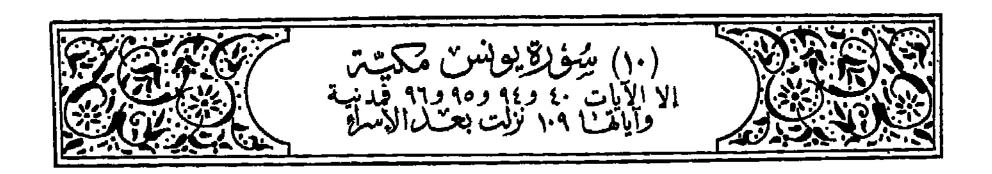
وهو ـ صلى الله عليه وسلم ـ عزيز عليه ما عنتم أى « يعز عليه الشيء الذى يعنت أمته ويشق عليها . وشريعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلها سمحة وهو حريص على إيمانكم وإسلامكم وهدايتكم . بالمؤمنين الموحدين رءوف رحيم كقوله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون * وتوكل على العزيز الرحيم** ﴾ (١) .

فهل استجبتم له كى تنالوا خير الدنيا والآخرة ؟

هل استجبتم لنداء الله الذى أنعم عليكم فأرسل إليكم رسولاً يخرجكم من الظلمات إلى النور ؟ ألم تنظروا كيف وصفه الله سبحانه وتعالى بصفتين من صفاته وسماه باسمين من أسمائه تكريماً له وإعزازاً لعلكم تنزلوه من أنفسكم منزلة التكريم ؟ويالشقاوة من لايكرم من كرمه الله وأعزه ورفعه فوق النبيين والمرسلين !! فإن أعرض الكفار عنك يا محمد بعد كل هذه النعم التى أسبغها الله عليهم وتولى عنك قومك ، فقل حسبى الله لا إله إلا هو اعتمدت عليه وعليه توكلت وهو رب العرش العظيم . وسبحان رب العرش العظيم وسلام عليك يا سيدى يا رسول الله .

---

(٤) الشعراء : ٢١٥ ـ ٢١٧ .



بسم الله الرحمن الرحيم

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾

﴿ الر ﴾ تلك الحروف التى بُدئ بها فى بعض السور قد سبق الكلام عنها فى سورة البقرة .

إن آيات الله التى يتألف منها كتابه العزيز الموحى به إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هى آياتٌ محكمة من لدن حكيم خبير ، آمن بها من آمن وكفر بها من كفر . فالفريق الأول قد نجا أما الثانى فقد ضل عن الطريق وحاد عن هدى أنبياء الله كافة وفقد طريق السلام والأمن .

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

إن الحق - سبحانه وتعالى - ينكر على الكفار تعجبهم من إرسال الله رسلاً من البشر، وهى نظير قوله تعالى على لسان سيدنا نوح - عليه السلام - لقومه **﴿أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾**(١) .

إنه لقسوة فى قلوبهم وكبر شيطانى فى نفوسهم أن قالوا بكفرهم وضلالهم إن هذا لسحر مبين - ولو هداهم الله لقالوا إنه لبيان عظيم ونور ورحمة من رب العالمين .

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ

---

(١) الأعراف : ٦٣ .

ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ
لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ
حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

يردّ الله تعالى على الذين كذبوا ـ فى الآية السابقة ـ قدرة الله على بعثه لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وهؤلاء المنكرون هم : المشركون بالله ومعهم النصارى واليهود . وقد أجاب الله على افترائهم : إن ربكم أيها المنكرون من مشركى العرب والضالين من اليهود والنصارى هو الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته سبحانه يدبر أمر الكون وأمر السماوات والأرض وأمر الخلائق كلها سبحانه ﴿ **لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض** ﴾[1] . « ولا يشغله شأن عن شأن ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير فى الجبال والبحار والعمران والقفار »[2] . كل ذلك لأنه الرب الفعال الواحد الأحد وهو سبحانه المستحق أن يعبد بحق . وليس لسواه أن يعبد ، ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾[3] .

سبحانه إليه مرجع كل الخليقة يوم القيامة ، وكما بدأ خلق الخلق كذلك يعيده وهو أهون عليه ليأخذ كل ذى حق حقه بالعدل والقسط ، ثم يسأل من كفر ويعاقبه بكفره ويسأل من آمن به ويجزيه على إيمانه بجنات وعيون ومقام كريم .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ
وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

سبحانه هو الخالق للأفلاك الدالة على كمال قدرته وبديع صنعه . وهذه آيات بينات ترد على منكرى البعث والنشور ومنكرى النبوة كذلك . فسبحانه جعل من الشمس والقمر مصدرًا لإحياء الأرض ومشاهدة السموات والنظر فيها ، ما خلق الله ذلك

---

(١) سبأ : ٣ . (٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٠٦ .
(٣) الشورى : ١١ .

إلابالحق وما خلق ذلك عبثًا ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[1].

إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

إن فى اختلاف الليل والنهار من طول وقصر لآيات معجزة من عند الله ، إلى من يبصر آياته ويتفكر فى خلقه وإبداعه ، ثم يقر لله سبحانه بأنه الواحد القهار . فكيف تنسلخ برودة الليل من حرارة النهار؟ وكيف تنسلخ أنوار النهار من ظلمة الليل ؟ إنه هو الله القادر على كل شىء سبحانه عما يصفون .

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

إن الذين لا يرجون لقاء الله قد ضلوا طريق النجاة ، فلم يؤمنوا بالله وكفروا بخاتم المرسلين ، وبذلك ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا باطمئنانهم إليها وسكونهم فيها ، وحسبوا أن الدنيا باقية ، وأنها ليست إلى زوال أو خدعوا أنفسهم بذلك . والذين هم معرضون غافلون عن النظر فى آيات الله وكونه غفلة استغرقتهم حتى كانوا فى الآخرة من الهالكين ـ إن هؤلاء مأواهم النار جزاءً على فعلهم فى الدنيا من آثام ومعاص وسيجدون أنفسهم فى عرصات جهنم ، وليس لهم من دون الله ولى ولا نصير .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

هذه حال السعداء المؤمنين بلقاء الله ، يرجون رضوانه حيث لم يطمئنوا بالحياة الدنيا

---

(١) يس : ٤٠ .

بل تعلقت قلوبهم بالله ورسوله وشرعه ، هؤلاء لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فيها ما لا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر . دعواهم فيها ، « أى دعاؤهم فى الجنة أن يقولوا سبحانك اللهم . وقيل : إذا أرادوا أن يسألوا شيئًا ، أخرجوا السؤال بلفظ التسبيح ويختمون بالحمد » . [1] وقيل إن الدعاء هنا بمعنى التمنى كما قال الحق ﴿ ولكم فيها ما تدّعون ﴾ [2] أى ما تتمنون .

۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

لقد طبع الإنسان بفطرته على العجلة ، وفى حالة الغضب ربما يضر نفسه وهو لايدرى ، وهنا يخبر الحق أنه لا يعجل لهم استجابة الشر كما يستعجلون الإجابة فى حالات الخير ، لأنه هو السميع البصير يعلم السرّ الخفيّ ويعلم أن أكثر ما يعلنه الإنسان فى عجلته وغضبه ليس هو المراد إذا كان فى ثباته واتزانه .

من هنا حذّر الرسول الهادى - صلى الله عليه وسلم - من أن ندعو على أنفسنا وأولادنا فقال : « لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لاتُوافقوا من الله ساعةً يُسْأل فيها عطاءٌ فيستجيب لكم » [3] .

يقول القرطبى : « قيل : معناه ولو عجل الله للناس العقوبة كما يستعجلون الثواب والخير لماتوا » . . وقال أيضًا « لو فعل الله مع الناس فى إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم فى إجابته إلى الخير لأهلكهم » . ثم يقول . . « إنه خاص بالكافر ، أى ولو يعجل الله للكافر العذاب على كفره كما عجّل له خير الدنيا من المال والولد لعجل له قضاء أجله ليتعجل عذاب الآخرة » [4] . ولكن الله بصير بالعباد .

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

---

(١) القرطبى جـ٨ ص ٣١٣ . (٢) فصلت : ٣١ .

(٣) رواه مسلم كتاب الزهد باب حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسر .

(٤) انظر تفسير القرطبى جـ٨ ص ٣١٥ .

هنا بيان من الله العزيز الحكيم عن الإنسان وطباعه التى جُبل عليها ، إذا مسّه الضر أسرع وتعجل وتضرع إلى ربه فى كل أحواله قائمًا وقاعدًا ونائمًا فى كل وقت ، وصار يلح فى الدعاء ويتعجل الإجابة . وهى نظير قوله تعالى ﴿ **وإذا مسه الشر فذو دعاءٍ عريض** ﴾[1] . وإذا استجاب الله له نسى أنه كان مستغرقا فى الدعاء وأنه كان يومًا محتاجًا إلى ربّ السموات والأرض ، وكأنه لم يصبه ضر أو لم يمسسه هم أو حزن أو شر، إلا من رزقه الله سلامة الفهم ونعمة الهداية والاحتياج إلى الله فى حالى السراء والضراء فهذا خارج عمن تكلمت عنهم الآية .

وفى هذا يقول رسول ربّ العالمين ـ صلى الله عليه وسلم ـ « **عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيرًا له** »[2] .

وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٣ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٤

يخبر الله سبحانه وتعالى عن القرون والأمم الماضية بأنهم لما ظلموا وأشركوا أهلكهم ؛ وذلك بسبب عصيانهم رسل الله ، لأنهم حادوا عن الإسلام الذى هو دين كل الأنبياء والرسل من لدن آدم عليه السلام ، حتى جاء محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتمم المسيرة ويصحح الخطأ ويبلغ الدين كله ، فمن استجاب له فقد فاز ومن ضلّ وعصى فقد خسر خسرانًا مبينًا .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « **إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت من النساء** »[3] .

---

(١) فصلت : ٥١ .

(٢) رواه : الإمام أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه .

(٣) رواه مسلم عن أبى سعيد .

ثم جعل سبحانه الأمة المسلمة هى أمة الإنابة عن الأنبياء والرسل ، لكونها وارثةً للخلافة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وكذلك هى المسئولة عن تعطيل الدين بكافة شرائعه وتعاليمه .

فأنتم أيها المسلمون مسئولون أمام الله عن فساد العصور من بعد الخلافة الرشيدة ، فاعلموا وادعوا إلى الله على بصيرة وذكروا المسلمين بكتابهم وادعوهم للحكم به ، فمن لم يدعُ بذلك ويجاهدْ فى سبيل الله حتى ترجع أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى خلافةٍ رشيدة عادلة ، فحساب الله له عسير ، وسؤاله شديد .

فيا أمة محمد : أنتِ أمةُ الدعوة والخلافة فسارعى إلى مغفرة من الله بجهاد كبير حتى تقوم الأمة وتعود الدولة ، والله سبحانه نعم المعين لعباده المخلصين .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ
غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا
يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ
مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

هذا إخبار من الحق سبحانه وتعالى عن تعنت كفار مكة ومشركيها الجاحدين أنهم إذا سمعوا آيات الله يتلوها عليهم محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا له : لا نطيعك حتى تأتينا بقرآن غير هذا ، أو بدِّل فيه . ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أجابهم بالقطع أنه لا يفعل ولن يفعل ، فأجاب الله عنه بقوله قل لهم يا محمد ما يكون لى أى ماينبغى لى أن أبدّله بنفسى إننى عبد الله ورسوله ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ ﴾ ولأنى أخاف إن عصيت ربى وطاوعتكم فى طلبكم التبديل أو التحريف أخاف عذاب يوم عظيم .

يأهل مكة ويا من حولها من الأعراب ، إنى لبثت فيكم من السنين أربعين سنة قبل البعثة سميتمونى أثناءها بالصادق الأمين ، واليوم تكذبوننى ؟!!

إنه ليس فى الخلق أظلم من عبد يدّعى افتراءً وكذبًا على الله سبحانه وتعالى أن له شركاءَ أو أن له ولدًا أو أن له ما يماثله ، سبحانه وتعالى عما يصف الظالمون ! وليس فى الخلق أيضًا أظلم من عبد ينكر القرآن ويفترى على الله الكذب إنه لا يفلح المجرمون .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

لا يزال الحق سبحانه وتعالى ينكر على المشركين شركهم بالله عندما يعبدون غيره ظانين أن هذه الآلهة المزعومة (الأصنام) تشفع لهم عند الله . وهذا ضلال وبهتان عظيم، فمن عبد غير الله فقد ضلّ السبيل وأضلّ . فقل لهم يا محمد : أتنبئون الله وتخبرونه أن له شريكًا وشفيعًا فى خلقه وملكوته ؟ ومن أنتم ؟ أنتم الضعفاء والعاجزون. أنتم لاتستطيعون كشف الضر عنكم ، وشربة الماء تُحبَس فيكم فلا تملكون صرف أذاها عن أنفسكم ، فماذا يملك لكم هؤلاء الشفعاء المدَّعون ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ، وتنزه فوق كل ذلك وتقدس عن الشرك .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

إن الكفار أرادوا أن يعجزوا محمدًا ، فطلبوا منه آيات معجزات غير معجزة القرآن ـ كما أعطى الله ثمود الناقة ـ وأن يحول لهم جبل الصفا ذهبا ، ويكون له بيت من زخرف، ويحيي لهم من مات من آبائهم وأجدادهم ؛ فقل لهم يا محمد إن نزول الآيات غيب ، فتربصوا وانتظروا قضاء الله بيننا .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

إن الله سبحانه وتعالى يكشف لنا عن طبيعة الإنسان ، ويبين أن له طبائع متغيرة متقلبة فربما يكون ساعة مع الحق ثم يتغير فى نفس الآن فيرى الباطل أنفع له فى الدنيا فينسى ما كان عليه من الخير . وذلك التغاير يقع بسبب ضعف الإيمان وعدم التمكن فى الحق . من هذا التغاير أنه إذا أصاب الناس رحمة من بعد ضراء ، كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجدب ، فإنهم لا يؤمنون فى الوقت الذى كانوا فيه ذوى دعاءٍ عريض ، ومرّوا كأن لم يمسسهم شىء . أجل إن رسلنا يكتبون ما تمكرون .

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

إن الله أنعم عليكم بما تستطيعون به الانتقال بين وديانكم والبلدان المختلفة البعيدة والقريبة بوسائل النقل فعلمكم كيف تسيروها فى البحر والجو وفوق الأرض . فإذا أصبتم بريح تعوق مسيرة السفن وأصبحتم تحاطون بالموج الشديد من كل جانب دعوتم الله مخلصين له الدين لئن صرفت عنا يارب هذا الكرب وهذه الشدة لنكونن من العاملين بطاعتك على نعمة إنقاذنا من هذه الشدة .

فلما نجاهم الله إذا هم يبغون متكبرين فى الأرض بغير حق ، حقًّا إليه مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون .

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

إن حلاوة الدنيا وما تغرى به من زخرفها وزينتها وتكاثر الأموال والأولاد فيها ، وإغراءها بالجاه وامتلاك أمرها بالحكم فيها والسيطرة من الحاكمين على المحكومين ، كل ذلك سرعان ما ينقضى . فمثله مثل النبات الذى أخرجه الله من الأرض وامتلأت به من جميع الأشكال والألوان وازينت بكل ما خرج من رباها وسهولها حتى يظن زارعو هذا النبات وأهله أنهم قادرون على حصاده وجمعه ، فإذا بصاعقة أو ريح شديدة تذهب بالأخضر واليابس فأصبحت عجفاء جدباء بعد خصب ونماء خاوية على عروشها صعيدًا زلقا .

فهكذا الدنيا تنقضى فى ساعة ويُبعث من فى القبور ويجىء يوم الحساب !! فمن يدفع عن الناس إذن ؟!! إنه يوم لا يدفع فيه أحدٌ عن أحدٍ شيئًا ، يوم يقول فيه عيسى ابن مريم : ربى لا أسألك اليوم أمى ولكن أسألك اليوم يارب نفسى ، فاحذروا أيها المسلمون احذروا يأهل الإيمان ذلك اليوم واستعدوا له إنه يوم عصيب .

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

والسلام اسم من أسماء الله . والصراط المستقيم هو الإسلام فمن تمسك به فله الحسنى وزيادة . وهؤلاء تحدث الحق عنهم بقوله :

۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

والحسنى : هى الجنة ، والزيادة : هى رضوان الله تعالى .

وتلك هى منزلة المصدقين المخلصين : ﴿ الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ﴾ أى غبار أو سواد مما يلحق وجوه الكفرة الفجرة فى عرصات جهنم .

وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

يبين العزيز العدل الحكيم صائب حكمه وعدله فى الذين كسبوا السيئات ، فجزاء السيئة سيئة بمثلها ، غير أن السيئات لها ظلمة وقسوة تكسب أصحابها ذلة ترهقهم بها

فى معاشهم وليس لهم من عاصم فالعاصم هو الله وقد حاربوه بالمعاصى فهؤلاء تسود وجوههم فى الدار الآخرة فهى وجوه مسودة عليها غبرة . أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾

يوم القيامة ينادى الحق سبحانه وتعالى أصحاب الكفر والضلالة الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم . ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ أى « فرقنا وقطعنا ما كان بينهم من التواصل فى الدنيا»[1] . كما يخبر الحق عنهم فى موضع آخر ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا ﴾[2] وقوله ﴿ إذْ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعوا ﴾[3] وقوله ﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ﴾[4] .

فساعتها سوف لا تنفع شفاعتهم شيئًا بل ستتبرأ منهم الأصنام ، قائلة ما كنا ندرى بكم والله شهيد بيننا وبينكم لأننا لم ندعكم إلى عبادتنا ولا طلبنا منكم ذلك . وهذا تقريع للجماعة المشركة التى كانت تعبد ما لا يسمع ولا يرى ولا ينفع ولا يضر. ﴿ إن كنّا عن عبادتكم لغافلين﴾ لا ندرى شيئًا حيث كنّا جماداتٍ صماءَ لا روح فينا ولا حياة .

هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

﴿ تبلو ﴾ بمعنى تذوق وتعلم ما مضى من عملها إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾[5] ﴿ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورا﴾[6].

وترد الأمور كلها إلى الله للفصل فيها ، فيدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النار النار . هكذا عدل الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

---

(١) القرطبى جـ٨ص ٣٣٣ . (٢) مريم : ٨٢ . (٣) البقرة : ١٦٦ .
(٤) الأحقاف : ٦ . (٥) القيامة : ١٣ . (٦) الإسراء : ١٣ .

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ
مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا
تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾

هذه الآيات تدلل على قدرة الخالق وعجز المخلوق ، ثم تلوم المخلوق من بنى الإنسان على انحرافه فى الفهم السويّ . فيأيها الضالون عن طريق التوحيد من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أليس هو الله ؟ ومن يملك لكم السمع والإبصار ؟ أليس هو الله؟ ومن يخرج الحى من الميت وكذلك الميت من الحى ؟ أليس هو الله ؟! ومن يدبر أمر السماء والأرض ؟ فلماذا لا تتقونه ؟ وماذا بعد بيان الحق وظهوره ؟ إنه الضلال . . !! فقل لهم يا محمد « أفلا تخافون عقابه ونقمته فى الدنيا والآخرة »[1]؟

كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

فبسبب شركهم وكفرهم ، حق عليهم القول باللعنة والخزى والعذاب المهين ، وهؤلاء هم الفاسقون . والفسق هو مفارقة الحق إلى الباطل .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ
تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى
ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ
أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

حاش لله أن يكون له شركاء فهو الخالق الواحد القادر على غير مثال . والحق ـ سبحانه وتعالى يبطل دعاواهم فى هذه الآيات ، ويبطل افتراءهم بادعائهم الصاحبة والشريك واتخاذهم أصنامًا وأندادًا لله ، فهل أى من هذه أو تلك ما يستطيع أن يبدأ

---

(١) القرطبى جـ٨ ص ٣٣٥ .

الخلق ثم يعيده ؟!!" فكيف تنصرفون عن طريق الرشد والهدى إلى طريق الضلال والتخبط ؟ فما لكم كيف تحكمون أيها المشركون وأنتم تعلمون جيدًا أن هذه الآلهة التى تعبدونها لا تنفع ولا تضر ولا تقدر على هداية عاص أو إراحة حيران ؟ إنكم لا تتبعون إلا ظنًا ، أى : وهمًا وسرابًا لا يغنى عنكم من الله شيئًا لأنكم لا تستطيعون أن تقدموا ولو دليلاً أو برهانًا واحدًا على صحة ادعاءاتكم وافترءاتكم وشرككم الذى أنتم به متلبسون .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن ، لأنه لا يستطيع أحد من البشر أن يأتى بسورة أو آية واحدة من مثله . ومستحيل أن يؤتى بهذا القرآن من عند غير الله ، وهو حق يصدق ما بين يدى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو تفصيل للحق الذى أنزله الله عليه . والذين يقولون إن محمدًا قد افتراه ، فحجتنا عليهم بينة ، فليأتوا بسورة من مثله إن استطاعوا وإن كانوا صادقين . إنهم لن يستطيعوا ذلك ولو اجتمعوا له . إنه كتاب مقدس من عند الله جاء مصدقًا لمحمد ومهيمنًا على الكتب السابقة .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (١) .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ تحداهم فى ذلك الأمر على ضروب ثلاثة : طلبه ـ سبحانه وتعالى ـ منهم أن يعارضوا هذا القرآن كله بنظيره من عندهم ، ردا على قولهم إن هذا القرآن من عند محمد . ثم طلبه ـ سبحانه وتعالى ـ منهم أن يأتوا بعشر سور منه ، كما

---

(١) الإسراء : ٨٨

نرى ذلك فى سورة هود ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ (١) .

ثم طلبه ـ سبحانه وتعالى ـ منهم فى هذه السورة أن يأتوا بسورة واحدة من هذا القرآن، وهذا إمعانٌ فى التحدى وإعجاز من الله .

بل إنهم كذبوا القرآن ولم يعلموا كنوزه وأسراره ، مثلهم مثل ما كذّبت الأمم السابقة أنبياءها ، فانظر كيف أهلكناها ، واحذروا أيها المشركون الضالون أن تقعوا فى مثل ماوقع فيه السالفون فتصيبكم اللعنة وتهلكون .

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

يقول الإمام القرطبى « قيل : المراد أهل مكة ، أى ومنهم من يؤمن به فى المستقبل وإن طال تكذيبه ، لعلمه تعالى السابق فيهم أنهم من السعداء . . . . ومنهم من يصرّ على كفره حتى يموت كأبى طالب وأبى لهب ونحوهما . وقيل المراد أهل الكتاب . وقيل هو عام فى جميع الكفار ، وهو الصحيح . . وإنما أخر الله العقوبة لأن منهم من سيؤمن» . (٢) ﴿ **وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ تهديد لهم ووعيد .

ثم يقول الحق لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تبرأ منهم يا محمد إن كذبوك ، وقل لهم لى ثواب تبليغى لكم وإنذارى إياكم ، وقد بينت لكم طريق الرشد والصواب ، ولكم عملكم وجزاؤه النار لأنكم أشركتم ﴿ **قل يأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولاأنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين** ﴾ (٣) . وهى أيضًا نظير قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم الخليل لقومه المشركين ﴿ **إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله** ﴾ (٤) . فالله وليك يا محمد وسيجزيهم بكفرهم وضلالهم وسينصرك ويؤيدك ويجعل العاقبة لك ولمن معك .

---

(١) هود : ١٣ .
(٢) القرطبى جـ٨ ص ٣٤٥ .
(٣) الكافرون : ١ـ٦ .
(٤) الممتحنة : ٤ .

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

ومنهم من يستمع إليك ولكن قلبه ليس معك. إنهم يستمعون ليجادلوا فى الحق ويخوضوا فيه ، فأنت لا تستطيع فتح مغاليق قلوبهم التى طبع الله عليها حتى ولو كانت آذانهم مصغية ، مثله مثل البصر تمامًا ، فمنهم من ينظر إليك ولكن قلبه أعمى ؛ فالمراد « أن أحدًا لا يؤمن إلا بتوفيقه وهدايته . . . وفى هذا تسلية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

إن جهل الناس بالله واستعلاءهم على ما جاء به رسول الله يجعلهم يظلمون أنفسهم وهم لا يشعرون . ويقول ابن كثير : « أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه لا يظلم أحدًا شيئًا وإن كان قد هدى به من هدى وبصر به من عمى وفتح به أعينا عميا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفا وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف فى ملكه بما يشاء الذى لايُسأل عما يفعل وهم يُسألون لعلمه وحكمته وعدله »[2].

فى الحديث عن أبى ذر عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن ربّ العزة ـ سبحانه وتعالى ـ « يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا . . إلى أن قال فى نهايته . . . ـ يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفّيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[3].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

سيأتى يوم عظيم يحشرون فيه إلى الله وكأنهم لم يلبثوا فى دنياهم إلا ساعة من نهار ، ﴿فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ .[4] فلا أعراق ولا جاه

---

(١) القرطبى جـ٨ ص٣٤٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٤١٨ .
(٣) الحديث رواه مسلم كتاب البر باب تحريم الظلم .
(٤) المؤمنون : ١٠١ .

ولكنها أعمال تُحسب وحقوق تسأل ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ . وإننا سوف نوف كلا حسابه ولا يظلم ربك أحدا . « فطول أعمارهم فى مقابلة الخلود كساعة »[1] هكذا رأوْا .

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ ٤٦

إما نرينك يا محمد بعض ما وعدناهم به بنصرك عليهم وخذلانهم ومذلتهم « وننتقم منهم فى حياتك لتقر عينك منهم »[2] أو اصبر فإن مرجعهم إلينا ، وإلينا المنقلب فهناك الحساب الدقيق ثم الله شهيد على ما يفعلون .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ٤٧

إن أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد شرفها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فجعلها أول الأمم ، وكل أمة تعرض بعملها على الله وأمامهم رسولهم وكتاب أعمالهم ، وهكذا أمة بعد أمة .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ٤٨ ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ ٤٩

إن الكفار يقولون : متى الساعة ؟ ومتى هذا الوعيد ؟ إنكارًا منهم لكلام محمد وسخرية بكلام الله مع أنه لا فائدة من سؤالهم هذا . فأمر الحق نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول لهم : لا أملك من الله ما أنفع به نفسى فأدفع عنكم شيئًا ، وكل ما للإنسان إنما هو بمشيئة الحق سبحانه وتعالى ، فكيف أوفيكم ما تستعجلون به ؟ فلاتستعجلون ، فلكل أمة أجلها ووقتها المحدد لهلاكها وعذابها وحسابها ﴿ ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها ﴾[3] ـ ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها ﴾[4] .

---

(١) هذا القول لابن عباس ـ انظر القرطبى جـ٨ ص ٣٤٧ .

(٢) ابن كثير ٢/٤١٨ .

(٣) المنافقون : ١١ .   (٤) النازعات : ٤٢ ـ ٤٤ .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا
مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟
عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

إنكم أيها الكفار تستعجلون العذاب فسوف يأتيكم بغتة ليلاً أو نهارًا ، فما أعظم ماتستعجلون به !! إنكم تستعجلون شيئًا عظيمًا مهولاً . أتأمنون لما يقع عليكم العذاب ثم ساعتها تؤمنون وتقولون ﴿ **ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون**﴾[1]؟

ثم بعد ذلك تقول لكم خزنة النار ذوقوا عذابًا شديدًا خالدين فيه أبدًا ، وذلك بسبب كفركم وشرككم .

۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ
لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ
وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ
أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

إنهم يقولون لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أحق ما أنت تاليه علينا يا محمد ومخبرنا به من أنباء الدنيا والآخرة ؟ قل لهم يا محمد : إى وربى . وإى « كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم »[2] .

أى نعم أقسم بالله إنه لحق ، فإن آمنتم كتبت لكم النجاة ، وإن كفرتم لستم بمعجزى الله ، والله هو القوى القادر الفعال ، ويوم القيامة لو أتيح لنفس أن تملك ما فى الأرض جميعًا لافتدت به ولكن هيهات هيهات . . !! فهنا دار العمل ، وهناك دار الجزاء يوم القيامة .

---

(١) السجدة : ١٢ .　　(٢) القرطبى جـ٨ ص ٣٥١ .

إن الضالين ليس أمامهم يوم القيامة إلا خزى وعذاب شديد .

إن وعد الله حق ولن يخلف الله وعده سبحانه هو مالك السموات والأرض قادر على جمع الخليقة بعد فنائها وإليه المرجع والمآب .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨ ﴾

يذكر الحق ـ سبحانه وتعالى ـ خلقه بأعظم ما امتن به عليهم من موعظةٍ وإرشاداتٍ وتعاليمَ مشروحةٍ واضحة لهم فى كتابه العزيز (القرآن) ، فبين لهم فيه ما فيه شفاءُ صدورهم ونفوسهم من سقيم الأخلاق ، وشرح به صدورهم للحق فشُفيت به من الأدران والأسقام ، وهو بذلك هدى ورحمة للمؤمنين وتطهير وتنظيف لما فى النفوس من عوالق الرجس والأدناس . وهى نظير قوله تعالى : **﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾**[1] .

إن الله سبحانه يقر وقراره الحق أن الإنسان أنعم الله عليه بالهداية فهُدى إلى ما فى كتاب الله من الحق ، فذلك هو الخير الذى يستحق من الإنسان أن يُسرّ به ويفرح لأن الذى أتاه هو الخير فى الدنيا والآخرة ، فكل ما هو من زينة الدنيا بعد ذلك أمر هين لايساوى شيئًا أمام فضل الله فى الآخرة . فبذلك فليفرح المؤمنون فما أعدلهم خير مما جمعوا له من حطام الدنيا ونعيمها الزائف الموقوت .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠ ﴾

تخاطب الآيات الكفار أن ليس لهم من حق أن يحلوا ويحرموا من تلقاء أنفسهم، فالله سبحانه وتعالى صاحب الشأن فى ذلك، فهو ينزل الرزق ويبين طريق حلاله وطريق حرامه وليس لغير الله ذلك ، فمن أحل وحرّم بغير ما أنزل الله فقد افترى على الله .

---

(١) الإسراء : ٨٢ .

وما ظن أولئك الذين يفترون على الله ويحلون ويحرمون حسب أهوائهم ؟ « أيحسبون أن الله لايؤاخذهم به » [1] أين يذهب أولئك الذين افتروا على الله الكذب ؟ إن الله يمهلهم ويؤخر عقابهم علهم يرجعون . وهذا فضل منه سبحانه ، ولكن أكثرهم لا يشكرون نعمة الله ولا يعلمون فضله وقدره .

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

سبحانه لا تخفى عليه خافية . كلّ شئون الخلق تحت بصيرته ، يعلم مستقرها ومستودعها صغرت أو كبرت خفيت أم ظهرت . كل ما خلقه قائم فى علمه ، عنده مفاتح الغيب لا يعلم سرها إلا هو . يقول ابن كثير « وإذا كان هذا علمه بحركات الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة » [2] ؟

فكل أمورنا ، الله رقيب ومطلع عليها وسامع لها ، ولذا يجب على الإنسان أن يعبد الله وكأنه يراه حتى تكتمل مرتبة العبادة ويصل بمرتبة التكليف إلى مشارف الإحسان .

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

أولياء الله : هم الذين اتبعوا رسول الله محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلايفرطون فى فرض أو سنّة . هم الحراس على أمره ـ سبحانه وتعالى ـ يؤدون فرائضه وسنن رسوله لا يخشون فى الله لومة لائم يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . زهّاد فى الدنيا . رغبتهم فى الآخرة شديدة يحبون فى الله ويبغضون فى الله . الدنيا بين أيديهم عرض زائل والآخرة فى قلوبهم ميراث مقدس يبذلون النفس والنفيس لتكون كلمة الله هى العليا .

---

(١) القرطبى جـ٨ص٣٥٥ .

(٢) ابن كثير جـ٢ / ٤٢٢ .

إن أولياء الله هؤلاء لا خـوف عليهم فى الآخرة ، وقيل فى ذريـاتهم لأن الله يتولاهـم ، ولاهم يحزنون لفوات وانقضاء الدنيا .

ويذكر القرطبى قـولَ الزهرى وعطاء وقتاده فى ﴿ البشرى ﴾ أنها « هى البشـارة التى تبشر بها الملائكةُ المؤمنَ فى الدنيا عند الموت » (١) .

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ
لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ
ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

يسلّى الله نبيه المصطفـى ـ صلى الله عليه وسلـم ـ بأن لا يحزن على قـولهم وافترائهم وتكذيبهم له قائلاً إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وإن القوة والغلبة له سبحانه فلا تحزن فالله عليم بهم سميع لأقـوالهم . وكذلك كل ما فى السموات والأرض مشـاهد وغائب فهو لله رب العـالمين وحده لا شريك الله ، ودعْ الـذين يعتقدون النفـع والضر فى أشياء تافهة وأصنام إن يتبعون إلا الظن والتخرص والكذب .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

إنـه من بـاب أولى أيها المشركون المعتقـدون فى الأصنـام النفع والضر أن تعبـدوا إلهًا واحدًا يستطيع ـ وبالفعل ـ أن يجعل لكم ليلاً تنامون فيه وتريحون أبدانكم ونهارًا للسعى والجد واجتلاب الرزق ، أليس فى ذلك آيـة ؟ ألم تسمعوا هذه الحجج والبراهين فتعتبروا بها وتهتدوا إلى الله رب العالمين الفرد الصمد ؟!!

قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا
مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

(١) القرطبى جـ٧ ص ٣٥٨ .

قالت النصارى : المسيح ابن الله ، وادعت ذلك اليهود لعزير ، وزعمت الكفار أن الملائكة بنات الله ، سبحانه وتعالى عما يصفون !! إنه الواحد الأحد الفرد الصمد لاوالد له ولا ولد كل ما فى السموات والأرض عبيد وملك له . لا يشاركه أحد فى ملكه . سبحانه هو الغنى ونحن الفقراء إليه . فأنتم أيها المتقولون المفترون ليس عندكم من سلطان أى دليل أو برهان أو حجة على صحة ما تتقولونه ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئًا إدا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ (١) .

إنكم أيها المفترون ستلقون عذابًا خالدين فيه أبدًا . فتمتعوا فى دنياكم فما متاع الدنيا إلا قليل وإن طال ، فلكم يوم عظيم نذيقكم فيه العذاب الغليظ بسبب كفركم هذا .

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

أخبر قومك يا محمد وأسمعهم قصص السابقين ، واحكِ لهم عن نوح النبى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكيف صبر مع قومه صبرًا كبيرًا حيث عاش بينهم يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا صابرًا محتسبًا ، كيف كانت عاقبة عنادهم له وإصرارهم على الكفر ؟ لقد أمر الله سبحانه الأرض ففاضت بالماء وأمر السماء فأمطرت مطرًا غزيرًا حتى كانت اليابسة كلها فى ديار نوح وقومه بحرًا أغرق كل من أبى أن يكون معه وعلى دينه فى سفينة النجاة التى أُمِر أن يصنعها ويركب معه فيها أتباعه الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على طريقته وعلى شريعة الله .

---

(١) مريم : ٨٨ـ٩٥ .

واليوم شريعة الإسلام معطلة والأمة كلها مسئولة ومحاسبة على ذلك ، اللهم إلا من أعلن غضبه على ذلك وأقامها فى نفسه وبيته هو ومجتمعه وهو يجاهد فى سبيل الله بالنفس والمال .

هذا هو نوح مع قومه الذى أمره الله أن يقول لهم إن كان قد عظم وثقل عليكم مقامى أى لبثى فيكم وطول عمرى مع التذكرة والدعوة إلى الشريعة وآيات الله والحكم بما أنزل الله فإنى اعتمدت على الله . « ولم يزل عليه السلام متوكلاً على الله فى كل حال ولكن بين أنه متوكل فى هذا على الخصوص ليعرف قومه أن الله يكفيه أمرهم أى إن لم تنصرونى فإنى أتوكل على من ينصرنى »[1] .

وقد بلغت الثقة بنوح حدًّا فى اعتماده وتوكله على الله ما جعله يتحداهم ويطلب إليهم مواجهته بكل قواهم ، فكان من كيدهم غير وجل أوخائف لأنه يعلم مسبقًا أن آلهتهم لا تنفع ولا تضر . وفى كل هذا تسلية للنبى محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم ـ . فآمن به من آمن وكفر به من كفر وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لأن نوحًا لا يفعل ذلك مقابل أجر إن أجره إلا على الله رب العالمين الذى أمره أن يكون موحدًا مسلمًا عبدًا منيبًا بعد أن أهلكهم بظلمهم .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

وقد جاءت بعد نوح رسل لأمم بعده كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب فجاءوا لقومهم بالمعجزات أيضًا فما كان صنيعهم معهم يختلف عن صنيعهم مع نوح . كذلك نختم ونغلق على قلوب المتجاوزين حدودهم فى الافتراء والكذب على الله والعناد معه ومحاربة الرسل .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟

(١) القرطبى جـ٨/ ٣٦٢ .

أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يبين الله أنه أرسل بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام موسى وهارون ، ولكن فرعون استكبر وكان من المجرمين ولم يستجب لهما ، فكانت عاقبته الخسران المبين . ولما جاء قومَ فرعون الحق من ربهم على يدى موسى وأخيه هارون الذى كان له بمثابة الوزير . ! ! ولما أظهر موسى الآيات والحجج من العصا التى صارت حيةً وأخرج يده بيضاء فكانت نورًا ! ! ولما قال موسى لفرعون وقومِه إن الذى أنا عليه هو الحق من الله سبحانه ! ! لما كان كل هذا : قالوا فى تبجح وغطرسة بالباطل : أجئتنا ياموسى لتصرفنا عن آلهتنا تلك التى وجدنا أهلنا من قبلنا يعبدونها ، ونحن نرى أنك ما تفعل ذلك إلا طلبًا للكبرياء فى الأرض وتكون أنت وأخوك لكما الدنيا لتحكما بها فينا ؟ إننا سنظل على ما كان عليه آباؤنا ولن نؤمن لكما .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟
مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

مع ثبات موسى وأخيه على الحق ، قال فرعون لقومه ووزيره هامان وحاشيته : اجمعوا لى كل ساحر عليم بالسحر خبير به . وجُمع السحرة بآلات سحرهم وتمت المواجهة . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون من السحر وأدواته ، فألقت السحرةُ حبالَها وعصيها . فلما انتهوا من عملهم وألقوا كلّ ما لديهم من أدوات السحر ، قال ـ موسى عليه السلام ـ إن الله سيبطله وذلك لأنه سبحانه لا يصلح عمل المفسدين ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون . فألقى موسى عصاه فابتلعت كلّ أعمال السحرة وهى كما هى عصاه بعد أن انقلبت حيةً تسعى . وهنا وقعت الآية بأن آمن السحرة لموسى ولم يعبئوا بما كان من فرعون وقومه .

وآمن مع السحرة عدد من بنى إسرائيل ، وكذلك آمن لموسى من قوم فرعون شباب وشيوخ على خوف من فرعون وقومه ، فقد كانوا يحذرون أن يفتنهم فرعون بتعذيبهم ، وإن فرعون لعالٍ متكبر فى الأرض وإنه لمن المسرفين .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

قال موسى لقومه بعد أن آمن من آمن وكفر من كفر : يا قوم : إن كنتم آمنتم حقًّا وصدقًا فتوكلوا على الله ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه وناصره ومؤيده فتوكلوا عليه إن كنتم مسلمين . فهى نظير قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ (١) ؟ ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ (٢) ـ و ـ ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ . (٣) فقالوا : على الله توكلنا حقًّا ثم دعوا : ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ .

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

أوصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أى أصدر أوامره لموسى وأخيه هارون أن يتخذا فى مصر منازل وتكون هذه المنازل قبلة يعلن منها كلمة التوحيد ثم يقيم فيها شرعه وعدله وصلواته وعند ذلك تكون البشرى للمؤمنين . وهنا يوصيهم ربّ العزة أن يقيموا الصلاة خصوصًا وهم فى هذه الحال من الخوف والرعب والصراع بين الحق والباطل ، حيث إن الصلاة تهدئ من الروع وتطمئن النفوس ، حيث إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا حزبه أمر صلّى . ثم بشرهم بعد ذلك يا موسى بأنَّ لهم العاقبة والنصر المبين . أما فرعون وأعوانه فلهم خزى فى الدنيا وفى الآخرة عذاب عظيم بسبب محاربتهم لله ولرسوله والمؤمنين .

---

(١) الزمر : ٣٦ . (٢) هود : ١٢٣ .
(٣) الفاتحة : ٥ .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا
تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قال موسى لربه : إنك يا ربنا أعطيتَ فرعون وقومه متاعًا واسعًا فى الدنيا ومكنتهم فيها ليحكموها فحكموها بخلاف أمرك وأفسدوا فيها بغرور وكبر ، وكان الأولى بهم أن يشكروك و يعبدوك .

ربنا اطمس على أموالهم واطبع على قلوبهم حتى لا « تنشرح للإيمان » إذا رأوا العذاب الأليم ، قال الله سبحانه لموسى وهارون قد استجيبت دعوتكما فاستقيما على شريعتى وأقيما أمرى فى قومكما ولا تتبعا من يغريكما بغير طريقى ولا تتبعا سبيل الذين لا يعلمون . وهكذا قد استجاب الله لدعوة موسى كما استجاب من قبل لدعوة نوح على قومه ﴿ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا ﴾ (٢) .

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ
نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا
لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر ولكن فرعون اتبع أثرهم ، ولما كاد يدركهم ويلحقهم ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق فصار كل فرق كالجبل العظيم ، وسار موسى وقومه بين الحاجزين المائيين فى عمق البحر على اليابس ، واتّبعهم فرعون وقومه ،

---

(١) القرطبى جـ٨ ص٣٧٤ . (٢) نوح : ٢٦ـ٢٧ .

فأغرقهم الله حيث تلاحم الماء عليهم. وقال فرعون وهو يغرغر آمنتُ برب موسى وهارون ولكن لم يتقبل منه ولا من قومه وأجابه الله سبحانه أفى هذا الوقت تقول آمنت؟!!!

فاليوم ننجيك ببدنك فقط لتكون لمن خلفك من بنى إسرائيل ولمن بقى من قومك ولم يصلهم هذا الخبر فتكون لهم آية وعبرة وعظة ، وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لمعرضون فى تأملها غائبون عنها .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

لقد نصر الله بنى إسرائيل على فرعون وجعل لهم مكانة وملكًا ، ولكنهم لم يسمعوا ولم يتعظوا . وقيل إن ﴿ مبوأ صدق ﴾ هذا هو بلاد مصر والشام [1] .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ سيقضى بينهم يوم القيامة فيما اختلفوا عليه من الحق وساعتها سيعلمون أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، فالدنيا إن لم تكن مزرعةً للآخرة فقد خسرها الإنسان .

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

« الخطاب فى الآية للنبى والمراد غيره أى لستَ فى شك ولكن غيرك فى شك » [2] .

إن اليهود يعلمون من كتابهم التوراة بأن نبيًّا من العرب سيُبعث بكتاب من عند الله . والحق تبارك وتعالى يقول لنبيه بأن أمرك يا محمد مكتوب عندهم فاسألهم عنه فإنهم يعرفونك كما يعرفون أبناءهم ، وهذا أمر يؤكده الله لنبيه ولهم ، وإن إنكارهم للرسول مكابرة منهم للحق الذى يعلمونه ، فلا تكونن يا محمد أنت أو أمتك من الممترين الشاكين .

---

(١) انظر : ابن كثير ٢/ ٤٣١ .

(٢) القرطبى جـ٨ / ٣٨٢ .

وهذا حث وتحذير من الله للمؤمنين أن يحرصوا دائمًا على التصديق بآيات الله ولايكونوا أبدًا مع من يكذب بها وإلا كانوا من الخاسرين .

إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ
حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ
لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

إن فى طبيعة قلوبهم مرضا وظلمة لا يستطيعون أن يتذوقوا حلاوة الإيمان ، وبذلك حقت عليهم كلمة ربك أى غضبه عليهم وسخطه بسبب معاصيهم ، ولو جاءتهم الآيات والحجج فساعتها يؤمنون ، ولكن لا ينفع نفسًا إيمانها فى يوم لا تنفع فيه المعذرة . لقد انتهت أيام العمل وفى الآخرة الحساب والسؤال والجزاء .

إن قرية نبى الله يونس أى أهل القرية لما عصوا يونس غضب عليه السلام وذهب مغاضبًا ، وخافوا أن يعاقبهم الله بسبب معصيتهم لنبيهم ، فآمنوا وبسبب إيمانهم كشف الله عنهم العذاب عذاب الخزى فى الحياة الدنيا بعد أن سبح يونس فى بطن الحوت أربعين يومًا حتى غفر الله له ونجاه وعاد إلى قومه وهم مؤمنون .

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟
مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى
ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ
وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن
قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يا محمد لا تعجب لعدم إيمان كل الناس فلو شاء ربك لآمن كل من فى الأرض كافة .

فالإيمان إن لم يكن مصدره الإحساس العملى والشعور الصادق من العبد بأن الله مستحق العبادة من عبده بحق فلا يعد إيمانًا . وهى نظير ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾[1] ـ ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾[2] ـ ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾[3] .

إن الإيمان بالله عطاء يجتبى له الحق من استحق بحق أن يكون عبدًا لله فيطهره من الرجس ويغمس آخرين فى رجس وغضب. ولو شئنا يا محمد أن نهدى كل من فى الأرض من الخلق لفعلنا ، ولكن الله بحكمته وعلمه يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بالمتقين وهو الهادى وما عليك إلا البلاغ .

إن الذين يكذبون بمحمد خاسرون للدنيا والآخرة مثل الذين كذبوا من قبل نوحًا وإبراهيمَ ثم الذين ضلوا من قوم موسى وعيسى عليهم جميعًا السلام . إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيصيب الذين كذبوا الرسل بعذاب وهلاك شديد ، أما المؤمنون والرسل من قبلهم فكان حقًّا على الله نجاتهم كما يقول سبحانه ﴿ كتب على نفسه الرحمة ﴾[4] .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

يقول الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لنبيه قل يا محمد للناس إن كنتم فى شك فيما أوحاه الله إلى وصحة ما جئتكم به من الدين الحنيف فإنى لا أعبد الذى تعبدون من الأصنام والأوثان التى هى شرك بالله ولكن أعبد الله ربًّا واحدًا لا شريك له . وإن كانت آلهتكم المدّعاة على حق ، فلتنصركم علينا ، فإنى أعبد الذى فطرنى على الإيمان والإسلام والتوحيد له سبحانه ولا أعبد ما لا ينفع ولا يضر ، وإن فعلت ذلك وحاش لله أن أفعل

(١) القصص : ٥٦ .
(٢) آل عمران : ٢٠ .
(٣) الغاشية : ٢١ ـ ٢٢ .
(٤) الأنعام : ١٢ .

معه ذلك فأنا إذن غير موفق إلى العبادة الصحيحة فى موضعها الصحيح . كما أمرنى الله سبحانه أن أتوجه إليه بوجهى وحقيقة نفسى وقلبى ، فأحصر حقيقة وجودى فى أن أتعرف بها على الله لأكون حنيفًا مسلمًا وأنجوَ من عذاب شديد وأكون من الموحدين .

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

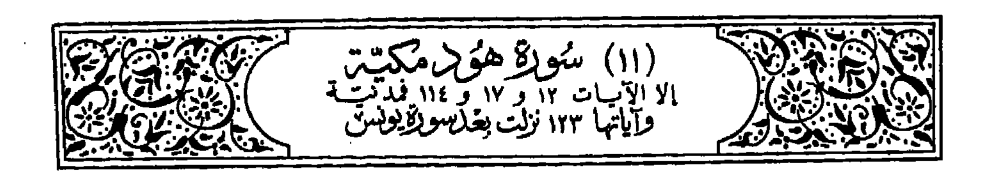
اعلموا أن الضار والنافع هو الله ، فإن أصابكم ضر فلا دافع له إلا الله ولا كاشف له إلا هو ، وإن أصابكم خير منه أيضًا فلن يستطيع أحد أن يرده عنكم . وهو سبحانه ينعم بفضله على من يشاء من عباده فيجعلهم على طريق الإسلام . وهو الغفور الرحيم لمن استقام على الكتاب والسنة وهما معًا الطريق المؤدى إلى الجنة .

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

قل يا محمد لكل الناس قد جاءكم من ربكم الحق واضحًا بيّنًا ، فالسعادة والفلاح لمن اهتدى بالقرآن والسنة . فمن كان القرآن هديه والسنة بيانه فقد اهتدى إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، وأما من فارق نوره وتعاليمه فقد فارق الحق وحاد عن الطريق الذى به يكون لقاء الله ، والذى يضل طريق الإسلام فقد أورد نفسه المهالك .

فاتبع يا محمد ما يوحى به إليك ربك . تعايش مع القرآن واتبع الحق الذى به وعليه تقوم الساعة حتى يحكم الله بينك وبين الذين لم يستجيبوا لك واتبع ما يوحى إليك من القرآن واصبر حتى يحكم الله والله خير الحاكمين .

والحمد لله رب العالمين .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى
لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾
إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

تكلمنا فى أول سورة البقرة عن الحروف المقطعة فى أوائل السور . ﴿ **كتاب أحكمت آياته** ﴾ لعظم شأنه وجليل منزلته ، لا يتخلله باطل ولا يحمل إلا الحق والنور الذى يهدى البشرية إلى طريقها المستقيم .

إنها بحق آيات من كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير** ﴾ أبلغكم مقاصده العالية وهى توحيد الله لا نعبد غيره ولا نحتكم إلا إليه بما أنزل ، وقد شرع وبيّن فى ذلك الكتاب الذى فصلت آياته .

ولما كان رسول الله هو النذير والبشير بهذا الكتاب : فقد ألهمه الله السنة ليبين لنا به ما دق وما غمض من أحكام التشريع والجائز وغير الجائز ، حصيلة غنية من لدن حكيم خبير . فلا يجوز لكم أن تعبدوا غيره ولا أن تتلقوا من سواه ، فإن فعلتم فتوبوا إليه واستغفروه برجوع قلب وعقل ، واحذروا أن تتولوا عنه ففى ذلك غضب منه سبحانه وإليه مرجعكم ، فأين منه تذهبون وهو سبحانه على كل شىء قدير ؟

سُورَةُ يُونُس

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ
وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾

يقول القرطبى « أخبر عن معاداة المشركين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . و ﴿ يثنون صدورهم ﴾ أى يطوونها على عداوة المسلمين » [(١)].

سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . فاختفوا كما تشاءون إنه عليم بذات الصدور لا تخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، مهما غطوا رءوسهم بثيابهم ومهما تواروا ومهما عقدوا فى قلوبهم من شحناء وعداوة وقد أظهروا خلافه .

۞ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي
كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾

إنه ما من خلق لله فى السموات والأرض إلا وقد ضمن رزقه وقضى أجله فى الدنيا وميعاده فى الآخرة . وما من دابة كبرت أو صغرت فى أقطار الكون المستور والظاهر إلا وقد قضى الله رزقها وأجلها وشقاءها وسعادتها على قدر طاقة قدرتها وحياتها .

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ
لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ
لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ
أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ
بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٨﴾

خلق تعالى السموات والأرض فى ستة أيام وقدر فيها أرزاق الخلق جميعًا ، وكان عرشه على الماء بما شاء وكيف شاء إنه الفعال لما يريد . وما قرره الله سبحانه وتعالى نؤمن به

---

(١) القرطبى ٩/ ٥ .

فهو العليم الخبير وهو على كل شيء قدير وهو سبحانه يبلو عباده بالأوامر والنواهى ثم ينظر أيهم أحسن عملاً وطاعة واستجابة ، فطوبى لمن أطاع أوامر الله وإرشادات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والفوز والسعادة لمن صدق بالبعث بعد الموت واستعد له . ويأيها المنكرون الجاحدون قدرة الله : أبعد ذلك تكفرون وتنكرون البعث والموت والحساب وأنتم تعلمون جيدًا أن الله خلق السموات والأرض ؟ ثم تقولون بعد ذلك ما هذا إلا سحر مبين ؟!!! إن هذا لشيء عجيب . . !!

ثم يخبر الحق بعد ذلك عن مكنون نفوسهم المريضة وأمنهم مكر الله عندما يؤخر عنهم العذاب إلى أجل مسمى ، فإذا هم يغترون بذلك بل يستعجلون هذا العذاب تكذيبًا من عند أنفسهم ويقولون (ما يحبسه) ؟ أى ما يؤخر هذا العذاب عنا ؟ ﴿ **ألا يوم يأتيهم ليس مصروفًا عنهم** ﴾ « قيل : هو قتل المشركين ببدر وقتل جبريل المستهزئين »[1] . والظاهر : أن المراد به العذاب الشامل للكفرة دون ما يختص ببعض منهم ، على أنه لم يكن موعودًا يستعجل منه المجرمون [2] . ومعنى ﴿ **وحاق بهم** ﴾ أى نزل وأحاط . أما ﴿ **أمة** ﴾ فى الآية : فهى بمعنى أجل أو مدة مضروبة .

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

إن الإنسان لينسى ما أنعم الله عليه من نعم فى سعة الرزق والصحة والجاه والأزواج والأولاد إذا ما اختبره الله سبحانه وتعالى فى ماله أو نفسه أو أولاده أو جاهه وساعتها يصبح يئوسًا كفورًا لم يذكر إلا ساعة شدته وأزمته .

ثم إذا أذاقه الله صحة ورخاء وسعة فى الرزق وفرج كربه بعد ضراء مسته إذا به يفرح

---

(١) القرطبى : ٩/ ١٠ .

(٢) تفسير أبو السعود ٣/ ١٤ .

« وينسى شكر الله عليه » . [1] وهكذا الإنسان دائمًا : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلّين** ﴾ [2].

فالإنسان خلق هلوعا ضعيفا يفرح ويحزن ، سريع النقم والغضب وشديد الفرح إلا من رحم الله من الذين صبروا على الشدائد والذين يعتقدون أن أمرهم كله خير إن أصابهم سراء شكروا فكان خيرًا لهم وإن أصابتهم ضراء صبروا فكان خيرًا لهم .

وعن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « عجبًا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له » [3] .

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وبثّ فيه من خصائص الطباع ما به يرضى ويُسَرّ وما به يغضب ويقنط . لكن مع الإيمان والتخلق بالخلق الحسن والصبر والتحمل يرتفع الإنسان إلى مراتب الصابرين فيرضى بالقضاء ويصبر فى الشدة ويشكر فى النعمة ويحسن العبودية لله مع حسن التبصر فيما أنعم به الحق عليه وجلّ قوله تعالى : ﴿ **والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ [4]ـ أولئك هم المؤمنون وأولئك لهم مغفرة وأجر كبير .

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾

لقد اعتاد الكفار التحدى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولذا يرشد الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يضيق صدره بهم وأن لا يصده غباؤهم عن الاستمرار فى الدعوة إلى الله ودعوتهم إلى العزيز الغفار .

---

(١) القرطبى ٩/ ١١ .
(٢) المعارج : ١٩ ـ ٢٢ .
(٣) رواه مسلم كتاب الزهد باب « المؤمن أمره كله خير » .
(٤) سورة العصر .

فلا يشغلك يا محمد قولهم : « إنك افتريت هذا القرآن أو اختلقته » إنهم لايبصرون الحق ولا يعقلونه . بل لا يقولون إلا بهتانًا .

قل لهم يا محمد : أيها الضالون المكذبون هاتوا عشر سور مثل سور هذا القرآن فى حسن صياغته وسبكه وبيانه وعلى نظم بلاغته ودقته وفصاحته وإحكامه وإتقانه . ولم ولن تستطيعوا أن تأتوا بذلك ولو اجتمع أعوانكم وكهنتكم وكان بعضهم لبعض ظهيرًا . فإن أصروا على باطل دعواهم ولم يستجيبوا لكم فاعلموا أن الله الذى أنزل على نبيه الكتاب هو القادر على أن يرد كيد المبطلين وأن لا إله إلا الله فهل أنتم مسلمون .

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

إن الناس فريقان : فريق لم يؤمن بالله العزيز الحكيم وعاش يجمع الدنيا وحسبه منها زينتها وزخرفها وبهرجها يقولون إن هى إلا حياتنا الدنيا . إن هؤلاء قد وفى الله لهم فى الدنيا كل ما سعوا إليه من زخرف الحياة وجاهها . أما الفريق الثانى فهو الفريق الذى يريد الآخرة ويسعى لها فى الدنيا وهو مؤمن . وهو الفريق الفائز برضوان الله وجنته **﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾**[1] .

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

---

(١) الإسراء : ١٨ـ٢١ .

حقًّا ، ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون ﴾ [١] . هل الذى هو على كتاب الله وأمره ونهيه مستقيم . وبسنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ملتزم كمن لاهمّ له ولا شاغل إلا الدنيا وزينتها وزخرفها الباطل ؟! وقيل إن المراد بالشاهد فى الآية هو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقيل جبريل . ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ أى « ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض ومشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن»[٢]. فالنار موعده .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من سمع بى من أمتى أو يهودى أو نصرانى فلم يؤمن بى ، لم يدخل الجنة » [٣] .

فلا تكن فى مرية أى فى شكٍ مما أنزلنا عليك إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لايؤمنون . وحقًّا قوله تعالى ﴿ وإن تُطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ [٤] .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ
ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾
ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ
لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَۘ يُضَـٰعَفُ
لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

إنه لا أحد أظلم منهم بسبب افترائهم الكذب على الله وزعمهم أن الله له شريك وولد واتخذوا الأصنام شفعاء لهم عند الله . أولئك يعرضون على ربهم يوم القيامة للحساب والجزاء وتشهد عليهم الأشهاد ، أى الملائكة ، وقيل : الأنبياء والرسل .

نعم ألا لعنة الله على الظالمين الذين كانوا يصدون الناس عن طريق الإيمان والهدى والطاعة ويريدونها عوجا أى غير معتدلة أولئك لم يكونوا معجزين « أى فائتين من

---

(١) القلم : ٣٥ـ٣٦ . (٢) ابن كثير ٢/ ٤٤٠ .
(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى موسى الأشعرى .
(٤) الأنعام : ١١٦ .

عذاب الله » [1] لأنه هو الفعال ذو القوة المتين . إن أولياءهم ساعة العذاب لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ، فماذا يملكون لهم ؟ إن الذين حادوا عن صراط الله يضاعف لهم العذاب « وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم بل كانوا صمًّا عن سماع الحق عميًا عن اتباعه » [2] .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾

إن هؤلاء قد خسروا أنفسهم بضلالهم عن طريق الله وضلّ عنهم أى « ذهب عنهم الأنداد والأصنام فلم تُجْدِ عنهم شيئًا بل ضرتهم كل الضرر » [3] . وجل قوله سبحانه ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [4] وأيضًا قوله ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾ [5]. لذلك يخبرنا الحق أن هؤلاء الناس هم أخسر الناس فئةً وأخسرهم صفقة لأنهم خسروا رضوان الله وجنته وتبرأ منهم الذين اتبعوهم وهم بدورهم تبرءوا من الذين اتبِعُوا .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم فى طريق مغايرٍ لطريق الذين خسروا أنفسهم . إن هـؤلاء (أى المؤمنين) قد أخبتـوا قلوبهم لله وخشعـت أفئدتهم وسكنت واطمأنت إلى ربها فاستوعبت أمره ففعلته وعقلت نهيه فاجتنبته . والعبد المؤمن يحب كل ما أمر الله به فيفعله فهو حبيب مطاع ، وبذلك كانوا هم أصحاب الجنة وفيها خالدون .

---

(١) القرطبى ٩/ ١٩ .
(٢) ابن كثير ٢/ ٤٤١ .
(٣) ابن كثير ٢/ ٤٤١ .
(٤) الأحقاف : ٦ .
(٥) مريم : ٨١ـ٨٢ .

وكيف يسوّى عاقل بين المؤمنين والكافرين . مثل الفريقين كالأعمى ، وهو الكافر الذى غمت على قلبه ظلمة حجبته عن معرفة الحق ، وكالبصير وهو المؤمن الذى شاهد الحق قلبه فآمن به . كيف يسوى الله بين الأصم الذى طبع الله على أذنيه وبين السميع الذى استمع بقلبه مع أذنيه فاستطاع أن يفرق بين الحق والباطل ، هل يستوى الفريقان عند ربك ؟! كلا !!

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

يذكر الحق سبحانه وتعالى أنه قد أرسل نوحا عليه السلام إلى قومه فقال لهم إنى لكم نذير مبين ، أدعوكم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن أطعتم أمرى فإنى أبشركم بأن الله سيرضى عنكم وسوف ينجيكم سبحانه وتعالى من عذاب يوم أليم لا ينجو من هلاكه إلا من آمن بالله ثم برسله واعتقد أن الدنيا ساعة وبعدها حساب شديد وعذاب أليم . ولكن الملأ من علية قومه أجابوه فى غطرسة وكبرياء : يا نوح ما نرى أحدًا اتبعك إلا من هم أراذلنا ، أى « أخساؤنا وسقطنا وسفلتنا » [1] وعيّروا نوحًا بأن الفقراء هم الذين صدقوه . ودائمًا لا يقاوم الحق إلا أصحابُ الدنيا المالكون لها خوفًا على دنياهم . والإنسان عند الله يُقدر بما حمل قلبه من إيمان ووعى عقله من الحق . أما المال فعرض زائل ومتروك فى الدنيا عند الموت وصاحبه يحاسب عليه . ولجهل الأغنياء من قوم نوح بحقيقة الأمر كان ردهم على نوح هو دليل جهلهم بالحق . فلو كُشف عن قلوبهم وعقولهم لوُجدوا أنهم هم الأراذل وأنهم هم بادئوا الرأى دونما نظر أو تفكر أو تعقل ، وأن الفضل والصواب والعقل والإنسانية إنما كل ذلك لأصحاب نوح الذين لبّوا نداءه .

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٣ .

أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾
وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ
لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

قال نوح لجماعة المتكبرين من قومه : أرأيتم أننى أكذب عليكم؟! وكيف بأمركم عندما تنكشف الحقيقة وتعلمون أنكم أنتم الضالون وأننى على بينة ويقين من ربى وأتانى رحمةً من عنده ؟ إنكم تعاليتم على الحق وليس على أن ألزمكم به ، ولكن أمرت أن أبلغكم إياه ، ومادمتم له كارهين فإلى الله مرجعكم وعليه حسابكم . وياقوم اعلموا أنى لا أسالكم على ما أهديكم إليه وأدعوكم لاعتقاده أجرًا ، إنما أجرى على الله ربّ العالمين . وأمّا الذين صدّقوا برسالتى ما أنا بطاردهم ، إنهم أمتى وإنهم ملاقو الله وسيسألنى عنهم فلن أخذلهم ومن ينصرنى من الله إن طردتهم ما أراكم إلا قومًا تجهلون ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ (١) .

ويا قوم لست ملكًا ولست بمطلع على الغيب ولا أملك التصرف فى خزائن الله فأنا بشر مثلكم ، ولا أقول للذين تزدريهم أعينكم أى تحقرونهم وتكرهونهم إنهم ليس لهمثواب عند الله على أعمالهم فالله أعلم بهم وبما فى نفوسهم ، فإن قلتُ هذا الذى تريدونه فأنا إذن من الظالمين .

قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ
نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ

---

(١) الأنعام : ٥٢ .

تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

لقد استعجل قوم نوح عذاب الله لهم ، فقالوا لنوح عليه السلام قد أعدت علينا القول مرارًا وهددتنا بما عند ربك من العذاب فأتنا بما وعدت وهددت إن كنت من الصادقين. قال نوح عليه السلام : إن الله إن شاء عذبكم فلستم بمعجزين له إذْ سبحانه الفعال ، واعلموا أننى عبد الله ورسوله أفعلُ ما أومر به وإن لم تنتفعوا بنصيحتى فأمرى إلى الله وأمركم كذلك إليه سبحانه . والله يشاء لعباده الخير فإن عاند العبد ربه فالله على ما يشاء قدير ، وإن عاقبكم وأهلككم بسبب غوايتكم وضلالكم الطريق فعليكم ظلمة غوايتكم وهو ربكم وإليه ترجعون . ربما يقول العرب من قريش إن محمدًا يفترى ما يقول فقل لهم يا محمد إن افتريته فأنا المسئول عنه عند الله الذى يعلم أننى بريء مما ترتكبون فى حقى وحقه سبحانه من الافتراء . وهذه الآية ﴿ أم يقولون افتراه﴾ «كلام معترض فى وسط هذه القصة مؤكد ومقرر لها »[١].

وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

أوحى الله تعالى إلى نوح بأنه لن يؤمن إلا تلك الجماعة التى آمنت بك واتبعتك ، فلا تحزن يا نوح على هؤلاء الضالين المكذبين ، إنهم مهلكون بالغرق ، واصنع الفلك أى السفينة وخذ فيها كل من آمن بك وأهلكَ المؤمنين بك . نعم اصنعها بعين الله وبعلمه وبقدرته هذه هى سفينة النجاة لمن آمن بالله ورسوله وهذا هو عقابى لهم بدعائك عليهم إذْ قال نوحُ ﴿ ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارًا ﴾[٢] ـ ﴿ فدعا ربّه أنى مغلوب فانتصِر﴾[٣].

(١) ابن كثير ٢/ ٤٤٤ . (٢) نوح : ٢٦ .
(٣) القمر : ١٠ .

وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا
فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ
عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾

أمر الله نوحا أن يصنع السفينة وكلما مرت عليه جماعة من قومه سخروا منه إذْ إنه يصنع سفينة فى مكان غير جائز لصنعها به وهو الجبل وهم لا يدرون مكر الله وآمنون من عذابه ، لكنّ نوحًا والذين معه هم الساخرون منهم حقيقة لأنهم يعلمون مصير هؤلاء المجرمين قائلين لهم ﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾ .

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ
إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

لقد جاء وعد الله لنوح ففار التنور . والتنور : وردت فيه أقوال عديدة منها أنه وجه الأرض ، أو هو أماكن النار من الحجارة ، أو هو أعالى الأرض كما أوردها العلماء [١] .
وجاء أمر الله لنوح أن يحمل فى السفينة : من كل زوجين اثنين حتى يتم الاحتفاظ بنسل المخلوقات بعد الطوفان ، ثم الأهل المؤمنين بنوح إلا من سبق عليه القول منهم ، ثم من آمن كذلك ، أى احملهم أيضًا فى السفينة ، ولكنه لم يؤمن مع نوح إلا قليل .
يقول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : آمن من قومه ثمانون إنسانًا منهم ثلاثة من بنيه سام وحام ويافث وثلاث كنائن [٢] له .

۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى
بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب
مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ

(١) انظر : هذه الأقوال فى تفسير القرطبى ٩/ ٣٣ وما بعدها .
(٢) كنائن : جمع كَنّة وهى امرأة الابن أو الأخ ـ انظر القرطبى ٩/ ٣٥ .

لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ
ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ
ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

يخبر الله عن نوح عليه السلام أنه قال لمن ركب معه وآمنوا به اركبوا فيها باسم الله سيرها ومنتهاها إنى ربى لغفور رحيم . وجرت السفينة بهم فى موج يشبه الجبال لقوته وغزارته وساعتها نادى نوح ابنه يا بنى اركب معنا . قيل إنه كان كافرًا واسمه كنعان وقيل يام وكان فى معزل من دين أبيه (١) .

مازال نوح ينادى ابنه يا ولدى اليوم لا نجاة إلا لمن آمن وركب السفينة . وقال الولد العاق الكافر سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . وألحّ نوح على ولده بأنه لا عاصم اليوم من أمر الله ولكن ظلمةَ الكفر خيمت على الولد وألحَّت عليه فلم يُجب أباه فكان من المهلكين .

وهنا قيل يا أرض ابلعى ما أخرجته من ماء وأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك ، وغيض الماء أى شرع فى النقص . وتحققت دعوة نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارًا ، فلم يبق منهم شىء ، استجابة لدعوة نوح عليه السلام . واستوت السفينة على الجودى وهو جبل بالقرب من إقليم الموصل بالعراق . وقيل إنه « جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق وتطاولت فغرقت ، وتواضع هو لله عزّ وجل فلم يغرق وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام » (٢) .

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ
لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ
أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

(١) انظر القرطبى ٩/٣٨ .
(٢) انظر ابن كثير ٢/٤٤٦ .

يحكى القرآن الكريم بعض ما حدث قبل غرق القوم : إذْ نادى نوح ربّه إن ابنى من أهلى فنجّه . ظنًّا منه أن ابنه من أهله وداخل فى وعد الله فى قوله ﴿ **احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك** ﴾ ولذلك قال له نوح ﴿ **وإن وعدك الحق** ﴾ ويرد الله عليه : لا يانوح إن ابنك ﴿ **ليس من أهلك إنه عمل غير صالح** ﴾ . ولم يقتصر الحق على ذلك بل شرح لنوح القضية فليس لك وإن كنت نبيًّا ورسولاً أن تسألنى ما ليس من حق العبد فاحذر يا نوح أن تفعل ذلك فتكون من الجاهلين (أى الآثمين) .

يقول القرطبى « فى هذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين » . (١)

وهنا سلم نوح النبى الأمر لربه قائلاً ﴿ **ربِّ إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين** ﴾ . وهذا الموقف من نوح يعلن عن عظمة العصمة فى الأنبياء .

قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

أمرٌ من الله بالهبوط من السفينة إلى الأرض ، والملائكة تقول لهم اهبطوا بسلام منّا وأمن فلا تخف يا نوح إن عناية الله معك وذلك السلام منا تصحبه بركاتٌ عليك وعلى أمم ممن معك . ويقول العلماء إنه قد دخل فى هذا كلّ مؤمن إلى يوم القيامة ، وأيضًا دخل كل كافر فى ﴿ **وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾ .

تلك من أنباء الغيب نقصها عليك يا محمد ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل القرآن ، فاصبر على أمر تبليغ رسالتك وإيذاء قومك لك إن العاقبة للمتقين الخائفين من لقاء الله العاملين بكتاب الله وسنة رسوله .

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٤٧ .

فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾

إن فى قوله سبحانه ﴿ أخاهم هودا ﴾ معنى يرقق القلب ويزيل الصدأ من النفوس ، فماذا فعل معهم أخوهم هود ؟ قال لهم : يا قومى اعبدوا الله ليس لكم إله غيره هو ربكم وإليه مرجعكم . وإنكم لو عبدتم غير الله مالا ينفعكم ولا يضركم تكونون مفترين على الله الذى خلقكم فأطعمكم فستركم . وقال لهم أيضًا : يا قومى لا أسألكم على دعوتى إياكم إلى عبادة الله الواحد أجرًا ، إن أجرى إلا على الذى فطرنى والذى فطر السموات والأرض غير محتاج إليكم . فيا قومى راجعوا أنفسكم وتوبوا إليه وامتثلوا لأوامره يرسل السماء عليكم مدرارًا بسبب توبتكم واستغفاركم إياه .

قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ
بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾

لقد تمادى قوم هود فى غيهم وضلالهم فقالوا له : نحن لن نترك آلهتنا بمجرد طلبك ذلك منا وما نحن لك بمؤمنين . وأنت لم تأتنا ببينةٍ أى حجة أو برهان على ما تدعيه . بل ازدادوا فى تماديهم على هود عليه السلام فرموه بالجنون وقالوا له فى سخرية واستهزاء : لقد مسك الجنون ، إذْ غضبت آلهتنا عليك فأصابك ما أصابك بسبب « نهيك عن عبادتها وعيبك لها » .[1] ولكن هودًا أجابهم فى ثبات وثقة قائلاً لهم : إنى أشهد الله واشهدوا أنتم كذلك أننى بريء مما تشركون مع الله غيره . فكل ما تتعبدون به لغير الله أنا ومن اتبعنى برآء منه ولن نقركم على شرككم . ثم بإصرارهم على كفرهم ، قال لهم هود فكيدونى جميعًا بما ملكتم من حطام دنياكم أنتم وأصنامكم التى تعبدونها ثم لاتؤخرون ، وهذا كمال الثقة فى الله وبالله .

---

(١) ابن كثير ٢/ ٤٤٩ .

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾

إنى توكلت على الله ربى الذى خلق كل شىء الذى ما من دابة فى الأرض إلا وقد قدر لها رزقها وحياتها إن ربى على صراط مستقيم « لا خلل فى تدبيره ولا تفاوت فى خلقه سبحانه » . [1] ويا قومى ، إن تتولوا عما جئتكم به فقد ثبتت عليكم الحجة وأقيم عليكم البرهان والله قادر على أن يستخلف قومًا غيركم طائعين ذاكرين الله موحدين له عابدين إياه إن ربى على كل شىء حفيظ .

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ
غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ
عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةٗ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدٗا
لِّعَادٖ قَوْمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾

وجاء أمر الله فنصر هودًا ومن معه وأهلك الكافرين ، وأصبحت عاد عبرة لما جحدوا بآيات الله وعصوا رسله وكانوا من أتباع الجبابرة والمعاندين لأمر الله ورسله وكلماته .

« وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا وينادى عليهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد » [2] .

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾

أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه صالحًا إلى قوم ثمود ، وكانوا يسكنون أرضًا بين تبوك

---

(١) القرطبى ٩/ ٥٣ . (٢) ابن كثير ٢/ ٤٥٠ .

والمدينة فى صحراء الحجاز . وقال لهم صالح إننى رسول من رب العالمين الذى خلق كل شىء ، ومهمتى فيكم أن أدعوكم إليه وأعرفكم عليه ليس لكم إله غيره فهو الذى خلق ذلك العالم أرضه وسماءه وأنشأكم من الأرض واستعمركم فيها لتعمروها ، فواجبكم أن تشكروه على إيجادكم وتستغفروه على تقصيركم فى عبادته فاستغفروا ربكم وتوبوا إليه إن ربى قريب مجيب .

قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾

أما الآن يا صالح وقد دعوتنا إلى هجر ما كان يعبد آباؤنا ، فإننا فى شك من صحة ما تدعونا إليه ولدينا ريب فيه . تدعونا إلى ذلك وقد كنّا نأمل فيك أن تكون سيدًا علينا قبل مجيئك بهذا البيان ، فانقطع الآن رجاؤنا منك وأملنا فيك . فيرد عليهم صالح قائلا : يا قومى أنا على يقين من ربى ﴿ وآتانى منه رحمة ﴾ أى نبوة ورسالة . وقيل الهداية وقيل الإيمان والإسلام . ﴿فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ أى تضليل وإبعاد عن طريق الله .

وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

قال صالح عليه السلام : يا آل ثمود هذه هى الناقة التى طلبتم إخراجها من الجبل ، فأخرجناها لكم بأمر الله من الجبل والصخور الصماء آية خارقة للعادة لتشهدوا

فيها قدرة الحق سبحانه وتعالى غير المحدودة ، لا تمسوها بسوء . إنها آية الله لكم اتركوها ترعى فى حشائش الأرض لأنكم إذا فعلتم فسيأخذكم الله بعذاب أليم لا تقدرون عليه ويكون به هلاككم . ولكنهم لم يسمعوا فعقروها أى قتلوها ، فأبلغهم ، صالح أن يتمتعوا فى دارهم ثلاثة أيام انتظارًا للهلاك الواقع عليهم من الله ، وذلك نفسه عذاب سابق للعذاب . وجاء غضب الله وهزّت الصواعق الأرض من تحتهم وزلزلت الأرض زلزالها وأخذت الصيحةُ الذين ظلموا وحاربوا الله وقاوموا نبيه صالحًا فأهلكهم الحق بما ظلموا وأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، صورًا هشةً كأنها أجساد خاوية ، فإن اقتربتَ منها أو لا مستّها فكأنها هشيم تذروه الرياح ، وهكذا كل من تكبر على أن يدين لله ربّ العالمين ووعد الله غير مكذوب .

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾

إن الملائكة جاءت تبشر إبراهيم وسلمت عليه ورحب بهم إبراهيم ، ثم انصرف إلى داخل بيته فجهز عجلاً حينذًا (أى مشويًّا) وقدمه تحية لضيوفه ودعاهم ليأكلوا ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى الطعام . ولما لم يستجيبوا لدعوة إبراهيم خاف منهم فقالت له الملائكة يا إبراهيم إنا رسل ربك فلا تخف إنا مرسلون من الله إلى قوم لوط لنذيقهم جزاء إعراضهم عن الحق الذى جاء به لوط .

وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

لقد بشرت الملائكة امرأة إبراهيم سارة بأنها ستلد لإبراهيم إسحاق وسيلد إسحاق يعقوب ، لأنها كما يقول القرطبى « لما ولد لإبراهيم إسماعيل من هاجر تمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست لكبر سنها فبشرت بولد يكون نبيًّا ويلد نبيًّا فكان هذا بشارة لها بأن

ترى ولد ولدها » . [1] وقيل إنها حاضت فى هذه الساعة ، وهذا معنى قوله تعالى ضحكت . ثم انصرفت الملائكة إلى قوم لوط فأهلك الله الكافرين بهم . وهذا سيتبين لنا بعد قليل .

قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾

حقًّا ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ﴾[2] فلا تعجبى من هذا يا سارة إنها هى إرادة الله وقدرته فإن الله على ما يشاء قدير ، رحمة الله عليكم يأهل البيت وبركاته .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾

لما انتهت مهمة الملائكة مع إبراهيم عليه السلام ذهبوا إلى قوم لوط فى هيئة الآدميين وعليهم وقار ورهبة ووجاهة وذلك بعد أن أخبروا إبراهيم عليه السلام بما يريدون فعله ، ودار حوار طويل بين إبراهيم عليه السلام وبين الملائكة ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب﴾. ولحلمه : كان يأسَى على ما فات قوم لوط من الإيمان . ولأنه كان يرجع إلى الله تعالى فى الأمور كلها : رغب فى إنقاذهم خوفًا على المسلمين فيهم [3]، ولكن قال له ربه سبحانه ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ الجدال ، إن عذابى نازل بهم لا محالة ، وفى الوقت نفسه : ﴿ نحن أعلم ﴾ بالمسلم فيهم ﴿ لننجينه ﴾ [4]وانتهى الحوار ، وكان ما أراد الله .

وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ

---

(١) القرطبى ٩/٦٩ .
(٢) يس : ٨٢ .
(٣) انظر : القرطبى ٩/ ٧٢ .
(٤) انظر سورة العنكبوت ، الآيات : ٢٨ ـ ٣٥ .

بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾

وفى بجاحة من قوم لوط ووقاحة فى أخلاقهم ، أسرعوا إلى ضيوف لوط عليه السلام بنية الاعتداء عليهم وهم الملائكة الأطهار . فخاف لوط وتأزمت نفسه وقال لقومه لاتفضحونى فى ضيفى وعندكم بناتى ـ ويقصد بنات القوم « إذ نبى القوم أب لهم »(١). لقول الله تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ (٢) وهو أب لهم ، ـ يا قومى هؤلاء بناتى هنّ أطهر لكم بالزواج . ولكنْ أجاب قومُه بأن رغبتهم القبيحة المنكرة السيئة ليست متوجهة إلى النساء ولكن للذكور ، وبذلك سيعتدون على ضيفه . ولوط فى حيرة ودهشة من صنيع القوم الفاحش المنكر وهو يقول أليس منكم رجل رشيد؟! أى شديد يأمر بالمعروف وينكر هذا المنكر .

قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾

يرد هؤلاء القوم الكافرون « إنك لتعلم أنه لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن . . وليس لنا غرض إلا فى الذكور وأنت تعلم ذلك فأيّ حاجة فى تكرار القول علينا . . فإنما نريد الرجال » (٣) . ويئس لوط منهم وتمنى عونا على ردهم وتمنى أنصارًا يرد بها كيد هؤلاء أهل الفحش .

قَالُوا يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾

---

(١) القرطبى ٩/ ٧٦ .

(٢) الأحزاب ٦ .

(٣) ابن كثير ٢/ ٤٥٣ .

قلنا إن لوطًا يئس من قومه وتمنى العون والأنصار ليستعين بهما عليهم ، أو يأوى إلى ركن شديد ينضوى عنده . « ويروى أن الملائكة وجدت عليه حين قال هذه الكلمات ، وقالوا : إن ركنك لشديد »[1] وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « رحمة الله على لوط إن كان ليأوى إلى ركن شديد إذ قال ﴿ لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ فما بعث الله من بعده نبيًا إلا فى ذروة من قومه »[2] .

عندئذ قالت الملائكة للوط ـ عليه السلام ـ يا نبى الله : إننا بأمر الله مهلكو هذه القرية بمن فيها ، فخذ من آمن بك وأهلك المؤمنين بك كذلك إلا امرأتك فإنها من الهالكين لكونها من الضالين عن طريق الحق . وإن نهاية هلاكهم الصبح ، فأسرع واخرج من القرية قبل أن يقع عليها غضب الله سبحانه . وخرج لوط ومن معه من المؤمنين وكانوا قلة قليلة حتى جاء أمر الله .

فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

جاء أمر الله فكانت القرية مع الصباح منسوفة بمن فيها فقد سلط الله عليهم حجارة مسومةً أى مسمومة . والحجارة كانت معدة لذلك . وقيل يتبع بعضها بعضًا فى نزولها عليهم ، ومسوّمة أى « معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذى ينزل عليه »[3] .

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

---

(١) القرطبى ٩/ ٧٨ .

(٢) رواه الترمذى كتاب التفسير باب ومن سورة يوسف ، وقال : حديث حسن .

(٣) ابن كثير ٢/ ٤٥٥ .

وهؤلاء قوم شعيب كانوا يسكنون ما بين بلاد الشام والحجاز أرسل الله إليهم نبيه شعيبًا ، وكان عليه السلام من أوسط أنسابهم وعلى خصال حميدة وخلق كريم شهرته بينهم الصدق والأمانة والعدل فى نفسه وغيره . أرسله الله فى قومه وهم قبيلة مدين وكانوا على كثرة فى المال والجاه غير أنهم مع ذلك كانوا يطففون فى الميزان ﴿ **إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ [1] فقال لهم شعيب يا قومى لا تنقصوا الكيل ولا الميزان واعدلوا إذا باعكم الناس أو بعتم لهم . ويا قومى اعلموا أن الله خالقكم ورازقكم فيجب عليكم عبادته واتخاذه ربًّا معبودًا واحدًا ولا تشركوا به شيئًا إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط لا تجدون فيه ما توفون به ما ظلمتم وأبخستم وأطففتم ، واعلموا أن ما تبقى لكم من أعمالكم الصالحة التى تريدون بها وجه الله هى التى لكم من دنياكم عند خروجكم منها . ﴿ **بقية الله خير لكم** ﴾ أى « ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس » [2] . وحقًّا ﴿ **قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ [3] .

قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ
أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ
مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ
تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

إن قوم شعيب لم يستطيعوا أن يتلقوا الحق من شعيب بعقول فاقهة مستنيرة ، وقلوب واعية لتقدر على فهم وفقه ما يقول شعيب ، فقالوا له على سبيل السخرية والاستهزاء : ما هذه الصلاة التى تمنعنا من عبادة أصنامنا والتصرف فى أموالنا كيف نشاء ؟!! اعقل يا شعيب لقد عرفناك فينا الحليم الرشيد . قل غير هذا . . قبحهم الله !! فأجاب شعيب : أتعجبون من أمرى إنه حق أوحى به إلى ربى وكلفنى أن أبلغكم إياه لنستقيم

---

(١) المطففين : ٢ ، ٣ .

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٥٦ . (٣) المائدة : ١٠٠ .

معًا على طريقه المستقيم ، وبذلك يرزقنا رزقًا حسنًا طاهرًا من الحرام ، وكل ظلم للناس حرام عند الله . وأنا معكم إن أطعتم أمر الله فلن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه وأفوض الأمر إلى الله وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أرجع وأنيب .

وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ
أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

قال لهم شعيب : يا قومى لا يحملنكم ولا يدفعنكم عداوتكم لى وبغضكم لى على أن تستمروا على ما أنتم عليه من الكفر والمعاصى فيصيبكم مثل ما أصاب من قبلكم من قوم نوح وهود وصالح ولوط ، ثم استغفروا ربكم بسبب ما اقترفتموه من آثام ومعاص إن ربى رحيم ودود لمن تاب ورجع إليه .

قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ
لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ
ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ
وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

قال قوم شعيب له مصرين على ضلالهم : يا شعيب ما نفقه وما نفهم لك قولاً ولن نرضى لك عملاً تأمرنا به ولا نجد حكمة فيما تقول لنا وإنا لنراك فينا ضعيفًا أوحد ، حتى عشيرتك لا تتبعك ، ولولا معزة أهلك وعشيرتك عندنا لرجمناك بالحجارة وما أنت فى هذه الحال بعزيز أو غال علينا حتى نتركك . قال يا قومى : أتتركوننى وتتركون عذابى من أجل أهلى وعشيرتى ، وليس من أجل الله الواحد الذى خلقنا جميعًا وما حملت الأرض وما أقلت؟ إن كلامكم لباطل إن ربى محيط بخلقه وسيريكم ما تستحقون

من العقوبة والغضب . فيا قومى اعملوا على مكانتكم أى طريقتكم وافعلوا ما تشاءون وإنى لعامل بما أمرنى الله وسوف تعلمون من يخزيه الله سبحانه جلت قدرته فارتقبوا أمر الله وإنى لمعكم أرقبه وأنا مؤمن به .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

لقد جاء أمرنا وحان موعد القضاء من الله على الظالمين .

يقول ابن كثير « وقوله ﴿ جاثمين ﴾ أى هامدين لا حراك بهم . وذكر ها هنا أنه أتتهم الصيحة وفى الأعراف رجفة وفى الشعراء عذاب يوم الظلّة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها وإنما ذكر فى كل سياق ما يناسبه »(١) .

وهكذا أهلكنا قوم شعيب كأنهم لم يعيشوا فى ديارهم تلك من قبل مثلهم مثل ثمود ، وكذلك تكون نهاية كل فاسق متكبر كافر .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

أرسل الله موسى - عليه السلام - إلى فرعون يدعوه إلى عبادة الله وتوحيده ، ومع موسى سلطان مبين أى قوة من الله تحوط به وتحفظه من كيد الكافرين ، وهذا السلطان كان متمثلاً فى قوة موسى وحجته وإحدى معجزاته وهى العصا . وكان حول فرعون أشراف قومه وقادة جيوشه ومستشاروه وكهّانه . والشعب دائماً فى أمة الكفر مسوق بقوة بطش

---

(١) ابن كثير ٢/٤٥٨ .

الحاكم وزبانيته . واتبع الشعب أمر طاغيته فرعون وهو أمر غير رشيد إذْ يوم القيامة سيساق فرعون وخلفه قومه إلى النار بسبب ذلك . ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ أى « بئس المدخل المدخول » (١).

كما أنه تتنزل عليهم اللعنات فى الدنيا . ﴿ ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ أى بئس العطاء يعطى لهم فيها (٢) .

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ
وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن
شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

تلك يا محمد من أنباء القرى الماضية نقصها عليك ، منها قائم أى عامر وحصيد أى هالك ، وما ظلمناهم عندما أهلكناهم لأن الله سبحانه منزه عن الظلم فهو العدل والحق. ولكننا أهلكناهم بسبب استحقاقهم لهذا الهلاك لأنهم هم أنفسهم ظالمون ولم تغن عنهم أصنامهم التى اتخذوها عوضًا عن الله سبحانه وتعالى عما يصفون فخسروا الدنيا والآخرة معًا ، وهذا هو ما يفعله الله سبحانه بالظالمين .

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ
مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

فكما أهلكنا تلك القرى وأهلَها الظالمين المكذبين كذلك نهلك كل من يشابههم فى أقوالهم وأفعالهم ، إن أخذنا وعقابنا أليم شديد .

وعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » (٣) .

---

(١) القرطبى ٩/ ٩٣ . (٢) المرجع السابق ٩/ ٩٤ .
(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه .

إن فى ذلك لآية لمن عرف الله وآمن بما جاء على يدي رسله من الحق وعمل لليوم الآخر ، ذلك اليوم الذى يجمع فيه كل الناس فهو يوم عظيم تشهده الملائكة والأنبياء والرسل وجميع الخلائق من الإنس والجن والطير يوم لا شك فى إتيانه وما نؤخره إلا من أجل ميعاد ثابت .

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟
فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ
خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾
فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا
لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

إن هذا اليوم يوم عصيب لا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفًّا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾ [1] ـ وجل قوله تعالى ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسًا** ﴾ [2] .

وفى حديث الشفاعة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . . « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلمْ سلمْ » [3] .

وفى ذلك اليوم أيضًا شقى وسعيد ، شقى بما عصى وسعيد بما قدم من الصالحات ﴿ **فريق فى الجنة وفريق فى السعير** ﴾ [4] والأشقياء فى النار ـ لهم فيها زفير وشهيق ـ لايخرجون منها والسعداء فى الجنة أبدًا إلا ما شاء ربك . لكن ما المغزى وراء الاستثناء الموجود وراء كل فريق بقوله تعالى ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ ؟

يقول ابن كثير إن الاستثناء « عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين حتى يشفعوا فى أصحاب الكبائر

---

(١) النبأ : ٣٨ . (٢) طه : ١٠٨ .
(٣) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى والإمام أحمد فى مسنده .
(٤) الشورى : ٧ .

ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين فَتُخْرِجُ من النار من لم يعمل خيرًا قط وقال يومًا لا إله إلا الله »(1).

أما الاستثناء فى الآية التالية ، آية ﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ ، فيقول عنها ابن كثير أيضًا «معنى الاستثناء هاهنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرًا واجبًا بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائمًا »(2).

أما قوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أى غير مقطوع . فالعذاب عذاب خالد أبدى والجنة ﴿خالدين فيها ﴾أبدًا لا موت فيها . بل إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول عن الموت فى الحديث الذى جاء فى الصحيحين « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يأهل الجنة خلود فلا موت ويأهل النار خلود فلا موت » . كما ورد فى الصحيح أيضًا « فيقال يأهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدًا ، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدًا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ، وإن لكم أن تنعموا فلاتبأسوا أبدًا »(3).

فلا تتعجب يا محمد من الباطل الذى يعبدونه ، فليس لهم حجة أو دليل فى عبادتهم غير الله إلا آباؤهم الضالون ، وإن الله موفيهم نصيبهم غير منقوص ولايظلم ربك أحدًا .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

اعلم يا محمد أننا كذلك آتينا موسى الكتاب ، فما كان من قومه بنى إسرائيل إلا أن اختلفوا فى حقيقته وحججه ، ولولا أن الله قضى فيما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى بينهم ولعجل لهم ما يستحقون من العذاب ولكن عذاب الآخرة أشد وأخزى وأخلد وأبقى . واعلم يا محمد أن جميع من كفروا سواء قبل موسى أو بعده أو من قومك : فالنار موعد المعاندين منهم والمصرِّين على ألا يجيبوا ويستجيبوا لدعوة الله وأمره

(1) ابن كثير ٢/ ٤٦٠ . (2) ابن كثير ٢/ ٤٦٠ .

(3) رواه البخارى ومسلم والترمذى والإمام أحمد فى مسنده والدارمى فى سننه .

فربّك لا يخفى عليه شىء والله هو المحصى للأعمال كبيرها وحقيرها ، وكل سيجازى على عمله .

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾

أمر من الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستقيم . وليس معنى ذلك أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن مستقيماً ، فهو عليه الصلاة والسلام فُطر على الاستقامة من طفولته ، ولكن الله سبحانه يشرّفه بأن يأمره ليرقى من رقى إلى أرقى فى مراتب الاستقامة . فاستقم يا محمد واثبت أنت ومن معك على الإيمان والاستقامة ، واثبت وارتق فى نور كمالك المنعَم به عليك من الله . والاستقامة فى الإسلام إنما هى التلبس بروح الدين ليستطيع الإنسان أن يرقى فى سلوكه وأخلاقه ببعض صفات الحق .

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

ولا تركنوا وتميلوا إلى الظالمين « ولا ترضوا بأعمالهم » (١) فتنتقل ظلمة بغيهم إليكم فتتجاوزوا الحد المرسوم للعدل والحق فتُحرموا من نور البصيرة وتمسكم النار ، ولن تجدوا ساعتها من ينقذكم ويخلصكم أو يدفع عنكم عذاب الله ثم لا تنصرون .

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

يأمرنا الحق أن نقيم الصلاة ، وكأن الله يعلمنا أنه لابد من أن نزكى النفس والبدن والقلب والضمير ، وذلك بالاستقامة على ما أمر به ثم بهجران الظالمين . وذلك يلزم بأن نرعى العدل فى أنفسنا وفى الناس وطهارة الضمير والبدن ويقظة القلب مع النفس لنقف بين يدى الحق لنقيم الصلاة ، فالصلاة حضور بين يدى الله الخالق الرازق المحيي المميت الباعث . فأول ما ينظر فى عمل العبد الصلاة فإن صلحت فلصاحبها البشرى

---

(١) رأى ابن عباس أورده ابن كثير ٢/ ٤٦١ .

بأن كلّ شىء بعدها مقبول لأنها ميزان الأعمال . فالصادق فى صلاته لا يكذب خارجها والمتطهر لصلاته يخاف أن يمسه نجس والحاضر فى صلاته قد تمتع بالحضور فى حضرة الله فشاهد أنوار الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فعاش الاستقامة بين يدى الخالق فذاق طعم شراب المحبين واستمع إلى ربّ العالمين وأخذ طريقه مع الذين يقيمون الصلاة بحضور قلب وخشوع روح ويقظة ضمير فأقام الصلاة بقلبه وروحه وسجدت جوارحه وقالت لا معبود بحق إلا الله .

أما قوله ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ترغيب فى فعل الخيرات بكثرة حتى تُذهب وتمحو ما علق بالإنسان من ذنوب سالفة لقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديث أبى ذر « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »(١) .

واصبر يا محمد على الصلاة ، نظير قوله تعالى ﴿ **وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** ﴾(٢) وقيل : « المعنى واصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى »(٣) إن الله لا يضيع أجر المحسنين .

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

إن الله تبارك وتعالى يقول لأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ : انتبهوا ، فقد كان من القرون من قبلكم أقليّة من خيرة هذه القرون ، تذكر الناس بما عليهم لله وبما أنعم به الله عليهم ، وتبين لهم أنواع الفساد وأعمال الخير وسوء أهل الفساد ومكارم وفوز أهل الخير. وهؤلاء كانوا لا يخيفهم بطش ظالم ولا طغيان فاسد من حكامهم الطغاة . وقد نجينا الذين لم يفتنوا فى أمرنا . أما الذين ظلموا فاتبعوا شهواتهم وملذات الحياة ، هؤلاء قوم مجرمون . وفى هذا تحضيض على إنكار المنكر والأمر بالمعروف وإقراره .

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، والترمذى فى سننه ، والحاكم فى المستدرك عن معاذ والإمام البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى ذر . ورواه ابن عساكر عن أنس رضى الله عنه .

(٢) طه : ١٣٢ .　　(٣) القرطبى ٩/ ١١٣ .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۝١١٧ وَلَوْ شَآءَ
رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ
خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩ ﴾

ما كان الله العدل الحق ليهلك أهل القرى وهم على الحق ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بانحرافهم عن شرائع ربهم وحادوا عن طريق أنبيائهم . ولم يكن « ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط . ودلّ هذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيا من الشرك وإن كان عذاب الشرك فى الآخرة أصعب »[(١)] .

وفى قدرة الله أن يجعل الناس أمة واحدة على فهم واحد ، ولكن ليستبين الحق من الباطل والعامل من العاطل ، فيميّز بين الناس : عرض لهم دينه ، وأنعم عليهم بعقل يميزون به بين الحق والباطل ، فآمن من آمن ، وكفر من كفر ، فحقّ العقاب والثواب . وهى نظير قوله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعًا ﴾[(٢)] أما قوله ﴿ولا يزالون مختلفين ﴾ أى على أديان شتى . ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ « بالإيمان والهدى فإنه لم يختلف »[(٣)] وهو استثناء منقطع من ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ ولكن ثبت فى علم الله ومقدوره أنه سيملأ الجنة بمن يستحق منهم دخولَ الجنة ، وهكذا النار .

وعن أبى هريرة قال : قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة : أنتِ رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار أنتِ عذابى أنتقم بك ممن أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا يسكن فضل الجنة وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها ربّ العزة قدمه فتقول قط قط وعزتك »[(٤)] .

---

(١) القرطبى ٩/ ١١٤ . (٢) يونس : ٩٩ .

(٣) القرطبى ٩/ ١١٤ .

(٤) رواه الإمام البخارى فى صحيحه والإمام أحمد فى مسنده .

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

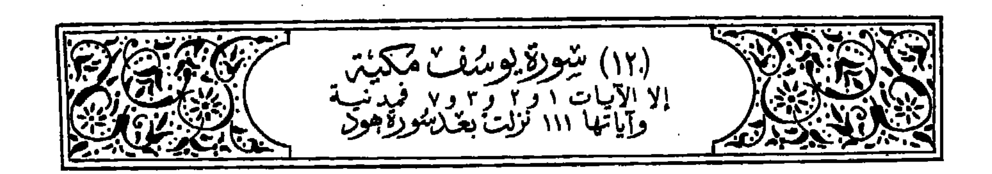
تحمل الرسل باطل الناس وصابروا وصبروا وأتمّ كل نبى رسالته إلى أمته ، حتى جاء محمد - صلى الله عليه وسلم - وحمل فى قلبه ومشاعره كل ما قص الله عليه من أنباء الرسل ، فثبت الله بذلك قلبه واحتمل الحق لمّا جاءه من الله نور قذف به سبحانه فى قلبه ، وأصبح كل ما يحوط بالنبى ويشع حوله حق وموعظة وذكرى للمؤمنين ، كما احتمل الرسول - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا صلف المشركين والكافرين حتى نصر الله الحق أو ماتوا دونه .

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قل يا محمد للذين لا يؤمنون اعملوا على طريقتكم إنا على طريقتنا مع الله وشرعه وهديه ، وانتظروا عقاب الله وردعه لكم إنا منتظرون ﴿ **فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ (١) لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وقد أتم الله وعده لعبده ورسوله . واعلموا أن لله غيب السموات والأرض وإليه سبحانه وتعالى يرجع الأمر كله وإننا عابدون له متوكلون عليه والمؤمنون معنا فى ثبات ومثابرة . واعلموا أيها الظالمون المكذبون أن الله لن يخلف المؤمنين وعده ولن يترك رسوله وما هو سبحانه بغافل عما تعملون أيها الكافرون . فالنبى ومن معه بعين الله ولن يضيع الله عمل المؤمنين . نسألك اللهم ألا تضيع عملنا هباءً منثورًا واجعله خالصًا لوجهك الكريم يا رب العالمين .

---

(١) الأنعام : ١٣٥ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ١ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢﴾

تحدثنا عن الحروف التى بدأت بها السور وذلك فى سورة البقرة . أما المقصود بالكتاب المبين فهو القرآن الكريم ، قد أنزله الله على محمد خاتم المرسلين ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبين فيه للخلق طريق فلاحهم ، لتستقيم الحياة وتعتدل بموازين شرع الله سبحانه وتعالى . والمقصود من سرد قصص ما وقع ليوسف ويعقوب عليهما السلام إنما هو تسلية ومواساة سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصابر ويرابط ومن معه من المؤمنين حتى ينتصر الحق ويخذل الباطل وتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى .

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ
مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ٣﴾

لم يكن عندك علم أو أخبار يا محمد قبل أن نقص عليك هذا القصص المبين ، فعايش من سبقك فى قصصهم حتى يتحقق لك النصر والفوز إن شاء الله . وسميت هذه السورة أحسن القصص لأنه « ليست قصة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة »(١) .

---

(١) القرطبى ٩/ ١٢٠ .

سُورَةُ يُوسُفَ

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

كان لسيدنا يعقوب عليه السلام اثنا عشر رجلاً من الأولاد ، من أربع زوجات ، منهم يوسف . وكان يوسف على قسط وافر من الجمال ، صورة وخلقًا وذكاءً وإدراكًا للأشياء ، يسبق سنّه بكثير .

والمقصود بالشمس : أم يوسف ، أما القمر فهو أبوه يعقوب ، عليه السلام .

استمع يا محمد إلى أحسن القصص . فهذا هو يوسف وهو يقول لأبيه يا أبت إنى رأيت فى نومى ﴿ **أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** ﴾ . ولما كانت تلك الكواكب جمادًا ، ويوسف قد رآها فى هياكل حية واعية للسجود فهو أمر عجيب ، ولكن يعقوب النبى عرف أنه خضوع كائنات من الكون .

وتلك الرؤية من المبشرات بالنبوة المنتظرة ليوسف ، كما سيتبين بعد ذلك .

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

لقد فسّر يعقوب الرؤية بأن يوسف سيبلغ منزلة من منازل القرب لله سبحانه وتعالى .

وهذا إرهاص بنبوة يوسف ، عليه السلام . وتعبير الرؤيا خضوع إخوة يوسف له ، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائدًا بحيث يخرون له ساجدين إجلالا واحترامًا وإكرامًا ، فخشى يعقوب أن يحدّث بهذا المنام أحدا من إخوته فيحسدونه على ذلك ويكيدون له . فحذّره أبوه أن يفسر لإخوته ما رأى ، وذلك لأن الشيطان للإنسان عدوّ مبين ، فربما يوسوس لهم بحسده والتربص به . وأطاع يوسف أباه ولكن إخوة يوسف حسدوه وتربصوا به . وتستغرق الرؤية يعقوب ويعايشها ، ويقرأ فى سطورها مستقبل يوسف ، ويقرأ فى وجوه إخوته وفى نبرات حديثهم عن يوسف ما يشغله عليه ، لأنه يشعر بابنه بينهم لما يتمتع به من جمال الصورة والخلق ونضوج الفكر مع صغر السن .

فاسمع لى يا ولدى وربما تريك الأيام ما لم تر اليوم . إن شأنك يا يوسف لرفيع جليل ، ومستقبلك ينبئ بأن نبوةً تنتظرك مصحوبة بدنيا عريضة بمناصبها وأمجادها . وكان يوسف بين الفينة والفينة يسأل أباه عن جديه إسحاق وإبراهيم ، وكان يعقوب يحكى له عنهما . وهكذا ظلّ يعقوب يلقن ابنه ماضى آبائه وأجداده وهو يطمئن ابنه أن الله اختاره واصطفاه للنبوة المنتظرة وأتم عليه نعمه ، أى بإرساله والإيحاء إليه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق أى جده ووالد جدّه . ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أى هو أعلم حيث يجعل رسالته كما فى آية أخرى .

۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

إن ما فات من قصة يوسف كان بمثابة مقدمة لها فى بلاغة جليلة رائعة . وتبدأ بالإشارة المجملة إلى آيات عجيبة لمن شاء أن يبصر . وهى قصة تصور أروعَ أساليب القصة وسبكها وحبكتها . ولعلّ من يدرس فن القصة يقول : إنها أساس متين لأروع القصص بكل ما يحمل من مقومات فنية من سبك وحبك ورسم محكم للشخصيات حتى تصل أحداث القصة إلى ذروتها ، فنجد الحلّ أمامنا وتنساق العبر والمواعظ التى تجرى وراء مجرى الأحداث .

لقد كان فى قصة يوسف مع إخوته آيات ، أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه . إذ قال إخوة يوسف يحدثون بعضهم البعض : إن يوسف وأخاه بنيامين ـ وكان شقيقه لأمه ـ ﴿ أحبّ إلى أبينا منا ﴾ ونحن جماعة ، وإننا ما نظن غير ذلك . إن أبانا بسبب حبه لهما عنّا لفى ضلال بين واضح . اقتلوا يوسف أو اطرحوه فى أرض بعيدة عن أبيكم لا يعرف مكانه ، وبذلك يصفو أبوكم لكم ويخلص لمحبتكم ، ثم بعد ذلك نتوب ويقبل الله منّا تلك التوبة ونكون صالحين ، أى أنهم أضمروا التوبة قبل الذنب .

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

سُورَةُ يُوسُفَ

اقترح أحد الإخوة بألا يقتلوا يوسف ، بل يلقوه فى أسفل بئر ببيت المقدس يلتقطه بعض السيارة من التجار المتجولين يستعمله فى خدمته . وقد اقترح عليهم هذا الاقتراح بدلاً من أن يصلوا فى عداوته إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كان يريد منه أمرًا لابد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه والتمكين له . فصرفهم الله عنه .

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾

أخذ إخوة يوسف يدبرون الأمر ، فقالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ؟ إننا إخوته ونحن حرّاس له وسنحافظ عليه . أرسله معنا يلعب ويتمتع كأصحاب سنه الصغار . فردّ عليهم أبوهم :

﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

قال يعقوب لأبنائه : إننى أخاف أن تغفلوا عنه ، فيأكله الذئب منكم ، قالوا يا أبانا إن أكل الذئب يوسف ونحن معه فهذا أمر يجعلنا غير جديرين بتحمل المسئولية ، ونحن إذن هالكون عاجزون .

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

لما ذهب إخوة يوسف به إلى الخلاء البعيد ، وأجمعوا رأيهم على أن يجعلوه فى البئر ، أوحى الله إليه يا يوسف لا تخف ستكون فوقهم يومًا ما وستخبرهم بأنهم كانوا كاذبين ظالمين ، وساعتها سيكونون فى موقف الضعف وأنت فى موضع القوة . وفى قوله تعالى ﴿وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب﴾ تعظيم لما فعلوه ، أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل ذلك الجب .

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

لقد تركوا يوسف فى البئر ، وعادوا إلى أبيهم يبكون ويدّعون أن الذئب قد أكل يوسف ، وأنت يا أبانا لن تصدقنا ولو كنّا صادقين . لقد تركناه عند « ثيابنا وأقمشتنا حارسًا لها ، فأكله الذئب . وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به لأنه كان أظهر المخاوف عليه »[1] .

وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

جاءوا إلى أبيهم ومعهم قميص يوسف وعليه دم كذب ، قيل إنه دم جدى أوظبية مدّعين أن الذئب أكل يوسف لما رجعوا إليه .

قال العلماء رحمة الله عليهم فى هذه الآية « لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قرن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التنْيِيبِ[2] ، إذ لا يمكن افتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ، ويسلم القميص من التخريق . ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص ، فلم يجد فيه خرقًا ولا أثرًا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيمًا يأكل يوسف ولا يخرق القميص » ؟![3] .

ولكن يعقوب النبى قال لهم ﴿ بل سوّلت لكم أنفسكم أمرًا ﴾ أى زينت غير الذى تصفونه وتدعونه فصبر جميل أستعين به على ادعائكم الذى اتفقتم عليه، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه .

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

---

(١) القرطبى ٩/ ١٤٨ .

(٢) التنييب : التخريق . نتيجة دخول أنياب الذئب فيه .

(٣) القرطبى ٩/ ١٤٩ .

واعتبرت القافلةُ يوسفَ عليه السلام رزقًا ساقه الله إليها ، واعتبروه بضاعة تباع وتشترى ، ورحلوا به إلى مصر ، وعرضوه على عزيزها ، وكان رجلاً كريمًا وفيه فراسة ، فاستبشر خيرًا بيوسف ، وتوسم فيه الخير والصلاح ، وأحبّه . وبتلك الرأفة التى قذف بها الله فى قلب عزيز مصر اشترى يوسفَ عليه السلام من التجار ، وكان ثمنه قليلاً جدًّا ، فالبائعون والمشترون لا يدرون ولا يعلمون من هو . ولكن الذى اشتراه وضع الله فى قلبه محبة عظيمة ليوسف وتقديرًا . فقد جعله الله يهاب يوسف حتى أكرمه إكرامًا شديدًا .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

قال عزيز مصر الذى اشترى يوسف لامرأته أكرمى مثواه « أى منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن »[1] إننى أشعر بأنه سينفعنا أو نتخذه ولدًا لنا ، وبهذا : مكن الله ليوسف فى الأرض ، أى بلاد مصر ، ليعيش ويتربى فى أرغد عيش وأسمى منزلة ، ويتعلم تعبير الرؤيا ، والله هو الغالب لما سواه ، ولكن الناس لا تعلم حكمته وتلطفه فيما يدبره لخلقه عامتهم وخاصتهم ، ويوسف من عين خاصتهم .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ ولما بلغ ﴾ يوسف عليه السلام ﴿ أشده ﴾ أى استكمل عقله وتم خلقه ، ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ أى حباه الله بالنبوة . حقًّا يجزى الله المحسنين الصابرين على المصائب كصبر يوسف عليه السلام .

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

---

(١) القرطبى ٩/١٥٩ .

هنا بيان وشرح عن الطبيعة البشرية وضعفها . وامرأة العزيز هنا هى محور وقائع الآيات التالية التى تصور قصة حبها ليوسف عليه السلام وأنها قد ضعفت فخانت زوجها وخانت يوسف عليه السلام أيضًا . هذه المرأة ، التى أوصاها زوجها بيوسف وبإكرامه ، تحاصره لتوقعه فى ذنب عظيم ، فهل يستسلم إذْ راودته عن نفسه ودعته إليها، بعد أن غلقت الأبواب وقالت له : هيت لك وهى « لغة عربية تدعوه بها إلى نفسها وهى كلمة حث وإقبال على الأشياء » (1) ، فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، وقال: ﴿معاذ الله﴾ إنى أعوذ به من ذلك ومما تدعوننى إليه . ﴿إنه ربى﴾ يعنى زوجها ـ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير ـ وهو عزيز مصر وسيدى الذى ربانى وأكرمنى فكيف أخونه وأنتِ امرأته ؟!

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ
مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن
يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ
إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ
قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى
لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

إن تلك الآيات التى نحن بصددها ، تزيد الشرح والبيان عن الفطرة البشرية وضعفها، وكيف أن الله لا يترك عبده الذى يحتمى به ويجاهد لطاعته . فامرأة العزيز أحبت يوسف ابتداءً لدماثة خلقه وحسن طباعه ، وفجأة وجد يوسف نفسه محاصرًا ببطش هذه المرأة التى أرادت أن تفتنه . ويوسف لم يخش فى حياته غير الله ، ولم يتوكل على غير الله . ففى البئر تضرع إلى ربه ، وهو فى أيدى التجار الذين انتشلوه من البئر

(1) القرطبى ٩/ ١٦٥ وهو قول مجاهد وغيره .

كانت ثقته فى الله أشد من كل المواقف ، فهل يستسلم يوسف بعد كل هذا ؟ إن الله سبحانه وتعالى يراه ويشهده ، وهو كذلك يشهد نور الله . . فدفعها عنه ، واتجه إلى الباب ليرفع مغاليقه واتبعته زوج العزيز وأخذت بقميصه فمزقته ، فوجدا زوجها عند الباب . وأوجد الله سبحانه وتعالى من حكم بالعدل وأظهر الحقيقة ، بعد أن فُتح الباب ، ووُجد العزيز أمامه هو وزوجته فى صورة غير طبيعية ، حيث أسرعت زوج العزيز تبرئ نفسها مما وقع ، فحوّلت وجه التهمة بسرعة من عليها إلى يوسف موجهة الاتهام له قائلةً لزوجها : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءًا ﴾ وقال يوسف فى ثبات واطمئنان هى راودتنى عن نفسى ودعتنى إليها .

وهنا نرى كيف يدافع الله عن عباده الذين اصطفى ، الموقف شديد الحرج يوسف يقول وقوله حق : ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ وهى تقول وقولها باطل : ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك ﴾ خيانة وغدرًا ؟ فشهد شاهد من أهلها . وفعلاً وجدوا قميصه ـ عليه السلام ـ قدّ من دبر وثبتت براءة يوسف .

وهنا قال لها زوجها استغفرى الله لذنبك هذا بعد أن قال ليوسف ، يا يوسف أعرض عن هذا واضرب عنه صفحًا ولا تذكره لأحد ، خصوصًا أنه « كان لينّ العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ، فقال لها استغفرى لذنبك أى الذى وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ثم قذفه بما هو برىء منه » . [1] إنك كنت من الخاطئين .

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ
إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا
وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ
وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي
فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

---

(١) ابن كثير ٢/ ٤٧٦ .

كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

تناقل خدم القصر وعماله خبر يوسف ـ عليه السلام ـ وسيدة القصر ، حتى شاع فى المدينة وتحدث به الناس . ﴿وقال نسوة فى المدينة﴾ من صاحبات الشأن والمكانة فيها : ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين﴾ . وهكذا شاعت فى مصر أخبار القصر ، وأن امرأة العزيز تطلب من خادمها ما لا يليق بمثلها ، وهو يتبرأ من هذا الفعل ويستعيذ بالله منه .

وسمعت زليخة زوج العزيز ما يدور فى المدينة وأن زوجات وزرائها وكبرائها يلمنها على ما فعلت ، فأرسلت إليهن ، ودعتهن على طعام . وبعد أن تناولن طعام الوليمة أجلستهن فى جلسة وثيرة الزينة والفراش الفخم ، وقدمت لهن التفاح ومعه السكاكين الحادة الآخذة ، ولما أخذت كل واحدة منهن سكينًا لتقطع به التفاح قالت زوجة العزيز: يا يوسف : اخرج عليهن فخرج يوسف ووقع عليه بصرهن ، فلم يدرين وذهب وعيهن ، وأخذت السكاكين فى أيديهن تجول ، ونفوا عنه أن يكون بشرًا من بين الناس وألبسوه لشدة جماله وحسنه لباس الملائكة .

وهنا قالت لهن امرأة العزيز ﴿ فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ .

وهنا قال يوسف فى اطمئنان الواثقين بالله وبأنه سبحانه وتعالى هو الفعال : ﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾ أى من الوقوع فى الفاحشة . وفى ضراعة المخبتين قال يوسف متممًا دعاءه ﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ والله الرءوف الرحيم المطلع قد استجاب لضراعة يوسف الصادقة الصاعدة من سويداء قلبه﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ .

هذا هو موقف يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ موقف صعب اختبره الله فيه ، فكان صادقًا مع الله ومع نفسه ، لما كان فيه من صراع تلك المرأة ذات المنصب والجمال ، التى دعته إليها بكل مغرياتها ، فرفض وخاف الله ربّ العالمين . ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله :

وذكر منهم : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ربّ العالمين »[1].

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول ابن كثير « ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أى إلى مدة ، بعد ما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات - وهى الأدلة - على صدقه فى عفته ونزاهته . وكأنهم - والله أعلم - إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهامًا أنه راودها عن نفسها ، وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير فى آخر المدة ، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نُسب إليه من الخيانة . فلما تقرر ذلك ، خرج وهو نقى العرض صلوات الله عليه وسلامه »[2].

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه ، رأيا مناما وطلبا تعبيره ، فأخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا فى منامهما من حلم فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه . ثم قال وهذا إنما هو من تعليم الله إياى ، لأنى هجرت طريق الكفر والشرك ،

---

(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى والإمام أحمد ، عن أبى هريرة .

ورواه : مسلم والترمذى ، عن أبى سعيد .

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٧٧ .

وسلكت طريق المرسلين عليهم السلام . وهكذا لم يترك يوسف مناسبة يستطيع فيها أن يعلن عن دينه وشريعته دون أن يفعل وإنها سنة الأنبياء ثم ورثتهم .

وهنا يبدأ يوسف عليه السلام منتهزًا فرصة حاجة الرجلين إليه لتفسير ما رأيا ، فيعطيهما درسًا فى التوحيد الخالص لله سبحانه وتعالى ، ويعلن لهما عن دين الإسلام الذى هو طريق عبادة الله بحق لا يتخلله باطل ، فيقول : اعلما معًا أننى على دين أنتم عنه غافلون ، وهو دين الإسلام دين كلّ الأنبياء من لدن آدم عليه السلام حتى جاء أبى إبراهيم رسولاً نبيًّا ، وكذلك جاء من بعده ولداه إسحاق ويعقوب كل منهما نبىّ يبشر بدين أبيه . وإنى كذلك على هذا الدرب أسير وطوبى لمن كان على شريعة الحق شريعة الإسلام .

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾

وقبل أن ينتقل يوسف إلى موضوع الرؤية يقول ﴿ **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ فينتبه الرجلان إلى يوسف ماذا يا يوسف ؟!!! فيلقنهم يوسف معارف التوحيد ، وينبههم إلى أن الله واحد وليس له شركاء ، وأنه خالق الكون وحده ، وأن الذين خسروا الدنيا والآخرة إنما هم الذين اتخذوا مع الله آلهة أخرى أو شركاء تصوروا أن لهم مع الله أمرًا وحكمًا ، وبذلك ضلوا عن أن السلطان والقدرة والفعل لله سبحانه وحده لا شريك له ، وأن ما يعبدون هم وآباؤهم باطل وزور وبهتان ، وأن الحكم لله لا ينبغى أن يكون لشىء أو لأحد آخر ، فليس للخلق حق التشريع ، وليس من حق البشر أن يبتدعوا شريعة من عند أنفسهم يحكمون بها الناس، فالله سبحانه وتعالى هو المشرع والمقرر قوانينَ الحكم بين الناس .

والحكم بما أنزل الله هو رأس العبادة ورأس التوحيد . ومن شرع بنفسه ولنفسه ، فقد

ضلّ سبيل الحق وحاد عن سلامة الطريق ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم** ﴾ أى : القويم ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

وهكذا نشر يوسف عقيدة الإسلام داخل السجن عندما وجد طريقًا إلى ذلك ، فبين للرجلين طريق الخير . . ثم أخذهما إلى حاجتهما ، كما طلبا منه ، بعد أن أعدّ فكرهما للنظر فى سلامة الطريق وهو التوحيد ثم الحكم بما أنزل الله .

يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾

ينادى يوسف الرجلين المستفسريْن عن رؤياهما : يا صاحبى السجن اعلما أن أحدكما سيسقى ربه (أى سيّده الذى يعمل عنده) خمرًا ، أما الآخر فسيقتل ويعلق على الأعواد حتى يأكل الطير من رأسه . قضى الأمر فيما استفتيتمانى فيه .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

وقال يوسف للذى أيقن [١] أنه ناج من الصلب والموت : إذا ذهبت إلى ربك [٢] فاذكر له قصتى . وقد قال يوسف ذلك لهذا الرجل الذى سينجو من الموت خفية من وراء الرجل الآخر « لئلا يشعره أنه المصلوب » [٣] .

ولأن ذلك الطلب لا يصح ليوسف ، فالله هو سنده وهو الذى إليه يلجأ ويطلب منه ، فبسبب ذلك زادت سنو يوسف فى السجن ؛ لأن مثله لا يطلب من غير الله ، ونسى الذى هو ناج أن يذكر قصة يوسف لربّه أى رئيسه أو الملك « وكان من جملة مكائد الشيطان لئلا يخرج نبى الله من السجن » [٤] .

وفعلاً لبث فى السجن بضع سنين .

---

(١) ظنّ فى الآية بمعنى أيقن فى قول أكثر المفسرين انظر القرطبى ٩/ ١٩٤ .

(٢) ربّه فى الآية بمعنى رئيسه وليس الإله المعبود بحق .

(٣) ابن كثير ٢/ ٤٧٩ .

(٤) ابن كثير ٢/ ٤٧٩ .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا
تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا
ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ
سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾
ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

وهكذا لما أراد الله أن يخرج يوسف من السجن سبّب له الأسباب ، فكانت هذه الرؤيا من ملك مصر مما قدر الله أنها كانت سببا لخروج يوسف من السجن معززًا مكرمًا . وذلك أن الملك قص على كبار دولته ما رأى ، وسألهم عن تفسير ذلك ، فلم يعرفوا ، عند ذلك تذكر ساقى الملك ما وصاه به يوسف ، تذكر ذلك بعد أمة أى مدّة ، وأرشدهم إلى أن يوسف هو الذى سينبئهم بتأويل رؤيا الملك . وقصّ عليه الصاحب رؤيا الملك قائلاً له أفتنى فى ذلك لعلى أرجع إلى الناس « أى إلى الملك وأصحابه . . لعلهم يعلمون مكانك من الفضل والعلم ، فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيمًا له » [1] فقال يوسف ـ عليه السلام ـ : تزرعون قمحًا لمدة سبع سنين وشعيرًا كذلك ، بجد واجتهاد متواصل وما حصدتم من القمح فاتركوه فى سنبله أى «فادخروه فى سنبله ليكون أبقى له وأبعد عن إسراع الفساد إليه إلا المقدار الذى تأكلونه ، وليكن قليلاً قليلاً ، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا فى السبع الشداد » [2] . ففسر البقر بالسنين .

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٠٢ . (٢) ابن كثير ٢/ ٤٨٠ .

إذن فالبقرات السمان السبع ، والسنبلات الخضر المخصبات السبع ، هن السنون المخصبات . أما البقرات العجاف والسنبلات اليابسات ، فهن السبع السنين المجدبات . ثم سيأتى بعد ذلك عام يكثر فيه الرخاء وينزل فيه المطر ويكثر الزرع والثمر بالفواكه المختلفة فتأكلونها ثمرًا ناضجًا وعصيرًا شهيًا .

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

لما بلغ تفسيرُ الرؤيا الملك ، علم أن يوسف هذا شخصية خطيرة علمًا وأدبًا ودراية بشئون الحياة وآيات الوجود . فقال ائتونى به أى أخرجوه من السجن ، ليحضر بين يدى فأسمع بنفسى علم ذلك الرجل وأتعرف عليه . فذهب رسول الملك ليوسف وطلب منه أن يحضر بين يدى الملك ، ولكن يوسف فى عزة إيمانه بالله وكرامة نبوته قال : لا أفعل حتى يحقق الملك فى أمر النسوة اللاتى كن مع امرأة العزيز وقطعن أيديهن وما كان من أمر امرأة العزيز معى . ويعود الرسول إلى الملك . ويجمع الملك النسوة ومعهن امرأة العزيز ، ويسألهن الملك : ما خبركن وشأنكن يوم الضيافة ؟ وهنا وقفت زوجة العزيز فى شجاعة وقوة تدل على أنها نادمة على ما فعلت ، فقالت وقالت النسوة معها : ﴿ حاش لله ﴾ أى معاذ الله من ذلك ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ . ثم قالت امرأة العزيز فى شجاعة شاهدةً بالحق : أنا راودته عن نفسه فاعتصم بربه الذى يعبده ، وأعلن فى وثوق بأن ربه سينصره ويحميه من أن يقع فى معصية . ولقد نجاه ربه وهو ربّ وإله كل الكون ، وحصحص [1] الحق وإنه لمن الصادقين .

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾

---

(١) حصحص الحق : انقطع عن الباطل بظهوره وثباته . انظر القرطبى ٢٠٨/٩ .

تقول امرأة العزيز [1] « إنما اعترفت بهذا على نفسى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر . وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ، ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ . . ولست أبرئ نفسى ؛ فإن النفس تتحدث وتتمنى ؛ ولهذا راودته لأن ﴿ النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إن ربى غفور رحيم ﴾ » [2] .

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

بعد أن انتهى الملك من التحقيق فى أمر يوسف والنسوة ، وظهرت براءة يوسف باعتراف امرأة العزيز بالحقيقة ، قال الملك : أحضروا لى يوسف إننى أريده لنفسى ، أى لأجعله من خاصتى وأهل مشورتى . فلما حضر يوسف قال له الملك ﴿ إنك اليوم لدينا مكين ﴾ ذو مكانة وأمانة . فقال له يوسف اجعلنى أمينًا على خزائن ملكك فى الأرض التى أنت مالك لها ﴿ إنى حفيظ عليم ﴾ بما ينمى لك مالك ويقوى ملكك . ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ﴾ أى مصر ، جعلناه حاكمًا فيها أمينًا على ما يملك الملك ، يتبوأ فيها ومنها حيث يشاء ، أى يتصرف فيها كيف شاء . وهكذا ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ « يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا » [3] .

وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ

---

(١) فى قولٍ آخر أن هذا الكلام ليوسف ـ عليه السلام ـ موجهًا كلامه لرسول الملك .

(٢) ابن كثير ٢/ ٤٨١ .

(٣) ابن كثير ٢/ ٤٨٢ .

ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ
عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

وأراد الله أن يجمع شمل يوسف بأبيه ، فاشتدت المجاعة فى فلسطين ، وسمعوا بأن مصر تبيع لمن حولها من البلدان ما يحتاج إليه الناس من قمح وشعير وخلاف ذلك ، فأرسل يعقوب بنيه ليبتاعوا من مصر حاجتهم من الطعام ، ودخلوا على يوسف ﴿فعرفهم وهم له منكرون﴾ غير عارفين له « لأنهم خلفوه صبيًّا ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من المملكة ، مع طول المدة ؛ وهى أربعون سنة . »[1] .

وقد استدرجهم يوسف ـ عليه السلام ـ فى حديث استفسر فيه منهم عن بلادهم ، وأين موقعها ؟ وعن عاداتهم فيها ، حتى حكوا له عن أبيهم الشيخ الكبير ، وعن أخيهم الصغير بنيامين ، وعن أخيهم المفقود . فقال لهم يوسف بعد أن أوفى لهم كيلهم وحمل لهم أحمالهم : أرأيتم كيف أحسنت إليكم فى الكيل ؟ فإن عدتم لتأخذوا بضاعة المعاش من عندى ، فلن أعطيكم حتى تأتونى بأخيكم من أبيكم ، لأراه معكم وأتثبت منه أنكم صادقون فيما ذكرتم عن أبيكم وعن أخيكم بنيامين هذا . فقالوا له سنراود عنه أباه ونبذل كل جهدنا لنأتيك به . قال هذا شرط البيع لكم مرةً ثانية .

وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ
لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ
فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ
إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾
وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ
هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ
كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾

(١) القرطبى ٩/ ٢٢٠ .

أمر يوسف غلمانه أن يدسّوا ثمن بضاعة إخوته ﴿ في رحالهم ﴾ ، أى فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون . ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم ﴾ قالوا له إن أمير مصر طلب منهم حضور أخيهم بنيامين . فقال لهم يعقوب لا آمنكم عليه فتفعلون به ما فعلتم بيوسف من قبل خصوصًا أنكم قلتم عند غياب يوسف ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ فظلوا يعطونه المواثيق التى تطمئن أباهم برجوع بنيامين إليه مرة أخرى وأنهم سيكونون أمناء عليه .

ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا ثمن بضاعتهم موجودة فى رحالهم فقالوا : يا أبانا إن ثمن بضاعتنا رد إلينا ، فأرسل معنا أخانا فنبتاع ويزيدنا أميرُ مصر جملاً محملاً ونجلب الميرة أى طعامًا لأهلنا .

قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

قال لهم أبوهم لن أرسله معكم إلا بعد أن تحلفوا لى بالعهود والمواثيق التى تضمن رجوع أخيكم معكم إلا أن يحاط بكم بالهلاك أو الموت أو يمكر بكم ، فأعطوه المواثيق والعهود فأعطاهم يعقوب ابنه بنيامين .

وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

اشترط يعقوب على أولاده أن يحافظوا على أخيهم ، وألا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، ربما لأنه خاف عليهم .

وهكذا أمر يعقوب أبناءه أن يدخلوا من أبواب متفرقة قائلاً لهم ﴿ وما أغنى عنكم من الله من شىء ﴾ أى إن الحذر لا يمنع القدر فكل شىء بقضاء الله وقدره .

وهكذا احتاط يعقوب عليه السلام للأمر ، وأخذ بالأسباب ، ثم ترك الأمر لله وكل

جوارحه متوكلة على الله . فسمعوا لأبيهم ولم يدخلوا إلا متفرقين لأن وصية أبيهم لهم ما هى إلا نتيجة شفافية وإشراق روحى .

فلما وصلوا إلى مصر دخلوها من أبواب متفرقة ، وما كانوا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم شيئًا إن أراد الله أىّ مكروه بهم ، إلا هذا الخاطر الذى جاء على قلب يعقوب بوصيته لهم أن يتفرقوا «لئلا يرى الملك عددهم وقوتهم فيبطش بهم حسدًا أو حذرًا»(١) .

إن يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿ لذو علم ﴾ أى لذو علم بأمور دينه وصفات ربه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك عن يعقوب .

وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

ولما وصل أولاد يعقوب لديوان يوسف ومعهم بنيامين أخوهم ، اجتمع بهم يوسف ، ثم ضم أخاه إليه ، فاختلى به وأسرّ إليه أنه أخوه . ففرح وكتم فرحته . وصارحه بنيامين كذلك بحزن أبيه عليه وآلامه المتواصلة وأعطى يوسف إخوته كل ما طلبوا من متاع المعاش وزاد لهم فى ذلك .

فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

ثم أمر يوسف عماله أن يضعوا صواع الملك ، أى ميزانه ومكياله ، فى متاع أخيه بنيامين ـ وقيل إنه وضعه هو بنفسه وهو مختلٍ بأخيه على غفلة من إخوته ـ ففعلوا ووضعوا المكيال أو الصواع فى رحل بنيامين . ولما سارت القافلة نادى منادٍ من قبل الملك : قفى أيتها العير ﴿ إنكم لسارقون ﴾ . فعزّ ذلك على أولاد يعقوب ، فقالوا ﴿ماذا تفقدون ﴾ ؟ وتركوا متاعهم ورحالهم للتفتيش ، وهم فى اطمئنان وأمن لثقتهم بأنفسهم أنهم بعيدون عن هذه الفعلة الخطيرة .

---

(١) القرطبى ٩/٢٢٨ .

قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا
جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

قال أولاد يعقوب ، قبل التفتيش ، والله ما جئنا لنسرق ، وأنتم تعلمون أننا ما جئنا إلا للتجارة واجتلاب الطعام ، ولم نكن يومًا سارقين ، فنحن أبناء نبى . فقال عمال الملك من نجد الصواع فى حوزته ورحله ﴿ **فما جزاؤه إن كنتم كاذبين** ﴾ ﴿ **قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه** ﴾ أى « يستعبد ويسترق » . [1] « هكذا كانت شريعة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن السارق يدفع إلى المسروق منه » . [2] كذلك نفعل فى الظالمين أن يُقْتص منهم إذا سرقوا .

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا
لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن
نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

انتهى التفتيش ، بعد أن بدأ بأوعية إخوته قبل وعاء أخيه بنيامين ، ووجدوا الصواع فى متاع بنيامين . ﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ بوحينا له فعل هذا معهم ، لنمكن له وليتم الله أمرًا كان مفعولا . وشاء الله أن يأخذ أخاه منهم باعترافهم هم أنفسهم والحكم مسبقًا على السارق فيهم . فما كان ليوسف أن يأخذ أخاه فى سلطان الملك وحكمه إلا بهذا الاعتراف منهم ، الذى هو من شريعة يعقوب وإبراهيم بإذن الله الواحد المقتدر والحمد لله هو فوق كل علم وعالم .

۞ قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٣٤ . (٢) ابن كثير ٢/ ٤٨٥ .

وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا
يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا
لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾

لما رأى إخوة يوسف الصواع قد أخرج من متاع بنيامين ، ذكروا أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون به يوسف عليه السلام . حُكم على بنيامين بالسجن والأسر عنده فى ظاهر الأمر وذلك ليستبقيه يوسف ـ عليه السلام ـ عنده . وهذا العمل كان بوحى من الله عزّ وجل ليبقى بنيامين عنده . فلما كان ذلك أخذ إخوة يوسف يستعطفونه ويقولون له إن كان قد سرق ﴿ فقد سرق أخ له من قبل ﴾ والمعنى « اقتدى بأخيه ، ولو اقتدى بنا ما سرق ، وإنما قالوا ذلك ليَبْرَءُوا من فعله ، لأنه ليس من أمهم ؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق ؛ لأن الاشتراك فى الأنساب يشاكل فى الأخلاق »[1] .

أما قصة السرقة[2] هذه التى قصدها إخوة يوسف ، فهى حاصلة مع يوسف نفسه ، وملخصها كما ذكرتها كتب التفاسير : أن عمةً له كانت موجودة وحاضنة له وهو صغير. فأراد يعقوب أن يأخذ ابنه يوسف من عمته لشدة شغفه به ، ولكن عزّ عليها ذلك لحبها الشديد هى الأخرى له . فأرادت أن تبطل مراد أخيها يعقوب أن يأخذه ، فربطت شيئًا تحت ثياب يوسف وأعلنت عن فقدها إياه ، فأمروا بكشف أهل البيت فوجدوها عند يوسف فحكم عليه بأن يبقى عندها لأنه سارق . وذلك : مكر منها لكى تبقى يوسف ابن أخيها معها لحبها الشديد له . فعيره إخوته بهذه الحادثة التى هو برىء منها ، فآلم ذلك يوسف ـ عليه السلام ـ فقال لهم ﴿ أنتم شر مكانا ﴾ من الذى تنسبون إليه هذه التهمة والله ـ سبحانه وتعالى ـ هو العليم بكم وبصنيعكم .

وأخذ إخوة يوسف يرجونه أن يأخذ أحدًا منهم بدلاً من بنيامين ، لأن أباه شيخ كبير

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٣٩ .

(٢) القصة مذكورة بالتفصيل فى ابن كثير ٢/ ٤٨٦ .

ويحبه كثيرًا ولا يقوى على مفارقته ، خصوصًا إذا سمع ورأى رجوعنا بدونه . فقال لهم يوسف حاش لله أن نظلم من ليس فى محل الظلم ، إننا إن فعلنا ذلك كنا من الظالمين .

فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾

ولما يئس إخوة يوسف من أن يسلمهم العزيزُ أخاهم ، ﴿ خلصوا نجيا ﴾ أى انفردوا عن الناس ببعضهم ، وليس هو معهم ، يتناجون ليتشاوروا فى الأمر . فقال كبيرهم إن أباكم قد أخذ عليكم ميثاقًا بالحفاظ على بنيامين ، وقد علمتم سوء جرمكم مع يوسف ، فأنا لن أترك هذه البلدة (مصر) حتى يأذن أبى ويوحى الله إلى أبى أننى مظلوم وبأننا لم نخنْه فى بنيامين والله ـ سبحانه وتعالى ـ خير حاكم بعدله فى قضيتنا تلك وهو خير الحاكمين .

ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

عاد الإخوة إلى أبيهم ، وتركوا أخاهم بنيامين فى مصر ، وحكوا له ما وقع ، أن بنيامين سرق وما كنا نعلم الغيب حتى لا نطلبه منك للسفر معنا ، وما كنا نعلم عليه سرقة سيفعلها فى متاع الملك ، وإن كنت لا تصدقنا اسأل أهل مصر والبلدة التى كنا فيها والعير أى التى رافقناها ورافقتنا فى الرحلة بها فيها من خدم وأناس وعمال ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته .

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

قال أبوهم بعد سماعه كلامهم ، كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب : لقد سولت (أى زينت) ﴿ لكم أنفسكم أمرًا ﴾ وتقولون إن ابنك سرق ، وما سرق ، فسأصبر صبرًا جميلاً عن رضا وتسليم بأمر الله ، لعل جزاء صبرى أن يأتينى يوسف وأخوه بنيامين ، إن ربى عليم بحالى ، حكيم فى حكمه ، يجزى الصابرين المحتسبين ، ويكفينى تسليمى بقضائه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

يقول الإمام القرطبى « الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه فى نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل ، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، ويقتدى بنبى الله يعقوب وسائر النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين . »(1) .

واعتزل يعقوب أبناءه وأعرض عنهم ﴿ وقال يا أسفى على يوسف ﴾ أى يا حزناه . والأسف هو الحزن الشديد . واشتد بكاؤه حتى ﴿ ابيضت عيناه من الحزن ﴾ وكفتا عن الإبصار . وقيل إنهما لم تقويا على كل الرؤية . وظل على حاله هكذا حزينًا كظيمًا «ساكتًا لا يشكو أمره إلى مخلوق » .

قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ
ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن
رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

قال له أبناؤه أنت يا أبانا لا تكف عن ذكر يوسف ، وما تزال تذكره حتى تصير حرضًا أى تالفًا فاسدًا جسمك وحالك ، ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ أى الميتين . وهذا إشفاق من أولاده عليه . ثم بعد ذلك استعطف أبناءه قائلاً : يا بنى اذهبوا وابحثوا عن يوسف وأخيه وتحسسوا أمره هو وأخيه أى « اذهبوا إلى الذى طلب منكم أخاكم واحتال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه »(2) ، ولا تيأسوا من فتح الله وفرجه ، ولا تقطعوا الأمل فيه سبحانه إنه لا يفعل ذلك إلا القوم الكافرون اليائسون من رحمته ، فعسى أن تصيبنا رحمة الله وفضله .

---

(1) القرطبى ٩/ ٢٤٧ .   (2) القرطبى ٩/ ٢٥٢ .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ
فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

واستمع إخوة يوسف لأبيهم ، ودخلوا على عزيز مصر يوسف عليه السلام ـ وقالوا له مستعطفين : يأيها العزيز قد وقع بنا وبأهلنا القحط والشدة والضر ، وجئناك ببضاعة مزجاة أى طيبة جيدة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزيك خيرًا بخير إن الله يحب المتصدقين .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَإِنَّكَ
لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ
وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ
اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ
اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى
وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

لما ذكر إخوةُ يوسف لأخيهم يوسف ـ عليه السلام ما أصابهم من القحط والجوع والجدب ، قال لهم : ﴿ **هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه** ﴾ ؟ وهذا استفهام يذكرهم فيه بجرم صنيعهم القديم ويوبخهم به علهم يتذكرون ، وهو تحقيق لقوله تعالى : ﴿ **لتنبئنَّهم بأمرهم هذا** ﴾ لأنكم كنتم على جهل بتعاليم شريعتكم وبمقدار هذا الذى ارتكبتموه . وهنا قالوا إنك لأنت يوسف أخونا ؟ ! فقال لهم نعم أنا يوسف وهذا أخى بنيامين ﴿ **قد من الله علينا** ﴾ بفضله وكرمه وحفظه نتيجة تقوانا وخوفنا وحبنا لله ﴿ **فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ الذين يعرفونه ويخافون حسابه . قال إخوةُ يوسف ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا** ﴾ نتيجة خطئنا . وأجاب يوسف جواب الكريم ابن الكريم ابن الكريم الذى لا يحاسب على السيئة بالسيئة ، ولكن يعطى بالسيئة الحسنة ، بل زيادة ، طمعًا فى عفو الله وحبه وصفحه وعطائه . وبذلك أعطى الله يوسف ما تمنى أو

تصور من النعم ، فماذا قال لهم يوسف ؟ ﴿ **قال لا تثريب عليكم اليوم** ﴾ أى لا تأنيب لكم عندى ، ولا عتب عندى لكم ، على ما أجرمتموه فى حقى القديم . بل زادهم بأن دعا لهم بالمغفرة من رب رحمان رحيم . ﴿ **اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى** ﴾ فسيرتد بصيرا حين يعلم أنى فى سلام من الله وعافية .

وكان « ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النار من حرير الجنة ، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قصبة من فضة وعلقه فى عنق يوسف ، لما كان يخاف عليه من العين . وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك ، فإن فيه ريح الجنة ، وإن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفى . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه سوف يرجع إليه بصره . »[1] .

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾

لما عادوا إلى أبيهم وخرجت العير منطلقةً من مصر إلى الشام ﴿ **قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون** ﴾ أى « تضعفون رأيى »[2] أو « لولا أن تسفّهون » .[3] وهنا دخل حامل القميص بالبشرى وبشر أباه بوجود يوسف وألقى القميص على وجه فأعاد إليه بصره و ﴿ **قال** ﴾ لأولاده ﴿ **ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ ﴿ **قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا** ﴾ إذْ نعترف أنّا ﴿ **كنّا خاطئين** ﴾ . وقال يعقوب لأبنائه ﴿ **سوف**

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٥٨ .

(٢) القرطبى ٩/ ٢٦٠ وهو قول ابن عباس ومجاهد .

(٣) القرطبى ٩/ ٢٦٠ وهو قول ابن الأعرابى .

أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾ يغفر الذنب ويقبل التوب . وجاء يعقوب إلى مصر وكل أبنائه وأهله . وخرج يوسف وخرج معه الملك والوزراء وكبراء القوم لاستقبال نبى الله يعقوب ، عليه السلام . ولما التقى يوسف بأبويه **﴿ قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾** ودخلوا كذلك .

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

وضع يوسف أبويه على كرسى حكمه ، وخروا له سجدا ، أى خروا شكرًا لله و«يوسف كالقبلة لتحقيق رؤياه » .[1] وقال يوسف **﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقًا ﴾** . ثم حكى لأبيه قصة السجن ، وما كان من إخوته ، وقصة نزغ الشيطان بينهم وبينه . وها أنا ذا قد أخرجنى ربى من السجن وجمعنى بك وبوالدتى وإخوتى ، وأبطل الله سبحانه كيد الشيطان ، وأصلح قلوب إخوتى ، وتلك نعمة له سبحان ربى من لطيف فى حكمه وقضائه لما يشاء وهو العليم الحكيم .

۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

هذا دعاء من يوسف لربّه يعدّد فيه نِعمَ الله عليه . وتلك النعم هى : نجاته من البئر ، وإكرام العزيز له ، وبراءته من تهمة امرأة العزيز له ، وجعلها بنفسها تحكى ذلك للملك . فثبت بذلك أن الله محيط بمن يجتبيه ويختاره لرسالته ، فهو به حفيظ كريم عليم محسن معط وهّاب فاطر السموات والأرض أى خالق الموجودات ومبدئها ، وهو أيضًا ولى يوسف أى ناصره ومتوليه فى شئون الدنيا وفى الآخرة . ثم يدعو فيقول **﴿توفنى مسلما ﴾** أى على ملة الإسلام لأن تمنى الموت فى حد ذاته منهى عنه .

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٦٤ .

يذكر القرطبى قول سهل بن عبد الله التُّسْتَرِيّ : لا يتمنى الموت إلا ثلاث : « رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاق محب للقاء الله عزّ وجل »(١) .

وفى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لابد متمنيًا ، فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرًا لى »(٢) .

ورواه مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب الذكر ، باب : كراهة تمنى الموت لضر نزل به .

هذا هو معنى دعوة يوسف توفنى مسلمًا . ثم يدعو فيقول ﴿ وألحقنى بالصالحين ﴾ من آباءى وأجدادى .

وهنا تنتهى قصة يوسف فى سورة يوسف ، ثم يتوجه الخطاب من الله لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول سبحانه :

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد من أنباء الغيب ، فلم تكن حاضرًا فيها وما كنت تعلم عن خبر يوسف شيئًا ، فقد قصصناه مفصلاً لتصبر على ما تلاقى من قومك . فهذه الأخبار عمن سبق من الأنبياء فيها عظة وذكرى لك ولمن حولك من أولى الألباب . ومهما اجتهدت وحرصت على أن يكون الخلق على الإسلام فذلك لا يقع كما تتمنى ، إنما أنت تذكر الناس بالحق وتدعوهم إليه ، وهذا ما عليك والله يهدى من يشاء .

وهذه الآية ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ هى نظير قوله تعالى ﴿ إن فى

---

(١) القرطبى ٩/ ٢٦٩ .

(٢) رواه البخارى ، كتاب التمنى ، باب : ما يكره من التمنى . ورواه مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب الذكر ، باب كراهة : تمنى الموت لضر نزل به .

ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾[1] وأيضا ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾[2] وإنك يا محمد لا تريد من الناس أجرًا ، وما أجرك إلا على الله رب العالمين إن هو إلا ذكر للعالمين ، تتذكرون به وتهتدون وتنجون به فى الدنيا والآخرة .

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ
عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ
إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

إن أكثر الناس يا محمد يمرون على آيات الله . ينظرون إليها فى السموات والأرض ، ويدهشون لها ، ثم يعرضون عنها ، ويصبحون فى غفلة عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده وقدرته ، فهم معرضون .

أما قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ فهى إخبار من الحق سبحانه وتعالى عن حقيقة إيمان أكثر الناس كما تفصل الآية ، وإن كانت قد نزلت فى قوم بعينهم ، لكن العبرة بعموم اللفظ . فكثير من الناس يقرون ويعترفون بالله خالقًا لهم ولكل الأشياء ، ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾[3] لكنهم ارتضوا مع الله شريكًا وندا له ، إذن الإيمان مختلط عندهم بالشرك . وكل مظاهر حياتهم يشوبها الشرك مع الاعتقاد فى الوقت نفسه بالله ربًا خالقًا معبودًا . وهذا مرفوض تمامًا فى مفهوم الفكر الإسلامى الراشد . وقد صحح القرآن هذا الفهم ولم نجد سورة فى القرآن خالية من قضية الشرك والعبودية ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا ﴾[4] . انظر إلى قوله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه ﴾ . وانظر إلى قوله ﴿أحدًا ﴾ إلماح منه سبحانه إلى أن المعبودات هنا فى صورة أفراد أو أشخاص فى مقابل

---

(١) الشعراء : ٨ .
(٢) الأنعام : ١١٦ .
(٣) لقمان : ٢٥ .
(٤) الكهف : ١١٠ .

ما قاله فى موضع آخر ﴿ ألا تشركوا بالله شيئًا ﴾ نفى الشرك فى كل جنسيات الوجود سواء بشرًا أو طاغوتًا أو حكمًا أو آلهة أو أى شىء آخر . ﴿ **ولقد أُوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ [1] .

فاعبدوا أيها الناس إلهًا واحدًا ، وكونوا له مخلصين ، ولا تلبسوا إيمانكم بظلم أى شرك ، ووجهوا نيتكم فى أعمالكم له وحده ، واحكموا أنفسكم بشرع الله ودينه ، وتلقوا منه وحده الشرائع ، وتوجهوا إليه بالشعائر ، ولا تفصلوا دينكم عن دنياكم . . فعبث قولهم « لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين » ، فهذا شرك وطاغوت وتنحية لله عن أمرنا وشئوننا ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ فالحكم والعبادة مقترنان فى سياق إيمانى واحد .

إن حياتنا لمملوءة بكثير من مظاهر الشرك التى تغطى أوجه حياتنا اليومية ونحن لا ندرى ، وهى تسرى فى تصرفاتنا مسرى دبيب النمل ، حتى غلظت تلك المظاهر وباتت واضحة معلنة ، حتى حسبنا الله غائبًا وغير موجود وإن كنّا نتشدق بإعلان وجوده فى مجرد أقوال لا تؤصلها أفعال دون أن ندرى مقتضيات قول « لا إله إلا الله » وحتى أصبحنا نتقرب إلى غير الله معتقدين وساطته عند الله ، فأصبحنا لغير الله وبغير الله ووجهنا العبادة إلى غير صاحبها ، فأصابنا الحوَل التعبدى وانكسر شعاع التوحيد فى قلوب معظم الناس حتى صاروا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا ، وهم فى الحقيقة ـ بأفعالهم هذه ـ الأخسرون أعمالاً بضلال عبادتهم وإلباسهم ثوب التوحيد لغير صاحبه وهو الله الواحد .

وبعد . . أأمن هؤلاء المشركون أن يتنزل عليهم أمر وعذاب يغشاهم وهم لا يشعرون أو تأتيهم الساعة بغتة وساعتها لا ينفعهم شركهم شيئًا . أو لا يخافون أن تأتى هذه الساعة وهم فى لهوهم يعمهون ويلعبون ويلهون بدنيا ليست لهم ؟ فتوكل على الله يا محمد وقل للناس فى قوة وأنت متوكل على الله : هذه سبيلى وتلك طريقتى ومنهاجى أدعو له على بصيرة وبرهان ونور وهدى أنا ومن اتبعنى من المؤمنين حقًا الموحدين بالله الذين لا يعبدون مع الله إلهًا غيره وما أنا من المشركين .

---

(١) الزمر : ٦٥ ، ٦٦ .

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ
لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ
كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾
لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن
تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾

إن الله لم يبعث يا محمد قبل إرسالك بالنبوة إلا رجالاً اختارهم الله لحمل أمانته وتبليغها للناس ، لم يكونوا ملائكة ولكن كانوا رجالاً أوحى إليهم . وهذا ردّ على القائلين ﴿ **لولا أنزل عليه ملك** ﴾ . . أى أرسلنا رجالاً ليس فيهم امرأة ولا جنى ولا ملك .

وكان كل نبى أو رسول يبعث إلى قومه خاصة ، لكن الله بعث محمدًا رسولاً إلى كل العالمين ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا** ﴾ [١] .

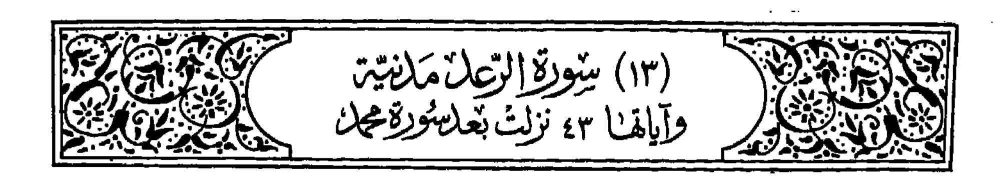
ثم لم نعاقب أممهم بالعذاب حتى إذا استيأس الرسل أى يئسوا من إيمان قومهم . . . «وأيقنوا أن قومهم كذّبوهم » . [٢] فلما حصل كل ذلك جاءهم أمرنا بالنصر والفوز على أممهم الضالة ، فأهلكنا أعداء الحق ونصرنا ونجينا الذين اتبعوا أنبياءنا وجعلناهم الوارثين الحاكمين .

وإننا لنجد فى سيرة الأنبياء وقصصهم خصوصًا سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ عبرًا كثيرة وعظات رائعة وذكرًا وهداية لأصحاب القلوب والعقول المكتملة بالحياة والفهم والإدراك . . ومستحيل أن يكون القرآن الكريم أمر يفترى ولكنه تصديق الذى بين يديه من التوراة والإنجيل ، وجميع كتب الله تعالى . إنه تفصيل كل شىء مما يحتاج له العباد من هداية وطريق مستقيم وشرائع وعبادات ، وهو منحة من رب العالمين إلى البشرية جمعاء والحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) الأعراف : ١٥٨ .

(٢) القرطبى ٩/ ٢٧٥ .



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾

﴿ الٓمٓر ﴾ تقدم الكلام عن الحروف المقطعة فى أول سورة البقرة . ﴿ تلك آيات الكتاب﴾ أى هذه آيات القرآن تنزيل من رب العالمين ، وإن كان أكثر الناس لا يسلّمون بذلك . إنه تنزيل الخالق المصور الفعال القادر بديع السموات والأرض ، وهو القول الحق ، والكتاب الحق ، والآيات الحق ، فما عليك يا محمد من منكرى نزوله وقد طمس الله قلوبهم وطبع عليها .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ
كُلّٞ يَجۡرِى لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه . وعجبا لهذا الخلق الذى يشاهد قدرة الله فى الكون ثم لا يؤمن به سبحانه ، رفع السماء بلا عمد وذلك أمر مشهود لكل الناس . عجبا !! كيف لا يؤمنون ؟! ألم يشهدوا ما حملت السموات من كواكب وشموس وأجرام ومجرات ؟! سبحانه الله الخالق القادر المدبر لكل الخلق بعظمته وقدرته النافذة . سبحانه خلق فأبدع وصبور ثم استوى على عرش قدرته . والله سبحانه وحده هو الذى يعلم كيف استوى سبحانه على العرش . فالاستواء فى الحقيقة من خواص علمه ، وهو الواحد الأحد وهو على كل شىء قدير وبكل شىء محيط . فيجب على المؤمنين التسليم بهذا الاستواء ، واليقين به ، ثم لا يبحثون فى كنهه وكيفيته . على أن الآية تقيم الدليل القطعى على نفوذ أمره ـ سبحانه وتعالى ـ وتمام سلطانه بالسيطرة الكلية والتدبير النافذ فى عوالم الوجود كافة . ﴿ يفصل الآيات ﴾ : أى يوضح الدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

بعد أن عدَّد الله سبحانه آياتِ خلق العالم العلوى ، شرع فى ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلى ، فقال، سبحانه وتعالى : ﴿ وهو الذى مدّ الأرض﴾ أى بالحياة والحركة والوجود ، أو بمعنى بسطها طولا وعرضا فجعل فيها رواسى من الجبال الثوابت التى تثبت الأرض وترسيها وشق فيها من الأنهار .

وفى بسطه للأرض جعلها صالحة لسكنى الإنسان ولكل دابة صغرت أو كبرت مستأنسة أو مستوحشة، وجعل فيها من الثمار فاكهة متنوعة كثيرة، وجعل فيها من كلٍّ زوجين اثنين أى « من كل شكل صنفان »[1] .

سبحانه كل شىء عنده بمقدار ، وجعل الإنسان قادرا عليه بعلم الله ورحمته ، كما جعله قادرا على استيعاب ما ييسر به أمر الأرض وتمهيدها وحرثها سبحانه علّم الإنسان ما لم يعلم .

وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

إن من آيات الله الدالة على قدرته أن الأرض فى مساحة محدودة على امتداد عريض تسقى بماء واحد واليد الزراعية واحدة والسماء واحدة . يرمى البذر فى الأرض متنوعًا متعددا، فتخرج من كل الثمرات طعوم مختلفة وألوان مختلفة. الحلو بجوار الحامض والحلو بجوار الملح والطويل بجوار القصير صنوان وغير صنوان . والصنوان « هو الأصول المجتمعة فى منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك. وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار »[2] سبحانه من مبدع قادر جعل ذاك بجوار ذاك ، وفضَّل بعضها على بعض فى الأكل . فسبحانه وتعالى جل قوله ﴿أفرأيتم ما تحرثون *أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[3] ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وقد قرر علماء البحث فى طبيعة خلق العوالم الأرضية والطبقات الجوية، الذين عاشوا

(١) ابن كثير : ٢ / ٥٠٠ . (٢) ابن كثير : ٢ / ٥٠٠ (٣) الواقعة : ٦٣ ـ ٦٤ .

ضمير الإنسان، أن خلق هذا العالم وأمر هذا الكون وما فيه من نظام، إذا اختل قيد شعرة هلك العالم وفنى . أليس ذلك دليلا على وجود الله الصانع المدبر صاحب الكمال المطلق والقدرة النافذة فى كل شىء، وهو على كل شىء قدير . . ؟

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

« إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك ،بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث » (١). وإن كان هناك عجبٌ ،فعجب إنكارهم البعث بعد ما عرفوا قدرتى على الخلق وخلق كل هذه الموجودات السابقة . فكل هؤلاء يا محمد كافرون بربهم يسحبون على وجوههم فى النار خالدين فيها أبدا .

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

هؤلاء المكذبون يستعجلون الهلاك ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر بتأخير العقوبة لهذه الأمة ـ أمة محمد ـ إلى يوم الدين : وقد أبان المولى عن طلبهم العذاب واستعجالهم له بقوله ﴿ **وإذْ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء** ﴾ (٢)ـ وبقوله ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ (٣)وبقوله﴿ **وقالوا ربنا عجل لنا قطّنا قبل يوم الحساب** ﴾ (٤).

أى عقوبتنا وحسابنا . ﴿**وقد خلت من قبلهم المثلات**﴾ أى العقوبات التى وقعت على الأمم السابقة .﴿ **وإن ربك لذو مغفرة** ﴾ للمشرك إذا آمن وأسلم وجهه لله، وللمذنب إذا رجع وتاب وعمل صالحا رغم ظلمهم السابق على توبتهم أو إيمانهم . وأيضا ﴿**لشديد العقاب**﴾ على من أصر على الكفر والإلحاد والجحود والإنكار ﴿ غافر

(١) القرطبى : ٩ / ٢٨٤ .
(٢) الأنفال : ٣٢
(٣) المعارج : ١
(٤) ص : ١٦ .

الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ [1] - **﴿ نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هوالعذاب الأليم ﴾** [2].

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

يقول المشركون كفرا وعنادا : لولا يأتينا بآية من ربه؟ عجبا من هؤلاء الكفار ! ألم يكتفوا بأن الله أرسل لهم رسولا شاهدا عليهم، وكتابا حجة عليهم؟! الحق ينادى رسوله **﴿ إنما أنت منذر ﴾ ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾**.[3]وقد أنذرتَ وبلغت وشرحت لهم ولكل قوم أرسلناك لهم. فما عليك إلا البلاغ يا محمد ، فالله هو الهادى عندما يشاء ذلك .

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذى لايخفى عليه شىء ، فهو ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ما تحمل كل أنثى من جنين ، ذكرا أو أنثى ، شقيا أو سعيدا ، طويل العمر أو قصيره ، فهو المنفرد بالغيب وحده . وهو يعلم ما تغيض الأرحام ، أى ما تسقطه المرأة من جنين قبل التسعة الأشهر. وما تزداد ، أى وما يزيد عن ذلك . فالله هو صاحب القدرة والتصرف المطلق فى كل ذلك فكل شىء عنده بمقدار وحكمة وتصرف وتقدير **﴿ إنا كلَّ شىء خلقناه بقدر ﴾** [4].

سبحانه عالم الغيب ، لا يخفى عليه شىء غائب عن العباد أو شاهد لهم ، كبير متعال على كل شىء ، محيط بكل الموجودات ، وقاهر كل شىء ، فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرها .

سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

---

(١) غافر : ٣ . (٢) الحجر : ٤٩ ـ ٥٠ . (٣) الأحزاب ٤٥ ، الفتح ٨ . (٤) القمر : ٤٩ .

سورة الرعد

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، فهو لا يخفى عليه شيء فى السموات أو فى الأرض، يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور، فيستوى علمه بكل كبيرة أو صغيرة، سواء مع من يسرّ فى نفسه الخير أو الشر، أومن يجهر بهما ويحدث بهما غيره . ولا يخفى عليه المتوارى الباطن فى الظلمات أو الظاهر الماشى فى ضياء النهار ، فإن كليهما فى علم الله على السواء . سبحانه وتعالى له ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار. إنها ملائكة تحوط بالعبد فتكتب ما له بحسناته وما عليه بسيئاته. وكذلك هؤلاء الحفظة يحفظونه من حوادث الطريق . والمقصود أن الملائكة حوله من كل جهة حارسة له من أحداث الزمان والمكان، فإن أطاع الله أعانوه وإن عصى الله انتظروا لعلّه يتوب وإلا كتبوا عليه السيئات بمثلها والحسنة بعشرة إلى سبع مائة ضعف حسب الصدق والرغبة فى الخير .

وقد كانت الأمة المسلمة على صدق مع الله فى العمل بكتابه وسنة نبيه، عليه الصلاة والسلام .فلما تغيرت مع الله ،فحكمت بغير كتابه وسنة نبيه واتبعت الكفار واتخذت منهم مستشارين وأعوانا، أذلها الله وجعلها تعيش فى تبعية ذليلة ،تارة للغرب وتارة للشرق، وجعلوا أمرها فى غير يدها . ولو تابوا ورجعوا إلى الله فأقاموا دينه واعتمدوا على أنفسهم وحكموا فى أنفسهم كتاب الله وتمسكوا بسنة النبى ﷺ لعاد لهم عزّهم وحفظت كرامتهم المهدرة. فالله عز وجل لا يغير ما بقوم من سوء حتى يغيروا هم ما بأنفسهم .وجلّ قوله ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ [1]. وإذا أراد الله بقوم سوءاً أرشدهم إليه وأعمى أبصارهم ﴿ **قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً** ﴾[2]. وما لهم من دون الله من ملجأ أو ناصر .

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

يعدد الله ـ سبحانه وتعالى ـ مظاهر نعمته ورحمته وقدرته للخلق ؛ فيخبر أنه هو الذى يرينا البرق ويسخره، وهو الضوء اللامع الساطع من بين السحب خوفا منه وطمعا فى زيادته، لأنه بركة تبشر بالمطر. وأنه تعالى هو الذى ينشئ السحاب الكثيف

(١) الأنفال : ٢٥ (٢) مريم : ٧٥ .

بالماءالآتى بالمطر الذى هو نعمة ورزق من عند الله ـ سبحانه وتعالى ، يجعل الرعد يسبح بحمده والرعد صوت السحاب . وأيضا تسبح الملائكة بحمده من خيفته . ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ قيل إنها «نزلت فى يهودى ، قال للنبى ﷺ : أخبرنى ، من أى شىء ربك ، أمن لؤلؤ أم من ياقوت ؟ فجاءت صاعقة فأحرقته . وقيل نزلت فى بعض كفار العرب » [(١)].

إذن عقاب الله شديد على من يجادل فى الله ، وهو شديد المحال ، أى المكر . والمكر من الله تدبير للحق ونصرة لأهله ، وهو إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر . . «وقيل المحال هو القوة والشدة » [(٢)] . كفانا الله شرّ الذين يجادلون فى الله بغير حق ، ونصرنا عليهم ، وهو سبحانه وتعالى ولينا وناصرنا ومؤيدنا . فهل من رجعةٍ إلى الله وكتابه وسنة رسوله فنسود الدنيا كما سدناها من قبل ونعيش بعزة الإسلام والتوحيد ؟!!

لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

له سبحانه دعوة الحق ، أى دعوة الصدق ، وهى الإسلام بكل تكاليفه وشرائعه وعباداته ، والتسليم والتوحيد والخضوع لله عزّ وجل ، ثم الاحتكام لما أنزل الله عزّ وجل ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ . أما الذين يدعون من دون الله ويشركون به غيره ويركنون إلى عبادة الطاغوت [(٣)]، فهم لا يستجاب لهم إلا إذا قبضت بكفيك على الماء لتبعث به إلى فيك من شدة العطش . فإن حدث ذلك الأخير تحقق ذاك الأول . وهذا منتهى الإعجاز . وحقا . . ما دعاء الكافرين للأوثان والأصنام إلا فى ضلال . وجل قوله ـ سبحانه ﴿ ضلّ من تدعون إلا إياه ﴾ [(٤)]وجل قوله أيضا ﴿ أين ما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا﴾ [(٥)].

---

(١) القرطبى : ٩ / ٢٩٦ . (٢) القرطبى : ٩ / ٢٩٩.

(٣) الطاغوت = مصطلح قرآنى يطلق على كل باطل فى الأرض أشرك به مع الله فى العبادة ، سواء كان سلطانًا أو ملكا أو حكمًا أو بشرا أو أفكارًا هدّامة أو نظريات حديثة فاسدة . . إلى غير ذلك مما ألّه الناس بحكم سيطرته عليهم لجلب منفعة أو إتيان مصلحة مع تجنيب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتهميشه عن أمور حياتهم مكتفين بمجرد إعلان لا إله إلا الله ، دون اللجوء إلى مقتضياتها الفعلية . (المؤلفة)

(٤) الإسراء : ٦٧ . (٥) الأعراف : ٣٧.

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شىء ، ودان له كل شىء ، ولهذا يسجد له كل شىء طوعا من المؤمنين وكرها من المنافقين . ولله يسجد الإنس والجن والشجر والدوابّ طوعا ، أى من دخل فى الإسلام رغبة ، وكرها أى من دخل مقهورا بالسيف أو منافقًا ، وظلالهم كلها تسبح وتسجد لله رب العالمين فى وقت البكور والآصال أواخر النهار .

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

لما تمادى الكفار فى مجادلة حضرة الرسول بالباطل والمكابرة ، قرر الله سبحانه أنه لا إله إلا هو ، وقال سبحانه لنبيه ـ ﷺ ـ يا محمد قل لهم من رب السموات والأرض؟ أليس هو الله ! !إنهم يعرفون ذلك جيدا ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾[1] . ولكنهم يعبدون معه آلهة لاتملك لأنفسها نفعًا أو ضرا ، ولا تحصل لهم مصلحة أو تدفع عنهم مضرة . وما عبدوا مع الله آلهة أخرى إلا وهم معترفون أنها مخلوقة لله لاتنفع ولا تضر كما كانوا يلبون «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» .

فكيف تتخذون من دون الله أولياء لا يملكون شيئا وهم مخلوقون ولا يخلقون ؟ قل كذلك يا محمد ﴿ **هل يستوى الأعمى والبصير** ﴾ ؟ ! ! كيف تفكرون ؟ وكيف تسوّل لكم أنفسكم أن تتخذوا أولياء من دون الله الذى خلقكم وصوركم وأخرجكم من ظلمة الأرحام إلى نور الحياة ؟ فكيف لا تتفكرون فى خلقكم وتطوركم من النطفة إلى المضغة إلى الطفولة فالشباب فالفتوة فالرجولة فالشيخوخة فمفارقة هذه الدنيا ؟

وقل لهم يا محمد أيضا هل يستوى طريق الحق مع طريق الضلال ، مثل طريق النور وطريق الظلام ؟ «أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربّ وتماثله فى الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ فليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شىء ولا يماثله أحد ، ولا ندّ له ولا عدل له ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة »[2] . ﴿ **سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا** ﴾[3] .

(١) لقمان : ٢٥ . (٢) ابن كثير : ٢/ ٥٠٧ . (٣) الإسراء / ٤٣ .

أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

يضرب الله تعالى أمثلة للحق والباطل، ويعقد مقارنة بينهما بأمثلة حياتية نفهمها ونتدبرها. وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه والباطل فى اضمحلاله وفنائه. فيبين الله تعالى أن للباطل زبدا، وهو ما يشبه الرغوة والفقاقيع والنفايات الخفيفة التى من خواصها أن تعوم على وجه الماء، فيقول الحق: أنزل من السماء ماءً فسالت أودية (جمع واد) أى جرت فى الوديان بقدرها، أى بحسب ما يتسع له كل واد من حمل الماء؛ « وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ». بعد ذلك ظهر هذا الزبد على وجه الماء عائما كثيرا لا فائدة فيه غير أنه غثاء ونفايات وعوادم ليس لها عمر، إذْ تضيع فى الجو والهواء. فهذا هو الباطل وما يصير إليه ومنتهاه ومآله، يغرى ويلفت النظر لكنه لا شىء، فهذا زبد. وهناك زبد آخر مثله هو ما يتبقى بعد انصهار الحديد أو النحاس أو الذهب لاستخلاصها وتشكيلها على هيئة حلى أو متاع، فلابد لهذه العملية من زبد يطفو على وجهها يعلوها كما يعلو زبد الأودية على سطحها. فهذان زبدان: زبد الأودية وزبد انصهار تلك الحلى عند تنقيتها. كذلك يضرب الله الحق والباطل « أى إذا اجتمعا، لاثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار، بل يذهب ويضمحل »[1]. وبعد ذلك يعطى الله الصورة الحقيقية المجردة للحق والباطل من خلال الأمثلة السابقة فيقول ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أى يذهب متفرقا متمزقا لا ينفع، بل يصير منثورا متفرقا تنسفه عوامل الجو والرياح ويذهب فى جوانب الوادى مبعثرا، ثم لا يبقى بعد ذلك إلا الماء. كذلك زبد الذهب والفضة يروح ويذهب ولا يبقى إلا المعدن. فذاك هو ما ينفع الناس الذى يبقى ويمكث ويثقل فى الأرض كذلك. « فالباطل وإن علا فى بعض

(١) ابن كثير : ٢ / ٥٠٨ .

الأحوال، فإنه يضحمل كاضمحلال الزَّبد والخَبَث » (١). كذلك يضرب الله الأمثال ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٢).

لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

يخبر تعالى عن مآل السُّعداء والأشقياء . فالحسنى ـ أى الجزاء الحسن ـ للذين استمعوا إلى رسول الله واتبعوه وأطاعوه وأطاعوا الله تعالى و ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (٣). أولئك لهم من الله المثوبة ، ولهم الحسنى وهى الجنة التى وعدها الله المتقين . ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا ✽ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾ (٤) . ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ (٥). أما ﴿ الذين لم يستجيبوا له ﴾ أى لم يطيعوا الله ، فلهم العذاب الأليم يوم القيامة ، ولو استطاعوا ساعتها أن يفتدوا أنفسهم بملء الأرض ذهباً ومثله معه من أموال ومتاع حتى ينجوا بأنفسهم من العذاب : لفعلوا ، ولكن هيهات هيهات !! ولات ساعة مندم !!

إنهم كفروا بربهم ؛ فليس لهم إلا ﴿ سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى لا يستوى من الناس من تحقق صدق ما جئت به يا محمد من عند ربك ، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير لا يفهمه ولاينقاد له . إن الذين يستمعون القرآن فتنفتح له قلوبهم وتنشرح له صدورهم إنما هم الذين لبّوا نداء الرسول وقالوا لربهم بحب﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ هؤلاء هم

(١) القرطبى : ٩ / ٣٠٥. (٢) العنكبوت : ٤٣ . (٣) النساء : ٨٠ .
(٤) الكهف : ٨٧ ، ٨٨ . (٥) يونس : ٢٦ .

أولو الألباب[1] الذين انفتحت قلوبهم ومسامعهم لذكر الله ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ ووفّوا ما عليهم لله سبحانه من صلاة وزكاة وصيام وحج وحسن توحيد وخافوا الله فى كل أمر له ففعلوه وفى كل نهى منه فتجنبوه، فهم ليسوا كالمنافقين إذا عاهد الواحد منهم غدر .

وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

هم أيضا الذين يصلون الأرحام والأقارب والفقراء والمساكين بالنفس والمال، ويحسنون إليهم جميعا، ويخافون الله ويتقونه فى كل تصرفاتهم وأفعالهم، ويخافون عاقبة مخالفة أوامر ربهم وسوء الحساب. ﴿ **والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم** ﴾ على ربط أنفسهم عن الوقوع فى المهالك والمحارم ،ويقبضون على دينهم قبضا محكما ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ،والذين أقاموا الصلاة ولم يضيعوها ولم يؤخروها، وأدوْا الزكاة المفروضة سرًا وعلانية ﴿ **ويدرءون** ﴾ أى يدفعون ويزيلون ويمحون بالعمل الصالح الذى يفعلونه كلَّ سيئ من أعمال سابقة فهم يدفعون « الشر بالخير والمنكر بالمعروف والفحش بالسلام والظلم بالعفو والذنب بالتوبة »[2] . ﴿ **أولئك لهم عقبى الدار** ﴾ وهى الجنة فى الآخرة « يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين،لتقر أعينهم بهم حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من الله وإحسانا من غير تنقيص للأعلى عن درجته»[3]. ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب** ﴾ بالتحية والسلام والتهنئة والخدمة تكرمة لهم

---

(١) قيل إن هذه الآية نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، وأبى جهل لعنه الله، انظر القرطبى : ٩/ ٣٠٧ .

(٢) أقوال أوردها القرطبى : ٩/ ٣١١ .

(٣) ابن كثير : ٢ / ٥١٠ .

وجائزة . (سلام عليكم) بسبب صبركم فى الدنيا على ما لا قيتموه من أذى فى سبيل الله فنعم الدار داركم وهى دار الخلد والنعيم المقيم .

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

درج القرآن الكريم على أنه إذا عدّد صفات أهل الخير والفلاح وسلوكهم القويم أخذ فى وصف أهل المعاصى والتائهين فى منعرجات آثامهم ، وذلك ليبيّن للبشرية الطريقين .

وهنا يعدد صفات أهل الضلال والشقاء بعد أن تكلم فى الآيات السابقة عن صفات أهل الهدى والرشاد . فهؤلاء ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ فهم منافقون ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من الرحم وذوى القربى وأصحاب الحوائج ﴿ويفسدون فى الأرض﴾ بالكفر وارتكاب الآثام والمعاصى أولئك مطرودون من رحمة الله و﴿لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ وهى النار يسحبون فيها على وجوههم .

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتر على من يشاء ، لما له فى ذلك من الحكمة والعدل . إن الذين يركنون إلى غير الله شغلتهم الدنيا وفرحوا بما أوتوا منها ، فانصرفوا لها يجمعونها . وما الحياة الدنيا بالنسبة للأخرة إلا متاع الطعام والثياب وزينة المنزل أو مراكز الدنيا ، وأعلاها الحكم فيها ، وهو إما يزول عن صاحبه أو يزول صاحبه عنه . والويل لمن تولى الحكم فى الدنيا فحكم بغير ما أنزل الله ، إن النار والغسلين فى انتظاره ، حقا ما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع قليل . . !!

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

إنه من جهل الإنسان بربه ورسله يقول ﴿ لولاأنزل عليه آية من ربه ﴾ أى هلا نزلت عليه آية صدق من ربه ومعجزة نصدقه بها . . وكأن القرآن وما فيه من سوْق الآيات ليس بآية أو معجزة !! لكن لشدة جهلهم قالوا ذلك ، وكأنه لا وجود لمحمد فى قلوبهم الذى عاش معهم أربعين سنة قبل النبوة فى كمال وصدق وأمانة حتى لقبوه هم أنفسهم بالصادق الأمين . . !! إنه الكبر البشرى الملوث بظلمة الجاهلية . والحق أن الله يهدى من يشاء بآياته ويعمى عنها من يشاء من الناس . فقل لهم يا محمد : قافلةُ التوحيد ستسير وستؤدى أمانتها ورسالتها ، فقولوا أيها الكافرون ما تريدون ، فذلك ليس بمعطل لمسيرة الموحدين. فسحقا لكم بضلالكم والله ـ سبحانه وتعالى يهدى إليه من يشاء أنصارًا لرسله وورثةً لنبيه الخاتم محمد ـ ﷺ ـ . والذين آمنوا هداهم الله بنوره فارتعدت قلوبهم بذكر الله فهداهم وطمأن قلوبهم ولانت هياكلهم البشرية وهدأت نفوسهم فذهب عنها اضطرابها فثابت واطمأنت ذاكرة الله فى إخبات .

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم : أى[1]: فرح لهم وقرة عين ، كما قال ابن عباس. وعنه أيضا : أنها أرض الجنة بالحبشية .

وقال إبراهيم النخعى : خير لهم ، وعنه أيضا : كرامة من الله لهم .

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة لتبلغهم رسالة الله إليهم ، فإننا كذلك قد أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله رسلاً ، وقد كذبوا من قبلك فلك بهم أسوة، فأحطنا بالمكذبين ودمرناهم تدميرا ، فليحذر من حولك من وقوع النقم فإنهم يكذبونك ، وإن تكذيبهم لأشد من تكذيب غيرك من المرسلين ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ [2].

(١) انظر القرطبى : ٩ / ٣١٦ .

(٢) الأنعام : ٣٤

سوف يكون عذابنا شديدا يا محمد لهؤلاء الذين يكفرون بالرحمن .[1] فقل لهم : إنه هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب أى مرجعى وإنابتى وخضوعى .

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

يخبر الحق بأنه لو كان فى الكتب والقرون الماضية كتاب تسير به الجبال ويجعلها تفسح الطريق للناس، أو يحيى به الموتى ويبعثون من قبورهم، أو تقطع به الأرض وديانا للغرس والزراعة : لكان القرآن الكريم، أولى كتب الله عزّ وجل للقيام بهذه المهمة لما فيه من هدى وإعجاز وبيان شاف للقلوب ، لكن الأمر مرجعه كله لله تعالى فليس ذلك من وظائف القرآن إنما مهمة القرآن أن يهدى ويدعو الناس إلى توحيد الله وعدم الإشراك به . وهذا مدح للقرآن الكريم الذى أنزله الله على محمد ﷺ ، وتفضيل له على سائر الكتب المنزلة قبله .

أفلم يعلم أو يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس كلّهم أجمعين ، ولا تزال بسبب تكذيب الكفار وعنادهم تصيبهم قارعة ـ أى عذاب من السماء ـ تنزل بساحتهم أو بالقرب منهم حتى يأتى وعد الله يوم القيامة إن الله لا يخلف الميعاد .

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

فلا تحزن لما يفعلون يا محمد ،فكم من رسول قبلك كُذِّب من قبل قومه فأنظرتهم وأجلتهم ، ثم أخذتهم بعذاب أليم لم يفلتوا منه . وهذا تسلية للرسول فى تكذيب من كذبه من قومه .

---

(١) كانوا يرفضون ذكر الرحمن الرحيم فى أقوالهم ،ولهذا رفضوها من رسول الله فى صلح الحديبية ،وقالوا ما ندرى ما الرحمن الرحيم .

أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾

الله القائم على كل نفس، فيعلم حوائجها وحقيقتها ، ويجزيها بما عملت من خير أو يعاقبها بما ارتكبت من معصيته ، والذى لا يخفى عليه خافية ، والذى ﴿ **هو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾ أفمن هو كذلك كالأصنام التى يعبدونها لاتسمع ولاتبصر ولا تعقل ولا تملك نفعا أو ضرا لها ولا لعابديها ؟إن هؤلاء يكابرون ويعاندون رسول الله ـ ﷺ ـ ويجعلون لله شركاء ويسمونهم، فقل لهم يا محمد : سمّوا ما شئتم من أحجاركم وأصنامكم ،فلن تغنى عنكم من الله شيئا ، أتدعون لله ما لا يعلمه سبحانه وهو خالق كل الكون ؟ إنه عالم الغيب والظاهر من السموات والأرض وما أخفيتم من القول وما أظهرتم . إن الشيطان زين لكم مكركم وصدكم. عن سبيل الله ، سبيل الحق والنور . فمن يضلل الله فما له من هاد ، بل لهم عذاب أليم فى الحياة الدنيا ،وكذلك لهم فى الآخرة عذاب شاق وصعب ويومها ما لهم من الله من واق أى مانع أو دافع .

۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

إن الجنة التى وعد الله بها المتقون ـ أى الذين صدقوا برسل الله وخاتمهم محمد ـ ﷺ ـ فى هذه الجنة من الثمرات والمطاعم والمشارب بلا انقطاع ولافناء . ﴿ **وفاكهة كثيرة *لا مقطوعة ولاممنوعة** ﴾ .[1] ـ ﴿ **ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا** ﴾ [2]. ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى سارحة فى أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها .

جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .

عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « يأكل أهل الجنة ويشربون

(١)الواقعه : ٣٣ . (٢) الإنسان : ١٤ .

ولايمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم ذلك جشاء كريح المسك ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس » [1].

هذه جنات أعدت للمتقين أكلها دائم وظلها دائم لا ينقطعان وهذه عقبى المتقين . أما عقبى الكافرين النار . فهل يستوى الفريقان ؟ كلا ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾[2].

وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

ومن الذين آتيناهم الكتاب يا محمد من اليهود والنصارى من يفرح وينشرح بما أنزل إليك من القرآن لأنه يشهد على صدق ما هو عندهم من أخبارك وأخبار رسالتك . ومنهم من ينكر بعضه جحودا وحقدا ، ويصرون على أن المسيح ابن الله وعزير ابن الله ، فقل لهؤلاء جميعًا : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه أرجع فى كل أمورى وشئونى .

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

وهكذا أنزلناه إليك ﴿حكما عربيا﴾ أى كتابا جمع أحكام الله وأوامره ونواهيه ، بلسان عربى على رسول عربى . فلا تتبع يا محمد أهواء المشركين ، إنهم أصحاب أهواء وعلل وحاش أن تتبع أهواءهم بعدما جاءك الحق من الله تعالى ، فتضل عن الطريق ، فلا تجد ساعتها ما يدفع عنك عقاب الله وغضبه . وقيل الخطاب للنبى ﷺ والمراد أمته . وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية الشريفة .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾

(١) رواه مسلم فى صحيحه ، وأبو داود والإمام أحمد فى مسنده .　　(٢) الحشر : ٢٠ .

عاب اليهود والنصارى على رسول الله أنه عدّد أزواجه فقال الله تعالى ، ليس محمد بدعا من الرسل ، فقد أرسلنا من قبله رسلا وكان لهؤلاء الرسل أزواج وذرية ، فليس محمد إلا رسولا قد خلت من قبله الرسل ، فإن تزوج فقد تزوج من كانوا قبله وإن عدد زوجاته فبأمر الله له .

يقول القرطبى « هذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه ، وتنهى عن التبتل وهو ترك النكاح » (١).

ثم عاد الله ـ سبحانه وتعالى ليرد عليهم فيما اقترحوه من نزول آيات ﴿ **لولا أنزل عليه آية** ﴾ أو طلبهم من الرسول أن يأتى لهم بمعجزة من عنده فيرد الحق ﴿ **وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله** ﴾ إذ إنه لكل أجل وقضاء عند الله موعد ووقت معلوم .

يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

سبحانه وتعالى ، هو العدل المطلق ، لا يسأل عما يفعل ، وعباده بين يديه يسألون . فهو يثبت ما يشاء من آجال ويمحو ما يشاء أو يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء من كل شىء ، ﴿ **وعنده أم الكتاب** ﴾ أى أصل ما كتبه من آجال وأعمار محفوظ بها كل ما شاء الذى لا يبدل ولا يغير . فهو المتصرف فى حكمه وملكوته كيف يشاء .

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

فإما نرينك يا محمد بعض ما وعدناهم به من الخزى والدمار والخذلان فى الدنيا بمعصيتهم لله ثم بإعراضهم عن بلاغك لهم بالحق ، أو نتوفينك قبل ذلك وقد بلغت رسالتك ، وهذا هو المطلوب منك وعلينا الحساب ، أى حسابهم وجزاؤهم .

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

أو لم ير هؤلاء المنكرون أن الله يأتى بالأرض فيصيبها بنقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض من تحت أقدام الكافرين ؟ فالله يريهم « النقصان فى أمورهم ليعلموا أن

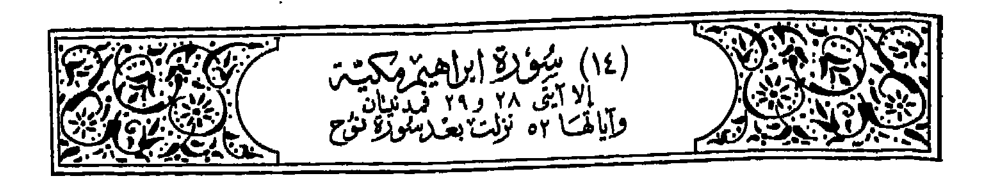
(١) القرطبى : ٩/ ٣٢٧ .

تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز » . والإسلام من ناحية أخرى يسبح ويسطع بنوره وتفتح مكة وهذا هو التفسير الأثرى القديم .

وقد يكون هذا النقصان : مجرد اضمحلال طبقة الأرض من القطبين وانخفاضهما تبعا لطبيعة كونية أرضية، بحيث يبدو منظر كوكب الأرض وكأنه بيضاوى الشكل. وتختلف هذه المناطق عن أخرياتها فى الطبيعة الجوية من برودة وشمس وخلافه، فالأرض منتقصة من الطرفين ، وذلك حسب ما وصل إليه العلم الحديث أخيرا من حقائق.

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

وكم من أمم يا محمد مكرت بأنبيائهم من قبلك وأرادوا إخراجهم من بلادهم ، فلله المكر جميعا يجازيهم به ويقلبه عليهم، فالمكر من الله كما قلنا تدبير وتمكين للمؤمنين وعبرة وعظة وهزيمة للكافرين والخير منه والشر لا يكون إلا بإذنه ، يحيط علمه كل الكون ويعلم ما خفى وما ظهر. ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ ؟ أى لمن الثواب ولمن العقاب وذلك فى الآخرة ، فالعبرة بالخواتيم ، والله ناصر عبده ورسوله ، ومتم نوره، ومخزى الكافرين ، وسيقول لك ﴿ الذين كفروا لست مرسلا ﴾ أى ما أرسلك الله، وما أنت إلا متقول علينا ، وذلك بسبب عدم استجابتك لهم بما يقترحونه عليك ، فقل لهم يا محمد حسبى الله هو الشاهد على وعليكم ؛ شاهد علىّ فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . إن الحق لله يقرره ويقضيه وليس لكم. والله هو الذى أرسلنى رسولا ونبيا وخاتما للأنبياء ، وأنزل علينا كتابا جمع فيه كل ما أنزل على الرسل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كتاب عزيز من رب عزيز يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، وهو سبحانه شهيد بينى وبينكم وسبحانه وتعالى عنده وحده ﴿علم الكتاب﴾ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾

تكلمنا عن الحروف المقطعة ومعانيها فى أول سورة البقرة . هذا كتاب يا محمد أنزلناه إليك وهو (القرآن الكريم) ، لتبين للناس طريق الله ، وتعرِّفهم أن ربهم واحد لا شريك له ، فتخرجهم بذلك من ظلمات الشرك بالله ومعصية أمره إلى طاعته وتوحيده ، وتباعد بينهم وبين الضالين المكذبين برسل الله وكتبه ،حتى يكونوا على صراط الله العزيز أى القاهر لكل ما سواه ، الحميد أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه .

ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

يقرر الله سبحانه أنه هو وحده الذى يملك السموات والأرض وما بينهما وما تحت طبقات الأرض . فالويل لمن لا يتأمل بل ينكر آيات الله ، هؤلاء : ويل لهم من عذاب شديد يوم القيامة .

إنهم أصحاب القلوب المائلة إلى الدنيا ، يقدمونها ويؤثرونها على الآخرة ، ويعملون للدنيا ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ، فقد أنساهم حبُّ الدنيا حبَّ الآخرة .

إنهم أصحاب السبيل المعوج ، يصدون من يريد الاستقامة عن هدفه ، ويحولون بينه وبين الهدى والرشاد ، ويقفون فى وجه كل خيِّر راشد ، ويصدون الناس عن الرسل وتعاليمهم وهدايتهم وطريقهم المستقيم ، أولئك أظلمت قلوبهم ، فهم فى ضلال بعيد .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

إن من رحمة الله تعالى على خلقه ، ولطفه بهم ، أنه يرسل الرسل بلغة أقوامهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم ، حتى لا تكون هناك حجة .

عن أبى ذر قال ، قال : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لم يبعث الله عز وجل نبيا إلا بلغة قومه » [١]. وقد كانت هذه سنته فى خلقه : أنه ما بعث نبيا فى أمة إلا أن يكون بلغتهم ، فاختص كل نبى بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم . لكن الحق ـ سبحانه وتعالى اختص محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعموم الرسالة إلى سائر الناس ، كما قال سبحانه ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا** ﴾ [٢].

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

إن مهمة الرسل واحدة فى كل العصور ، وهى إخراج الناس من ظلمة الكفر بالله والجهل به إلى نور معرفة الله واليقين بوجوده ، سبحانه وتعالى . وتلك المهمة الجليلة أرسل بها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأرسل بها موسى ـ عليه السلام ـ ليخرج قومه من ظلم فرعون وأسره لعلهم يفيئون إلى الله فيستقيمون ويعيشون حياة الإسلام وقد أمر الله موسى أن يذكر بنى إسرائيل بأيّام الله عندهم ، أى « بأياديه ونعمه عليهم فى إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر وتظليله إياهم بالغمام وإنزاله عليهم المنّ والسلوى إلى غير ذلك من النعم » [٣]. ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ صبار حالة الضراء شكور حالة السرّاء .

---

(١)رواه الإمام أحمد فى مسنده ، ورمز له الإمام السيوطى بالصحة فى الجامع الصغير .

(٢)الأعراف : ١٥٨ .　　　(٣)ابن كثير : ٢ / ٥٢٣ .

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ
ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

تمردت بنو إسرائيل على موسى ، فقال لهم اذكروا نعمةالله عليكم لما أنجاكم من آل فرعون الذين كانوا يذبحون أبناءكم الذكور ، ويستبقون الإناث منهم ، وفى ذلك خزى وضياع لكرامتكم . فكونوا عبادا لله شاكرين . ولكن بنى إسرائيل جبلت على الغدر ونكران النعمة ولو شكروا لكان خيرًا لهم .

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى
لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

واذكر إذْ أعلمكم ربكم بأنه إذا شكرتم نعم الله واعترفتم بها وحافظتم عليها قولا وعملا ، ليزيدنكم منها ويبارك فيها . أما إذا جحدتم وكفرتم بى وبنعمى ، فإن عذابى أليم شديد .

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

فالحمد لله الذى لا تنفعه عبادة ، ولا تضره معصية ، فسواء آمنتم أو كفرتم فلن ينفع الله إيمانكم ولن تضره سبحانه معاصيكم حتى ولو كان بعضكم لبعض ظهيرا فالله هو الغنى الحميد أى هو غنى عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفر .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ
بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ
أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ
مُرِيبٍ ﴿٩﴾

إن المتكبرين على الله الذين ردّوا أيديهم فى أفواههم عاضّين عليها من الغيظ ، **﴿وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب﴾** ، أولئك النار مأواهم وبين عرصاتها مثواهم وما هم منها بخارجين . فليهلكوا بشكهم وريبهم تعصر النار أكبادهم فيموتون فيها ويحيون .

۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة ، وذلك أن أممهم لما أنكرت وجود الله فى جحود وغلظة وقسوة قلب ، قالت لهم الرسل : ﴿ أفى الله شك ﴾ ؟ وهو الذى فطر السموات والأرض ، أى خلقها وأبدعها وأوجدها بعد العدم؟ وهو الذى بسط الأرض ورفع فوقها الجبال وشق فيها البحار ؟ : إنه يدعوكم فضلا منه ومنةً إلى طاعته ليغفر لكم ذنوبكم فى الدار الآخرة ويؤخركم لأجل مسمى فى الدنيا .

فما آباؤكم الذين تتمسكون بهم وبمعبوداتهم الباطلة إلا كفار عبدوا الطاغوت فاستحقوا النار فتوبوا إلى الله يغفر الله لكم .

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

لما قالت الأقوام لأنبيائهم، أتريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، قالت لهم الرسل : إنما نحن أنبياء الله وعبيده كُلِّفنا أن نأتى إليكم ندعوكم إليه سبحانه لتوحيده فى ربوبيته لكم ، فلا تشركوا به شيئا ولا تتخذوا معه أوثانا تعبدونها .

وسارت مسيرة الأنبياء داعية إلى توحيد الله ، وتخليص العبودية من غبار الشرك حتى

جاء النبيُّ محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيد البشرية متمماً للمسيرة المباركة للأنبياء ، ومعه القرآن جامعًا مجمل شرائع الأنبياء ، فما كان لنا أيها الجاحدون المنكرون أن نأتيكم بحجة أو آية إلا بإذن الله ومشيئته لأن ذلك ليس فى قدرتنا نحن البشر ، ونحن متوكلون على الله فى كل أفعالنا حق التوكل الذى ينبغى أن يكون عليه المؤمنون .

واعلموا أيها الناس ـ وقد أبيتم أن تعبدوا الله وحده ـ أننا مستعينون به موحدون لذاته العليّة ، وكيف لا نفعل ذلك وقد هدانا ـ سبحانه وتعالى ـ إلى طريق الخير وعرّفنا إلى صفاته ؟ وهذا اجتباء منه وتكريم وسنصبر على إيذائكم لنا ما دام ذلك فى سبيل الله . وعلى الله توكلنا واستعنا . اللهم انصرنا على القوم الظالمين .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى
مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ
مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ
كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾
يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ
بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم ، والنفى من بين أظهرهم . قال الذين كفروا لرسلهم : لن نطيعكم وسنخرجكم من أرضنا إن لم تتركوا ما تدعوننا إليه وتعودوا فى ملتنا وديننا ودين آبائنا . ﴿ **فأوحى إليهم** ﴾ أى إلى الأنبياء ﴿ **ربهم لنهلكن الظالمين** ﴾ ثم لنسكننكم أيها المؤمنون أرضهم من بعدهم ويكون لكم الأمر . وذلك عهدى مع من ﴿ **خاف مقامى وخاف وعيد** ﴾ ، أؤمنهم وأرزقهم امتلاك الأرض والحكم فيها بعد إهلاك الظالمين ومحو آثارهم . وجل قوله تعالى ﴿ **قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ (١) .

فلما اشتد عناد الكافرين لرسلهم ، استفتح هؤلاء الرسل أى لجئوا إلى ربهم

---

(١) الأعراف : ١٢٨ .

مستجيرين به سبحانه أن ينصرهم على المعاندين للحق المجادلين فيه ، أى طلب الرسل من ربهم النصر على الكافرين المعاندين للحق .

وفتح الله عليهم بالنصر ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ . وصار من وراء هؤلاء الكفار ومن أمامهم نار مشتعله بالحجارة وأجساد الكافرين ، وأخذوا يطلبون الشراب لتهدأ النار فى أجوافهم ، فيسقون شرابًا من حميم وغسّاق يسقونه جرعة جرعة لا مرة واحدة فلا يكادون يطيقونه ويبتلعونه ، ويأتيهم الموت من كل مكان من فوقهم وتحتهم وعن يمينهم وعن شمائلهم وكل أنواع العذاب ولكنهم لا يموتون كما قال عز وجل ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ [1].

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح ، فانهارت وعدموها وهم أحوج ما كانوا إليها . فأعمالهم فى الدنيا صارت يوم القيامة ﴿ كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ﴾ أى ذى ريح شديدة عاصفة قوية تهلك أمامها كل شىء ، لا يأخذون ولا ينالون منها شيئا عند الحساب . و ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أى سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم وهم أحوج ما كانوا إليه .

ثم يهدد المولى سبحانه الكفرة المعاندين لرسلهم قائلا :

أليس من السهل على الله سبحانه ـ وهو القادر الذى خلق السموات وما فيها والأرض وما عليها ـ أن يفنيكم ويأتى بخلق جديد غيركم وعلى غير صفتكم ؟ ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أى بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه . فلم لا تعتبرون . . ؟ وجل قوله ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ [2]ـ ﴿ يأيها الذين

---

(١) فاطر : ٣٦ .　　(٢) محمد : ٣٨ .

آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ (١)ـ ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرًا ﴾ (٢) .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

يوم القيامة تبرز الخلائق كلها مجتمعة فى صعيد واحد ، بارها وفاجرها ، لله الواحد القهار ، تستغيث وتستنجد بالله ﴿ فقال الضعفاء ﴾ الذين عصوا الله فى الدنيا وكانوا أتباعا لرؤسائهم وأوليائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن موافقة الرسل : إنا كنّا تابعين لكم فى الدنيا نطيعكم ونسمع كلامكم ونمشى وراءكم ، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه الآن . ﴿ فهل أنتم مغنون عنا ﴾ أى دافعون عنّا شيئا من العذاب ، كما كنتم تعدوننا فى الدنيا وتزينون لنا وتمنون ؟!! فماذا كان ردّهم ؟ ﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم﴾ ما بيدنا شىء ، ولقد حقت كلمة العذاب علينا وعليكم . ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ﴾ ما لنا وإياكم من خلاص أو نجاة من عذاب الله .

ثم يقوم إبليس بعد ذلك خطيبا فيهم ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وحسرة إلى حسرتهم فيقول لهم إن الله تعالى قال لكم الحق أى على ألسنة رسله ، ودعاكم إلى الخير والفلاح فلم تستمعوا له سبحانه ، ودعوتكم أنا إلى الكفر والضلال فأطعتمونى . استمعتم لى ولم تستمعوا لله ، فاليوم تهلكون ولن تجدوا من الله من واف . ﴿ فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾ فلن أغنى عنكم من الله من شىء ، فاليوم ليس للظالمين إلا العذاب الأليم .

---

(١) المائدة : ٥٤ . (٢) النساء : ١٣٣ .

فيا ليت أبناءَ آدمَ تصحو ضمائرهم وهم لا يزالون فى الدنيا ، فيعادوا الشيطان وأهله ويصالحوا الرحمن ، فتكون توبتهم مقبوله ورحمة الله عامة عليهم فى كل وقت وحين .

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾

بعد أن عرض علينا المولى موقف الظالمين فى النار ، عرض سبحانه موقف الصالحين فى الجنة فقال ﴿ **وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات** ﴾ لا جنة واحدة ، ولكن جنات كثيرة ، وفى تلك الجنات أنهار جارية حيث ساروا وأين ساروا ، ونعيم ورحمات من الله كثيرة . وفى نعيم الجنة حياة خالدة باقية لا تزول . خلود مبارك ﴿ **بإذن ربهم** ﴾ ورضاه وحبه وعفوه تمر عليهم الملائكة بالسلام ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ [١].

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

هذه الآيات توضح ما يصير إليه حال السعداء بما عقلوا من الحق ، فقد ضرب الله مثلا هنا للكلمة الطيبة ، ليبين إلى أى مدى يؤتى الإيمان ثمارا طيبة فى قلب المؤمن . والكلمة الطيبة يقصد بها هنا كلمة التوحيد تلك التى ينطق بها الإنسان خالصةً من قلبه (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله) . تلك الكلمة هى عمدة التوحيد ، والطريق إلى الجنة . إن صدق بها قلب المسلم فاكتسب بها فهم الأركان الخمسة ـ وهى عمدة هذه الأركان ـ فأدى هذه الأركان بفهم عقل وتصديق قلب ، واحتواها بروحه ، فإنه يغدو فى حضرة الحق عبدا ربانيا ربته الكلمة الطيبة صاحبة الأصل الثابت والفرع الواصل إلى السماء ، فصار كالشجرة الطيبة أصلها ثابت متين وفرعها عالٍ فى السماء

---

(١) الرعد : ٢٤ .

تؤتى أكلها كل حين . وهكذا المؤمن يعطى فى كل وقت ، متصل بالله فى كل حين ، قلبه حى دائما نابض يقظ ينفع ولا يضر يؤتى ثماره الخيّرة الطيبة .

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

ينتقل بنا الحق إلى المثل المواجه لتلك الدوحة بأهلها المصطفين الأخيار الأبرار ، وهو مثل مغاير تماما . إنه مثل لكلمة خبيثة ﴿ **كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض** ﴾ ليس لها من قرار أى أصل ترتكز عليه . إنها شىء ضائع ليس له معالم وليس له أساس . ﴿ **اجتثت** ﴾ أى استؤصلت . « كذاك الكفر لا أصل له ولا فرع ولا يصعد للكافر عمل ولا يتُقبل منه شىء »[1]. والله العزيز الحكيم يثبت أولياءه وعباده على الحق فى الدنيا وفى الآخرة ، أما الظالمون فلا ثبات لهم ، بل هم فى ضلال ، وهذه حكمة الله تعالى فى خلقه ، إذْ هو يفعل ما يشاء .

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

إنهم جهلوا الحقيقة ، وعميت قلوبهم ، فبدل أن يشكروا نعمة الله فيؤمنوا به ويعزروه ويوقروه حادوا عن صراطه المستقيم ، وخالفوا أمره ، وكفروا بنعمته ، وأضلوا قومهم ولم يصدقوهم النصيحة فأحلوهم دار البوار والفناء فكانت جهنم لهم مستقرا ومستودعا ، يعذبون فيها عذابا شديدا غير منقطع ، فبئس القرار قرارهم .

إن الظالمين الكفار جعلوا لله أندادا ونظراء وشركاء ، وذلك خسران مبين وما فعلوا ذلك إلا ليضلوا الناس عن طريق الله وعن سبيله المستقيم المؤدى للخير ، وليضلوا

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٥٣١ .

أتباعهم وأنصارهم عن سبيل الله . فقل لهم يا رسول الله تمتعوا بكفركم وماتستطيعون فعله : افعلوه، وتمتعوا به ، فإنه متاع قليل ومصيركم إلى النار ومرجعكم ومآلكم إلى جهنم . ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ (١) .

قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

قل يا محمد لعبادى ، الذين شهدوا لى بالربوبية ولك بالنبوة والرسالة ، أطيعوا الله وقوموا بحقه ، والإحسان إلى خلقه ، بأن تقيموا الصلاة خالصة لوجه الله العزيز الحكيم، فالصلاة عماد الإسلام. أقيموها خالصةً وحافظوا على مواقيتها وحدودها . وقل لهم أن ينفقوا من أموالهم سرًا وعلانية، لوجه الله وحده لا يرجون بها ينفقـون شهرة فى الناس ، ولكن رجاءً فى الله وحبا فى مرضاته ورجاءً لمغفرته . فليسارعوا فى الخيرات ﴿من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ أى من قبل أن يأتى يوم القيامة الذى لا تقبل فيه شفاعة ولا فدية من أحد لنفسه يفدى بها نفسه ، والذى « ليس (فيه) مخالَّة خليل ، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته ، بل هناك العدل والقسط» (١).

ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يعدد نعمه على خلقه ، فهو لا إله غيره ولا معبود سواه بحق، قيوم السموات والأرض ، خلق كل شيء فأبدع خلقه . رفع السماء بلا عمد

---

(١) لقمان : ٢٤ .

(٢) ابن كثير : ٢ / ٥٣٩ .

وبسط الأرض وشق فيها أنهارها وبحارها ورفع جبالها . سبحانه خلق السموات والأرض وما فيهما . ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع . وهو الذى أجرى الفلك فى البحار ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقا للعباد من شرب وسقى وغير ذلك من المنافع . وكل شىء عنده بمقدار لا إله إلا هو .

وهو الذى سخر الشمس والقمر ، مستمرين فى فلك سيار ، لا الليل يدرك النهار ولا النهار مدرك الليل ، وكلاهما فى فلك واحد يسبحون فيه بأمر الله . ليل تسكنون فيه للراحة والهدوء والصفاء ونهار لتبتغوا فيه من فضل الله .

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم ، فضلاً عن القيام بشكرها . فقد أعطى الإنسان كل حاجته فى الدنيا من قبل أن يسأله ، وما سأله أعطاه. كذلك جعل عطاءاته للإنسان حسب حاجته . وأعطاه بغير سؤال لأنه سبحانه خالقه وأعلم منه بحاجته . فسواء سأل الإنسان ربّه أم لم يسأله ، فهو معطيه كل ضرورات حياته ، ومسخر له كل قوى الطبيعة ، وخلق فيه حكمة تصريفها ، وركّب فيه وفى فطرته وطبيعته قدرةً على استخدام البحار والهواء والريح والكهرباء والغوص فى طبقات الأرض والتحليق والاختراق لطبقات الجو . ونعم الله غير ذلك لا يقدر على إحصائها أحد ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفّار ﴾ .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ
ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ
عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ
عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ
وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ
وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ
لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

«يذكر تعالى فى هذا المقام ، محتجا على مشركى العرب ، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه وآهلة ، تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن فقال ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا ﴾ »[1]. أى اجعل مكة بلدا آمنا لا يسفك فيه دم ولا يقع فيه ظلم لأى أحد، ولا يصطاد طيره ولا يقطع شجره . وفعلا استجاب الحق له فقال ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ﴾ الآية [2]. ثم دعا إبراهيم ربه أن يجنبه هو وبنيه أن يعبدوا الأصنام «وينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته » [3] بناء على هذه الآية . ثم تبرأ إبراهيم بعد ذلك ممن عبد الأصنام ، وذكر أن هناك خلائق كثيرين من الناس افتتنوا بهذه الأصنام وعبدوها ، وتبرأ ممن اتبعها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم . أما من اتبعه فإنه من إبراهيم على دين الإسلام .

ثم رفع إبراهيم دعاءً ثانيا إلى ربه بعد الدعاء الأول ، إذْ طلب من ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إلى هذا البيت ليقيموا الصلاة حوله ويتعبدوا . وارزقهم يا رب من الثمرات لأنه واد غير ذى زرع وغير خصب . وقد حقق الله دعوة إبراهيم بقوله سبحانه ﴿أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ﴾ [4]. ثم قال إنك يا ربنا تعلم السر والعلن من الدعاء وغيره ، وليس شىء خافيا عنك سبحانك علام الغيوب . كل ما فى الأرض أنت تعلمه وكل ما فى السموات أنت تدريه . ثم يشكر الله ويحمده على نعمته عليه بأن رزقه من الولد بعد الكبر ، فرزقه إسماعيل من هاجر وإسحاق من العاقر العجوز سارة. سلام الله عليهم أجمعين . إنك سبحانك تستمع لعبدك بقدر إخلاصه ، وفوق ذلك تفضلا منك وعطاء على غير استحقاق . ثم يختتم إبراهيم مناجاته لربه داعيا ضارعا فى عبودية خاشعة ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ﴾ أى واجعلهم هم الآخرين كذلك مقيمين للصلاة مثلى . ﴿ ربنا وتقبل دعاء* ربنا اغفر لى ولوالدى ﴾ ـ وذلك قبل أن يتبرأ من أبيه ويعلم أنه عدو لله ـ ﴿ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾.

---

(١) ابن كثير : ٢/ ٥٤٠ .

(٢) العنكبوت : ٦٧ .

(٣) ابن كثير : ٢/ ٥٤٠ .

(٤) القصص : ٥٧ .

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

لا تحسبن الله يامحمد ، إذا أنظر الظالمين وأجلهم ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على صنعهم ؛ بل هو يحصى ذلك عليهم ويعده عدًّا . «وهذا تسلية للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن أخبره عن أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ، أى اصبرْ كما صبر إبراهيم ، وأعلِمْ المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنّة الله إمهالُ العصاة مدة »[1] إلى يوم ﴿تشخص فيه الأبصار﴾ أى لا تغمض أبدا من شدة هول ما ترى يوم القيامة . ثم ذكر تعالى كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر ، فقال ﴿ مهطعين ﴾ أى مسرعين ، ﴿ مقنعى رءوسهم ﴾ رافعين إياها ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أى أبصارهم ظاهرة شاخصة يديمون النظر لا يطرفون لحظة ، فلا ترجع نظراتهم إلى عادتها من شدة الهول والذلّ ، أفئدتهم خاوية خربة من كل خير.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

إنك مكلف يا محمد بإنذار الناس جميعا بأن الله خالقهم سبحانه ، وسيأتيهم يوم شديد يُسألون فيه عن رسلهم وما أرسلوا به إليهم ، فلم يعتبروا ببلاغ رسلهم إليهم . ولكن يوم يرون العذاب والبعث والسؤال والحساب يسألون الله أن يؤخرهم ﴿ إلى أجل

---

(١) القرطبى : ٩/ ٣٧٦ .

قريب ﴾ ليستعيدوا النظر ويتبعوا الرسل . وهذا لا يغنى عنهم يومئذ من الله من شىء ، فهم كمن قال ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ﴾ (١). وجل قوله تعالى : ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ (٢). ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ﴾ وهذا قول الملائكة لهم ﴿ ما لكم من زوال ﴾ أى من رجوع مرة أخرى إلى الدنيا ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ . (٣) هذا يوم يقال لهم فيه ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ (٤). فمهما اعتذرتم وتعذرتم بقولكم ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ (٥) . فاليوم ﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ (٦).

وقد عدد الله تعالى جرائم الذين ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لله ، فلم تأخذهم العبرة إذْ قال لقد سكنتم فى مساكن الظالمين ، وفعلتم فعلهم ، وقد شاهدتم ما فعل الله بهم من إهلاك وعذاب ، وضربنا لكم أمثالاً كثيرة لتحذروا مسيرتهم وتجتنبوا طريقهم ، فلم تفعلوا . فاليوم لا تلوموا إلا أنفسكم .

لقد مكر الكافرون والظالمون بأصحاب الدعوات وبالأنبياء والرسل ودبروا لهم ما تصوروا ، من جهلهم ، أنه يصرفهم عن الحق ، ولكن أهل الحق فى معية الله سبحانه يحتملون فى سبيله مظالم المفترين سواء كانوا من الحكام أو من عملائهم . فالحاكم الظالم يظن بجهله أنه يفعل ، ولكن الشيطان يزين له ، والله مطلع على ما يفعل الظالمون حكاما أو محكومين . وكم من ظالم انتهت حياته بعبر لمن يتعظ .

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

فلا تحسبوا أيها الناس أن الله مخلف وعده لرسله ، كلا . إنه سبحانه لا يخلف وعدًا وعده رسله أو خلقه ، فالنار لمن عصى والجنة لمن اتقى ، فاحذروا معصيته . إنه سبحانه عزيز ذو انتقام . وهذا تقرير وتوكيد من الله تعالى لوعده .

---

(١) المؤمنون : ٩٩ .
(٢) الأنعام : ٢٧ .
(٣) المرسلات : ٣٥ ـ ٣٦ .
(٤) المؤمنون : ١٠٨ .
(٥) السجدة : ١٢ .
(٦) السجدة : ١٤ .

سورة إبراهيم

يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى
ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ
وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

اذكر لهم يا محمد هذا اليوم الذى تبدل فيه الأرض غير الأرض ، وتبرز الخلائق أى تخرج كلها من قبورها لله . والمجرمون يؤمئذ مشدود بعضهم إلى بعض ، أرجلهم مع أيديهم ، مشدودون فى أصفاء وقيود وحلقات من حديد مُحمى عليها فى النار ، ملابسهم من قطران وهو شىء سريع الاشتعال يشبه النحاس المذاب تضرب وجوههم النار فتغشيها .

هؤلاء الكافرون برسل الله وكتبه والمعطلون لدين الله وأحكامه والمحاربون للدعاة إلى الله ، والمعذبون لأهل الدعوة ، هؤلاء الظالمون لهم فى الآخرة عذاب عظيم ، كما سبق، بسبب محاربتهم لله ولرسوله والمؤمنين ﴿ **ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب** ﴾ .

إن القرآن الكريم أنزله الله سبحانه وتعالى بلاغًا للناس . وهل هناك بلاغ أقوى من بلاغ القرآن ؟ وأى بلاغ يبلغ من الحق ما بلغ القرآن ؟ وأى بلاغ يبلغ نوره ما بلغ نور القرآن ؟ وأى هداية تساوى هداية القرآن ؟ إنه بلاغ الله إلى خلقه . فمن اتعظ بها أُنذر وحُذر كان من الناجين ، ومن استمع القرآن ولم يتدبر فقد أهلك نفسه ! إنه بلاغ للناس! فطوبى لمن خاف أمره فأطاع الله وحفظ حدوده فأقامها وراجع سنة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففسر القرآن بها وأقامها به وأقامه بها ! فهى بيانه الأمين وتفسيره الواضح . وسبحانه من إله واحد ! ولن يستطيع أن يذكر آيات الله ويتعرف عليها إلا أولو الألباب ! وهم الذين قالوا ﴿ **ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ .

رقم الإيداع ٧٥٣٦/ ٩٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0129 - 5

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣